في شمال غرب الجزيرة

نصوص - مشاهدات - انطباعات

تأليف

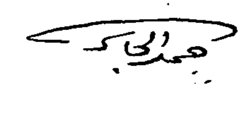
حمد الجاسر

الطبعـــة الأولى

١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م



قمت برحلات في شمال الجزيرة وجنوبها وغربها وشرقها ، وكنت سجلت بعض ملاحظاتي ، ثم رأيت نشر ما سجلت في كتاب أدعوه: «رحلات في بلادنا» ولكنني بعدما شرعت في طبع هذا الكتاب اتسع الموضوع امامي إتساعاً دفعني إلى تجزئة الكتاب ، وإلى تسمية كل جزء باسم خاص الصق بموضوعه ، واوضح دلالة على محتواه ، فكان أول تلك الاجزاء هذا ، وسيتلوه جزء آخر باسم «في سراة غامد وزهران» ولا أدري متى يتسنَّى طبع هذا مع بقية الأجزاء وغيرها من مؤلفات تتعلق بجزيرة العرب مما هو معد للنشر متى تهيأت وسائله ؟!



فهرس موضوعات الكتاب العامة

(الفهـارس المفصلة في آخر الكتاب)

١ – وادي السرحان قريات الملح ص ١ – ٩٦

صفحة

٢ – الجوف (دومة الجندل) ٩٦ – ١٦٦

صفحة

صفحة

٥ – تيماء وآثارها ٣٢١ – ٤٢٠

٦ – بين تبوك وعمّان ٤٢١ – ٤٧١

٧ – معجم المواضع ٤٧٢ – ٦١٧

٢ ــ الصور والرسوم

صفحة

صفحة

صفحة



(١) يعرف قديماً باسم الخبء .

٣ ــ المصورات الجغرافية (الخرائط)



أخطاء طباعية

[يرجى تصحيحها قبل قراءة الكتاب]

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤١	٥	الدولة	الرولة
٥٤	٨	الفرفر	القرقر
٥٦	الأخير	مصطفى جواد	جواد علي
٥٩	١٧	لابن حُزم	لابن حَزم
٦٠	١١	مُصَرَ	مُضَر
١٤٠	٥	حميرا	حُميرا (١)
١٤١	٢	َقرادن	قـُرادان
١٤٩	حاشية ٢	المحبر	المنمق
١٦٢	٨	أبو قضي	أبو قصر
١٧٥	٣/٥	حجتها	خجَّتها
١٧٩	٤	ثنية وكوبة	ثنية ركوبة
١٨٦	١٠	بيار علي	أبيار علي
١٨٦	١٢	قاع البيزوة	قاع البزوة
١٩٥	٦	حُسنى	حَسنى
٢٠٢	٩	على	الى

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٠٦	٦	الخريبة	البريكة
٢٥١	١١	بن المعرور	بن معرور
٢٦٣	٤	يزيد بن ثابت	زيد بن ثابت
٢٧٥	١٣	بأنه قاصاً	بأن كان قاصا
٢٩٧	٣	الخط وحمى	الخط او حمى
٣١٠	حاشية ٢	قلب بلاد العرب	« قلب جزيرة العرب »
٣٣٥	١٤	ابن قطنة	بن قطبة
٣٤٦	٩	والمسبب	المسيب
٣٥٨	١	تياه	تياء
٣٧٣	٤	البيق	الطبيق
٣٩٠	٩	ورا	وراء
٤١٨	حاشية ١	ابو يزيد البلحي	أبو زيد البلخي
٤٢٤	١٩	الغربض	الغُرَيِّض
٤٢٩	٢	الملدة	البلدة
٤٢٩	١٣	الحثما	الخثما
٤٧٣	٤	وادي وحقل	وادي حقل
٤٩٢	١٧	بطن بيسان	بطن نيان
٤٩٦	١٦	الاصمعي	عن الاصمعي
٤٩٦	٢٢	الأهل	ألا َهل
٥٠٠	١٠	٢٠ عرضا	٢٧ عرضا
٥٠٠	٢	المدسة	المندسة
٥٠٥	١	للب	كلب
٥٠٩	٩	الارص	الارض
٥١٠	١٩	الاستاذ صالح	الاستاذ سليمان بن صالح

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥١٣	١٨	واد مخيط	وادي مخيط
٥١٩	٢١	حضوض حضوض	حضوض
٥٢٠	١٤	ورمل	وهو رمل
٥٣٥	٢٠	لقرية النبك	لقرية كاف
٥٣٦	١٥	موضع تيماء	موضع بتيماء
٥٥٤	١٤/١٣	ذي الحليفة	الحليفة
٥٦١	٢٢	حدودة	حدود
٥٧٣	١٥	الشعبان	الشبعان
٥٧٦	٣	الضائي	الطائي
٥٧٦	١٤	عيناً	عَيْنَا
٦٠١	٥	النباح	النباج
٦٠٣	١	عينوتا	عينونا
٦٠٥	حاشية ٢	اسعجم	استعجم
٦٠٧	١٣	واد	وادي

وهناك أخطاء لا تخفى على فطنة القاريء الكريم ، فمعذرة .



وادي السِّرحان (قُرَيّات المِلْح)

رحلات في بلادنا
-١-

مقدمة

لا تزال بلادنا بحاجة لدراسة متعددة النواحي ، ذلك أنها مهد العرب ، ومنها نبغ الشعراء الذين كان شعرهم المعين الأول لتدوين اللغة العربية ، وفي فيافيها وقفارها جرى للعرب جولات وتنقلات وحروب ، سجلها الشعر العربي مرتبطة بأماكن حوادثها ، وكل ذلك كان في عصور ما قبل الاسلام .

ولما بدأ التدوين في القرن الثاني الهجري ، وكان من أول ما عني به اللغة للاستعانة بها على فهم القرآن الكريم ، وكان جل المؤلفين في ذلك العهد – إن لم يكن كلهم – من أهل الحواضر البعيدة عن الجزيرة كدمشق وبغداد والبصرة والكوفة ، فكانوا يتلقفون كثيراً من علومهم عن الاعراب الذين كانوا يفدون الى تلك الحواضر، والأعراب طباعهم كطباع سائر البشر ، منهم الطيب وفيهم غيره، ومنهم من يتصف بالصدق ، وبينهم من تدفعه الحاجة إلى التقوُّل والتمَحُّل ، ولا يستطيع المدونون للأخبار واللغة في ذلك العهد التمييز الذي يمكنهم من الوصول إلى حقيقة ما يبتغون ، ومن ثَمَّ زخرت المؤلفات العربية القديمة بمختلف الآراء والأقوال ، من صحيح وضعيف ، ومقبول ومرذول ، ولا ينفي هذا ان من بين المؤلفين من رحل الى البادية ليستقصي الحقيقة ، غير أن طبيعة البلاد في ذلك العهد ، وطغيان النفوذ القبلي في أنحاء الجزيرة من الأسباب التي لا تمكن الباحث من التوَغُّل في وسط الجزيرة بَلْهَ جوانبها وأطرافها البعيدة ، ولهذا كانت الرحلات تقتصر على البوادي القريبة من الحواضر حيثما كان الحكم إذ ذاك يسيطر عليها سيطرة

تجعلها آمنة ، وتمكن من زارها من الاستفادة من سكانها استفادة مهما بلغت فإنها ناقصة نقصاً لا يدركه إلا من تعمق في دراسة ما أُثر عن متقدمي المؤلفين .

وهناك ظروف خاصة مكنت بعضهم من التجوال في أقسام واسعة من شرق الجزيرة كما حدث للأزهريّ مؤلف كتاب « التهذيب » فمعلوماته عن البلاد التي كان القرامطة يسيطرون عليها في عهده معلومات على درجة كبيرة من الصحة ، ولكنه عندما يخرج عن ذلك لا يكاد يبصر موضع قدمه ، وثمّة طائفة من البدو يفدون على المدن فيتصلون بالعلماء والباحثين فيمدونهم بمعلومات جيدة عن أماكن عشيرتهم كما نجد أمثلة ذلك فيما جاء في كتاب « بلاد العرب » الذي نسبناه للأصبهاني وإن كان أصله مما أثر عن الأصمعي ، وأيّا كان الأمر ، فإن أصول ذلك الكتاب ليست لهذا ولا لذاك ، وإنما هي لأعراب من أهل البادية حاول كثير منهم تقديم معلومات صحيحة عن بلاده ، ونجد مثل ذلك في كتاب الزمخشري « الجبال والمياه » فيما نقل عن شيخه الشريف السيد عُليّ بن وَهّاس الحسني المكي تلميذه وشيخه في آن واحد ، فإن ما جاء عن هذا العالم الحجازي على درجة كبيرة من الصحة ، قلّ أن نجدها عند غيره وهو بدوي حضري عاش الحالتين واُكتسب من ذلك خبرة واسعة تحمل على الثقة بكل ما يرويه عن الأمكنة الحجازية .

أما أبو علي الهجري فإنه يعتبر فذّاً في هذه الناحية ، ذلك أنه حاول أن يسجل ما يستطيع تسجيله من لغة أهل الجزيرة وأدبهم ، وشعرهم وأنسابهم ، وتحديد مواضعهم ، تسجيلاً يقوم على أساس الرواية الصحيحة لا طريقة النّقل من الكتب ، ولهذا جاءت معلوماته التي وصلت الينا من أقوى المعلومات وأصحها ، غير أن مما يؤسف حقاً أن كل ما سجله من معلومات لم يصل إلينا حتى الآن .

وسقى الله ضرائح علماء الأندلس بصيّب الرحمة والغفران ، فبواسطتهم

عرفنا الهجري وعرفنا الكثير من أخباره ، كما عرفنا أخبار علماء آخرين عن طريقهم وحدهم ممن عني بالجزيرة أدباً وتاريخاً وتحديد مواقع ، كأبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني لسان أهل اليمن ، ومؤلف « صفة جزيرة العرب » و « الإكليل » و « الجوهرتين » وغيرها من المؤلفات . فقد عرفه الأندلسيون قبل أن يعرفه المشارقة ، واستفادوا من كتبه كما استفادوا من كتب الهجري ، قبل أن يستفيد منها غيرهم ، ممن أصبحوا فيما بعد عالة على علماء الأندلس في معرفة هذين الرجلين ، والهمداني ممن لا يخفى فضله ولا ينكر علمه ، وكتابه « صفة جزيرة العرب » أهم أثر خلفه لنا المتقدمون في تحديد معالم الجزيرة ، وهو في الوقت نفسه من تلاميذ الهجري ، كما أوضحنا ذلك في كتابنا عن الهجري ، أما مـــا عدا جنوب الجزيرة فإن الهمداني يعتبر جماعاً نقالاً أكثر منه محققاً ، وباستثناء ما نقله عن شيخه اليشكري النجدي وعما استفاده من الهجري مما لم يصرح بذكر الاستفادة منه ، فإن كتابته عن الجزيرة هي أقرب إلى الجمع والخلط بدون تحقيق ، وتعمق في الدراسة ، ذلك أنـــه فيما يظهر لم يتجاوز بلاده اليمن التي أوفاها حقها ، وكتب عنها ما لا نجده في أي كتاب وصل إلينا .

أما المؤلفات التي كانت غايتها النقل مما أثر عن المتقدمين فهي وإن جمعت علما غزيراً إلا أنها أضافت إلى ذلك أشياء مشوشة مضطربة ، لا يصح الاعتماد على كثير مما جاء فيها بدون تحقيق، ومن أمثلة ذلك ما جاء في كتاب نصر بن الرحمن الاسكندري «الأمكنة والمياه والجبال» ومن بعده كتاب « الأماكن» للحازمي وغيرهمـــا ممن ضمه المعجم الحافل الذي جمع لنا كثيراً من العلم مما لو فقدناه لفقدنا علماً غزيراً ، وهو كتاب « معجم البلدان » ومؤلفه العالم الجليل ياقوت الرومي الحموي بذل قُصارى جهده ليجمع ما استطاع جمعه ، في وقت زخرت الخزانة العربية بمئات الآلاف من المؤلفات التي قضت عليها ثورة التـَتـَار فأفقدتنا أصولها ، ولولا هذا المعجم لم نعرف شيئاً عنها ،فطيب الله ثرى ياقوت ، وأجزل له المثوبة ، غير أن كتابه لا يصح أن يتخذ أساساً

في تحديد مواقع الجزيرة ولكنه صالح للاقتباس وللاستفادة ، وللرجوع إليه للاستئناس بما فيه من نقول متعددة عن كتب ذات قيمة كبيرة أصبح كثير منها مفقوداً ، ولن يضير الحموي وصف أصوله بالتحريف والتصحيف ، فقد اعترف بذلك ، ولن يضيره عندما يحدد الموضع أن يحدده بأقوال مختلفة متضاربة ويضيفه إلى قبائل متباعدة ، فمن شأن القبائل أن تستعمل الاسم الواحد لعدة مسميات ، ومن شأن الرواة أن يتزيدوا ، ومن شأن التصحيف ان يكون عاملاً قوياً في اعجام الاسم وإبهامه ، وخاصة في كتب وصفها ياقوت نفسه بأنها غير محررة ولا صحيحة .

وقبل الحموي ألف أبو عبيد البكري الأندلسي كتابه العظيم « معجم ما استعجم» حاوياً كثيراً من النصوص القديمة، من شعر ونثر ، غير ان حظ هذا الكتاب من التصحيف والتحريف كان بدرجة سيئة حقاً ، ولا بدع فالرجل يعيش بعيداً عن جزيرة العرب ، وينقل عن مؤلفات غير محررة ولا متقنة ، وكتابه وان حوى نصوصاً قيمة، ونقولاً واسعة عن مؤلفات مفقودة إلا أنه يعوزه التحقيق والضبط الصحيح ، ولا نكون مغالين عندما نقول بأن «معجم ما استعجم» للبكري كتاب من أهم المصادر في دراسة جغرافية الجزيرة حوى نصوصاً كثيرة، ولكنها غير محررة ولا مصححة ، وليس المقام مقام إيضاح ما في هذا الكتاب من الاغلاط الفظيعة وإنما المقام مقام عرض لما أُلف عن الجزيرة .

هذا عرض موجز لأهم ما أُثر عن المتقدمين من دراسات مواضع الجزيرة وتحقيق الأمكنة فيها ، اريد أن أخلص منه الى القول بأن بلادنا لا تزال بكراً من هذه الناحية ، وأنها بحاجة إلى دراسة لا يفي بها جهد الفرد مهما بلغ من قوة .

ثم لأنتقل من ذلك إلى ما أنا بصدده .

لقد قمت بجولات طويلة قطعت فيها آلاف الأميال لا مئاتهـــا في شرق الجزيرة وفي وسطها وفي شمالها وفي غربها وفي جنوبها خرجت من كل ذلـــك بملاحظات منها :

١ — كثير من معالم الجزيرة لا يزال مجهولاً ، ومنها ما يقوم عليه الشعر العربي فهماً ودراسة محققة ، فهناك آلاف المواضع ولا أقول مئاتها لم يرد لها ذكر فيها بين أيدينا من كتب الامكنة .

وما ذاك إلا لأن الرواة لم ينقلوا شيئاً عنها ، وان المؤلفين لم يصلوهـا ، ومع ذلك فمنها ما هو مذكور في الشعر العربي القديم ومنها ما لم يذكر وهي من الأسماء القديمة التي لا يمكن ان تكون مما أحدثه المتأخرون ، ونجد امثلة لذلك فيما سيمر بالقـــارىء الكريم من أسماء جبال وقرى وأودية في سراة الحجاز .

٢ — يضطرب تحديد المتقدمين لمواضع وردت في الشعر القديم اضطراباً يقف منه الباحث موقف الحيرة ، بسبب تضارب الاقوال ، ولو تمكن من التنقل الواسع في الجزيرة لخرج من هذه الحيرة ، ولا استطاع أن يحدد الموقع تحديداً صحيحاً .

٣ — عُني المتقدمون بايراد اقوال مختلفة متضاربة في تحديد موقع مـا ، فهناك من يقول : إنه في بلاد بني فلان ، وآخر يخالف هذا القول ، وثالث يبعد الشقة ، ولم يلاحظ كثير من المتقدمين من المؤلفين ان الاسم الواحد قد يطلق على مسميات عديدة ، ولم يدرك بعضهم ان القبائل من طبيعتها نقـل كثير من اسماء بلادها المحبوبة إلى اماكن اخرى ، ومن ثم نجد الخطأ الفظيع في تحديد المواضع .

٤ — هناك أسماء تشترك في صفاتها من حيث التسمية ومن عادة العرب تسمية الموضع بصفة قريبة من طبيعته ، ومن هنا نشأ اطلاق الاسم الواحـد على مسميات مختلفة ، تتصف بصفة واحدة ، وان كانت المواقع متباعدة ، وهذا مما لم يلحظه كثير من المؤلفين .

٥ – هناك أسماء كثيرة أوردها المتقدمون محرفة مصحفة ، وعذرهم في ذلك انهم ينقلون عن كتب ألفت في أول العهد الذي بـدأ فيه التأليف العربي ، ومؤلفو ذلك العهد لا يعنون كثيراً بضبط الأسم ، ومن هنـا نشأ التحريف والتصحيف، وعن هذين نشأ الغلط مما لم يدركه المؤلفون المتأخرون يضاف الى كل ذلك بُعد مؤلفي معجمات الأمكنة عن جزيرة العرب .

* * *

هذه قد تكون أهم الأسباب التي أوقعت الحيرة في تحديـد كثير من الأمكنة وهي حيرة لا يمكن التخلص منها الا بزيارة المواضع ومشاهدتها عن كثب ، وتحديدها بعد تلك المشاهدة ، وهما امران لم يتسَنَ للمتقدمين القيام بها ، وأعتقد أنه ليس من السهل لأي فرد مهما بلغ قـدرة ، القيام بذلك وإنما هو مما يجب ان تتكاتف على القيام به جماعات كثيرة،فالجزيرة بلاد فسيحة، متباعدة الأطراف ، واسعة الأرجاء . أقول ما تقدم لكي أخلص إلى أن الجزيرة في مختلف ارجائها لم تزل بحاجة إلى الدراسة إذا أردنا ان نفهم الشعر العربي القديم فهماً صحيحاً ، وأنـى لنا بذلك ما لم تتوافر الجهود ؟!

إن على كل فرد من المعنيين بدراسة أحـوال الجزيرة واجبا نحو بلاده وأمته ، أمـا كيف يقوم بهذا الواجب ومتى؟ فإن الأمر يتعلق بالمقدرة والاستطاعة مضافاً إليهما الاخلاص لهذه البلاد بدرجة تحمل على بذل الجهد ، ولا يضير المرء بعد ذلك إذا لم يكن عمله بالغاً الدرجة المتوخاة وإنما يُلام على التقصير .

ولقد قمت بجولات في كثير من أنحـاء الجزيرة، فقد زرت شمال الحجاز ثلاث مرات فيما بين سنتي ١٣٦٧ و ١٣٩٠ شاهدت في تلك الجهة أهم المواقع الأثرية في الشمال من حدود الاردن فتبوك فالعُلا فالمدينة ، ثم من المدينة إلى خيبر ومـا حولها راجعاً إلى المدينة ، سالكا طريق الحج القديم إلى حايل ، ثم من المدينة إلى خيبر فتيماء فتبوك، وزرت في الآونة الأخيرة وادي السرحان والجوف تمهيداً لما كنت قد شرعت باعداده من وضع قسم من « المعجم الجغرافي

الحديث للمملكة العربية السعودية » وشاهدت في خلال رحلاتي الثلاث أشياء عنيت بتسجيلها، وإن لم تكن داخلة ضمن القسم الذي عنيت بتدوينه من «المعجم الجغرافي » إذ الأخ الصديق الدكتور عبد الله الوهيبي كفاني مؤونة الكتابة عن القسم المتعلق بشمال الحجاز من المعجم ، غير أنني رأيت أن هناك بعض المواضع التي ورد لها ذكر في الشعر القديم هُيِّىء لي أن مررت بها أو عرفتها فحددت مواضعها وأحببت أن أسجل ما شاهدت مما في تسجيله فائدة ، وأن أقدم للقارىء ما قد يفيده من ذلك، ومنه ما عولت فيه على ما كتبته من القسم المتعلق بالمعجم ومنه ما هو خارج عنه ، وأخشى أن يفوت من يريد الكتابة لما يتعلق بذلك من المعجم ، وهو في الوقت نفسه يفيد من يعنون بدراسة الشعر العربي القديم وتحديد مواضعه .

ومن الأمثلة : (الاشمذان) و (الصلصلة) و (جفر عَنَزَة) و (يُمن) و (ثجْر) و (نيّان) وغيرها من مواضع أخرى وصفتها وحددت مواقعها تحديداً دقيقاً .

ورأيت أثناء رحلاتي مواضع كثيرة لم يوفها المتقدمون حقّها من التحديد في جنوب الحجاز مثل : (أبيدة) و (ثرُوْق) و(بُقران) وهي مواضع أثرية قديمة وردت كثيراً في الشعر القديم ، واضطربت أقوال المتقدمين في تحديدها فحاولت أن أوضح ما أعرف عنها، معرفة قائمة على أساس المشاهدة، ولقد قال المتقدمون: (ما راءٍ كَمَنْ سَمِع) وحقّاً، فإن الرؤية والمشاهدة تمكنان المرء مما لا يستطيع غيره أن يدركه .

ويحسن هنا أن أشير إلى أمر من أكثر ما يعترض الباحث – أيّاً كان مبلغه من العلم – ذلك هو الوقوع في الخطأ ، وليس من العيب على المرء أن يقول: أخطأت والصواب كذا، وإنما العيب ان يخطىء ثم يحاول الإصرار على الظهور بمظهر المتَمَعْلِم ، أي المتكلف للعلم ، وهو الجاهل حقاً ، ذلك أن العلم أوسع من أن يحيط به أيُّ انسان على ظهر البسيطة، والجهل من الصفات الإنسانية ، التي لا يمكن ان ينزه عنها المرء مهما بلغ من درجات العلم ، وخير

للباحث أن يقول : لقد أخطأت والصواب كذا وكذا .من أن يقال له: لقد أخطأت ، ورأي المرء من حقه الخاص قبل أن يذيعه بين الملأ ، وبعد إذاعته يصبح عرضة بل يصبح حقاً مشاعاً ، وقديماً قالوا : (الحق ضالّة المؤمن) أي إن الحق هو كل ما يبتغيه كل انسان يثق بعلمه وبنفسه ثقـــة تحمله على الاطمئنان، لهذا فإنني منذ اصبحت أدرك هذا صرت أعتقد ان كلمة :(لقد اخطأت) هي خير لي من كلمات الثناء ذلك انني اعرف نفسي حق المعرفة وأعرف مقدار ما اتصف بهمنالعلم معرفة تجعلني أتطلب المزيد وأقنع بما لدي، ولا أستفيد من كلمات الثناء والتقدير أية فائدة بخلاف الارشاد إلى الخطإ .

ولقد حاولت بما سأقدمه للقـارىء من معلومات قد يستفيد منها أن أحرص لكي أوفي ما أتحدث عنه حقه من الايضاح ، في حدود ما أمكنتني المصادر التي بين يدي ، وما كان من أثر مشاهـدتي ، وهي مشاهدة في كثير من الأحيان تكون ناقصة ، ولكن من أعطاك ما يملك لم يبخل عليك ، وفي هذه المعلومات :

١ – تسجيل موجز لمشاهداتي عن الأمكنـة التي مررت بها ، وفي ذلك التسجيل بعض آراء استنتجتها ولا أقول بأنها صحيحة من كل وجه، ولكنني أعتقد صحتها حسب علمي .

٢ – حاولت أن أورد كثيراً من أقوال المتقدمين المتعلقة بوصف المواضع وتحديدها، وقد يكون فيما أُورد من التكرار ما لا يستسيغه القاريء، ذلك ان المتقدمين ينقل بعضهم عن بعض ، وقد يضيف أحـدهم إضافة ذات قيمة على ايجازها ، والباحث يود الاطلاع على كل ما يستطيع الاطـلاع عليه مما يتعلق بموضوع بحثه .

٣ – هناك مواضع أوشكت أن تكون مجهولة ولكنها ذكرت في الشعر العربي القديم،وقد حرصت على إيراد كل ما عرفت منها مما قرب من الأمكنة التي زرتها لكي يستفيد دارسو الشعر معرفة تحديد الموضع .

٤ – وهناك مواضع اخرى قريبة من المواضع المعروفة غير انها لا تزال

مجهولة وقد وردت في اقوال المتقدمين أو أشعارهم وقد رأيت ذكرها ، فقد يوجد من بين الباحثين أو القراء في عصرنا من يهتدي إلى تحديدها ومعرفة موقعها ، وقد يكون من بينها ما هو وارد في النقوش او الكتابات القديمة مما قد يعين دارسي الآثار .

٥ – حاولت أن أذكر الاسم الحديث للموضع القديم مثل جبل تيماء ، وقد كان يعرف باسم(حدد) ويدعى الآن جبل غنيم – بضم العين وفتح النون.

٦ – حاولت إصلاح بعض أخطاء في معلومات جغرافية (خرائط) وهي التي طبعت في بضع وعشرين خريطة ، بعنوان (أبحاث جيولوجية مختلفة) من قبل وزارة النفط والثروة المعدنية .

وبالإجمال فقد حاولت أن أقدم للقارىء خلاصة وافية مما بين يدي من المؤلفات القديمة أو الحديثة ، وهي مؤلفات على درجة من الكثرة قد لا يتسنى جمعها لكل قارىء .

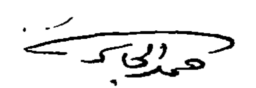
ولقد عولت – أكثر ما عولت – في تحديد مواضع شمال الجزيرة على الجزء الذي خصصته عن هذا القسم من بلادنا في كتاب « المعجم الجغرافي الحديث » الذي ألجأتني ظروف خاصة أرجو أن لا يطول أثرها إلى تأجيل نشره .

لقد قمت برحلات عديدة في أنحاء بلادنا وقطعت بواسطة السيارة آلاف الأميال في أوقات مختلفة ورأيت من العبث ألا يكون لهذه الرحلات من الاثر ما لا يستفاد منه ، ومن ثم ازمعت تسجيلها مضيفاً إليها معلومات أوردتها كاملة بنصوصها من كتب معروفة قد لا يتسنى لكل قارىء الاطلاع عليها وأضفت إليها مشاهدات من حقي أن أدونها وأسجلها ، ومن حق القارىء أن يرى رأيه فيها وقد لا يروقه منها ما يتعلق بي غير أنني وجدت نفسي في حرج إذا لم أفصح بكل ما أرى الافصاح به لازماً ، ومن ذلك ما قد يتعلق بانطباعات خاصة عن أناس أولوني من كرمهم وحسن استقبالهم ما جعلني أعتقد أن من كفران النعمة عدم ذكرهم ، وأقولها كلمة حق : إن

كل بلدة مررت بها، أو أقمت فيها ، قد لقيت فيها من حسن الاستقبال وكرم الوفادة ما جعلني أتضاءل أمام ذلك ، وأعبر عن عجزي عن إيفائه حقه من الشكر . ولا غرو فأنا أجول في بلادي وبين أهلي وعشيرتي، وهذا شيء يجب الاعتراف به وان لا يحمل على محمل آخر – أعني ما عبرت عنه من شكر وثناء – أما الجمل القصيرة التي تحدثت فيها حديثاً قد يضيق بعض القراء به ذرعاً لصلته الخاصة بي فعذري في ايرادها هو من الأمور الطبيعية التي لا تحتاج إلى إيضاح ومن ذا الذي يستطيع التخلي عن نفسه ؟!

أما متى وكيف والى أي حد تنتهي هـــذه الرحلات؟ فكل ذلك مما لا أستطيع ايضاحه ، ولكنني أرجو ان يوفق الله كثيراً من المعنيين بدراسات أحوال بلادنا على اختلافها حتى نتمكن من خــلال تلك الدراسات من إبراز مختلف أوجه الحياة في هذه البلاد بالصورة التي يجدها الباحث كاملة من جميع حالاتها ونواحيها .

ومن المدرك بداهة أن كل الأمور تنشأ يسيرة صغيرة ثم تبلغ حدّ النموّ فالتكامل ، متى استمر لها السعي المتواصـــل ، والعمل الدائب من ذوي الاختصاص والمعرفة ، المتصفين بما يجب ان يتصف به كل ذي غيرة ومحبـــة وحرص على أن تظهر بلاده بمظهر الوضوح ، وان يجد كل مَعْنيٍّ بدراستها في كل ناحية من نواحيها ما تتوق إليه نفسه ، وما يتطلع إليه فكره ، وما على المرء اذا بذل جهده من ملام ، فالعمـــل خير كله مهما اعتوره من نقص ، والكسل شر كله مهما اتّصف به أي انسان . وبعد ذلك وقبله فالكمال لمن اتصف بالكمال .



السُّبَلَةُ أو الكويت !!

في صباح يوم الخميس الثالث من شهر صفر ١٣٩٠ (٩ نيسان ١٩٧٠) خرجت من منزلي ، بعد أن ودعت أمَّ محمد وأبناءها وداع مقبل على سفر ، وسألتني : إلى أين ؟ فقلت : والله لا أدري ! ولكن كما يقال في المثل النجدي : (السُّبَلَة أو الكويت !!) ، أي انني سأسافر على ما أظن إحدى سفرتين طويلة أو قصيرة ، وأصل المثل : أن رجلاً من أهل بلدة الزُّلفي خرج في الصباح من أهله ، وقال لهم : أنا ذاهب إلى السبلة أو الكويت ، وأهلِ الزلفي ممن عرفوا بالمغامرة وإطالة الاسفار ، ومضى لهم زمن كانوا من أشهر أهل الجزيرة ، وأكثرهم في الأسفار إلى البلاد الخارجية ، وعرفوا بأنهم من أقوى المشتغلين بنقل البضائع من موانىء شرق الجزيرة ، كالكويت والعُقير والقطيف إلى وسطها ، فكان الواحد منهم يتسهل السفر إلى تلك الجهات ، كما وقع لذلك الرجل الذي لا يفرق بين الذهاب إلى روضة السبلة ، الواقعة بجوار الزلفي ، والتي حدثت فيها في ٢٠ شوال سنة ١٣٤٧ وقعة السبلة المعروفة ، لا يفرق بين الذهاب اليها وبين السفر إلى الكويت على الخليج العربي ، وهو يبعد عن الزلفي مئات الأميال .

ذهبت إلى مكتبي في بناية العازارية المعروفة في قلب مدينة بيروت ، وبقيت فيه حتى فرغت من عملي ، وقد قاربت الساعة الثالثة بعد الظهر ، فخرجت وركبت سيارة متجهة إلى دمشق .

وصلت دمشق الساعة الخامسة بعد الظهر من ذلك اليوم وأمضيت الهزيع الأول من الليل في منزل الصديق الاستاذ احمد راتب النفاخ في سمر أدبي ممتع يرتاده كثير من علماء الشام وأدبائـه ، وممن اجتمعت به في تلك الليلة أخونا الاستاذ الدكتور سهيل زكار ، وقد عاد من لندن حديثاً ، بعد اكمال دراسته الجامعية ، وكان مما تناوله الحديث المخطوطات ، فذكر أنه أحضر معه كتاباً قديماً عن القرامطة ألفه ثابت بن قرة الصـابي ، وقام الاستاذ بتحقيقه ، ورأيت معه بعض الكراريس المطبوعة منه ، طالعتها فوجدت أنها لا تضيف جديداً على ما في تاريخ ابن جرير الطبري ، سوى ما قال الاستاذ زكار بأنه أضافه من كتاب تاريخ حلب لابن العديم . وعلى ذكر القرامطة ، فقد صدر في تلك الأيام عنهم كتابان :

١ - القرامطة : تأليف الإمام عبد الرحمن بن الجوزي ، وتحقيق الاستاذ محمد الصباغ ، وقد طبع في منشورات (المكتب الاسلامي) وهـذا الكتاب منتزع من كتاب « المنتظم » لابن الجوزي ، وهو كتاب معروف ، ومعروفة نظرة ابن الجوزي وغيره من العلماء إلى القرامطة .

٢ - القرامطة أصلهم ، نشأتهم ، تاريخهم ، حروبهم ، ومؤلف هذا الكتاب هو الاستاذ عارف تامر ، وهو باحث معاصر ، وهو بالنسبة إلى ابن الجوزي على طرفي نقيض ، ولهـذا فإن الدارس لتاريخ القرامطة في رأيي ينبغي أن يكون ذا إلمام تام بالكتب الثلاثة ، وبغيرها من المؤلفات ، لكي يصبح ذا فكرة صحيحة عن هذه الفرقة .

وفي الساعة السابعة من صباح يوم السبت ٥ صفر ، كان السفر من دمشق إلى عمان ، فكان الوصول إلى مدينـة دَرْعا - وهي المعروفة قديماً باسم أذْرعات - في الساعة الثامنة والنصف ، ولم يطل البقاء فيها إلا بمقدار اجراء سمات جوازات السفر ، ومن ثم استمر السير إلى مدينة (الرمثة) في الحدود الاردنية ، واستلزم الأمر التريث بما يقارب نصف الساعة لمنح سمات الجوازات ولتفتيش الحقائب والأمتعة .

ومن الرمثة إلى عمَّان استغرق السير ما يقرب من ساعة حيث كان الوصول الساعة العاشرة والنصف .

لقد استغرقت الرحلة بين دمشق وعمان ثلاث ساعات ونصفاً مع أن السير بين المدينتين يستغرق وقتاً أطول من الوقت الذي استغرقه سفري، ولكن سائق السيارة كان يسير بسرعة قوية جداً ، وكان معروفاً لدى موظفي الحدود السورية ، فلم يتريث لديهم .

ولقد كان السكن في فندق من فنادق الدرجة الثالثة يدعى فندق السياحة ، ذكره لي شاب كان معي في الرحلة من طلاب كلية الشريعة في دمشق ، ومن مدينة العقبة ، فأثنى على نظافة الفندق ومناسبة أجرة السكن فيه ، غير أنني بعد أن وصلت اليه متعباً اضطررت للبقاء فيه ، اضطراراً لا اختياراً .

وأمضيتها أمسية مريحة عندما زارني أحد ابنائي الاستاذ ابراهيم بن عبدالله ابن عمار ، ملحقنا الثقافي في عمان ، وكنت اعرف والده الشيخ عبد الله بن ابراهيم بن عمار حق المعرفة ، وبينه وبين جدي لأمي علي بن عبدالله بن سالم رحمهما الله – صداقة قوية ، كان من أثرها انني عندما قدمت مكة ، في ذي الحجة سنة ١٣٤٨ ه ، أوصلني إلى الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ – رحمه الله – وكان رئيس القضاة في ذلك العهد، حتى قويت صلتي بالشيخ ، وعينني في أول وظيفة رسمية وهي وظيفة (امام مسجد أبي قبيس) !! وامامة المساجد كانت مرتبطة بمديرية الأوقاف العامة ، ويتولاها إذ ذاك الشيخ محمد ماجد الكردي – رحمه الله – إلا ان الشيخ ابن حسن – رحمه الله – كانت له الهيمنة الكاملة ، على جميع الشؤون الدينية .

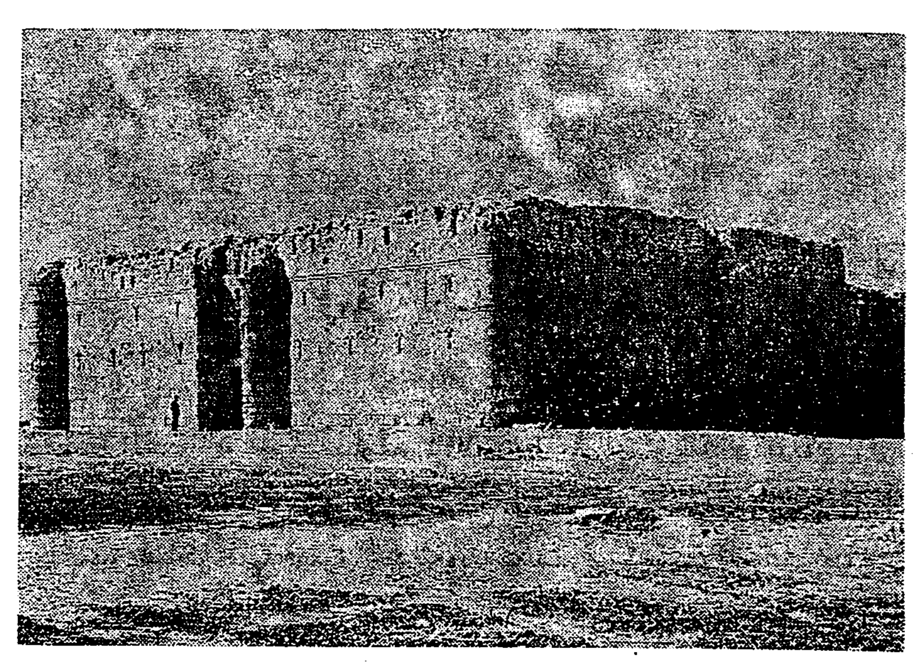
❃

من عَمَّان إلى القريَّات

وفي صبيحة يوم الأحد ٦ صفر ١٣٩٠ (١٢ نيسان ١٩٧٠) في الساعة الحادية عشرة صباحاً كان الاتجاه إلى قريات الملح، ولما لم أجد رفقة، اضطررت إلى استئجار سيارة صغيرة ، والأجرة ١٢ ديناراً أردنيا ، وكان اسم السائق حسناً يحمل على التفاؤل فهو جابر بن سعد .

وبعد المسير ما يقارب نصف ساعة كان الوصول إلى مكان يسمى الموَقَّر ، وفيه مخفر لشرطة البادية ، فأضاف أصحابه إلى السيارة راكبين جديدين ، وكان ذلك بطيب نفس مني ، وبعد قطع مسافة تقارب الـ ٧٠ كيلاً من عمان، كان الوصول إلى قصر أثري يدعى قصر الحرّانة ، مررنا به مروراً ، ولم استطع النزول عنده ، لوجود الجنديين التابعين لشرطة البادية ، خوفاً من استغرابها أو اعتراضها ، فاكتفيت بأن قلت للسائق : اقرب من القصر لنسلم من الغبار ، وكان الطريق غير معبد منذ أن قطعنا ما يقارب ٢٠ كيلاً من عمان ، واكتفيت بالقاء نظرة خارجية على القصر الذي يرجع تاريخ بنائه إلى سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) ، وأردت التعلل للنزول عنده للتزود من الماء ، ولكن اللذين معي قالا : لا يوجد هنا ماء .

وعندما قطعنا ١٢٦ كيلا من عمان ، كان الوصول إلى محل يُدعى (العُمَري) فيه بئر ارتوازية ، ماؤها مقبول ، وان لم يكن عذباً وفيه مخفر من شرطة البادية ، يقيمون في خيام ، وهو آخر المخافر الأردنية .



[قصر الحرّانة]

لم أشاهد منذ أن خرجت من عمان حتى وصلت أولى قريات القريات ، بعد الذي،ذكرت شيئاً من القرى او المناهل، ولكنني رايت على يمين الطريق، وعلى مسافة ليست بعيدة منه ،مخيماً وآلات حديثة من آلات التنقيب عما في باطن الأرض،وسيارات كثيرة ، سألت مرافقي عنها فقالوا : إنها شركة تنقب عن النفط ولها مركز في هذه الناحية ، وقد حفرت عدداً من الآبار في هذه الجهات ، ولم يبد بعد مما أعلنته الشركة أي أثر يدل على العثور على النفط ولكن العمل قائماً على قدم وساق .

وعندما استغربت انني لم أشاهد في هذه الأرض التي مررنا بها أحداً من البادية علمت بأن جل السكان قد تحولوا إلى شمال المملكة إذ هذه البلاد لا تزال مجدبة ، والأمطار التي نزلت في هذا العام قليلة ، وما أشد فرحي عندما قال لي أحد مرافقي من شرطة البادية بأنه لا تزال عشيرته تقيم فيجهات الجوف ، وأردف قائلاً :(حنا واياكم اخوان) فأجبته: ومن يشك في هذا!.

في قرية الحَديثة

وعندما بلغ عداد السيارة الرقم ١٤٤ من الأكيال ، كان الوصول إلى قرية (الحَديثة) ، أولى قرى القريات ، وتقع في سفح وادٍ منخفض ، إلا أن أول ما يبدو للناظر فيها قصور حديثة بنيت فوق تلٍّ مرتفع يشرف على القرية ، أحدها قصر بني بالحجر بناية جيدة ، ويحله عدد من الجند للقيام بالإشراف على القادمين إلى المملكة ، وفي هذا القصر لاسلكي ،والبناية الثانية، بناية على الطراز الحديث للجوازات ، وبقربها بناية كبيرة خصصت لتكون مستشفى .

أما القرية فتبعد عن هذه البنايات بما يقارب الكيلين ، وبيوتها قليلة ، مبنية من الطين واللبن ، وفيها مدرسة عدد طلابها وقت مروري بها ٣٧ تلميذاً ، وتقع في منخفض من الأرض .

كان الوصول إلى قرية الحديثة فيما بين الظهر والعصر ، فلما بلغنا القصر ، وقفنا عنده ، فدعا الحارس رجلاً من داخل القصر ، فلما وصل إلينا ، أمر بانزال ما في السيارة من أمتعة ، ولم يكن فيها سوى حقيبتي الصغيرة التي تحوي قليلاً من الكتب والأوراق الخاصة ، وملابس غير جديدة ، فطلب فتحها ، ولما فتحتها ورأى الكتب والأوراق في أعلا الحقيبة أدخل يديه في أسفلها ، وأخرج كتباً ، ومصورات جغرافية (خرائط) ، وبعض أجزاء من مجلة « العرب » ، ثم أخذ يسجل عناوين الكتب والمجلات والمصورات

الجغرافية (الخرائط) ، وكانت حرارة الشمس شديدة ، زادهـــا شدة في نفسي ما رأيته من عمل المفتش ، لأنني كنت قد رتبت بعض الأوراق الخاصة وبعض الكتب التي أحتاج إلى الرجوع اليها في بعض ما أكتب ، إلا أن أخانا الكريم غيَّرها وجعل عاليها سافلها ، فكان هذا مما حملني على الذهاب إلى ظلال القصر ، وهو قريب من موقف السيارة، غير انه رام مني الاستمرار في الوقوف عنده، وهو جالس يؤدي واجبه في تفتيش الحقيبة ، فــأظهرت حاجتي للجلوس في الظلال ، وأبحت له التصرف في الحقيبة كيفما شاء ، وإن لم يكن في حاجة إلى مثل هذه الإباحة ، وأكـــدت له أنه لن يجد فيها أيّ شيء محذور .

لا داعي للإطالة، فالأخ المفتش واسمه سليّم يؤدي عمله في حدود ما لديه من أنظمة ، وإذن فلا عتب عليه ، وإن كان الأمر فضلاً عما أثار في النفس من ألم ، قد أضاع وقتاً طويلاً بحيث لم أغادر القصر إلا بعـد مضي ما يقرب من ساعتين ، والظاهر أن الأخ المفتش اتصل هاتفياً بالقريات بعد أن عرف اسمي ، وبعد أن اطلع على ما كان في حقيبتي من أوراق وكتب استكثرها واستغربها .



في بلدة النَّبْك

كان الوصول الى بلدة النبك قاعدة القريات عند غروب الشمس ، وكانت المسافة بين النبك وعمان ١٦١ كيلا ، منها ٢٦ كيلا من عمـــان الى الموقـّر ، معبدة مبلطة ، وما عداها فطريق وعث : رمـــال ومجاري أودية وتلاع ، ومنخفضات قد خدَّها السيل ذات حفر عميقـــة ، وآكام صخرية ، وأرض خشناء عندما تسير السيارة فوقها تترنح وتهتز كاهتزاز من أصابته الـبُـرَ ْداء .

لا يوجد في بلدة النبك مكان ينزله المسافرون ، وقـــد اعتدت دائماً ألا أكون كلاًّ على غيري وقديماً قيل: « ربَّ ضـــارة نافعة » وهكذا كان ، فإن عدم العثور على مكان للسكن دفعـــني الى استضـافة أمير المقاطعة ، فأمرت السائق بالتوجه الى قصر الامارة ، وعند بابـــه نزلت ، ووضعت الحقيبة ، وتقدمت إلى الشرطي ليخبر بأن في الباب ضيفاً ، وسرعان ما عاد ومعــــه رجل حمل الحقيبة ، ودعاني للسير معه إلى داخـــل القصر ثم إلى مجلس واسع ، وما استقر بي الجلوس فيه إلا والقهوة والشاي والترحيب من وجوه سمحة ، كل ذلك يقدم لي ، فأحسست بكثير من الراحة ، وزال عني ما ساور نفسي من تعب وارهاق من جراء ما لقيته من شدة السير ووعورة الطريق وغيرهما.



الأمير الطيب الذكر

يقول المتنبي :

عمر الفتى ذكره الثاني ، وحاجته ماقاته ، وفضول العيش اشغَالُ

وحقاً ، فإن المرء يعيش بذكره الطيب ، وبأفعاله الحسنة ، وهكذا حال الأمير عبد العزيز بن أحمد السديري — رحمه الله — فقد انتهى عمره المقدر له بحساب السنين وبقي ذكره ، وأقولها كلمة صريحة ، فقد أصبح في غنى عن الثناء عليه ، وأصبحت لست بحاجة إلى التزلف بالثناء عليه ، وانما أقولها كلمة حق : هي أن أول ما يجده زائر هذه البلاد فيها من مظاهر تقدم وحياة يرجع كل ذلك لحكمة هذا الأمير المصلح الكبير ، فلقد كانت صلاته بمؤسس هذه المملكة ، وبأبنائه وبرجال دولته ، كانت على درجة من القوة ، بحيث استطاع أن يعمل ما لم يعمله أمراء كثيرون ، تولوا ادارة هذه الجهات ، فلم يبق لهم من الأثر الطيب ما بقي لهذا الأمير العامل ، ولئن كانت تلك الصلة القوية لها من الأثر ما مكن صاحبها من العمل إلا أن الرجل يتصف بصفات أخرى قل أن توجد في غيره من الأمراء ، إنه لم يكن على درجة قوية من العلم ، إلا أنه كان يتصف بميزات مكنته من أن يعمل عملا باقياً خالدا ، ولا أقول : بأن فضل كل ذلك يعود إليه وحده ، فإن رجال الدولة المصلحين الذين آزروه ومكنوه من العمل ، وهيأوا له ذلك ، لهم حقهم من الفضل ، وهو النصيب الأوفر ، وكما جاء في الأثر : « الدال على

الخير كفاعله » فقد كان دالاً وفاعلاً ، وموجّهاً ، وناصحاً ، ومن هنا نالت هذه البلاد من أسباب التقدم في مختلف وسائل الحياة ما لم ينله كثير من أقطار المملكة .

١ — لقد قام الأمير عبد العزيز السديري بتنظيم الشؤون الإدارية في هذه البلاد ، حينما كان يتولى ادارة الشؤون الشمالية ، فأنشأ عدداً من القصور والمخافر المتاخمة للحدود الأردنية ، بحيث برزت بصورة تتلاءم مع ما يجب أن يعتبر مظهراً من مظاهر دولة فتية قوية ، تسعى للتقدم والرقي ما أمكنها السعي .

٢ — قام بالسعي لإصلاح الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في المنطقـــة ، فبعد ان كانت قاعدتها قرية صغيرة، واقعة في منخفض من الأرض ، تحيط به السبخات، والمياه الراكدة ، وفي مكان ضيق موبوء بكثرة البعوض، نقلها إلى مكان ملائم ، لتكون قاعدة متصفة بخير ما تتصف به مدينة ناشئة ، قابلة للتطور مع تطور الحياة ، فنقل القاعدة من قرية (كاف) إلى(النَّبْك) ذات الموقع الحسن ، وأنشأ في هذه قصراً يحوي مختلف دوائر الدولة الرسمية من إمارة وشرطة ومالية وبريد ولاسلكي وغيرها ، وأوجد بجوار ذلك مختلف المرافق الحيوية، فبنى جامعاً ضخماً ، ومدرسة وإدارة للبلدية وغيرها، أي إن الدولة قامت بذلك في عهد امارته ، وبتوجيه واقتراح ومشورة منه .

٣ — رأى أن أكثر السكان يعيشون عيشة بدوية متعرضين لقسوة الحياة في كثير من الأوقات حينما يعم الجـدب البلاد ، وتصـــاب الماشية بمختلف الأمراض ، فرأى ان العلاج الناجع لذلـك نقلهـم إلى طور آخر من أطوار الحياة هو طور التحضر ، وسكنى القرى والاشتغال بالفلاحة ، فسعى لدى الحكومة حتى تمكن من إنشاء (مشروع انعاش البادية) وهذا المشروع يقوم على تقديم آلات الزراعة الحديثـة ، والأمكنة الصالحـــة ، مجاناً لأناس لا

يستطيعون دفع الثمن ، فكان أول رجل قام بهذا المشروع الحيوي الجليل ، وهو مشروع أولاه الكثير من اهتمامه ورعايته،إلا أنه -مع الأسف الشديد- مات بموته ، لأسباب تحتاج الى ما لا يتسع هذا المقام لايضاحه .

٤ - أدرك هذا الأمير ان نصف الأمة لا يزال مشلول الحركة والنشاط، محروماً من التعلم ، والعلم هو أساس الحياة،فبذل من السعي المتواصل، والجهد المضني الشاق ، ما مكنه من انشاء أول مدرسة للبنات لا في البلاد التي يتولى ادارة أمورها ، بل في المملكة كلها .

لا أطيل في ذكر أعمال هذا الرجل ، ولكنني أكتفي بالاشارة إلى أن الدولة قد رأت من إخلاصه ونشاطه ما يؤهله لأن يصبح في مجال أرحب ، وان يشرف على عمل أعم نفعاً ، فكان ان عين وزيراً للزراعة، ومن المعروف ان كل مشروع مهما كان قوياً ومفيداً ونافعاً ، إذا فقد منشئه ومؤسسه يعتوره الضعف ثم الخلل ، وهكذا كانت الحال في كثير من مشروعات الأمير عبد العزيز السديري ، غير أن الله تدارك الكثير منها ، حينما خلفه في عمله في ادارة هذه الادارة أبناء له نجباء تحلوا بكثير من الصفات الكريمة .

لقد كانت رؤيتي لهذا الأمير الجليل في حياتي مرة واحدة ، جاءت عرضاً ، وهي أنني عندما أسندت إلي وظيفة (إدارة التعليم في نجد) في آخر حياة الإمام عبد العزيز-رحمه الله- كنت قدمت طلباً بفتح مدارس لتعليم البنات ، فعُرِض الطلب على جلالته - رحمه الله - وكان الأمير عبدالعزيز وأخوه الأمير خالد من بين الحضور عند عرض ذلك الطلب فأبديا فيما بلغني من التحبيذ ما جعل الملك عبد العزيز يظهر استحساناً ، دفع الأميرين إلى أن أبرقا إلي قائلين : نبشرك بنجاح الطلب . وبعد ذلك بزمن اضطررت الى السفر أثناء العطلة الصيفية للعلاج في بيروت ، وذات يوم وكنت خارجاً الساعة الثالثة ، من مطعم في (ساحة الشهداء) ما شعرت إلا برجلين يحتضنني أحدهما مسلماً قائلاً : هذا الأمير عبد العزيز ؛

فرأيت رجلاً سمح الخلق ، طيب النفس ، بشوشاً ، نحيف الجسم ، تبدو على محياه آثار التعب والإرهاق ، بادرني بقوله : لقــد تم الموضوع بالنسبة إلى إنشاء مدرسة عندنا في القريات بعد جدال عنيف مع الشيخ فلان ، ولكن طويل العمر الله يحفظه موافق ، وإن شاء الله سيصبح الأمر شاملاً ، تعـال معنا عندنا صاحبك خالد الفرج !! غير أنني اعتذرت لظروف خــاصة ، وكانت الأولى والأخيرة لمشاهدتي لهذا الرجل ، وكما يقال : (الأمور مرهونة بأوقاتها) . فإذا كان لنا أن نذكر بمزيد الثناء والتقدير من كان السبب في إيجاد مئات المدارس للفتيات في عصرنا وهو مليكنا فيصل المفدى ، فإننـا نذكر هذا الرجل الذي كانت له يد كريمة – يجب أن تذكر فتشكر– وكان من أثر تلك اليــد أن رأينا فضليات الفتيات السديريات من أوائل فتياتنـا ثقافة ومعرفة .



من أعمال الأمير عبد العزيز السديري وأبنائه (بإيجاز)

١ – في سنة ١٣٥٧ تم نقل دوائر الحكومة من قرية كاف إلى النبك .
٢ – في سنة ١٣٧١ أُسست بلدية النبك .
٣ – في سنة ١٣٧٣ أُسست أول مدرسة في المنطقة الشمالية للبنات .
٤ – في سنة ١٣٧٤ أسس صندوق البر والإحسان في القريات ، وبلغ مجموع النقود التي جمعت ٧٢١٩٣ ريالاً .
٥ – في سنة ١٣٧٦ أُسس أول ملعب رياضي كبير في بلدة النبك .
٦ – في سنة ١٣٨١ تأسست الجمعية التعاونية المتعددة الأغراض في القريات .

لقد خلف الأمير عبد العزيز في منصبه ابنه الأمير عبد الله، وقد سار على نهج والده الإصلاحي فبذل جهداً مشكوراً في تنمية مشروعات والده الاصلاحية ، وفي توسيعها . وأنشأ الجمعية التعاونية ذات الأثر القوي في حياة أهل بلدة النبك ، غير انه لم يطل به المقام إذ نقل الى وظيفة وكيل وزارة شؤون البلديات في الرياض ، فخلفه أخوه الأمير سلطان ويعاونه شقيقه الأمير نايف ، وهما شابان فاضلان درسا دراسة جامعية في خارج البلاد ، وأصبحا يسعيان ما أمكنهما السعي ، لكي تصبح هذه البلاد التي سعدت بولاية والدهما على درجة من التقدم والرقي .

في بلدة (كاف) قاعدة القريات

انه استطراد لا بد منه لمن يريد أن يدرك أو يحاول إدراك ما كانت عليه هذه البلادفي ماضيهاوما بلغته فيحاضرها،ومايرجى أنتصل إليه فيمستقبلها.

لم أطعم شيئاً بعـــد الذي تناولته في أثناء الطريق من فاكهة كنت أحضرتها من عمان ، ولهذا كنت في حالة كحالة موسى - عليه السلام - حينما قال : « رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير » ومع أن عامل القهوة كان كريماً ، أنست بـــه وأنس بي واستفضنا في الحديث استفاضة جعلته لا يكف عن تقديم القهوة لي ثم يعقبها بالشاي ثم يعقب الشاي بالقهوة ، وهكذا ، حتى حانت صلاة العشاء فصليناها جماعة داخل القصر ، وصلى بنا إمامه ويدعى ابن خميس ، وبعد الصلاة بقيت في المسجد وهو في حوش القصر غير مبني ولا مسوّر،وانما هو قطعةمنالأرض ميزت برمل،فاتكأ الامام على صخرة سوداء وضعت في المحراب ، تزيد على الذراعين طولا ، وكنت قد تأملتها قبل المغرب فرأيت فيها كتابة صفوية قديمة ، فاتخذت منها مفتاحاً للحديث مع هذا الامام حتى أنس بي وانست به ، وكنت في زي لا يبدو معه أنني أحسن شيئاً أو أدرك طرفاً من المعرفة ، غير أنني لما أوضحت لهذا الإمام أن لهذا الحجر الذي يتكىء عليه من التاريخ ما يقارب ألفي عام ، استغرب هذا مني ، وسألني : هل أحسن القراءة : فأجبته : وأُجيدها ! فجره ذلك إلى الاسترسال معي في الحديث بدرجة حملتني لأن أفضي إليه بما

في نفسي ، فقلت له : الظاهر أنكم تتعشون بعد العصر على الطريقة القديمة المتبعة في بعض البلاد النجدية قديماً؟! فقال : لا لم نتعشَّ بعد إذ وقت العَشاء هو الساعة الثالثة فما بعدها . فاطمأننت بأنني سأحصل على عشاء . وسألني: المضايفي ما درى عنك ؟ فأجبته لا أدري فهناك أناس كثيرون سلموا علي ، ولا أعرف من هو المضايفي ! فقال : تعال نـَتـَقـَهـْوى . فعدنا إلى مكان القهوة ، وفي أثناء تناولنا القهوة تقدم إلي رجل يسألني عن اسمي وعن الغاية من مجيئي ، فأجبته : فلم يكتف بذلك ، بل طلب كتابة الجواب بورقة ففعلت ، وسرعان ما عاد إلي الرجل قائلاً : تفضل : قمت معه ، وقام كل الموجودين في القهوة ، وكل الجالسين في ساحة القصر ، ودخل الجميع في حجرة واسعة ،ولكن ذلك الرجل أخذ بيدي إلى حجرة أخرى مجاورة أثثت تأثيثاً عصرياً حديثاً ، في وسطها منضدة مستطيلة يحف بها عشرات من الكراسي ، ووضع فوقها مائدة حوت عدداً من الأطباق مملوءة بأنواع المأكولات من طعام وفاكهة ، وبعد أن تناولت منها حاجتي خرجت فإذا بصاحبنا المضايفي قد حمل الحقيبة ووضعها في سيارة ، ودعا بأحد رجال القصر ، وأمرْ بأن يذهب معي إلى (دار الضيافة) التي أثثت تأثيثاً حسناً، وهُيِّء فيها جل ما يحتاجه المرء من قهوة وماء ، فنمت بغاية الراحة . ولما استيقظت في الصباح إذا بصاحبي يقدم لي القهوة وطعام الافطار ، وبعد تناولها قال لي: إذا كان تحب نذهب إلى القصر للسلام على الامير؟! فكان ذلك.

كانت المقابلة الأولى لرئيس كتاب الامارة الشيخ محمد أبو شتيوي من أهل ينبع ، غير أنني وإن كنت أعرف هذا الاسم لم أعرف الرجل ، وهو يعرفني ، وبعد حديثي معه قال لي : وكيل سعادة الأمير نايف موجود في مكتبه ، وسيحضر الأمير بعد وقت قصير ، فرغبت أن أسلم على نايف .

لقد كان الامير نايف بن عبد العزيز السديري هو المشرف على (مشروع إنعاش البادية) في حياة والده ، وهو ممن درس في أمريكا دراسة عالية وعلى جانب من الثقافة ، وسماحة النفس وكرم الخلق ، وفي أثناء الجلوس

عنده تقدم اليه رجل يحمل طاقة من الورد فوضعها أمامه فالتفت إلي قائلاً : هذه من ابنتي فلانة ، فحاولت أن أجد مدخلاً للحديث ، فقلت : إن تقديم الورد لهو من ألطف التحيات ، فعقب قائلاً : وأزيدك ، إن ابنتي وهي طالبة في مدرسة البنات ، ولا بد ان تقديم هذه الباقة يقصد من ورائه غاية . ثم قام من مكتبه وكان بيته يجاور المكتب وعاد مسرعاً قائلاً : ألم أقل لك ؟ بنتي ذكية ، عندما تريد أمراً تقدم له تقدمة طيبة ، وقد علمت منها أنها دعت زميلاتها في المدرسة بعد انتهاء الدرس إلى فسحة خارج البلدة وهذا يكلف إعداد الغداء ، ولا أقل من خروفين والله يعيننا على هذا !! فأجبته : أنت سعيد حقاً ، ففتاتك قد عملت معك ألطف ما تعمله فتاة مع والدها ، وهي بذلك تسدي اليك عملاً يجب أن ينال منك كل عناية ، ذلك أنها تريد أن توجد بينها وبين زميلاتها في المدرسة أقوى الصلات ، وتريد منك أنك تعنى بكل الطالبات ، وتؤازر التعليم . فأجاب : وقد كان ذلك ، فقد كنت عند حسن ظنها ، ثم قال : الأمير سلطان قد حضر ، ولكنني الآن أريد أن أبقى معك وقتاً أطلعك فيه على بعض الأمور التي أحمل لها في نفسي أطيب الذكريات ، تعال أريك أول مدرسة أنشأها والدي وتعلمت فيها ، وأول قصر بني في عهد والدي ، وكان مقر موظفي الدولة ، وأول مسجد كان والدي يحرص على أن يشاهدني فيه ، وأول جمعية حاول والدي انشاءها فكانت من أثر أخي الأمير عبد الله ، وأصبحت الآن المورد القوي لهذه البلاد في كثير مما تحتاج اليه ، وأول نادٍ رياضي أتولى الإشراف عليه ، وهو لكل أبناء البلدة .

خرجت معه في سيارته لزيارة هذه الأماكن وكان من آخرها أن أتى بي إلى المكان المعدّ لتربية الأبقار حيث وجدنا رجلاً فلسطينياً يشرف على مجموعة من البقر الهولندية الاصل ، يتولى جمع حليبها وتعقيمه وتعبئته في كؤوس لطيفة توضع في (ثلاجات) وتقدم بثمن لا يزيد على نصف ريال ، وتلك قيمة أقل بكثير مما تباع بمثله في البلاد الأخرى .

وبعد ذلك مررنا بـ (النادي الرياضي) ، وهو على درجـة خفيفة من التنظيم ، فيه مذياع وفيه غرفة مطالعة ، وفيه ملاعب متنوعة من كرة اليد وكرة القدم وغيرهما ، ويتولى نايف الإشراف على هذا النادي ومن حق كل راغب في الاشتراك الانتماء اليه .

ثم كان العود إلى قصر الإمارة ، بعد المرور على أول قصر بني في عهـد الأمير عبد العزيز السديري ، واتخـذ في عهده مقرّاً للدوائر الرسمية ، غير انه الآن أصبح معطلاً مهملاً ، قد بدأه الخراب ، ذلك أنـه بني من الطين ، والطين في هذه البلاد ليس قوياً لاحتوائه على مواد ملحية سرعان ما تذوب عند هطول الأمطار ، وقد استعيض عنه ببنايات حديثة متفرقـة ، لمختلف الدوائر الرسمية ، بنيت على الطراز الحديث بناءً محكماً كبناء المسجد الجامع الذي شيد في عهد الأمير عبد العزيز ، وكبناء المدرسة ، وقد زرناهما .

ومدينة النبك أنشئت في براح واسع من الأرض ، ولهذا كانت شوارعها واسعة جداً ، وبناياتها متباعدة والبيوت التي بنيت قديماً أخذت في الزوال ، وتقع المدينة على الضفة الغربية من الوادي ، وقد دخلتها وسائل الحضارة الحديثة من كهرباء وتنظيم ، ولبلديتها عناية بارزة في تنظيم البلدة بحيث وضعت أسواقاً خاصة لمختلف الأشياء كاللحوم والخضروات وغيرهما . والماء قد أدخل في كثير من البنايات الحديثة والبيوت ، وهو ماء مقبول للشرب ، أعذب من ماء المنطقة الشرقية في المملكة .

وللجمعية التعاونية التي كان الفضل الأول في انشائها يرجع للأمير عبد الله ابن عبد العزيز السديري ، لها فضل كبير في توفير كثير من متطلبات هذه البلاد كاللحوم والألبان والخبز وغير ذلك ، ويولي هذه الجمعية الأميران سلطان ونايف كثيراً من العناية حيث يقومان بالاشراف على تنميتها وادارتها .

والواقع أن المرء لا يحس بأنه وهو في بلدة النبك يعيش في صحراء تبعد عن البلاد الحضارية مسافات شاسعة ، ويدرك المرء الصعوبة عندما يعلم بموقعها

الجغرافي ، وبانها لا تنال كثيراً مما تحتاج إليه إلا من خارج المملكة ، كالاردن والشام وغيرهما، ومع ذلك فإنه يجد كثيراً من منتجات تلك البلاد متوفرة في هذه البلدة بثمن غير مرتفع .

بعد العودة إلى مكتب الإمارة ، وجدت الأمير سلطان في مكتبه ، ووجدت رجلاً ساعة ما رأيته ذكرت والده الأمير عبد العزيز — رحمه الله - بشاشة وحسن استقبال بدون تكلف،ورأيت شاباً تبدو عليه منعلامات الوقار والهدوء ما يتصف به كثير من الشيوخ ، ورأيت في قسمات وجهه ما رأيته في وجه والده من حيث الرزانـــة والتؤدة ، وبدا كأنه يعرفني معرفة قوية بحيث كان الحديث خالياً من كل تكلف ، وكانت معاملته على أرق مـــا يتصف به الرجل المهذب .

أوضحت له الغايةمن رحلتي ، فأبدى من عبارات السرور ـ وهيغيرمتكلفة ـ ما لم أعهده في كثير ممن قابلتهم من ذوي المناصب التي تماثل مقامه ، وبعد تناول القهوة والشاي ، ذهب بي من المكتب وكان ممـــلوءاً بعدد كثير من الحاضرين ، إلى غرفة واسعة مجاورة لذلك المكتب ، ثم دعا مدير مكتبه الخاص الأستاذ ابراهيم حيرم ، وفي الوقت نفسه قـــام فاحضر خريطة كبيرة لهذه المنطقة ، وأخذ يشرح لي التعديل الذي حدث في حدود هذه المنطقة بعد الاتفاق الأخير بين حكومتنا وبين حكومة الاردن ، ويوضح لي الأمكنة ، من قرى ومناهل في المنطقة نفسها ، وأظهرت له الرغبة في زيارة أهم المواضع التي أريد الحديث عنها ، وكان الأستاذ ابراهيم حيرم قد حضر فأمره بأن يرافقني في الرحلة إلى حيث أريد ، وحسناً فعل ، فقد كان ابراهيم خير رفيق .

لقد كان الأستاذ ابراهيم حيرم من أبنـــاء فلسطين العزيزة ، وقدم هذه البلاد قبل بضعة عشر عاماً ، ليعمل موظفاً في وزارة المعارف ، مدرساً فمديراً لمدرسة (كاف) بضع سنوات ، وقد أبقى له من الذكر الحسن ما

حببه إلى نفوس أهل البلاد وما جعل الأمير يضمه إلى موظفيه ويسند إليه بعد ذلك إدارة مكتبه الخاص ، واذكر أنني عندما مررت ببلدة كاف رأيت شيخاً قد وخطه الشيب أقبل عليه محيِّياً بتحية حارة، ولما سألته عن السبب مستغرباً أجاب : بأنه كان من تلاميذي ، ثم أزال الاستغراب من نفسي بقوله : كنت أدرس من هم أكبر سناً مني ، فلا تتصور انني كبير السن ، غير أن(مأمور بلدة كاف) اراد معابثته فقال له : يا أستاذ ابراهيم لا تصغر نفسك ، فأكثر أهل بلدة كاف يعترفون بانك أستاذهم . والواقع أنه في عشر الأربعين من عمره ، وإن كان يبدو في مظهره أقل من ذلك سنا .

كان اجتماعي بالأمير في اليوم السابع من شهر صفر (٣ أبريل ١٩٧٠) حوالي الساعة السادسة ظهراً حسب التوقيت الغروبي،ورأى الأمير - أكرمه الله - أن أستريح بقية اليوم وتكون الرحلة في صباح الغد المقبل .

ولن أتحدث عما لقيته من عطف الأمير وكرمه وحسن رعايته ، لئلا أوصف بالمبالغة وهو أمر ليس بكثير من مثله .

ومع ذلك فلم أدع الوقت يمضي بدون استفادة ، أو استزادة من معرفة تلك البلاد ، وكان أن حضر إلي الأستاذ ابراهيم بعد أن استيقظت من نومي بعد الظهر ، واسترحت قليلاً حتى صليت العصر، فأتى إليّ وقال : ان الأمير نايفا موجود الآن في مزرعته خارج البلدة ، فهل ترغب في زيارته هناك ؟ فأجبته بالموافقة . وخرجت معه بسيارة يقودها متجهين صوب الجنوب، وبعد مسير بضعة أكيال مررنا بقرية حديثة، في مفيض واد يدعى وادي (حصيدة) الجنوبية ، فسألته عن اسم القرية فأجاب : بأن أهل بلدة قرقر القديمة كثرت بجوار بلدتهـــم المياه بدرجة هددت القرية وبساتينها بالخراب ، فاضطروا لمغادرتها فهُيِّء لهم هذا المكان ، وأعانتهم الدولة بمبالغ من المال أنشأوا بها بيوتاً وبساتين هي ما تراه الآن ، وبعد مجاوزة تلك القرية ببضعة أكيال كان الوصول إلى مزرعة الأمير نايف ، وتقع في مستوى من الأرض واسع

جداً ، بحيث أننا عند الوصول إليها ورأيت سعتها ، أبديت استغرابي ، ولكنني بعد الدخول فيها رأيت ما سرني حقاً ، وزاد سروري عندما عرفت الطريقة التي سار عليها الأمير نايف في احياء أرضه ، تلك هي أنه أتى باناس يعمرون هذه الأرض ، ولهم جميع غلاتها .

أثار استغرابي هذا،فبعد أن اجتمعت بالأمير وقمت بجولة واسعة في المزرعة زرت فيها مكانا جمع فيه عدداً من الغزلان معها اطلاؤها ، ورأيت في الحدائق مختلف أنواع الأشجار المثمرة بالفواكه ، ورأيت مساحات واسعة مزروعة بالقت (القضب) وهو البرسيم، مع مساحات أخرى زرعت بمختلف الخضروات ومساحات غرس فيها كثير من أشجار الفاكهة ، فلما سألت الأمير : كيف يستطيع القيام على هذه المزرعة الكبيرة ؟ كان جوابه: كل ما تراه هو للقائمين على زراعتها ، ذلك انني تعبت كثيراً في الانفاق عليها ، ورأيت خير وسيلة لتخفيف العبء أن أجعل الزراع شركاء في هذه الأرض ، فأنا أقدم لهم كل ما تحتاج إليه من مضخات ونفقة وثمن للمغروسات ، ولهم كل ما يثمر فيها من خضروات وزراعات وقتية ، ولي بعد بضع سنوات غلة الأشجار المثمرة من الفواكه التي يتأخر إثمارهــا، وفي الوقت نفسه أجد في هذه المزرعة متنفساً وراحة، ولهذا تراني أبني هذه الدار التي أرجو أن أجد فيها أنا وأبنائي بعد سنوات قليلة ثمرة تعبي وجهدي، إن الفلاحين يبذلون أوفى جهد لكي يستغلوا الأرض باستثمار الخضروات والنباتات الموسمية ، وهذا يدفعهم إلى العناية بما بينها من مغروسات ، ولهذا فإن كل واحد منا سيستفيد من هذه الأرض .

حقاً لقد كانت الطريقة التي يسير عليها الأمير نايف في إنشاء مزرعته هي طريقة نافعة للفلاح وللمالك معاً .

دفعني الفضول إلى سؤال هو : وهل للأمير سلطان مثل هذه المزرعة ؟!. فكان الجواب : لا . ولم استزد التفصيل ، فقد رأيت أول ما قابلت الأمير سلطان انه ذو نظرة أخرى تغاير نظرة أخيه الذي أمضى حقبة من الزمن

مشرفاً على (مشروع إنعاش البادية) ، غير أنني لم أرغب في محاولة تعليل هذه النظرة ، ولكنني أدركت أن حالته الصحية لها أكبر الأثر في ذلك . فهو يبدو بمظهر يختلف كثيراً عن مظهر أخيه، حيث تبدو على جسمه ووجهه إمارات الانحراف في صحته ، وعلامات تدل على أنه يستعمل فكره استعمالاً يرهق جسمه .

لقد وجدت فيه الشاب الواعي المدرك حقـاً بكل ما يحيط به ، وما يتطلبه الرجل المكلف بأعباء عمل كبير مثل عمله ، فهو يتولى مع إدارة شؤون إمارات القريات رئاسة حرس الحدود الشمالية ، وهو واع حقاً، ومثل هذه الصفات تجعل من يتصف بها كثير الوعي والانتباه والحذر .

تناولت القهوة والشاهي بعد أن هيأ لرحلة الغد كل ما يلزم لها ، وحددها ثم ودعته شاكراً . وخرجت لأستريح قليلاً وأجد بعد ذلك الغداء الملائم على خير ما يرام ، وعدت بعد تناوله في القصر إلى دار الضيافة حتى العصر ، حيث جاء إليَّ الأخ الاستاذ المكلف بمرافقتي في رحلاتي ابراهيم حيرم ، وذهب بي في جولة في ضواحي البلدة وما يقرب بها من المزارع والقرى .

وفي المساء كان العود إلى قصر الإمارة لتناول طعام العشاء بعد صلاة العشاء ومن ثم إلى النوم حتى الصباح .

لم أرهق نفسي بالزيارات أو قبول الدعوات فقد زارني كثير من شباب القريات ودعوني ، ولكنني كنت بحاجة إلى الراحة من ناحية ، ومن أخرى رغبت بأن كل دعوة توجه إلي تكون عن طريق الأمير ، فأنا ضيفه ، وكما يقال : (الضيف بحكم المضيف) وفي الواقع أن هذا حرمني كثيراً من الاتصال بكثير ممن قد أستفيد في رحلتي من الاتصال بهم ، ولا أريد الاسترسال في التفصيل أكثر من هذا غير أنني استفدت قسطاً كبيراً من الراحة .

* * *

يوم الثلاثاء ٨-٢-١٣٩٠ (١٤ نيسان ١٩٧٠ م)

كان هذا اليوم هو المقرر لزيارة اهم القرى في الامارة ، وبعد تناول طعام الافطار والاستراحة قليلا ، أتى الي الاستاذ ابراهيم حيرم بسيارة ومعه بعض المرافقين ، وأخبرني بأن الامير هيأ لنا الرحلة بحيث نستمر فيها الى ما بعد تناول الغداء الذي قد اعد لنا في عين الحواسي ، وكان من المرافقين شاب من اهل بلاد الجوف من بلدة الطوير ، وهو أحد موظفي ديوان الامارة .

توجهنا في الصباح من بلدة النبك قاعدة الامارة ، فقمنا بزيارة بلدة (كاف) وهي بلدة اثرية وكانت القاعدة الاولى للامارة ، وفيها قصر لا يزال قائما من آثار سلطان الشعلان من الرولة ، انشىء هذا القصر بتاريخ ٢٣ رجب سنة ١٣٣٨ ، كما يبدو من الحجر الذي فوق باب القصر ، وقد طمس من الكتابة ما عدا التاريخ ، وفي القصر يوجد عدد من رجال الحرس التابعين للامارة ، فاستقبلونا استقبالا حسنا ، واسترحنا في غرفة مدخله ، بحيث تناولنا القهوة والشاهي ، ثم قمت بجولة داخل القصر ، وظهر لي أنه كان في الاصل قصرا قديما، اضيف اليه من الامكنة والبنايات اشياء جديدة .

وكان مما شاهدته في ساحة القصر الواقعة في وسطه هوة وضع فوقها باب من الخشب ، وهي عبارة عن حفرة عميقة ، ذات جوف واسع يبعد عن فوهتها بخمسة امتار تقريبا ، ويتسع اسفلها بتجاويفه ، اما أعلاها فهو ضيق ، فقد غطي بأن جعل له باب من خشب ذو قفل ، وهذا الباب لا يتسع الا بمقدار ما يطرح فيه الانسان ، وقد علمت بأن هذه الحفرة العميقة كانت معدة لتكون سجنا ، وأنها كانت مستعملة من عهد سلطان الشعلان يقذفون فيها من اتهموا بأي امرٍ من الامور ، ويبقون محبوسين حتى يأذن الله لهم بالفرج ، ومن هنا ادركت ما ذكره المتقدمون من ان السجون كانت قبل الاسلام حفرا عميقة ، او اهوية جمع هوة كما ورد في شعر الحطيئة :

القيت كاسبهم في قعر مظلمة　　　فاغفر عليك سلام الله يا عمر

بعد التجول في القصر ومشاهدة بعض آثاره ، شاهدت بقربه جبلا اسود مرتفعا يدعى الصعيدي ، وقيل لي: ان في اعلاه آثار ابنية قديمة، ولكن الجو كان حارا، فلم ارغب الصعود اليه، مع وجود طريق للصعود قد يستغرق السير فيه نصف ساعة او اكثر، ومعما اسبغ على هذا الجبل من احاديث عن ارتفاعه واشرافه على كل المنطقة، ووجود آثار فيه، الا انني رأيت نفسي في حاجة الى الراحة بحيث لا استطيع صعوده ، ومن ثم نزلنا الى القرى المجاورة ، ومن اشهرها كاف واثرة ومنوة والقرقر ، وأهم ما لفت نظري

كثرة الآثار في قرية اثرة ، وهي كثرة تلفت النظر حقا (انظر اثرة في القسم المتعلق بوصف المواضع وتحديدها). ثم عرجنا على موقع قرية قرقر الدارسة التي لم يبق من آثارها سوى بعض نخيلها وبعض بيوتها المتهدمة، ثم البحيرة التي احاطت بها احاطة السوار بالمعصم بحيث خنقتها خنقا قضى عليها .

ومنها اتجهنا شرقا الى فضاء واسع هو عبارة عن سبخة واسعة حقا ، مملوءة بحفر مستطيلة ممتلئة بالمياه الملحية ، منها ما هو متجمد بحيث اصبح ملحا يقفا ابيض ناصع البياض، ومنها ما هو في دور التجمد، وهناك قال لنا مرافقنا : من هنا سميت هذه البلاد قريات الملح ، فقد كان الملح هو المورد الرئيسي لهذه المنطقة ، فلقد كان اهل الشام يأتون ببضاعتهم المختلفة من الانسجة والمأكولات والفواكه وغيرها ، فيبيعونها مقايضة بهذا الملح الذي تراه يكسو هذه السبخة الواسعة ، التي يشترك فيها اهل هذه البلاد ، فكل واحد قد عرف موقعه ، وحفيرته ، اما الاماكن الاخرى فقد استثمرتها شركة انشئت حديثا باسم (الشركة التعاونية في القريات) وهي شركة مساهمة كان الفضل في انشائها للامير عبد الله بن عبد العزيز السديري ، ثم لاخيه الامير سلطان ، وهذه الشركة كانت من اقوى العوامل في انعاش هذه البلاد ، وقد استثمرت جزءا كبيرا من هذه الملحة ، غير ان الظروف السياسية كان لها اكبر الاثر في ايقاف نشاط استغلال الملح ، وهذا امر حدث اخيرا ، بظروف خارجة مع ما بذلته حكومتنا الجليلة في معاضدة هذه الجمعية التعاونية . لم ارد التوسع في الحديث في الموضوع ، فهذا ليس من اختصاصي .

عدت بعد ذلك فزرت بقية القرى : اثرة ومنوة . ومع الاسف الشديد ان هذه الاسماء مع ما يظهر من قدمها لا نجد لها اثرا في كتب معجمات الإمكنة التي بين ايدينا ، مع انها في الواقع اسماء عريقة في القدم ، ونجد لها مثيلات في بلاد الشام ، مثل النبك وهي بلدة في الطريق بين دمشق وحمص مشهورة بشدة البرد . ومن امثالهم هناك : بين قارة والنبك ، ما يخلي البكارى تبكي ، اي ان البرد بين هاتين القريتين الشاميتين ، يبلغ من شدته أن الفتيات القويات يبكين، ولا شك ان هناك صلة في هذه التسمية بين هذه المواضع والمواضع الواقعة في شمال الجزيرة مثل النبك في القريات والنبك في الشام ، وقارة في الشام ، وقارة في الجوف الواقع جنوب القريات .

ونجد من بين القرى التي كانت موجودة في هذا الاقليم قرية قرقر ، وقد كان من اثر وجود مستنقع كبير بجوارها من المياه طغى عليها ما سبب انتقال اهلها الى مكان اخر في مفيض وادي حصيدة الجنوبية الواقعة في مقربة من قاعدة الامارة (النبك) وحددنا موقعها في القسم الذي خصصناه

للحديث عن قرى هذه الناحية .

وقرية قرقر هذه نجد خطأ عند المتقدمين في تحديدها ، فقد نقل ياقوت في «معجم البلدان» قول ابي الفتح قرقر هو جانب من القرية به اضاة لبني سنبس ، وأضاف ياقوت قوله : وأظن القرية هذه بين الفلج ونجران . واقول هذا خطأ من ابي الفتح ولعله ابن جني شارح شعر المتنبي الذي مر بهذه الجهات ، فبلاد بني سنبس ، وهم من طيء في شمال نجد في الجبلين أجأ وسلمى وما بقربهما ، والقرية الواقعة بين الفلج ونجران تعرف بأسم (قرية) بفتح القاف غير معرفة ولا مصغرة ، وقد ذكرها الهمداني وأشار الى آثارها القديمة ، وعثر في عهدنا فيها على آثار تدل على قدمها وتعرف الان باسم قرية (الفاو) (١) .

وفرق بين قرية قرقر وقرية ذات الاثار فالاولى في اقصى شمال الجزيرة ، والاخرى غير المعرفة في جنوبها ، ومن الغريب وجود اسم محل اثري يدعى قرقر ايضا يقع في البلاد السورية .

كان مما شاهدته في هذا اليوم السبخة الواسعة الواقعة شرقا وشمالا من قرى النبك واثرة وكاف وقرقر حيث يستخرج الملح من تلك السبخة، بطريقة بدائية لا تكلف المرء سوى حفر قطعة من الارض مستطيلة او مربعة يبلغ عمقها ما يقارب المتر وطولها وعرضها تختلف بين العشرة امتار فأقل طولا وخمس فأقل عرضا ، وعند الحفر يجم الماء بكثرة حتى توشك الحفرة ان تمتلىء ، وتبقى معرضة للهواء اياما قليلة ، خاصة في وقت الصيف ومن ثم تتجمد تلك المياه ملحا ابيض ناصع البياض ، وقد يحدث ان الحافر يقع في تربة حمراء ، فيصبح لون الملح متغيرا بلون التربة ، وغير صالح للتصدير ، ويصادف ان الرياح تنقل شيئا من الاتربة فتغير مياه تلك الحفر ، فيتأثر ملحها بلون الاتربة ، ويصبح الملح غير صالح وهذا لا يحدث الا نادرا ، وفي جهات بعيدة عن وسط السبخة التي تبلغ مئات الاميال طولا في عرض أقل من ذلك .

وكان مما شاهدته بقرب قرية منوة بعض آبار حفرت بطريقة ارتوازية، فأصبح الماء منها يجري على ظهر الارض بشكل فوار ماء صافيا ، غير ان طعمه ، وان استساغه الشارب ، فانه يحس فيه بطعم بين الحموضة والملوحة وكأن في فمه قليلا من تغير الطعم تغيرا مقبولا . وقد شاهدت نبعا من هذا القبيل في طرف ارض صخرية يسيل منه الماء الى السبخة القريبة ، ولا يستفيد منه سوى اصحاب المواشي الذين يوردون ماشيتهم للشرب منه ، ويظهر ان عدم الاستفادة من هذا النبع يرجع الى امرين احدهما ضيق المكان والثاني ان الماء ـ وان ظهر نابعا

(١) انظر دائرة المعارف الاسلامية .

فوارا ـ الا انه ليس بالقوة التي تمكن من اجرائه الى اماكن بعيدة واسعة، وقد يكون هناك عامل ثالث هو ان كل جزء من اجزاء الارض يوجد بين السكان من يدعي ملكيتها ، وهذا ما لا نريد التعرض له .

بعد مشاهدتي لأهم قرى الامارة في القسم الشمالي من وادي السرحان كان المقرر الرجوع الى النبك القاعدة ، وكان الوقت قد قارب الساعة الثامنة ، وآن وقت الفداء ، وهذا قد حدد موقعه في (عين الحواسي) وهي عين تبعد بضعة اميال عن المكان الذي قمت بالتجوال فيه، ومن ثم كان الاتجاه اليه .

وعين الحواسي عين استنبطها رجل من اهل تلك البلاد ، واثناء امارة الحواسي على المنطقة اشتراها ، وبنى فيها قصرا ، ووضع على العين مضخات حديثة ، وكانت قبله تجري جريانا طبيعيا ، وغرسها بالنخل ومختلف اشجار الفاكهة ، فكان الاتجاه اليها ، وقبل وصولها مررنا بقارة منفردة في وسط السبخة قال لنا مرافقنا : ان هذه القارة كانت في القديم من الاماكن المقصودة ، وأراد الاسترسال فيما كان يفعل عندها من الخرافات ووسائل التقديس ، بحيث انه لا يسوغ لكل من مر بهذا الطريق في عهد الخرافات الا ان يقدم لها قربانا على طريقة ما كان يفعله اهل الجاهلية من العرب في مختلف بلادهم ، وهذا ما دفعني الى تسلق قسم من جانبها ، ولكنني لم ار اي اثر يلفت نظري ، لا كتابة ولا صورا وانما رأيت جبيلا اسود غير مرتفع كثيرا ، وأبرز ما فيه صخور منتصبة انتصابا طبيعيا ، فكان الوقوف بقربها قصيرا ، وكان الرفاق وهم ممن لا يعنيهم اكثر من راحتهم شيئا ، وتحقيقا لرغبتهم كان السير عجلا ، والاتجاه غربا الى (عين الحواسي) ، وقبل الوصول اليها ببضعة اميال ، اشاروا الى سلسلة من القور قالوا : انها تدعى رضوى ، فاستهواني الاسم لاتفاقه مع جبل رضوى العظيم الواقع بقرب بلاد ينبع والذي كان من اثره انني اتجهت لدراسة المواقع في بلادنا لسبب اوضحته في كتابي «بلاد ينبع» غير أن الرفقة الكريمة قالوا : ليس فيه سوى قبور في قمته ، وبعض كتابات في الصخور ، وآثار ، والصعود اليه يكلف اضاعة وقت طويل من الزمن ، وانت ونحن في حاجة الى الراحة والى تناول الفداء ، وقد هيىء منذ امد ، ونخشى استبطاء القائمين على تهيئته ، وعلى هذا كان الاستمرار في السير الى عين الحواسي ، حيث وجدنا الاخوة الذي افضل الامير الكريم ببعثهم الى المكان قد اعدوا كل شيء في داخل حديقة حسنة لم نحتج مع وارف ظلال اشجارها الى نصب شيء يقينا حر الشمس ، ومن بعد الفداء كانت الراحة في ظلال الاشجار التي تتخللها النخيل حتى قارب وقت العصر ، وقد نال كل واحد منا راحته ، ولم يبق سوى العودة الى بلدة النبك ، وهي لا تبعد اكثر من بضعة وعشرين ميلا ، نخترق فيها الوادي متجهين صوب الغرب بطريق غير معبد ولا ممهد ، ولكنه صالح

لسير السيارات في مثل هذا الوقت ، اما عندما يتغير الجو ، ويحين فصل الشتاء، فان الطريق يجب ان يكون معروفا ولا يمكن السير فيه الا في ناحية واحدة خوفا من ان تصاب السيارة من جراء رطوبة الارض وكثرة السبخات وتغيير الطريق بما يجعلها لا تخرج في كثير من الامكنة الا بجهد ومشقة .

ولقد كانت هذه الرحلة القصيرة ، التي لا تتجاوز في الذهاب والاياب اكثر من خمسين كيلا كانت ممتعة حقا والفضل في ذلك يرجع الى ما هيأه لاصحاب الرحلة الامير الكريم سلطان بن عبد العزيز بن احمد السديري.

اما التعمق في دراسة الآثار والتوسع في المشاهدة وتدوين الملاحظات فهذا امر يحتاج الى زمن والى جهد والى معرفة عميقة بالاثار وكل هذا فيما تبين لي خارج عن طوقي في هذه الرحلة ، التي اعتبر كل ما استفدت منها ، وكل ما استطعت تدوينه بأنه لا يعدو اشياء سجلتها بطريقة اقرب الى الاشارة منها الى الدراسة ، وقد يكون لظروفي الخاصة اكبر الاثر في ذلك .

وأقولها كلمة حق لقد بذل الامير الجليل، واخوه الكريم لي من العون ما لم اكن اتوقعه ، فأنا ليس لدي ما ادلي به على هذين الرجلين الكريمين سوى ما يدل به رجل عربي استضاف قوما كراما . وعندنا في الامثال النجدية (ما على كريم تشرط) .

كان العود وهو حميد الى بلدة النبك بعد صلاة العصر ، وكان لي من رفيقين كريمين هما الاستاذن ابراهيم حيرم مدير المكتب الخاص للامير والاخ عبد الله الطويري من موظفي ديوان الامارة ، وهو من اهل قرية الطوير في اقليم الجوف كان لي منهما خير عون لما بذلاه من معلومات انا في حاجة اليها تتعلق بهذه البلاد .

بعد الرجوع من زيارة قرى الوادي كاف واثره ومنوة وقرقر بقيت في منزلي لانني بحاجة الى الراحة، وكان ذلك يوم ٨ صفر ١٣٩٠ ، فزارني في المساء كثير من الاخوان من شباب البلاد ومثقفيها ، وبعد مغرب ذلك اليوم دعاني السيد سليمان المقنط من وجهاء هذه البلاد ، وألح في الدعوة ، فاعتذرت بانني ضيف الامير ، وكما يقولون : (الضيف بحكم المضيف) ولما حضرت عنده وجدت كثيرين من شباب قبيلته الشرارات ، ومن غيرهم من وجهاء البلاد وموظفيها ومن بين من اجتمعت به عنده الاخ السيد سعد العسيري مدير قسم المباحث وصهر الامير تركي السديري ، وهو شاب على جانب كبير من الادب واللطف ، وقد كرم فزارني ليلا .

وممن زارني اديب ينبعي يدعى حمد القبساوي ، يشغل وظيفة تفتيش في الجمارك ، وكان قد طالع كتابي عن «بلاد ينبع» وأتى به معه ، وأبدى لي كثيرا من الملاحظات القيمة وصحح لي اخطاء وقعت فيها

في ذلك الكتاب من ذلك انني نسيت الشيخ محمد بن جبارة الى الأشراف وهو من الصراصرة من جهينة ، ولكن هذا نشأ من كون احد الاشراف ، وهو جابر بن جبارة كان رئيسا من رؤساء ينبع في القرن الثالث عشر الهجري ، فظننت أن ابن جبارة محمدا هو من ذرية الذي قبله ، ومن هنا وقع الوهم ، وقد طلبت منه ان يقرأ الكتاب قراءة كاملة ، وان يوضح لي كل ما يراه بحاجة الى التوضيح، ووعدته بنشر ما يبعث به الي في مجلة «العرب» .

وبالمناسبة – لا تفوتني الاشارة الى انني عندما مررت بمدينة جدة – وزرت الاستاذ علي حافظ في عمله ادارة مطابع المدينة ، وهو باحث اديب له مؤلف في التاريخ «فصول من تاريخ المدينة المنورة» تحدثت عنه في مجلة «العرب» عندما زرت الاخ الاستاذ قال : ان لديه ملاحظات على كتاب «المغانم المطابة في معالم طابة» الجزء الذي قمت بتحقيقه ، وكأن الاستاذ يريد أن يعرف رأيي ، فقلت له : ارجو ان تكتب كل ما تراه حول الكتاب من نقد ، وثق بأنك ستجد في «العرب» أرحب مكان لنشره ، ومني أوفى تقدير وشكر لانني ابحث عن الحقيقة ، ورأيي هو خاص بي عندما يبقى دفينا في صدري، ولكنني حينما افضي بهبأية طريقة من طرق النشر، فانه يكون غير خاص بي ، ومن حق كل انسان ان يبدي رأيه حياله، وانا بحاجة من يقوم اودي ويصحح ما اخطىء به اكثر مما انا محتاج الى الثناء ، اذ الثناء لا يفيدني شيئا فأنا اعرف بنفسي، ولكن النقد يفيدني ويفيد غيري، وقد وعد بأن يبعث ما يراه ، ووعدته صادقا بنشره كاملا

وممن زارني الاخوة عبد الله السماحي من موظفي الامارة ، وسليمان ابن محمد الكويليت ، مدير مكتب الاشراف على تعليم البنات .

وقابلني السيد محمد بن يوسف في مكتب سعادة الامير فدعاني لمشاهدة بستانه الواقع في وسط بلدة النبك (القاعدة) وهو من اجمل ما شاهدت في تلك البلاد ، قد غرسه نخيلا واشجار فاكهة ، ووضع على بئره مضخة تثج الماء العذب ، وابن يوسف من بلدة اشيقر التي عرف اهلها بنشاطهم الزراعي .

ولا اطيل بذكر كل من زارني او اجتمعت به، ممن اسبغ علي من لطفه وفضله ما اقابله بشكري الجم ، وهو (جهد المقل) كما يقولون .



لمحة تاريخية عن وادي السرحان

يحسن ايراد كلمة قصيرة حول اسم هذا المنخفض الواسع الـــذي يطلق عليه (قريات الملح) و(وادي السرحان) وهما مسميان لمسمى واحد ، وقد يطلق اسم القريات على شمال الوادي الذي تقع فيه القريات ، فيكون أسم الوادي أعم .

ليس هذا الوادي واديا بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، وانما هـــو منخفض واسع من الارض يمتد من الجنوب الى الشمال ، وتنحدر فيــه اودية كثيرة من جميع جهاته شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ، حسبمـــا أوضحنا في الكلام على المواضع الجغرافية ، ولا شك انه كان متصلا باقليم الجوف ، غير ان الرمال تراكمت في نقطة التقاء المنطقتين في الموضـــع المعروف باسم عريق الدسم وما بقربه ، تراكما فصل بينهما ، وهـــذا المنخفض من الارض كان يدعى قديما (قراقر) ويدعى ايضا على ما ذكــر الهمداني في «صفة جزيرة العرب» البياض ، قال الهمداني (١) : وامـــا ذبيان فهي من حد البياض بياض قرقرة : وهو غائط بين تيماء وحوران لا يخالطهم الا طي ، وقراقر بين كلب وذبيان ، وهو منهل هذا قـــول الهمداني ، ونلاحظ :

١ ـ كلمة قرقرة نرى صوابها قرقر ، وان التاء وضعت بشكـــل فاصلة فقرأها احد النساخ من اصل الكلمة خطأ : والصواب: بياض قرقر.

٢ ـ وقوله عن قراقر هو منهل ، صوابه : هو مناهل كثيرة ، ويدل على ذلك قول النابغة الذبياني :

كما ابتدرت كلب مياه قراقر .

فالنابغة ذكر انه مياه كثيرة وليس منهلا واحدا ، وهذا ينطبق علـى وادي السرحان ، فهو مملوء بالمياه من جنوبه الى شماله .

وقال نصر (٢) : الأوداة مجتمع اودية بين الكوفة والشام بها قلـب

---

(١) « صفة جزيرة العرب » ص ١٢٩

(٢) كتاب « الأمكنة والمياه » ـ مخطوط الورقة الـ ١٨ نسخة المتحف البريطاني .

أجارد ، وأجارد وادي من أوداة كلب ، وهي اودية كثيرة تنشل من الملحاء، وهي رابية منقادة مستطيلة ، ما شرق منها هو الأوداة ، وما غرب فهو البياض . اه .

وللوادي في القديم اسماء اخرى ذكرناها في موضع اخر .

كان وادي السرحان خاضعا لنفوذ امراء الدولة آل شعلان ، بعد ضعف الامارة الرشيدية ، ولما استولى الامام عبد العزيز - رحمه الله - على حائل سنة ١٣٤١ هـ. خضعت الجوف والقريات (وادي السرحان) لحكم جلالته ، وكان يتولى امارة الوادي محسن الشعلان ابن عم النوري، وقد حاول فلبي حينما كان في ذلك العهد يعمل موظفا بريطانيا مع الامير عبد الله في شرق الاردن ، حاول ضمه الى شرق الاردن ، بعد ان اتصل بالامير محسن الشعلان وتباحث معه وأهداه محسن اربع نامات تركها في الوادي ، وذهب الى الجوف ليضيف كسبا جديدا ، غير انه لما رجع - الى الوادي بعد ان وجد بلاد الجوف قد انقادت الى حكم الامام عبد العزيز - لما رجع وجد الامير محسن قد سافر الى الرياض معبرا عن خضوعه وانقياده للملك عبد العزيز (١) ، وقد امر الملك عبد العزيز اميره في الجوف اذ ذاك وهو عبد الله بن عقيل بتسلم ادارة وادي السرحان من محسن بن شعلان ، فبعث احد تابعيه (اخوياه) ابن بطاح فقام بتلك المهمة.

ثم عين الملك عبد العزيز الامير عبد الله الحواسي اميرا للوادي ، وهو من خيرة الامراء تقوى وصلاحا ، وقد تولى فيما بعد امارة املج في شمال الحجاز ، ومن آثاره في وادي السرحان في القريات العين المنسوبة اليه، ولم يحيها ولكنه اشتراها من رجل من اهل تلك البلاد ، فأصلحها ووضع فوقها مضخة لاستخراج الماء ، وغرس فيها كثيرا من النخل ومن اشجار الفاكهة ، وبعد انتقاله آلت الى الامراء بعده . وقد توفي الحواسي

وبعد نقل الامير الحواسي عين الملك عبد العزيز اميرا مكانه صالح بن عبد الواحد، وهو من رجال الملك عبد العزيز المعروفين -وقد توفي- ثم نقل الى عمل اخر .

وعين الملك مكانه الشيخ عبذ العزيز بن زيد الذي كان معاونا لنائب الملك في الحجاز ، وبعد مدة نقل من هذا العمل ليكون وزيرا مفوضا في الشام (سورية ولبنان) ثم سفيرا حتى توفي .

وحل محل ابن زيد الامير عبد العزيز بن احمد السديري الذي كان له اكبر الاثر في تنظيم شؤون هذه البلاد ، في مختلف الاحوال من ادارية، واقتصادية ، وتعليمية ، وعسكرية ، بحيث أن زائر هذه الجهة يشاهد آثاره في كل ناحية من تلك النواحي .

---

(١) « غربيون في بلاد العرب » - ١٢٨ - .

ثم نقل الى وزارة الزراعة ولم يكمل فيها العام بل توفي قبل ذلك ، وحل محله ابنه الامير عبد الله ، وسار على طريقة والده ، ثم نقل ليكون وكيلا لوزارة الداخليه في شؤون البلديات .

وخلفه اخوه الامير سلطان امير البلاد الان ، ويعاونه شقيقه الامير نايف الذي كان في عهد والده مشرفا على (مشروع انعاش البادية) الذي اقيم في الوادي في عهد والده الامير عبد العزيز .

وهذه الامارة من اهم امارات المملكة لان عملها لا يقتصر على ادارة شؤون البلاد الداخلية بل يتعداها الى امور اخرى لها صلة بالبلاد المجاورة ، ومن ثم كان اسمها (امارة القريات ومفتشية سلاح الحدود الشمالية) ذلك انها تتاخم حدود المملكة الاردنية من ساحل خليج العقبة الى اتصال المملكة الاردنية بالمملكة العربية السعوديه من الناحية الشمالية، وكان من آثار الامير عبد العزيز أن قام بعمل ما فيه صيانة لتلك الحدود الواسعة الطويلة ، من بناء قصور وتنظيم فرق من الجند مهمتهم الاشراف على الحدود ، ومن احسن ما يراه المرء في تلك الجهة ان (جنود الهجانة) في الحدود يتزيون بزي عربي جميل منظم ، يماثل زي من يحاذيهم من جنود البلاد المجاورة ، وهم من يسمون في الاردن بشرطة البادية ، وكان عبد العزيز يتصف بكثير من صفات المرونة والصفات العربية الاصيلة ، وهذا مما جعل القبائل المتجاورة في المملكتين تعيش على وئام واتفاق ، ولا تؤثر فيما بينها بعض الانظمة التي تتبع دائما في البلاد المتجاورة، ومعروف أن الصلات بين قبائل شمال المملكة وقبائل الاردن والشام صلات قوية ، تقوم على قواعد قديمة عربية موروثة ، تخضع لها اكثر من خضوعها لقوانين وضعت وهي غريبة عن طبيعة القبائل العربية ، ولهذا لا يستغرب المرء ان يشاهد عددا من قبائل شرق الاردن تعيش مع قبائل المملكة العربية السعودية عيشة وئام واخاء ، فعندما تصبح القبائل الاردنية في حاجة الى المكان الصالح لرعي انعامهم ، فانهم يجدون في بلاد اخوتهم وجيرانهم في المملكة العربية السعودية ما يتسع لهم ، والعكس بالعكس ، والصلة بين القبائل امر مهم يجب ان يحسب حسابه ، لكي تصبح الحالة بين البلادين المتجاورين حالة امن ورخاء ، واستمرار واتصال ولو اريد غير ذلك لنشأت مشكلات كثيرة بين القبائل التي تضطرها ظروف المعيشة الى التنقل وعدم الاستقرار في مكان معين ، والاختلاط مع غيرها ، سعيا وراء الرزق .



سكان هذه البلاد قديماً

اقوى قبيلة كانت تحل هذه البلاد في القديم هي قبيلة بنـي كلب ويجاورها من الناحية الشمالية قبيلة طيء ، والقبيلتان قحطانيتان ، وهما اقوى قبيلتين كانتا تحلان شمال الجزيرة ، وتمتد منازل بني كلب حتـى تصل الى حدود العراق شرقا والى الشام شمالا .

ويجاور قبيلة كلب من الناحية الغربية قبيلة عنزة العدنانية النسب، ومن الجنوب الغربي قبيلة غطفان ، وقد امتدت هاتان القبيلتان الى منازل بني كلب في وادي السرحان وما بقربه حيث يذكر الهمداني في «صفـة جزيرة العرب» ان قبيلة ذبيان سكنت الوادي الذي سماه بياض قرقر ، كما ان قبيلة الرولة انتشرت في هذا الوادي في عضور متأخرة ، وهي من قبائل عنزة .

ودراسة احوال هذه القبائل ، وتفرعها ، وتنقلها دراسة واسعـة مستفيضة لا تتسـع لها هذه العجالة ، غير ان مما ينبغي ذكره ان اسم وادي السرحان لصق بهذا الوادي حينما حلته قبيلة تنتمي الى قبيلة بني كلب، ويقول الاستاذ مصطفى الدباغ في كتاب «الجزيرة العربية موطن العـرب ومهد الاسلام» (١) : ان وادي السرحان كان في الاصل يدعـى وادي الازرق ، ولما نزله عرب السراحين منذ اكثر من مائتي سنة اصبح يعرف باسمهم ، والسرحان الذي نسب اليهم هذا الوادي قبيلة عريقة في القدم بطن من الاسبع من كلب بن وبرة من قضاعة من القحطانية ، وتنسب اليهم عشيرة السراحين في قضاء بئر السبع في فلسطين ، والهديبات في جبل الخليل . اهـ.

وهذا القول له وجه من الصحة ، غير انني لا اعرف مصدره حيث ذكر ان اسمه وادي الازرق ، كما ان الكلبي النسابة وهو من كلب ذكـر في ابناء كلب السرحان ولكنه اشار الى انقطاع النسب ، مع انه ذكر ان اخوانه ، وهم يسمعون باسماء السباع ، اعقبوا قبائل .

ولكن مما لا شك فيه ان قبيلة الشرارات التي تقطـن هذا الوادي وتقطن ايضا في الجوف ، ترجع في اصلها الى قبيلة بني كلب القحطانية

---

(١) ج ١ ص ١٧٤ .

العريقة في النسب ويطول القول فيما لو اردنا الاسترسال في التفصيل، ولكننا نجد بعض الفروع من قبيلة الشرارات تنتمي الى كلب ، وتسمى باسماء قبائل من هذه القبيلة ، فنجد من افخاذ الشرارات من الضباعين الرهيدات واحدهم رهيدي ونجد في قبيلة كلب القديمة الرفيدات بالفاء بدل الهاء ، وتقارب مخارج الحروف يوقع الاختلاط ، وهؤلاء الرهيدات نرى انهم هم قبيلة الرفيدات ، وهم بنو رفيدة بن ثور بن كلب ، قال النابغة يمدح النعمان بن المنذر الملك الغساني :

ساق الرفيدات من جوش ومن حدد   وماش من رهط ربعي وحجار

جوش : ارض لبني القين ، وحدد: ارض لكلب هو الحد ما بين جوش والجناب (الجهراء الان) . ماش : خلط (١)

وعميرة بن عامر بن بكر من عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب هو الجد الذي تتصل به العميرات من الشرارات وأمر آخر يؤيد هذا وهو ان الشرارات اذا سألت احدهم عن اصله اجابك بانهم من بني شرار ابن سلمان بن هلال مكلب ، ومعروف ان العربي ينفر من ان يسمى باسم لا يستحسنه ، ولهذا فهم يعبرون عن كلب باسم مكلب ، ومن عادة القبائل في وسط الجزيرة انهم عندما يعبرون عن جدهم الاقصى يعبرون عنه بصيغة (مفعل) فالدعاجين يعبرون عن جدهم باسم (مدعج) وأمثال هذا كثير .

وأمر ثالث فلصلة القبيلة بمساكنها القديمة ما يؤيد صلتها بسكانها القدماء بالنسب ، وهذه البلاد لا يشك باحث بأنها من بلاد بني كلب .

وأمر رابع فقبيلة بني كلب في القرن الرابع الهجري وما بعده ادركها الوهن والضعف ، فهي قبل ذلك ناصر قسم منها القرامطة ، فزالت دولتهم وضعفت وتهدم كيانهم ، فقويت عليهم قبائل اخرى كانت تجاورهم ومنهم طيء وعنزة اللتان اصبحتا في استمرار من النشاط حتى تغلب بعض فروعهما على هذه الجهات ، فانتشر فرع من طيء هم آل عمرو حيث استولوا على بلاد الجوف ، وصار يعرف باسمهم (جوف آل عمرو) الى عهد قريب من القرن السادس تقريبا حتى القرن الثالث عشر ، حيث حل محل هؤلاء فرع من عنزة هي قبيلة الرولة ، ولا شك ان بعض فروع الرولة يرجعون في الاصل الى قبيلة كلب القحطانية ، كما ان قبيلة الشرارات كغيرها من قبائل الجزيرة دخل فيها فروع من قبائل اخرى من طيء ، ومن ذبيان من غطفان ومن عنزة وغيرها .

---

(١) « ديوان النابغة » تحقيق الدكتور شكري فيصل — ص ٨٢

ومن هنا يتضح ان الشرارات من القبائل العربية الصريحة النسب، وكانت الى عهد قريب على درجة من القوة ، غير ان ضعفها في الازمنة القريبة وازدياد قوة القبائل المجاورة لها من الرولة وغيرهم جعل القبيلة تبدو بحالة من الضعف ، حتى اعتبرها بعضهم في عداد القبائل المجهولة الاصل ، وهذا خطأ وباطل .

ويحسن هنا ان نورد ذكر اسماء عشائر الشرارات وأفخاذ كل عشيرة معولين في ذلك على ما كتبه لنا الاخ عبد الله بن جريد ، وهو من الشرارات ووالده يتولى رئاسة احدى عشائر هذه القبيلة .

قسم لنا قبيلة الشرارات الى اربع عشائر ، وها هو بيانها كما كتبها مضافا الى ذلك اسماء قليلة املاها علي احدهم وهو مرافقي الشراري الذي بعثه معي أمير القريات :

١ ــ الحلسة (واحدهم حليسي) (وشيخها ابن دعيجاء) وفروعها :

أ ــ الصبحي وأفخاذهم : الدعاجين (واحدهم دعيجاني). الدوابسة: (دبيسي) والنواوقة ، العجيلات . الصوالحة ، الهلاكين (هليكاني) المضاحكة .

ب ــ الرشايدة : (رشيدي) .

جـ ــ الصبيحات : :(صبيحي) .

د ــ الدباوين : (دبيواني) .

هـ ــ القوينات (قويني) .

و ــ العمرو (عمري)

ز ــ الصباحنة ، غير الصبيحات (واحدهم صبحاوي) .

ح ــ الدفاف (دفافي) .

٢ ــ الضباعين (شيخها ابن جريد) وفروعها :

أ ــ الخميس (واحدهم خميسي) وأفخاذهم : الجريد ، الضبيعانيين، الدعيجا .

ب ــ العويمرة (عويمري) وأفخاذهم : الحميدان ، الحمدان، الحماد.

جـ ــ العيد (عيدي) .

د ــ المقبل .

هـ ــ القرية (قرياوي) ، وأفخاذهم : الحمارين ، الموانعة ، العطية .

و ــ الرهيدات (رهيدي) .

ز ــ الصواوية (صوا) .

٣ ــ الفليحان (فليحاني)، وشيخها اللحاوي وابن دويرج، وفروعها:

أ ــ السليم (سليمي) ، وأفخاذهم : الدويرج ، الليمون ، الصوالحة، الحزالمة ، الدقايقة ، المعاقلة ، المهرمس ، الحميد .

ب ــ الجوابرة (جابري) ، وأفخاذهم : اللحاوين (واحدهم لحاوي)،

المفالحة (مفلحي) ، العتايقة ، الدليهان ، البركات .

٤ ـ العزام (شيخها الخيال وابن وردة) ، وفروعها :

أ ـ المسند ، وأفخاذهم : الخيايلة (خيالي) ، الفليوات (فليوي) ، الهموش (همشي) ، الحويان (حوياني) ، العشيشان (عشيشاني) النصار (نصاري) .

ب ـ الماضي ، وافخاذهم : الوردة ، النصار ، الخضير .

جـ ـ الحمود .

وتتحدث الليدي آن بلنت في رحلتها (١) عن الشرارات ، فتورد اسماء اربعة بطون بهذا النص

لقد ظللنا نسأل حمدان عن قبيلته الشرارات ، وقدم ما يأتي باعتباره البطون الرئيسية (٢) :

الحميرة ... الشيخ اللحاوي .
الحلية ... الشيخ ابن حديجة .
الخيالي ... الشيخ زيد الوردي .
الشملات .. الشيخ فتح الله الدندة .

وليس للشرارات خيول ، ولكنهم يربون ارفع انواع الهجن في بلاد العرب . وأحسن فصيلة تسمى (بنات عدهان) وبنت عدهان ـ كما يقال ـ لو ابتدأت من حيث نحن الان عند الغروب ، لكنت في الغد عند الشروق في (كاف) ، مسافة تقدر بمائة وثمانين ميلا .

منذ مدة ليست بالطويلة سرق لص ذلولا شرارية في (المزاريب) ، وركبها الى حائل في سبعة ايام بلياليهن . انتهى كلامها .

وعلى ذكر ابل الشرارات ونجابتها تحسن الاشارة الى ان ابل قبيلة كلب مشهورة بذلك ، فقد اورد صاحب «الاغاني» أن الرماح بن أبرد المعروف بابن ميادة الشاعر ، وفد على الخليفة الاموي في دمشق ومدحه بقصيدة اعجبته ، فأمر له بمائة ناقة من نعم كلب ، ولكن عمال الزكاة حاولوا ان يدفعوا له ابلا أخرى فرفض ، وأخبر الخليفة فأكد الأمر مرة اخرى (٣) .

وعرف من ابل كلب الماطلية لها شهرة عند العرب ، وهي منسوبة الى رجل يدعى ماطل .

---

(١) « رحلة الى بلاد نجد » ص ٤٦ .
(٢) التحريف واضح في هذه المعلومات وقد نعود الى تصحيحها بمعرفة القراء الكرام .
(٣) « الأغاني » ٢ـ ١٠٥ .

القريات من الوجهة العامة

سأحاول -بايجاز- اطلاع القارىء على جوانب من أوجه النشاط الحيوي في هذه البلاد ، ومعروف انها - كغيرها من بلدان المملكة - تتمتع بما تتمتع به الاقاليم الاخرى من عناية الحكومة ، وسعيها لتصبح جميع نواحي البلاد على درجة من القوة في شتى مرافقها ، ولتضمن لسكانها حياة سعيدة .

وسأشير الى بعض تلك الجوانب اشارات اقتطفتها من تقارير ومعلومات عامة .

● - كانت الدوائر الحكومية تتخذ قرية «كاف» مركزا لاعمالها وفي عام ١٣٥٧ هـ انتقلت دوائر الحكومة الى قرية «النبك» التي تعتبر هي قاعدة القريات ومقر «مفتشية الحدود الشمالية الغربية» وهذه «المفتشية» تمتد الى مسافة ١٥٠ كيلا تقريبا شمالا عن بلدة النبك و٨٥٠ كيلا تقريبا شرقا وجنوبا عنها اي الى بلدة حقل الواقعة على شواطىء «خليج العقبة» والتي تبعد ٢٥ كيلا تقريبا جنوب العقبة .

● - تقدر مساحة مفتشية الحدود بـ ١٠٠،٠٠٠ كيلا مربعا تقريبا ويبلغ عدد سكان هذه المنطقة قرابة ١٥،٠٠٠ نسمة .

● - تشتهر هذه المنطقة باعتدال جوها في الصيف وبرودته في الشتاء، حيث تنزل الثلوج في معظم السنين في بعض نواحيها .

● - انشئت البلدية في النبك عام ١٣٧٣ هـ .

● - في شوال ١٣٨٢ تم بناء المستشفى الجديد الذي شيدته وزارة الصحة في النبك ، وانشىء مستوصف حديث في قرية الحديثة ليتمكن ابناء البادية من ارتياده لتوسطه في موقعه .

● - وفي رمضان سنة ١٣٨٢ انشىء مركز للتنمية والنشاط الاجتماعي.

● - يبلغ عدد سكان النبك قرابة ٨٠٠٠ نسمة .

● - تمثل وزارة الزراعة في المنطقة وحدة زراعية مزودة بمختلف الآلات الزراعية والفنيين الزراعيين .

● - كما تمثل وزارة الشؤون الاجتماعية بمركزي «التنمية الاجتماعية» و«الضمان الاجتماعي» اللذين باشرا اعمالهما في شهر رمضان من عام ١٣٨٢ .

- يوجد مكتب لجباية الزكاة وضريبة الدخل .
- اما الوزارات الاخرى الممثلة في البلدة فهي بالطبع الداخلية ممثلة بمفتشية الحدود والبلدية والشرطة ، والمواصلات بمركز البرق والبريد والهاتف . والاوقاف بهيئة المساجد . والمالية والاقتصاد الوطني بمالية القريات وجمركها . والمعارف بمختلف المدارس الابتدائية ومحو الامية والمدرسة المتوسطة ، ورئاسة مدارس البنات العامة بمدرسة البنات الابتدائية في القريات التي تأسست عام ١٣٧٤ هـ .
- من المحاصيل الزراعيةالتي نجحت في هذه المنطقة: النخيل، الرمان، التين ، الزيتون ، العنب ، القمح ، الشعير ، ومختلف الحبوب والخضروات الموسمية .
- كانت تجارة الملح تعتبر مورد الرزق الاول لسكان القريات ولكن بعد منع دخوله للاردن وسورية اتجه السكان الى الزراعة والتجارة وتربية المواشي التي تعتبر الان مورد رزقهم .
- المياه للزراعة متوفرة في وادي السرحان اذ تستخرج على عمق عشرة امتار في المتوسط وبقوة اربع بوصات باستمرار . كما توجد في المنطقة عيون جارية على سطح الارض .
- اسس ملعب رياضي كبير في البلدة عام ١٣٧٦ بتبرعات من اهل البلاد .
- يتصف سكان المنطقة بالنشاط والحيوية والتعاون الوثيق لما فيه خيرهم والعمل المتواصل في شتى الميادين الاجتماعية والاقتصادية(١).

ومن اوجه النشاط الاجتماعي الاداري في القريات انشاء صندوق للبر والاحسان ، انشأه الامير عبد العزيز السديري في سنة ١٣٧٤ ، ووجد من اهل البلاد تجاوبا بحيث اصبح ذا اثر نافع في مجال مساعدة المحتاجين والأسر الفقيرة والطلاب الفقراء .

- وفي سنة ١٣٨٧ انشئت لجنة لجمع التبرعات لأسر الشهداء برئاسة الامير .
- اما الجمعية التعاونية التي انشئت سنة ١٣٨١ هـ فتبذل نشاطا كبيرا في توفير ما تحتاجاليه البلاد من مواد غذائية وخضر ولحم وحليب، ولها مزرعة لعلف الدواجن . ويبلغ رأس مالها ١٢١٤٠٠ ريالا (عن ٢٤٢٨ سهما) وأعضاؤها ٤٥٤ ، ويرأسها الامير .
- وهناك (الجمعية التعاونية النسائية) تقوم بنشاط نسوي اجتماعي ثقافي في النبك ، وترأس هذه الجمعية الانسة البندري بنت عبد العزيز السديري .

---

(١) جُلّ المعلومات عن كتيّب « الحركة التعاونية في القريات » - ١١-١٣ .

التعليم في القريات

وفي القريات (وادي السرحان) من المدارس :

١ – مدرسة عمر بن الخطاب ،	ابتدائية	طلابها	٢٤٤
٢ – المدرسة الفيصلية	«	«	٣٠١
٣ – مدرسة خالد بن الوليد	«	«	١٦١
٤ – مدرسة العيساوية	«	«	٥٦
٥ – « الحديثة	«	«	٣٨
٦ – « عين الحواسي	«	«	٣٨
٧ – « كاف	«	«	٢٦
٨ – « الناصفة	«	«	٤٨
٩ – « الشويحطية	«	«	٢٤
			٩٣٦

والمدارس الست الأخيرة تقع بين مجموعة من القرى الصغيرة، فيجتمع فيها طلاب تلك القرى ، وسكان هذه القرى أغلبهم من البادية الذين لا يستقرون دائماً .

وفي القريات مدرسة متوسطة فيها حوالي ٢٠٠ طالب . وإدارة هـــذه المدرسة تابعة لمكتب (الإشراف على التعليم في الجوف) .

وفي القريات أنشئت أول مدرسة لتعليم الفتاة في المملكة سنة ١٣٧٣ ، وتتولى فضليات السيدات السديريات اخوات الامير وقريباتـه الإشراف على

توجيه الفتيات في هذه البلدة من حيث التعليم ،ومن حيث إيجاد بعض المجالات النافعة للنشاط النسوي . ومن كلمة للآنسة البندري السديري :

(لم تكن الدراسة النظرية لتغني المرأة في القريات عن تلقي دروس الحياة العملية ، فسرعان ما تجاوبت وتعاونت مع مركز التنمية الاجتماعية ، الذي أنشىء عام ١٣٨٢ ، إذ أقبلت عليه للانتفاع منه ، فسجل زهاء خمسة وسبعين سيدة في صفوف محو الأميـــة ، بينما انتسب عشرات منهن الى فروع أخرى كالتدبير المنزلي ، ورعاية الطفولة ، والأشغال اليدوية ، والعناية بالصحة العائلية والعامة ، وغير ذلك [١]) .



(١) : « الحركة التعاونية في القريات » ص ٣٩ .

المواصلات في القريات

تقع القريات في الطرف الشمالي الغربي من المملكة ، متاخمة لحدود المملكة الاردنية الهاشمية ، وتمتد حدود القريات الادارية إلى سواحل خليج العقبة ، ومن الناحية الشرقية تتصل بخط الأنابيب التابع لامارة الشمال ، ومن هنا كان موقعها نقطة اتصال بين الأردن وبين المملكة من ناحية ، كما أن عدداً من الطرق المهمة تخترق هذه الامارة ، كالطريق المتجه إلى الجوف ، والطريق المتجه إلى تيماء فخيبر فالمدينة ، وغير ذلك من الطرق .

وقد تمت دراسة رصف طريق يمتد من طريق خط الأنابيب ماراً بالقريات ومتصلاً بالأردن ، وقد عبد من ذلك الطريق ٢٤٠ كيلا من عَرْعَر .

أما باقي الطرق فلا تزال بحاجة إلى التعبيد ، ومنها ما هو على درجة كبيرة في تنظيم المواصلات في تلك الناحية وخاصة الطريق من النبك القاعدة إلى الجوف ، وها هو جدول يوضح أهم الطرق ومسافاتها :

من	الى	كيل
النبك قاعدة القريات	العيساوية	١٠٠
» »	كاف	١٨
» »	الحديثة	٢٥
» »	اثرة	٣٢
» »	منوة	٣٠

من		إلى	كيل
النبك	قاعدة القريات	العين	٢٩
»	»	الناصفة	٤٠
»	»	جماجم	٦٠
»	»	قليِّب خضر	٣٥
»	»	العظيمات	٤٠
»	»	الجفيرات	٥٢
»	»	العين البيضاء	٥٢
»	»	غطـّي	١٤
»	»	العقيلة	١٢
»	»	قراقر	٤٥
»	»	طريف	١٥٠
»	»	الجوف	٣٦٠
»	»	تبوك	٥٩٠
»	»	البئر (بئر ابن هرماس)	٦٥٠
»	»	حقل	٨٥٠
»	»	عَرْعَر	٣٩٠ ومنها ٢٤٠ كيلا معبدة
»	»	عَمّان	١٦١ » ٢٦ » »

وفي النبك مطار صغير صالح لنزول الطائرات الصغيرة ، والطائرة تصل كل اسبوع إلى القريات .



القرى والمناهل

أكثر سكان هذه المنطقة من البادية الذين لا يستقرون في مكان ، وإنما يتبعون مواقع القطر ومنابت الكلأ ، أما الحضر فيعيشون في قرى صغيرة منتشرة على ضفاف وادي السرحان حيث تكثر المياه القريبة من وجه الأرض، فيعملون في الزراعة ، ولكن بصورة ضعيفة لضعف العوامل الاقتصادية ، يضاف اليها عدم توفر المياه الجوفية وعدم صلاح التربة في كثير من المواقع ، وحاجتها إلى الاصلاح ، وكل هذه من الامور التي تجعل الفلاح في هذه البلاد يقنع بحصول موسمي سريع ، قليل النفقة، كالخضروات التي يتجه إلى زرعها أكثر الفلاحين ، ومن ثم تزيد عن حاجة السكان زيادة تجعل غلة الفلاح تصاب بكساد فيقل في الغالب محصوله عن مصروفه . ولقد كان جمع الملح وبيعه في الأردن وسورية من أهم موارد الرزق لأهل هذه البلاد ، إلا أن كساد هذا العمل في الأيام الأخيرة أصاب البلاد بضعف .

وفي المنطقة مناهل ترتادها البادية لورودها والنزول عليها فترة من الزمن ، وهي منتشرة في كل جهات البلاد كغيرها من انحاء المملكة ، وها هو بيان أهم القرى والمناهل ، وقد أوضحت في فصل خاص تحديد المواقع المهمة منها.

←



١ ــ القرى (مرتبة على حروف المعجم)

١ ــ النبك (قاعدة البلاد)
٢ ــ ابا الجِنشان
٣ ــ إثرَة
٤ ــ أمُّ رسوم
٥ ــ البدْع
٦ ــ البَديعَة
٧ ــ البِير
٨ ــ تتن
٩ ــ الجُفيرات الشمالية
١٠ــ جماجم
١١ــ الحَديثة
١٢ــ حقـْل
١٣ــ الرشراشية
١٤ ــ صُبيخان
١٥ ــ عَلقان
١٦ ــ العِيْساويَّة
١٧ ــ العين البيضاء
١٨ ــ عين الحواسي
١٩ ــ العُظيات
٢٠ ــ غَطـِّي
٢١ ــ القرفر
٢٢ ــ قليب خِضر
٢٣ ــ كاف
٢٤ ــ مُغيراء
٢٥ ــ مِنـْوة
٢٦ ــ الناصفة

المناهل (موارد البادية)

١ ــ أُريك (وريك)
٢ ــ الأسيد
٣ ــ الأمغر
٤ ــ أم حصاة
٥ ــ أم العين
٦ ــ حصيدة الشرقية
٧ ــ حصيدة الغربية
٨ ــ الرديفة
٩ ــ الطريفاوي
١٠ ــ ُقراقر
١١ ــ القـَصَيباء
١٢ ــ المابِيـّة
١٣ ــ المـُويه
١٤ ــ الهـَزيم

(انظر المصور الجغرافي في آخر الكتاب)

الآثار في وادي السرحان

كان من أول ما لفت نظري بعد وصولي إلى بلدة النبك عندما حان وقت صلاة المغرب في المكان المخصص للصلاة في حوش القصر ، وهي بقعة منه غير مبنية – أن شاهدت في محراب المسجد حجراً مستطيلاً أسود، وضع ليكون حدّاً للمحراب وضعاً بدون بناء ، ولما دققت النظر فيه وجدته مملوءاً بكتابة قديمة واضحة ، ليست عربية ، وبعد الصلاة تحدثت مع الإمام ويدعى ابن خميس من أهل بلدة الغاط وسألته : من أين هذا الحجر ؟ فاستغرب سؤالي حتى أوضحت له انه يحوي كتابة قبل العهد الإسلامي ، فتعجب وقال : تعال أريك حجراً آخر ، فخرج بي الى باب القصر ، وأراني حجراً أسود كبيراً ، وقد وضع ليكون تكأة لصندقة الشرطي الذي يقف على الباب ، ولكنني لم أتبين الكتابة لظلام الليل .

ولما قابلت الأمير قلت له : إن هذا الحجر الذي في المحراب حجر أثري فيه كتابة قديمة فتجب صيانته ، وكذا الحجر الذي عند الباب ، وتحسنون صنعاً لو أرسلتم الحجرين إلى جامعة الرياض .

ثم علمت فيما بعد ان أحد الغربيين زار البلاد في عهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز السديري ، وأحضرت له مجموعة من الأحجار الأثرية منها هذان الحجران ، وانه نقل بعض الكتابات ، وأخذ بعض الأحجار ، وهذان الحجران تركا مَرْميَّيْن في حوش القصر برهة من الزمن ، ثم أخذ أحدهما

ووضع ليكون حدّاً للمحراب ، وأخذ الثاني فطرح عند الباب ليكون تكأة للمكان الخشبي الذي يقف فيه الشرطي الحارس .

وعلمت فيما بعد أن في مكتب الامارة بعض الأحجار الصغيرةالتي عرضت على ذلك السائح ، فحلّ رموز بعضها ، وقد كرم الأمير فأمر كاتبـه الأخ ابراهيم حيرم أن يطلعني عليها ، فتفضل باهدائي صور بعضها .

ولما زرت قرية (كاف) عرض علي أحد أهلها مجموعة صغيرة من الأحجار وكسر الفخّار فيها كتابات أخـذت بعضها ، وسأورد نماذج صور لبعض الأحجار الصغيرة .

لقد تبين من قراءة تلك الكتابات أنها صفوية ، ويحسن الحديث بإيجاز عن الكتابة الصفوية ؛ يقول الدكتور جواد علي [١] : (أطلق المستشرقون على هذه الكتابات لأنها وجدت نماذج كثيرة لها في أرض الصفاة أو الصفا ، وهي أرض بركانية مغطاة بصخور سود، تقع في جنوب البلاد السورية. وتلك الأرض التي وجدت فيها تلك النماذج واسعة تمتد من سورية إلى نهر الفرات إلى فلسطين فأعالي الحجاز ، وإذن فالصفوية تسمية ليست عربية قديمة ، وليست علماً على قوم معينين ، وإنما هي تسمية حديثة أطلقها المستشرقون على قبائل عديدة متنقلة من مكان إلى مكان ، لطلب الكلأ والمـاء لرعي ماشيتها في أزمنة مختلفة متباينة ، وليس فيما عثر من تلك الكتابات ما يحدد تاريخـاً زمنيّاً معيناً ، أو أمة معينة ، والاستنتاجات التي استنتجها الباحثون تحددها فيما قبل الإسلام إلى قبل ميلاد المسيح ، وهى تحوي أسماء قبائل عربية ، وأسماء مواضع وأعلام لا يزال كثير منها مستعملاً بين العرب حتى عصرنا الحاضر ، وقد أورد الدكتور مصطفى جواد من أسماء الأماكن

---

(١) « المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » ج ٣ ص ٢٤٠ وما بعدها .

الترتيب العربي الكامل للحروف	عبري	سبأي	لحياني	ثمودي	صفوي
أ	א				
ب	ב				
ج	ג				
د	ד				
ذ	ד̄				
هـ	ה				
و	ו				
ز	ז				
ح	ח				
خ	ח̄				
ط	ט				
ظ	ט̄				
ى	י				
ك	כ				
ل	ל				
م	מ				
ن	נ				
س	ס				
ع	ע				
غ	ע̄				
ف	פ				
ص	צ				
ض	צ̄				
ق	ק				
ر	ר				
ش	ש				
ت	ת				
ث	ת̄				

الحروف الصفوية وبعض الحروف القديمة

الحِجرْ وتيما ومن أسماء القبائل : عَوذ ، وتيم ومن أسماء الأعلام (قصيو بن كلبو) أي قصي بن كلاب [1] .

ويقول الدكتور جواد في وصف الخط الصفوي : إنه خط عربي ، ولد من الأم التي نسلت الخط العربي ، وهـــو قريب من الخط الثمودي والخط اللحياني ، ويعني هذا أن العرب كانوا يكتبون قبل الميلاد بخط أودُّ أن اسميه بالقلم العربي الأول ، منه تفرعت الأقلام العربية المتنوعة فيما بعد ، وهذا يدل على أن الصفويين وأمثالهم من الأعراب لم يتأثروا بالثقافة الآرامية مع قربهم منها ، واتصالهم بها ، وطغيانها على الثقافات الأخرى في العراق والشام [2] .

هذا ملخص ما يراه الباحثون في أصل الكتابة الصفوية ، على ما ذكره الدكتور جواد وذكره غيره منهم .

أما أنا فأرى ان قبائل كثيرة من جنوب الجزيرة هاجرت في أزمان مختلفة قديمة إلى شمال الجزيرة ، من الحجاز غرباً إلى العراق شرقاً ، ومن نجد جنوباً إلى الشام شمالاً ، وهذا الأمر يـــكاد يتفق عليه المؤرخون من العرب وغيرهم ، ممن درسوا تموُّجات القبائل في جزيرتهم وفي اطرافها ، وقبل ظهور الاسلام كانت فروع قبيلة قضاعة منتشرة في تلك الجهات، مثل قبيلة بني كلب وقبيلة عذرة وقبيلة جهينة وبليٍّ وغيرهم من القبائل الجنوْبية مثل لخم وجذام ومن المعروف أن جنوب الجزيرة كان على درجة قوية من الحضارة ، وليس من شك في ان تلك القبائل المهاجرة نقلت كثيراً من مظاهر الحضارة إلى البلاد التي انتشرت فيها في شمال الجزيرة ، ومن أمثـــلة ذلك أننا نجد من معبودات المعينيين وهم من سكان جنوب الجزيرة ، نجدهم يعبدون ودّاً وهو عندهم بمعنى الحب او المحب ، وقد صوروه إلاهاً ذكراً [3]

---

(١) « المصدر السابق » ص ١٥٣ .

(٢) « المصدر السابق » ص ١٤٤ .

(٣) « تاريخ العرب » فيليب حتي ص ٨٠

ثم نجد هذا الإله فيما بعد من معبودات قبيلة بني كلب ، وقد نصبوه في دومة الجندل بشكل رجل محارب .

ولا شك أنّ تلك القبائل الكثيرة كان من بينها من يحسن الكتابة ، وهذا ما يفسر لنا قول صاحب « الفهرست » أول من وضع الكتاب العربي نفيس ونضر وتيماء ودومة من ولد اسماعيل [١] .

وأرى أن معنى هذا أن الكتابة العربية انتقلت من أهل الشمال من سكان دومة الجندل وتيماء ونواحيها ، وهم من العرب الجنوبيين في الأصل . وسيأتي لهذا زيادة ايضاح في الكلام على الجوف (دومة الجندل) .

ومما يلفت النظر فيما عثر عليه من الكتابات الصفوية اننا نجد صلة بين أصحابها وبين سكان الحجاز ، فنجد مثلاً (النقش صفحة ٦٥) . – نجد اسم حُنٍّ ، وحن يسمى به فرع من فروع قضاعة ، من عُذْرة القبيلة المشهورة ، وهو أخو رزاح بن نصر ، كما نجد في الكتابة أيضاً اسم قصي بن كلاب على ما تقدم في قول الدكتور جواد علي ، والصلة بين حُنٍّ هذا ، وبين قصي ذكرها مؤرخو العرب . ففي « جمهرة النسب » لابن الكلبي ما هذا نصه : بنو حُنّ بن ربيعة من سعد هُذَيْم من قضاعة وأخوه رزاح هو أخو قصي بن كلاب لِأمّه ، وهو الذي نصر قُصَيَّ بن كلاب على بكر بن عبد مناة . ومثل هذا في « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم [٢] .

ونجد من بين أسماء القبائل التي أوردها الدكتور جواد علي قبيلة عوذ ، وعوذ بطن من سعد هذيم من قضاعة [٣] ، وبنو حُنّ حذر النابغة النعمان بن المنذر ملك الحيرة من غزوهم بقوله [٤] :

---

(١) « الفهرست » ص (٥) الطبعة الأوروبية .
(٢) ص ٤٤٨ .
(٣) ص ٤٤٧ .
(٤) « ديوان النابغة » تحقيق الدكتور شكري فيصل ص ١٤٤ .

لقد قلتُ للنعمان يوم لقيتهُ ... يُريدُ بني حُنٍّ ببُرقةِ صادرِ:

تجنَّبْ بني حُنٍّ فإنَّ لقاءَهم ... شديدٌ، وإن لم تلقَ إلا بصابرِ

عِظامُ اللُّهى، أبناءُ عِذرةٍ إنهم ... لهاميمُ، يَستلهونها بالجراجرِ

هم مَنعوا الخل (القُرى) من عدوهم ... بجمعٍ شديدٍ كيدُهُ للمكاثِرِ

من الشارعاتِ الماء بالقاع تستقي ... بأعجازها قبل استقاء الحناجرِ

بُزاخِيَّةٍ ألْوَتْ بليفٍ كأنه ... عِفاءُ قِلاصٍ طارَ عنها، تواجرِ [1]

صِغارُ النَّوى، مكنوزة ليس قشرها

إذا طار قشر التمر عنها بطائرِ

هُمُ طرَّفوا [2] عنها بَلِيّاً فأصبحت

بليٌّ بوادٍ من تهامةَ غائرِ

وهم منعوها من قُضاعة كلها ... ومن مُضَرَ الحمراء ذات التغاورِ

وَهُمْ قتلوا الطائيَّ بالحِجْرِ [3] عَنْوَةً

أبا جابرٍ، واستنكحوا أُمَّ جابرِ

ليس ورود اسم حُنٍّ واسم عوذ في الكتابات الصفوية امراً جازماً بأن هاتين القبيلتين هما من ذكرنا، ولكن الذي لا شك فيه أنهما اسمان عربيان وجدا في امكنة تحلها قبائل عربية انتقلت من الشمال، وهذا من اقوى الدلائل على أن هذه القبائل نقلت الكتابة التي بقيت آثارها في هذه الجهة نقلتها من جنوب الجزيرة اليها، وليس لديَّ من المعرفة عن الآثار ما يمكنني من إبداء رأي صائب في موضوعها، وانما سقت هذا للتدليل على أن هذه الكتابات الكثيرة المنتشرة في شمال الجزيرة كتابات عربية لأمم عربية انتقلت من الجنوب، وعنها انتقلت الكتابة العربية بعد تطويرها.

---

(١) بزاخية: متقاعسة بحملها من كثرته. العِفاء: الوَبَرُ. القِلاص: جمع قلوص. الناقة.

(٢) طرَّفوا: رَدُّوا.

ليست الكتابات هي الآثار وحدها في وادي السرحان بل هناك قصر أثري في قرية كاف أهم قرية قديمة في الوادي ، هـــذا القصر يظهر من آثاره الباقية انه أعيد بناؤه مراراً ، وأنه كان في القديم يحوي تماثيل منحوتة في الصخر ، وصوراً منقوشة على بعض الصخور ، فمما بقي من آثار تلك التماثيل تمثال لم يبق منـــه سوى كسرتين في حجرين ضخمين كل حجر يحوي صورة ثدْيٍ بارز واضح ، دقيق النحت ، وهذان الحجران بُني بهما جدار القصر ، ووضعا بين أحجار الجدار في مكانين متباعدين ، وفي القصر أيضاً حجر آخر يبدو من داخل القصر في أعلى الجدار بارتفاع ثلاثة أمتار تقريباً ، فيه صورة وجه بارزة يشابه في كثير من ملامحه الصور التي نشاهدها في الآثار اليمنية . ولا شك أن صورة هذا الوجه كانت لتمثال حطم ، ولم يبق منه سوى رسم الرأس وما يتصل به ، فاستعمل في البناء في وقت متأخر ، وفي أحد أحجار القصر تبدو رسوم دقيقة لحـّية بارزة المعالم متطوية وضع الحجر الذي في هذا الرسم في مكان آخر من جدران القصر .

وقد أحضرت بعض النقوش من أحجار وكسر فخار فوقها كتابة، قرأها الدكتور الغول فوجدها صفوية .

أما الكتابة العربية الموضوعة فوق مدخل القصر وهي بالخط الكوفي القديم فلا يشك من يراها بأنها ترجع إلى القرن الأول الهجري ، ولعلها من العهد الأموي ، فقد انشأ خلفاء بني أمية في تلك النواحي وفيما بينها وبين الأردن قصوراً لا تزال باقية ، وفيها كتابات تماثل الكتابة المشاهدة فوق باب هـــذا القصر ، أما ما زعمته الرحالة الانـكليزية الليدي آن بلنت من قـــدم الكتابة عن هذا العهد وعما قيل لها : بأنها كتابة لحماية كنز في داخله فليس في كل ذلك من أوجه الصحة سوى ما يتخيله السكان عن عراقة هذا القصر في القـــدم ، ولعلهم عندما شاهدوا صور الحيات ، نشأت عندهم هذه الخرافة، وهي خرافة لا يزال أثرها متناقلاً في جزيرة العرب ، فكثيراً ما يعتقدون أن وجود الحية في خربة او بئر ، وخاصة عندما تكون قد الفت ذلك المكان ، يعتقدون

أنها تقوم على حراسة كنز ، ومثل هذا نجد له أصلا في الخرافات العربية القديمة كما في كتاب « التيجان »[1] .

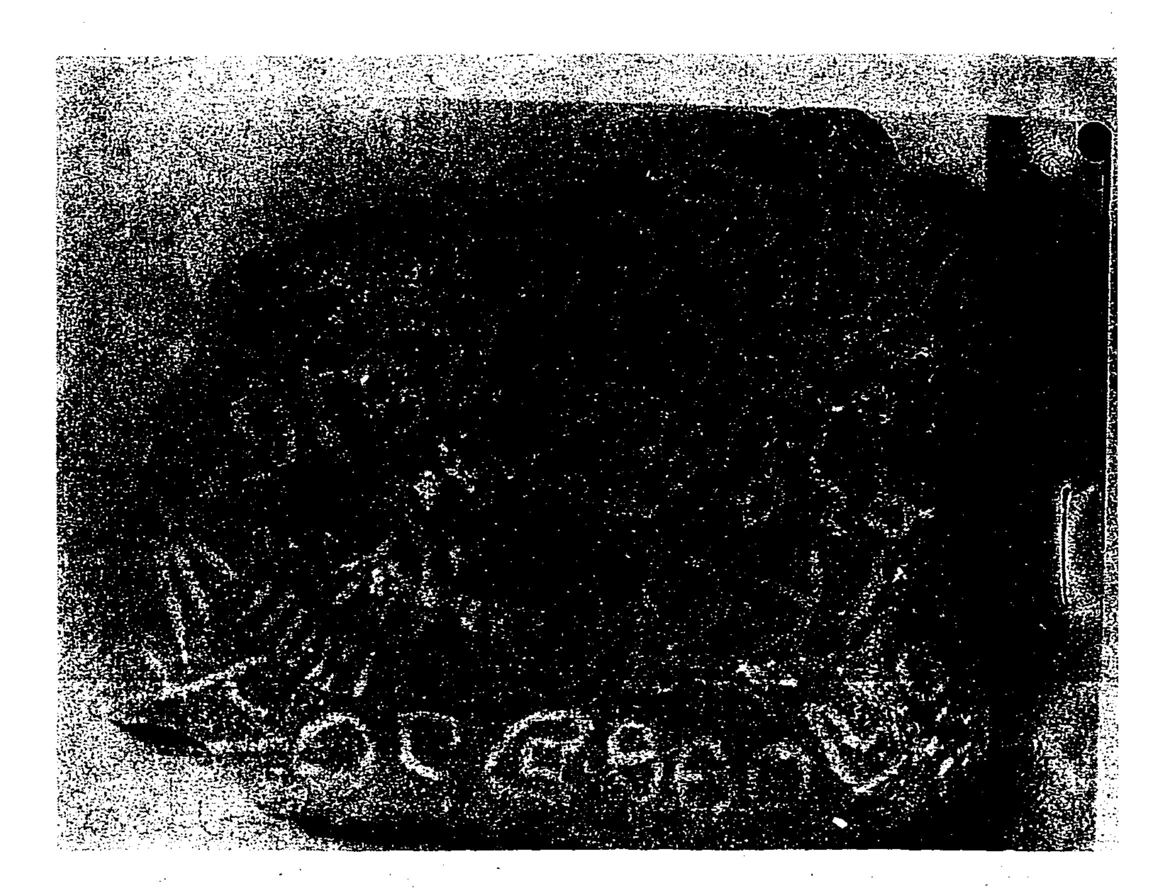
وعن آثار المنطقة يوجد كثير من الأحجار وكسر الفخار فوقها كتابات ، وهذه الكتابات قسمان قسم منها : وضع فوق مقابر ، ويُسَمَّى القبر في الكتابات الصفوية (وَجم) وهي تسمية لها أصل في القدم في اللغة العربية التي وصلت إلينا ، فقد جاء في « اللسان » و « التاج » وغيرهما : الوجم بالفتح ويحرك : حجارة مركومة من صنعة عاد ، جمعها أوجام . والمتقدمون عندما يرون شيئاً قديماً من الآثار لا يستطيعون فهم الغاية منه ينسبونه إلى عاد، والوجم والرجم بمعنى واحد، والرجم كلمة لا تزال مستعملة يقصد بها العلامة في الطريق ، والإشارة إلى مكان ما ، وقد يقصد منها القبر ، وفي الجزيرة أمكنة كثيرة ، يطلق على كل واحد منها رجم مضافة إلى رجل قد يكون قتل في ذلك الموضع أو قبر فيه ، فكومت الأحجار في ذلك المكان للاشارة إلى ما وقع فيه .

ومن آثار الجهة أيضاً وجود قبور قديمة في قمة قارة رَضوَى في الجنوب من كاف على مقربة منها ، وبالاجمال فكما قلت سابقاً : لست من علماء الآثار، ولهذا كانت عنايتي فيما يتعلق بها موجزة تقف عند حد لفت النظر لكي تدرس هذه الناحية دراسة أثرية كاملة .



(١) ص ٦٨ و١٩٩ .

نماذج لبعض النقوش التي على الأحجار :

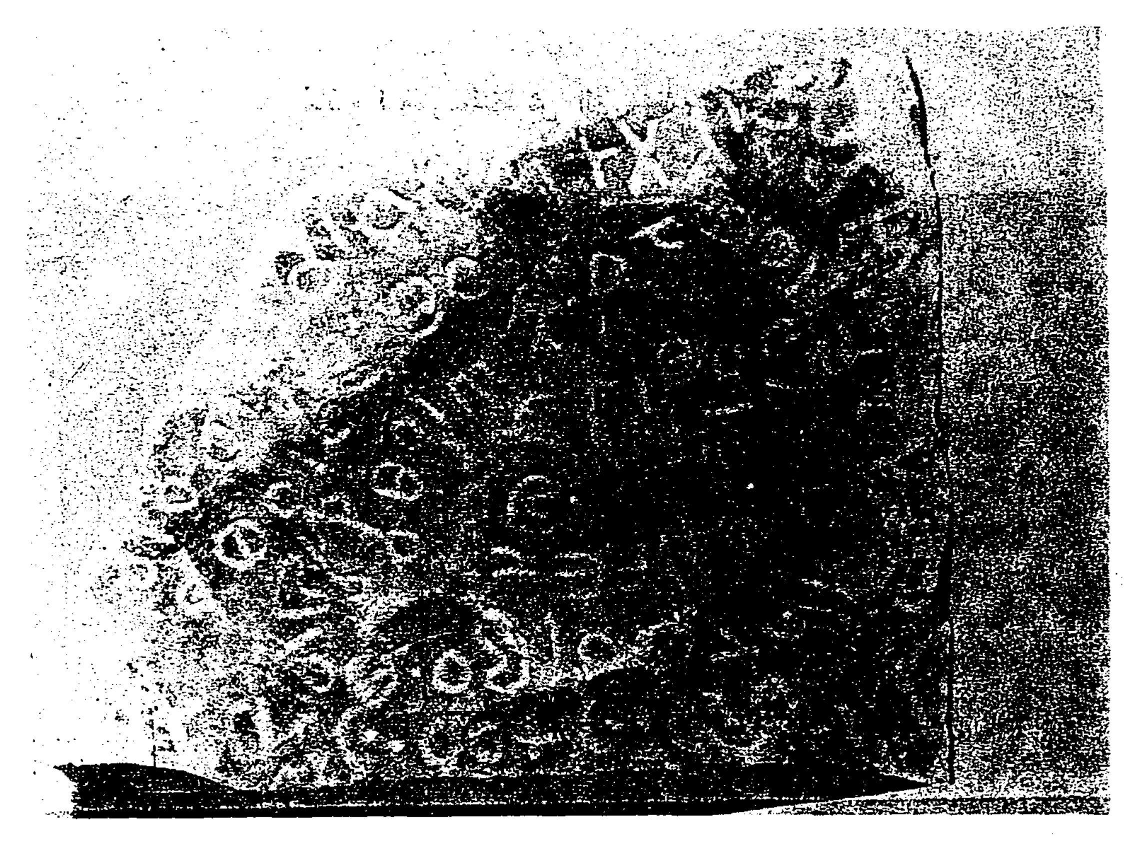


النص بالصفوية :

لمر بن محلم ذ إل جرم ووجم على ابه وعل أ يس وعل يغث وعل غير إل

النص بالعربية

لِمرْ بن مُحلم ذي آل جرم ووضع حجراً على وجم أبيه وعلى إياس وعلى يَغُوث وعلى غَيْرئيل



النص بالصفوية

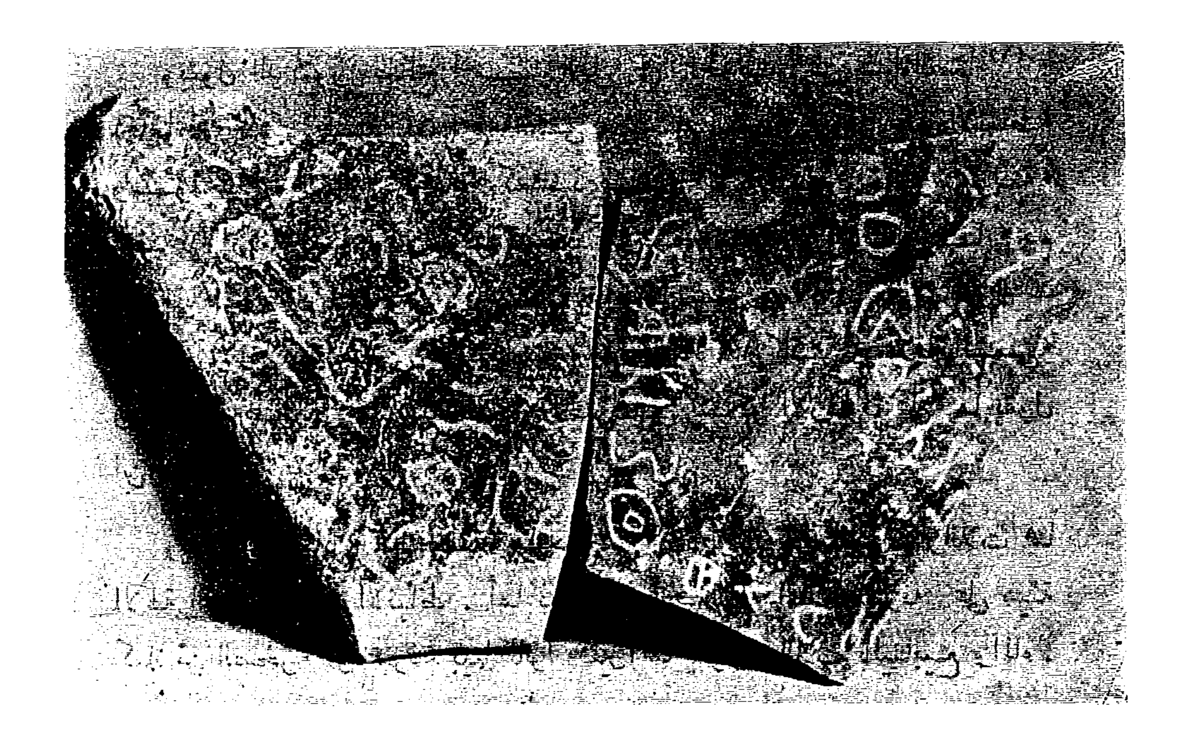
لرجب (؟) بن نجرت بن زد ذ إل أسد ووجم عل أخه وعل أخته وعل صهل (؟) وعل عبد وعل يمن(؟) وعل أيس وعل ملك وعل أيس وعل معن وعل مغث وعل حب إل وعل حن وعل كخسمن

النص بالعربية :

لِرَجب (؟)[1] بن نجرة بن زيد ذي آل أسد[2] ووضع حجراً على وَجَم أخيه وعلى أخته وعلى صاهل (؟) وعلى عبد وعلى يا من وعلى إياس وعلى مالك وعلى إياس وعلى معن وعلى مُغيث وعلى حُبَيْئيل وعلى حُنّ وعلى كُحيسُمان

---

(١) قرأ هذه النقوش ووضع ترجمتها الاستاذ يوسف محمد عبدالله وقرأها سائح غربي : أكدر بن نعرة بن زيد ذي آل انعام ، وندم على أخيه وعلى أخته وعلى صلل الخ .



النص الصفوي (في النقش المكسور) :	النص العربي :
... ووجم عل أخ ...	... ووضع حجراً على أخـ[يه]...
فهد شر ...	فيا ذا الشرى ...
... م ذ إل شج وسبي	... م ذي ال شج وَسَبَى ...

* * *

هذا النقش ذو قيمة أثرية عظيمة، ولكنه - ويا للأسف وجد مكسوراً — إنه يدل دلالة تأريخية على صلة سكان هذه البلاد بسكان جنوب الحجاز ، حيث نجد مما بقي فيه من الأسماء اسم (ذي الشَّرَى) وهو من المعبودات المعروفة إلى قبيل ظهور الإسلام عند سكان سروات الحجاز ، فقد كان من الأصنام التي تعبدها أزد السراة (انظر تفصيل هذا في القسم المتعلق بسراة زهران وغامد من هذه الرحلة) وهذا يضيف دليلاً قويا على صلة سكان شمال الجزيرة بسكان جنوبها .

ويقول الدكتور صالح أحمد العلي في الحديث عن هذا الصنم [1] : (فأما ذو شرى فيبدو أن اسمه مشتق من جبل السراة ، وقد عبده الأنباط، وسَمَّوا كثيراً من أولادهم به ، كعبد ذي شرى ، وكان عندهم صخرة مربَّعة، ارتفاعها أربعة أقدام ، وطولها قدمان ، ويسفح عليها ، أو امامها ، دم الضحايا . ويقول أبيفانوس : انه كان يقام لها عيد في ٢٥ كانون الأول – أي يوم الانقلاب الشتوي – فإذا صح هذا فمعناه أنه كانت له علاقة بالشمس، وكان عند ظهور الإسلام يعبده بنو الحارث بن يشكر الأزديون على ما يقول ابن الكلبي[2]) .

ويقول الأستاذ (لانكستر هاردنج) [3] : وكان ذو الشرى واللات هما الآلهة الكبرى عند الأنباط . أما ذو الشرى فكانوا دائماً يجسدونه على هيئة كتلة من الصخر، أو عمود، بينما كانوا كثيراً ما يقرنون اللات بالينابيع والماء .

وكلمة (دوشارا) نابعة من الكلمة العربية (ذو الشرى) والشراة هي الجبال الواقعة قريباً من البتراء، وهي ما تزال محتفظة بهذا الاسم حتى اليوم . أما في التوراة فيطلق عليها اسم (سعير) وهو نفس كلمة (الشراة) وتصف التوراة (يهوه) بأنه (أشرق من سعير) أي إنه (دوشارا) نفسه . وكان يهوه يقيم في بيت من الحجر ، يدعى أحياناً (بيت إيل) – بيت الله – وكانت هياكله الكبرى تقوم في الأماكن المرتفعة ، مثله مثل (دوشارا) إنتهى كلام (هاردنج) . ونعلق بما يلي :

١ – الشراة هو امتداد لكلمة السراة لفظاً ومعنى ، فإن السين كثيراً ما تُلفظ شيناً معجمة وخاصة في العبرية ، وهذا أمر لا يحتاج إلى إيضاح فكل من لديه إلمام باللغتين يدركه إدراكاً تاماً .

---

(١) « محاضرات في تاريخ العرب » ص ١٩٠ .

(٢) « الأصنام » ص ٣٨ .

(٣) « آثار الأردن » ص ١١٨ .

٢ – إن الأنباط مجموعة من القبائل العربية القحطانية التي انتقلت من سراة الحجاز إلى شمالى الجزيرة ، فنقلت معها كثيراً من عاداتها وتقاليدها ومنها معبوداتها .

٣ – نريد إزالة وَهْمٍ قد يعلق في أذهان بعض القُرَّاء في بلادنا ، وهو أننا ونحن نورد هذه الأقوال عن خرافات المتقدمين ومعبوداتهم لا نوردها بمعرض التقرير لها ، ولكن لكي نوضح الصلات التي كانت تربط بين سكان هذه الجزيرة من جنوبها إلى شمالها ، وهي صلاتٌ أقوى من أن يتطرّق الشكُّ إلى إنكارها ، ونحن من أبعد الناس عن الإيمان بالخرافات أياً كان مصدرها ، ومن أقواهم إيماناً ويقيناً بأن ديننا الحنيف أبطل كل هذه الخرافات إبطالاً قضى عليها قضاءاً مُبرماً ، بحيث لا يخشى من الحديث عنها أن يكون له من الأثر ما يحاذره الغيُر على ديننا الحنيف . وهذا القول لا يدرك مغزاه حق الإدراك إلا من عرف ما يتحلّى به أهل بلادنا من غيرة دينية قوية .

وقد نعود للحديث عن هذا الموضوع عند الكلام على زيارة آثار (البتراء) .

ولقد زار هذه المنطقة عالِمان غربيان هما : الأستاذ « وِلـيم رِيد » الأمريكي رئيس قسم الدراسات الدينية والأثرية في جامعة (T. C. U.) في عامي ١٩٦٢ و١٩٦٧ . والأستاذ « وينيت – WIUNET » أستاذ اللغات السامية في جامعة تورنتو في كندا ، وشاهدا كثيراً من الآثار ، ونقلا بعضها ، وصوّرا كثيراً من النقوش القديمة ، وألّفا عن ذلك كتاباً طبع سنة ١٩٧٠ باسم « سجلات من شمال الجزيرة العربية » يقع في ٢٤٣ صفحة بالإنجليزية ، يحوي كثيراً من الصور لآثار المنطقة ، ويحسن بكل من يعنى بتاريخها دراسته ، وقد ترجم بعض الآثار المنشورة في كتابنا هذا ترجمة تتفق مع ما قام به الأستاذ يوسف عبد الله الذي وضع دراسة وافية في كتاب عن الكتابات الصفوية في شمال الجزيرة .



وهذا من نماذج الآثار الموجودة في القريات وهو حجر يحوي كتابة آرامية ، وهذا النوع من الكتابات كان منتشراً في أول العهـد المسيحـي

* * *

وبعد ،: أفلا يحسن وقد أملت القارىء بحديث أو أحاديث فيها ما يدعو إلى السأم والملل أن أنقله إلى جو آخر هو جو الأدب والشعر ، وإن كان بعيداً عن المجال الذي أتحدث عنه إلا أنه له صلة قريبة ، ووشيجة قوية بهذه البلاد .

وادي السرحان كان موئلاً لأحرار العرب

عندما هجم الفرنسيون على البلاد السورية وقذفوا بقوتهم ورجالهم لاخضاع تلك البلاد، لم يجد أحرارها ملجأ سوى جزيرة العرب التي هي ملجأ كل عربي حر ، ومن ثم وجدوا من الملك عبد العزيز – رحمه الله – ما كان أقوى موئل لهم في كنفه وفي بلاده ، فالتجأ أحرار بني معروف (الدروز) وغيرهم من أبطال المجاهدين من أبناء سورية وغيرها إلى بلاد الملك عبد العزيز في وادي السرحان ، فهرب سلطان باشا الأطرش وبعض الأمراء من آل رسلان كالأمير عادل وغيرهم من المجاهدين إلى وادي السرحـــان ، وأقاموا فيه محاطين بما يستحقونه من اكرام واعزاز ، ولا غرو فليس للعرب ملجأ سوى بلادهم الأصيلة، واخوتهم العريقي النسب بهم، والموضوع يحتاج إلى تفصيل واف غير أنني أكتفي بمـــا كتبه أستاذنا أبو الغيث الزركلي عن رحلة قام بها إلى هذه البلاد في سنة ١٣٤٦ هـ وفي كتابة كاتبنا وأستاذنا وشاعرنا ما يغني عن التفصيل وفي رائع شعره وشعر الأمير عادل ارسلان ما يصور لنا جانباً من جوانب الاخاء العربي بأسلوب عربي مشرق ، يغني عن الاطالة وزيادة الشرح .

قال أستاذنا وعلامتنا الجليل خير الدين الزركلي :

برحنا القاهرة ثلاثة : الحاج أمين الحسيني ، في طريقـــه إلى القدس ، والحاج أديب خير ، وأنا . في قطـــار الساعة السادسة من مساء السبت ١٢

نوفمبر ١٩٢٧ الموافق ١٧ جمادى الأولى ١٣٤٦ ، وكان إلى جانبنا في القطار أجنبيان عجوزان رجل وامرأته ظنناهما ممن تقذفهم الصهيونية الى فلسطين ، فإذا هما أميركيان والرجل أستاذ الزيولوجي في احدى الجامعات الأميركية ، حدّثنا عن الشاعر الإنكليزي المستشرق « بلنت » وقال : انه كان صديقاً له شخصياً وأنه زاره في منزله باحدى ضواحي لندن وأن الذي ذكّره بـه مرأى عباءتي ، لأن بلنت كان إذا جلس للسهرة مع عائلتـه لبس الألبسة العربية والعباءة ، وانه كان يحب العرب ، وله قصيدة يـذكر فيها خيول العرب[1] . وبلغنا غزة قبل الفجر، فإذا برشدي الشوا يوقظنا ،وجاءه سعيد افندي زين الدين (وهما محاميان) فكان حديثهما عن الخلاف بمصر والنقمة على من نكلوا عن خدمة أمتهم .

واستقبلنا في القدس جَمْع (ضحى الأحد) فمكثنا بينما انصرفوا بالحـاج أمين ، وبقي منهم صبحي خضرا ، فذهبنا معه الى منزله حيث كان يخدمنا غلام اسمه ابراهيم الحلبي وهو درزي قتل أبوه في وقعة المزرعـة وأخوه في المسيفرة وله أخ وأخوات في القريات .

ومكثنا إلى الساعة ٨ مساء فركبنا السيارة إلى عَمَّان فوصلناهـا (أنا والحاج أديب الساعة ١١،٣٠ [2] ونزلنا في دار عادل العظمة فلبثنا نصف ساعة، وصحبنا أديب أفندي العسلي ومعه بندقية فيها مشطان فقط ولم يكن معنا سلاح غير هذا .

وعدنا الى المسير ليلا فمررنا بقرية رجيم ويؤكد الكثيرون ان اسمها محرف عن « الرقيم » لأن فيها مقابر قديمة يقال انها مقابر أهل الكهف [3] ، ومنها

---

(١) نشرت (دار اليمامة) رحلة حفيدته الليدي آن بلنت .

(٢) تعمدت الوصول ليلا ، وقد غيرت اسمي ، وحملت معي أوراقاً مزورة ، مخافة أن يعلم أمير شرقي الأردن بمروري .

(٣) انظر عن أهل الكهف مجلة « العرب » — ص ٢٧٨ السنة الثانية .

الى قرية سُحاب ، ثم الى قصر الموقّر وهو أطلال بناء قديم في ذروة عالية صعدته في الأوبة فإذا هو لم يبق منه غـير حجارة منتـثرة فيهـا نقش عربي وآثار على قبوٍ تدل على أن الحفر يُخرج البناء واطئاً عن الذروة بضعة أمتار ولعل فيه آثاراً مدفونة تحت الـتراب . ومن المـوقر الى قصر الخرانق وهو بناء قديم لم أدخله قيل لي: ان فيه نقوشاً من الدهان على جدرانه وأنه من لبن أبيض عجيب الصنع لمقاومته العواصف، وأن مساحته الداخلية واسعة وأن فيه ايوانين متقابلين . والشائع اسمه « الخرانج » أو « الخراني » أو الخرانق مما حمل بعضهم على الظن أنه « الخَوَرْنق » وهو غير صحيـح . ويقول الأمير عادل : انه « قصر الأرانب » وفيه صور أرانب ، معللا ذلك بأن عرب السرحان وغيرهم ممن يرجعـون الى أصول يمانية ويسكنون الآن بادية شرق الأردن يسمون الأرانب « خرانج » وقد يبدلون الجيم على العموم ياء .

وهبطنا وادياً ضلَلْنا فيه قليلا الى أن أصبح الصباح فاهتدينا الى طريق السيارات، فمضينا فيه نحو عشرين كيلا ، فاذا نحن في موحـلة عند مدخل « وادي الغدف » فغرَّزت السيارة فمكثنا نعالجها نحو ساعتين ، نجمع حجارة ونقطع هشيما الى أن مشت ، فلم نكد نبرح مكاننا حتى علمنا اننا مسافرون على غير هدى ، فاتفقنا على أن نعود أدراجنا ، فعدنا نلتمس دليلا . وكررنا ايابا معظم المسافة التي قطعناها في الطريق الواضح .فاعترضنا بدوي فناديناه فدنا حذراً لأن من عادة البدو الخـوف من أن يقرب المنفرد منهم من سيارة فيها مسلحون، لئلا يسلبوه بندقيته وينهزموا بها في سيارتهم،فلاطفناه فحاذانا فأخبرناه بحاجتنا الى دليل يرافقنا الى القريات . فقال : عندي رجل«خبير» ولكن ماذا تعطونني لآتيكم به ؟ قلنا : ريال مجيـدي ، فرنسي . وركب حاشية السيارة فعادت بنا وهو معنا الى أن أتينا منزل قبيلة صغيرة في بعض خيام فنزل ونادى رجلا فجاء فأعلمناه بقصدنا فقال : كم تعطونني ؟ قلنـا : أربعة مجيديات ، فوافق . وركب معنا إلى جانب السائق .

وانقلبنا عائدين ووجهتنا الى الشرق . وسألناه : ما اسمك ؟ قـــال : عبد الرحمن . قلنا : وقبيلتك ؟ قـــال الهقيش . وبعـد هنيهة ناديته : يا عبد الرحيم ، فأجاب . فسألته : أأنت عبد الرحيم أم عبد الرحمن ؟ قال عبد الرحيم . فداخلتنا الريبة فيه .

وتابعنا المسير الى أن بلغنا وادي الغدف ، فنزل والتمس الطريق فاهتدى اليه وركب ، فانطلقت بنا السيارة نحو ثلاثين كيلاً بعـــد وادي الغدف . ولم يرعنا الا منظر الشمس تميل إلى الغروب وهي أمامنا . فصحنا به : يا عبد الرحيم نراك تنطح الغرب : فقال : ألستم تريدون الحصيدات ؟ قلنا : وما غرضنا من الحصيدات ؟ انما نقصد نبك القريات . وأدركنا ساعتئذ أننا سالكون غير سبيلنا ، فجمد عبد الرحيم وجعل يعتذر بأنه واهم . ولم يكن في امكاننا غير قبول عذره ، وأشرنا الى سائق السيارة بالقفول قليـلاً . ثم نزل عبد الرحيم وصعد كثيبا فقال : هاه ، طريقنـــا من النقب الأبيض ، فنظرنا فلم نر الا أودية وكثبانا . قلنا : وما الرأي : ؟ قال : أن نخترق هذا الوادي الى النقب الأبيض.. وعاد فركب وتولى الايعاز الى السائق : يمين ، يسار ، يمـــين يسار ، . ثم يسار ، يسار ، يسار .. والسيارة تصعد ربوة وتهبط في واد وتخترق هشيما لا طريق ولا هدى .

وقال لسائقها : يمين ، فاذا بنا ننحدر في قاع مرمل، غرزت فيه السيارة فنزلنا وافتقدنا الطعام فلم يكن معنا غير ثلاثة أرغفة وشيء من الماء ، فعالجنا السيارة عبثا تنهض من الرمل فكان عملنا عبثا ، وأظلم الليل ، ونحن في البيداء ، لا هدى ولا زاد ولا سلاح الا القليل من الأمل في خبرة الدليـــل والأرغفة الثلاثة وبندقية العسلي. وكنا قد استولينا بأسلوب حسن على بندقية عبد الرحيم. فلما صرنا إلى ما نحن فيه اتفقنا على أن نكتب كتاباً إلى اخواننا في نبك القريات نستنجدهم . وسألنا الدليل : أأنت على يقين من أن الطريق أمامنا ؟ قال نعم . قلنا : فهل أنت عالم بمنازل أصحابنا ؟ قال نعم . قلنا أفتذهب اليهم بهذا الكتاب ؟ قال : على أن تعطوني بندقيتي . قلنا ومـــا

حاجتك بها ونحن هنا في ظلام قد يدهمنا داهم أو يمرّ بنا وحش فلا نستطيع أن نبرح أماكننا فنضطر إلى الدفاع ، وأما أنت فابن البر ، والبر واسع أمامك ، ان رأيت خطراً احتلت أو تحولت . فأصرّ وأصررنا .

وارتأى أحدنا أن نسير معه على الأقدام ووافقناه ، فتركنا السيارة بما فيها من حاجاتنا . وخاف سائقها البقاء فيها ، فلحق بنا . ومشينا نحو ربع ساعة . فالتفتّ الى الدليل وقلت : يا عبد الرحيم متى تظننا نصل ؟ قال : في الصباح ، فكلمت رفيقيّ قائلاً : لقد أمضينا ليلتين لم نذق فيها طعم النوم وهذه الثالثة فهل تحسبوننا نطيق أن نسهرها ضربا في البيد على الأقدام ؟؟ وهلّا نخاف أن يطول أمد السير ضلالاً فنهلك جوعاً وعطشاً وتعباً ؟ فاتفقنا على أن نعود ونبيت في السيارة ونرى ما يطلع به الصباح ، وعدنا ..

ولكن أين السيارة ؟ لم نجدها ..

ظللنا نحو ساعتين بين اليأس منها والرجاء بالعثور عليها وقد جللها الظلام إلى أن وجدناها فأقبلنا عليها بسرور ولهف ! وقررنا أن يجلس كل منا ساعة يرقب ما تأتي به الحدثان من الخارج ويراقب عبد الرحيم .

وجعلنا ذلك مناوبة بيننا نحن الثلاثة فاستثنينا عبد الرحيم وسائق السيارة من النوبة . وجلست في بدء الليل معللا النفس باستطاعة السهر إلى الصباح. فأسندت ظهري إلى السيارة واتكأت على بندقية الغسلي . وأخذت أتحدث مع عبدالرحيم وقد نام سائر الصحب . فحدثته بشيء عن أهل بادية الشام والحجاز وقصصت عليه بعض أخبار المجاليين والرولة وصخور الحجاز . فأنس ، وانطلق يحدثني بأنه كان من جملة الذين تطوعوا في سنة ١٩١٦ م. للاشتراك في الثورة العربية وأنه ذهب إلى العقبة أيام كان الشريف فيصل فيها ، وأنه يعرف المستر لورنس ، وأن لورنس كان يحبه وينتدبه للمهمات وأن لورنس عرض عليه يوماً أن يشرب معه من شيء في زجاجة تفتح بواسطة مسمار يزيل سدادتها .. وأنه أبى ، فضحك عليه لورنس .. وأنه دخل

الشام مع لورنس وكان في جملة من لاحقوا الترك عن طريق دوما ، ووصف لي لورنس وصف من يعرفه ..

وغالبني النعاس . وبدرت حركة من عبد الرحيم رأيته فيها يزحف نحوي، وكان منبطحاً على نحو متر ونصف المتر مني ، فاقترب نحو نصف المسافة ، فرابني دنوّه ، ونقرت على السيارة قائلاً للعسلي : جاء دورك . ثم همست له بأن يزداد حذراً من هذا العبد الرحيم . وقمت إلى السيارة فمازلت بين النائم واليقظان كرفيقيّ إلى أن طلع الصباح .

ولما لم نجد مندوحة من اطلاق عبد الرحيم لعله يعود إلينا بمن ينشلنا من وهدتنا أو ليكن منه ما يكون .. ألقينا إليه بندقيته وأصحبته كتاباً إلى الأمير عادل أرسلان واخوانه ذكرت لهم ما نحن فيه ، وقلنا لعبد الرحيم : أرواحنا في عنقك : وانصرف يعدو ...

* * *

أدركنا بعد ذهابه ما نحن فيه من خطر : قد يغدر بنا بعد أن علم أننا لا نملك من السلاح غير بندقية ، ومعه بندقية وخنجر وقد يهلك في الطريق . وقد يعاف الأربعة المجيديات فيهمل أمرنا ويعود إلى أهله ، وبينه وبينهم مسيرة يومين . كل ما هنالك يدعو إلى اليأس ، فما الحيلة ؟ لم يكن أمامنا غير السيارة ... وهي غائصة في الرمل والرمل يمتد نحو ٣٠٠ متر . فاتفقنا على أن لا ندع الوقت يفوت فنهضنا بهمّة المستبسل وقلنا: نجرف الرمل قبل أن ندفن فيه ، ونجعل ثيابنا وطاء لعجلات السيارة فجمعنا مقداراً كبيراً من الهشيم ولففنا اللولبين بعباءتي ، ودفعنا السيارة بقـــوة ، فانطلقت ... وهتفنا صائحين بالسائق أن لا يقف حتى يجتاز الرمل فانحرف إلى سيف الوادي وجعل لولباً على الصخر ولولباً على الرمل ، فاجتاز الخطر .

واستأنفنا السير نحو الوجهة الـــتي كان يصفها الدليل ، جاعلين الشرق وجهتنا فلم نجتز أكثر من عشرة اكيـــال وإذا بنا في الجادة . فاستمر

بنا السير فمررنا بوادي الشَوْبَري ، ثم وادي الضَبْعي ، ثم وادي الغَدَف ، ثم أرض القُوَيصِرة ، فالعَدْلاء ، فأمّ لُوَيزة ، فالمَخروق ، فالحديثة ، فالرَشراشيَّة .

ووصلنا سهل « النبك » الفسيح في ذلك القفر ، لا بناء ولا مأوى غير خيام المجاهدين المنتثرة فيه . وأقبل علينا درزي كان مع قافلة برحت النبك في تلك الساعة ،تحمل ملحاً الى عمّان ، فسألناه عن خيام القوم فقال : أقربها اليكم خيمة الأمير عادل . فسررنا ، وأقبل غلام يعدو ،فركب معنا وأعجبنا بفصاحته على صغر سنه ، فبلغنا خيمة الأمير عادل قبيل الظهر ، فاستقبلنا وقد سمع صوت السيارة وسلمنا عليه . فكان أول ما قال لي : لقد خطر ببالي أن يجيئنا كل إنسان ما عداك . ونزلنا عنده فلم نلبث أن علمنا أنه مدعو لتناول طعام الصباح عند أحد المجاهدين فذهبنا معه . وبعد الطعام سألناه أن يصحبنا الى مضرب سلطان باشا الأطرش ففعل . وجئنا خيمة سلطان ، فإذا عقل ووقار وأدب،ولين وشجاعة . ولم أكن أعرفه من قبل ، غير أني رأيته مرة في دمشق يوم دخلها الشريف ناصر في طليعة الجيشين العربي والبريطاني . ومكثنا قليلا ثم ودعناه وانصرفنا نريد النوم فلم تغف لنا عين .

رأيت رسولاً يذهب ويعود فيصف لعادل حال رجل اسمه سامي بك .. قال له أولا : ان حاله خطرة وان (الدوسنطاريا) التي جاءته على اثر اشتداد الحمّى فيه قد أنهكت قواه . وفكّر عادل فيما يصلح له من علاج فلم يهتد . ولكن خادمه ارتأى أن يحقنه تحت الجلد بمصل سماه . فحوقل عادل قائلا : وماذا ينفع التجريب ؟ ثم سمح له بحقنه ، فذهب اليه وحقنه . وفي المساء قيل لنا : ان الرجل في النزع . وأسف سامعو الخبر ووصفوا الرجل بأفضل صفات الشجاعة والرأي .

للأمير عادل خيمتان احداهما صغيرة بيضاء اتخذها لنفسه خاصة لا

يستقبل فيها أحداً مخافة اتساخها أو تسرب الحشرات الصغيرة اليها ،والثانية الى جانبها وهي نظيفة ايضاً يسكنها محمد الخطيب خال احمد مريود ورجل اسمه حمد صعب يعتمد عليه الأمير ، فنزلنا في هذه الخيمة وخرج منها محمد وحمد وأخذا معهما السائق والدليل (وكان قد وصل قبيل العصر).

وفي خيمة الأمير الخاصة مقدار كبير من العلاجات في قوارير مختلفة الأنواع والألوان . وهو يقوم بالأعمال الآتية :

١ – رئاسة اللجنة العليا للمنكوبين (وهذه اللجنة تتألف منه رئيساً ، ومن محمد بك عز الدين الحلبي ، وأبي نايف علي عُبَيد ، وسلامة بك النجم الأطرش ، وعبد القادر أغا سكر ويوسف العيثمي – أعضاء) وهي المرجع المالي والاداري لكل من هنالك .

٢ – فصل الخلافات التي تنشأ بين جماعات المجاهدين، فهو كالقاضي بينهم.

٣ – معالجة ذوي الأمراض الطارئة . وقد رأيت كثيراً منهم يحملون أطفالاً أحدهم محموم،وآخر فيه رمد أو غير ذلك،فيتأمل في الطفل ثم يسمّي لخادمه « فارس » نوعاً من العلاج يأتي به من الخيمة ، ويوصي وليّ الطفل بما يوافق حاله من العناية به نظافة أو حمية أو غيرها، فهو يقوم بعمل طبيب إذ لا طبيب هناك .

٤ – يكاتب عامل قريات الملح (السعودي) وغيره في ما يتعلق بالمجاهدين من الشؤون .

وأطرف ما حدثني به أن اعرابياً من البادية دخل خيمته ، وسأله : عندك صابون يا خواجه ؟ .

* * *

وأما سلطان باشا ، فمن أعماله :

١ – أنه القائد العام للمجاهدين،فهو المرجع الأعلى في الشؤون الحربية .. ويساعده ابن عمه صياح بك الحمود الأطرش، وهذا من أعقل أهل الجبل ومن أكابر شجعانهم . وبيته في تقاليدهم أرفع من بيت سلطان باشا . وهو مع ذلك يبالغ في احترام سلطان ، ويقول بزعامته ، يطيعه . كما أن سلطاناً لا يبتّ أمراً قبل استشارته مع الأمير عادل .

٢ – أنه يشترك مع عادل في تقرير الشؤون السياسية الخارجية وأمهات الشؤون الادارية الداخلية

وسلطان باشا له خيمتان كبيرتان احداهمـــا لعائلته ولأولاده مفروشة بالطنافس . والثانية لجلوسه العام . وهي خيمة عاديّة كبيرة فيها موقد نار ودلّات قهوة بحيث لا يختلف وضعها عن وضع خيام شيوخ البدو الرحّل .

وسمعت سلطاناً ينادي ابنة صغيرة : يا « بتلاء » وأظنها ابنته ، فأعجبني الاسم فقال : إنه بدوي . فقلت : بل عربي فصيح أصله « بَتُول » .

* * *

وممن عرفت صيّاح بك الحمود في نحو الأربعين من العمر وقد تقدمت كلمة عنه ، وهو شاعر مجيد ، بل لعله أشعر أهل الجبل. الا أن لغته هي الدارجة ويمتاز شعراء الدارجة بأنهم يلحنون قصائدهم ويقولونها في الوقائع ، فيدوّنون فيها تاريخهم ويَحْدون بها أسفارهم ويتفنون بها في بدء غاراتهم . وأحسن ما سمعت من نظمهم ، الأبيات الآتية لصياح بك :

يا ديرتي مالك علينـا لومْ لا تعتبي لومك على من خانْ
حنـّا روينا سيوفنا من القوم ما نرخصكْ مثل الردي باثمان
لا بد ما تجلي ليـالي الشوم وتعتز غِلمَةْ قايْده سلطان
وان ما تعدّل حقنـا المهضوم يا ديرتي مـا جْنا لك ِ سكان !

علي عبيد : ومنهم ابو نايف علي عبيد ، وهو من أعقل من رأيت فيهم . طاعنٌ في السن ، لعله في السبعين وهو عضو في اللجنة العليـا ، وشاعر (عاميّ) مكثر ، حسن المعاني . وقد وعدني بأن يرسل إليّ مجموعة من قصائده في هذه الثورة . وقد دوّن يوميات عن الثورة ستكون من موادّ التاريخ لمن يؤرخ وقائع الجبل في ثورته .

محمد عز الدين الحلبي : متعلم ، نشأ في دمشق ، وتخرج بالمدرسة الحربية في الاستانة . وعين قائم مقام ، ثم ناظرا للعدلية في دولة جبل الدروز ، في العهد الفرنسي ، ولما نشبت الثورة كان من أبطالها شجاعة وإقداماً ، وله وقائع معروفة في الغوطة واللجاة . وهو ممن أعرفهم قديماً ولي به سابق ود .

* * *

وقد رأيت سبعة من الدمشقيين : مقدمهم عبد القادر أغا سُكَّر . وهو في عشر الستين من عمره . عالي الهمة ، ذكي الفؤاد ، وهو عضو في اللجنـة العليا . وقد كان معنا عضوا في اللجنة الوطنية بدمشق . وكانت له وقائع في الغوطة دلت على شجاعته . وهو من أعرف أهـل الشام بشؤون البادية وأخبارها وشيوخها وعاداتها . وقد ذكر لي أربعة من رفاقه أن أُسَرَهم في دمشق معرضة لضيق ذات اليـد ، فكتبت أسماءَهم وعناوين بيوتهم ، لأستكتب لبعض اخواننا في مصر ما يمكن أن يعانوا به في دمشق .

* * *

ولأهل الجبل من الدروز عادات بدوية جميلة ، في غاراتهم ودفاعهم وتسمياتهم . وقد قصّ عليّ بعضهم قصصاً طريفة منها ما أخبرني به الأمير عادل قال : صاح صائح يوماً في النبك بأن الحلال (المواشي) قـد نهبه لصوص البر . فنهض أهل الخيل إلى خيلهم ، قال : وكنت منهم . فتقدمنا مسيرة ساعة على عدو الخيل فعرفنا أن الرعيان قد ابتعدوا حتى غابوا عن الأنظار . ولم

يكن هناك من حادث ، ورأينا الحلال ، فحولنا عن خيولنا . ولم نلبث أن رأينا صفوف الرجّالة مقبلة وهم يَعْدون على أقدامهم وقد خلعوا سراويلاتهم وشمروا عن سُوقهم واعتقلوا بندقياتهم . فأسرع بعضنا إلى إغاثتهم بالمـاء واعلامهم بأن خبر الغارة على الحلال مكذوب . فاطمأنوا . ولم يمض غير القليل حتى بدت صفوف أخرى من« قضّابة البلّ »وهم الغلمان من سن السابعة إلى الثانية عشرة يحملون العصيّ والحجـارة ، ويسمونهم قضابة البيلّ لأنهم يلحقون بآبائهم وفرسانهم حتى إذا جُرح أحدهم أو قتل ، سارعوا إلى « قضب راحلته » أي امساك مقودها ، وعادوا بها . قال : وبعد قليل عدنا نريد مقرّنا فإذا أشباح عن بعد . فسألنا من هؤلاء ؟ فقيل لنا : « الرجاء » والرجاء اسم عام للأطفال ممن يستطيع المشي وهو دون السابعة . وقد أقبلوا لاحقين بنا وهم ينشدون :

يا ديرتي مالك عـليّ لوم لا تعتبي لومك على من خان !

* * *

وممن عرفت شكيب وهاب ، وهو من أشجع دروز لبنان ، وأخفهم حركة في القتال ، ومن أجملهم وجهاً ، وأرقّهم عشرة . بعيد عن الغرور ، لا يتحدث بأعماله إلا إذا جرّ اليها الحديث ، فيرويها موجزة كأنها غير ذات شأن . وهو ملازم للأمير عادل يحبه حباً جماً ، ويعد من خواصّ رجاله .

* * *

بتنا في النبك ليلة الأربعاء وليلة الخميس . وبرحناه عصر الجمعة ، بعد أن ودّعنا الجميع . وقد رافقنا في أوبتنا الدليل (عبد الرحيم) وكان ينتظرنا ، وعزام ابو لطيف وابو حمد يوسف العيثمي والأخيران من دروز الجبل ولأذكر كلمة عنهما :

عزام أبو لطيف : من 'لطيفات جبل الدروز . كان من غزاة الليـــل (الخناشل) يغزو البرحــــان والصخور وغيرهم . وله وقائع : وهو من شجعانهم المعروفين . وهو الذي اسر الليوتنان سيكر في القيصمة ، وكان مع سيكر عدد غير قليل أكثرهم متطوعة . واتفق أن كان عزام ورجلان من أنداده يتجولون في الجبل ، ففاجأتهم حملة سيكر فوقفوا ينظرون . ومن العار أن ينهزموا ، فأغار سيكر بفرسه ، وفي يده مسدس قد صوّبه نحوهم ، فسبقه عزام بطلقة من بندقيته (ولم يكن معه غير مشط واحد من الخرطوش) فأصابت سيكر في الجانب الأعلى من كتفه الأيسر ، وخدشته خدشاً صغيراً . الا أنها أضاعت رشده ، فحرك عــــزام جواده اليه وقبض على عنقه وربض رفيقاه وهما يصيحان بالجيش : يا جماعة هذا قائدكم ومن أراد الدفاع عنه أو أتى بأية حركة متنا قبل تسليمه ، ولا نموت قبل أن نثأر لأنفسنا منكم .ودنا منهم أحد المعروفين من متطوعة الدروز في الجيش الأفرنسي فجعل يقنعهم بأطلاق الأسير فأجبروه على السير معهم ايناساً لأسيرهم . وهكذا عاد عزام بالأسير ورفيقاه يحميان ظهره . وبقية خبر الأسير واقامته عند الأمير عادل ، ثم فراره من اللجاة وموته يوم وصوله الى بيروت ، معروفة . وقد سمعت عادلاً يأسف لموته ويقول : لو عاش أياماً لنشر عنا في العالم الغربي ما ينفي التهم التي تنسبها الينا الدعاية الاستعمارية من الاساءة الى الأسرى الخ . .

واختصم عزام بعد ذلك مع صياح بك الحمود ، فخرج مغاضباً يريد بلده فلقيته امرأة في ملح فلما عرفت خبره قالت له : يا حوينتك يا عزام مــا بقيت درزي ! فأثرت كلمتها في نفسه وعاد بعد أيام الى صفوف المجاهدين . وقد عرض عليه الفرنسيون هبة مالية كبيرة اذا أعاد لهم أسيره ، فأبى قائلاً : وهل أضيع ما قالته فيّ الشعّار ؟ ومرض أخيراً في النبك فذهب معنا إلى عمان ليتداوى ، وليسترد ثلاثة جمال سرقت له وظهرت في شرقي الأردن .

العيثمي : أبو حمــد يوسف العيثمي (وهو يكتبها العيسمي بالسين) من

أكابر دروز الجبل . ومن شجعانهم ومن شعرائهم وأهـــل الرأي فيهم وهو عضو في اللجنة العليا . من شعره :

بلاد جفتنا خلتهـــا تهمل نزيف عيونهـــا
ان كان فرنسا حلهـــا حرّم علينـــا سكونها
ورخيصة مـــا نجلتها الـــلي تـلمّ عفونهـــا
باعوا (التفك) بذلهـــا خلوا المراجل دونهـــا
انهج يا طارش قل لها وان كان ما يعزّونهـا
بيعوا المواطن كلهـــا ديـــار المعزّة نصونهـــا

* * *

خرجنا من النبك الساعة العاشرة والنصف عربية ، نهاراً . وبعد اجتياز ١٥ ميلاً مررنا بالرشراشية وهي الحد الفاصل بين نجد وشرقي الأردن . وبعد بضعة أميال مررنا بالحَدِيثة وهي التي أضعنا فيها الطريق عند ذهابنا . وفيها نحو عشر آبار قديمة العهد ، بحجر أبيض ، جافة ، تدل على أن عمراناً كان هنالك . وعلى الميل ١٩ من النبك كان وادي المخروق (ويلفظونها امخروق) وعلى الميل ٢٧ العَدْلا (ومعناها المخصبة كأنهم اشتقوها من اعتدال التربة ، يقولون : أرض عدلاء أي مخصبة) .

* * *

وما زلنا نجدّ السير إلى أن بلغ الدليل عبد الرحيم أرضه ، فنقدناه مـا وعدناه . وقد خيّم الليل ، وأراد المضيّ شاكراً ، فناديته ، فأقبل عليّ فقلت : أنا أعرف من عادة البدو أن يغيّروا أسماءهم في مثل موقفك الذي كنت فيه معنا . والآن وقد عدت إلى أرضك ومنازل أهلك ، فهل لك أن تصدقني ؟ فضحك وقال : تريد الصحيح ؟ قلت : إي بالله ! قال : اسمي محمد بن عقل من عرب خلف المـــور (من السرحان) . ودعناه وسرنا

نريد قصر الخرانج (أو قصر الأرانب) فضللنا الطريق وطالت مسافة التيه حتى خفنا نفاد البنزين أو الوقوع في ورطة تصاب بها السيارة بعطل. ولكنا تجلدنا، واستهدينا ببروج السماء التي يُحسن البدو والدروز معرفة منازلها. فكان العيثمي يعين لنا وجهة السير جاعلاً الثريا عن يمينه ومستهدياً بنجوم أخرى. فإذا كان اتجاهنا شرقاً، قال: شرق. وإن انحرفنا نبهنا وردّ السائق إلى الوجهة، ولكن الشرق واسع العرض، وقد يبعدنا عن وجهتنا أياما.

وما زلنا بين الرجاء والقنوط إلى أن جزمنا جميعاً بضرر الاستمرار في السرى. وكنت أحرص على اجتياز الطريق ليلا لأمرّ بعمان قبل طلوع الصباح، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن! فاضطررنا إلى التوقف وتمضية بقية الليل في جانب من هذه الصحراء.

وكان الفرق بين ليلتنا هذه ونحن تائهون، وليلتنا في الذهاب ونحن تائهون أيضاً، عظيماً جدا. ذلك لأننا في تلك كنا على حذر من دليلنا أن يبوق (يغدر) بنا. وكان أخونا العسلي يجزم بأن الدليل سرحاني (كما اتضح بعد ذلك) وعرب السرحان معروفون بالبوق (الغدر) وكان دليلنا يمنعنا الكلام الا همسا، وحرّم علينا ايقاد النار مخافة أن يشعر بنا بعض الحناشل (وهم غزاة الليل في عدد قليل) وكان التعب من السهر بالغاً منا مبلغه. أما في هذه الليلة فرفاقنا أصحاب، معروفون، مأمونون شجعان، وإن لم يكن معهم سلاح. وقد كان أول ما بدأوا به أن نزل عزام وجمع مقداراً من الهشيم، فأوقد نارا عالية وساعده العيثمي وعارف، ودارت أحاديث السّمر، ونمنا بضع ساعات كأننا في مأمن، وليس معنا من السلاح غير بندقية العسلي. نمنا على الرغم مما عرفناه عن «جشرة» في هذه القفار، نسيت اسمها، قالوا: إنها قتالة، ما لمن لدغته علاج أو شفاء. ولكنها لا تقترب من النار، فكانت نارنا لطردها قبل كل شيء.

ولما طلع الصباح تبين لنا أننا قد اجتزنا قصر الخرانج مبتعدين عنه، فعيَّن أصحابنا الوجهة . ولم نسر أميالاً حتى بـــدا لنا الطريق وهو كالأول ليس بالمعبَّد ، ولكن أثر المرور ظاهر فيه . فسلكناه وبلغنا عمَّان قبيل الساعة التاسعة زوالية . فقصدنا منزل عادل العظمة والعسلي واسترحنا نحو ساعة وكان عادل غائباً وبـــدا للحاج أديب أن يمكث في عمان يوماً أو يومين ، فركبت السيارة وصحبني فيها مجاهد درزي اسمه أبو زين الدين،إلى صويلح .. مخفر الحدود ، واسمي عندهم « يوسف قِدور » أبت نفسي الا أن أتحدث هاتفياً إلى صديقي ابراهيم هاشم ، وكان رئيساً للوزراء ، فلما اتصلت به وسأل : من المتكلم ؟ أدركتني الحيرة ، وكنت معروفاً عند جميع اخواني وكثير غيرهم بأبي الغيث ، قبل أن يمنّ الله عليَّ بالابن غيث . فخشيت أن أقول : ابو الغيث فيعرفني احد من المخفر، فقلت : ابو مطر .. وبعد صعوبة عرفني ابراهيم . ولما علم انني دخلت عمان في الذهاب والإياب ، عجب وربما عدّ ذلك مغامرة ، لعلمه بما في نفس الأمير عبدالله علي .ولكن الله سلم .

وتابعت السير إلى القدس . وقصدت مـــنزل الصديق صبحي الخضرا ، حوالي الظهر . وفي اليوم التالي (الأحد ٢٥ جمادى الأولى٢٠ نوفمبر) ركبت القطار ، آيبا إلى القاهرة .

* * *

مستدركات : الأرض التي فيها نبك القريات هي المعروفة كلهـــا بوادي السرحان . ويكثر فيها من الوحش الثعلب والذئب وابن آوى ، وفيها قليل من البقر الوحشي (المها) وهو يصاد بصعوبة ، وإذا رماه الصياد ولم يُصب منه مقتلاً وثب عليه بقرنيه فلا يفلت منه .

● — كانت مسافة الرحلة من القدس الى النبك ، ومن النبك إلى القدس بما فيهما من تيه ٤١١ ميلا ، أي ٦٦١ كيلو متراً .

ولا ازال أذكر كلمة قالها لي علي بك عبيد ، وأنا في مخيمهم : انظر إلى

هذا الحرذون ، يعيش في الشمس ويموت في الشمس . ونحن سنصبر صبره ، نعيش في الشمس ونموت في الشمس ، أو نعود إلى اوطاننا وأنوفنا شامخة .

سبب الرحلة : أما سبب الرحلة فكان أن المجاهدين من بني معروف وبعض السوريين ، لما اضطروا الى الانسحاب من وجه سبعين الف جندي افرنسي ومسترزق ، بعد قتالهم زهاء عامين ، لجأوا الى « الأزرق » من أرض شرقي الأردن . وما لبثوا أن طلبت منهم السلطات الأردنية الرحيل ، فعبروا الحدود إلى الأراضي السعودية ، وأناخوا في وادي السرحان ، بنبك قريات الملح .

وانقضى الصيف - وقبل حلول الشتاء ، ادركوا حاجتهم إلى المزيد من الخيام والأغطية في الليل ، فكتبوا إلى اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري ، في القاهرة . وذلك قبل انشقاق اللجنة .

وقررت اللجنة اسعافهم . ولكن صندوقها كان فارغاً . فعقدنا قرضا على الطريقة الآتية : أمضى الحاج امين الحسيني سنداً على نفسه بقيمة خمسمئة جنيه انكليزي ذهباً ، لأمر الحاج أديب خير . وكان لهذا تعاملٌ مع أحد المصارف في القاهرة ، فصرف السند . وقررت اللجنة تكليفي حمل المبلغ إلى اخواننا في نبك القريات ، ذهبا . لأن البادية لا تتعامل بأوراق النقد . ويصحبني في الرحلة الحاج اديب . وكانت له مصالح في القدس وعمان ولما علم بهذا الأخ سعيد بك حيدر ، قال : الحاج أديب أعرفنا بالتوفيق بين مصلحته الشخصية والمصلحة العامة .

وقد أتعبني حمل الذهب ، بما عَرَض لنا في الطريق من مزعجات . وزال تعبي ، حين رأيت لجنة المجاهدين ، يوزع عليهم المبلغ ، ليقوم كل منهم بالاتفاق مع من يشاء على اصلاح خيمتهم أو شراء خيمة من الصوف وفرشها بما يمكن ان يردّ عنهم عادية البرد في الصحراء .

خير الدين الزركلي

الصحراوية

بين عمان ووادي السرحان

بعثت بها الى الأمير عادل أرسلان بعد ايابي من زيارته ومن معه من المجاهدين النازلين بوادي السرحان (جمادى الأولى ١٣٤٦ — نوفمبر ١٩٢٧) :

وليل سريناه ثلاثة ركبان ... مساريع من عمّان ، بُعْداً لعمّان[1]
مطيتنا « أم الرياح » وكرُّها ... كما كرّ في رحب الزمان الجديدان[2]
سبوح سبوق ما طوى البيد طيها ... وقد ألف الإدلاج ، سائق أظعان
نجونا بها من كل وعثاء مهمهٍ ... بساط حواشيها سلاسل صوّان
تقاسمَ فيها داجيَ الليل والضحى ... كواشر أنياب وأسراب غزلان
طوينا «سحاباً» و«الموقّر» واعتلت ... بنا « القصر » مرقاة التلاع بإرنان[3]
وما «غدف» لا نضّر الغيث نبته[4] ... بمطلع حسنى ، أو بمنزل إحسان
هوت عجل «الشعثاء» فيه كأنما[5] ... لوالبها شدّت اليه بأشطان
ثرى لزجٌ غاصت بأحشاء لجه ... فريسة يمٍّ بين أشداق حيتان
نهضنا بها جذباً ودفعاً فزمجرت ... وهبّت هبوب الريح لم يثنها ثان

---

(١) الثلاثة ، هم : الناظم والحاج أديب خير وأديب أفندي العسلي .
(٢) أم الرياح : السيارة . والجديدان : الليل والنهار .
(٣) سحاب : قرية . والموقر : بناء قديم . والقصر المراد به قصر الخوانق .
(٤) غدف : واد .
(٥) الشعثاء : نعت للسيارة .

وكان « ابن عقل » في القفار دليلنا … فضلَّ ابن عقل بعد جهد وإمعان[6]
تلوَّت بنا لا يستقيم اتجاهها … مشردة حيرى ، تلوّيَ ثعبان
فبينا تراها شرّقتْ قلت غرَّبت … وبينا هي المطواع هَمَّتْ بعصيان
ذرى تتخطاها وتنحطّ بغتة … كما انحدرت من حالق سودُ عقبان
ومالت كما مال الغبيط بجُنْدُجٍ … فكانت لها في الرمل رقدة وسنان[7]
تمطَّتْ وأرْستْ بعد طول وخيدها … وقالت : برضوى تنهضون وثهلان
وقال الدجى للنجم : وجهك سافر … فجلله ساري السحاب بأردان
فبتنا جياعاً تائهين ، على ظما … ولا انس في انس، ولا انس في جان
وأضواء نيران تلمست وَقْدَها … فما انكشفت إلا نواظر ذُؤبان
تخب وتعدو في الدجى «أم عامر»[8] … ويسبقها من مقلتيها سراجان
كأني بوحش القفر أشفق فانثنى … فلا هو بالنائي ولا هو بالداني
وقد يرحمُ ابنُ الغاب خائضَ رمله … فيحنو وما في الناس إن تبلهم حاني

* * *

وداهم منقضّ اليقين فزلزلت … من الأمل المرجو انقاض أركان
محا اليأس أسطار الأماني فارعوت … نفوس وكادت تذرف الدمع عينان
إذا دهم اليأسُ القلوبَ فإنما … لها بين موت أو حياة سبيلان
وثُوب كومض البرق ليس بمقصر، … ووهن كذاوي النبت ليس بريان
سبيل الردى أن يستكين إلى الردى … محالفُ خسران أبى غير خسران
ونهج الحياة المرتضاة انتفاضةٌ … كما انفجرت في الطود فوهةُ بركان

* * *

---

(٦) ابن عقل ، محمد بن عقل بدوي ، كان دليلنا في تلك الرحلة .
(٧) جُندج : امرؤ القيس ، والإشارة هنا إلى قوله : « تقول وقد مال الغبيط بنا معا » .
(٨) أم عامر : الضبع .

ولولا انبلاج الفجر أبيض ضاحكاً — وفينا ذماء مـــا بنى أملاً باني
قذفنا بمن نيط الشقاء بوجهه — إلى حيث ينجو أو يعود بإنسان
وما ان نأى حتى وثبنـا كأنما — أهاب بنا وحيٌ من الغيب رباني
فمن قائل : هاكم جديدي لفافة — للولبها ولتستر الرمل خلقـــاني
ومن مزمع نقل الرمـــال كثيفة — إلى جانبيها ، ثار ثورة غضبان
نفضنا الونى ،لا لابس الأنفس الونى — وللموت عينا ناظر غير رحمـــان
ولم نــدّخر من حيلة فترنّحت — ومالت بعطفيها ترنــح نشوان
فصحنا بمجريها : خذ السّيف موطئاً — لجانبها واسبح على القاع بالثاني [١٠]
فإما نجاء وهو أمنية الرضى — وإما عناء وهو ما ألف الغاني
وهبّ فزَجّاها ، فلم تعصه ، فمن — رأى طائراً لم يكتنفه جناحان
وما هي إلا ساعة أو زهـــاؤها — نزعنا بها في البيد منزع حيران
نروح ونغدو لا دليل ولا هــدى — كما تاه في « سيناء »موسى بن عمران
فيا لك من يوم ، ويا لك ليـــلة — تلت ليلة من قبلها ذات ألوان
وصاح «سليمان» وقد بدت الصُّوَى — فصحنا وهللنا لها مع سليمان [١١]
وقلنا : على اسم الله سيري رشيدة — الى معشر بيض المـــآثر غرّان
الى «النبك» حيث العز خيّم والسنا — وحيث ارتدى الازماع برد الدم القاني [١٢]
الى معقلي فخر العروبة « عــادل » — وسيّد من قاد المغيرين «سلطان» [١٣]
الى « آل معروف» ومن شدّ شدّهم — الى كل بيت بالمفاخر مزدان
الى عصبةٍ تأبى الغضاضة خيلها — وفرسانها أكرِمْ بخَيْلٍ وفرسان

* * *

---

(٩) المراد بالشطر الأول ابن عقل الدليل .
(١٠) السيف : حافة الوادي .
(١١) سليمان : سائق السيارة .
(١٢) النبك : مقر المجاهدين من قريات الملح في صحراء نجد الشمالية .
(١٣) عادل : الأمير عادل أرسلان . وسلطان باشا الاطرش .

فدت كل نفس كلّ أشوَس منهم ... كرئبال عبس أو كبسطام شيبان
همُ سمعوا من جانب الحق داعياً ... فطاروا زرافات وليسوا بأحدان
وأُقسم مـــا الأمّ الرؤوم تلفتت ... فألفت بنيهـــا بين أذرع غيلان
فطاش لها لبّ فألقت بنفسها ... ضحية حب أخلصته وتحنان
مغامرة لا العيش ترجو،ولا الردى ... تخاف ، هما فيما توخته سيّان
بأحنى فؤاداً أو بـأغير منهم ... على أمـــة هم من بنيها وأوطان
تبسّمت النعمى لهم في ديارهم ... فلم يرضعوا منها أفاويق ألبان
وما آثروا سكنى الفلاة لعـلة ... سوى انهم لا يذعنون لطغيـــان
أناخوا «بسرحان» وخلوا وراءهم ... هواناً بحوران ، وبؤساً بلبنـــان

خير الدين الزركلي



من وادي السرحان الى وادي النيل

وأجابني الأمير عادل :

ارقت وما في النوم خير لوسنان اذا لم ينم شعر المغير بأوطـــان
وغالبني شوق يعـــاود مهجة تقلب منه في الدجى فوق نيران
صبرت فما اذللت دمعاً ولو جرى مسحت باطراف التجلد اجفـاني
بعيدٌ على نبك القريات منزلي فما لي سوى الذكرى اذا الليل اضواني
وما ضرني ان طال وهو وصبحه اذا لم تضىء شمس المنى فيه سيان
نظرت إلى الآتي فأوقفت دونه وعدت الى الماضي بفكري فعزاني
أقول لنفسي : من هنا مرَّ خالِدٌ فدالت به الدولات من كل روماني
أغارت على اليرموك تحت لوائــه كراديس فرسان كاسراب عقبان
وطاح بأجنادين جدي ومرسلي إلى مثل هذا العهد عون بن نعمان[1]
فما حال دون النصر قطع مهامــه ولا فتّ في الاعضاد ناحل أبدان
وهل نهضت الا النفوس بأهلهـا فان رغبت في المجد لم يثنها ثاني
وحولي من قحطان قوم رمت بهم الى فلوات النبك عترة عدنان
اذا سابقوا « أم الرياح » رأيتهـا على الجهد ما شقت غبار كحيلان
بقية ابطـــال لو ان زمانهم تقدم لم نسمع بعبس وذبيان

(١) الامير عون بن نعمان ، استشهد في اجاديه سنة ١٢ للهجرة ، وكان قد قدم من الحيرة مع خالد بن الوليد ، وأرسلان حفيده .

قرأت لهم شعر « الزركلي » فيهم ... فهزّ بهم من نجدة أي اغصان
وهمّوا .. فلولا حكمة لا أذيعها ... سمعت الوغى ما بين حوط وعرمان[2]

* * *

جزى الله « خيراً » كل خير وأهله ... بأي بديع من اغانيه غناني[3]
فيا ساكن الفسطاط هذي تحيتي ... تحملها القرطاس عني فأشجاني
هنيئاً لك الفسطاط والنيل تحته ... وجناته والمنظرون لرضوان
بلاد اراد الله يسراً بأهلها ... ونعمَ لعمري أهلها خير جيران
عبى ينجلي عنها غبار أثاره ... ذووه فلا تقذى به ثَمّ عينان
ويصفو لها العيش الذي تستحقه ... ويرجع عنها الكاشحون بخذلان

* * *

خليلي كل الخير عندكما معاً[4] ... فلا تبعثا بي لوعة ما تعداني
لعمري ان اسألكما غير جازع ... إلى م تنائينا ؟ بماذا ؟ تجيبان
أرى إفقاً لا يدرك العقل حده ... تقادم فيه بالمقام الجديدان
وأمة أعراب اضاع دماءها ... تصادم اطماع هناك وتيجان
وقفرا تموت الطير دون اجتيازه ... اذا جئته من (حائل) نحو (حوران)
اذا عصفت فيه الرياح حسبته ... يقاتل فيه الأنس جيش من الجان
عجائبه شتى واعجب ما به ... اذا ما التقى الانسان فيه بانسان
سراب يضل الفكر بعد اهتدائه ... ويغرق فيه الناظران بغدران
فإن تدن منه واجف القلب تلقه ... كأحلامنا يوم اجتمعنا بعمان
ودنيا على أرض من العدل عاطل ... عليها سماء قد تحلت بميزان
أكاد وقد عاشرت عمري أهلها ... أخاف على المريخ يبلى بسكان

---

(٢) من قرى الجبل .
(٣) خير الدين الزركلي .
(٤) خير الدين الزركلي وأديب خير .

كتمت عن الخلان مما بلوته　　أموراً يذوب القلب منها باعلان
فلا تعجلاني بارك الله فيكما　　سأسمعها قومي ان الله أحياني

وادي السرحان : **عادل ارسلان**

وليكن هذا هو مسك الختام – كما يقولون – في الحديث عن هذا الجزء الحبيب من بلادنا ، وإن كانت النفس تتوق حقاً من الاستزادة من الحديث ، كما قال الشاعر :

وحدثتني يا سعد عنهم فزدتني اشـ　　تياقاً فزدني من حديثك يا سعد!!

غير أن الزيادة يجب أن تكون من إنسان أقام بهذه البلاد أكثر مما أقمت، وعرف من أحوالها أكثر ممـا عرفت ، أما أنا فقد قلت ما استطعت قوله ، ومـا عليّ فيما قلت إلا أنني أعترف بأن ما كتبته ما هو سوى ملاحظات عابرة، ومشاهدات قصيرة، ومعلومات استقيتها من أناس فسجلتها على علاتها ، وهذا هو كل مـا يستطيع عابر مسرع مثلي ، وإذن فليس عليّ من لوم في التقصير أو عتاب في الإيجاز ، وعلى اولئك الذين لديهم أوسع مما عرفت أن يضيفوه مشكورين إلى ما ذكرت .



بارك الله في من زار وخفَّف !!

دعاء يكثر استعماله في نجد بالنسبة للضيوف ، بعد انتهاء أيام الضيافة الثلاثة ، وها هي قد انتهت لي في بلدة القريات ، ممتعاً من أميرها الكريم وأخيه بخير ما يمتع به ضيف ، أو إن شئت فقل : إنسان اعتبراه ربّ المنزل ، على حد قول الشاعر :

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا　　نحن الضيوف وأنت ربُّ المنزل

وحقاً فقد منحاني من حسن الاستقبال ما يستوجب الشكر ، وقد تهيأت لي زيارة أمكنة كثيرة في هذه البلاد لا أتمكن من زيارتها لو اعتمدت على جهدي وحده ، فقد أولاني الأمير سلطان من حسن رعايته ما هيأ لي مشاهدة كثير من الأمكنة التي أردت مشاهدتها .

والحق يقال : إن هذه البلاد بحاجة الى دراسة واسعة عميقة لا تفي بها مشاهدات في زيارات خاطفة قصيرة ، وأنا ليس لديّ من عمق الإدراك ما يمكنني من دراسة كثير من النواحي الجغرافية والأثرية تمكيناًيعود علىالقارىء بفائدة ذات قيمة ، وما استطعت تسجيله ما هو سوى مشاهدات وانطباعات خاصة قد تكون من الحوافز لغيري للتعمّق في الدراسة .

وفي ليلة الاربعاء ٩ صفر ١٣٩٠(١٥ ابريل١٩٧٠) زرت الأمير في بيته ، وأبديت له رغبتي في السفر ، فأمر بتهيئة وسائله من سيارة ومُرافق ، وما يتعلق بهما أو يلزم لهما .

وكنت قبل ذلك رغبت في السفر الى تيماء ، غير أنني عرفت من الأمير أن المسافة طويلة تقارب ٥٠٠ كيل ، وأن الطريق صعب ، وما دام في نيتي السفر الى الجوف فيحسن أن أتوجه اليه ، وأدع زيارة تيماء لوقت آخر ، فكان ذلك ، ورأى الأمير - وقد قررت السفر الى الجوف - أن أمرّ ببعض القرى الواقعة في وادي السرحان ، وأن أشاهد نُقْرة حضَوضَى ، وحضوضى لها في نفوس أهل هذه الجهة ما يجعل زيارتها ذات فائدة ، وفعلاً قررت السفر حسبما رآه الأمير الذي أبى كرمه إلا أن تكون الرحلة أقرب الى رحلة استكمال الراحة والاستجمام من غيرها من الرحلات الشاقة .

لقد كان مما أفضل به الأمير سلطان أن هيأ لي مرافقاً كريماً في زيارتي القريات الواقعة بقرب النَّبك القاعدة ، فرافقني في ذلك رجل أقام في هذه الجهة أكثر من ١٥ وهو على جانب كبير من الثقافة ، وله منزلة كبيرة في نفوس أهلها ، وهو في الوقت نفسه يتبوأ عملاً في ديوان الأمير له قيمته ، انه الأستاذ ابراهيم حيرم الذي لم يكتف بما قدمه لي من معلومات قيمة عن القرى التي مررنا بها ، بل أضاف الى ذلك بأمر الأمير نفسه ، بأن قدم لي مجموعة من الصور الأثرية عن أحجار أحضرت للامارة عندما زارها سائح غربي (مرّ ذكره ص ٦٧) وهي تحوي بعض الكتابات الصفوية التي تحدثت عنها في الكلام على الآثار في هذه البلاد .

خرجت من بيت الأمير ليلاً بعد العشاء ، وفي الصباح المبكر مرّ بي الأستاذ ابراهيم حيرم ، وأخبرني أن كل شيء قد هُيّء لرحلتي إلى الجوف ، ووعد بأن يرسل إليّ ما أمر الأمير بإرساله من صور بعض الأحجار الأثرية ، ومعها بيان مفصل لمسافات الطرق من القريات إلى الجهات القريبة منها ، وسرعان ما أتت السيارة المخصصة للرحلة وسائقها رجل رُوَيْلي عنزي ، ومرافقه رجل شراري من أهل هذه البلاد خبير بجهاتها ، والسيارة من النوع الذي لا يستعصي عليه تجاوز الأماكن الوعثة في هذا الطريق، وما أكثرها !!.

ودّعت الأخ الأستاذ ابراهيم حيرم وركبت السيارة الكبيرة متجهاً من النبك جنوباً في الساعة السادسة صباحاً حسب التوقيت الزوالي .

وفي الساعة السابعة وصلت قرية تدعى (النّاصِفة) ، أحببت الوقوف عندها لأنني شاهدت بناية قيل لي إنها المدرسة ؛ فأردت زيارتهـــا فوجدت المدرسة بناية واسعة في داخلها حوش واسع ، وبئر ، ووجدت الطلاب خارجها يمرنهم أحد المدرسين على حركات رياضية ، غير أنني رأيتهم بحالة من الهزال والضعف في الأبدان حملني إلى أن أقول لذلك المشرف على تمرينهم: إن هذه الحركات تليق بطلاب أقوى بنية وأصح أجساماً من هؤلاء،وخير لنا أن نعنى أولا بصحتهم ، وبالعناية بما يحتاجون إليه من أحـــذية وغيرها ، ثم بعد ذلك نحاول أن نسعى لإعطائهم بعض التمرينات الرياضية ، ولقـــد شاهدت بعضهم حفاة هزالى ، غـير أن ذلك الأستاذ أخبرني بأن هذا من الأمور المقررة ، ولا بد من تنفيذها ، فسألته عن عددهم ، فأجاب بأنهم ٦٠ والواقع انني لم أشاهد سوى أقل من الـ ٣٠ طالباً ، والحق ان بناية المدرسة على بساطتها حسنة ، وهـــذه المدرسة تضم تلاميذ قرية الناصفة ، وقرية العظيمات ، وقرية جماجم وقرية البدع ، وهي قرى لا يستقر أهلها فيها دائماً ، ولهذا فالطلاب المسجلون غير الذين يحضرون دائماً .

وحسنة يجب أن تسجل هي أن الطلاب ينقلون من تلك القرى إلى المدرسة بسيارة حكومية .

وفي الساعة الثامنة والنصف كان الوصول إلى بلدة العيساوية حيث كان الأمير سلطان بن عبد العزيز السديري أخبر مأمور المركز فيها بتهيئة الغداء.

وجدت في البلدة شاباً يدعى سعْدِي بن عبدالله السعدي من فخذ الحمران، من قبيلة بني تميم ، من سكان وادي الحفن(بحاء مهملة ساكنة بعدها فاء ونون) وهو مكان يقع في واد ينحدر من شرقي جبل رمّان ، من بلاد الجبلين(حايل)، وكان ينوب عن خاله مأمور المركز، الذي كان غائباً، كان هذا الشاب لطيفاً

حقاً حسن الاستقبال، وكان الوصول قبل أن يحين وقت الغداء ، ولهذا لم أرد إضاعة الوقت ، فطلبت منه أن يرسل معنا دليلاً إلى حضوضى لزيارتها ، ثم العودة قبل وقت الغداء إلى العيساوية ، والمسافة بينهما تقرب من ٢٥ كيلا ، قطعناها في ٤٠ دقيقة .

وسبخة حضوضى تقع في ملتقى وادي (ياسر) بوادي السرحان ، وتنصب اليها السيول فتبتلعها ولا يخرج شيء منها .

سرنا إلى تلك السبخة ، ولها طريقان : طريق من ناحيتها الجنوبية وهو الذي سلكناه مارّين بمنهل يدعى (قُدَيْر) تصغير قدر ، وهو بئر ضيقة الفم ، ماؤها على وجه الأرض بشكل دَحْلٍ غير مطوية، تبعد عن حضوضى كيلاً واحداً ، وكانت منهلاً للبادية قديماً ، ثم واصلنا السير إلى السبخة في طريق يخترق جانبها الجنوبي وهو صالح للسير ، غير أننا لم نر حاجة لمواصلة السير فيه إلى طرفها الشرقي ، وحَذّرنا من معنا بأن السيارة لو تركت الخط يميناً أو شمالاً فانها ستغوص في السبخة ولا يمكن إخراجها ، وقال : بأن المعروف عند أهل هذه البلاد أن الانحراف عن الطريق يوقع في الهلكة ، وقصّ لنا قصة المثل المتداول عندهم وهو : « هفّ هفّة حربي على حصانه» وحربي هذا رجل أراد أن يخترق سبخة حضوضى وكان يركب حصاناً مشهوراً ، وبلغ به الاعتزاز بقوة حصانه وبشجاعته ما حمله على الاقتحام في وسط السبخة فاختفى هو وحصانه الى الأبد [١] . وقصّ قصصاً أخرى ، آخرها ان أحد أصحاب السيارات الكبيرة انحرف يسيراً عن الخط، فغاصت السيارة إلا أقلها ، واستدعى إخراجها جهداً كبيراً .

ومن هنا أظهرنا لدليلنا الشمري — ، ومرافقنا الشراري بأننا لا نحب أن يقال عنا : « هف هفّة حمد على سيارته » ، وإن كنت في شك في كثير مما قيل . ومن ثم كان الرجوع الى العيساوية حيث وجدنا مضيفنا قد هيأ الغداء

(١) انظر عن حضوضى مجلة «العرب» ص٧٦٣ السنة الأولى، وقسم المواضع من هذه الرحلة.

الملائم لكرمه وكرم رئيسه السُّديري ، وقد دعا للاشتراك فيه علية القوم من موظفي التعليم وهم سبعة ، ومن موظفين في المستوصف ومن مدير الشرطة ومأمور البريد الذي أتحفنا بمقطوعات من شعره ، وغيرهم .

ودعنا المضيف الكريم شاكرين بعد تناول الغداء والاستراحة قليلاً ، وواصلنا السير .

وكان مما مررنا به عَدَدٌ من القرى من أشهرها الموضع المعروف باسم (طَبَرْجَل) وهو واقع في ملتقى أودية تنحدر من الجهة الغربية الى وادي السرحان ومن أشهرها وادي سَمَرْمَد ، وهذا الموقع في فيضة واسعة من الأرض ذات تربة حسنة ، فيها آبار ارتوازية عذبة الماء ، يخرج الماء منها بمضخات ، وفي هذا المكان بنايات على الطراز الحديث ومستشفى ومدرسة ، وأمكنة لحفظ الغلال ، ودارات قليلة لموظفي وزارة الزراعة . وقد قطعنا المسافة بينها وبين العيساوية في ساعة ونصف بالسير السهل بالسيارة الكبيرة .

ومررنا أيضاً بعد ذلك بقرى منها شَيْبَة ثم النَّبك (أبو قصر)والمسافة بينهما بسير السيارة تقرب من ساعة .

ثم واصلنا السير إلى دومة الجندل بعد أن قطعنا ما بينها وبين النبك بـ ٤ ساعات بسير سهل أيضاً ، في دكادك ورمال من طريق غير معبد ، ولا ممهد ، ومن هنا انتهت رحلتنا في بلاد القريات (وادي السرحان) وبلغنا مدينة دومة الجندل في الساعة الثامنة بالتوقيت الزوالي من يوم الاربعاء ١٣٩٠/٢/٩



الجوف (دومة الجندل)

في بلاد الجوف

بعد طلوع شمس يوم الأربعاء ٩ صفر ١٣٩٠ (١٥ أبريل ١٩٧٠) كان السفر من بلدة النَّبْك ، قاعدة القريات ، وكان الوصول إلى دومة الجندل بعد صلاة العشاء ، ذلك أن الطريق كان غير معبد ، ولا ممهَّد ، وان السير كان سهلا هيناً، تخللته ساعات راحة، ومرور ببعض قرى ليست على الطريق، إذ المسافة بين الجوف وقريات الملح تبلغ ٣٦٠ كيلاً إلى سكاكة القاعدة ، ودومة الجندل قبل سكاكة بـ ٤٥ كِيلا .

إن السير بواسطة السيارة لا يُمَكِّنُ المرءَ من مشاهدة ما يريد مشاهدته، ولا سيما إذا كان الرفيق ممن لا يتفق مع المرء في أهدافه وغاياته في الرحلة، إذ كثيراً ما يكون المرء – في مثل هذه الحالة – مع رفيقه على طرفي نقيض إلى درجة قد تؤثر في الرحلة ، ولهذا ينبغي ألا نستغرب ما نقرأه في رحلات فلبي ، وما نسمعه من أخبار عن خلافه مع مرافقيه ، إلى درجة جعلت أكثر مرافقيه يحاولون تحقيق بعض أهدافه ، فيقدمون له بعض المعلومات عن الأمكنة والمواضع وهي غير صحيحة ، وقد يضطر أحدهم عندما يسأله فلبي عن اسم جبل يشاهده وهو يجهله أن يختلق له اسماً ، لئلا يظهر أمام فلبي بمظهر الجاهل ، فتكون النتيجة شكايته لرئيسه ، ومن ثمَّ حرمانه من رحلة قد يستفيد منها .

وأقولها كلمة حقٍّ : لقد كان رفيقاي في الرحلة ، وهما عنزي وشراري

على درجة مشكورة من حسن المسايرة ، وإن كان الشراري يحب حليب الإبل حباً شديداً ، بحيث أننا عندما نكون مستغرقين في الحديث في تحديد موضع أو الاستيضاح عن أمر ، فيفاجأ برؤية إبل فيقطع ما نحن فيه بكلمة : (الحِليب ، !! عاينوا البلّ) !! ولكننا عاملناه بنقيض قصده ، فلم يذق حليب الإبل إلا في صباح اليوم الثاني على مائدة الأمير عبد الرحمن بن أحمد السديري .

لما قاربنا الجوف شاهدنا أرضاً مكسوة بنوع من النبات ، قريب الشبه بما نسميه عندنا في نجد الصَّمعَاء ، وهو نوع من النـّصي إلا أن النصي يكون شُجيرة ملتفـّة الأغصان ، وهذا ينبت أغصاناً متفرقة ، كالقمح ، ولكنه لا يطول أكثر من الشبر ، وغصنه دقيق جداً ، وفي رأسه حُبيبات صغيرة جداً ، سوداء اللون بحمرة قليلة ، أصغر من حب السمسم ، وقالوا لنا : إنه عندما يستوي تحفر في الأمكنة التي هو فيها حُفَـر ، ثم يجمع فيها هذا النبات الذي يسمّى السَّمح حتى ييبس ، فإذا يبس تساقطت الحبيبات منه في جوف الحفر ، فتنقـّى من العيدان ، وتجمع وتستعمل أكلا ، وطريقة صنعها أن تلك الحبيبات تحمص ثم تطحن ، وبعد ذلك تلبك بالسمن والدبس ، ويسمون هذا النوع من الأكل (بَـكيلة) ، وهي تسمية عربية فصيحة وردت في كتب اللغة ، والسمح ينبت من المطر بدون زرع .

عندما وصلنا دومة الجندل بعد العشاء بحثنـا عن مكان للسكن ، وتلك عادتي في كل بلد أصل اليها ، فلم نجد ، ولهذا اضطررنا الى الذهاب إلى قصر الامارة ، فاستقبلنا أنا ورفيقي ممن فيه استقبالاً حسناً فهم يعرفون رفيقيّ ، ولم نجد الأمير إذ كان مدعوا مع أمير المنطقة خارج المدينة .

ولما حان وقت النوم هيىء لي مكان في داخل القصر ، وهو مضاء بالكهرباء كأكثر محلات البلدة ، وساعة وضعت جنبي على الفراش أحاط بي من البعوض ما هو أشبه بدخان كثيف ، فقمت مسرعاً من فراشي وناديت رجلاً كان بقربي ، وأبديت له عدم رغبتي في المبيت داخل القصر ، وأنني أرغب أن

أنام في الخلاء خارج القصر ، لكي أسلم من لسع البعوض ، فحمل فراشي وخرج به الى ساحة أمام باب القصر ، والقصر يقع فوق جبل مرتفع ، وهذه الساحة مرتفعة وبعيدة عن الأبنية ، وكان الهواء إذ ذاك متحركاً ، فظننت أنني أصبحت آمناً من البعوض ، ولكن سرعان ما تمددت فوق الفراش فإذا بالبعوض يحيط بكل ما برز من جسمي ، فلم أجد أية وسيلة سوى أن اطلب لحافاً لكي أختفي فيه عن هذا العدو المقلق ، ولكنه كان على درجة لطيفة لإدراك طرق فريسته مهما كانت الوسائل .

لقد بتُّها ليلة نابغية (٢) وقمت وآثار لسعه في وجهي ويديَّ ورجليَّ لم يزلها سوى ما أضفاه عليّ أمير تلك البلاد الأمير عبد الرحمن بن أحمد السديري من حسن الضيافة ، والإسكان في مكان وجدت فيه من الراحة ما أزال ما أحسسته به من تعب .

أصبح اليوم العاشر من شهر صفر فحضر أمير البلدة عبد الله بن نُغَيْمش وهو من إحدى قرى الوشم ، رجل كريم ، سمح الخلق ، وبعد تناول طعام الإفطار طلبت منه أن يبعث معي من يرشدني إلى بعض المواضع الأثرية ، فقال : ليس هناك من الآثار ما يستحق الزيارة ، وأبرز أثر هو قصر مارد الذي ننزل بطرفه ، وكنت قد قمت مبكراً وتجولت بكل ما يحيط بالحصن من بنايات ، فشاهدت ان هذا الحصن يقع على جبل – أو تل صخري بمعنى أصح – يطل على بلدة الجوف ، من الجهة الغربية ، (انظر صورته) ممتداً نحو الشرق حيث تقع شرقه وشماله ارض منخفضة تنتشر فيها بساتين البلدة وبعض قصورها القديمة وتقع بجوار الحصن ، والحصن على أنف مشمخرٍّ من التلّ الصخري ، يطل على كل الأمكنة الواقعة حول الجوف ، بحيث يشاهد من كان فيه كل من يقدم إلى البلدة من أية جهة من جهاتها من مسافات بعيدة ، والحصن مرتفع ارتفاعاً شاهقاً وهو مبني بالصخر والجص والطين ،

(١) اشارة الى قول النابغة :

فبتُّ ، كأني ساورتني ضئيلة من الرُّقْش ، في أنيابها السمُّ ناقعُ

ولا شك أن بناءه ليس قديماً جداً، فهو -فيما يظهر من آثار البناء- قد جدد مرات، ويمكن للمتعمق في دراسة الآثار ولغير المتعمق أيضاً أن يدرك ذلك إذ طراز البناء في أسفله يغاير شكله في وسطه وفي أعلاه، وهو الآن آيلٌ للخراب، فقد تصدعت جوانبه، وقد بنى بجواره ثلاثة قصور: قصر يقع شرقه بني في عهد إمارة ابن شعلان على هذه البلاد، وقصر آخر بني بالحجر والطين ويقع أسفل الحصن شرقه بناه الأمير عبد الله الحواسي أثناء حركة الاخوان سنة ١٣٤٧ هـ، وقصر ثالث حديث يقع شمال القصر بني بالحديد والاسمنت، وقد كتب فوق بابه بعد البسملة (بعون الله تم تأسيس هذه البناية بعهد صاحب الجلالة الملك المصلح الأعظم، المنقذ لهذه الجزيرة، ملك المملكة العربية السعودية، عبدالعزيز آل سعود في وقت مدة الأمير عبدالرحمن ابن احمد آل محمد السديري على الجوف وملحقاته عام ١٣٧٢ الموافق ١٩٥٣ غربي، وصلى الله على سيدنا محمد).

قام الأمير ابن نغيمش معي وسرنا نحو خرائب البلدة المجاورة للحصن والتي لا يزال بعضها مسكوناً مع قِدَمه وخرابه، وكل هذه الخرائب مبنية بالأحجار، ومسقفة بجذوع النخل، وأسواقها ضيقة جداً، مسقفة بعقود من الحجر المتداعي للسقوط في كثير من المواضع. ذهبنا لزيارة مسجد يدعى مسجد عمر، ويقع تحت الحصن في البلدة القديمة، وبعد أن تجاوزنا الحصن عن يميننا مررنا بزقاق ضيق مسقف بعقود من الحجارة، وقد تهدم كثير من جوانب سقفه، قال لي الأمير: إنه يدعى شارع الغُريراء. ثم عرّجْنا بعد سير يسير فيه، ذات اليسار، الى زقاق ضيق، فأراني الأمير في الجانب الأيسر من هذا الزقاق على ارتفاع أقل من ثلاثة أمتار من الأرض، أراني حجراً يبلغ طوله ثلاثة أشبار ونصفاً في عرض شبر، وفيه كتابة محفورة حفراً بخط دقيق جميل، في ثلاثة أسطر، قال إنها عبرية، ولكنها فيما بدا لي ليست عبرية، بل هي أقرب إلى الآرامية.

وسألت الأمير: ألا توجد كتابة أخرى؟ فاتجه بي صوب الحصن وأراني

في جداره الشرقي أحجاراً أربعة في الجدار ، وفي مكان مرتفع منه ارتفاعاً لا يمكن من رؤيتها أو الصعود اليها ، وقال لي ان فيها كتابة . ومظهر الأحجار تلك يغاير مظهر ما حولها من الأحجار ، ولم توضع بطريقة مرتبة وكل هذا يحمل على القول بأن الحصن أعيد بناؤه مرات فنقلت بعض أحجاره من مواضعها القديمة الى مواضع أخرى ومنها هذه الأحجار .

وبعد مشاهدة ما حول الحصن ، أشرفنا من قمة جبل مجاور للحصن على ما يحيط بنا، فرأيت – بجوار حدائق البلدة الواقعة في منخفض تحت الحصن ويبعد عنه بما يقارب أربعة أكيال – شاهدت بحيرة من الماء زرقاء اللون ، فسألت الأمير عنها ، فأخبرني بأن كثيراً من أهل هذه البلاد سارعوا إلى حفر الآبار الارتوازية،فتفجر الماء باندفاع قوي،وبمقدار أكثر مما يحتاجون اليه فتكونت هذه البحيرة التي سببت انتشار البعوض ، وقد قامت الحكومة بجهد كبير لمكافحته والقضاء عليه ، ويقوم أهل البلدة الآن بجمع مبلغ من المال لمكافحته أيضاً .

فقلت له : وهل تمكن المكافحة بدون إزالة هذه البحيرة ؟!

ولقد تبين من مشاهدتي–وأنا لم أصل الى موقع البحيرة–ان تصريف مياهها ليس من السهل اليسير ، فهي محاطة من جميع جوانبها بمرتفعات ورمال بحيث لا يمكن إيجاد مسارب تتسرب منها تلك المياه إلى مواضع منخفضة .

ولقد أبديت – فيما بعد – لمعالي وزير الزراعة الأستاذ حسن آل مشاري ما تقاسيه تلك البلدة من جرّاء تكاثر البعوض مما يخشى أن يسبب انتشار مرض يقضي على أهل البلدة ، فأخبرني بأن الحكومة قد وضعت مشروعاً ضخماً لجرّ المياه إلى مواضع يستفاد بها ، وان وزارة الزراعة أمرت بإيقاف حفر الآبار الارتوازية في تلك الجهة . وقبل ذلك ، كنت قرأت في كتاب « المراعي ووسائل تحسينها في المملكة العربية السعودية [1] » ما هذا نصه :

---

(١) : – ص ١١٢ –

(منطقة دومة الجندل من المناطق التي تتميز بوجود مصادر جوفية غزيرة للمياه . ومع أن الطبقات السطحية قد نضبت بعض عيونها إلا أنه قد حفر بها أحد العيون في السنوات الأخيرة في طبقة أعمق نسبياً، ومنذ ذلك الوقت والمياه تتدفق منها ليلاً ونهاراً، تحت ضغط كبير من أنبوبة قطرها ١٢ بوصة، وتعتبر أغلب هذه المياه في حكم الضائعة ، في حين أن في الامكان سحب هذه المياه بمضخة أو أكثر ، وتحويلها إلى بعض مساحات الأراضي غير المزروعة ، الواقعة إلى الشمال من العيون أو إلى الجنوب منها، وتوجيهها إلى زراعة البرسيم الحجازي المستديم ، وانتاج دَريسه ، وتخزينه للانتفاع به وقت الحاجة في المناطق المجاورة ... وسوف يسمح ذلك بالسيطرة على مصدر المياه الراكدة في المنخفض بدومة الجندل ، والتي ينتح عنها تلف بعض المزارع المجاورة ، نتيجة للرشح وتراكم الأملاح . وقد ينهي ذلك أيضاً مشكلة (الملاريا) التي كانت انتشرت في هذه المنطقة ، الأمر الذي دعى إلى قيام وزارة الصحة وهيئة الصحة العالمية بمكافحة المرض هناك . والتوسع في زراعة البرسيم في هذه الحالة سوف يسمح بصرف كميات كبيرة من المياه بتبخر ما مقداره ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ متر مكعب من المياه من كل فدان يزرع بهذا المحصول سنوياً ،وإذا ما تم استهلاك كافة المياه الناتجة من هذه العين بنجاح فان المجال يتسع لحفر عدد آخر من الآبار في نفس المنطقة ، وقد تكفي البئر لزراعة حوالي ٣٠٠ فدان،ويعتقد الكاتب أن هذه المنطقة يجب أن يكون لها أولوية في الاصلاح .

وهناك من الادلة ما يشير إلى وجود مصادر كبيرة للمياه حول هذه المنطقة يمكن توجيه جزء كبير منها في هذا الاتجاه) انتهى .

ولقد صدق حدس هذا الخبير فتدفقت المياه بغزارة هائلة سنة ١٣٧٥ حتى أصبحت – وهي من نعم الله تعالى – أصبحت نقمة، إن لم تداركها الحكومة بحكمتها بعلاج ناجع .



من دومة الجندل الى سكاكة

كانت دومة الجندل قاعدة البــلاد إلى ما قبل ثلاثين عاماً حيث نقلت القاعدة إلى سكاكة التي تبعد عن دومة الجنــدل شرقاً بميل نحو الشمال بخمسة واربعين كيلا، ذلك أن سكاكة تقع في طرف أرض منبسطة واسعة، وتنتشر حولها قرى المنطقة ، بخلاف دومة الجندل ، فهي واقعة في أرض منخفضة جداً وضيقة، والآكام المرتفعة التي حولهـا ليست من السعة بدرجة تمكن من ازدياد العمران ونشاطه ، وإيجاد مختلف المرافق الحيوية اللازمــة لتطوير المنطقة .

يمر الطريق من الجوف إلى سكاكة ، وقــد عُبّد تعبيداً متقناً بالاسمنت ، يمر ببلدتي قارة والطـوَير ، ثم يدع المطار على اليمين بقربـه ، وهو يبعد عن مدينة سكاكة غربها خمسة أكيال تقريباً .

بعد ان حاذينا المطار،عرج بنا طريق فرعي ذات اليسار إلى بيت الأمير الذي يسكنه ، وهو بيت حديث البناء ليس على درجة من الأبهة ، ولكنه قد استوفى جميع الوسائل التي يحسن توفرهـــا في البنايات الحديثة ، فهو في متسع من الأرض، لا يجاوره شيء من البنايات ويجواره حديقة غنّاء، واسعة، تسقى بمضخات من آبار تجذب منها المـــاء جذباً ، وفي هذه الحديقـــة تكثر أنواع النخيل المعروفة ، وتنتشر اشجار الفاكهة وغيرهـا من الأشجار المثمرة ، كالزيتون ، وفي مساحات واسعة تزرع الخضروات الموسمية ، بكمية تمدُّ المدينة بحاجاتها منها .

ساعة وصلنا باب قصر الأمير وجدنا عنده شاباً عرف رفيقي وعرفاه ، هو الأخ عبد الله بن جريد من أهل هذه البلاد ، ومن قبيلة الشرارات ، وقد درس دراسة جامعية في امريكة ، واشتغل في وظائف في بعض الشركات ، وهو الآن من موظفي ديوان الأمير .

دعانا هذا الشاب للاستراحة قليلا في القهوة، وبعد اتصاله بالأمير أخذنا إلى المكان المهيأ للسكن في داخل القصر ، وهو مطل على حديقته الجميلة ، وما هي سوى لحظات حتى أخبرت بأن الأمير كان ينتظرني في مجلس مجاور للمكان المهيأ لسكني .

لم أستغرب ما شاهدته منه من بشاشة ودماثة خلق ، وحسن استقبال ، فهذه الصفات قل ان تجد رجلاً من الأسرة الكريمة السديرية لا يتصف بتلك الأخلاق الفاضلة .

بعد ان عرف غايتي من القدوم دعا ذلك الشاب الذي ذكرته آنفاً ، وأمره بأن يهيىء إحدى السيارات ، وان يرافقني طيلة مقامي في البلاد ، وأن يذهب بي إلى أي مكان أرغب زيارته، ولقد قام الأخ عبدالله بن جُرَيّد بتنفيذ كل ما أمر به خير قيام ، وكان خير مُعين ومرشد وأحسن رفيق أفادني بما لديه من خبرة ومعرفة ، وجعل مدة تجوالي على درجة من الراحة والامتاع .

كانت تلك الليلة الليلاء التي أمضيتها في دومة الجندل أحدثت لي شيئاً من التعب حيث لم أهنأ بالنوم فيها ، وقبلها كنت واصلت بياض النهار سفراً ولم أطعم النوم ، ومن عادتي ان أنام نصف النهار ، وآخذ قسطاً من النوم في الليل ، ولهذا كان أول ما أصبحت محتاجاً إليه هو النوم فكان ذلك ، حتى حان وقت الغداء قرب وقت صلاة الظهر، وبعد تناوله عدت الى الراحة بعد ان اتفقت مع رفيقي بأن يأتي اليّ بعد صلاة العصر، حيث كان التجوال في داخل المدينة التي تبعد عن بيت الأمير ما يقارب خمسة أكيال .

مدينة سكاكة

لوقوع المدينة في متسع من الأرض تهيأ لهـا من حسن التخطيط ، وسعـة الشوارع وطولها ، وتباعد البيوت ما لم أرَ مثله في مدن المملكة إلا بـلدة النبك قاعدة القريات ، وقبل هاتين مدينة بُريدة ، وقل مثل ذلك في تبوك والطائف . هذا من حيث انفساح المدينة واتساع الأرض .

وسكاكة مدينة حديثة ، لم تستكمل نموها ، غير ان اميرها حريص على ان تستكمله ، ففضلاً عما تبذله الحكومة من إصلاح عـام شامل لكل مدن المملكة ، مما تنال هذه المدينة نصيبها منه كاملا غير منقوص ، فقـد أضيئت بالكهرباء ، وشُرع في تعبيد كثير من طرقها الرئيسية ، بل كل الطرقـات الموصلة إلى كبريات قرى المنطقة فيما بينهـا وبين دومة الجندل ، وفضلاً عن ذلك فقد أنشىء في المدينة في هذا العام لجنة تدعى (لجنـة تحسين منطقة الجوف) يرأسها الأستاذ فيصل ابن الأمير عبد الرحمن السديري ، وهـو في الوقت نفسه وكيل الامارة ، وهو شاب مثقف أكمل دراسته في الخارج ، وله مؤلف عن « المملكة العربية السعودية وتطورها الاقتصادي » مطبـوع سنة ١٣٨٧ هـ .

هذه اللجنة تتكون من رؤساء الدوائر الرسمية في المنطقة ، وغايتها عمل كل ما من شأنه إظهار البلدة بمظهر حسن ، ومن أعمالها التي قامت بها ومنها ما هو في دور الإنشاء :

١ – غرس أشجار في شارع الملك عبد العزيز أطول شوارع المدينة، وقد تَمّ غرس ١٥٠٠ شجرة منوعة ؛ منها أشجار الكينا .

٢ – تسوير المقابر القديمة التي تقع وسط البلدة .

٣ – مساعدة البلدية في أعمالها .

٤ – إنشاء حديقتين عامتين (لم يتم إنشاؤهما بعد) .

٥ – إنشاء نادٍ للموظفين (ثقافي ورياضي) .

وهناك جمعية أخرى تدعى (الجمعية التعاونيـــة) يرأسها الأمير ، يراد منها أن تكون مماثلة للجمعية التعاونية في القريات .

وهاتان الجمعيتان تقومان على أساس تبرعات من أهل البلاد بما فيهم الأمير وسائر الموظفين .

وقد أنشأ الأمير مكتبة عامة تقع في وسط البلـدة بقرب المسجد الجامع وقصر الحكومة الذي أنشىء سنة ١٣٨٥ هـ ، وقرر الأمير بنـاء مكان واسع لها يتكون من طابقين ، وقد انتهت الدراسات المتعلقة بتخطيط ذلك المكان، وسيشرع في بنائه قريباً – فيما قيل لي – .

والمدينة منارة بالكهرباء ، وفيها فرع لأحد المصارف في المملكة ، هـو بنك الرياض، وفيها فندق صغير؛ وبالإجمال فتوسط المدينة بين مناطق القريات وامارة الشمال وامارة حائل ، ووقوعها بالقرب من أمكنة ترتادها البوادي في مختلف فصول السنة ، كل ذلك من الأمور التي تساعد على نموها واكتمالها.

وفي سكاكة دوائر رسمية تمثل جميع وزارات الدولة ، ففي بلاد الجوف – فضلاً عن الدوائر الادارية كالإمارة والشرطـة والمحكمة – مستوصفـان ، وفيها إدارات للجوازات وممثل لكل من الزراعة، وللطرق وللبرق والبريد والهاتف وللصحة ، كما هي الحالة في مختلف الامارات في المملكة .

نبذ من تاريخ المنطقة

نعني بالمنطقة: الجوف ووادي السرحان ، لأنني أعتقد ويعتقد غيري أنها منطقة واحدة ، جغرافياً و (جيولوجياً) وسكاناً ، وهذه المنطقة كغيرها من البلاد الواقعة في وسط الجزيرة وفي بعض أطرافها النائية مجهول تاريخها . وما سنعرضه ما هو سوى لمحات وومضاتٍ قصيرة ، من تاريخ هذه البلاد ، هي كل ما عرفناه منه .

مما لا شك فيه وجود سكان ذوي حضارة انتقلوا من الجنوب إلى هذه الجهات مثل الأنباط الذين كان لهم بقية في دومة الجندل إلى قرب ظهور الاسلام، فابن حبيب يذكر في كتابه «المنمق في أخبار قريش»[1] أن أم سلمة ابن هشام بن العاص بن هشام ابن المغيرة المخزومي القرشي نبطية من دومة الجندل وفي البلاد آثار من الكتابات النبطية—وهي أصل الكتابة العربية القديمة كثيرة في هذه المنطقة – ومن الأمثال المتداولة عند متقدمي المؤرخين (تمرد مارد وعز الأبلق) وينسب للزباء ملكة تدمر ، ويذكرون في شرحه أنها غزت دومة الجندل فاستعصى عليها فتح حصنها مارد فقالت المثل ، والزباء هذه قتلت في حدود سنة ٢٧٣ للميلاد ، واذن فقد كان في دومة الجندل حكم قوي لم تستطع الزباء إخضاعه في القرن الثالث الميلادي ، ويروي الدكتور جواد علي أنه في القرن الخامس الميلادي تولّى حكم دومة الجندل ملك يدعى امرؤ القيس ، بعد أن انتقل إليها من شرق الجزيرة ، واتخذ دومة الجندل قاعدة

---

(١) ص ، ١٦٦ .

لملكه ، بعد أن هاجر إليها وهو وقبيلته ، وتوسع ملكه حتى شمـــل بلاد الأردن ، وجزيرة تاران في البحر الأحمر [١] ، وهذا من ملوك الحيرة الذين كانت مملكتهم خاضعة للفرس حقبة من الزمن ، ويظهر أنه استقل عنهم ، فأنشأ دولة عربية جعل قاعدتها دومة الجندل ، ويقول ابن خلدون :

(وكان لقضاعة ملك آخر في كلب بن وبرة ، يتداولونه مع السكون من كندة ، فكان لكلب دومة الجندل وتبوك ، ودخلوا في دين النصرانية ، وجاء الإسلام والدولة في دومة الجندل لأكيدر بن عبد الملك من السكون – ويقال إنه كندي من ذرية الملوك الذين ولاهم التبابعة على كلب ، فأسره خالد بن الوليد ، وجاء به إلى النبي ﷺ فصالح على دومة .

وكان من أول من ملكها دجاجة بن قنافة بن عدي بن زهير بن جناب الكلبي) .

أجل إن قبيلة كَلْبٍ القضاعية القحطانية كانت تسيطر على شمال الجزيرة من رملة عالج – المعروفة الآن باسم النفود الكبير – الواقعة فيما بين جبلي طيّء وبين دومة الجندل ، وإلى حدود العراق شرقاً ، وحدود الشام شمالاً ، وكان نفوذها يمتد في بعض الأوقات حتى يشمل منطقـــة النفود (رمل عالج) ، كما يدل على ذلك قول الأخنس بن شهاب التغلبي :

وكَلْبٌ لها خَبْتٌ ، فرمْلَةُ عـــالجٍ
إلى الحرَّة الرَّجْلاء ، حيث تحارِبُ [٢]

إلاّ أن القبائل يزداد نفوذها ويضعف تبعاً لقوتها وضعفها ، وبقيت رئاسة دومة في بني كلب ، وآخر من عرف منهم الأكيدر بن عبد الملك ، وهو وإن كان كندي النسب إلا ان أخواله من كلب ، وهم يشاركونــه في الحكم ، كما يفهم من قول ابن خلدون : كانت رئاسة دومة لأكيدر بن عبد الملك والجودي

---

(١) « المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » ج ٢ ص ٥٥ وما بعدها .
(٢) : « صفة جزيرة العرب » – ٢٠٥

ابن ربيعة يقتسمانها،وأشار أكيدر بالصلح مع خالد بن الوليد -رضي الله عنه- فلم يقبلوا منه فخرج [١] .

وهذا يدل على أن الأكيدر كان يخضع لنفوذ القبيلة . وان كان يفهم من كلام ابن حبيب الآتي في ذكر سوق دومة الجندل أن لملوك الحيرة بعض نفوذ وسيطرة في هذه البلاد، فإذا قوي نفوذهم أقاموا الأكيدر الكندي العبادي، وإذا ضعف وقويت سيطرة الغساسنة ملوك الشام أيدوا قنافة الكلبي . أما ما عرض في كلام الاستاذ سعيد الأفغاني عن صلة الأكيدر بملك الشام هرقل، وانه كان عاملاً له فلم أر ما يؤيده - وسيأتي نص كلامه - وكلام ابن حبيب يدل على أن صلة الأكيدر بملوك الحيرة التابعين للفرس ، وهو ما يؤيده ما أورده ابن حجر في صفة الجبة التي أهداها الأكيدر للرسول (ص) وأنها مما كان كسرى يكسوهم [٢] .

وسيأتي - في الحديث عن الآثار- ما يشير إلى صلة الرومان بهذه البلاد .



(١) «العبر» ج ٢/٥٩٨ .
(٢) «الإصابة» رقم ٥٤٩ .

في العهد الاسلامي

بعد ان انتشر الاسلام في الجزيرة جرت مناوشات لإخضاع هذه البلاد ، ويظهر أنه لم يتم إخضاعها إلا بعـــد أن استولى الرسول ﷺ على جميع الجزيرة، بعد غزوة تبوك التي بلغ فيها الرسول ﷺ أطراف الشام ، وها هو أهم ما أورده المؤرخون عن غزوات هذه البلاد في صدر الاسلام .

١ ــ بلغ رسول الله ﷺ أن بدومة الجندل جمعاً كثيرا ، وكان بهـــا سوق عظيم وتجار ، وأنهم يظلمون من مَرَّ بهم من الضافطة ، وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة ، فخرج رسول الله ﷺ لخمس ليال بقين من شهر ربيع الأول ـ السنة الخامسة من الهجرة ـ في الف من المسلمين ، فكان يسير الليل ويكمن النهار، ومعه دليل له من بني عذرة يقال له مذكور ، هاد خرّيت ، فلما دنا منهم إذا هم مُعزّبون ، وإذا آثار النعم والشاء ، فهجم على ماشيتهم ورعاتهم ، فأصاب من أصاب ، وهرب من هرب ، وجاء الخبر أهل دومة تفرقوا ، ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم فلم يجد بها أحداً ، فأقام بها أياماً ، وبثّ السرايا وفرقها ، فوجد محمد بن مسلمة رجلاً منهم فأتى به النبي ﷺ فسأله عنهم فقال : هربوا حين سمعوا أنك أخذت نَعَمَهُم ، فعرض عليه الإسلام فأسلم ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلق اكيدر ، لعَشر بقين من شهر ربيع الآخر [1] .

---

(١) « الطبقات » ـ ٦٢/٢ و « تاريخ ابن جرير » ١٤٦٢/١ و« الإصابة » رقم ٧٨٠٦٦ ،

ويذكر ابن حبيب أن تجار العرب هم الذين شكوا إلى رسول الله ﷺ ظلم الأكيدر ، وأنّ الأكيـــدر هرب وخـلّـى السوق لما غزا الرسول ﷺ البلاد [1] .

٢ – في شعبان سنة ست دعا رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف فأقعده بين يديه وعمّمَهُ بيده ، وقال : « أغز باسم الله ، وفي سبيل الله ، فقاتل من كفر بالله ، لا تغُلّ ولا تغدرْ ولا تقتل وليداً » . وبعثه إلى دومة الجندل ومعه سبعمائة ، وقال : « إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم » فسار عبد الرحمن حتى قدم دومة الجندل ، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الاسلام فأسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي ، وكان نصرانياً ، وكان رأسهم ، وأسلم معه ناس كثير من قومه ، وأقام من أقام على إعطاء الجزية ، وتزوج عبد الرحمن تماضر بنت الأصبغ وقدم بها المدينة ، وهي أم أبي سلمة بن عبد الرحمن[2] – الفقيه المعروف – بعد أن أرسل عبد الرحمن كتاباً مع رافع بن مكيث الجهني بالبشارة بذلك ، فكتب اليه الرسول ﷺ أن يتزوج بنت الأصبغ .

أما الأستاذ سعيد الأفغاني فبعد أن يورد خبر سرية عبدالرحمن بن عوف يقول : إلا أن أكيدر صاحب دومة وعاملها لهرقل بقي على تعرضه للسابلة من تجار المدينة ، ولعل لمكانة سوق دومة الجندل وكثرة التجار ، وعدم تعريج أحـــد من المدينة عليها – دخْلاً في هذا التعرض الذي لا يبعد أن يكون للمنافسة التجارية ، أثر غير قليل [3] .

وكان افتتاح دومة صُلحاً ، قال ابن اسحاق : في سنة تسع فتح رسول الله ﷺ دومـــة – وبعث خالد بن الوليد – وهو في غزوة تبوك – فأتاه بأكيدر دومة ، وهو أكيدر بن عبد الملك من كندة ، وكان ملكا عليهم ، وكان نصرانيا . فقال رسول الله ﷺ لخالد : « إنك ستجده يصيد البقر ،

(١) « المحبر » – ١١٤ –
(٢) « الطبقات » ٢ / ٨٩ و « تاريخ ابن جرير » ١ / ١٥٥٦ و « سيرة ابن هشام » ٤ / ٢٨١ .
(٣) « أسواق العرب » ٢٣٤ .

فخرج حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين ، وفي ليلة مقمرة ، صائفة ، وهو على سطح له ومعه امرأته ، فباتت البقر تحك بقرونها باب القصر ، فقالت له امرأته : هل رأيت مثل هذا قط . قال : لا والله . قالت : لمن تترك هذه؟ قال : لا أحد . فنزل فأمر بفرسه فأسرج له ، فركب ، وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له حسان فركب ، وخرجوا فلما خرجوا لقيتهم خيل رسول الله ﷺ فأخذوه وقتلوا أخاه ، وقد كان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب فاستلبه خالد (ض) فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه عليه . فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه فقال رسول الله ﷺ « أتعجبون من هذا ؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن عبادة في الجنة أحسن من هذا » . ثم ان خالداً (ض) قدم بالاكيدر على رسول الله ﷺ فحقن له دمه ، وصالحه على الجزية ، ثم خلّى سبيله فرجع إلى قريته [1] ، وقال رجل من طيّ يقال له بجير بن بجرة :

تبارك سائق البقرات إني رأيت الله يهدي كل هاد

وأورد ابن سعد الخبر بزيادة تفصيل ونصه : فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في أربعمائة وعشرين فارساً في رجب سنة تسع سرية إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل ، وكان أكيدر من كندة قد ملكهم ، وكان نصرانيا ، فانتهى إليه خالد وقد خرج من حصنه في ليلة مقمرة إلى بقر يطاردها هو وأخوه حسان فشدت عليه خيل خالد بن الوليد فاستأسر أكيدر ، وامتنع أخوه حسان وقاتل حتى قتل وهرب من كان معهما ، فدخل الحصن وأجار خالد أكيدر من القتل حتى يأتي به رسول الله ﷺ على أن يفتح له دومة الجندل ، ففعل وصالحه على الفي بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح ، فعزل للنبي ﷺ صفيا خالصا

(١) « تاريخ ابن جرير ١ / ١٧٠٢ و « سيرة ابن هشام » ٤ / ١٧٠ و « الروض المعطار » نسخة مكتبة عارف حكمت في المدينة رقم ٣٦٥ تاريخ المخطوطة سنة ٩٧١ .

ثم قسم الغنيمة فأخرج الخمس ، وكان للنبي ﷺ ثم قسم ما بقي بين أصحابه فصار لكل رجل منهم خمس فرائض ، ثم خرج خالد بن الوليد بأكيدر وبأخيه مصاد، وكان في الحصن وبما صالحه عليه قافلاً إلى المدينة ، فقدم بأكيدر على رسول الله ﷺ فاهدى له هدية فصالحه على الجزية وحقن دمه ودم أخيه وخلى سبيلها ، وكتب له رسول الله ﷺ كتابا فيه أمانهم وما صالحهم عليه وختمه يومئذ بظفره [1] .

وقال ابن سعد [1] : أخبرنا محمد بن عمر الواقدي قال : حدثني شيخ من أهل دومة أن رسول الله ﷺ كتب لأكيدر هذا الكتاب، وجاءني بالكتاب فقرأته وأخذت منه نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الاسلام ، وخلع الأنداد والأصنام ، مع خالد بن الوليد ، سيف الله ، في دومة الجندل، وأكنافها ، ان له الضاحية من الضحل ، والبور ، والمعامي ، وأغفال الأرض ، والحلقة والسلاح والحافر والحصن ، ولكم الضامن من النخل ، والمعين من المعمور ، وبعد الخمس لا تعدل سارحتكم ، ولا تعد فاردتكم ولا يحظر عليكم النبات ، ولا يؤخذ منكم إلا عشر الثبات ، تقيمون الصلاة لوقتها ، وتؤتون الزكاة بحقها ، عليكم بذاك العهد والميثاق ، ولكم بذلك الصدق والوفاء ، شهد الله ومن حضر من المسلمين » .

قال محمد بن عمر : الضحل الماء القليل . والمعامي من الأرض ما لا حد له . والضامنة ما حمل من النخل . وقوله : لا تعدل سارحتكم ، يقول : لا تنحى عن الرعي ، والفاردة : ما لا تجب فيه الصدقة ، والاغفال : ما لا يقال على حدة من الأرض ، والمعين : الماء الجاري ، والثبات : النخل القديم الذي قد ضرب عروقه في الأرض وثبت .

وقال ابن سعد : وفد حارثة بن قطن بن زائر بن حصن بن كعب بن عليم

---

(١) : « الطبقات » ٢/١٦٦ و١/٢٨٨ .

الكلبي ، وحمل بن سعدانة بن حارثة بن مغفل بن كعب بن عليم الى رسول الله ﷺ ، فأسلما ، فعقد لحمل بن سعدانة لواء فشهد بذلك اللواء صفين مع معاوية ، وكتب لحارثة بن قطن كتاباً فيه [1] : « هذا كتاب من محمد رسول الله لأهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب ، مع حارثة بن قطن: لنا الضاحية من البَعْل ، ولكم الضامنة من النخل ، على الجارية العُشْر ، وعلى الغائرة نِصْف العشر ، لا تُجْمع سارحتكم ، ولا تعدل فاردتكم ، تقيمون الصلاة لوقتها ، وتؤتون الزكاة بحقها ، لا يُحظر عليكم النّبات ، ولا يؤخذ منكم عشر البتّات [2] ، لكم بذلك العهد والميثاق ، ولنا عليكم النصح والوفاء ، وذمة الله ورسوله ، شهد الله ومن حضر من المسلمين » .

قال عبد عمرو بن جبلة بن وائل بن الجلاح الكلبي شخصت أنا وعاصم رجل من بني رقاش من بني عامر ، حتى أتينا النبي ﷺ ، فعرض علينا الاسلام فاسلمنا وقال : « أنا النبي الأمي الصادق الزكي ، والويل كل الويل لمن كذبني وتولى عني وقاتلني ، والخير كل الخير لمن آواني ونصرني وآمن بي وصدق قولي ، وجاهد معي » ، قالا : فنحن نؤمن بك ونصدق قولك ، فاسلما ، وانشأ عبد عمرو يقول :

أجبت رسولَ الله إذ جاء بالهدى ... واصبحت بعد الجَحْد بالله أوجرا
وودَّعتُ لذّات القِداح وقد أرى ... بها سَدِكاً عُمري ، وللهو أصْوَرا
وآمنت بالله العليّ مكانُهُ ... وأصحبت للأوثان ما عشت منكرا [3]

أوْجر : كثير الخوف من الله . سَدِكاً : مولعا .

ويروي المؤرخون في خبر مجيء الأكيدر إلى الرسول ﷺ ما يدل على أنه كان على مظهر من القوة والثراء ، وأنه أهدى للرسول ﷺ بعض الهدايا فيوردون مثلاً قولهم : وكان على أكيدر حين قدم به خالد صليب من ذهب

---

(١) : « الطبقات » ١/٣٣٤ . (٢) انظر ما تقدم . (٣) « الطبقات » ١ / ٣٣٤ .

وعليه الديباج ظاهرا . وقال ابن حجر : ومن قال إنه أسلم فقد أخطأ خطأ ظاهرا ، بل كان نصرانيا ، ولما صالحه رسول الله ﷺ عاد إلى حصنه وبقي فيه ، ثم إن خالد بن الوليد أسره في أيام أبي بكر فقتله كافرا [١].

وقال ابن سعد : وبعث صاحب دومة الجندل إلى رسول الله ﷺ ببغلة وجُبَّةٍ من سُندس ، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يعجبون من حسن الجبة ، فقال رسول الله ﷺ : « لَمنَادِيلُ سعد بن معاذ في الجنة أحسن » ، يعني من هذا [١] .

وقال الحافظ ابن حجر [٢] : خرجت خيل رسول الله ﷺ فسمع بها أكيدر دومة الجندل فانطلق الى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله بلغني أن خيلك انطلقت وإني خفت على أرضي ومالي،فاكتبوا لي كتاباً لا يعرضون في شيء هو لي ، فإني أقر بالذي هو عليَّ من الحق ، فكتب له رسول الله ﷺ ، ثم ان أكيدر أخرج قباء من ديباج ، منسوجاً بالذهب،مما كان كسرى يكسوهم فقال : يا رسول الله اقبل مني هذا ، فإني أهديته لك . فقال : « إرجع بقبائك فإنه ليس أحد يلبس هذا في الدنيا إلا حُرِمَهُ في الآخرة » فرجع به إلى رحله حتى أتى منزله ، ثم إنه وجد في نفسه أن يرد عليه هديته ، فرجع وقال : يا رسول الله ! إنا أهل بيت يشق علينا أن ترد هديتنا فاقبل مني هديتي ، فقال : « ادفعه الى عمر » .

وذكر أيضاً أن الأكيدر أرسل إلى رسول الله ﷺ جبة من ديباج منسوج فيها الذهب ، فلبسها رسول الله ﷺ ، وأنه أهدى أيضاً جرّة من منٍّ الى رسول الله ﷺ فأعطى لكل واحد قطعة .

وللأكيدر هذا ابن اسمه عبد الملك عدّه الحافظ ابن حجر وغيره في

(١) « الإصابة » رقم الترجمة ٥٤٩ .

(١) : « الطبقات » ٢/٧٨ .

(٢) : « الاصابة » رقم الترجمة ٥٤٩ .

الصحابة [1] . وللأكيدر أيضاً أخ اسمه حُريث أسلم ، فسلم له ما تحت يده وتزوج يزيد بن معاوية بنته [2] . ولما توفي رسول الله ﷺ نكث الأكيدر العهد . قال ابن جرير : (وتوفي رسول الله ﷺ وكان عامله في دومة الجندل امرؤ القيس بن الأصبغ الكلبي ، فارتد بعض قبيلة كلب ، وانقادوا لوديعة الكلبي ، وبقي امرؤ القيس على دينه ، فلما سار أسامة بجيشه وتوسط في بلاد قضاعة ، خرج المرتدون هُرّاباً حتى أرزوا الى دومة واجتمعوا إلى وديعة ، فسار إليهم شرحبيل بن حسنة ومعه الأقرع بن حابس التميمي بأتباعه من تميم ، ولكن شرحبيل أتاه أمر الخليفة ليتجه الى جهة أخرى ، وأرسل الخليفة جيشاً آخر بقيادة عياض بن غنم لغزو المرتدين الذين تبعوا وديعة ، وكما يقول ابن جرير : (فأشجَوْا عياضاً ، وشَجُوا به [3]) حتى سار اليه خالد بن الوليد ، فأحاط الجيشان بالبلاد .

ولما فرغ خالد بن الوليد من عَين التمر سار إلى دومة الجندل ، وذلك في السنة الثانية عشرة من الهجرة . فلما بلغ أهلها مسيره بعثوا إلى أحزابهم من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم ، وكان وديعة قد أتاهم من قبَلُ في كلب وبَهراء يسانده ابن وبرة بن رومانس ، وأتاهم الجِدْرجان في الضجاعم ، وابن الأيهم في طوائف من غسّان ، فلما بلغهم دُنوّ خالد وهم على رئيسين أكيدر بن عبد الملك ، والجودي بن ربيعة ، وقد اختلفوا . فقال أكيدر : أنا أعلم الناس بخالد ، ولا أحد أيمنُ طائراً منه ، ولا أحدّ في حَرْب ، ولا يَرى وَجْهَ خالدٍ قومٌ أبداً قلّوا أو كثروا إلا انصرفوا عنه ، فأطيعوني وصالحوا القوم فأبوا عليه . فقال : لنْ أمالِئكم على حرب خالد فشأنكم . فخرج ، وبلغ ذلك خالداً فبعث عاصم بن عمرو معارضا له ، فأخذه ، فقال: إنما تلقّيت الأمير خالدا فلما أتى به خالدا أمر به فضربتْ عنقه ، وأخذ ما

---

(1) « الاصابة » رقم ٥٢٥٨ .
(2) « الاصابة » ١٩٧٢ .
(3) « تاريخ ابن جرير » ١ / ١٨٧٣ / ١٩٢١ / ١٩٦٣ / ٢٠٦٥ .

كان معه . ومضى خالد حتى نزل على أهل دومة ، ورؤساؤهم الجودي بن ربيعة ، ووديعة الكلبي وابن رومانس الكلبي وابن الأيهم الغساني ، وابن الحدرجان الضجعمي ، فجعل خالد دومة بين عسكره وعسكر عياض، وكان النصارى الذين أمدوا أهل دومة من العرب محيطين بالحصن لم يحملهم الحصن. فلما اطمأن خالد خرج الجوديُّ فنهض بوديعة فزحفا لخالد،وخرج ابن الحدرجان وابن الأيهم إلى عياض ، فاقتتلوا ، فهزم الله الجوديَّ ووديعة على يدي خالد، وهزم عياض من يليه ، وركبهم المسلمون ، فأما خالد فإنه أخذ الجودي أخذاً ، وأخذ الأقرع بن حابس وديعة ، وأرِزَ بقيةُ الناس إلى الحصن فلم يحملهم ، فلما امتلأ الحصن أغلق من فيه الباب دون أصحابهم ، فبقوا حوله حُرَداء، فقال عاصم بن عمرو: يا بني تميم ! حلفاءَكم كلب أجيروهم وآسروهم، فإنكم لا تقدرون لهم على مثلها ، ففعلوا وكان سبب نجاتهم يومئذ وصية عاصم بني تميم بهم . وأقبل خالد على الذين أرِزوا إلى الحصن فقتلهم حتى سدَّ بهم باب الحصن ، ودعا خالد بالجودي فضرب عنقه ، ودعا بالأسارى فضُرِبَتْ أعناقهم إلا أسارى كلب فإن عاصماً والأقرع وبني تميم قالوا : قد أمنّاهم . فأطلقهم لهم خالد وقال : مالي ولكمْ ؟ أتحفظون أمرَ الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام ؟! فقال له عاصم : لا تحسدهم العافية ، ولا تـَحَوَّزهم الشيطان.

ثم اطاف خالد بالباب فلم يَزّل عنه حتى اقتلعه ، واقتحموا عليهم فقتلوا المقاتلة وسبوا الشَّرْخ[1]،فأقاموهم فيمن يَزيد!! فاشترى خالد ابنة الجودي، وكانت موصوفة ، وأقام خالد بدومة مدة ثم سار منها إلى الحيرة .

وممن استشهد في هذه الوقعة في دومة الجندل مع خالد بن الوليد ، نافع بن غيلان بن سلمة الثقفي ، فجزع عليه غيلان وكثر بكاؤه وقال يرثيه — شعراً [2] .

---

(١) الشرخ : السبي من النساء والأطفال .
(٢) « الأغاني » ١٢/٤٦ .

وأبرز ما نقرأه في عهد الخلفاء الراشدين من أخبار هـــذه البلاد وقوع التحكيم بين علي ومعاوية — رضي الله عنهما — في دومة الجندل ، على ان بعض المؤرخين يحاول التشكيك في ذلك ، فياقوت يقول ما هذا نصه :

وقد ذهب بعض الرواة إلى أن التحكيم بين علي ومعاوية — رضي الله عنهما — كان بدومة الجندل ، وأكثر الرواة على أنه كان بأذرح ، وقد أكثر الشعراء في ذكر أذرح وأن التحكيم كان بهـــا ولم يبلغني شيء من الشعر في دومة إلا قول الأعور الشنّي — وإن كان الوزن يستقيم باذرح — قال :

وليس بهادي أمة من ضلالة بدومة شيخا فتنة عَميَانِ [1]

ثم أورد حديثاً عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه حكم في بني اسرائيل في هذا الموضع — يقصد دومة الجندل — حكمان بالجور ، وأنه يحكم في أمتي في هذا المكان حكمان بالجور ، قال الراوي : فما ذهبت إلا أيام حـتى حكم هو وعمرو بن العاص ، فيما حكما ، قال فلقيته فقلت : يا أبا موسى قد حدثتني عن رسول الله ﷺ بما حدثتني ؛ فقال : والله المستعان !! [2]

ولكن ابن جرير [3] ، وقبله ابن سعد في الطبقات وغيرهما من المؤرخين نصّوا على وقوع التحكيم في دومة الجندل ، وذكروا بـأن أذرح هي المكان الثاني ، بعد مرور عام ، إذا لم يحضر الحكمان ، أو أحدهما .

وقد ورد في « تاريخ » ابن جرير عبارة موهمة هي : حتى توافوا بدومة الجندل بأذرح . وأرى ان صواب العبارة : بدومة الجندل لا بأذرح .

وها هو نص عبارة ابن جرير — رحمه الله — قال :

فكتب كتاب القضية بين علي ومعاوية — فيما قيل — يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة ٣٧ على أن يوافي علي موضع الحكمين بدومة الجندل

(١) هذا الوصف لا يليق بصحابيين جليلين ، وقد نهى الرسول (ص) عن سب الصحابة .
(٢) « معجم البلدان » .
(٣) تاريخ ابن جرير : ١ / ٣٤٤١ / ٣٣٥٤ .

في شهر رمضان ، ومعاوية ، مع كل واحد منهما أربعمائة من أصحابه فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا في العام المقبل بأذرح [١] .

ثم قال ابن جرير : اجتماع الحكمين بدومة الجندل .

وذكر ان علياً ومعاوية بعث كل واحد منهما ٤٠٠ رجل حتى توافوا بدومة الجندل باذرح — كذا جاءت العبارة في تاريخ الطبري المطبوع [٢] .

وجاء في تاريخ ابن خلدون : والتقوا بأذرح من دومة الجندل . وعلق المحشي : كذا في الأصل وهكذا وردت في تاريخ ابن الأثير ٣ / ١٦٧ : (حتى توافوا من دومة الجندل باذرح) وفي الطبري : (حتى توافوا بدومة الجندل باذرح ، وقد ورد في الطبري : (وأنهما يجتمعان بدومة الجندل، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام القابل باذرح) .

وان بين دومة الجندل واذرح تسع مراحل ، والمعروف أن اجتماع الحكمين كان بدومة الجندل ، وأن كلمة أذرح زائدة هنا وفي الطبري وابن الأثير ، ونضيف إلى هذا أن أذرح هي في الشام وليست متوسطة بين الفريقين ، فعلي (ض) كما هو معروف في الكوفة ومعاوية — رحمه الله — في دمشق ، واذرح قريبة من دمشق بخلاف دومة الجندل التي تقع في مكان متوسط وعلى بعد متساو من مكاني الرجلين ، ولعل مما أوقع ياقوت وغيره أن كتاب القضية ينص على أن التحكم يكون في دومة الجندل في السنة الأولى ، وإذا لم يتم فيكون بأذرح ، ولعل اختيار أذرح كان من معاوية رحمه الله وان علياً ، — رضي الله عنه — لم يقم لهذا الاختيار اعتباراً لأنه صمم على اجتماع الحكمين في السنة الأولى ، وفعلاً تم ذلك .

وينقطع عنا خبر هذه البلاد ، فيما بين أيدينا من مؤلفات ، ويختفي ذكرها ، وينعدم صوتها :

---

(١) « تاريخ ابن جرير » ١/٣٣٤٠ / ٣٣٤١ .
(٢) « تاريخ ابن جرير » ١ / ٣٣٥٤ .

والدار لو كلَّمتنا ذاتُ أخبار .

حتى يكون أول القرن الرابع الهجري،حيث نجدان هذه الرمال العظيمة المعروفة الآن باسم النُّفود الكبير (وقد يكون الأصل : النهود جمع نهداء ، وهي الرملة المشرفة) الفاصل بين بلاد الجبلين وبين بلاد الجوف، فنجدها بينما كانت تعرف قديماً باسم (عالج) أصبحت تُعرف في القرن الرابع الهجري برَمل بحتر [1] حيث قوي نفوذ هؤلاء ، وهم من طيّء ، ثم ما زال نفوذ الطائيين يقوى حتى أصبح الجوف من منازلهم ، وأصبح يعرف بجوف آل عمرو ، نسبة إلى جذم كبير من قبيلة طيّء ، وقد كان سكنى هذا الجذم في الجوف قبل القرن السابع الهجري ، ذلك أننا نجد ابن فضل الله العمري في كتاب « مسالك الأبصار »[2] وهو يعدّد بطون آل فضل وأحلافهم ، يذكر أن آل عمرو بالجوف ، ويضيفهم إلى أبناء عمومتهم من آل فضل الذين سيطروا على شمال الجزيرة وجنوب الشام ، ويطيل القول عنهم بما لا داعي لذكره ، ويبقى نفوذ آل فضل ممتدّاً في شمال الجزيرة ، وذلك بعد ضعف قبيلة كلب ضَعْفاً دفعها إلى الانضواء في كنف قبائل أخرى ، والإنزواء في بعض أماكنها القديمة ، بعد أن أصيبت بعوامل شتى من الضعف والتفرق في شرق الجزيرة وشمالها ، وبالتَّحضُّر في بعض أماكنها القديمة،والتحضُّرُ هو أول عامل من عوامل ضعف القبيلة وانصهارها وميوعتها بأثر العوامل الحضارية الأخرى ، ومن ثمّ حلَّت بعض أفخاذ طيّءٍ محلها في الجوف ، حتى جاءت الأيام الأخيرة فكان لقبيلة الرولة وهي مجموعة من القبائل العدنانية وغيرها فانتشرت في هذه البلاد ومن ثمّ انحازت قبيلة كلب إلى القسم الشمالي من المنطقة وهي بلاد وادي السرحان الذي اكتسب هذا الاسم من إحدى قبائل بني كلب ، التي هاجرت إلى الشمال فاستقر بعض فروعها في فلسطين، ولم يبق في أمكنتها القديمة سوى بعض البطون المتحضرة التي قضت

(١) « أبو علي الهجري » ص ٣٢٣ .

(٢) ج ٤ ، الورقة ٢٩ – نسخة أيا صوفيا في اصطنبول – رقم ٣٤١٧ .

عليها الحضارة بالاستقرار والبقاء ، ثم انميـــاع الشخصية انمياعاً أفقدها كل المقومات القبلية ، بدرجة جعلتها تـُعدُّ بين القبائل الضعيفة في الجزيرة .

وحياة القبائل تسير وفق الناموس العام لما أوجد الله عليه كل كائن حيٍّ، نشوءٌ ، فقوة ، فـَضَعْف فاضمحلال . ولا تخرج أية قبيلة من قبائل العرب عن هذا الناموس . وقد تدركها الحياة مرّة ثانية ، ولكن بعد أن تكتسب جوانب من القوة من عوامل أخرى يضيق المقام عن تفصيلها .

وينقطع عنا ذكر هذه البلاد ، إلا حينما يتردد ذكر القبائل التي تسكن شمال الجزيرة ، فنرى أن لقبيلة طيٍّ ومن فروعها آل فضل الذين يمتد نفوذهم من الشام إلى هذه البلاد فيما بين القرن السابع إلى التاسع الهجري لها السيطرة على هذه البلاد .

وتدرك الجزيرة بأسرها نفحة من نفحات الرحمة ، تهيء لها أملاً ، وتبعث في أوصالها روحاً بقيام الدولة السعودية في دورها الأول في القرن الثاني عشر الهجري فيبدو لهذه البلاد ذكر، وينتظمها ما انتظم مختلف أجزاء الجزيرة من شمول الحركة الاصلاحية، وعند قيام الدولة السعودية –في دورها الأول– في عهد الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد شمل حكمها بلاد الجوف ، وربطت البلاد إدارياً بجبل شمَّر (حايل ونواحيها) وكان أمير تلك الجهات من قبل الامام سعود (١٢١٨ هـ / ١٢٢٩ هـ) محمد بن عبد المحسن بن فايز بن علي .

ولكن قـُوى الشرّ تتكالب على هذه الدولة ، وتتجمع للقضاء عليها ، فيتم ذلك ، ومن ثمَّ يعمُّ هذه البلاد ما عمَّ غيرها من مختلف أنحاء الجزيرة ، شرقها وغربها ، فيشملها الإضطراب وتنتشر فيها الفوضى ، وتعود إلى حالة من عدم الانتظام هي أشبه بالحياة البدوية، فيقوى فيها نفوذ أمراء آل شعلان من قبيلة الرولة ، وهم أمراء الفوا حياة البادية ، متنقلين بـين الشام وبين شمال الجزيرة ، لم يألفوا حياة الاستقرار والتحضر ، وسئموا من حيـــاة البداوة والتنقل ، فبقوا بين الحالتين تتعاورانها تعاوراً لا تمكنهم من الأخذ بأية طريقة

حسنة منها ، غير أن حُبَّ السيطرة والنفوذ هو أقوى عامل يدفعهم إلى إخضاع هذه البلاد إخضاعاً لا يرتكز على أية دعامة من دعامات الحضارة وحياة الاستقرار وهي الحياة التي لا بُدَّ منها لأناس ألفوها ، وليس لديهم من القدرة ما يجعلهم يعيشون عيشة البـــداوة الجافّة العنيفة لفقدانهم أهم مقوماتها . وهذا ما جعل أهل هذه البلاد يلاقون من جرّاء ذلك الأمرّين ، – كما يقولون – .

قوي نفوذ قبيلة الرولة إبان ضعف الحكم السعودي في آخر عهد الامام فيصل ، وبعده ، فاستولى سطام بن شعلان – مدعما من العثمانيين على الجوف ووادي السرحان [١] .

ولما استولى محمد بن عبد الله بن رشيد على الحكم (١٢٨٩ / ١٣١٥ هـ) نزع البلاد من نفوذ ابن شعلان وبعد ذلك انقاد أهل البلاد انقيادا لا طاقة لهم برفضه للأمراء من آل شعلان ، فأصبحوا يدفعون لهم من الاتاوات مـا يطلبون ، وهم في الوقت نفسه عندما يبلغ نفوذ الحاكم الجنوبي من الجبلين إلى بلادهم يضطرون إلى الخضوع له ، متحملين في ذلك الإكتواء بنارين .

وتزور الرحالة الانجليزية الليدي آن بلنت الجوف في آخر القرن الثامن عشر الميلادي – أول القرن الثالث عشر الهجري – فتقول في حديث لها عن الحكم في بلاد الجوف وعن حاكمه ما هذا نصه :

لا يزال الجوف يدفع اتاوة لصطام الشعلان ، ولكن متعب بن رشيد فتحها منذ حوالي عشرين سنة ، وعوملت منذ ذلك الحين كجزء من نجد . وقد حدث تمرد مرة أو مرتين ، غير أنه أخمد بعنف ، وتخاف الجوف الآن من أن تحرك أصبعاً ضد الأمير . وبمناسبة واحدة من هذه التمردات قطع متعب عدداً كبيراً من أشجار النخيل ، وترك المدينة في حالة نصف خراب ، وهكذا أجبروا على الاصطبار والانتفاع بها . وفي الحقيقة قل أن تستطيـع

---

(١) « مقدمة في تاريخ العرب الحديث » – ٣٨٣ .

الحكومة أن تكون شديدة الجور . فهؤلاء الستة الجنود بأقوى إرادة في العالم لا يستطيعون أن يستبدوا كثيراً في مدينة ذات أربعة أو خمسة آلاف من السكان . انهم جميعاً شبان أشداء ، نشيطون ، لطاف الروح ، يخدمون هنا سنة ، دفعة واحدة ، ثم يعفون . انهـم متطوعون ، ولا يحصلون على رواتب ، ولكن لهم – كما افترض - بعض ميزات حينما يكونون قد أدوا خدمتهم ، ويبدو عليهم الإخلاص للأمير .

ويخبروننا أن حاكم دمشق التركي ، منذ أربع سنوات ، أرسل حملة عسكرية ضد الجوف (نفس الحملة التي سمعنا عنها في كاف)،ولكن ابن رشيد شكا من هذا إلى السلطان ، وهدد بطردهم وبعدم استمراره بدفع الاتاوة لشريف المدينة إذا لم تسحب القوات ، وهكذا كان عليهم أن يذهبوا من حيث أتوا .

وتتحدث آن بلنت عن أحد شيوخ هذه البلاد فتقول :

ولكن أنبل الأسر هي اسرة (محسن بن درع) ، شيخ الجوف السابق ، ولكنه الآن أنزل إلى حالة واحد من رعايا الأمير . و(ابن درع) (كما يخبرنا محمد) ليس راضياً عن التغيرات السياسية في الجوف بأية حال ، ولكنه يخاف أن يظهر أكثر من عدم رضا ، نصف كظيم ، لأن محمد بن رشيد يحتفظ برهينة على حسن سلوكه في شخص ابنه الأكبر . ويقيم هذا الشاب في حائل، وهو هناك ليس سجيناً بالمعنى الحرفي،لكنه لا يستطيع أن يعود إلى أصدقائه.

ومحسن بن درع هذا كبير آل حَبُّوب[1] أهل الجوف (دومة الجندل) قال عبيد بن رشيد يردُّ عليه :

يا بو شْكُرْ يوم انتْ قَبْلٍ عميلي
وعِرْضِكْ نقِيّ ، ووجهك أبْيض من الشاشْ

---

(١) محلة آل حبُّوب من محلات دومة الجندل ، لا تزال معروفة .

واليوم هَرْجِكْ صارْ ما لـهْ ضُوِيلِ
طاوعت قـول فْلانْ وفلان وِشْلاش
انشِد قـْيَالٍ [1] ضِلْعَكُمْ ذا الطويل
عن حِسٍّ مَنْصورٍ إذا مـا انـّهْ اهْتاشْ

وتصف الرحالة الانجليزية حاكم الجوف الذي وجدته عند زيارتها بقولها :

و «جوهر» زنجي أسود تماماً ، ذو ملامح افريقية كريهة ، طويل وسمين جداً ، ومختال جداً . كان قد ارتدى أفخر ملابسه لاستقبالنا ، عـدد من الجبب الحريرية المزخرفة واحــدة فوق الأخرى ، وسراويل بزرقة السماء – أشياء جديدة علينا في بلاد العرب – وعباءة سوداء ومذهّبة وكـوفية (غترة) أرجوانية . كان قميصه قاسياً بسبب النشأ ، وتصدر عنه فرقعات كلما تحرك ، وبدا بشكل عام كحاكم بربري مستبد ، يتمنى المرء مشاهدته ، لقد جعلنا ننتظر عشر دقائق في القهوة تقريبا ، ليزيــد – كما افترض – من أهميته ، ثم دخل خلف موكب من الرجال المسلحين ، وكلهم مجهزون بسيوف ذات مقابض فضية ، وأحزمة مزخرفة بالفضة ، وكوافي (غـتر) زرقاء وحمراء، ومثبتة بعقالات بيضاء ثخينة . وتصنّعَ اضفاء جو من اللطف، باهت نوعاً ما ، لشخصية ملكية ، متنقلاً في الحديث من موضوع إلى آخـر بدون تمهيد، وأحياناً يطلب تفسيراً لملاحظاتنا أو أسئلتنا من شخص أو آخر من الحاضرين ، ولقد أدهشني كأمر محــال للغاية أن أشاهد هذا الزنجي ، – ولما يزل مملوكا – مركزاً لمجموعة متملقة من رجال البلاط البيض ، لأن العرب ، وكثير منهم نبلاء كرام المحتد، كانوا ينحنون أمامه ، وعلى استعداد لاطاعة أدنى إشارة من طرف عينه ويضحكون لأتفه نكتة من نكاته .

بعد بضع لحظات من الصمت المهيب ، أصبـح (جوهر) ، كما قلت ، ودوداً ، وبدأ يسأل عن الأخبار . اننا قدمنا من الشمال ، وكنا قادرين على

(١) قيال : جبل معروف – بل سلسلة جبال تقع شمال سكاكا .

أن نخبره بكل شيء عن الحرب . ماذا كان يفعل (صطام) وماذا كان يفعل (ابن سُمَير) ، من الواضح أن الأخير بطل بالنسبة للجوفيين أو على الأصح لأهل حائل ، لأنهم ليسوا أصدقاء لـ (صطّام) ، ومحمد الدوخي ، الشيخ ، يعتبر (صطام) منافساً كبيراً . وكنا مسرورين اننا نستطيع أن نقول أننا رأينا (ابن سُمَير) في دمشق منذ مدة لا تبلغ الشهر .

وأخبرنا (جوهر) عن تقرير حمله مؤخراً إلى سكاكة بعض (الصّلَب) أن (الرولة) قد هزمت في قتال مع محمد الدُّوخي وان (صطام) قد قتل ، تقرير أسفنا لسماعه .

ثم سألنا ، ولكن بنغمة ذات اهتمام أقل ، عن السلطان . فأجبناه بأنه عقد صلحا مع المسكوف (الروس) فيسرُّ جوهر لسماع هذا ويقول : الصلح خير ، والآن (إن شاء الله السلطان مبسوطين) !! قال ذلك بلهجة عاطفية مصطنعة ، معاضدة برنين أغن في الصوت ، كان مضحكا إلى منتهى الحدّ [1]

وتتحدث الكاتبة عن جوهر أحاديث لا تعنينا .

لقد أصبحت هذه البلاد دُولةً بين الرشيديين عندما يقوى حكمهم ،وبين أمراء البادية من آل شعلان من الرولة عندما يضعف الحكم الرشيدي ، إلا أن لآل الشعلان في كلتا الحالتين نفوذاً وسيطرة ، حتى ينقضي - أو يقارب الانقضاء - حكم الامارة الرشيدية ، فتبدو مطامع أخرى خارجية ، كما بدت قبل هذا بوقت غير بعيد .

تلك هي محاولة الحكومة الانجليزية التي كانت مسيطرة على القسم الجنوبي من بلاد الشام وهو ما عرف باسم (شرق الأردن) وكان الأمير عبد الله بن الشريف حسين قد نُصِّبَ أميراً له ، ويعاونه عدد من القادة والساسة الانجليز ، ومن بينهم فلبي الذي أسلم فيما بعد ، وكان من أصدقاء الملك عبد العزيز رحمه الله .

---

(١) « رحلة الى نجد » ص ٩١

ومما كتبه فلبي نلخّص الموضوع :

بعد انتهاء حكم ابن رشيد كان نوري الشعلان شيخ الرولة قد بدأ يباشر حكم تلك البلاد التي قطنتها قبيلته منذ أمد بعيد ، فعين حفيده سلطان حاكما لواحة الجوف ، وجعل ابن عمه محسناً مسؤولاً عن وادي السرحان ،ومركزه قريّات الملح ، أما النوري نفسه فكان يفضل الإقامة قريباً من دمشق ، حيث كان يقيم أحياناً في المضارب البدوية ، وأحياناً في منزله ، ولكنه كان على اتصال وثيق مع الأمير عبد الله [1] .

وحاول فلبي – حينما كان يعمل في شرق الأردن مع الأمير عبد الله بن الحسين ضمّ الجوف ووادي السرحان الى شرقي الأردن ، فقام ومعه فرقة من رجال البادية بقيادة غالب باشا الشعلان بالتوجه إلى وادي سرحان ، وبقي في مِنْوة يومين ، يحاول إقناع محسن الشعلان – حاكم الوادي وابن عم النوري – وكان يطالب بالمال والاعتراف باستقلاله ، إلا أن القوات السعودية فوّتت عليه الفرصة ، فبعد وصوله الجوف علم بانقياد الواحتين - الجوف ووادي السرحان للسلطان عبد العزيز بن سعود ، الذي كان الأمير محسن قد وفد عليه وقدم له الطاعة [1] .

لم يأسف فلبي على عدم نجاحه في مهمته أكثر من أسفه على عدم حصوله على أربع نعاماتٍ كان أهداها له الأمير محسن، فلم يأخذها معه عند العودة .

ويشير فلبي إلى ابن مويشير قائلاً في وصف الحالة في البلاد عند وصوله إليها (في سنة ١٩٢٢ م) كان معظم الواحة في أيدي الثوار من أنصار الوهابيين ، بقيادة ابن مويشير ، فمن هو هذا ؟!.[1]

---

(١) ملخص من كتاب « غربيون في بلاد العرب » تأليف سليمان موسى ١٢٨ – ١٢٩ .

هو حمد بن مُوَيشِير، عُتَيبيُّ الأصل من الأساعدة[1] ولكن أسرته استوطنت الجوف منذ زمن بعيد ، وصار رئيس محلة من محلات دومة الجندل تُدْعَى المعاقِلة .

وحينما كان النُّوري بن شعلان – شيخ عشائر الرولة – يحكم الجوف ، في آخر العهد الرشيدي في سنة ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م . وقد تولى الإمارة مولى له يُدعى عامر المُشَوْرَب من موالي آل شعلان، وكان النوري قد فوض الإمارة إلى ابنه نوّاف ، والمشورب من المحبوبين لدى نوّاف فأنابه عنه ، وما كان النوري راضياً بذلك .

وقد أساء المشورب السيرة ، باعتدائــه على الحرمات ، وبتسخيره أهل البلدة ببناء القصر الذي أقيم في عهد آل شعلان بجوار حصن مارد ، فما كان من ابن مويشير إلا أن سار إلى النوري ، وكان يقيم في ضاحية عَذْرا من ضواحي دمشق ، فشكى إليه عامراً المشورب ، وأوضح له بعض أفعاله ، فوعد النوري بعزله ، ويظهر أن نفوذ نواف كان قويّاً ولهذا لم ينفّذ النوري الوعد بعزله ، فما كان من ابن مويشير إلا أن هجم على المشورب ، وقتله ، واستولى على الجوف ، وذلك في عهد إمارة سعود بن رشيد .

ويظهر أن ابن مويشير خـــاف من هجوم آل شعلان وأعوانهم فاستنجد بأمير حائل ، فتوجه إليه بنفسه ومعه قومه على ٣٠٠ ذلول، وفي ذلك يقول الشاعر العامي العوني :

جينا أهل ثلاثماية جميعاً نحثّهن نبغي نعدّلْ مايـــلٍ ويسارْ
قالوا لنا ابن مويشير في الجُوفْ حاربْ وصكّتْ عليه الديرتين ، وحارْ

(١) يقول الأساعدة – والناس مأمونون على أنسابهم – بأن قدماءهم كانوا يسكنون قبل ثلاثة قرون في الحجاز ، في وادى رُهاط ، المنحدر من حرّة بني سليم مغرّبا ، حتى يصب في البحر الأحمر ، والذي لا يزال معروفاً ، فحدث شقاق بينهم يوردون بسببه قصة أقرب ما تكون إلى القصص المتناقلة القديمة ، فأتوا إلى نجد ، وفيه تفرقوا ، فمنهم من سكن النّبّاج في شرق القصيم المعروف الآن بعين ابن فُهَيد ، وهم آل فهَيد ، وقسم سكن جنوب هذا المكان في الزّلفي ، ولا يزالون معروفين فيه ، وقسم ثالث استوطن دومة الجندل ومنهم آل مُويشير .

وقال أبو مشعل عيب على مثلي لاهدّ ينثني إذا شاف نيران الحروب كبَارْ

وكان أن استولى ابن رشيد على الجوف ، وازال إمارة ابن مويشير الذي كان استنجد به ، فكان عليه لا له .

ولكن ابن شعلان كان قد تهيّأ لاسترجاع الإمارة ، واستعان بعودة أبي تايه شيخ الحويطات ، وكان النوري قد استنجد أيضاً بالأمير عبد العزيز بن سعود (الإمام عبد العزيز) فكتب إليه : (إني صديق لك ولابن رشيد ، ولست مشاركا أحدكما ضد الآخر في هذه الحرب، ولكني أنصحك بالتحصن في حصون الجوف ، وتتخذ خطة للدفاع ، ولا تهاجم ابن رشيد ، ولا تشتبك معه في حرب خارج الحصون لأن جنده مدربون على القتال ، وجنودك من أهل البل (الإبل) لا يركن إليهم كثيراً ، ولاهم في القتال أقران لشمَّر) ولكنه لم يعمل بهذه النصيحة، فاشتبك مع شمر في القتال فكان من الخاسرين، فاستعاد الأمير سعود بن رشيد إمارة الجوف وتوابعه في جمادى الآخرة سنة ١٣٣٧ (مارس سنة ١٩١٩) [١] هجم النوري على الجـــوف ، وطوق ابن رشيد وابن مويشير أيضاً الذي يظهر أن ابن رشيد لمـــا رأى ضعفه استماله ، وحاصرهما حتى كاد يقضي عليهما ، فما كان من ابن رشيد إلا أن أرسل ابن عمه عبد الله بن طلال شقيق محمد بن طلال ، ليستنجد شمَّر المقيمين في الجزيرة الفراتية وفي أطراف العراق ، وليأتيه بمدد من حايلْ ، وبعث معه إلى شمر قصيدة نظمها العوني على لسان ابن رشيد ، منها :

راكبٍ فوق حُرٍّ يذعره ظلّه مثل طيرٍ كفخ من كفّ قَضّابه
سرْ لشمَّر ، وخبّرَه لا بتي كلّهْ لا بتي باللقا ، يا وَيّ من لابَه

وقصيدة أخرى مدحهم فيها فيما بعد منها :

ويشهد لقولي يوم جا نَدبْ شيخم وهم قبل غَضْبانين عليه جنْهَارْ
لِفوهْ من شطّ الفرات عصايب على حيـــلٍ يجنبن أمهـــارْ

---

(١) « تاريخ الكويت السياسي » ج ٥/ ٣٢ .

فأمدّت شمّرُ ابنَ رشيد ، فانهزم ابن شعلان ، واستولى ابن رشيد على الجوف (سنة ١٣٣٧ / مارس سنة ١٩١٩ م) كما تقدم .

ويقول فلبي : [١] : إن مقتل سعود بن رشيد وما ترتب عليه من انهيار السلطة الرشيدية قد شجع النوري بن شعلان على احتلال اقليمي الجوف ووادي السرحان ، بإيعاز من الشريف عبد الله ، أمير شرق الأردن ، وموافقة السلطات البريطانية التي كانت مهتمة في ذلك الوقت بشروع مدّ سكة حديدية لأغراض (استراتيجية) بين العقبة وبغداد .

في أولى ١٣٤٠ عاد ابن شعلان واستولى على الجوف بدون حرب ، وأمّر فيه أحد مواليه المدعو دوجان ، والذي لا يزال على قيد الحياة في عَذرا بقرب دمشق عند آل شعلان إلى هذا العهد (١٣٩٠ هـ) [٢] .

ويظهر أن ابن مويشير أعاد الكرّة مرّة أخرى ، كما يفهم من كلام فلبي، وساعد في انضمام الجوف إلى حكم الملك عبد العزيز – رحمه الله – .

وقد أصبح ابن مويشير – فيما بعد – ذا مكانة لدي الملك عبد العزيز ، لقي من عطفه ورعايته الكثير ، وأصبح ذا منزلة مرموقة في هذه البلاد ، وقد صاهر الأمير تركي بن أحمد السديري – أمير الجوف في الماضي – وابن خال الملك عبد العزيز – رحمه الله – صاهر رجا بن مويشير، فتزوج احدى بناته وقد أنجبت منه .

قال فؤاد حمزة : بعد وفاة نوّاف الشعلان قنع والده النوري بالإقامة في دمشق ، وترك في الجوف حفيده سلطان ، وكان موقف ابن شعلان بعد سقوط حائل مذبذباً ، فإنه أرسل ابن عمه مقحم (مجحم) إلى ابن سعود طالباً موالاته ، كما أنه فاوض الأمير عبد الله في شرق الأردن ، كما فاوض الفرنساويين وغيرهم، غير أن أهل سكاكة أعلنوا ميلهم لابن سعود ، ورغبتهم

---

(١) « البلاد العربية السعودية » ص ٢٦٥ نسخة معربة لديّ .
(٢) أكثر هذه المعلومات مما أفادني الأخ الأستاذ فهد المارك .

في الانضمام إلى بلاده ، وتألفت لذلك الغرض هيئة برئاسة حمد بن مويشير ، وثارت على سلطة الشعلان ، فرحل سلطان من الجوف تاركاً وراءه عبداً له.

وجاءت قوة من الاخوان إلى وادي السرحان واشتبكت مع قوات سلطان بقرب قريات الملح، وكانت هذه القوة طليعة لقوات الاخوان الكبيرة التي استولت على الجوف وسكاكة وما جاورهما .

ثم ذكر بأن الأمير عبد الله بعد أن هاجمت طائرات شرق الأردن الاخوان الذين بلغوا في إحدى غزواتهم أبواب عمان ونكـّلت بهم – أرسل قوة لاحتلال بلدة كاف – أكبر قرى قريات الملح في أعلى وادي السرحان ، بموافقة الحكومة البريطانية ، ولكنه اضطر إلى تركهـا لابن سعود على أثر مؤتمر العقير الذي عقد في شهر ديسمبر سنة ١٩٢٢ وقرر تثبيت تابعية قريات الملح ووادي السرحان لنجد [١] .

وأرسلت إمارة شرق الأردن في شهر أيلول سنة ١٩٢٢ – وبعد قصف الإخوان بالطائرات الإنجليزية حينما أغاروا على أطراف عمان – أرسلت قوة احتلت قريات الملح وكانت بقيادة الشريف محسن الحارثي، الذي تولى فيما بعد وظائف عالية في البلاد في قيادة الجيش وفي مجلس الشورى حتى وفاته سنة ١٣٨٨ هـ(١٧ / ٢ / ١٩٦٨م في لندن)– رحمه الله–وكان مقر القوة بلدة كاف، وأقامت تلك القوة في القريات إلى خريف ١٩٢٤ – وقد زار الأمير عبد الله القريات في خريف ١٩٢٣ [١] .

وأخيراً أُرغمت تلك القوة على الانسحاب من البلاد .

---

(١) « قلب جزيرة العرب » - ٣٨٥/٣٨٦ .

(١) « مقدمة تاريخ العرب الحديث » - ٤١٧ و« صور من البطولة » - ٧٣ .

الآثار في منطقة الجوف

الجوف ووادي السرحان هما من الناحية الجيولوجية منطقة واحدة تكثر الرمال في طرفها الجنوبي وتكثر السبخات في طرفها الغربي ، ويلاحظ المرء أن المنطقة منخفض من الأرض ممتد من الشمال إلى الجنوب الشرقي بحيث يصح القول بأنه كان نهراً أو بحراً أو وادياً واحداً ، غير أن الرمال تراكمت في أسفل ما يسمى بوادي السرحان في الشمال الغربي من الجوف بحيث فصلت بينه وبين وادي السرحان .

وسكان هذه الجهة شمالها وجنوبها عند ظهور الإسلام قبيلة كلب ويخالطها بعض حلفائها أو أقربائها ، ولا شك أن السكان قبل الإسلام في المنطقتين يكوّنون مجتمعاً واحداً ، ويظهر أن القسم الجنوبي وهو الجوف كان أهم موقع في المنطقة ، وانه كان مقر من يتولى حكم هذه البلاد كلها .

نقول هذا لكي ننتقل إلى القول بأن الآثار في المنطقة كلها متشابهة ، وأن سكانها قبل الإسلام قبائل عربية انتقلت من الجنوب إلى شمال الجزيرة ، وأوجدت آثاراً بقي بعضها مُمَثّلاً بارزاً في كتابات وآثار وأبنية قديمة .

وقد عرفنا فيما تقدم أن الكتابة الصفوية من أبرز معالم الآثار في وادي السرحان ، الذي هو جزء من هذه المنطقة ، ونضيف الآن بأن الكتابات الصفوية كانت منتشرة في كل المنطقة شمالاً وجنوباً وشرقاً ، فقد عثر صديقنا الدكتور محمود الغول ، وقد ندب من قبل جامعة الرياض بالقيام في جولة

اكتشافية أثرية في عام ١٣٨٧ (١٩٦٨ م) عثر على آثار ذات قيمة في شمال منطقة الجوف ، وهي متصلة بالمنطقة نفسها ، لقد كشف عن معالم مدينة على بعد ٣٠ كيلاً من مدينة عرعر ، و ١٢ كيلاً جنوب وادي بدنة ، عثر على قسم كبير من سطح هذه المدينة ، وعلى منحوتات دقيقة الصنع ، بعضهـا مكسّر ، ومنها تماثيل حيوانات مائية كالسلحفات والسمك وغيره . وشاهد الدكتور الغول في الناحية الشمالية من هذه الآثار تلاً ترابياً شبه مُرَبَّع ، ضلعه يقرب من ٩٠ متراً طولاً ، ربما تقع تحته أنقاض بنـاء وعمران على مألوف عادة التلال التي عثر تحتها على مواقع أثرية في البلاد الأخرى .

وقد أخبر الدكتور الغول جامعـة الرياض — في ذلك الحين — بكشفه هذه الآثار ، قائلاً : إن هذا الموقع ربما كان مدينة بَدَنة التي ورد ذكرهـا في كتب المؤلفين القدماء من اليونان والرومان .

وعثر الدكتور الغول — فيما عثر عليه — على مـا يقرب من ٢٠٠ نقش بالكتابتين الصفوية والثمودية [١] .

وقال الدكتور : (وقد عثرت على نقش عند وادي بَدَنة فيه ذكر رجل ينتهي نسبه إلى ذي آل كلب) [٢] اهـ وهذا يؤيّد ما هو معروف من أن كل هذه البلاد تسكنها قبل الإسلام قبيلة كلب ، وكذا بعده .

وألقى الدكتور محاضرتين في جامعتي (درهام) و (كمبريدج) عن كشفه الأثري في منطقة بدنة ، غير أن الدكتور — عندما زرته (في يوم الاثنين ١٣٩٠/٦/٢٢ — ١٩٧٠/٨/٢٤ م) أظهر لي شكّاً حول مدينة بدنة هذه ، وما قيل حول كشفها . ولعله — فيما بعد — ظهر له ما أثار هذا الشك، لا عن وجود بلدة أو أمة قديمة باسم بدنة بل من حيث انطباق ما وجده من آثار على تلك المدينة القديمة .

---

(١) جريدة البلاد عدد ٢٣٨٤ .

(٢) من كتاب خاص مؤرخ في ٢٨ شوال سنة ١٣٨٧ و ٢٩ يناير سنة ١٩٦٨ .

وتحسن الإشارة إلى أن اسم بدنة قد ورد في ذكر أخبار (تغلات بلاصر الرابع) الذي كان موجوداً سنة ٧٣٣ قبل الميلاد ، وانه استولى على مدينة تيماء وبدنا Badana [١] ، ويحار الأستاذ المستشرق الويس موزل في تحديد هذا المكان لأنه لم يعرف موقعه الحقيقي [٢] ، ولكن ورود هذا الاسم مقروناً بأمكنة تقع بعيدة عنه في شمال الجزيرة يحمل على الجزم بأنه هو المقصود ، ونضيف إلى ذلك أنه قد عثر بقرب بَدَنَة هذه على كتابات كثيرة جداً مما يسمى بالكتابات الصفوية . وقد قدمت نماذج منها للأستاذ يوسف حسن عبد الله ، تحدث عنها في رسالته عن الكتابة الصفوية في شمال الجزيرة .

ومع أن عرعر وهو وادي بدنة قد ورد في كتب البلدانيات العربية القديمة ، إلا أن بدنة لم تذكر ، والسبب أنها درست قبل بَدْء التدوين بأمد طويل ، ولولا أن امرأ القيس ذكر عرعر في رحلته إلى الروم لما وجدنا له ذكراً في الكتب التي بين أيدينا قال :

سما لك شَوْقٌ بعدما كان أقصرا
وحلَّت سُلَيْمَى بطن قَوٍّ فَعَرْعَرا

ولو لم يحفظ لنا الشعر العربي أسماء كثير من المواضع لأصبحت مجهولة لدينا.

٢ — وجد الدكتور محمود الغول لدى أمير الجوف الأمير عبد الرحمن السديري حجراً نقل من (دومة الجندل) فوقه كتابة باللاتينية، وقد أهداه الأمير لجامعة الرياض ، وهو موجود في متحف الجامعة ورقمه (٣٩) بين الآثار الموجودة هناك .

وها هي صورته :

---

(١) « شمال الحجاز » ص ٨٦ .
(٢) « » ص ٨٩ و ٩٠ .



الحجر المكتوب باللاتينية ، والذي عثر عليه في دومة الجندل ، وهو الآن في متحف جامعة الرياض

وقد قرأ الدكتور الغول الكتابة ، وكتب عنها ما خلاصته :

(كتب هذا النقش رجل اسمه فلاقس ديو نيسيوس ، ينعت نفسه بأنه قائد مائة في الكتيبة الثالثة القرنائية ، ويقول في النقش : إنه وفي نذره لجوبيتر العظيم آمون ، وللقدوس صلم ، طلباً لعافية سيّديْه الاوغسطيين — وهما الامبراطوران سبتيموس ساويرس وكاركلا، وكانا مشتركين في قلم الدولة الرومانية بين عامي ١٩٧ و ٢١٢ بعد الميلاد ... أمـا الكتيبة التي ينتمي إليها قائد المائة هذا فكان مركزهـا بُصرى ، قاعدة ولاية بلاد العرب الرومانية ، وقورنا هي برقة في ليبيـا اليوم ، وسبتيموس ساويرس أصله من ليبيا .

ولم يسبق أن عثر على نقش له هذه الصفة « الرسمية » الدقيقة إلا في حوران على بعد أميال شمال الحدود ، واعتبر الباحثون أن حدود الولاية ربما امتدت إلى الشمال مسافة تلك الأميال القليلة . أما نقش دومة الجندل فقد وجد في مكان لم يزعم أحد — حتى الآن — أن حكم الرومان المباشر بلغه وإن كان للرومان عليه نفوذ ضمن ما كانوا يسمونه الحدود الخارجية ، أو الحدود القصوى ، فقد يشير إلى أن الرومان في تلك الفترة من الحروب مع الفرس في العراق أنزلوا جنداً في دومة الجندل ، إما خوفاً من أن يستعمل الفرس الطريق خلالها للنفوذ إلى جنوب فلسطين ومصر ، وإمّا لأن حملات الرومان اقتضت حركة جند كثيرة بين مصر ومناطق الحرب في العراق ، وأهميـة دومة الجندل في المواصلات بين العراق والشام ومصر لا تنكر ، ويكفي أن المسلمين اهتمّوا بتوطيد ملكهم فيهـا قبل المسير إلى العراق والشام ، وان خالد بن الوليد سار من الحيرة إلى اليرموك عن طريقها ، كما هو القول الأصحّ الأثبت .

أما الإلاهان المذكوران فهما جوبيتر آمون ، أوزيوس آمون ، وهو الإله اليوناني الروماني ، ملصقا به اسم آمون المصري ، ممـا قد يدل على تأثير

مصري هنا ، وقد يوحي بأن بعض الكتيبة كان من جند مصر ، ويزيد هذا احتمالاً أن القائد المذكور يوناني الاسم (ديو نيسيوس) وقد كان من اليونان جالية عظيمة في مصر أما القدّوس صلم ، فهو صلم المعروف من مصادر أخرى أنه إله أهل تيماء ، ويبدو أنه كان معبوداً في دومة الجندل ، فأشركه صاحب النقش في الذكر مجاملة لأهل البلد ، وكهنة الهيكل ، وهذه عـــادة كانت مألوفة في أيام الوثنيات)[1] .

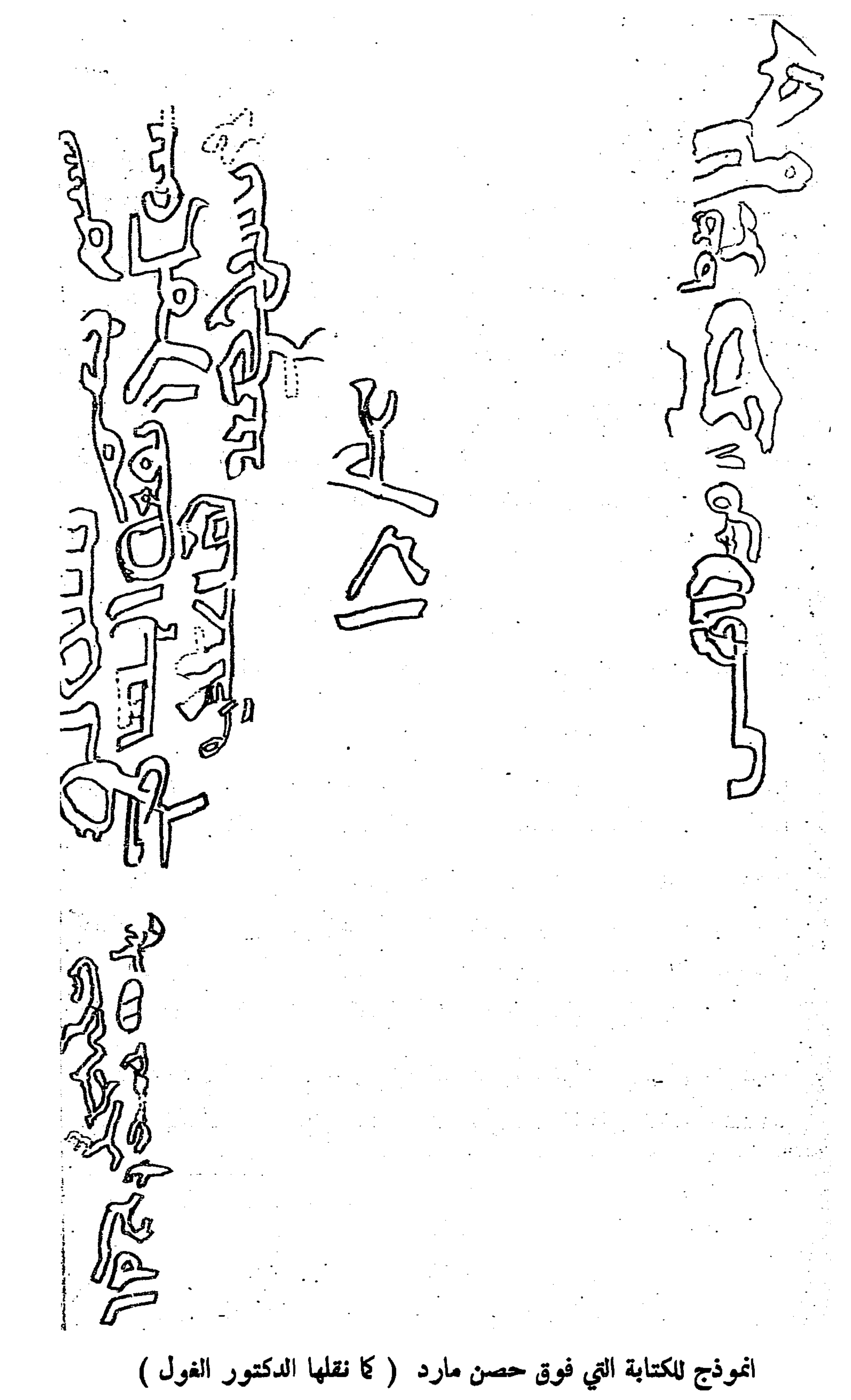
٣ – وزار الدكتور الغول موضعاً يبعد عن سكاكة بضعة عشر كيلا ، فيه صخر تـُدعى (حصاة الكِتـْبة) فيها كتابـاً عربية قديمة نقلها الدكتور ، ووعد بنشرها مع النقش الموجود في (حصاة القران) بقرب الدوادمي ونقش ثالث عُثر عليه في روضة البجادية شرق الَخرْج ، وكلها كتابات عربية قديمة .

وعلى ذكر الكتابـــة العربية فقد ظهر للدكتور الغول – عندما شاهد الكتابات التي فوق أحجار حصن مارد – أن أكثرها بالعربية ، ومنها ما هو صفوي ، وقد حاول الدكتور الغول نقل تلك الكتابات ولكنه لم يتمكن من ذلك ، وهذا انموذج مما نقل .

ونعيد القول مرّة أخرى حـــول أصل الخط العربي المستعمل ، وصلته بسكان هذه البلاد ، فقد نقل لنا التاريخ أن بشراً أخا الأكيدر ، ملك دومة الجندل عند ظهور الاسلام ، كانت له صحبة وصلة بحرب بن أميّة بن عبد شمس القرشي أحد رؤساء أهل مكة ، وقد سافر بشر مع حرب هذا إلى مكة وتزوج الصهباء أخت حَربٍ ، وأقام هناك فتعلم منه جماعة من أهل مكة الكتابة ، فبهذا كثر من يكتب بمكة من قريش قبل الاسلام وفي هذا يقول رجل من أهل دومة الجندل يَمنُّ على قريش بذلك :

---

(١) رسالة خاصة من الدكتور بتاريخ ٢٨ شوال سنة ١٣٨٧ (٢٩ يناير سنة ١٩٦٨) .



انموذج للكتابة التي فوق حصن مارد (كما نقلها الدكتور الغول)

فلا تجحدوا نَعْماءَ بشرٍ عليكمُ فقد كانَ ميمونَ النقيبة ، أزهَرَا
أتاكم بخطّ الجزم ، حتّى حفظتمُ من المال ما قد كان شتّى مبعثَرَا
واتقَنْتُمُ ما كان مِ المالِ مُهمَلاً وطامَنتمُ ما كان منه مُنَفَّرَا
فأجريتم الأقلام عوداً وبَدأةً وضاهيتمُ كُتّابَ كِسْرَى وقَيْصَرَا
وأغنيتمُ عن مُسْنَدِ الحيّ حِمْيرٍ وما زَبَرَت في الصحف أقيالِ حِميَرَا

ومن أبرز آثار الجوف حصن مارد الذي لا تزال أطلاله شاهقة فوق دومة الجندل ، وقد تقدم وصف موجز له ، ويحسن أن نورد ما ذكره المتقدمون حوله ، وما ذكره غيرهم ، بعد أن نذكر المواضع التي يطلق عليها هذا الاسم في الجزيرة قديماً وحديثاً : يطلق اسم مارد على :

١ – موضع ذكره الأعشى الشاعر بقوله :

فرُكْنُ مهراس الى مـــاردٍ فقـــاع منفوحة فالحـــائر

وقوله :

أجدك ودعت الصبا والولائدا وأصبحت بعد الجور فيهن قاصدا
وما خلت أن أبتاع جهلا بحكمة وما خلت مهراساً بلادي وماردا

ومارد هذا – على مـــا يفهم من ذكره مع منفوحة والحائر – وهما لا يزالان معروفين ، بلدتـين متجاورتين جنوب الرياض – لا شك أن مارداً بقربها . ويدل على ذلك ما نقله ياقوت عن الحفصي – وهو من أعرف الناس بهذه الجهات – قال : مارد قُصَيْرة بمنفوحة ، جاهلي .

٢ – وقال الهمداني : – وهو يصف غَرْب العِرْض (عرض حنيفـة) فراجعاً قصد الفروع ، فإلى مَرأة ، فإلى بطن الأزرقة فإلى توضح ، فمـاردُ

(١) « أسواق العرب » ١١٤ .

غربهن ، وهو قفيف منقطع ، ممدودٌ مَدّ الحبل ا هـ . وهذا الوصف ينطبق على ما يعرف الآن باسم (قُرَادن) .

٣ - قصر لا تزال أطلاله قائمة ، في الموضع المعروف قديماً باسم (النباج) نباج ابن عامر ،في شرق القصيم ،وكان من أهم منازل الحجاج القادمين من شرق الجزيرة بالطريق البصري ، ويعرف النباج باسم عيون ابن فهيد الآن ، ويحوك أهل تلك الجهة حوله خرافة يتناقلونها . وملخص ما يروون أن مارداً الذي ينسب اليه القصر قدم حاجّاً ، ويقولون انه من الترك ، ولكن الحج فاته ، فلما مرَّ بهذا الموضع الذي فيه القصر وجد آثار عَيْن ، فأعجبه المكان وعزم على الاستيطان فيه فحفر العين وبنى القصر بناء محكما بالحجر والآجُرّ وأقام فيه ، وذات يوم أقبل أناس من البادية من قبيلة الضياغم من شمر لشراء ما يحتاجون من طعام وغيره ، فمرّوا بالعَيْن فنزل منهم صبي يستحمّ فيها ، فأعجب صاحب مارد بحسن صورته ، وسأل: هل له أخت؟ وكان الصبي يُدعى عَرَاراً وبينه وبين ابن عم له يدعى عُمَيْراً ، وهو أمير القبيلة ، منافسة على الإمارة ، فأراد الإيقاع بعمير ، فأخبر صاحب مارد بأن له أختاً تزوجها عمير ، وأنه لا يمانع في زواجها إذا خلصها من عمير ، على أن يدع الضياغم يمتارون من طعام العين ، فمكنهم صاحب مارد من ذلك ، ويسمونه (سلطان مارد) ، غير أنهم لما رجعوا ممتارين إلى قومهم مانَعَ حُمَيْدان أحد شجعانهم وشيوخهم من ترويج سلطان مارد ، فما كان من القوم وقد وعدوا الرجلي بالزواج إلا أن أحضروا له جارية سوداء محجبة ، داخل هودج ، وطلبوا منه ألا يقربها حتى يختفون عن نظرها بعد أن يخلفوا قرية الجعلة وراءهم لئلا يسمعوا صياحها لأنهم أرغموها - على ما قالوا له - على الزواج ، فلما ذهبوا ودخل على الفتاة لم يجد ما كان يتوقع فعرف الخديعة ، وسار

بجنده في آثار الضياغم حتى أدركهم في الصَّريف ، فتقاتل القوم ، والتقى سلطان مارد بحميدان فضرب أحدهما الآخر فماتا . ويوردون شعراً ينسبونه لميثاء – وهي بطلة القصة كما يقولون – منه :

تقول مَيثا : يا هَلي يآل راشد الرُّوم لحقونا بغير حسابْ
لحقونا ، يبغون مَيثْا غَصيبَهْ ودون ميثا صبيانٍ تسنّ حرَابْ
حجابٍ يذودَ الخَيْل في ذارع القنا ولا عاد ما يثني لهن رْقابْ
تناطح حميدانٍ وسلطان مارد تهيَّا لذَا من كف هذا صوابْ
تعاقبوا ضَرْبٍ بشلفاسِنينَهْ عْرَيْنيَّة تودع الدروع خرَاب [١]
ترى مَذْبحه[٣]بالدّمث بالرّمث بالصفا حوالي قويرات الصريف نصاب [٢]
ترى الذّبحا بالبرقا ثمانين مِلبس غير العواري ما لهن حسابْ [٣]

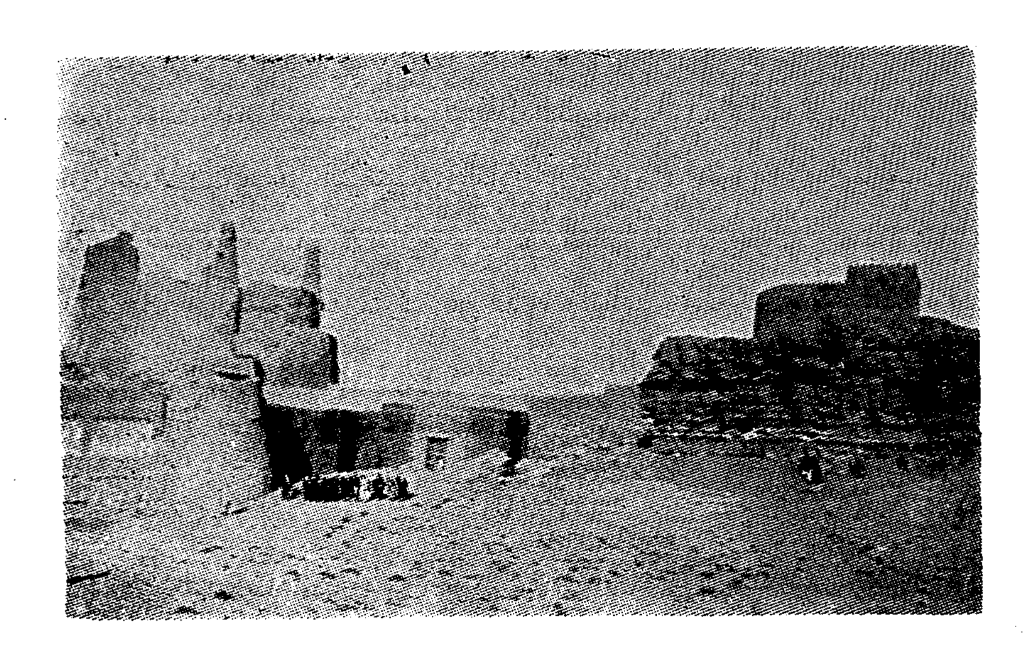
٤ – مارد حصن دومة الجندل ، وهذا أشهر موضع أُطلق عليه هذا الإسم ، وعرف به .

ولا شكّ أن كلمة (مارد) مشتقة من القوة والامتناع ، كما يفهم هذا من كلام علماء اللغة ، والقصر المرَّد : هو المزيَّن المحكم الصنعة . قال ياقوت الحموي:مارد : المارد والمريد : كل شيء تمرّد واستعصى ، ومَرَدَ على الشرّ ، وقد يجوز أن يشتق من غير ذلك إلاّ أن هذا أولى ، وهو حصن بدومة الجندل ، وفيه وفي الأبلق قالت الزبّاء – وقد غزتهما فامتنعا عليها – : تمرَّدَ ماردٌ ، وعزَّ الأبلقُ [٤]. انتهى

---

(١) شَلفاءُ : رمح قصير : سنينة : حادّة . عرينية : قوية . تودع : تَدَع .
(٢) مذبحه : مكان قتله .
(٣) الذّبحَاء : جمع ذبيح أي قتيل ، مُلبس : خيّال . (٤) « معجم البلدان » .

ولم يأت المتقدمون بطائل عن مارد أكثر من شرح المثل (تمرد مـــارد وعز الأبلق) فلم يحددوا زمن إنشائـــه ، غير أن المفهوم من عباراتهم مع مقارنتها بغيرها أنه كان موجوداً في القرن الخامس الميـلادي كما يفهم من زمن الزبّاء . وصيغة اسمه تدل على قوة بنائه ، وعرف العرب الأبنية المردة . ومن طبيعتهم تعليل ما يجهلون بأنه من آثار قوى خارجة عن قـوة البشر ، وهذا من الأمور التي لا تثبت أمام النقد ، وآثار القصر تدل على قوة ،ولكن لا تبلغ القوة المشاهدة في آثار أبنية لا تزال قائمة كالأهرامات وهيا كل بعلبك، والهيا كل اليونانية والرومانية وغيرها . وعندما زارت الليدي آن بلنت هذه البلاد قالت في وصف هذا الحصن : مارد البناية الوحيـــدة من الحجر ، في



صورة حصن مارد مطلا على ما حوله

الجوف ، ليست (كلاسيكية) وليست لها ملامح خـــاصة تجعلها مثيرة للاهتمام ، وتبدو أجمل في المنظر على بُعْد ، وتقع على مرتفـــع في الطرف الغربي داخل أسوار المدينة ، وترتفع عن سطح البحر ألفي قدم [1] .

ويحسن أن يضاف إلى ما ذكرته هذه الرحالة إلى أن الحصن لم يبق على بنائه القديم إلا من حيث المساحة والاساسات القوية الصخرية القائمة على تل صخري ، أما ما عدا ذلك فقد تغيّر كثيراً ، وبالاجمال ، يظهر أن هذا الحصن أقيم ليحمي منطقة الجوف من هجوم الغزاة ، كما حدث عندما حاصرته الزباء ، وعندما غزا دومة خالد بن الوليد (ض) في صدر الاسلام على ما تقدم .

ويقول أحد أدباء الجوف وهو الأخ الأستاذ عبد العزيز بن ساكت آل وارد في رسالة خاصة بعث بها إلي بتاريخ ٢٥ / ١٠ / ١٣٨٧ بأن مدينة دومة الجندل كانت محاطة بسور عظيم لا تزال آثاره باقية ، ولا يدخل إليها إلا من بابين أحدهمـــا يدعى النـُّقيب والثاني البرج ، وأن سورها يعلوه طوق من السلاسل –ويقصد سور الأبواب– فما على القادم إلا أن يحرك السلسلة لتنبيه الحارس الموجود في قلعة مارد عن قدوم الوافد ، فيذهب حراس الأبواب لمعرفة هذا الوافد ، وقال : ان هناك بعض الأسراب منحوتة تحت الأرض بدرجة متقنة ، وتغمرها المياه المنسابة من العيون إلى حيث توجد الحدائق الواقعة خارج البلدة .

وأقول لقد شاهدت تحت الحصن أنفاقاً قد تكون وضعت لاتصال المياه أو للاتصال من البلدة الواقعة تحت الحصن إلى الحصن او إلى المزارع ، وقد تهدم أكثرها .

---

(١) « رحلة الى نجد » ص ٦٦ .



حصن مارد يطل على ما حوله

[الصورة من الأخ الأستاذ عبد العزيز بن ساكت آل وارد]

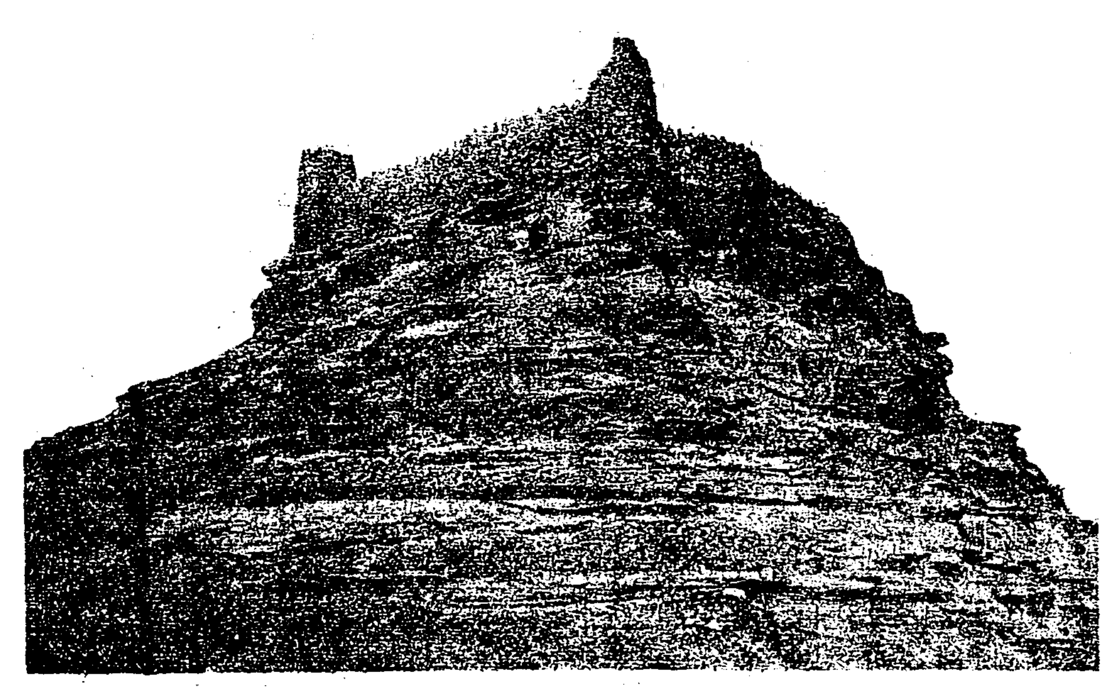
إن المطل من أعلى الحصن من ارتفاعه الموجود الآن لا شك أنه يرى كل من يقدم إلى هذه البلدة من مسافات شاسعة . وبالاجمال فقد كان هذا الحصن من أقوى وسائل الدفاع عن دومة الجندل، وهذا ما نراه بارزاً في أول الفتح الإسلامي حيث استعصى على الرسول ﷺ الاستيلاء على هذه البلاد ثم استعصى على السرية التي أرسلها برئاسة عبد الرحمن بن عوف (رض) ومن ثم لم يتم الاستيلاء الكامل إلا عندما غزاها خالد بن الوليد ، وألقى القبض على ملك البلدة المدعو الأكيدر ، وكان خارج الحصن ، على ما سبقت الاشارة إليه .



جانبان من حصن مارد

[من الأخ عبد العزيز بن ساكت]

والحصون في بلاد الجوف كانت كثيرة ، بقي منها مارد وحصن آخر يدعى زعبل، وهو في رأس قمة جبل يطل على المدينة الثانية من مدن الجوف وهي سكاكة التي تبعد شرقاً بميل نحو الشمال عن دومة الجندل بما يقارب ٤٥ كيلاً.



(حصن زَعبل المطل على مدينة سكاكة من الناحية الشمالية)

(الصورة من الأستاذ فيصل السديري)

هذا الحصن لم نجد له ذكراً فيما بين أيدينا منمصادر ،وآثاره تدل على أنه قد بني قبل الإسلام ، وهو كالحارس لمساحة واسعة من بلاد الجوف هي سكاكة وما بقربها من المزارع والقرى المنتشرة في براح واسع من الأرض .

وليس لدينا أية معلومات عن هذا الحصن ، ولا يذكر من شاهده بـأنه رأى فيه أية آثار كتابية ،وفي وسطه صهريج لجمع المياه ويتناقل أهل الجوف أن في سفح الحصن قبر أو مقام لأول صحابي يدعى (حضرة) وفد إلى هـذه البلاد يدعونه باسم غريب لم أجده في أسماء الصحابة وقد يكون هذا الرجل أقدم عهداً مما تصوروا . ولم أستطع الصعود إلى هذا الحصن لوعورة الطريق ولكوني أتيته في إقبال الليل، والوصول اليه يتطلب زمناً .

ومن أبرز ما شاهدته من الآثار مكان يدعى (الرجاجيل) جمع (رجال) أي رجل ، ويقع على مسافة ستة أميال منبلدة قارة ، وهو عبارة عن مكان

واسع من الأرض في أرض براح تنتشر صخور مستطيلة منصوبة واقفة، منها القائم البالغ في الارتفاع ثلاثة أمتار تقريباً ، ومنها الساقط ، وعندما وقفت في المكان شاهدته يشبه دائرة تحيط بها هذه الصخور القائم بعضها والساقط بعضها ، وتصورت أنه كان معبداً وضع بصفة مستديرة واسعة ، غير أن الصديق الأستاذ الدكتور محمود الغول قال لي : إنــــه قد زاره وشاهد آثاره ووجد في بعض صخوره كتابات صورها ، وانه يعتقد أنه كان من الأمكنة المعدة للاجتماعات في الاحتفالات الدينية وغيرها .

ورأيت في الشمال الشرقي منه قويرة صغيرة تدعى المدرة ، قال لي أحدهم بأنه وجد في غار في هذه القويرة جرة فخارية صغيرة مملوءة بنقود قديمـــة وعندما تحدثت مع الأمير الكريم الشيخ عبد الرحمن بن أحمد السديري أيّدَ ذلك ، ثم أخرج من حقيبةٍ لديه– يظهر أنهـــا مملوءة نقوداً أثرية - أخرج لي قطعتين ذهبيتين بدون فحص وقدمها لي ،وقد ظننت أنها ممـــا عثر عليه في ذلك الموضع ، ولكن عند عرض قطعتي النقود على أستاذ في قسم الآثار في الجامعة الأمريكية ، قال بأنها من نقود الفاطميين ، وقد رجعت إلى كتاب: « FATIMIDCOINS » تأليف جورج ميلس (G . Miles) فوجدت فيه صورتين مماثلتين للقطعتين همـــا رقم ٣٦٩ و ٣٨٧ – وقد أشار إلى أنهما من النقود التي لم تسبق دراستها . وذكر أنها من نقود المستنصر بالله أبي تميم معدّ (٤٢٧/٤٨٧ هـ ١٠٣٦/١٠٩٤ م) .

والقطعة الكبيرة منها تزن ٤/٢٧ بالجرام وقياس محيطها ٢٢ بالمليمتر .

والثانية وزنها ١/٥٨ بالجرام وقياس محيطها ٢٠ بالمليمتر .

والقطعتان مما ضرب في مصر ، وفي كل وجـــه من وجهي القطعة أربع دوائر ، مملوءة كتابة قرأت ما في الدائرة الوسطى – وقطرها ٨ مليمترات (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

وهناك موضع يدعى البويتات يقع في جبل (كبِـدَ) قيل لي فيه آثار مباني وآبار قديمة ، ولم أشاهده .

وثمت موقع آخر يدعى بدينة – بالتصغير – وهو بقرب بدنة المتقدم ذكرهـا بقرب وادي عرعر فيه آثار بنايات قديمة .

ويقول الأخ الأستاذ عبد العزيز بن ساكت آل وارد في كتابـه الآنف الذكر ان من آثار دومة الجندل صبة الوادي وانها كانت خاصة بنزهة ابنة الملك الأكيدر ، ويحيط بها ميدان واسع لسباق الخيل .

ويضيف أيضاً في الحديث عن آثار الجوف: أن في مويسن آثار قصر قديم وحوله جبال في بعضها صخور فوقها كتابات قديمة .

ويذكر أيضاً أن على مقربة من الشقيق في الموقع المعروف باسم(راف)[١] فيه آبار المرُوت بتخفيف الراء وضمها جمع مَرْتٍ ، تلك الآبار منحوتة في الصخر نحتاً يدل على قوة ومهارة . ويقول : بأن في شمال سكاكة بئراً تدعى سيسرا ، منحوتة في رأس قمة جبل ، وعلى انخفاض ١٢ متراً منها أسراب تفضي الى سطح الأرض باقية آثارها حتى الآن .

وذكر مؤرخو العرب أن (صنم ودٍّ) الذي سبق الحديث عنه كان عوف ابن كنانة من بني كلب قد نصبه في دومة الجندل ، فكان من معبودات قبيلة قضاعة[٢]. وود من الأصنام التي ذكرها الله سبحانه في القرآن الكريم في سورة نوح فقال : (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرنّ ودّاً ولا سواعا) .وقال الدكتور صالح أحمد العلي عن هذا الصنم في كتابه « محاضرات في تاريخ العرب »[٣]، وكان سدنة هذا الصنم بني الفرافِصة بن الأحوص ، من قبيلة كلب[٤] وكان

(١) راف : جبل يقع جنوب المروت بما يقارب ٢٠ كيلا ،وهي في النفود ، ارتفاعه ٩٧٩ متراً (بقرب الدرجة ٥٧َ /٣٩° ط و ١٢ /٢٩° عرضاً) .

(٢) « المحبّر في أخبار قريش » ص ٤٠٦ . (٣) ص ١٨٨ .

(٤) « معجم البلدان » .

من أكبر الآلهة المعينية ، وقد ورد ذكره في النقوش الثمودية ، فأما عند ظهور الإسلام فكان موضعه بدومة الجندل ، وكان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد ذبر عليه حلتان ، متزر بحلة ، مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده ، وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ووفضة فيها نبل[١] ، وهذا الوصف يوحي بأنه كان إله الحرب ، ولكن لا تشير الكتب العربية إلى اختصاصه ، كما أن تلبيته لا توحي بشيء ، فقد كانت تلبية من نسك إليه : (لبيك اللهم لبيك ، لبيك معذرة) . وكان يقدم إليه اللبن .

وكانت سدنته بنو الفرافصة[٢] بن الأحوص من بني عامر الاجدار (كلب) وقد بعث إليه الرسول (ص) خالد بن الوليد لهدمه فقاومه بنو عبدود ، وبنو عامر الأجدار فانتصر عليهم وهدمه .

ومن آثار الجوف الاسلامية مسجد عمر ، ويقع في سفح الجبل الذي يقع فوقه الحصن حصن مارد ، ويقع الحصن في قبلته ، لا يفصل بينه وبين الحصن سوى بيوت خربة قليلة . والشائع عن أهل البلدة أنه ينسب إلى عمر بن الخطاب ، غير أنني لا أرى ذلك ، ففي المسجد محراب ومنارة ، وهما مما أحدث في الإسلام بعد عهد الفاروق ، وقد يكون منسوباً إلى عمر بن عبد العزيز ، إذ هذه الجهات كانت ذات صلة قوية بخلفاء بني أمية في الشام ، والفاروق وإن كانت له إصلاحات في بعض القرى الواقعة في الشمال ، كأمره ابن غريض اليهودي بطي بئر تبوك ، وبنائه مسجد وادي القرى إلا أنني استبعد من طراز المسجد نسبته إليه .

يضاف إلى هذا أنه مسقف بجذوع النخل ، مما يدل على أن التسقيف حديث ، وقد يقال : بأن عمر أمر بانشاء المسجد أولاً ، ثم بعد ذلك جدد وأضيف إليه إضافات .

---

(١) « محاضرات في تاريخ العرب » - ١٨٨ (٢) « المحبر » - ٣١٦ .

ولا شكَّ أن المنارة قديمـــة ، وطراز بنائها [يلفت النظر ، ولم استطع الصعود فيها خشية من سقوطها ، فقد أصبحت متداعية للسقوط ، وكذا جوانب المسجد ، وان كان لا يزال مستعملا .

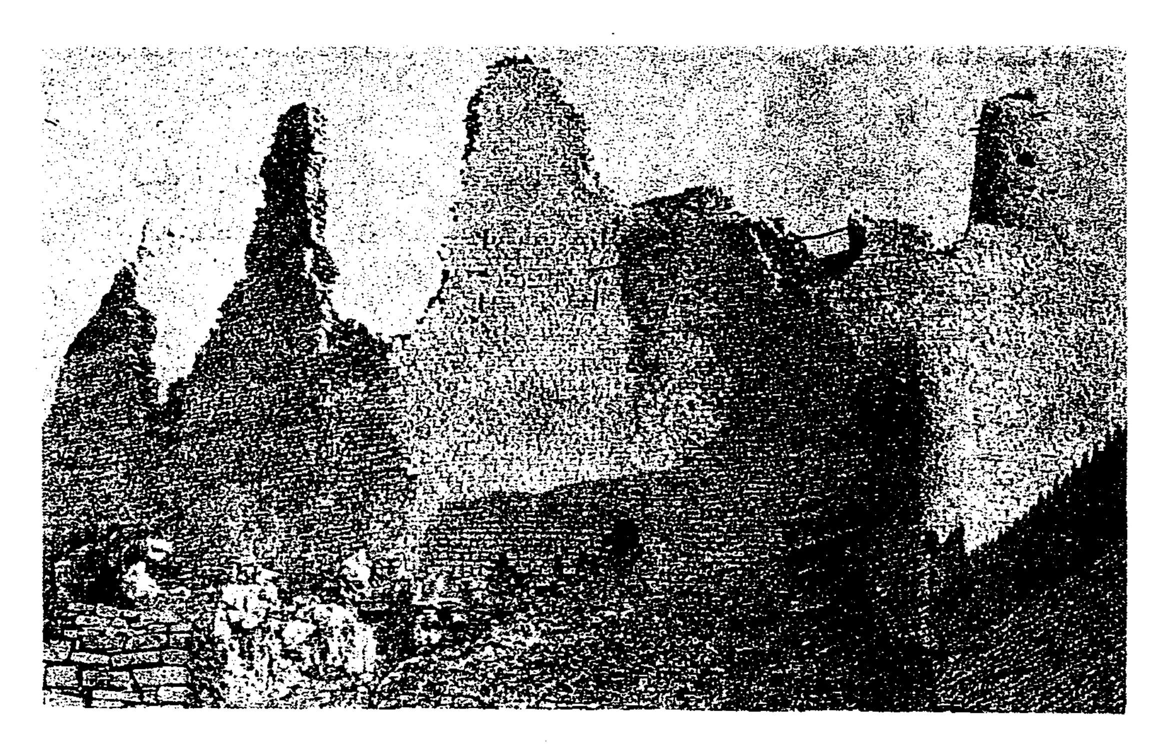


مسجد عمر في دومة الجندل القديمة

[الصورة من الأخ عبد العزيز بن ساكت آل وارد]

أما البلدة التي يقع فيها هذا المسجد فلا شكّ أنها من الأماكن الأثرية ، ولو أجرى فيه حفرٌ وتنقيب لكان من المحتمل العثور على آثار تحت خرائبها.

ومن المؤسف عـــدم صيانة الآثار الموجودة هناك ، ولهذا فقد لا يمضي طويل وقت على بقائها ، كما يظهر من حصن مارد .



مارد يبدو في هذه الصورة متهدماً آيلا للسقوط

[والصورة هدية من الأستاذ فيصل بن عبد الرحمن السديري]

الجوف وموقعها التجاري

ـ عرفت الجوف منذ اقدم العصور بأنها من أهم المواقع التجارية في شمال جزيرة العرب، لتوسطها بين مواطن كثير من القبائل، ولوقوعها في ملتقى طرق رئيسية من المدينة فخيبر فتيماء فالجوف ، ومن جنوب نجد فجبلي طي فالجوف ومن العراق فأودية بني كلب عرعر وابو القور وقو وغيرها إلى الجوف، ومن الشام إلى عمان فقراقر فالجوف ،ومن هنا كان لسوقها التجاري العظيم الذي كان يعقد في دومة الجندل أثره الكبير الذي عرفه متقدمو المتأخرين وكان من أشهر الأسواق التجـــارية في الجزيرة قبل الاسلام ، ويحضره جميع القبائل العربية ، ويقام هذا السوق في أول يوم من شهر ربيع الأول ، ويستمر في البيع والشراء ، والأخـــذ والعطاء ، مما قد لا يتصل بالناحية التجارية بل يتعداها إلى فكاك الأسرى ، ودفع الديات ، والإصلاح بين القبائل ، وغير ذلك من الأمور العامة .

ويتولى حماية هذه السوق وتعشيرها رؤساء آل الأكيدر وغيرهم من قبيلة كلب أو من ذوي الصلة بها ، ويمتد قيام السوق إلى آخر الشهر ، حيث ينتقل السوق العام إلى سوق هجر البحرين. ويحسن أن نورد نصّ ما ذكره المتقدمون عن هذه السوق :

(وكان قيامها في أول يوم من شهر ربيع الأول إلى النصف منه . ثم ترِقُ ، فلا تزال قائمة إلى رأس الشهر ، ثم يفترقون عنها إلى مثلها من قابل .

وكانت كلب وجديلة طيّء جيرانها ، وكان ملكها بين أكيدر العبادي ، وبين قنافة الكلبي ، فكان العباديون إذا غلبوا وليها أكيدر، وإذا غلب الغسانيون ولوها قنافة ، وكانت غلبتهم أن الملكين يتحاجيان ، فأيّما ملك غلب صاحبه باخراج ما يلقي عليه تركه والسوق ، فصنع فيها ما شاء ، ولم يبع بها أحد شيئاً إلا بإذنه ، حتى يبيع الملك كل ما أراد بيعه ، مع ما يصل إليه من عشورها .

وكان لكلبٍ فيها قِنّ كثير في بيوت شعر ، فكانوا يكرهون فتياتهم على البغاء ، وكانوا أكثر العرب قِنّاً .

وكانت مبايعة العرب فيها بإلقاء الحجارة ، وذلك أنه ربما اجتمع على السلعة النفر يساومون بها صاحبها ، فأيهم رضي ألقى حجره ، فربما اتفق في السلعة الرهط فلا يجدون بُدّاً من أن يشتركوا وهم كارهون ، وربما اتفقوا فألقوا الحجارة جميعاً إذ كانوا عدداً على أمر بينهم فوكسوا صاحب السلعة إذا طابقوا عليه .

وكان كل تاجر يخرج من اليمن والحجاز يتخفر بقريش ما داموا في بلاد مضر ، لأن مضر لم تكن تعرض لتجار مضر ، ولا يهيجهم حليف لمضري ، كان ذلك بينهم ، فكانت كلب لا تهيجهم لحلفهم بني تميم ، وطيّء أيضاً لا تهيجهم لحلفهم بني أسد . انتهى

ويحسن أن نقف وقفة قصيرة عند هذا النص الطويل ، الذي أورده ابن حبيب عن سوق دومة الجندل ، ولا يعنينا ما أشار إليه فيما يتعلق بحماية السوق وجبايته ، ولا عن طريقة التبايع فيه ، فتلك أمور نعتقد أنها ترجع إلى العرف والعادة ، أكثر من خضوعها لحالات فردية غير مستمرة .

ولقد كانت حماية الأسواق التجارية قبل الاسلام تعتمد أكثر ما تعتمد على قوة القبيلة التي يقع السوق في بلادها ، وكانت قبيلة كلب من أقوى قبائل

---

(١) : « المحبر » ٢٦٣ - ٢٦٤ و « الازمنة والامكنة » للمرزوقي ج ٢ ص ١٦١

شمال الجزيرة ، يضاف إلى ذلك ، أن لها صلات قوية بالقبائل المجاورة لها ، كقبيلة طيء ، وهي محالفة لقبيلة أسد ، وصلة طيء بقبيلة كلب صلة عريقة ، كما أن بين كلب وبين قبيلة بني تميم الحلف المعروف الذي سبقت الاشارة إليه ، عند الكلام على تاريخ هذه البلاد في أول عهد الاسلام .

ومن ثمّ يمكن القول بأن بلاد الجوف كانت أهم المراكز التجارية في شمال جزيرة العرب ، يضاف إلى ذلك أن قبائل شمال الجزيرة من أقصاها من حدود الشام ومن أطراف العراق تجد حول هذه المنطقة مراعي خصبة عندما تصاب بلادها بالجدب . والصلة بين القبائل العربية لا يفصل بينها وبين الاتصال بالأجزاء الأخرى من الجزيرة حدود لأنها لا تقوم على اعتبارات سياسية بل تعتمد في الدرجة الأولى على الصلات القبلية العريقة في القدم ، ومن ثم يسوغ لها أن تشترك مع القبائل ، ولو لم تجمعها بها رابطة سياسية في المراعي ، وفي ورود المناهل ، ومن المعروف أن قبائل الشمال عريقة الصلة بقبائل الجزيرة ، بحيث أصبحت الحدود السياسية تخضع لهذه الصلة وتوليها الجانب الأوفى من العناية.

كل هذه الأسباب جعلت من واحـــة الجوف مركزاً ذا أهمية كبيرة من الناحية الاقتصادية .

وقد يجرّنا هذا إلى الحديث عن القبائل العربية التي كانت تنتشر في هذه المنطقة ، وقد سبقت الاشارة إلى أن قبيلة بني كلب هي أشهر قبيلة تنتشر في هذه المنطقة عند ظهور الاسلام ، وبدأت تضعف في القرن الرابع الهجري وما بعده شأن كل قبيلة تميل إلى التحضر والاستيطان ، فاتخذت من الجوف ومن وادي السرحان أمكنة لتحضرها ، وبقيت منها بقية على حالة البداوة متنقلة على ضعف إلى جهة الشمال فجاءت قبيلة عنزة التي كانت تحل غرب هذه البلاد في ضفاف وادي القرى ومـــا حوله ، فانتشرت في هذه البلاد ومازجها فروع من قبائل أخرى تحللت من قبائل غطفان وغيرها من العدنانية التي تربطها بعنزة رابطة النسب العدناني ، وانضاف إليها قسم من قبيلة طيء القبيلة القحطانية فتكون خليط ــ وان غلب عليه العنصر القحطاني ــ إلا أن

الغلبة كانت في آخر الأمر للعنصر العدناني حيث أصبحت قبيلة الرولة في العصور الأخيرة هي التي تحل هذا الوادي ، وقبلها بزمن قصير كانت قبيلة السرحان التي انساحت إلى الشمال فاستوطنت بلاد فلسطين وهي من كلب . أما بقية القبائل القحطانية من كلب فتحضروا في مدن الجوف ، وفي وادي السرحان وباديتهم بقيت منتشرة حول هذه المنطقة بعد أن انساح القسم الكبير منها إلى بلاد فلسطين والأردن .

وفي العهد الحاضر ، فان تلك الطرق لا تزال قائمة مسلوكة . وساعد على إنماء كثير منها وجود حركة حضارية قوية في الشرق في خط أنابيب النفط وفي الشمال بسبب القرب من الشام فيما بينها وبين وادي السرحان (القريات) ومن هذا الخط تصل أكثر البضائع التي تحتاجها المنطقة ومن الغرب حيث انتظم الطريق بصورة إدارية لا بد منها لربط أجزاء المملكة بعضها ببعض .

أما من الناحية الجنوبية ، فمع أن رمال النفود الكبير المعروف قديماً باسم عالج وباسم رمال بحتر يفصل بين هذه المنطقة وبين بلاد الجبلين ، إلا أن تلك الرمال تكون في وقت الشتاء عندما يجودها الغيث من أخصب مراعي البادية ومن ثم تتكاثر قبائل عنزة من الرولة وغيرهم ، وقبائل شمر وغير هاتين القبيلتين من القبائل فتصبح بحاجة إلى أن تجد في الأمكنة القريبة منها متطلباتها في الحياة ، وتجد فيها الأسواق الملائمة لتصريف منتجاتها . ان أهم ما تحتاجه البلاد -أياً كانت- الطرق الصالحة التي يحتاج إليها المرء أكثر من احتياجه إلى غيرها من مرافق الحياة الأخرى ، فالعلاج مثلاً يناله المرء باستعمال وسائل المواصلات السريعة كالطائرات مثلاً ، والزراعة لا يعدم المعنيون بها من الاستفادة من الخبرة الفنية ومن العامل الفني ، ولوزارة الزراعة نشاط ملحوظ في هذه البلاد ، والتعليم أصبحت وسائله متوفرة في المنطقة ، ولهذا فان شريان الحياة يتوقف غالباً على وجود الطرق الصالحة وهذا ما يرجى بأن المملكة بجميع أجزائها سترتبط بطرق معبدة تعين على جميع وسائل النمو والحياة في كل منطقة وفي كل جهة من جهاتها .

الجوف واحة زراعية

أعجبت أول ما أعجبت بحديقة الامير عبد الرحمن السديري ، ثم ألقيت نظرة على ما مررت به في هذه المقاطعة ، فرأيت كل الوسائل التي لا بد من توفرها للزراعة كلها متوفرة في هذه المنطقة ، فالأرض واسعة صالحة لمختلف المزروعات ، والمياه متوفرة بكثرة زادت عن الحد وهي عَذْبة ، والنماذج البادية من المزروعات تدل على نتائج طيبة . ومن هنا لا يسع من يشاهد تلك البلاد سوى الحكم بأنها من أصلح الواحات للزراعة، لا سيما وان كل المحصولات من موسمية أو دائمة سوف تتصرف في الأسواق لحاجة السكان .

لقد عرف الجوف بأنه يمتاز على كثير من أنحاء الجزيرة بجودة غراس نوع من النخل يسمى (حلوة الجوف) هذه الحلوة من أجود أنواع التمر ما دامت رُطباً، ولكنها لا تصلح للخزن ، وتمتاز عليها في ذلك حلوة العلا في وادي القرى .

وتزرع أنواع أخرى من النخيل منها الحسينية ،وهي صفراء البلح والرطب وتؤكل طرية .

وحمراء رشود ، وهي نوع من الحلوة ،ولكنها شديدة الحرارة في الأكل. ويروي أهل هذه الجهة حولها قصة تشبه قصة نوع من النخل مشهور في الرياض وما حولها يدعى (نبتة سيف) يقولون: ان بدوياً جائعاً استضاف بستانياً من أهل الجوف عند إيناع النخل فقدّم له رطباً من حمراء رشود فدفعه جوعه إلى

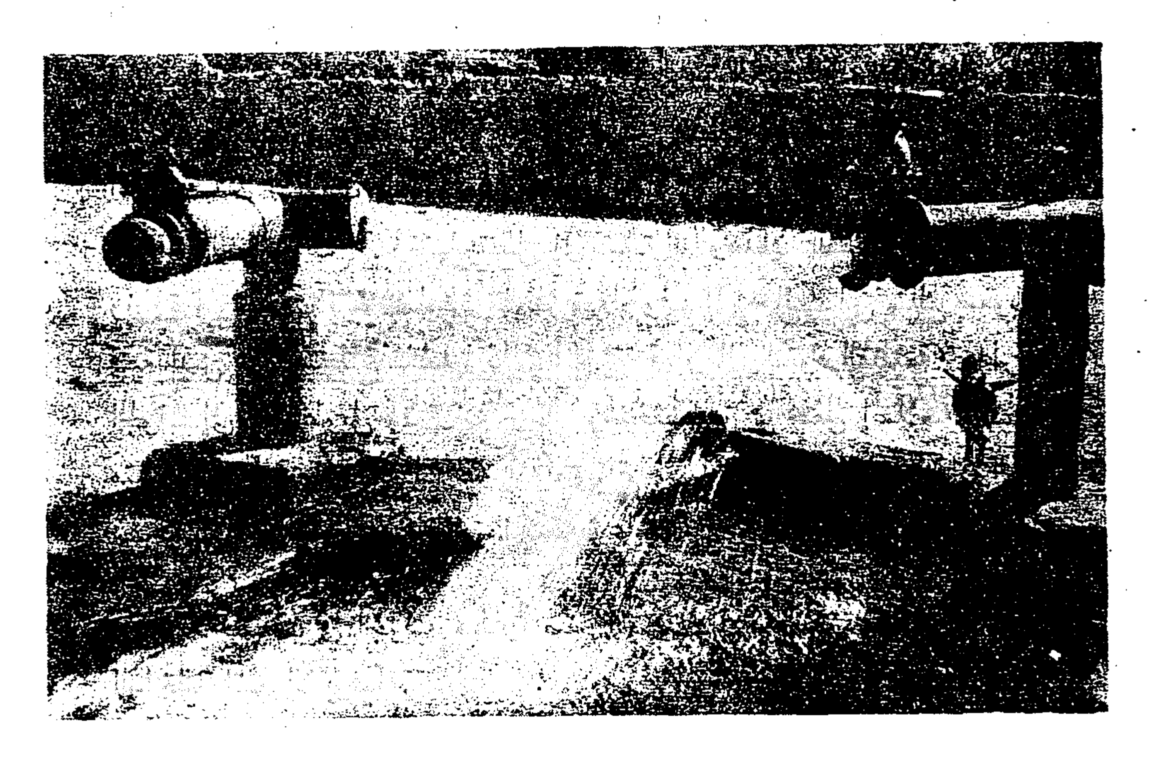
أن يلتقم منها كمية أكثر من حاجته وهو يدعو عند كل لقمة: (الله يرحمك يا رشود) ، وبعد أن امتلأ وطابه أحس بحرارة شديدة صار من جرائها يلتهم الماء بكثرة ، ولما لم يطفىء غليله صار يصيح : (الله لا يرحمك يا رشود) .

وأرض الجوف صالحة لمختلف المزروعات بما في ذلك الأشجار الدائمة التي تغل ثماراً موسمية مثل الزيتون ، وأذكر أنني عندما رأيت أشجار الزيتون في حديقة الأمير سألته: هل يثمر؟ فأجاب: ألم تأكل من الزيتون في طعام الافطار الذي قدم لك ؟ فكان الجواب بالإيجاب ، مضافاً اليه : ولكنني ظننته زيتوناً يونانياً ، فقال : كلا ، انه من ثمر البستان الذي رأيت أشجاره فيه. فذكرت قصة كنت قرأتها عن أحمد شوقي أمير الشعراء ، وانه كان في صغره أحول ، وكانت مربيته لها صلة بقصر والي مصر الخديوي اسماعيل فإذا أحضرته الى القصر قد يراه الوالي نفسه ، وفي أحد المرات عندما حضر وضع له نقوداً ذهبية فركز نظره نحوها ، ولم تبد عليه صفة الحول ، فقال لها : عالجيه بهذا ، فقالت الحاضنة : هذا لا يوجد إلا في صيدليتكم . ولكن الأمير السديري عندما سمع القصة استدرك قائلاً : ان الأرض في الجوف كلها على درجة واحدة من الخصوبة بحيث يصلح فيها هذا النوع من الزيتون .

أما الخضروات فقد شاهدت في حديقة الأمير مختلف أنواعها ، ورأيت بعضها ينمو نمواً لم أشاهد مثله في كثير من الأمكنة التي زرتها .

وفي هذه البلاد مركز لوزارة الزراعة تجري عليه تجارب ، غير انني لاحظت أمراً أعتقد ان معالي وزير الزراعة يسره أن يعلمه هو ان أكثر من يشرفون على مراكز التجارب الزراعية يتصفون بصفتين : إحداهما عدم الخبرة الفنية الكاملة ، والثانية حرصها على الاستفادة مما يقومون به من تجارب استفادة وقتية تتلاءم مع مدة عملهم ، ومن ثم فلا يصح التعويل على كل ما يقومون به من تجارب ، ولهذا لم أعن كثيراً بمعرفة شيء من أعمالهم .

- ويأتي الحديث عن المياه وقد سبق القول عن وفرتها بدرجة تفوق الحاجة في دومة الجندل ، وهي مياه عذبة تعتبر من نعم الله على تلك المنطقة . ومن النعمة ما يكون نقمة إذا لم يوجه توجيهاً حسناً . وفيما عـدا دومة الجندل ، قيل لنا ان هنالك ما يقرب من ٧٠٠ مضخة مائية في المنطقة ، وقد شاهدت أنموذجاً منها في حديقة الأمير السديري ، ووثقت بعد المشاهدة بوفرة المياه . وليست الوفرة هي كل ما يتطلبه من يعنى بالزراعة ، فهناك إصلاح الأرض وتطعيمها بمختلف الأسمدة ، واختيار المزروعات الصالحة لها ، وهذا يرتكز على العلم ، وما وزارة الزراعة بمن يجهل مثل ذلك .



(تدفق المياه في دومة الجندل سنة ١٣٧٥هـ)

- الصورة من الأخ عبد العزيز الساكت -

الطرق والمواصلات في الجوف

تقع مدينة الجوف في ملتقى طرق رئيسية تصلها بمختلف أنحاء شمال المملكة من أهم هذه الطرق طريق الجوف إلى عرعر، وطريق الجوف إلى قريات الملح ، وطريق الجوف إلى حائل ، وطريق الجوف إلى تيماء، وأهم هذه الطرق طريقان : الطريق إلى عرعر حيث يصل المنطقة بالطريق المعبد المحاذي لخط الأنابيب الذي يخترق شرق المملكة كلها إلى الشام ، وطريق الجوف إلى القريات ، ومنها يتصل إلى عمان ، وهذان الطريقان قد قررت وزارة المواصلات تعبيدهما ، أما طريق الجوف إلى حائل فهناك صعوبات فنية ليس من المستطاع تذليلها ذلك أنه يخترق رمال النفود العظيمة، وطريق الجوف إلى تيماء طويل وتعترضه رمال ومنخفضات مما يجعل إصلاحه غير متيسر قريباً ، ومما لا شك فيه أنه متى تم تعبيد الطريقين الأولين فإن البلاد ستكتسب من النمو والانتعاش ما يكون عاملاً من عوامل تقدمها ونمو حياتها.

ويلاحظ أن في الجوف مطاراً صغيراً يتصل بجميع مطارات المملكة الداخلية اتصالاً يومياً .



امارة الجوف في العهـــد الحاضر

بعد الاستيلاء على مدينة حائل قاعدة الإمارة الرشيدية في ٢٩ صفر سنة ١٣٤٠ هـ (٢ تشرين الثاني ١٩٢١ م) خضعت بلاد الجوف ووادي السرحان لحكم الملك عبد العزيز - رحمـــه الله - وكانت الجوف إذ ذاك تحت نفوذ آل شعلان أمراء الرولة وكذا وادي السرحان ، فأرسل الملك عبد العزيز الأمير عساف الحسين من أهل الرس من القصيم فتسلم إمارة الجوف .

وبعد مدة خلفه الأمير عبد الله بن عُقيِّل من أهل الرس من القصيم أيضاً.

وبعده تولى الإمارة الأمير تركي بن أحمد السديري .

وخلفه بعد ذلك الأمير عبد الرحمن بن سعد بن سُعيّد من أهل الدرعية .

غير أن الأمير تركي السديري أُعيد ليتولى الإمارة للمرة الثانية ، فنقل القاعدة من دومة الجندل إلى سكاكة .

ثم خلفه أخوه الأمير عبد العزيز بن أحمد السديري الذي نقل فيما بعد إلى إمارة القريات والحدود الشمالية ، ثم إلى وزارة الزراعـــة حيث توفي وهو يشغلها - رحمه الله - .

وخلفه في إمارة الجوف أخوه الأمير محمد بن أحمد السديري ثم نقل إلى إمارة الحدود الشمالية. ثم إلى أعمال أخرى حيث خلفه أخوه الأمير عبدالرحمن بن أحمد السديري ، وهو أمير الجوف الآن .

قرى الامارة ومراكزها :

إمارة الجوف تتكون من :

١ – إمارة دومة الجندل .

٢ – إمارة «الشويحطة» متوسطة في أماكن تقطن البادية حولها من الرولة ، وقسم الشرارات .

٣– اثنىعشر مركزاً هي : (١) الطوير (٢) قارة (٣) المرير– في غرب البلاد على مسافة ٤٥ ك (٤) الطيري في الشمال الشرقي حوالي ٦٠ ك (٥) النبك أبو قصى علىمسافة ١٧٠ك (٧) طبرجل ٢١٢ ك (٨) العسافية على طريق تيماء على مسافة ٤٢٠ ك تقريب (٩) زلـُّوم – جبل مرتفع في الشمال الشرقي من سكاكة على مسافة ٣٠ كيل (١٠) خَوْعَا – جوٌ فيه آبار شرق سكاكة بـ ٢٥ كيل (١١) الشَّقيق – بفتح الشين – في الجنوب الغربي على مسافة ٧٠ كيلا (١٢) مَيْقوع جوٌ فيه آبار للشرارات يقع شرق النبك أبو قصر بميل نحو الجنوب على مسافة ١٣٠ .



أهم القرى وموارد المياه في الجوف

القرى والهجر

سكاكة (القاعدة) – الجراوي – الشويحطية – الطوير – الطـــيري – العسافية – اللقايط – الميسري – المـــرير – مَكْوَر (أم مكْور) – النبك (أبو قصر) – حِدْرج – خَوْعاء – دومـــة الجندل – شيبة – صبيحاء – طَبَرجل – قارة – مُوَيسن – النبّاج .

موارد المياه

ابيط – الجبعاوية – أويسط – اويسط (دومة الجندل)– الرغيفيات – الزهريات – الشعيرة – الفياضة – المُرُوت (جمع مَرْتٍ) – المجيفلة– المريقب – خبراء العروس – شغـــار – صديـع – صفان – صوير – عرفجاء – فيضة أم طرفاة – فيضة أم عين – مُغَيْرَاء – مَيْقُوع – مُشاش هاضِل – مشاش القراوِعة – مشاش العَوْد – مُلَيْح – هُدَيْب .

وقد حاولت التعريف بأهم القرى المذكورة وموارد الميـــاه في الفصل المخصص لذلك .

ومما تجدر ملاحظته أن كثيراً من سكان هذه المنطقة ومن المتجولين في مرابعها ومراتعها وحول مناهلها من القبائل الرحل أكثرهم من قبيلة الرولة والشرارات وتأتيهم قبائل أخرى من شمال الجزيرة من شمر وعنزة وبعض القبائل الواقعة بلادها في أطراف الأردن وشمال الحجاز ، وهذا مـا يجعل لهذه البلاد أهمية كبيرة من الناحية الإدارية .

التعليم في الجوف

يتولى مكتب التعليم في الجوف الإشراف على ٢٢ مدرسة إبتدائية، وست مدارس متوسطة ، ومدرسة ثانوية ، يبلـغ جميـع طلاب المدارس الابتدائية ٣٠٧٤ والمتوسطة ٦٦١ والثانوية ٨٣ ، ومجموع مدرسي هذه المدارس ٢٥٧ إلا إن قسماً من هذه المدارس يقع في القريّات (وادي السرحان) اما مدارس الجوف فهي : ٩ ابتدائية طلابها ٢١٣٨

٤ متوسطة طلابها ٠٤٩٥

١ ثانوية طلابها ٨٣

١٥		٢٧١٦

موزعة كما يلي :



فرقة الكشافة في مدرسة الجوف سنة ١٣٩٠

نماذج من أعمال الطلاب في معرضهم الفني سنة ١٣٩٠ (بمدرسة الجوف)

سعادة الأمير عبد الرحمن السديري يشاهد المهرجان
الرياضي في الجوف (٢٥ – ١ – ١٣٩٠)

في سكاكة : خمس مدارس ابتدائية وثلاث متوسطة وثانوية واحدة . وفي دومة الجندل ثلاث ابتدائية ومتوسطة ثم في قارا متوسطة ومدرسة ابتدائية واحدة .

وفي كل من الطوير والنبـــك أبو قصر ، وطبرجل والعسافية ابتدائية ، ويلاحظ أن هذه القرى الأخيرة يقع بقربها قري فتجمع أبناء تلك القرى مدرسة واحدة ، وهناك سيارات تنقل الطلاب إذا كانت أمكنتهم بعيدة عن المدرسة .

ويدير مكتب الإشراف على التعليم في الجوف ووادي السرحان الاستاذ ابراهيم بن خليف من مثقفي هـذه البـــلاد .

والفتاة في الجوف بدأت تنال نصيبها من العلم ، ففي الجوف سبع مدارس للبنات هذا بيانها :

١ – في سكاكة : ١ – معهد للمعلمات . ٢ – مدرستان ابتدائيتان .

٢ – وفي كل من دومة وقارة واللقايط مدرسة ابتدائية .

٣ – ويشرف على التعليم مندوبان أحدهما في سكاكة والآخر في دومة ، وقــد نال الشهادة الابتدائية إلى نهاية عام ١٣٨٩هـ – ١٥٢ فتاة (كما في تقرير عام ٨٨ / ١٣٨٩ لاختبار الشهادة الابتدائية .

وبعد فما تلك الزيارة القصيرة التي لم تتجاوز ثلاثة أيام ، بالتي تهيء للمرء التوسع في الحديث توسعاً يوفي تلك البلاد حقهـا ، غير أني حاولت تسجيل أوضح ما برز لي من معالم الحياة فيها قديماً وحديثاً .

ولم أنس ما منحني الأمير عبد الرحمن بن أحمد السديري من كرم ولطف يَسَّرا لي مشاهدة كثير من المواقع وكان من آخر ذلك أن نصحني بعدم السفر بالسيارات لما لاحظ أنني أحتاج اليه من راحة هيأها لي بركوب الطائرة من الرياض .

الشعيبة والجار ـ ميناءا الحجاز

كنت تحدثت عن تحديد هذين الموضعين في مناسبات، فذكرت في هوامش كتاب « بلاد العـــرب »[١] ، وفي كتاب « المناسك »[٢] ، وفي كتاب « المغانم »[٣] وفي مجلة « العرب »[٤] أن ميناء الجار هو ما يطلق عليه في العهد الحاضر اسم الرايس ، وقد حملني على هذا القول أن الأوصاف الــتي ذكرها المتقدمون جميعها تنطبق على هذا الموضع ، وتحدثت عن موقع ميناء الشعيبة في تعليقي على خريطة الإدريسي في مجلة « العرب »[٥] ، بأن كثيراً من الباحثين يرى أن الشعيبة تقع بقرب الرأس الأسود الواقع جنوب جدة بملتقى وادي فاطمة بالبحر ، حيث توجد هناك مزرعة صغيرة تدعى الخمرة ، وكنت عولت في هذا على ما ذكر لي أحد المعاصرين ، وما جاء في حواشي أخبار مكة للأزرقي[٦] من قول محققة الأستاذ رشدي ملحس ، بأنها واقعة جنوب جدة ، وتبعد عنها مقدار مرحلتين ، وهي قريبة من الرأس الأسود ، ومعروفة اليوم.غير أنني رأيت في إحدى الصحف أن الأخ استاذ حمد بن محمد العبيدي يرى أن البريكة هي موقع الجــار القديم ، وكنت أعرف الأخ العبيدي باحثاً محققاً فيما قرأت له ، فاغتنمتها فرصة أثناء مروري بمدينة جدة في يوم الثلاثاء (٢٩ صفر ١٣٩٠ — ٥ مـــايو ١٩٧٠) فقمت بزيارة الأخ العبيدي في مكتبه ، وتحدثت معه في الموضوع ، فأخبرني بأنه قام قبل بضع

---

(١) ص ٢٠١ و ٣٢٦ . (٢) ص ٢٠ : (٣) ص ٩٩ .

(٤) ص ٦٧٣ ، س ٤ . (٥) ص ٩٦٩ (٦) ج ١ ، ص ٩٩ .

سنوات مع بعض الباحثين برحلة إلى البريكة لمشاهدة آثار موجودة هناك ، وقدم لي تقريراً عن تلك الرحلة كتبته صحيفة سويسرية باللغة الفرنسية ، وها هي ترجمته :

تحت إشراف السيد عباس سندي من وزارة الاعلام ، الذي رافق الآنسة الصحفية السويسرية هيلين كايزر قامت مجموعة من أعضاء السلك السياسي في جدة يوم ٣ مارس سنه ١٩٦٤ برحلة إلى ميناء الجار وقد سبق أن اقترح الأستاذ حمد العبيدي القيام بهذه الرحلة نظراً لأنه شاهد هناك آثاراً لم يتمكن من معرفة أصلها . وإن قراءته للكتابين « صفة جزيرة العرب » للهمداني وكتاب « أسماء جبال تهامة وسكانها » لعرام بن الاصبغ السلمي – ص ٤٢٤ و ٩ – على التوالي – اطلعا على وجود تكوينات ارضية هامة في العصر القديم ، ويقع المكان في الجهة الشمالية في جونٍ يقع شمال الرائس ، وجنوب هذا الجون يقع مركز خفر السواحل [ويقدر الاستاذ حمد المسافة بين الرايس وهذا الجون المعروف الآن باسم البريكة بـ ١٢ كيل] إن الآثار مغمورة



البعثة التي زارت الجار في ٣ مارس سنة ١٩٦٤م

بالتراب وهي – بلا شكٍّ – قـــد جرفت بفعل السيول المنحدرة من وادي الصفراء ويمكن للمرء أن يرى بوضوح وجود أساس جدار طوله ثمانون متراً تقريباً ، يمتد من الشرق إلى الغرب ، وينتهي عند البحر ، وبين هذا الحائط وحافة الجَوْن توجد تِلالٌ صغيرة – آثار مباني دارسة – إحدى تلك التلال مغطاة ببناء مستدير قطرها متر ونصف ، ويعتقد أنها كانت فرناً ، لأن الأحجار الموجودة داخلها سوداء اللون ، كما يوجد مَمَرٌّ – من المعتقد أنه كان المدخل الذي يأتي منه الصناع بالموادّ ، مثـــل الكلس والجير والصودا والبوتاس الخ لصناعة الزجاج .



بعض آثار رصيف ميناء الجار الباقية ، ويظهر في الصورة أعضاء البعثة ، وفي مقدمتهم الأستـــاذ العبيدي جالساً

إن مما يسترعي الانتباه وجود الكثير من بقايا الزجاج والفخـــار بأنواع مختلفة متعددة ومبعثرة على سطح الأرض . وإن المرء ليجـــد زجاجاً ملوّناً ومنفوخاً ومنقوشاً ، وقد يكون معجوناً بمواد للتلوين ، وجزء منه بمعادن ثمينة ، كما توجد قطع من القوارير والكؤوس وأدوات الزينة .

ومن أول معاينة لبقايا الزجاج يمكن للمرء أن يستنتج أن هذه المواد يعود تاريخها إلى :

أ – العصر الروماني ، ولكن بالتأكيد لا تصنع في رومـــا ، وهي من الزجاج الموحّد اللون ، وفي بعض الأحيان الملون بلون قوس قزح .

ب – عصر البطالسة والساسانيين القرن الثاني والثالث بعد المسيح ، وهو الزجاج الملون وغير المسوّى .

ج – عصر العباسيين من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر بعد المسيح ، وهو بأشكال أكثر نقاوة وأزهى ألواناً ورسوماً .

ويجد المرء أيضاً قطع فخار كثيرة ، وكسر زجاج مزيّن طبقاً للطريقة المستعملة عند الفاطميين في القرن العاشر .

إن وجود تشكيلة الزجاج الكبيرة تعطي فكرة وجود مصنع زجـــاج وفخار في هذا المكان . وإن هذا المصنع يعود عهده – على الأرجح – إلى عهد الرومان ، ولا يستبعد أن يكون المصريون قـــد مارسوا فنّهم في هذا المكان .

ويمكننا أن نؤكد أن الرومان كانوا يستعملون هذا الموضع ميناء ، وعلى كل فقد بدىء في ذكر هـــذا المكان في كتاب عرام بن الأصبغ السلمي ، في القرن التاسع ، ويظهر أيضاً على خارطة الادريسي سنة ١١٩٢ م .

وفي عام ١٩٥٠ عندما قام (جْلَنْ ْبراون) برسم خارطة الجزيرة كان يعلم بوجود طريقة الرّي القديمة ، ولكن لا يوجد لهذه الطريقة أي أثر في الكتب الحديثة عن الجزيرة .

ان من المعتقد أن تلك البقايا من الزجاج على سطح الأرض قد تكون بقايا متكسرة أثناء الصناعة ، وألقيت في حفرة ، أو على تلٍّ خارج المدينة ، في الجهة الشمالية الشرقية ، خلال قرون مضت . وقد قامت ميـــاه السيول فاكتسحت تلك البقايا ، وتبعثرت بفعل الرياح ، ويعتقد ان السيول التي



يبدو في هذا الرسم زير مصنوع من الفخـــار
وجد في حائط احـــد المنازل الأثرية في الجـــار

اكتسحت هذا المكان كانت شديدة القوّة . ومن الجائز أن تكون نتجت من آثار انشقاق سدٍّ في وادي بَدْر . فكانت النتيجة أن هُجر المكان كُلّيّاً، متى حدث هذا ؟ لا أحد يعلم .

ان إجراء تنقيب دقيقها في المنطقة وفي قاع البحر المجاور لها قد يُمكّن بدون شكٍّ من اكتشاف مكان صناعة الزجاج في الجزيرة العربية ، في أشكال جميلة .

ملحوظة : لقد تم تحديد تواريخ صناعة ذلك الزجاج بمعرفة الأستاذ لِنْزن ، المكلف بالتنقيب في الهور ، في العراق ، وذلك بواسطة الآنسة كايزر . انتهى التقرير

ويلاحظ على هذا التقرير أن ذكر الجار ورد عن كثير من المتقدمين قبل عرام بن أصْبغ السلمي الذي هو من أهل القرن الثالث ، كما سيأتي ذكر ذلك فيما بعد .

أما عن الشعيبة، فقد أبرز لي الأستاذ العبيدي نسخة من (خريطة جغرافية للوحة الحجاز الجنوبي – أبحاث جيولوجية مختلفة رقم B ٢٠١ - I – وقد وضع فيها اسم الشعيبة بقرب الخط ٥٩َ /٢٠° على الشاطىء في جون من البحر يقع في الشمال الغربي من جبل شِدّاد ، وعلى الشمال من موضع كتب اسمه في تلك الخريطة (مستابة Mastàbah) ويقول الأستاذ العبيدي أن صواب الاسم (المصطبة) وأنه يقع شمالاً عن موضعه الذي رسم فيه في الخريطة ، وأن موقعه ينبغي أن يكتب فيه (الشعيبة المقفلة، إذ اسم الشعيبة يطلق على موضعين على الشاطىء أحدهما هذا الموضع والآخر غربه في داخل الجون، ويدعى الشعيبة المفتوحة، ويعلل التسمية بأن جون الجنوبية يوشك أن يكون المدخل اليه مقفلاً ، بخلاف الشمالية ، ويقول الاستاذ العبيدي إنّ المسافة بين الشعيبة وبين جدة تبلغ ثمانين كيلا .

والواقع أن هذا المكان الذي أرشدني اليه الأستاذ العبيدي تنطبق عليه أوصاف متقدمي العلماء من حيث المسافة بينه وبين جدة . ويضيف الأخ العبيدي بأن المرء عندما يكون في هذا المكان يشاهد من بُعْدٍ اضواء مكة الواقعة في الشمال الشرقي منه ، حيث تقل الجبال فيما بين مكة والشعيبة وقد رأيت الأستاذ العبيدي أصلح بعض أسماء تلك الخريطة ، فاستعرتها منه وقابلت الخريطة التي لدي بها وأصلحت فيها من الأسماء ما أصلحه ، مما أرى في ذكره هنا فائدة للقراء ، واعترافاً بالفضل لصاحبه ، وتعبيراً عن تقديري وشكري للأستاذ العبيدي ، فمن تلك الأسماء التي أصلحها :

١ - جبل كِشْران الواقع في الشمال الغربي من ميناء الليث في داخل البحر ، فقد كتب (قشران) فصححه الأستاذ العبيدي (كِشْران) بالكاف .

٢ - شامة: وضع في الخريطة في شمال بئر مجيرمة بقرب البحر : (حرَّة شما) فأصلح الأستاذ هذا (شامة) ، ووضع في شرقه بميل نحو الشمال عند طرف وادٍ وضع اسمه (وادي الدم) وراءه (إدام) ووضع الأستاذ : (جبل طفيل) شرق شامة بقربه .

لقد خرجت من عند الأستاذ العبيدى وأنا مطمئن إلى صحة ما ذكر ، ولكنني أردت أن أشاهد الموقعين فكان أن استأجرت سيارة صغيرة، وذهبت في صباح يوم الاربعاء متجهاً إلى موقع الشعيبة ، وكان الطريق في أول الأمر سهلاً - وإن كان غير معبد لكثرة سير السيارات فيه - ولكن بعد مجاوزة ما يقرب من ٤٠ كيلاً انشعب الطريق،وسائق السيارة كان خدعني حيث أكّد لي معرفته به ، غير انه أخذ طريقاً حرفنا بعيداً عن الساحل مشرقين حتى وقعنا في طريق وعث كثير الرمال فانغرزت عجلات السيارة ، ولم نستطع إخراجها إلا بعد جهد جهيد ، ثم عدنا أدراجنا ، وواصلنا السير مع الطريق الثاني ، وبعد أن أقبلنا على خور من البحر توقف السائق وقال : اننا نخشى مواصلة السير لئلا نقع في سبخة أمامنا تهوي فيها عجلات السيارة ولا

نستطيع إخراجها ، وها هو المكان المسمى الشعيبة أمامنا ، والاتفاق بيني وبينك قد انتهى بإيصالك إلى هذا المكان ، وأنا ليس معي أوراق السيارة وأخشى من جنود خفر السواحل ، الذين لهم مركز في نهاية هذا الخور .

كنا قطعنا من جدة إلى هذا الموضع ١١٣ كيلاً ، لأننا – كما أسلفت – انحرفنا كثيراً عن الطريق القصد، لهذا اضطررت إلى العودة ، بعد أن تحملت من عناء السير وتعبه الكثير .

إن ما جاء عن المتقدمين في تحديد موقع الشعيبة ينطبق على هذا الموضع الذي حدده الأخ الأستاذ حمد العبيدي كما ذكرت آنفاً ، ومع أننا لا نجد في المؤلفات التي بين أيدينا إيضاحات وافية عن الشعيبة، إلا أنها ذكرت بأنها كانت في القديم ميناء مكة ، فقد روى الأزرقي في «أخبار مكة»[١] أن سفينة للروم أقبلت حتى إذا كانت بالشعيبة وهي يومئذ ساحل مكة قبل جدة، فانكسرت فسمعت بها قريش ، فركبوا اليها وأخذوا خشبها .

ويكاد يجمع مؤرخو مكة على أن الخليفة عثمان هو أول من صرف ميناء مكة إلى جدة ، ومعروف أن جدة ميناءً مشهوراً في العهد الجاهلي ، ولعل الخليفة رأى توسطها وقربها من قاعدة الخلافة وهي المدينة ، وصلاح موقعها ، فكان اختياراً موفقاً، ومن ثم بدأ شأن الشعيبة يضعف ولكنها استمرت ميناء للسفن الواردة من اليمن ، ومن بلاد الحبشة ، فالإدريسي وهو من أهل القرن السادس (٤٩٣ – ٥٦٠) يصف الشعيبة بأنها قرية عامرة ، وبها مستراح للمراكب ، ومنها إلى جدة على الساحل ثلاث مراحل، وهي فرضة لأهل مكة وبينها أربعون ميلاً .[٢]

(١) ج ١ ص ٩٩ و ١٠١ – الطبعة الأولى .
(٢) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ـ مخطوط ـ .

وياقوت وهو من أهل القرن السابع يقول بعد أن أورد قول كثير :

كأن حمولها بملا تريمٍ   سفين بالشعيبة ما تسير

وفي حديث بناء الكعبة – عن وهب بن منبّه – أن سفينة حجَتْها الريح الى الشعيبة ، وهو مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز ، وهو كان مرفأ مكة ، ومرسى سفنها قبل جدة ، ومعنى حجتها الريح – أي دفعتها – فاستعانت قريش في تجديد عمارة الكعبة بخشب تلك السفينة ، وقال ابن السكيت : الشعيبة قرية على طريق اليمن .

ونجد نصاً صريحاً يوضح لنا موقع الشعيبة ، وأنها في هذه الجهة ، ذلك ما جاء في « رسالة عمارة العينين ، عين حُنين وعين نعمان » للقاضي حنيف الدين محمد بن عبد الرحمن المرشدي وهو : فائدة ذكرها الشيخ علي السنجاري في تاريخه أن أول من جعل جدة ساحل [مكة] أمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفان (رض) وهي رواية الأزرقي أنه قال : لما وصل سيدنا عثمان إلى مكة سأله أهل مكة أن ينقل ساحل السعدية[1] إلى جدة ، لقربها منهم ، فخرج بنفسه إلى جدة ، ورآها واغتسل من البحر ، وأمر بالغسل من كان معه، وقال : إنه مبارك. وأمر بنقل البندر إليها[2] انتهى .

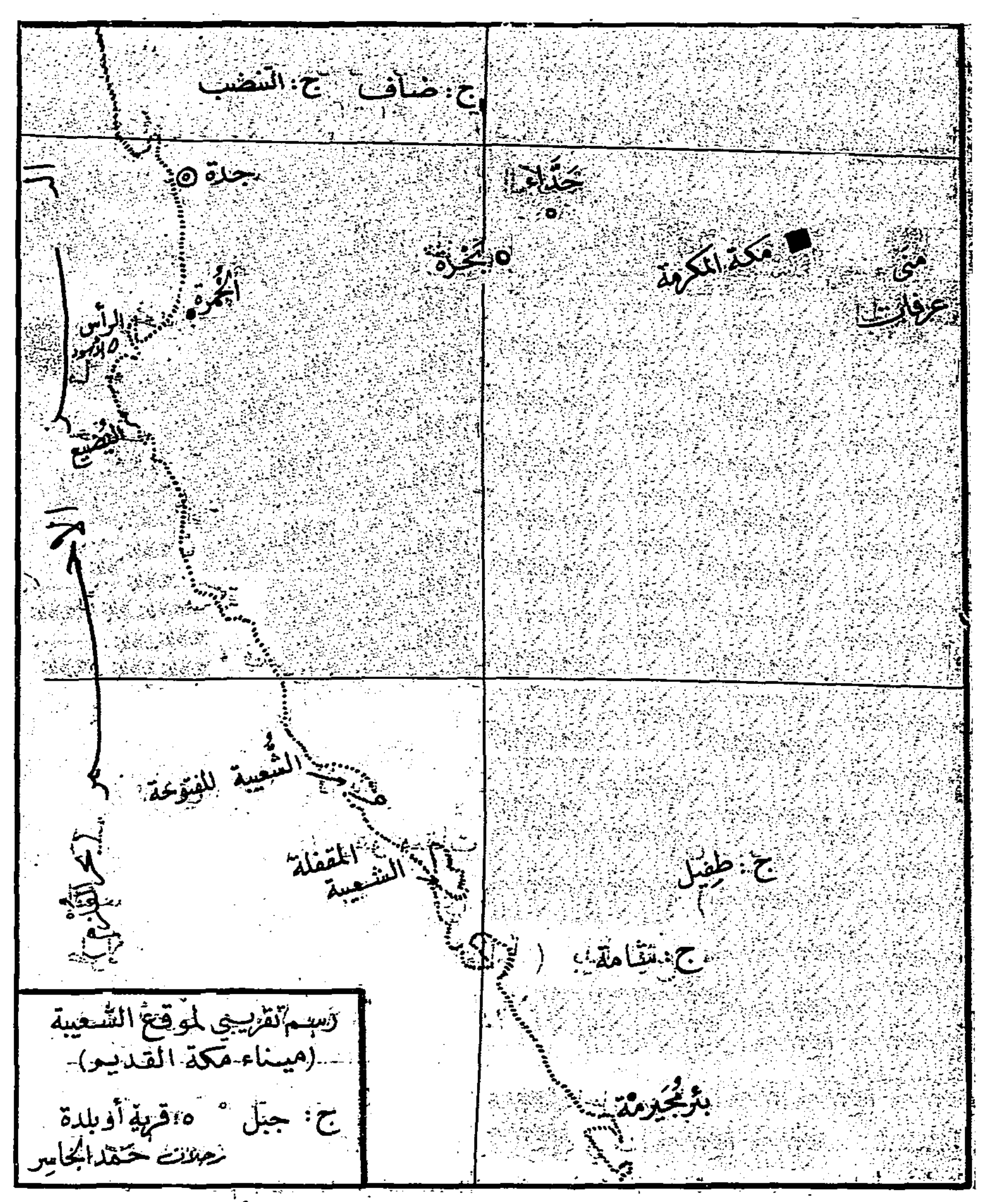
ووادي السعدية لا يزال معروفاً ، وهو أعلى وادي (يلملم) ويسمى : (ألملم) و (لَمْلم) وهو ميقات إحرام أهل اليمن ، ويقع – بالنسبة لموقع الشعيبة في الجنوب الشرقي – أي شرق بئر مجيرمة (بقرب الدرجة ٣٢َ / ٢٠° طولاً شرقياً و٤٥ / ٣٩ عرضاً شمالياً) بينما يقع موقع الشعيبة ٢٨َ / ٢٠° طولاً شرقياً و ٢٨ / ٣٩ ع ش . وبالإجمال ، فقد تبين موقع الشعيبة وإن

---

(١) في « تاريخ مكة » للقطبي : أن يحول الساحل من الشعيبة ـ وهو ساحل مكة قديماً ـ إلى ساحلها اليوم ـ وهو جدة ـ لقربها .. وكان ذلك في سنة ٢٦ هـ.

(٢) ص ٤٩ ، مخطوطة « الخزانة الأحمدية » في تونس ـ رقم ١٦٢٢٩ ولم أجد النص في تاريخ مكة للأزرقي المطبوع .

درست معالمها البارزة ، غير انها تزال تستعمل ميناء لبعض السفن الصغيرة من صيادي الأسماك ، وغيرهم .



مخطط تقريبي يوضح موقع الشعيبة بالنسبة الى بعض الأمكنة المعروفة

وفي يوم الخميس (١٣٩٠/٣/٢ هـ ١٩٧٠/٥/٧) اتجهت إلى المدينة بالسيارة؛ فأقمت فيها ذلك اليوم ، وفي يوم الجمعة قمت بزيارة الأستاذ الأخ الشيخ محمد الحافظ أحد علماء المدينة وأدبائها وقضاتها ، وكان يسكن دارة جميلة مطلة على العقيق ، في أطراف منازل آل الزبير المشهورة هناك وبقرب بئر عروة المشهورة التي يقول فيها السري بن عبد الرحمن الأنصاري :

كفنوني إن مت في دِرْع أرْوَى
واغسلوني من بئر عروة مـــاء
سخنة في الشتاء ، باردة في الصيف ، سراج في الليلة الظلماء

ويقول فيها الزبير بن بكار عالم قريش : (كان من يخرج من مكة وغيرها إذا مر بالعقيق تزود من ماء بئر عروة وكانوا يهدونه إلى أهاليهم ، ويشربونه في منازلهم ، قال الزبير : ورأيت أبي يأمر به فيغلي ، ثم يجعله في القوارير ، ويهدونه إلى الرشيد وهو بالرقة)[١] .

ومع أن هذه هي المرة الأولى التي أجتمع فيها بالأستاذ الحافظ إلا أنني وجدت من سجاحة خلقه ، وطيب نفسه ، وسماحته وكرمه ، ما لم أجده في كثير من اخواني الذين طالت صحبتي لهم ، وكنت زرته أنا وأخي الأستاذ محمد المنصور التركي ، الذي أوضح لي ضرورة الحصول على كتاب الأمير بدر، لكي يسهل لي طريق الوصول إلى الجار ، وقد أيد الأستاذ الحافظ هـــذا الرأي ، ووعدني بأن يتصل بوكيل أمير المدينة لهذه الغاية ، وعرض علي القيام بزيارة عالم المدينة وأديبها وشاعرها الأستاذ السيد عبيد المدني ، فقمنا معاً بتلك الزيارة بعد المغرب ، فوجدنا من لطفه وسعة علمه ما كنا نتوقع ،

---

(١) « المغانم المطابة » ص ٤٣ و ٤٤ .

بل فوق ذلك، واجتمت بأخيه الأستاذ الكريم السيد أمين المدني من مشاهير أدباء المدينة ، وكتابها ، ومؤلف كتاب « العرب في أحقاب التاريخ » الذي صدر جزؤه الأول عن « التاريخ العربي وبدايته » قبل خمس سنوات ، وجرت أحاديث شيِّقة حول تاريخ المدينة ، وأيد السيد عبيد المدني القول بأن البريكة هي الجار قديماً ، كما أيد ذلك الأستاذ الحافظ الذي زار المكان، ولفت نظري الأستاذ السيد عبيد إلى أن الجار كان معروفاً ، وكان ميناء للمدينة إلى قرب منتصف القرن الخامس الهجري ، كما جاء في كتاب « سفرنامة »[1] لناصر خسرو .

وفي الساعة الثالثة من صباح السبت مررت بالأستاذ الحافظ في المحكمة ، فرأى أن أرافقه للسلام على الأمير أو وكيله، ولكي نطلب كتاباً لأمير بدر، فكان ذلك، ووجدت من لطف وكيل الامارة الأستاذ سعد الناصر السديري ما لا أنساه ، وكتب لأمير بدر كتاباً أمره بأن يسهل لي مهمتي ، وأن يقدم لي كل مساعدة أطلبها .

ولقد كانت إقامتي في طيبة الطيبة على قصرها ذات فائدة كبيرة حقاً ، فقد استفدت من الأستاذ الحافظ أشياء كثيرة ، فكان مما سجلت من إفاداته :

١ — وادي نقمَى الوارد فيخبر غزوة الأحزاب أن غطفان خيمت فيه ، لا يزال معروفاً ، ولكن البدو يسمونه النقمي ، بكسر الميم لا بفتحها كما جاء في بعض الكتب القديمة وهم يعرفونه ، وهو واد يقع شمال مطار المدينة بعد أن يسير المرء في طريق خيبر ، ويقطع منه ما يقارب ٢٠ كيلاً ، فإنه يجزع الوادي الممتد من الشمال إلى الغرب خلف أحد ، بما يقارب ٣ أميال ، وهذا الوادي يصب في الغابة ، وبقرب مصبه فقر عينين تدعى أحدهما عين الزبير ، والأخرى عين مهلهل ، وفي هذا الوادي بطرفه من جهة الغابة بستان لوكيل أمير المدينة الأستاذ سعد الناصر السديري .

---

(١) ص ١١٠ ـ الطبعة الثانية (الترجمة العربية) .

٢ – بئر السائب الواردة في المؤلفات المتعلقة بالمدينة تعرف الآن باسم بئر السايبية بجوار جبل شباع ، قرب وادي الشقرة .

٣ - خَلْص جبل أحمر كبير متصل بورقان من جهة القبلة يفصل بينهما ثنيان: ثنية وكوبة ، وثنية الغاير ، وسيل هذا الجبل يتجه مع وادي ملحة، ووادي صورَى – بفتح الصاد والواو والراء – وهذا من أكبر روافد العقيق ويصب في النقيع وسكانه الآن بطن من قبيلة عوف من حرب يدعون التراجمة، وكان قديماً لبني حسين الذين دخلوا في عوف .

٤ – ويطلق اسم خلص أيضاً على جبل كان فيـــه محطة في المنصرف (المعروف الآن باسم المسيجيد) يصب في وادي الجيّ الذي يفضي إلى وادي الصفراء ، وسكان خلص هذا المحاميد من بني سالم من حرب .

٥ – حَوْرَة واد لا يزال معروفاً ، ولكنه يسمى الآن حارة ، على طريقة إبدال أهل البادية الواو ألفا ، وبجواره واد يسمى حويرة ، وهما بجهة الجفر ، ويمتد طريق حورة من الفريش (فرش ملل قديماً) .

وقد قمت بزيارة لبعض المكتبات في المدينة ، وطالعت بعض المخطوطات منها:

١ – « كتاب الشرف الأعلى في قبور مقبرة المعلى » لجمال الدين محمد بن علي بن محمد الشيبي القرشي ، وهو موجود في مكتبة عارف حكمت برقم ١٢٩ (٤٢٣) ويقع هـذا الكتاب في ١٠٠ صفحة في الصفحة ٢١ سطراً (مقاس ٢١ × ١٤ سم) وجاء في مقدمة هذا الكتاب : (خطر لي أن أكتب في هذه الأوراق بعض ما قرأته في القبور التي بمقبرة مكة المشرفة المسماة بالمعلى وما قدرت عليه) . قدم الكتاب بذكر فوائد تتعلق بالموت من لغوية وفقهية وغيرها ، وآخر الكتاب : (ومنها حجر عليه بعد البسملة والصلاة على النبي ﷺ وبعد قوله تعالى : (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله) الآية ما صورته : (هذا قبر العبد الفقير الى الله تعالى السعيد الشهيد محمد بن عبد

الملك بن محمد بن محمد المعروف بالمقدم ، توفي بمنَى يوم الخميس الحادي عشر من ذي الحجة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة — رحمه الله — وجميع المسلمين آمين . وعلى جوانب الحجر قوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله — الى قوله تعالى — أجر عظيم) . انتهى ذلك . هذا آخر ما وجد في هذا الكتاب بخط جامعه العبد الفقير الى الله تعالى محمـــد بن علي القرشي العبدري الشيبي الشافعي رحمه الله تعالى وجميع المسلمين ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وكان الفراغ منه بعد يوم الأحد لخمس خلت من ربيع الثاني ١٢٣٧ على يد كاتبه أحمد الأزهري .

وهذا الكتاب طريف في موضوعه ، فقد حاول تسجيل كتابات مقابر المعلاة ، فسجل قدراً منها يفيد في معرفة تراجم من دفنوا فيها .

٢ — « تاريخ البقاعي » ورقمه في مكتبة عارف حكمت ٤٣ جاء في مقدمته) وبعد : فهذا تاريخ تلوت به تاريخ شيخنا شيخ الإسلام، أبي الفضل ابن حجر بعد مماته) ويحوي تاريخ ١٥ سنة من حوادث سنة ٨٥٥ إلى نهاية حوادث سنة ٨٦٩ ويقع في ٧٧٢ صفحة ، مقاس (٢٨ × ١٩ سم) في الصفحة ٣٢ سطر وأقل ، وحواشي الصفحات مملوءة بالكتابة وملصق فيها ورقات مكتوب فيها استدراكات وزيادات، وهذا الكتاب هو مسودة المؤلف بخطه ؛ كتب في سلخ ٨٧٠ .

٣ — كتاب « سوق الفاضل لعمر بن عبد العزيز بن العديم حفيد ابن العديم مؤرخ حلب المعروف، قال في مقدمته : (فأحببت أن أجمع مناقبه الفاضلية ومآثره في فنون اليراعات الأدبية) . يعني القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني وقال عنه : (وأثبت فضله في تاريخه المنتخب الجد كمال الدين العديم) : وهذا الكتاب في مجلد ضخم رقمه في مكتبة عارف حكمت ١١٨ (٤١٠) وهو مسودة المؤلف ، وفي أسفل بعض الورق تآكل ذهب بقسم من الكتابة ؛ وهو ينقل في كتابه هذا عن الصفدي، وابن العديم والعماد الأصفهاني وغيرهم، ويكثر

النقل عن ابن العديم ، وهو جده ، مجد الدين ابن الصاحب كمال الدين وعندما ذكر المعري قال : (ولا بد من إيراد شيء من نظم أبي العلاء وقد رمي بأمور منكرة ، ولكن رأيت جدي الصاحب كمال الدين ابن العديم ألف كتاباً سماه « العدل والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري رد فيه على من رماه بتلك الأمور وقال فيه بعد الحمدلة). ثم أورد الكتاب. والكتاب يجمع طائفة كبيرة من الأخبار والتراجم والأشعار ، ويؤرخ علماء ومشاهير متأخرين ، فقد ذكر الحافظ بن حجر ، وأورد طائفة من مختار شعره ، وذكر وفاته سنة ٨٣٧ ، كما ذكر وفاة علاء الدين سودون في دمشق سنة ٨٦٨ ، بل ذكر وفاة أحدهم سنة ٨٧٣ ، وكأنه يورد تراجم من تأثروا بطريقة القاضي الفاضل .

٤ - ومما طالعته في مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمة كتاب « ذكر المسافات وصور الأقاليم » - كما رسم في طرته بخط حديث ، ونسب لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي ، وإن كانت النسبة والاسم محل شكٍّ لحداثة خطها . وقد كتب بالخط نفسه في طرة الكتاب : (جال المؤلف في الشرق الأقصى من سنة ٨٥١ إلى سنة ٨٨٥ م . وقد ألفه بتاريخ ١٠٩ هـ ، الموافق ٨٩١ م) وهذا الكلام غير صحيح فأبو زيد ولد سنة ٢٣٥ هـ (٨٤٩ م) وتوفي سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٤ م) وبعد ذلك الكلام أعرق منه في الخطأ وهو : (نقل من ظهر الورقة الملصقة عليها : ميراثا من خزانة أمير المؤمنين المهدي العباسي إلى حفيده المأمون) ومعروف أن المهدي توفي سنة ١٦٩ هـ - أي قبل ولادة أبي زيد بـ ٦٦ سنة والمأمون تولى الخلافة (١٩٨ - ٢١٨) .

ولا شك أن هذه الكتابات وضعت لتظهر الكتاب بما يرغّب فيه ، وهكذا كان يفعل بعض الوراقين .

رقم الكتاب ٣ (جغرافيا) وصفحاته ٤٤٨ (مقاس ٣٠ × ٢٠ س م) في الصفحة ٢٢ سطرا ، وصوره واضحة ، وميزت الأمكنة بالألوان المختلفة من أحمر وأزرق وأسود وغيرها ، وميّز بهذه الألوان بين مواقع البحار والجبال ،

والأنهار ، والكتابة يظهر عليها أثر القدم – باستثناء ما فوق الطرة – .

وهذا أول الكتاب بعد البسملة : (الحمد لله مبدي النعم وولي الحمد ، وصلى الله على محمد سيد المرسلين ، وآله الطيبين الطاهرين أجمعين ، أما بعد فإني ذكرت في كتابي هـــذا أقاليم الأرض على الممالك ، وقصدت منها بلاد الإسلام بتفصيل مدنها ، وتقسيم ما يفرد بالأعمال المجموعة إليها ، ولم أقصد الأقاليم السبعة التي عليها قسمة الأرض ، بل جعلت كل قطعة أفردتها مفردة بصورة تحكي موضع ذلك الإقليم ، ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن ، وما في أضعافه من المدن والبقاع المشهورة) وكان مما نقلته من هذا الكتاب [1] :

(وودّان هذه من الجحفة على مرحلة ، وبينها وبين الأبواء التي على طريق الحج في غربيها ستة أميال ، وبها كان في أيام مقامي رئيس الجعفريين – أعني جعفر بن أبي طالب – ولهم بالفرع والسايرة ضياع كثرة وعشيرة ، واتباع ، وبينهم وبين الحسنيين حروب ودماء ، حتى استولت طائفة من اليمن يعرفون ببني حَربٍ على ضياعهم فصاروا حَربا لهم فضعفوا ..

ولا أعلم فيما بين العراق والشام واليمن مكاناً إلا وهي في ديار طائفة من العرب ينتجعونه في مراعيهم ومياههم ، إلا ان يكون بين اليمامة والبحرين ، وبين عمَان من وراء عبد القيس ، برية خالية من الآبار والسكان والمراعي ، مقفرة لا تسلك ولا تسكن .

واما بين القادسية إلى الشقوق في الطول والعرض من قرب السماوة إلى حد بادية البصرة فسكانها قبائـــل من بني أسد ، فإذا أخذت على الشقوق فأنت في ديار طيّ إلى أن تجاوز معدن النقرة في الطول ، والعرض من وراء جبلي طيّ محاذياً لوادي القرى إلى أن تتصل بحدود نجـد من اليمامة والبحرين ، ثم إذا جزت المعدن من يسار المدينة فأنت في سليم ، وإذا جزته عن يمين المدينة

(١) « الورقة السادسة » .

فأنت في جهينة فيما بين مكة والمدينة، وبه بكر بن وايل في قبايل من مضر من الحسنيين والجعفريين وقبايل من مضر . وأما بنواحي مكة فإن الغالب على نواحيها مما يلي المشرق بنو هلال وبنو سعد في قبايل من هذيل ، وفي غربيها مذحج [1] وغيرها من قبايل مضر. فأما بادية البصرة فإنها أكثر هذه النواحي أحياء وقبايل ، وأكثرها تميم ، حتى لضعفوا [2] بالبحرين واليمامـــة ، ثم من ورائهم عبد القيس .

وأما بادية الجزيرة فان بها أحياء من ربيعة واليمن واكثرها كلب من اليمن وفي قبيلة منهم يعرفون ببني الغليط[3] خرج صاحب الشام الذي فلّ جيوش مصر وأوقع بأهل الشام ، حتى قصده المكتفى الى الرقة بنفسه ، وأخذه . وبادية السماوة من دومة الجندل إلى عين التمر وبَرية خساف من بادية الجزيرة وبرية خساف فيما بين الرقة وبالس عن يسار الذاهب الى الشام (....)

وأما بادية الشام فانها دار لفزارة ولخم وجذام وقبائل مختلطة من اليمن وربيعة ومضر واكثرها يمن) انتهى. وكل هذا الكلام -بما فيه مقدمة الكتاب- موجود في كتاب «مسالك الممالك» المنسوب للاصطخري ابراهيم بن محمد الفارسي الكرخي، ومنه صححت كثيراً من عباراته جاءت محرفة، وقد حذفت بعضها. وهي أيضاً في كتاب « صورة الارض » المنسوب لمحمد بن حوقل البغدادي .

ولكنّ جملة (وبها كان في أيام مقامي) الخ ليست في هذا الكتاب الاخير، ولا شك أن لأبي زيد البلخي كتاباً عن « صور الأقالــيم » كما ذكر ذلك مترجموه ، وأن من جاء بعده كالاصطخري وابن حوقل وغيرهما عولوا على ذلك الكتاب ، فهل هو هذا المخطوط الموجود في مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمة في المدينة ؟ لا يصح الجزم بهذا إلا إذا اعتبرنا نسبة كتاب «المسالك

(١) عند الاصطخري : مدلج وهو الصواب .
(٢) عند الاصطخري يتصلوا وهو الصواب .
(٣) العليص عند الاصطخري وهو الصواب .

والممالك » للاصطخري غير صحيحة ذلك أنني اعتقد أن هذه المخطوطة هي احدى مخطوطات ما دعى بكتاب« المسالك والممالك » ونسب للاصطخري.

٥ - ورأيت فهرس مكتبة عارف حكمة اسم كتاب « منازل الحج من الشام إلى مكة » رقمه ٢٨٦ ولما اطلعت عليه وجدته باللغة التركية وقد كتب في طرته بعد اسمه:(ترجمة كتاب منازل الحج، سنة ٩٧١ لأمير الامراء ظهير الوزراء مصطفى باشا ، المترجم : حسين بن مُلاّ شمس). ويقع الكتاب في ١٤٤ صفحة (مقاس ٢٣ × ١٥ سم) في الصفحة ١٧ سطرا ، بالخط النسخي الجميل والصفحات محاطة بجداول مذهبة ، ومع حسن الخط وجمال الصفحات فإن الاسماء العربية محرفة تحريفاً شنيعاً ، وقد رأيت ألاّ أخرج منه بدون فائدة فكان أن نقلت أسماء المواضع لأنها مكتوبة باللغة العربية ومعرفة منازل الحج ومراحله تفيد الباحثين في جغرافية بلادنا . ومع أن عنوان الكتاب عن منازل الحج من الشام إلى مكة إلا أنه ذكر منازل طريقي مصر واليمن وبين المدينة إلى مكة ، ولا شك أن الكتاب مترجم من العربية إلى التركية ولكن لم يذكر فيه اسم الكتاب المترجم ، ولا مؤلفه ، وها هي اسماء المواضع التي نقلتها على عِلاتها وعِللها :

١ - طريق الشام الى مكة

مقطر - شقة الحايك - خان أم علي - جب الكلب - أعوج - خان ذي النون - مقيلبه- وعرة الجاموس - كتف المصري - رمضان - غباغب - وعرة غبغب - ام برج - صنمين - اجنادين - قنّينة - كتيّبة - سنان آغا - محجة وتبنه وزرع - شمسكين (قرية) - مزيريب - بو منزلده - فوّار - مزيريب - اذرعات - مفرق - عقبة جب - خربة السوداء - شارع زرقادره - قصر شبيب - عمّان - بلاطه - بلقا - خان قياد - سواقه - خان قطراني - عُسَيْكر - حسا - خان عنزة - معان - وادي

المسوحين - ادرج - وادي موسى وشرا - بيوك عقبه - حالات عمار - طبيليات - ذات الحج - حما - مغطيه - شريطي - قايم البسيطه - تبوك - وادي الأثل - مغاير القلندرية - عقبة الأخيضر - بركة حيدر - وادي الأسد - بركة المعظم - أبو حبيب - بركة العلا - مفارش الرز - جبل الأقيرع - الزلاقات - شق العجوز - جبل الطارق - جبل الغارب - مبرك الناقة - جبل اليتم - أبيار حِجْر - العُلا - سهل المطران - مغاير الزمرد شعب النعام - الحمرة - شعب الحية - جبل أحمر - هدية - مبرك الناقة - خيبر - العقبة السوداء - الفحلتين - سد علي - اندندخي ؟ - بترة - جبل الأقرع - وادي العقيق - جبل أحد - أبيار حمزة - أحد - المدينة المنورة .

٢ - طريق مصر الى مكة :

البويب - أرض حمرا - عجرود - منصرف - وادي (بياض)- خروبه - تيه بني إسرائيل- نخل - وادي القريص - ابيار علايايه- جبال حالومه - عقبة سطحنه - دوارمق - ظهور الحمار- عش الغراب - شرفة بني عطية - قبور شفاف - مغاير شعيب - قبر الطواشي - عيون القصب - المويلح - جبل الاشبافه - طبيق - دار السلطان - سيدي مرزوق الكفافي - شق العجوز - خلده دامه - أزلم- سماء الدخاخين - اسطبل عنتره -الوجه - بين النهرين - مفارش النعام - أكره - بساتين القاضي- الخنك - العقبة السوداء - الحورا - وادي العقيق - مغاير نبط - وادي النار - طراطير الراعي - الحفيرة - السبع وعرات - دارين البقر - جبل الزينة - ينبع السفلى - ينبع العليا - الدهنا - واسط- أبرقين -بدروحنين - رمل عالج - قاع البزوا - كليّة - رابغ - الجحفة .

٣ – طريق اليمن الى مكة

شيرلم (من أعمــال زبيد) – بيت الفقيه – المنصورية – زيدية – بيت الفقيرابن خشيولدر ؟– بلور – بيت عكا – خيران – قاهرة – غالية – ابي عريش – صبيــا – تعشر – عتود – شقيق - حشحاس – (بياض) – ذهبان – نقب – لوى – بر كه – عنق – شفقة – حليه – قنونة – عنيق وسانيه – حسبة– دوقة–الشاقة – الليث - خصب - ظهويرية ؟–السعدية– امدام ؟ – البيضا – بركة الماجد .

٤ – الطريق بين مكة والمدينة

بيار علي – جبل مفرح – عريش – قبور الشهداء –أرض الروحا – بركة طاز – بيرذات العلمين - خيف الجديدة – وادي الصفرا – بدرو حنين – مسجد التام – الروضة – رمل عالج– قاع البزوه - جبل صبح – القرود – ودان – جرينـات – الجحفة – طارف قديد – عقبة السويق– خليص – دبية – مدرج علي – بئر عسفان – قلعة بن عنيبر– جبل الطارق – المنحنى – أبو عروة – مسجد ميمونـة – مكة المشرفة .

٦ – وطالعت في مجموع رقمه ٧٩ في مكتبة عارف حكمت ، وهو بخط الشيخ حماد بن عبد الرحيم بن علاء الدين علي الماردیني التركماني الحنفي ، في الورقة الـ ٨٩ لصلاح الدين الصفدي في حد جزيرة العرب :

جزيرة هذه الأعراب حُدتْ ... بحدٍّ علمــه للحشر باقي
فأمــا الطول عند محققيه ... فمن عدن إلى ريف العراق
وساحل جدّةٍ إن سرت عرضاً ... لأطراف الشآم على اتفاق

ومع إن إقامتي في طيبة الطيبة كانت قصيرة إلا إني استفدت أشياء كثيرة، إذ أمضيت جـل الوقت متنقلاً بين مكتباتها باحثاً ومستفيداً .

في صباح يوم الأحد ١٣٩٠/٣/٥هـ — ١٩٧٠/٥/١٠ ، سرت من المدينة إلى بدر ، والمسافة بينهما تقرب من ١٥٠ كيلاً ، ماراً بوادي الصفراء ، وأول قراه تُدعى الخرماء، وقد وسمت في بعض المصورات الجغرافية خرمة[1] خطأ والخرماء هذه عين قديمة كانت لحكيم [2] بن نضلة الغفاري ، وهو من التابعين وأبوه نضلة من الصحابة ، ثم اشتريت من ولده ، وفي وادي الصفراء الخيف ويدعى خيف الحزامي أيضاً ، وفي هذا الخيف حدثت الوقعة المعروفة في سنة ١٢٢٦هـ بين عبد الله بن سعود ومعه أهل نجد والحجاز وبين العساكر التركية، وهي من أعنف الوقعات حيث قتل من تلك العساكر ما يقرب من أربعة آلاف رجل ومن عبدالله بن جيش سعود نحو ٦٠٠ رجل منهم هادي بن قرملة شيخ قحطان ، وقد فصل أخبار هذه الوقعة ابن بشر في كتابه « عنوان المجد » .

كنت خرجت من المدينة مبكراً ، فوصلت بلدة بدر بعد طلوع الشمس بقليل، وقصدت منزل الأمير محمد بن حسين الذي أحمل إليه كتاباً من وكيل أمير المدينة ، ولكنني وصلت في وقت لا يزال الناس فيه غير مستعدين لاستقبال زائريهم ، ولهذا فقد أطلت قرع الباب فلم أجب ، عندئذ استدرت خلف البيت ،فرأيت أحد إخواننا من المدرسين من غير أهل البلاد،وهو ثياب النوم (البيجامة) ينقل ماءً بقرب بيته ، فلما سألته عن منزل الأمير متجاهلاً معرفتي إياه أشار إليه ، فقلت : يظهر أن البيت غير مسكون ، فقال : بل هو مسكون ، ولكن ساكنيه في أقصاه ، إذهب إلى هذه النافذة وأشار إلى نافذة في البيت — فاقرعها وسيفتح لك ، فكان ذلك ، ووجدت عامل القهوة يتهيأ لإعدادها ففتح لي، وأدخلني المجلس، ولعله استغرب جرأتي ومظهري وبكوري ، فبعث إلى الأمير ابناً له صغيراً — ويظهر أنه أيقظه من نومه — فأتى وكان استقباله كريماً ، وخلقه سمحاً ، وبعد تقديم القهوة والشاهي والحليب أمر بإعداد طعام الإفطار ، فأخبرته بأنني (قد فككت

(١) « ابحاث جيولوجية مختلفة خريطة رقم B ٢١٠ - I »
(٢) أبو علي الهجري ص ٣٠٥ .

الريق) واكتفيت بأن شربت لبناً لذيذاً قدم لي فاكثرت منه ، ثم قدمت الكتاب للأمير،وبعد أن عرف مضمونه وعرفني أظهر لي استعداده لفعل كل ما أريد وأبدى سروره بقدمي،فأخبرته بأن الأمريقف عند حد بعث من يرافقني إلى الرايس والبريكة ، والكتابة إلى مأمور الرايس لكي يهيء لي ما أحتاج من عون ، فكان ذلك ، ولما رأى السيارة التي معي وكانت صغيرة ، قال : هذه لا تستطيع اجتياز ما سيعترض في الطريق من رمال ، ولا داعي لها ، وأمر صاحبها بأن يعود من حيث أتى ، وكنت نقدته الأجرة الكاملة عن يوم كامل ، ثم أمر الأمير بإحضار سيارة كبيرة ، وبكتابة كتاب إلى مأمور الرايس، وأمر من يرافقني بألاّ نقبل ضيافة ذلك المأمور، لأن الغداء سيكون في بدر .

سرنا بالطريق المبلط طريق جدة مسافة أربعة عشر كيلاً ، ثم عرجنا ذات اليمين متجهين صوب الغرب بميل نحو الجنوب ، وبعد مسير ١٥ كيلاً ، كان الوصول إلى الرايس ، أي أن المسافة بين بدر والرايس ٢٩ كيلاً ، وهذا الطريق ليس قصداً ، لأننا تركنا الطريق القصد يميننا، لأنه يمر ببطن الوادي، ويجزع كثيراً من منعطفاته ، وكلها مملوءة بالرمال .

استقبلنا المأمور وهو من عشيرة الحفاة من قبيلة عتيبة ، ومن سكان عسيلة البلدة المجاورة للقرية التي أنا منها ويدعى عبد الله الرقاص وهو يعرف أهل قريتنا ، ويعرفـني حق المعرفة ، ومن ثم كان استقباله لطيفاً حقاً ، حاول أن نبقى حتى نتناول طعام الغداء ، ولكن رفيقي أفهمه بأن الأمير قد هيأ غداءنا ، وأكد ضرورة رجوعنا قبل الغداء ، فاكتفى بأن قدم لنا ما يتسير تقديمه للزائر العجل ، وسار معنا فشاهدنا معالم القرية ، ولم نر أيّة آثار قديمة سوى آثار حواجز من رمال ومن صخور وضعت على جنبات الوادي وكأنها لحجز قسم من سيوله لإرواء بعض الأراضي المهيأة للزراعة، وهي على قدمها لا تدل على عمران قوي قديم في هذا المكان ، وأخبرنا بأن السفن ترسو بميناء الرايس وهو بعيد عن القرية فيما لو اضطرت للرسو عند رأس من البر داخل

في البحر مسافة تقارب كيلين ، ومع أن القرية مسكونة وفيها بويتات مفرقة مبنية ، وفيها قليل من الأشجار ، وبقربها مزارع صغيرة للبطيخ تزرع عثرياً، إلا أنها في الواقع كلها حديثة ، ولهذا رأينا أن نتجه إلى البريكة ، فركبنا في السيارة متجهين صوب الشمال ، وبعد مسيرة خمسة أكيال اعترضنا جون في البحر ممتد في البر فصرف سيرنا نحو الشرق ، وبعد انتهائه رجعنا صوب الغرب ، فوصلنا بناية صغيرة على الشاطىء بعد أن قطعنا من الرائس إليها ثمانية أكيال . هـــذه البناية مقر لجنود خفر السواحل ، وتقع على شاطىء البحر ، وهو شاطىء صخري عميق الغور ، كثير السمك ، ولكننا لم نشاهد عند هذه البناية من الآثار القديمة ما يلفت النظر، فسألنا أحد الجنود عن المكان الذي فيه آثار بلدة البريكة ، فأشار إلى مكان مرتفع يقع شمال هذا الموقع الذي نحن فيه ، ويفصل بينهما جون من البحر ممتد في البر بما يقرب من كيل ونصف ، وبعد أن درنا هذا الجون وصلنا إلى مكان القرية ، وهو مرتفع من الأرض يحفُّه البحر من جهتيه الغربية والشمالية ، حيث يبرز من هذه الجهة رأس من البحر ، ليس ذا غَورٍ عميق ، ولكنه – فيما يظهر – أزال قسما من مكان القرية ، كان يقع موقعه ، كما يظهر أن البلدة تمتد غرْباً في البحر ، حيث تبدو بعض أساسات البناء القديم قد غطتها المياه ، وكما يفهم من كلام بعض المتقدمين فإن البحر – في القديم – كان يحيط بالبلدة من جانب واحد، لا من جانبين ، كما هو مشاهد الآن .

إن أبرز الآثار الباقية من البلدة :

١ – أمكنة المساكن التي تميزها آثار أسس البناء .

٢ – أكوام من الرماد في عدد كثير من الأمكنة ، قد تكون مواقع أفرانٍ .

٣ – تكسو المكان كسر الزجاج والفخّار المختلفي الألوان .

٤ – تبدو في أطراف البحر المحيطـــة بالمكان بقايا أسس أبنية بالحجر

والنورة ، بقيت بارزة مع ارتطام الأمواج بها ، غير أن البحر بقرب المكان ليس عميقاً ولهذا فإن أمواجـــه هنا ليست قوية بحيث تجرف المكان ، وتزيل معالمه .

٥ – يقع بقرب المكان في ناحيته الشرقية آثار قناة ، وتلك أفواه حفر ضيقة ، بين كل حفرة وأخرى ما يقارب عشرة أمتار ، على امتداد صوب الشرق ، وقد لاحظ راسم الخريطة جزءاً من تلك الحفر (الخرز) فرسمها ، في الجنوب الغربي من بئر مخشوش (الموضوعة خطأ :مقشوش[1]) ولقد تتبعت تلك الحُفَر حتى وصلت إلى قرب مخشوش حيث تكثر الرمـــال هناك ، وتختفي الآثار ولا شك أن العين تبدأ من قرب بئر مخشوش، من بطن الوادي الذي هو أحد فروع وادي الصفراءفيما بينه وبين وادي الصفراء، وقد يكون لتلك العين روافد أخرى من وادي الصفراء الكبير الواقع في الجنوب من مخشوش.

إن الآثار المشاهدة في هذا المكان المعروف الآن باسم البُرَيكة تدل على وجود بلدة قديمة فيه ، ولم يذكر المتقدمون بلدة معروفة في هذه الجهة سوى بلدة الجار ، التي تكاد جميع أقوالهم تنصب على هذا الموضع عند وصفها .

بقيت ملاحظة لا بُدّ منها هي أن اسم الجار كان يطلق على الساحل كله، بل أطلق – في زمن من الأزمان على هذا البحر ، وورد في كلام ابن سعد – وسيأتي بنصه – تسمية الجار بساحل بولا ، وبولا (اونولا أو تولا) من عيون وادي ينبع القديمة ، ذكرهـــا الهجري والسمهودي [2] ولكنهم لم يضبطوا الاسم ، وإطلاق اسم ساحل بولا على الجار يدل على التوسّع في اسم الجار . غير أن مما يكاد الباحث يجزم به – بعد مشاهدة موقع البريكة – هو أن هذا هو موقع مدينة الجار القديمة ، وقد يكون للجار موانىء أخرى غـير ميناء البريكة ، مما يقع بقربه ، كما يفهم من كلام المتقدمين أن من بين السفن

(١) « ابحاث جيولوجية خريطة رقم B ٢١٠ - I »

(٢) : « ابو علي الهجري » ص ٣٩١ – « المغانم المطابة » « وفاء الوفـاء » ص ١٢٧١ الطبعة الثانية .

التي تقصده ما يتخذ من جزيرة قراف مَرْسى لها ، وجزيرة قراف قد زالت وابتلعها البحر ، ولم يبق سوى بعض الشعب من الصخور البحرية البارزة في البحر ، وهي تحدد موقع الجزيرة الممتدة من غرب موقع البريكة شمالاً ، إلى غرب ميناء الرايس جنوباً ، وهذا يحمل على القول بأنه ليس من المستبعد أن يكون الرايس من موانىء الجار ، لقربه من موقع جزيرة قراف ، ولصلاحه لرسوّ السفن، أما موقع مدينة الجار نفسها فهو موقع البريكة – كما قدّمنا – ولا أعرف متى أطلق عليه هذا الاسم (البريكة) ، ولكنه كان معروفاً في القرن الثالث عشر الهجري ، وكان هذا الميناء مستعملاً في ذلك الوقت .

يقول ابن بشر في حوادث سنة ١٢٢٦ هـ بعد ذكر وقعة الصفراء ، وانهزام العساكر المصرية والتركية : (وولّوا مدبرين ، وتركوا المدافع – وهي سبعة – والخيام والثقل والرحائل ، وكثيراً من السلاح ، وما في محلتهم من آلات الحرب والذخائر، ولا نجا منهم إلا أهل الخيل الذين أدبروا مع باشتهم ، ومات غالب خيولهم حفاً ، وظمأ ، حتى وصلوا إلى البريكة وركبوا منها في السفن إلى ينبع ، واستقروا فيه) .

اطمأننت إثر مشاهدتي للموقع بأنه موقع مدينة الجار ، واكتفيت بأن ملأت حقيقة يدوية من كسر الخزف والزجاج ، وقد عرض بواسطة الصديق الكريم الدكتور إحسان عباس على عالم أثري في قسم الآثار في الجامعة الأمريكية في بيروت ، فقرر أنه يرجع إلى العهد الأموي وما قبله .

سرت عائداً متتبعاً اتجاه القناة نحو الجنوب الشرقي ، تبين آثارها حيناً وتختفي حيناً آخر،حتى بلغت الفرع الأوسط من فروع وادي الصفراء،الواقع في أعلى فرع بئر مخشوش،وهناك اختفت الآثار في الرمال عندما قربنا من بئر مخشوش الواقعة على مسافة ١١ كيلا عن الرائس بسير غير قَصدٍ،بل متعرج ، بحثاً عن آثار العين .

ومخشوش من الأسماء التي لم تكن معروفة – فيما بين أيدينا من الكتب –

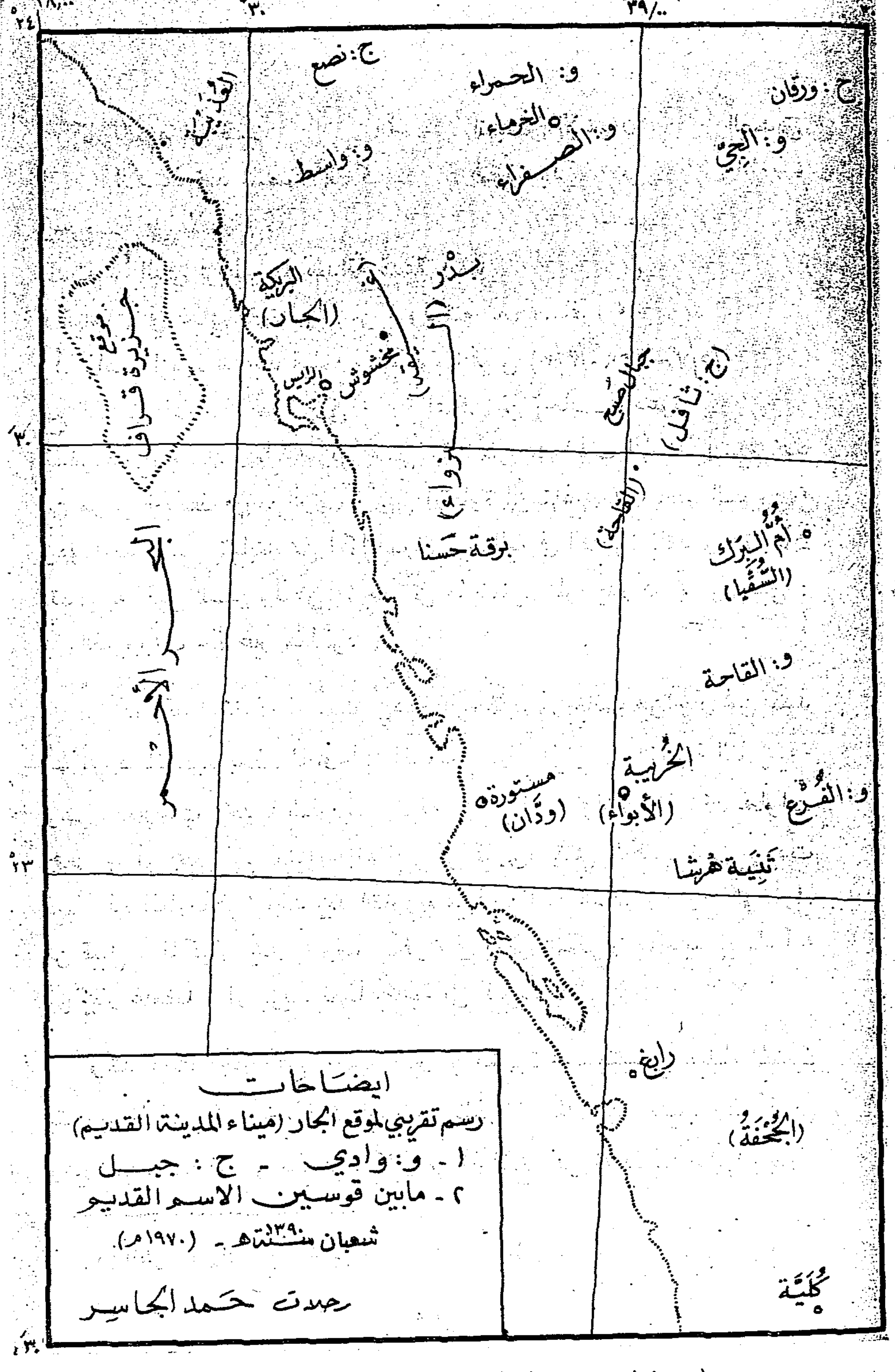
قبل القرن العاشر ، حيث ورد ذكره في رحلة قطب الدين النهروالي مؤرخ مكة وعالمها - كما سيأتي - ومن مخشوش كان الاتجاه إلى بَدر بالطريق القصد، باعتساف الرمال ، وجزْع ثنايا الوادي ومنعطفاته ، والمسافة بينهما ١٣ كيلاً، ولا يجتاز هذا الطريق إلا القوي العريض العجلات من السيارات .

إن المسافة بين الرايس وبين بدر هي ٢٩ كيلا بالطريق المعتاد و ٢٤ كيلا بطريق بطن وادي الصفراء وهي بين بدر والبريكة لا تبلغ الـ ٢٩ كيلا ، ولكن الرمال فيما بينها وبين بدر تتراكم وتزداد ، على مسافة عشرة أكيال شرقها ، بحيث يصعب اجتيازها بالسيارات .

وتقع البريكة بقرب ٣٠َ /٣٨° طولاً شرقيّاً و ٤٠َ /٢٣° عرضاً شمالياً - بينما يقع الرايس ٣٣َ / ٣٨° طولاً شرقياً و ٣٢َ / ٢٣° عرضاً شماليا .

لقد كان العود إلى بَدْرٍ في الظهيرة ، حيث كان الأمير محمد بن حسين - وهو من أهل القُويعية - قد هيأ غدَاء ملائماً لما يتصف به من كرم ، ولين جانب ، ودعا أعيان أهل البلدة ، فكان اجتماعاً ممتعاً استمر إلى ما بعد صلاة العصر ، حيث هيأ لي الأمير الكريم وسيلة العودة إلى المدينة .

ولقد كانت الرحلة إلى الجار - هذه - من أمتع الرحلات، فلقد أحسست بإحساس غريب بعث في نفسي كثيراً من المشاعر ، وخاصة عند مروري بهذه البلدة الكريمة التي أذكت في خاطري ذكريات عميقة عن أولى المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام ، إذكاءً دفعني إلى أن أفرد الحديث عنها بجزء خاصٍّ من رحلتي ، وليس ذلك بالأمر الكبير بالنسبة لبلدة وصفها الله في كتابه بأبلغ صفَةٍ ، فقال - جلّ ذكره - عن وقعتها - بأنها يوم الفرقان، أي يوم انتصار الحق على الباطل ، والعدل على الجور ، والكفر على الإيمان ، فما أجدر هذه البلدة الصغيرة في مظهرها ، الكبيرة بقدرها بأن تنال من العناية والاهتمام ما يلائم قدرها !!



(مخطط تقريبي لميناء الجار وما حوله من المواضع)

كان العود إلى طيبـــة الطيبة ، ومقابلة بعض الإخوان ومنهم الصديق الكريم الأستاذ محمد المنصور التركي ، الذي غمرني بالكثير من عطفه ولطفه ، وحرصت على الاجتماع بالأستاذ الصديق عبد العزيز ساب- مدير شركة كهرباء المدينة - الذي تربطني به صداقة قديمة ، حيث أشرف على إصدار صحيفتي « اليمامة » في غيابي فترة من الزمن ، ولكنه كان مسافراً ، فلم أره إلا لِماماً، وأنا ذاهب لزيارة مسجد قباء، مساءَ يوم الخميس (٢/٣/١٣٩٠- ٧/٥/١٩٧٠م) مع الصديق الأستاذ محمد التركي ، ولم أتمكن من إجابـــة دعوته لعزمي على السفر صباح يوم الأربعاء ، ولن أنسى ما شملني من لطف الأستاذ الشيخ محمد ابن موسى الحافظ ، ومن لطف وكيل الإمارة الأستاذ سعد الناصر السديري، وهو أحد مثقفي شبابنا ممن أكمل دراسته العالية في القاهرة فلقد وعدته بأن اتصل به قبل السفر ولكن (ما كل ما يتمنى المرء يدركه) وكما قيل : (وللضرورات حكم غير مُطـَّرد) .

والآن وقد استغرق الحديث في هذه الرحلة أوفى جانب عن الجار فمن المفيد أن أورد للقارىء بعض المعلومات المتعلقة . بهذا الميناء من الناحية التاريخية، وهي معلومات يجدها القاريء مفرقة في مختلف المؤلفات ، وقد حاولت جمعها - أو جمع المهم منها - إذ ليس كل قارىء يقتني الكتب الـتي وردت فيها هذه المعلومات ، وقد يجد القاريء فيها شيئاً من التكرار، ولكنني أراه من قبيل (المكرَّرُ يحلو) وقد يكون في بعض التكرار ما يزيد إيضاحاً ، أو يجلو غامضاً ، أو يؤيّد نصّاً بحاجة إلى التأييد .

ولقد كانت الجار على جانب كبير من الشهرة عند متقدمي العلماء المعنيين بتحديد المواضع ، وخاصة شراح شعر كثيّر[1] مثل ابن حبيب والسكري وغيرهما، ولهذا فقد ورد تحديد كثير من المواضع مقرونة بذكر صلتها بالجار.

---

(١) انظر « ديوان كثير » تحقيق الدكتور احسان عباس

ولهذا يحسن أن نورد ما عرفناه من المواضع التي من هذا القبيل ، ونعلق بما نعلم عن بعضها .

● – الأجاول : قال محمد بن حبيب : الأجاول نواحي كُلْفى – وهي بين الجار وودّان ، أسفل من الثنية . قال كُثَيِّر :

عَفت ميثُ كلفَى بعدنا فالأجاول
فأثماد حُسْنَى فالبراق القوابل [1]

● – أليَلُ – ويقال يَلْيَل – موضع بين وادي ينبع وبين العُذَيبة ، والعُذَيبةُ : قرية بين الجار وينبع ، وثمّ كثيب يَلْيَل قال كُثيّر :

وطبق من نحو النُّجيرِ [2] كأنه بأليل لمـــا خلّف النخل ذامِرُ [*]

و (أنظر يَليل) .

● – البُحَير : – قال أبو الأشعث الكندي في « أسماء جبال تهامة » : البُحَيْرُ عين غزيرةٌ في يَلْيل ، وادي ينبع ، تخرج من جوف رمْلٍ ، من أغزر ما يكون من العيون ، وأشدّها جَرْياً ، تجري في رَمْلٍ ، ولا يمكن الزارعين عليها إلا في مواضع يسيرة ، بين أحناء الرمل ، فيهـــا نخيل يزرع عليها البقول والبطيخ ، قال : ومنها شرب أهل الجار ، والجار مدينة على ساحل بحر القلزم [3] .

● – بَدْر : ومن بدر إلى الجـــار ستة عشر ميلاً ... وببدر عينانٍ جاريتان... وميرتها من الجار [4] .

---

(١) « معجم ما استعجم » .
(٢) أراه : النجيل – باللام لا بالراء – إذ النجيل لا يزال معروفاً في تلك الجهة .
(*) « معجم البلدان » .
(٣) « الأماكن » للحازمي .
(٤) « المناسك » - ٤١٩ و « معجم ما استعجم » .

هذه المسافة تقارب المسافة بين بدر وبين البريكة ، وكذا بينه وبين الرايس ، ومثل هذا يقال عما ورد في « معجم البلدان » : بَدْر : مشهور بين مكة والمدينة ، أسفل وادي الصفراء ، بينه وبين الجار — وهو ساحل البحر — ليلة .

● — البَرَّتان : رابتانِ بالحجاز ، على ستة أميال من الجار ، والجار فُرْضة على البَحْر ، بين ينبع وجدَّة [١] .

● — البَزْواء : أرض بيضاء، مرتفعة، من الساحل، بين الجار وودَّان، يسكنها بني ضمرة قال كثيّر :

يُقَيِّلْن بالبزواء ، والجيش واقف   مزاد المطايا ، يصطفين فصالَها
وقد قابلت منها (ثِرىً) مستجيزةً   (مباضعَ) من وجه الضحى فثُعَالَهَا

التقييل : شرب وسط النهار ، وثرى : أسفل وادي الجيِّ ، بين الرُّويثة والصفراء على ليلتين من المدينة ، ومستجيرة : ماضية . ومباضع : شعب ثلاث تدفع في ثرى . وثعال : جبل قريب من مباضع .[٢]

وقال ياقوت : البَزْواء : بلدة بيضاء مرتفعة من الساحل ، بين الجار وودَّان وغيقة . من أشد بلاد الله حَرّاً ، يسكنها بنو ضمرة ، رهط عزَّة ، صاحبة كثير [٣].

وحَدَّد السويدي البغدادي قاع البزواء ، فقال في رحلته : مرحلة القاع وهي عبارة عن برٍّ أفيح ، واسع ، لا ماء فيه ، المسافة عشرة فراسخ ، وتليها مرحلة رابغ [٤] انتهى .

---

(١) « معجم البلدان » .
(٢) « معجم ما استعجم » .
(٣) « معجم البلدان » .
(٤) رحلة السويدي نسخة مكتبة عارف حكمت في المدينة .

ومعروف أن الفرسخ يساوي ٣ أميال . أي إن ذلك القاع ٣٠ ميلاً ، وهذا التقدير تقريبي [١] .

وقال الجزيري – في وصف مسير موكب الحج في عهده : سار بين جبال بَدْرٍ ، والأيمن به فَلْجٌ ، ثم بمضيق وعْرٍ ورمْل، وبعد فضاء واسع وقطع الرملة المسماة بعالج ، وفيها يقول الصلاح الصفدي :

في وسط رملة عالج عجيبة أُبينها
جبالها التبر غدا بياضها يشينها
رأيت فيها حية أشبه لي تكوينها
مفتاحَ عاجٍ أبيض أسنانه قرونها

وحطّ بأول القاع المسمىّ بقاع البزوة، ويسمى طرف الجَنْحَا والخبت، وتسمى غيقة [٢] .

وقد وصف هذه المواضع مؤرخ مكة القطبي النهروالي حينما مرّ بها في رحلته سنة ٩٥٩ فقال – ما نصه بحروفه – :

المرحلة الحادية عشر : مستورة ، وهي نصف الطريق من مكة إلى المدينة في عرف الجمالين ، لتقليب الأحمال ونحو ذلك ، وبها آبار فيها ماء مالح ، يشرب للضرورة ... وعن يمين هذا الطريق في محاذاة مستورة بنحو مرحلة كبيرة موضع يقال له الخُريبة ، بها آبار ومزارع ، وبها طائفة من العرب يقال لهم (ذوي محمد) و (ذوي عمرو) يجتمعون نحو ألف حَرْبة .

المرحلة الثانية عشر : موضع يقال له الطيَّارة ، من الخبت الكبير الذي يقال له خبت البزوة ، وصلنا إليها مغرب ليلة الاثنين ، وأقمنا بها إلى قبيل نصف الليل ، ورحلنا وعلى يميننا جبال صُبْح ، وهم طائفة عربان عصاة ،

---

(١) : « درر الفوائد المنظمة » .

يقاربون ألف حربة ، وشيخهم يقال له القحم الآن، وهو شيخ بني علي منهم، وأما شيخ بني أيوب منهم فشخص يقال له فطيس (؟)

المرحلة الثالثة عشر : موضع يقال له الغيقا ـ بفتح الغين المعجمة وسكون آخر الحروف والقاف – برية فيحاء ، يُرَى منها البَحْر المالح ، وصلنا إليها صبحا ، وصلينا الصبح بها يوم الاثنين وأقمنا إلى الظهر ، ورحلنا بُعَيد الظهر .

المرحلة الرابعة عشر: موضع يقال له الجدر (؟) وصلنا إليه عند المغرب ، ليلة الثلاثاء ، وبتنا إلى نصف الليل ورحلنا .

المرحلة الخامسة عشر : بدر ، وصلنا إليه صُبْحاً ..

وقال قطب الدين النهروالي مؤرخ مكة – أيضاً في رحلته سنة ٩٦٤ – يصف الطريق من مستورة إلى بدر : المنزلة الحادية عشر مستورة ، وصلنا إليها عند شروق الشمس يوم الثلاثاء ، وأقمنا بها إلى قبيل الظهر ، وازددنا من الماء ورحلنا ، وماء آبار مستورة يغلب عليها الملوحة ، غير أن بقرب هذه الآبار آبار أخرى إلى جهة يمين الذاهب إلى المدينة ، يقال لها المستورة العليا، ماؤها حلو ، يوجد بها الماء في أيام الربيع والمطر ، بُعدها نحو ميل من المحطة – لا غير – ويقال لها المسيتيرة – بالتصغير – المنزلة الثانية عشر: البَثْنَة، نزلناها قبيل المغرب ، وأقمنا بها إلى قرب مضي ثلث الليل، ورحلنا ،وصلينا الصبح في الطريق بموضع يقال له طرف الجَنحا ، ويوجد بها غدير في أيام المطر ، ينتفع أهل القافلة به ، يسمى الأضاة .

المنزلة الثالثة عشر : البُرَيْة النبضاء ، وصلناها ضحى يوم الاربعاء تاسع عشري محرم الحرام [٩٦٤ هـ] وفي محاذاتها إلى جانب يسار الذاهب إلى المدينة على مقدار فرسخين – تقريباً – موضع يقال له المخشوش ، فيه آبار لِزُبَيد مطوية، أقمنا بها إلى قُبيل الظهر ورحلنا. المنزلة الرابعة عشر: بدر،

وصلناها بُعيد صلاة العشا [1] .

وأقول : بعد اجتياز الرمـــل الواقع في الجنوب الغربي من بلدة بَدْر ، باتجاه نحو الجنوب يفضي السائر إلى أرض واسعة ، تدعى الخبت، يشاهد منها البحر غرباً على بُعْدٍ ، وسلسلة جبال الحجاز شرقاً ، هذه الأرض تمتد إلى ما يعرف قديماً بودان، وحديثاً بمستورة وهذه الأرض هي البزواء — البزوة - قال فيها صلاح الدين الصفدي :

مررنا بقاع البزوة الأفيح الذي عليه صريح الذم راح حبيسا
وكان به للماء قدرٌ ، وعزة وكان به قدر الخسيس خسيسا
فسرنا به يومين والثالث انقضى وقد أذهبت فيه النفوس نفيسا[2]

إن جانبها الموالي لبدر ، وهو الطرف الشمالي هو ما يعرف قديماً بغيقة ، وفي طرفها الجنوبي تقع برقة حسنا المعروفة قديماً وحديثاً .

● — بُسَاق : واد بين المدينة والجار [3].

● — البُضَيْعُ — مُصَغَّراً — قال السكري في شرح قول كُثَيِّر :

تلوح بأطراف البُضَيْع كأنهـــا كتابُ زَبورٍ — خُطَّ — لَدْناً عَسِيْبُها

قال : البُضَيع ظُرَيب عن يسار الجـــار ، أسفل من عين الغفاريين ، واسم العين : النجح [4] .

وأقول : لا أستبعد أن تكون كلمة (النجح) تصحيف كلمة (البُحَير) ولم أجد للنجح ذكراً فيما بين يدي من الكتب . وقد قرن البضيع بغيقة في شعر سيأتي .

---

(١) : « الفوائد السنية » — الورقة ٨ — .
(٢) : « درر الفوائد المنظمة » — ٥٥٤ .
(٣) : « معجم البلدان » .
(٤) « معجم البلدان » .

بَوْلا : ذكر ابن سعد ـ في خبر عودة المهاجرين من الحبشة أن الجار يسمى ساحل بولا . وقد ورد اسم بولا (نولا) في نوادر الهجري ، ولكن الحرف الأول غير منقوط ، وفي « وفاء الوفاء » في مخطوطة قديمة بدون نقط ، أما في المطبوعة فهي منقوطة (نولا) ولكن لا يعتمد على المطبوعة ، وبولا (نولا ـ تولا ـ ثولا ـ يولا) من عيون ينبع . وقول ابن سعد هو باعتبار امتداد اسم الجار على الساحل ـ كما سيأتي في (وادي العشيرة) وبولا ـ بقرب العشيرة على ما يفهم من كلام الهجري .

ثَنِيَّةُ عَزَال : بين مكة والمدينة ، وهي بين المضيق والصفراء ، وهو طريق الجار عادِلاً عن طريق المدينة شيئاً . كذا في كتاب « بلاد العرب»[1] والمعروف أن الثنية التي بين المضيق والصفراء هي ثنية خُرَيم ، أما ثنية غزال فإنها ـ على ما يظهر من كلام المتقدمين ـ قُرب قُدَيد، فيما بينه وبين خُليص ، فقد جاء في كتاب « المناسك [2] » : ووراء قُدَيد بأكثر من ميلين وادي غزال ، والعقبة قبل خُليص بثلاثة أميال ، وهي ثنية لفت .

وذكر عرام أن وادي غزال من شَمنْصير ، بين ثنية هَرشا وبين كُلَيَّة ـ والمواضع الثلاثة لا تزال معروفة .

● ـ جامع الجار : فرضة لأهل المدينة، كجدَّةَ لأهل مكة ، وأُظنُّها الجار بنفسه ، المتقدم ذكره [1] كذا ذكر ياقوت ، وإخاله رأي نَقْلاً فيه وصف الجار وأنه ذو جامع ـ أي مسجد للجمعة ، فظنَّ أن اسم جامع الجار يقصد به اسم الجار .

● ـ الجَمِيش : صحراء بين مكة والجار. روى عبد العزيز بن عمران ، عن عبد الملك بن حسن الجاري عن عبد العزيز بن سعد بن يثربي قال : سمعت

---

(١) بلاد العرب ١١٤ .
(٢) ص ٤٦٩ .
(١) « معجم البلدان » ـ جامع ـ .

رسول الله ﷺ يقول : « لا يحل لأحدكم من مال أخيه شيء إلاّ بطيب نفسه » فقال له عمرو بن يثربي : أرأيت إن لقيت غنَمَ ابن عمي أأجتزرُ منها شاةً ؟! قال : إن لقيت نعجة تحمل شفرةً وزناداً بخبت الجميش فلا تُهجها » . قال القتيبي : الخبت الأرض الواسعة المستوية ، وقيل له الجميش لأنه لا ينبت شيئاً [1] .

● – حَسْنا : صحراء بين العذيبة وبين الجار تنبت الحيهل [1] وقال البكري : حَسْنى جبل بين الجار وودّان قال كثيّر :

عَفَتْ غيقَةَ من أهلها فحريمها فبرقة حَسْنى قد عفتْ ، فصَريمها[1]

وأقول : حَسنا لا تزال معروفة باسم (برقة حَسْنا) ، وتقع في المنتصف بين مستورة وبين مخشوس ، أي وسط صحراء البزواء (الدرجة ٤٥َ / ٣٨° طولاً شرقياً و ٢٥َ / ٢٣° عرضاً شمالياً تقريباً) ، وقد كرر كثيّر ذكرها في شعره .

● – خَرِيق : – بفتح أوله وكسر ثانيه – وادٍ عند الجار ، متصل بينبع [1] وهذا القول يدل – أيضاً – على اتساع مسمى الجار .

● –خُرَيم كَزُبير : ثنية بين جبلين ، بين المدينة والجار ، وقيل : بين المدينة والروحاء ، وكان عليها طريق رسول الله ﷺ عند منصرفه من بدر.

---

(١) : « معجم ما استعجم » – ٣٩٤ –

(١) الحَيَهل – بالحاء المهملة لا بالجيم كما جاء في مطبوعات المعجم – شجرة قصيرة من دقّ الحمض لا ورق لها . قال أبو عمرو . والهَرْمُ من الحمض يقال له حيهل ، واحداته بهاء ، وسمي به لأنـــه إذا أصابه المطر نبت سريعاً ، وإذا أكلته الابل فلم تبعر ولم تسلح مسرعة ، ماتت « تاج العروس » .

(٢) : « معجم البلدان » و « معجم ما استعجم » .

(١) : « معجم البلدان » .

قال كُثيِّر :

فأجمعن بَيْناً عاجِلاً وتركنني　　　بفيفا خُريمٍ قائماً أتبلَّد[1]

(وانظر ثنيّة / فيفا) .

● – ذات السُّلَيم : ماء لبني ضمرة ، قرب الجار[2] .

بنو ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنافة ، كانوا سكان هذا الساحل وهم رهط عَزَّة ، صاحبة كثيِّر ، وكان كثيِّر ينزل هذه الجهات ، ولهذا وردت أسماء كثير من مواضعها في شعره .

● – السُّرَيْرُ – تصغير السِّرّ ، موضع بقرب الجار – وهي فرضة أهل السفن الواردة من مصر والحبشة على المدينة ، والجـــار بينه وبين المدينة يوم وليلة – وعندي أن كثيِّراً أراده بقوله :

حين ورَّكْن دوَّةً بيمينٍ　　　وسُرَيْر البُضَيع ذات الشمال

قال ابن السكيت : البُضَيْعُ ظُرَيْبٌ عن يسار الجار ، أسفل من عين الغفاريين [3] .

وحدد البكري المسافة بين الجار وبين السُّرَير بسبعة أميال [4] .

وأقول : لقـــد توهم الفيروز آبادي أن السُّرَير هذا هو فرضة المدينة . قال السمهودي – بعد نقل ما ذكر ياقوت ، ونقله الفيروز آبادي : ومقتضاه أن الفرضة السرير ، لا الجار [5] .

---

(١) « معجم البلدان » و « المغانم المطابة » .
(٢) « معجم ما استعجم » .
(٣) « معجم البلدان » .
(٤) « معجم ما استعجم » .
(٥) « وفاء الوفاء » – الجار – .

● ــ شَقْراء : من المواضع القريبة من الجار ، كما تقدم من النقل عن البكري في الجار ، وكُلْفَى .

● ــ شَنُوكَة : بين العُذيب والجار ، على ستة عشر ميلاً من الجار ، واثنين وثلاثين ميلاً من ينبع وعلى شنوكة سلك رسول الله ﷺ إلى بدر [١] .

وأقول : شنوكة لا تزال معروفة : جبال ، يخترقها طريق ، هذه الجبال تقع قبل أن يصل المسافر بلدة المسيجيد (المنصرف قديماً) من المدينة ، تقع على اليمين ، وفيها طريق يسلكه أهل الإبل يدع المسيجيد يساره ، ويخرج إلى النازية ورحقان اللذين يفيضـــان في وادي الصفراء ، وشنوكة هذه تقع بالطريق إلى بدر لمن لا يريد المرور بالمنصرف (المسيجيد) ، ولكنها بعيدة عن الجار ، والمسافة بينهما لا تقل عن ٣٠ ميلاً .

● ــ العُذَيْبَة ــ تصغير العَذْبة ــ قال ابن السِّكيت : ماء بين ينبع والجار ــ والجار بلد على البحر قريب من المدينة ، وقال في موضع آخر : الغذيبة قرية بين الجار وينبع ، وإياها عنى كثير عَزَّة فأسقط الهاء :

خليليَّ إن أُمَّ الحكِيم تَحَمَّلَتْ وأخْلَتْ بخيمات العُذَيب ظِلاَلها
فلا تسقياني من تهامــةَ بَعْدَهَا بِلاَلاً، وإن صَوْبَ السحَابِ أسالها
وكنتم تزينونَ البلاد ، ففارقَتْ عشية بِنْتُمْ ــ زَيْنَهَا وجمالَهَا [٢]

وأقول : العُذَيبة لا تزال معروفة ، أرض واسعة ، يحدها شرقــاً جبل نصع (كتب في الخريطة [٣] خطأ : نعق) وجبال وادي الصفراء وشمالاً وادي واسط ، وغرباً شاطىء البحر، الذي فيه ميناء صغير يدعى «المُعَجَّز» بضم الميم بعدها عين مفتوحة فجيم مثقلة مفتوحة ، فزاي ، ويظهر أن هذا الميناء هو الذي ذكره الادريسي باسم ميناء العُذَيبة ، وتُحَدُّ شمالاً بجبيل صغير يُدْعى نُعَيْجة العُذيبة ــ تصغير نعجة ، وقد كتب في الخريطة المشار

(١) : « معجم ما استعجم » صنَبْر .
(٢) : « معجم البلدان » و « المغانم المطابة » وبلاد العرب .
(٣) : « أبحاث جيولوجية مختلفة رقم B ٢١ - I » .

إليها : (جبل نياقة العزبة) خطأ . والعذيبة فيها أماكن تزرع عثريّاً ، وفيها ماء بهذا الاسم، ويخترقها وادٍ يدعى وادي الفقير (من الدرجة ١٥َ/٢٧° إلى ٤٧/٣٨° طولاً شرقياً ومن ٤٥َ/٢٣° الى ٠٠َ/٢٤° عرضاً شمالياً تقريباً) وهي متصلة بالبريكة ـ الجار ـ لا يفصل بينهما سوى وادي واسط .

● ـ الغُرابات : أجبل سودٌ بين ينبع والجار ، في شرقي الطريق ، اذا خرجت من الجار تريد ينبع بينك وبين مطلع الشمس [١] .

● ـ غَيقَةُ : خبتٌ في ساحل بحر الجار ، فيه أودية ، ولها شعبتان احداهما يرجع فيها [٢](؟) والأخرى في يَليل ، وهو بوادي الصفراء . [٣].
كذا جاء في«المعجم» ويظهر أن صواب هذه الجملة هو ما جاء فيه أيضاً: قال ابن السكيت : الخائعان شعبتان تدفع واحدة في غيقة والأخري في يليل .

وقال كثير :

فلما بلغن المنتضى دون غيقة ويَليل مالت ، واحزَألتْ صدورها

وأقول : يفهم مما ذكره المتقدمون عن يليل وأنه يدفع في غيقة . أن غيقة هي الأرض الواقعة في شرق بدر ، بعد مجاوزة كثبان الرمال ، بحيث تتسع الأرض البراح ، وينفرش وادي الصفراء (يَليل) وأنها تمتد إلى الساحل وفي كلام المتقدمين المذكور في البزواء ما يؤيد هذا . وجاء في كتب اللغة[٤] العيقة ساحل البحر وناحيته ، ويجمع عيقات ، قال ساعدة بن جؤيّة :

سادٍ تجرَّم في البضيع ثمانياً يلوي بعيقات البحار ويجنَبُ

كذا أوردوا الاسم بالعين المهملة ، ومصدرهم في ذلك كتاب « الغريب المصنّف » لأبي عبيد القاسم بن سلام .

---

(١) « بلاد العرب » ٤٠٥
(٢) « معجم البلدان » (٣) « الأماكن » للحازمي
(٤) « لسان العرب » و « تاج العروس » مادة (ر ي ق)

وكذا جاء في « شرح أشعار الهذليين » لأبي سعيد السكري[1] .وشرحه بقوله : سادٍ من أسأد ليلته : لم ينمها أو سادٍ : مثل مُهْمل . تجرَّم : استوفى ثمانياً . البَضِيع : جزائر البحر . يلوي بها : كأنه يذهب بها إلى البحر تشرب ماءه كله . عيقات البحار : عيقة ، وعقوة وساحة واحد ، وهو فناء من الأرض . يجنب : تصيبه الجنوب . انتهى .

وأنا لا استبعد أن تكون عيقة وغيقة تصحيف أحد الاسمين بالآخر ، إن لم يكن من قبيل الإبدال بين الحرفين .

● – فَيْفَا خُرَيم : ثنية بين المضيق والصفراء وهي على طريق الجار ، عادلة عن طريق المدينة يميناً [2] .

● – قَرَاف – بالفتح آخره فاء – القَرْفُ : القَشْر ، والقَرَفُ : الوباء. وقَراف : قرية في جزيرة من بحر اليمن ، بحذاء الجار ، سكانها تجار ، كنحو أهل الجار ، يؤتون بالماء العذب من نحو فرسخين [3] .

وأقول : زالت هذه الجزيرة بأثر عوامـــل التحاتّ والتعرية ، ولم يبق سوى بعض الصخور البحرية التي تحدد مكان الجزيرة .

● – كُلْفَى – بوزن حُبْلَى – قال يعقوب بن السكّيت : كُلْفَى بين الجار وودّان أسفل من الثنية ، وفوق شقراء ، وقال في موضع آخر : كُلْفي : ضِلَعٌ في جانب الرمل أسفل من دعان ، أُكْلِفَتْ بحجارتها التي فيهـــا : ضربت إلى السواد قال كثيّر :

عَفَا مَيْثُ كُلْفَى بعدنا فالأجاوِلُ [4] .

---

(١) ص ١١٠٣

(٢) « معجم ما استعجم » – فيف – .

(٣) « معجم البلدان » .

(٤) « معجم البلدان » و « معجم ما استعجم » .

● – اللِوَى : لوى الخبت : بقرب الجار كما أشار إلى ذلك صاحب « بلاد العرب » وأورد بيتين من الشعر فيه ، ذُكِرا في موضع آخر .

واللوى هذا لا يزال معروفاً ، وهو أحد فروع وادي الصفراء ، فهـذا الوادي عندما يفيض في الخبت يتفرع فروعاً كثيرة ، فالفرع الشمالي منها يدعى لِواء (واللوى) ويقع جنوب وادي واسط . وهذا يفيض في البحر فيما بين الرائس وبين الخريبة ، وجنوبه فرع صغير يفيض في الخبت ولا يصل البحر بل تبتلعه الرمال ، وجنوب هذا اكبر الفروع وهو الذي يحمل اسم وادي الصفراء ، وينقسم هذا الفرع الكبير الى فرعين الشمالي منهما يتصـــل بالبحر ، عند قرية الرايس ، والثاني الجنوبي تقع فيه آبار مخشوش (كتب في الخريطة : مقشوش خطأ) ويفيض في رمال الخبت .

● – وادي العُشَيرة : بالجار[1] .

وأقول: هذا محمول على أن الجار يشمل الساحل الممتد من جدة إلى ينبع، ذلك أن العشيرة في أسفل ينبع. وانظر لتحديد موقعها كتاب «بلاد ينبع».

● – يَلـْيَل : وفي يليل هذه عين كبيرة ، تخرج من جوف رملٍ من أعذب ما يكون من العيون ، وأكثرها ماء تجري في رمْل فلا تمكن الزارعين عليها إلا في مواضع يسيرة من أحناء الرمل ، فيها نخيـل ، وتتخذ البقول والبطيخ ، وتسمى هذه العَيْن (البحير)[2] .

تقدم ذكر عين البُحَير ، ويَلـْيَلُ هو وادي الصفراء ، وادي بَدْر ، وفروع هذا الوادي الجِيُّ والنازِيَةُ ورحْقَان والحمراء ، واسافله تصب في البحر ، فيما بين البريكة والرايس .

---

(١) « صفة جزيرة العرب » – ١٨٢ – .
(٢) « أسماء جبال تهامة » لعرام بن الأصبغ السلمي .

لمحة عن الجار

لعل أقدم من وصف لنا الجار وصفاً يوشك أن يكون كاملاً هو عرام بن الأصبغ السلمي الأعرابي ، ـ من أهل القرن الثالث الهجري ـ فجل عبارات المتقدمين تكاد تكون مستوحاة أو منقولة مما جاء في رسالته المطبوعة، وهناك مواضع كثيرة قريبة من الجار ، كانت وردت في شعر كثير الخزاعي، فحاول شراح ديوانه وهم من معاصري عرام كابن حبيب ومن بعده السكري، فأضافوا معلومات جليلة إلى ما ورد عن عرّام، ثم جاء من بعدهم ممن تحدثوا عن تحديد المواضع فلم تكن زياداتهم تتجاوز وصف ما كان معروفاً في عهدهم ، ومن هنا حرصت على إيراد كل ما ورد في الكتب القديمة مما يتعلق بتحديد الموقع، مع ما فيه من تكرار ، مراعياً في ذلك التسلسل الزمني ـ في غالب الأحوال ـ مقدماً طرفاً مما اطلعت عليه من أخبار الجار قديماً :

١ ـ في كتاب «التيجان[1]» المنسوب لعبد الملك بن هشام صاحب «السيرة» قصة خرافية طويلة حول الجار ، وأصل تسميته ـ خلاصتها أن مضاض بن عمرو الجرهمي عشق ابنة عمٍّ له تدعى ميّا ابنة مهليل بن عامر ، وأنه لقيها بالجار ، وقال فيها شعراً منه :

سألتك بالرحمن لا تجمعي هوى عليه ، وهجراناً ، وحبُّكِ جارُهُ

فسمى الموضع الجار بهذا البيت .

---

(١) ص ١٨٨/١٩٤ .

والذي يعنينا من تلك القصة الخرافية هو أن موضع الجار كان معروفاً في العهد القديم — أي قبل الإسلام — .

٢ ـ قال ابن سعد ـ في خبر عودة المهاجرين من الحبشة : وكتب إليه ـ يعني النجاشي ـ رسول الله ﷺ أن يبعث اليه من بقي عنده من أصحابه ويحملهم ، ففعل ، وحملهم في سفينتين ، فأرسوا بهم إلى ساحل بَوْلا وهو الجار [1] .

٣ — ولما فتح عمرو بن العاص الاسكندرية كتب اليه الخليفة عمر بن الخطاب أن يحمل الطعام منها إلى المدينة ، حتى يصل الى ساحل الجار ، فأرسل عمرو طعاماً في عشرين مركباً، في المركب ثلاثة آلاف اردب ،واقل وأكثر ، حتى وافى الجار ، فخرج الخليفة من المدينة ، ومعه جلة أصحاب رسول الله ﷺ ، حتى قدم الجار ، فنظر إلى السفن ، ثم وكل من قبض الطعام ، وبنى هناك قصرين ، وجعل ذلك الطعام فيهما ، ثم أمر زيد بن ثابت أن يكتب للناس صِكاكاً من قراطيس ثم يختم أسافلها ، فكان أول من صَكَّ ، وختم الصكاك [2] .

٤ — وفي صدر الإسلام عُرف من أهل الجار رواة لحديث المصطفى ﷺ مما يدل على ازدهار الجار وكثرة سكانه . منهم :

١ — سعد بن نوفل الجاري ، مولى عمر بن الخطاب ، وعامله على الجار .

٢ — سليمان بن محمد بن سليمان بن موسى بن عبد الله بن يسار الأسلمي ، ممن روى عن الإمام مالك بن أنس وغيره .

٣ — عبد الرحمن بن حسن الجاري .

٤ — عبد الرحمن بن سعد الجاري .

---

(١) : « الطبقات » ١/٢٠٨ (طبعة بيروت) .

(٢) تاريخ اليعقوبي ١ / ١٥٤ .

٥ – عبد الله بن سعد بن نوفل الجاري .

٦ – عبد الملك بن الحسن الأحول مولى مروان بن الحكم .

٧ – عمر بن راشد الجاري الساحلي القرشي .

٨ – عمرو بن سعد بن نوفل الجاري .

٩ – عيسى بن عبد الرحمن الجاري .

١٠– يحيى بن أحمد المديني الجاري ، من موالي بني الديل من الفرس من أهل المدينة ، كان من تجار أهل الجار[١] .

١١ – يحيى بن محمد بن عبد الله بن مهران المدني مولى بني نوفل .

٥ ـ لما قتل محمد (ذو النفس الزكية) أمر أبو جعفر المنصور بالبحر فأقفل على أهل المدينة ، فلم يحمل إليهم من ناحية الجار شيء ، حتى كان المهدي فأمر بالبحر ، ففتح ، وأذن في الحمل[٢] .

٦ ـ وفي سنة ٢٣٠ كثر التعدي والخلاف من قبيلة بني سليم حول المدينة، قال ابن جرير[٣] : كانت بنو سليم تتطاول على الناس حول المدينة بالشر وكانوا إذا وردوا سوقاً من أسواق الحجاز أخذوا سعرها كيف شاؤا ، ثم تراقى الأمر بهم إلى أن أوقعوا بالجار ، بناسٍ من بني كنانة وباهلة فأصابوهم وقتلوا بعضهم ، وذالك في جمادى الآخرة سنة ٢٣٠ وكان رأسهم عزيزة بن قطاب السلمي ـ ثم ذكر توجيه الجيوش لقتال بني سليم وغيرهم من العرب .

٧ ـ وسكنت مزينة في القرن الثالث الهجري ـ الساحل من الجار والصفراء[٤] إثر حروب بينهم وبين قبيلة حَرْب .

---

(١) « الأنساب » للسمعاني و « معجم البلدان » و « تاج العروس » .

(٢) « تاريخ ابن جرير » حوادث سنة ١٤٥ .

(٣) حوادث سنة ٢٣٠ .

(٤) « الاكليل » ٣٠٤/١ .

٨ – وفي سنة ٢٦٦ كانت فتنة بالمدينة ونواحيها بين الجعفرية والعلوية ، وكان سبب ذلك فيما ذكر أن القيم بأمر المدينة ووادي القرى ونواحيها كان في هذه السنة إسحاق بن محمد بن يوسف الجعفري فولّـى وادي القرى عاملاً من قبله ، فوثب أهل وادي القرى على عامل إسحاق بن محمد فقتلوه ، وقتلوا أخوين لإسحاق ، فخرج إسحاق إلى وادي القُرى فمرض به ومات ، فقام بأمر المدينة أخوه موسى بن محمد ، فخرج عليه الحسن بن موسى بن جعفر فأرضاه بثمانمائة دينار ثم خرج عليه أبو القاسم أحمد بن محمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد ابن عم الحسن بن زيد صاحب طبرستان فقتل موسى وغلب على المدينة ، وقدمها أحمد بن محمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد فضبط المدينة وقد كان غلا بها السعر فوجه إلى الجار وضمن للتجار أموالهم ، ورفع الجباية فرخص السعر ، وسكنت المدينة فولي السلطان الحسني المدينة إلى أن قدمها ابن أبي الساج [١] .

وها هو جُلّ ما ورد في كتاب الأماكن والبلدان عن الجار :

الجار – بالراء المهملة : هو ساحل المدينة ، وهي قرية كثيرة القصور ، كثيرة الأهل على شاطيء البحر ، فيما يوازي المدينة ، ترفأ إليها السفن من مصر وأرض الحبشة ومن البحرين والصين ، ونصفها في جزيرة من البحر ، ونصفها في الساحل ، وبحذائها جزيرة في البحر ، تكون ميلاً في ميل ، لا يعبر إليهـــا إلا في السفن ، وهي مرفأ للحبشة خاصة يقال لها قراف ، وسكانها تجار وكذلك سكان الجار ، ويؤتون بالماء على فرسخين من وادي يَليل الذي يصب في البحر . يصب في غَـيْقة وغيقة تصب في البحر [٢] .

أقول : كلمة (تجار) في وصف سكان قراف لا أستبعد أن تكون تصحيف كلمة (بجاة) وهي في مخطوطة كتاب الحازمي أقرب إلى هذه الكلمة من كلمة

---

(١) تاريخ ابن جرير حوادث سنة ٢٦٦ .

(٢) « أسماء جبال تهامة » لعرام : « معجم ما استعجم » و «الأماكن» للحازمي ـ مخطوط.

تجار ، والبجاة جنس من السودان كانوا مسيطرين على أعمال الملاحة في هذا الجانب من البحر الأحمر ، ويظهر أن التصحيف قديم فصاحب « التاج » نقل عن « مراصد الإطلاع » ـ وهو مختصر « معجم البلدان » وهو مطبوع ـ : « يسكنها التجار) وقال ياقوت عن البجاة :

١ ـ سواكن : بلد مشهور على ساحل بحر الجار ، قرب عيذاب ترفأ إليها سفن الذين يقدمون من جدة ، وأهلها بجاة سود نصارى .

٢ ـ عيذاب مدينة البجاء ، ثم يمتد ساحل البحر إلى مساكن البجاء ، والبجاء قوم سود ، أشدُّ سواداً من الحبشة [١] انتهى كلام ياقوت .

٢ ـ الجار فرضة المدينة ، وهي على ثلاث مراحل منها ، على شط البحر ، وهي أصغر من جدة [٢] .

القول بأن المسافة بين الجار وبين المدينة ثلاث مراحل هو أعدل الأقوال ، وقد ذكر ذلك اليعقوبي أيضاً في كتاب « البلدان » وغيره .

أما ما جاء في كتاب نصر الاسكندري ، في « معجم البلدان » و « وفاء الوفاء » للسمهودي بأن المسافة بين الجار وبين المدينة يوم وليلة فبعيد عن الواقع ، ذلك أن هذه المسافة تقارب ١٨٠ كيلاً ، وليس من المعقول قطعها على الإبل بيوم وليلة ، وخاصة حينما ندرك أن المتقدمين يقدرون المسافات على أساس سير قوافل الحجاج والتجار ، لا على أساس سير المسرعين .

٣ ـ الجار : مدينة محصنة بثلاثة حيطان والرابع البحري ، مفوّه ، وبها دور شاهقة ، وسوق عامرة ، وهي خزانة المدينة ، يحمل الماء إليها من بدر ، والطعام من مصر وليس لجامعهم صحن [٣] .

---

(١) « معجم البلدان » ـ سواكن ـ القلزم .

(٢) « صورة الأرض » لابن حوقل - ٣٩ ، الف سنة ٣٣١ .

(٣) « أحسن انتقاسيم » ص ٨٣ - للبشاري محمد بن احمد القدسي وقد الف سنة ٣٧٥ .

٤ — وقد قُرِيء على الناس سنة تسع وثلاثين وأربعمائة (١٠٤٧ م) المرسوم التالي من سجل السلطان : (يقول أمير المؤمنين : إنه ليس من الخير أن يسافر الحجاج للحجاز هذا العام ، فإنّ به قحطاً وضيقاً ، وقد هلك به خلق كثيرون ، وإني أقول هذا شفقة بالمسلمين) . فلم يسافر الحجاج ، وكان السلطان يرسل الكسوة للكعبة كالمعتاد ، لأنه يرسلها مرتين في السنة ، فلما سافرت الكسوة مع وفد السلطان عن طريق القلزم ، سافرت معهم ، فخرجت من مصر أول ذي القعدة ، وبلغت القلزم في الثامن منه ، ومن هناك أقلعت السفينة فبلغنا بعد خمسة عشر يوماً مدينة تسمى الجار في الثامن والعشرين من ذي القعدة ، وقمنا من هناك فبلغنا مدينة الرسول ﷺ بعد أربعة أيام [١] .

٥ — ومن المدينة إلى البحر ثلاثة أيام ، وفرضتها الجار ، والجار قرية آهلة عامرة ، وكانت قبل هذا مدينة قريبة من جدة ، والجار على ضفة البحر والمراكب اليها قاصدة واردة ومقلعة ، وليس بها كبير تجارات ، وكذلك من الجار إلى جدة ، نحو من عشرة أيام بالبر بطول الساحل ، والبحر يبعد تارة ويقرب أخرى ، وأكثر هذه المراحل في رمال ناشفة ، وطرق دراسة يستدل فيها بالبحر والجبال [٢] .

٦ — الجار : مدينة على ساحل بحر القُلزم ، بينها وبين المدينة يوم وليلة، وبينها وبين أيلة نحو من عشر مراحل، وإلى ساحل الجحفة نحو ثلاث مراحل: وهي في الإقليم الثاني ، طولها من جهة الغَرْب ٦٤°/٢٠َ (أربع وستون درجة ، وعشرون دقيقة ، وعرضها ٢٤° (أربع وعشرون درجة) وهي فرضة ترفأ إليها السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن والصين ، وسائر بلاد الهند ، ولها منبر ، وهي آهلة ، وشرب أهلها من البُحَير ، وهي عين

---

(١) « سفر نامة » ـ ١١٠ ـ الطبعة العربية الثانية .
(٢) الادريسي في « نزهة المشتاق » مخطوط .

يَلْيل ، وبالجار قصور كثيرة ، ونصف الجار في جزيرة من البحر ونصفها على الساحل، وبحذاء الجار جزيرة في البحر تكون ميلاً في ميل لا يعبر إليها إلا بالسُّفن ، وهي مَرْسَى الحبشة خاصة يقال لها قراف ، وسكانها تجار كنحو أهل الجار ، يؤتون بالماء من على فرسخين .

ذكر ذلك كله أبو الأشعث الكندي عن عرام بن الأصبغ السلمي . وقد سمي ذلك البحر كله الجار ، وهو من جدة إلى قرب مدينة القلزم قال بعض الأعراب :

وليلتنا بالجار ، والعيس بالفلا	معلقة اعضادهـا بالجنائب
سمعت كلاماً من وراء سَجْف محمل	كما طَلّ مُزْنٌ صيّبٌ من سحائب
وقائلـة : لاح الصباح ونوره	عسى الركب أن يحظى بسير الركائب
عسى ندرك التعريف والموقف الذي	شُغلْنا به عن ذكر فقْدِ الحبائب[1]

٧ – الجار : مدينة بالحجاز ، على ساحل البحر ، مما يلي المدينة ، وهي آهلة عامرة ، كانت قبل هذا مدينة قريبة من جدة ، والمراكب إليها قاصدة ومقلعة ، وليس بها كبير تجارة ، ومن الجار إلى جدة نحو عشرة أيام ، في البرّ ، بطول الساحل ، والبحر يبعد تارة ويقرب أخرى . وأكـثر هذه المراحل في رمال ناشفة ، وطرق دارسة ، يستدل فيهـا بالبحر والجبال . وقالوا : البحر الأعظم من المدينة على ثلاثة أيام . وساحلهـا موضع يقال له الجار ، وفيه ترسو المراكب التي تحمل الطعام من مصر ، ومدينة الجار مدينة مسوّرة ، وهي ساحل مدينة النبي ﷺ ويخرج أهلهـا كل يوم إذا فتح باب مدينتها الشرقي إلى باب محني هناك ، يسمى باب النبي ﷺ فيستقبلون بوجوههم المدينة شرقاً ، ويسلمون ويدعون وينصرفون، لا بُدّ لهم من ذلك، ومن الجار إلى بدر نحو المشرق إذا أردت المدينـة نحو عشرين ميلاً . وقال يوماً عمر بن الخطاب ﷺ : خطر على قلبي يوماً شهوة الحيتان ، فركب يرفأ راحلة إلى الجار فسار أربعا ، وأتى بها ، فرأى عمر الراحلة فقال : عذبت

(١) : « معجم البلدان »

بهيمة من البهائم في شهوة عمر ، والله لا يذوقه عمر [1] !!.

وعلى ذكر الحيتان ، فقد عرف الجار بكثرة سمكه ، قال أحد الشعراء:

لريح الخزامَى بين قَمْلَى ومُسْحلٍ
إذا ضربتْ يوماً وجال جويلُها
شفاءٌ لنفسي لَيْسَ- لا الرِّيْحُ باللّوَى
لِوَى الخبت والحيتان يغلي صَليلُها

وكان بالجار . أراد : لا الرّيح ، فجاء بلَيْس توكيداً [2] .

٨ – ولها (المدينة) فرضة على البحر القلزميّ يقال لها الجار ، بينهما ثلاثة أيام ، وهي جزيرة يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها [3] .



(١) « الروض المعطار » مخطوط .
(٢) « بلاد العرب » - ٢٠١ - .
(٣) « نخبة الدهر » - ٢١٦ - .

رَفْعُ
عبد الرَّحمن النجديّ
أسكنه الله الفردوس

في بلاد خيبر

الى خيبر

قمت بالرحلة إلى خيبر مرتين ، الأخيرة في ٦ ربيع الأول ١٣٩٠ (١١ / ٥ / ١٩٧٠ م) سيأتي الحديث عنها ، أما الأولى فكانت في شهر محرم ١٣٨٨ — نيسان ١٩٦٨ ، حينما سرت اليها من المدينة ، في يوم السبت ٢٢ من الشهر المذكور ، ورفيقاي في الرحلة الصديق الأستاذ عبد العزيز بن عبدالله الربيعي وسائق سيارة كبيرة غامدي الأصل ، أنسيت اسمه ؛ وقد سرنا من المدينة في أصيل ذلك اليوم ، ولما حاذينا المطار كان عدّاد الأكيال يشير الى الرقم ٢٣٠ وبعد مسيرة ٤٠ كيلاً وصلنا الى وادي يدعى حفْن ، بحاء مهملة بعدها فاء فنون ، ثم مررنا بقرية الصُّلْصُلة ، وهي قرية في وادٍ وفيها آبار عذبة ، من بئار قليلة ،ومباني صغيرة ، وسكانها من قبيلة هُتيم ، وهم يرجعون — أعني سكان البلدة — الى قبيلة أشجع ، فالبلدة عرفت منذ القدم بهذه القبيلة ، وأشجع قبيلة شهيرة في القبائل العربية، ومنها رجال عرفوا بصحبتهم للرسول ﷺ ، وآخرون عرفوا بالشعر ، وغيرهم ممن زخرت كتب الأدب والتاريخ بذكرهم ، وكان منهم دليل الرسول ﷺ إلى خيبر، إلا أن القبيلة أدركها الضعف والوهن ، فاستشرت القبائل الأخرى عليها ، حتى وصفها ابن حزم في القرن الخامس الهجري بأنها من أضعف القبائل هي وقبيلة محارب .

رأينا من الخير أن نبيت بقرب البلدة بعد أن قطعنا عشرة أكيال بعدها لأننا لم نستحسن وصول خيبر ليلاً ، إذ ذلك لا يمكننا من مشاهدة ما نريد ،

وتبعد الصلصلة عن المدينة بـ ١٥٤ كيلاً . وفي الصباح واصلنا السير الى خيبر فبلغناها حوالي الساعة الثانية بالتوقيت الغروبي ، ولم نجد مكانا صالحاً للنزول فهبطنا وادي خيبر حتى تجاوزنا النخيل وقطعنا بطن الوادي ونصبنا خيمتنا في سفح الوادي من الناحية الشمالية ، وقمنا بإعداد ما نحتاج إليه من طعام ، وكان أخوانا الأستاذ العبودي وصديق آخر أبَيَا إلا أن نحمل ضيافتنامعنا في السيارة خروفين هيأنا أحدهما لطعام الغداء .

كان أول القُرى في طرف الوادي الجنـــوبي وتـُدْعى ُشريف - بضم الشين - وفيها مقرّ الشرطة والإمارة والمدرسة ، وتقع عند الكيل ١٦٣ من المدينة ، أما المكان الذي اخترناه للنزول فيبعد عن هذه القرية بعشرة أكيال تقريباً .

كانت الشمس مرتفعة والنهار صحواً فأمضينا جزءاً من الوقت في تسلق الجبل والإطلال على واحة خيبر ، وخيبر ملتقى أودية تكثر فيـه حدائق النخيل والأبنية الصخرية (الحصون) التي في سفوح الجبال .

بعد أن شاهدنا معالم المدينة ومن أبرزها جبل أبو رقبة ويقع في الشمال ثم جبل آخر يقع جنوبه فوقه قصرعظيم مطل على الوادي وقد كان مقر الإمارة، وقد أقيم على آثار حصن من الحصون القديمة ، وفي وسطه بئر عميقة جداً ، منحوتة في الصخر ، والصعود إلى هذا القصر - الذي أصبح الآن متداعياً آيلاً للسقوط - من طريق متعرج ضيق ، كانت تسلكه الدواب أما غرف القصر فكثير منها قد آل إلى الخراب ، ومنها امكنة لا تزال باقية غير أنها قـد بدأها الخراب ، كان هذا مقر الامارة قبل وصولنا إلى هذه البلدة بما يقرب من خمس سنوات اما الآن فقد نقل المقر إلى جهة أخرى .

ثم بعد ذلك نزلنا من القصر إلى قرية اسفل منه في سفح الجبل ، تفصل بينه وبين الوادي الغاص بالنخيل وكان أول ما شاهدناه فيها مسجـد البلدة وهو مسجد واسع جداً ،وجدناه مغلقاً ، فتسلقنا من أحد الأبواب ،ودخلناه

وأهم ما لفت نظرنا في ذلك المسجد ان وجدنا في داخله وفي طرفه الشمالي موقداً للنار ، قيل لنا فيما بعد : إن البرد يشتد ، ومن عادة الامير ان يهيء القهوة فيوقد النار في ذلك المكان ، وقد أصبح هذا المسجد معطلاً . لقد كان الدليل الذي اخذناه من قرية ُشريف فيما يظهر جاهلاً خقاً ، لم يستطع ان يوضح لنا أي شيء نستفهم منه ونطلب ايضاحه . خرجنا من المسجد فوجدنا على مقربة منه في الناحية الجنوبية الغربية مقبرة قديمة مهملة ، ثم اتجهنا صوب الجنوب بدون قصد ، فهدانا السير إلى طريق يتصل بعين قوية يجري منها الماء فلم أتمالك ان خلعت ملابسي ، وانغمست في تلك العين التي ينزل اليها بثلاث درج بمقدار متر ونصف ، وماء العين نظيف صافٍ ،وكنت بحاجة إلى الاغتسال ، وما ان انغمست في المجرى حتى تكاثر نوع يسمى الوزف سميكات صغيرة تداعب قدمي مداعبة تلذذت منها ، فما كان مني إلا ان تناولت الالبسة الداخلية ، وقمت بغسلها حتى نقيتها وصاحبي الربيعي يهزأ بي ويضحك ، ثم خرجت من العين ولبست ثيابي رطبة ، فقادني الدليل إلى جبل يقع في الجنوب الشرقي من هذا المسجد ومن العين ، ويفصل بينه وبينها حدائق النخيل الكثيرة ، قال لنا : إنه يدعى الحصون جمع حصن ، وهو يبعد عن ُشريف بما يقارب أربعة أكيال قطعنا حدائق كثيرة واراضي يكثر فيها نبات الحلفا الصغيرة التي يتخذ منها في الأحساء وبلاد أخرى نوع من الحُصر ، ثم وصلنا سيراً على القدم بعد قطع مسافة في بطن الوادي تقرب من كيلين، وصلنا إلى جبل شامخ الذُّرَى ، وجدنا له طريقين سلكنا أيسرهما حتى بلغنا قمة الجبل ، فرأينا آثار قصر عظيم مبني بالحجارة ، وقد تهدمت سقوفه وبقيت غرفه قائمة الجدران، ورأينا في وسطه مكاناً ، قال لنا الدليل: إن هذا هو المسجد ، وقد تبينا صحة قوله ، وكأنه بني في الأصل ليكون محل سكن ثم استعمل أخيراً مسجداً بحيث بقيت جدرانه القديمة على أساسها، قمنا بجولة في هذا القصر علنا نشاهد كتابات أو آثاراً قديمة فلم نتميز شيئاً من ذلك ، وكل ما أدركناه هو أن هذا من حصون خيبر القديمة التي لا شك بأنها

كانت على درجة من القوة بحيث لا يستطيع أحد الوصول إليها إلا بمشقة ، ويا للأسف الشديد فدليلنا لا يزيدنا عند الاستيضاح عن هذا المكان أكثر من قوله: إنه الحصون حصن اليهود ، ويظهر أن المكان بقي مقفراً مئات السنين، إن لم يزد على ذلك .

عدنا إلى مكان خيمتنا ، وكنا أوقفنا السيارة بقرب بيت كان فيما يظهر من كلام فيلبي المنزل الذي حله الرحالة شارل دوتي سنة ١٨٧٧ Charles Doughty (أنظر صورته بعد) ويدعوه بيت النجمي ، وشاهدنا بقرب هذا المنزل بنايات صغيرة غريبة الشكل قال لنا الدليل : إن مكافحة الحُمَّى (الملاريا) قد أقامت هذه البنايات ، ثم عدنا إلى خيمتنا لتناول طعام الغداء وكان الوقت ظهراً ، وما أغرب ما شاهدنا !! لقد كنا قد اخترنا المنزل في سفح جبل مرتفع عن الوادي ، بعيدين عن المستنقعات وعن السبخة التي من دونها ، غير أننا لما قربنا الأكل خيمت فوقنا غيابة من أسراب البعوض والشمس حارة ، والهواء متحرك مما دعانا إلى أن نقرر عدم المبيت في خيبر ، تلك البلدة التي عرفت في القديم بابتلائها بهذا الداء العضال وهو داء الحمى (الملاريا) التي تنشأ من أثر لدغ البعوض . بعد أن تناولنا الأكل سألنا مستغربين دليلنا : كيف يقيم الأمير ومن معه ؟ فأجاب : بأنه قد هيأ لنفسه منزلاً بعيداً عن هذا الوادي في مأمن من هذا البعوض .

تناولنا غداءنا مبكرين قبل الوقت ، وأردنا القيام بجولة في الوادي ولكننا اكتفينا بالمرور على قرية تدعى مَكيدة، وتبعد عن شُرَيف بما يقرب من ثمانية أكيال ، وتقع في سفح جبل يدعى عَطْوَى بفتح العين وإسكان الطاء وفتح الواو الممدودة وهي في مكان نَزِهٍ، مشرف على الوادي مرتفع ، ثم سرنا منها إلى قرية يدعونها السلالم ، ولا يفصل بينها وبين مكيدة سوى كيل واحد ، أي أن بينها وبين شُريف ما يقرب من ٥ أكيال ، ووجدنا في هذه القرية بنايات حديثة مرتفعة حقاً عن الوادي ، وعن شريف وتقع في

جنوبه ، وعندما مررنا بها شاهدنا اسم المدرسة فوق أحد البنايات الحديثة فيها فرغبت زيارتها ، وجدت المدرسة في بناية حسنة وفيها عدد من الطلاب في غرف واسعة، وجلست في غرفة الادارة حيث تناولنا الشاي وتحدثنا مع مدير تلك المدرسة ، ويدعى أحمد الخطيب ، ويظهر أن والده – ان لم يكن هو - كانخطيب البلدة عندما زارها فلبي . ويلاحظ أن بلدة خيبر لا يقيم بها إقامة كاملة سوى من منحوا صفة خاصة هي سواد البشرة ، وقالوا لنا : إن مثل هؤلاء لا يؤذيهم البعوض ، وقد جـاء في كتب المتقدمين ما يدل على هذا [1] ، وفي الجزيرة أمكنة كثيرة كانت إلى عهد قريب لا يعيش فيها إلا من هو أسود البشرة .

حاولنا الاهتداء إلى كثير من معـالم البلدة القديمة غير أننا وجدنا من اجتمعنا بهم ليس لديهم أكثر مما لدينا ، وقد أحسست من صاحبي الرغبة في عدم المكث في هذه البلاد ، وما على المرء إلا أن ينقاد لرغبة رفيقه في السفر إذا رغب أن تكون رحلته مريحة ، فكان أن واصلنا السير إلى المدينة .

ولقد كان دليلنا في العودة على جانب كبير من الخبرة ، ذلك اننـا لما مررنا بقرية شريف أهم قرية في وادي خيبر تعرض انا رجـل كبير السن ينوف عمره على الخمسين عاماً ، طلب منا الركوب في السيارة الى أثناءالطريق فتم له ذلك ، وكان خير مرشد لنا بمعرفة كثير من الأماكن التي تحدثنا عنها في موضع آخر من هذه الكلمة ، والرجل من قبيلة هُتَـيم أهل هذه البلاد منذ العهد الجاهلي .



(١) جاء في كتاب « صورة الأرض » لابن حوقل –ص ٧٥– : باشوا . بها في غير موضع وَخَمٌ ظاهر الثقل في مياهها ، لا يدخلها غريب إلا مرض ، وإذا دخلها السودان صلحوا به وصلحت نفوسهم ، وطابت بالخدمة قلوبهم . اهـ .

موقع خيبر

أرض خيبر وما حولها – مما سنتحدث عنه – تتكـــون من حرّة ، تكسوها الحجارة السوداء ، وتغطي أكثر مواضعهـا ، بحيث يصعب السير فيها إلا من طرق مخصوصة ، وتوجد بها منخفضات تحيط بها آكام صخرية ، ومعروف أن الحرار تكونت من جراء ثورات بركانية ، تقذف حممها،فتسيل على سطح الأرض ثم تبرد وتتكون صخوراً سوداء ، وتفتت بقدرة الله ثم بفعل التأثيرات الجوية ، ومن تلك الصخور ما يكون ضخماً ، بحيث يترا كم فيكون تلالاً أشبه بالجبال ، ومنها ما يكون سمكه رقيقـاً ، بحيث يغطي الأرض بقشرة رقيقة .

ومن أوفى ما كتب عن حرار العرب ووصفها أبو علي الهجري [1] ، ومما قال : أوصاف الحرة ، هي اللابة ، وهي الحرشاء ، وهي الرّجـــلاء التي لا يسلك فيها راجل ولا راكب ، وهي حرشة – بالشين معجمة ،والخرساء غير معجمة – تمشق الرجلين ، حارة ، يجد حرّها في رجله ، لا يعلوها المال ،ولا يدبُّ فيها روحاني ، مثل لابة ميطان ، ولابة عفر ؛ دون كشب في الغرب، ولابة أقرح ، قرب السوارقية [1] .

إن حرة خيبر هي أعظم حرار بلاد العرب ، بعد حرة بني سُلَيم، وهذه الحرة العظيمة واقعة بين السهول الممتدة في الجنوب الشرقي من المدينة ومـا

(١) « أبو علي الهجري » ٢٣٠/٢٣٢ .

فيها من الأودية التي تنحدر من الحرة ، متجهة الى الجنوب الغربي ، ثم مغربة حتى تلتقي بوادي العقيق .

ويحدها من جهة الشرق روافد وادي الرُّمة المنحدرة من الحرة نفسها ، والسهول الواقعة بينها وبين بلاد طي غرب سلسلتي جبال سلمى وأجا وما غربها من جبال .

ويحدها من الشمال الشرقي رمال النفود الكبير المسمى قديماً رمل عالج في طرفه الغربي . ويحد هذه الحرة من الشمال السهل الممتد فيها بينها وبين تيماء وهذا السهل يعرف الآن باسم الجهراء ، وقديماً باسم الجناب .

ويحد الحرة من الناحية الغربية الأودية المنحدرة فيها والتي تكوّن روافد وادي القُرى وهو في الحقيقة ليس واديا واحداً بل عدد من الأودية ترفد وادي الحمض الممتد من أودية المدينة .

وهذه الحرة يطلق عليها قديماً أسماء كثيرة فجنوبها الشرقي يعرف بحرة فدك ، وشمالها الشرقي يعرف بحرة ضرغد أو لابة ضرغد ، ووسطها الذي فيه خيبر يعرف باسم حرة النار ، وقسمها الغربي الذي يقع غرب خيبر ممتداً من شمال المدينة حتى قرب وادي القرى يعرف قديماً باسم حرة ليلى .

وفي هذه الحرة أودية تتكون في منعطفاتها واحات خصبة، تكثر فيها ينابيع المياه ، ومن ثم أضبحت آهلة بالسكان مثل واحة خيبر ، وواحة فدك الواقعة في شرقها ، وواحة يديع الواقعة بقرب فدك في جنوبها ، وواحة ضرغد الواقعة في شمالها . وهناك أمكنة أخرى خصبة في الحرة غير هذه الواحات في شمالها ولكنها أصغر مما ذكرنا .

وينحدر من هذه الحرة أودية كثيرة فيها واحات خصبة أيضاً .

من تلك الأودية وادي الطّرف المعروف الآن باسم الصويدرة .

ويجاور وادي الطرف وادي الشُّقرة حيث يصبّان معاً .

وبعده شرقاً وادي النُّخَيل وبقربه شرقاً وادي نخل المعروف الآن باسم الحناكية ، وكل هذه الأودية فيها مياه وقرى وسكان .

ومن أودية الحرة أيضاً الشرقية أودية الحويط « يديع » والحائط « فدك » وضريغد وضرغد ، وكلها تتجه شرقاً حيث تكون الروافد القوية لوادي الرمة وهي أودية فيها قرى وسكان .

وينحدر من الحرة الى الشمال أودية تفيض في أطراف السهول الواقعة عن الحرة شمالاً .

وفي الشمال الغربي أودية خيبر وما بقربها .

ثم إن طبيعة هذه الحرة من حيث التكوين طبيعة تميزها بوعورة مسالكها ووقوع كثير من واحاتها محاطة بآكام صخرية مرتفعة وان لم تبلغ حدّ الجبال غير أن انخفاض ما يجاورها يجعلها على درجة من الحصانة ، ومن ثم كانت معروفة قديماً بعجز الغزاة عن التوغل فيها. كما في شعر النابغة الذبياني – وذبيان من غطفان سكان هذه الحرة قديماً – لما خاف من النعمان الملك [1] .

وفي ظهر الحرة توجد قيعان ذات قرية صالحة للزراعة وان كانت مياهها قليلة وخاصةً أوقات الجدب وقلة الأمطار .

هذا وصف موجز لهذه الأرض التي تقع واحة خيبر والواحات الأخرى التي سنتحدث عن بعضها فيها .

اما الأسماء التي تطلق على هذه الحرة في الوقت الحاضر فهي حرة خيبر في الوسط ، وحرة الكورة في الجنوب الغربي ، وحرة هتيم في الشمال وقد تدعى

---

(١) قال : قد عيّرني بنو ذبيان خشيتَهُ ... وهلْ عليَّ بأنْ أخشاه منْ عارِ
فإن غَضِبْتُ ، فإني غير منفلتٍ ... منّي اللصابُ ، فجنبا حَرّة النارِ
فموضعُ البيتِ في صَمّاء مظلمة ... تُقيِّدُ العيْر عَنْ شَدٍّ وتكرارِ
تُدافِعُ الناسَ عنّا حين نركبها ... من المظالم ، تُدْعَى أم صبّارِ
« ديوان النابغة » تحقيق الدكتور شكري فيصل - ٨٣/٨٤ -

هذه حرة ثـنـان ، وقد يطلق على كل هذه الحرّة اسم حرة هتيم لأن هذه القبيلة هي التي تسكن أكثر مواضعها .

وتشمل هذه الحرة مساحة واسعة من الأرض فهي تبتدىء من جهة الجنوب بخط العرض ٣٥َ/٢٤° تقريباً، إلى خط العرض ٣٠َ/٢٦° شمالاً تقريباً . ومن الشرق بخط الطول ٣٥َ/٤٠° – تقريباً الى ٣٠َ/٣٨° غرباً تقريباً .

أمّا سكان هذه الحرة في القديم فجلهم من قبيلة غطفان وقبائل أخرى تجاورها ففي غرب الحرة فيما بينها وبين المدينة قبيلة أشجع ، وفي وسطها فيما بين خيبر وفدك قبيلة بني مرة، وفي شمالها قبيلة فزارة وفي طرفها الغربي يخالط فزارة عنزة وقد يختلط معهم بعض افخاذ من قبيلة جهينة القحطانية النسب .

أمّا في الواحات فيسكنها أخلاط متحضرون ممن جهلت انسابهم وأصبحوا يشتغلون ببعض الصناعات والمهن التي كانت القبائل العربية تترفع عنها ولكن الصلة بين هؤلاء السكان وبين القبائل العربية كانت قوية، ذلك ان القبائل تضفي عليها حمايتها لأنها تجد في هؤلاء المتحضرين خير عون على الحياة ، فزراعة الواحات وصناعة الأدوات من أسلحة وأقتاب ولُجُم ، وصياغة الحليّ ، وعمل المنسوجات مما يحتاج إليه أهل البادية كل هذه الأشياء توجد متوفرة في الواحات التي ترتادها القبائل للامتيار في اكثر أوقات السنة .

يضاف إلى ذلك وجود سوق عام في كل سنة كان فيما قبل الإسلام يقام في النطاة في واحة خيبر وتقصده القبائل العربية من سكان الواحة ومن غيرهم من القريبين منهم كما يقصدون الأسواق العربية الأخرى في عكاظ في أعلى نجد، وفي المجاز بقرب عرفات في الحجاز ، وفي دومة الجندل في الجوف ، وفي البحرين اقليم الاحساء ، وفي دَبَا في عُمَان ، وفي الرابية في حضرموت في اليمن .

سكان هـذه البلاد الآن :

سكان واحة خيبر اكثرهم من الموالي السود البشرة ، وملاّك أكثر نخيل

هذه الواحة قبيلة عنزة ، وفي السنين الأخيرة انتقل ملك كثير من النخيل والأرض إلى أناس من أهل المدينة أو غيرها من الحضر ، ويقال مثل هذا في واحة فدك (الحائط والحويّط) .

أما أكثر مواقع الحرّة من أودية وقرى فإن سكانها من قبيلة هُتَيم .

ويحسن هنا أن نورد بحثاً عن هذه القبيلة، كنا نشرناه في مجلة «العرب»[1]:

إن عدداً من القبائل العربية الصريحة النسب كثيراً ما أُلصق بها من الأمور التي تضعف حسبها الشيءَ الكثير ، وكثيراً ما وُصِفت بصفات تجعل منزلتها بين القبائل العربية أنزل بكثير مما هي عليه ، ولو حاولنا إيراد الأدلة على ذلك لاحتجنا إلى توسع في الكتابة أكثر مما تتسع له صفحات هذه المجلة . وحسبنا الاكتفاء بالقول بأنه قلّ أن توجد قبيلة عربية صريحة النسب لا يوجد من المطاعن في نسبها ما يدركه كلُّ معني بدراسة أنساب القبائل ، من قبيلة قُريش إلى من دونها من القبائل .

ومما تجب ملاحظته أن هناك قبائل عربية كثيرة ، لم تذكر في كتب النسب التي وصلت إلينا ، وإن مرَّ ذكر بعضها فعلى أساس أنها فخذ أو اسم جدّ بدون إيضاح أو تفصيل ، وسبب ذلك أن الذين ألفوا عن أنساب القبائل العربية ، كانوا بعيدين عن مواطنها فلم يسجلوا إلا الانساب المشهورة أو التي وفد زجال منها على حواضر الخلافة ومدنها منذ القرن الثاني الهجري فما بعده .

وإذا أردنا أن نتعمق في دراسة أصول القبائل ، فينبغي لنا الرجوع إلى معرفة مواطنها القديمة وأماكن سكناها في الجزيرة ، إذ ليس صحيحاً أن كل القبائل العربية غادرت مواطنها ، لا شك أن موجات الهجرات القبلية من جنوب الجزيرة إلى وسطها فشمالها، قد زحزحت قبائل عن مواطنها الأصلية، ولكن هناك قبائل بقيت منها بقية جاورت القبائل التي استولت على بلادها،

(١) ص ٨٦٩/٨٦٣ (السنة الثالثة)

واختلطت فيها بسبب ضعفها عن مقاومتها اختلاطاً سبب لها ترك انتسابها إلى أصلها القديم .

وإذا نظرنا إلى قبيلة هُتيم وجدناها تسيطر على أماكن منيعة ، ووجدناها لا تختلف عن غيرها من القبائل العربية الصريحة النسب في كثير من عاداتها وأخلاقها ، بحيث لا يستثنى من ذلك سوى أمور قد يلجأ إليها الضعيف مضطراً ، ثم تصبح هذه الأمور بالنسبة إليه أموراً عادية . ان قبيلة هُتيم منتشرة في أودية الحرة الشرقية من الحجاز ، التي كان يطلق عليها قديماً أسماء كثيرة ، منها حرة النار ، وحرة ليلى ، وهما في الواقع حرتان متجاورتان ، وحرة غطفان وأم صبّار ، وتقع في وسطها واحة خيبر ، وفي شرقها واحة فدك ، المعروفة الآن باسم الحائط والحويّط ، الحائط هو فدك والحويط كان يسمى يَدِيع بالياء المثناة التحتية ، بعد دال مهملة فياء أخرى فعين مهملة ، هذه الحرة أو مجموعة الحرار يسيطر على القسم الشرقي منها قبيلة هُتيم ، وكانت في العهد القديم من منازل قبيلة غطفان ، ذات الفروع الكثيرة ، التي لم يبق منها محافظاً على اسمه سوى فرع (بني عبد الله) الذين يعدون الآن من قبيلة مطير ويقيمون في عالية نجد .

واستيطان هُتيم في هذا الجزء لا شك أنه قديم ، مما يحمل على القول بأن فروعاً كثيرة من قبيلة هتيم الحاضرة هم من بقايا قبيلتي غطفان ومحارب ، العدنانية الأصل ، والغالب أن القبائل كثيراً ما تحافظ على أوطانها ، وخاصة إذا كانت منيعة بجبالها وأوديتها كالحال في بلاد هتيم الآن .

ولا نجد فيما بين أيدينا من الكتب ذكراً يوضح لنا ما نحتاج توضيحه عن هذه القبيلة ، وان كنا نجد إشارات موجزة تدل على قدمها فنجد الهجري يذكر ممن نقل عنهم من أعراب الجزيرة في القرن الثالث وأول الرابع الهجري ، يذكر الهتيمي ، وينسبه إلى بني عمرو بني كلاب ، وبنو كلاب هؤلاء أقوى قبيلة تسيطر على وسط نجد ، ولكننا الآن لا نجد أحداً ينتسب إلى هذه القبيلة ، فقد تفرقت فروعها ، واختلطت في قبائل عرفت بأسماء حديثة .

ونجد النسابين يذكرون بني هتيم من فروع بني ظفر من الأوس سكان المدينة .

ونجد الزمخشري يروي في كتابه « الجبال والمياه » لشاعر هتيمي هذا البيت :

اما قدعدا عن ركبة ُولد رافع وعن نملى والبرّتـين منيف

ونجد مؤرخي المدينة عندما يحددون جبل ثور ، ينقلون عن رجل من هتيم تحديده ، ويصفون هتيماً بمعرفتهم بالمواقع ، كما نجد في شعر ابن مقرب المتوفى سنة ٦٢٩ يقول :

فإن هتيماً لو حوت مال طيءٍ هتيم فلا يغررك طيف خيالِ
سترجع فيما عودت لحميرهـا وتحريق اشنان وخصف نعالِ

أي أن هتيماً كانت في ذلك العهد لا تستنكف عن الحرف والأعمال التي تترفع عنها القبائل الأخرى ، ولعل هذا من الأسباب التي وضعتها في أعين العرب الآخرين ، فقد كانوا يعيرون سكان اليمن – وهم العرب الأقحاح – بأنهم بين ناسخ برد ، ودابغ جلد .

ويرى بعض الكتاب المتأخرين مثل البتنوني في رحلته ، أن من أسباب ضعة هتيم أنهم خفروا بذمة جار لهم فرمتهم العرب بقوس العداوة ، فأصبحوا محتقرين لديهم ، وآخرون يرون أنهم من بقايا عبس ، وانهم بعد وقعة بغا القائد العباسي سنة ٢٣١ بعبس وبني سليم وبني نمير تشتتوا وضعفوا .

وعلى كل حال فإن في هتيم من صفات الأصالة ومن الأخلاق العربية ، ولهم من المميزات القبلية ما يحمل على القول بصراحة نسب كثير من فروعهم ، وان أصبحت القبائل الضعيفة الأخرى ممن جهلوا أنسابهم ينتسبون إلى هتيم أو يطلق عليهم هـذا الاسم ، حتى أصبح صفة لكل ضعيف يربأ عنها من كان صريح النسب .

وبعد هذه المقدمة يحسن أن نورد شيئاً من فروع هـذه القبيلة نقلاً عن رجل اجتمعت به أثناء رحلتي إلى بلاد خيبر في شهر صفر سنة ١٣٨٨ ، قال في ذكر فروع قبيلة هتيم :

• – الرشايـدة ينتسبون إلى رشيد بن الزوْل من عبس ، ويجمعهم هم والعوازم جد واحد هو الزول .

والرشايدة قسمان : قسم يسكنون الضغن ، ويعرف قديماً باسم ضغن عدنة ، وهو القسم الشرقي المنحدر من أودية الحرة في السهل ، وكبير هؤلاء هو ابن بَرّاك .

وقسم يسكنون في الحرة في وادي السُّرير بالتصغير الذي يصب في وادي خيبر ، وكبير هؤلاء ابن سمرة ، وهذه أقسام هذه القبيلة :

١ – المضابرة : وهم قسمان : قسم يسكن أبان الجبل المعروف في القصيم ، وقسم يسكن العُقيلة في أعلى وادي الغرَس، أكبر روافد وادي خيبر .

٢ – آل برّاك : وهؤلاء يسكنون الضِغْن في ضرغد وضريغد والنبوان ويلاحظ أن القسم الشرقي من الحرة يعرف قديماً باسم حرة ضرغد .

٣ – آل جِلْدان : وهم جماعــة ابن شميلان يسكنون الحُليفة ، واد ينحدر من الحرة ويصب في وادي الرُّمـة . وجمـاعة ابن هادي سكان الروض ، وادٍ ينحدر من الحرة ويجتمع بوادي الحُليفة .

٤ – المهيمزات (المهامزة) (١) جماعة ابن هديبان ، سكان المُرَيْر ، وهو وادٍ قبلي الحويّط في الحرة . (٢) جماعة ابن رفادان سكان صُفَيط ، وادٍ يفيض في الحليفة . (٣) سـكان العوشزي ، بقرب صُفَيط . (٤) جماعة ابن خزيم سكان أمّ هَشيم ، قبلة الحليفة ، بقربهـا . (٥) سكان الرُّقَب ، وهو واد ينحدر من جبل العلَم ويصب في الرمة .

٥ – العوامرة : سـكان أبْلَة ، وهي هجرة تقــع في وادي أبلة ، ينحدر من الحرة ، بين الحائط والحويط ، ومنهم سكان أبا الصُبّان ،

وادٍ تفيض فيه أبلة بين الحائط والحويط . ومنهم سكان كرانيف ، وادٍ يقع شرق أبا الصُّبان ، ويفيض الى جهة الحليفة .

٦ ـ الشتواعلة : سكان البِدْع ، وهو واد بين أبلة ، وأبا الصُّبَّان .

٧ ـ السمَرات : (١) : جماعـــة سعود بن فالح بن سمرة سكان الدِّيسة في وادي الشُّرَيْر ، يصب في وادي خيبر ، وفروع الديسة ، يصب من الرأس الأبيض (وادي الجَوْل) . (٢) جماعة سند بن سرور بن سمرة ، سكان البَحْرة ، وهو واد يصب في وادي خيبر ، فروعه وادي الغَرَس .

٨ ـ الفرادسة : (١) جماعـــة معوض بن فضليَّة سكان الثَّمَد وهو واد ينحدر من وادي الغرس ، ويصب في وادي خيبر . (٢) جماعة خمسان بن حيزان سكان الخرزة وهو واد يفيض من وادي الحصيد ، ويصب في خيبر .

٩ ـ الذِّيبَة : (١) جماعة علي بن هُون ، سكان الصُّلصُلة وهو واديصب في الغرس ، ويفيض على خيــبر ، (٢) جماعة ابن رُوَيْضي سكان الصُّلصلة السفلى .

١٠ ـ البراقعة جماعة عيد بن ناحي ، سكان المطاوي، وهو واديقع شرق العُقيلة ، ينحدر في وادي الغرس .

١١ ـ العراعرة : سكان اللِّحِن ، واد يقع بين المدينة والصُّلصلة،فروعه الشُّفية بقرب الصُّلصلة ، وينحدر حتى يصب في وادي الحمض .



من تاريخ خيبر القديم

خيبر من اخصب واحات الجزيرة فهي تقـع في مجتمع اودية تنحدر من سلسلة جبال بركانية تدعى الحرار، فتتسرب مياه هذه الاودية في وهدة منخفضة من الأرض بحيث تكون ينابيع جارية يطلق عليها اسم عيون ، وعلى مجاري هذه العيون توجد حدائق النخيل في أرض واسعة ، ومن تلك الأرض مـا تتسرب إليه مياه كثيرة يكون مستنقعات تنمو فيها نباتات طفيلية لا يستفاد منها بل تكون مـأوى للبعوض الذي يسبب في هذه الواحة مرض الحمى (الملاريا) .

وكان العرب بطبيعتهم أُلَّاف تنقل وعدم استقرار إذ حياتهم كانت تقوم في الأصل على تربية الماشية، والتحضر بينهم يعتبر الدرجة الثانية او الطور الثاني من اطوار حياتهم ، ولهذا فان سكنى الواحات يرجع في الأصل إلى قبائـل عريقة في القوم ، ولا شك أن واحة خيبر كانت من مواطن الحضارة في غرب جزيرة العرب ، حيث يتوفر فيها خصب الأرض ووفرة المياه وحصانة الموقع، ولكن الطبيعة العربية تتطلب الحرية والانطلاق. ومن ثم فإن من أَلِف الإقامة في هذه الواحات لا بد من أن يكون قد تجاوز طور البداوة .

وتاريخ العرب في قديمـه مجهول أتم الجهل ، ولم يبدأ تدوينه إلا قبيـل الإسلام بزمن يسير، وبدأ في أول أمره يقوم على أسس هي أقرب إلى الخرافة منها إلى الواقع .

ولولا ما كشف من مخلفات المتقدمين من آثار مكنت الباحثين من معرفة قسم لا يزال يعتبر ناقصاً من تاريخ العرب في مختلف انحاء الجزيرة لامكن القول بأن التاريخ العربي قبل الاسلام لا يزال مجهولاً، والجزيرة العربية لا تزال بكراً وخاصة في كثير من انحائها حيث لم يتسنّ لعلماء الآثار والمنقبين دراسة تلك الجهات ، وعلى هذا يصح القول بأن واحة خيبر لا تزال من الواحات المجهولة بالنسبة لماضيها القديم ، وكل ما يقال عنها في عهودها الماضية فهو أقرب إلى الظن منه إلى الحقيقة .

اعتاد بعض مؤرخي العرب أن يعللوا الاسماء القديمة للمواقع التي يجهلون تاريخها في الجزيرة تـعليلاً هو أقرب إلى الخرافة منـه إلى الحقيقة فأبو القاسم الزجاجي وهو عالم لغوي جليل يقول: سميت خيبر بخيبر بن قانية بن مهلائيل ابن ارم بن سام بن نوح ، وهو أخو عبيل أخي عاد بن ارم وهو عم الربذة وزرود والشقرة بنات يثرب [1] وكان خيبر أول من نزل هذا الموضع . وهذا التعليـل بـرواة القصص وأخبار السمر الصق منه بعلماء التاريخ ، فقد حاول الزجاجي ان يحشر في كلامه عدداً من اسماء مواضع الجزيرة مثل الربـذة وزرود والشقرة ، ويثرب وكلها تطلق على مواضع لا تزال معروفة ، غير ان الباحثين المتأخرين يوافقون على ما جاء في بعض الكتب، من أن كلمة خيبر تطلق على الحصن في اللغة العبرية التي هي شقيقة اللغة العربية تجتمع في الارومـة السامية .

وهنا تخطر للقارىء فكرة صلة اليهود العبرانيين بهذا الموقع ، وهي صلة نجد المتقدمين يركزون عليها تركيزاً قوياً شأنهم ذلك في كثير من مواضـع الجزيرة التي جاء الاسلام ومن سكانهـا من يدين باليهودية ، ولكن اليهودية عند المتقدمين وفي الواقع لم تكن تطلق على جنس وإنما تعني من اتصف بصفة أي أن اليهودية قد تطلق على غير جنس اليهود ويعنى بهـا من يدين بالدين

---

(١) « معجم البلدان » .

اليهودي أياً كان جنسه ، ولعل مما يوضح ذلك معرفة ان قبائل يمنية هاجرت إلى شمال الجزيرة واستوطنتها في يثرب وفي فدك وفي خيبر [١] ، وهي عربية الأصل والمنشأ ، أما الديانة فهي بالنسبة إلى هذه القبائل تعتبر أمراً ثانوياً .

وكانت القبائل العربية بحكم طبيعتها البدوية بحاجة إلى كثير من الأمور التي تضطرها إليها الحياة من صناعةوزراعة وتجارة وغيرها مما لم تألفه الطبيعة العربية ، وكانت واحة خيبر تقع في أرض واسعة ، تحاط بالحرار والأودية الكثيرة الخصبة المراعي والمناهل المتعددة ، وتحلها قبل ظهور الإسلام قبيلة غطفان ذات الفروع العديدة ، فأصبح نفوذ هذه القبيلة مسيطراً على الواحة وما يجاورها ، وأصبح أولئك الذين يعيشون عيشة استقرار وتحضر خاضعين لنفوذ القبائل ، بل أكثر من ذلك لا يستطيعون العيش إلا بحمايتهم ، ومن ثم عرف سكان واحة خيبر بصلتهم القوية بقبيلة غطفان ، أما أصلهم فكان مزيجاً مختلطاً من قبائل متحضرة منها ما يرجع إلى أصل يمني عميق التحضر ، ومنها ما يرجع إلى أناس طارئين دفعتهم حرفة المعيشة في أول الأمر ، ثم دفعهم عامل القوة والسيطرة إلى النزوح إلى هذه البلاد، فعمروا الواحة واستثمروا خيراتها عمراناً واستثماراً مرتبطين أتم الارتباط بقوة قبيلة غطفان الحامية للواحة ، والتي تجد فيها مرتعاً خصباً وأسواقاً رائجة البضاعة بكل ما تحتاج إليه تلك القبائل من أسلحة وكساء وثمار تدخرها زمناً طويلاً للحاجة . وما دامت حاجتها مكفولة فهي لا تريد أكثر من ذلك وهي تحوط هذه الواحة بقوتها ومنعتها .

هذا المجتمع الهادىء الوادع المستقر ، وجد من العرب المحيطين بهوالقريبين منه من يهيىء له حياة مستقرة هادئة ، زمناً ، فقد كانت قبيلة غطفان تبسط نفوذها على هذه الواحة ، بسطاً يتلاءم مع ما تتصف به الحياة البدوية من بساطة ، وما عرفت به من قناعة وزهد ، وما اتصفت به من صفات كريمة من الوفاء والصدق ورعاية ما للجار من حقوق .

---

(١) التاريخ العربي القديم ص ٢٤٩ .

ولكن هذا المجتمع لم يبق على حالته بل تكدر صفاؤه ، وتغيّر بأخلاط غريبة انتقلت اليه مضطرة ، وكانت تحمل حقداً وعداء وضغينة ، أرادت نشر ما تستطيع نشره من كل ذلك ، فوجدت سكاناً على جانب من السذاجة والضعف جعلهم ينقادون ويخضعون ، ووجدت جانباً آخر على درجة من الجهل وعدم الاهتمام بما قد يؤول اليه الأمر في هذه الواحة ، معتقداً هذا الجانب أنه سيبقى متمتعاً بما أراد منها ، وهذا كل ما يطمح اليه .

لقد أصبحت واحة خيبر - بعد أن قوي الإسلام وانتشر في الجزيرة - مجتمعاً لطائفة كبيرة من أعداء الإسلام ، فقد انتقل اليها من المدينة من اليهود بنو قينقاع في السنة الثانية من الهجرة لما أجلاهم الرسول ﷺ من المدينة ، ثم بنو النضير في السنة الرابعة ، وانضاف الى هؤلاء غيرهم ممن يحمل للدعوة الإسلامية من العداوة ما لم تمكنه ظروفة من وجود متنفَّس له في غير هذه الواحة الواسعة التي أصبحت في هذه الأيام الأخيرة الملجأ الوحيد لكل من أحس بأنه بحاجة إلى وجود المكان الهادىء الآمن الذي يستطيع فيه من التحرك أية حركة أراد ، ضد هذه الآراء والأفكار التي يحمل لها العداوة والكراهية . صفتان تتصف بها هذه الواحة ، تتيحان للطارئين عليها التحرك بنشاط ومقدرة وقوّة ، أولى الصفتين : أن السكان الأصليين يعيشون عيشة هدوء واستقرار ، وانصراف تامّ عن كل ما يكون مدعاة أو مبعثاً للتفكير ، مما هو بعيد عن إدراك هؤلاء السكان وتصورهم ، والصفة الثانية أن القوة التي تقوم بحماية هذه الواحة كانت على درجة من الضعف والسذاجة ، تجعلها لا تدرك ما يدور حولها من أحوال عامة قد تؤثر في حياة أهل هذه الواحة تأثيراً يغير مَجْرى هذه الحياة .

ومن أهم تلك المؤثرات استقبال هذه الواحة للمهاجرين إليها ممن يحملون مختلف الآراء والأفكار التي لا تنسجم مع ما يتصف به أهل الواحة من هدوء واستقرار فبنو النضير - من اليهود - أناس موتورون ،يحملون حِقْداً دفيناً ،

وعِداءً مستعراً للرسول ﷺ وأصحابه ، وها هم قد وجدوا في هذه الواحة ملجأ ومستقراً ، وتجار اليهود الآخرون ممن يعطفون على قومهم قد وجدوا أيضاً أخصب مكان لتنمية ثروتهم تنمية لا تقف عند حد الاستثمار المشروع بل تتجاوزه إلى أن يصرف هذا الاستثمار بطرق أخرى ، لا يدرك أهل هذه الواحة الغاية منها ، ولو أدركوا ذلك لما استطاعوا أن يتخلصوا منها ، فالحاجة والجهل ، والمكر والخديعة ، والحذق في فنون إجتذاب المال والحصول عليه ، والعداء المستحكم لهذه التيارات الفكرية التي تدعو لانقاذ البشرية من أغلال العبودية بمختلف صورها ، كل ذلك كوّن في هذه الواحة مجتمعاً من أحط المجتمعات البشرية ، وأعمقها في الخبث والمكر والدهاء ، والعداوة لتلك الأفكار الحُرّة الحديثة القوية التي وجد فيها كل طامحٍ إلى حياة الحرية والكرامة والعزّة كل ما يصبو إليه ، ومن ثمّ انقادت لها قبائل الجزيرة التي لا تزال تعيش على نقاء من الفطرة ، وصفاء من النفوس ،واكتفاء باليسير من وسائل العيش مع الكثير من الاستمتاع بالانطلاق في المجال الرحب الواسع في ميادين الحياة ، إنطلاقاً يتلاءم مع ما تتصف به النفس العربية من إباء وشمم وكرم ، غير أن هذا المجتمع الذي اتصفت به بلاد خيبر إبّان إنتشار الإسلام أصبح متصفاً بأسوإ ما تتصف به المجتمعات البشرية ، خبثاً ومكراً ، وضَعْفاً في الأخلاق ، وسيطرة من القوي على الضعيف واستبعاداً من الغني للفقير ، وخضوعاً وانقياداً من الضعيف للقوي المسيطر إلى أبعد حدود الانقياد ، حتى أنقذ الله هذه الواحة بظهور الإسلام .

جاء الإسلام وخيبر على هذه الصفة وكل من يسكن في الواحات الزراعية عالة على حماية القبيلة الغطفانية ، وليس كل من يسكن فيها من البعيدين عن العرب بل هم عرب في كثير من أخلاقهم وفي معاملاتهم ، بل منهم من هو صريح النسب في ذلك ، كما نجد في مرحب اليهودي الذي سجلت الكتب

العربية جانباً من بطولته ، فهو ليس يهودي النسب بل من قبيلة حمير القحطانية الصريحة النسب كما صرح بذلك ابن هشام العالم العربي الحميري النسب فقد قال : مرحب من حمير [١] .

ولقد كانت خيبر من أسواق العرب المعروفة في العهد الجاهلي . وسوقها يعرف بسوق نطاة خيبر ، ومعروف أن العرب كانت لهم أسواق عامة لها دورات سنوية ، وكان من بينها هذا السوق التي كانت تقام في زمن محدد معروف ، وهو : سوق يقام في أول السنة في شهر ربيع الأول ، وكانت قبيلة غطفان تحمي هذا السوق وتؤمن لمن يريد التسوق فيه وسائل الحماية والأمن ، وبقيت تلك السوق معروفة حتى ظهر الإسلام .

وبعد أن توطد أمر الإسلام في المدينة انتقل كثير من يهودها إلى خيبر التي لا تزال غير خاضعة للنفوذ الإسلامي ، ووجد أهلها في حماية الغطفانيين ما يؤمن لهم الاستقرار مدة قصيرة من الزمن بقيت حتى تم الاستيلاء على هذه الواحة بغزوة الرسول ﷺ لها في السنة السابعة من الهجرة على ما سيأتي تفصيله .

إنما يمكن أن يقال في هذه الكلمة هو أن خيبر بلاد عربية سكانها عرب ، وحماتها عرب من طبيعتهم الوفاء وحماية الجار ، أما اختلافهم مع طبيعة هذه الأرض فهو اختلاف ناشيء عن الفتهم للحرية وعدم ممارسة كثير من المهن التي يرون في ممارستها حطة ومنقصة ، فالعرب يرون أن الفلاحة من دواعي الذل والاستكانة ، ومن هنا جاء الأثر « إذا أخذتم بأذناب البقر وتركتم الجهاد ، ضربكم الله بالذلة » فالعرب يرون أن التحضر يفقدهم أهم ميزة حباهم الله ، ويرون أن العيشة أياً كانت ما دامت حرة طليقة هي العز وفيها كل ما يطمحون إليه من قوة ومنعة .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٣٤٨ طبعة مصطفى الباب الحلبي بمصر .

ولقد عرفت خيبر قبل الإسلام بتقدم عمراني ، وكانت توصف بأنها : (قرية الحجاز ريفاً ومنعة ورجالاً)[1] . وكانت صلة القرشيين بها قوية ، ففيها سوق النطاة الذي يعتبر من أشهر أسواق العرب ، واتصالها بالمدينة وما حولها قوّى الصلات بينها وبين مدن الحجاز كمكة .

ويقص المؤرخون خبر ذهاب عبد المطلب بن هاشم عندما نذر ذبح ابنه عبد الله ، الى عرافة خيبر فاستشارها ، فأشارت عليه بما تخلص به من نذره ومعروف ان العرافة خرافة ، وان استشارة العرافين من الأمور التي أبطلها الإسلام .

ويتردد اسم خيبر كثيرا في أشعار الجاهليين ، وتعتبر من بلاد قبيلة غطفان .

أما استيطان اليهود للواحة ، فأقدم ما عرف عنه مؤرخو العرب من أن موسى بن عمران النبي (ع . س) بعث بعثاً إلى الحجاز لقتال العمالقة ، وأمرهم بعدم الإبقاء على أحد ،غير انهم استبقوا غلاماً صغيراً عادوا به،فكان أن استقروا في نواحي من الحجاز .

ولعل لانتشار الديانة الموسوية في هذه الواحة من الأثر ما حمل علىالاعتقاد بأن السكان يمتون بنسبهم إلى اليهود .

لا شك انه يوجد بين السكان من التجار والصناع يهود ، ولكن القول بأنه كان لهم من النفوذ والقوة والسيطرة ما مكنهم من طرد سكانها الأقدمين والاستيلاء عليها ، فمما لا تؤيده نصوص تاريخية قوية صحيحة .

ويقول ابن خلدون : ثم بعث – يوشع – من بني إسرائيل بعثاً الى الحجاز فملكوه ، وانتزعوه من أيدي العمالقة ملوكه ونزعوا يثرب وبلادها وخيبر .

---

(١) تاريخ ابن جرير ج ١ ص ١٥٨٦ .

أي ان سكان خيبر في القديم كانوا من العمالقة ، والعمالقة اسم يطلقه العرب على الأمم القوية العمرانية التي يجهلون تاريخها [1] .

ويذكر ابن خلدون أيضاً أن داود عليه السلام لما خلع بنو إسرائيل طاعته وخرجوا عليه بابنه أشبوشت ، فرّ مع سبط يهوذا إلى خيبر ، وملك ابنه الشام ، وأقام هو وسبط يهوذا بخيبر سبع سنين في ملكه حتى قتل ابنه وعاد إلى الشام [2] .

والخبران اللذان أوردهما ابن خلدون وغيره من مؤرخي العرب مما لا يطمئن اليهما الباحث ، ذلك أن واحة خيبر تقع في داخل الجزيرة ، في حرّة تكتنفها القبائل العربية من جميع جوانبها ، وليس من المستطاع الاستيلاء عليها بدون إخضاع تلك القبائل .

والذي يؤيده العقل والمنطق أن خيبر واحة زراعية قديمة قدماً ليس من المستطاع تحديده بصورة قاطعة ، وأهل هذه الواحة كانوا قبل ظهور الإسلام — كغيرهم من سكان الواحات الزراعية في الجزيرة — يعيشون عيشة هي أقرب إلى الاستقرار والهدوء منها إلى أي نوع من أنواع الحياة التي تعيشها الأقوام التي تتغاير طبيعة سكناها وتختلف أحوالها عن أهل هذه الواحة التي أصبح أهلها لا يعرفون أي نمط من أنماط الحياة التي تصرفهم عن اللصوق بأرضهم ، أي انهم أصبحوا في معزل عن كل ما يفصلهم عن حياتهم التي يعيشونها ، وهم في أكثر الأحوال مزيج من سائر الأجناس ، سكان قديمون عرفوا بهذه البلاد منذ أن عرفت ، وجهل أصلهم ، وطوائف من العرب التي سئمت حياة البداوة لسبب من الأسباب ، فآثرت طريقة من العيش في هذه الواحة هي أقرب إلى الهدوء من حياة البادية ، وتجار وجدوا في هذه الواحة كل ما يتوق اليه التاجر من ربح مادي ، فسوقها السنوي العام الذي تفد اليه القبائل

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٢ / ٤٩ / ١٦٨ .
(٢) تاريخ ابن خلدون ٢ / ٥٩٣ .

العربية من مختلف أنحاء الجزيرة كل عام ، وهذه الغلال الكثيرة في هذه الواحة الخصبة من تمر وقمح وشعير ، من الممكن الحصول عليه مقابل أشياء زهيدة مما يحتاجها السكان من كساء وغيره ، ثم هناك أناس امتهنوا الصناعة — وهي حرفة رائجة في بلاد ينفر أهلها من تعاطيها — وهم أحوج ما يكونون إلى من يقدم لهم من وسائل الدفاع عن أنفسهم ما يقيهم من سلاح ودروع ، وما يحتاجون اليه في منازلهم من أوعية ، وما تضطرهم حياتهم الى الاحتماء منه كالبرد والحر في أشد أوقاته من كساء وغيره ، فتكونت طبقة غريبة في أحوالها ، لا يجمع بين أهلها سوى الجشع والطمع والسعي لاكتساب المال من أية طريقة تمكن من الحصول عليه ، وجاء الإسلام وهذه الطائفة هي المسيطرة على هذه البلاد .

ولقد كانت خاتمة هذه الطائفة—التي أفسدتها الحضارة ودنست أخلاقها وبلغت إلى مرحلة من الخسة والدناءة لا تحترم عهداً ولا تفي بمواثيق ولا تعرف ذمة— أن طهر الله منها هذه الأرض العربية، لقد كان الرسول ﷺ وخلفاؤه على منتهى الوفاء بما اتفقوا عليه مع اليهود ايا كان سكان الواحة ديانة أو نسباً، ولكنهم جعلوا يعملون في الدس والخفاء اعمالاً تتنافى مع العقد الذي ابرم بينهم وبين الرسول ﷺ ففي عهده ﷺ قتلوا عبدالله بن سهل وأنكروا ذلك فوداه الرسول ﷺ بمائة ناقة ، وفي عهد الفاروق ارتكبوا جريمة أخرى فقد ذهب ابنه عبدالله ومعه آخرون إلى أموالهم بخيبر ، وفي أثناء الليل ، وبينما كان عبدالله نائماً هجم عليه منهم من فدع يديه من مرفقيه ، فاستصرخ صاحبيه اللذين حملاه إلى المدينة في عهد عمر بن الخطاب ابيه فقام في الناس خطيباً قائلاً : أيها الناس ان رسول الله ﷺ كان عامل يهود خيبر على أنا نخرجهم إذا شئنا وقد عدوا على عبدالله بن عمر ففدعوا يديه كما قد بلغكم ، مع عدوهم علي الانصاري قبله لا نشك أنهم أصحابه ، ليس هناك عدو غيرهم فمن كان له مال بخيبر فليلحق به ، فاني مخرج يهود . فأخرجهم . لقد افتتح رسول الله ﷺ خيبر عنوة ، خمسها وقسمها بين المسلمين ، ونزل من نزل

من أهلها على الجلاء بعد القتال فقال لهم رسول الله ﷺ : «إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال ، على أن تعملوها وتكون ثمارها بيننا وبينكم ، واقركم ما اقركم الله». فقبلوا ، فكانوا على ذلك يعملونها وكان رسول الله ﷺ يبعث عبدالله بن رواحة ، فيخرص ثمرها ، ويعدل عليهم في الخرص فلما توفي النبي ﷺ أقرهم أبو بكر (ض) بعد رسول الله ﷺ حتى توفي ثم أقرهم عمر (ض) صدراً من امارته حتى سنة ٢٠ من الهجرة وبلغه أن رسول الله ﷺ قال في وجعه الذي قبضه الله فيه: « لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان » ففحص عمر عن ذلك حتى بلغه الثبت ، فأرسل إلى يهود فقال : ان الله قد اذن في جلائكم قد بلغني أن رسول الله ﷺ قال : « لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان » فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ من يهود فليأتني به أنفذه له ، ومن لم يكن عنده عهد فليتجهز للجلاء ، فاجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ منهم[1] ثم خرج عمر إلى خيبر ومعه جبار بن صخر الخارص والحاسب ويزيد بن ثابت وهو ممن قسم السهام على الجماعة ، فقرر ذلك حسبما كان مقرراً في القديم .

وبسياسة الفاروق وعدله الحكيم أصبحت خيبر ولاية اسلامية عربية .

وقد انحصرت – فيما بعد – أكثر سهام خيبر في الطبقة الثرية من أهل المدينة، فالطبريُّ يروي في حوادث سنة ٣٠ أن طلحة بن عبيدالله التيمي القرشي الصحابي الجليل ، قد استجمع عامة سهمان خيبر ، وأن أصحاب تلك السهام باعوها في تلك السنة[2] ويذكر أن علي بن أبي طالب (ض) كان أثناء حصار عثمان في خيبر[3] ، وهذا يظهر منه أنه قد اتخذ منها مكان إقامة في بعض الأوقات .

أما مطالبة العباس وفاطمة ، ثم من بعدهما بالميراث لسهام رسول الله ﷺ فمما امتلأت به كتب التواريخ من عهد الصديق إلى صدر الخلافة العباسية .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٣٧١
(٢) ٢٨٥٤/١ .
(٣) ١٣٠٧١/١ .

أضبحت واحة خيبر - بعد إنتشار الإسلام في الجزيرة العربية كما قلنا - مجتمعاً لكل ناقم على الدعوة الإسلامية، وبيئة غدت ملجأ لكل من يريد لهذه الدعوة شرّاً ، فقد انتقل إليها بنو النّضير بعد إجلائهم من المدينة ، وهؤلاء كانوا على جانب كبير من الخبث والمكر ، ولرؤسائهم صلات قوية بزعماء بعض القبائل التي لا تزال تنظر إلى الإسلام نظرة عداء وكُرْهٍ ، ومن ثَمَّ أخذ هؤلاء يعملون - ما وسعهم العمل - للقضاء على الدعوة الإسلامية.

وقد أورد ابن هشام في « السيرة النبوية » فَصْلاً مُطَوَّلاً عن بعض ما قام به زعماء اليهود في محاربة الرسول ﷺ ودعوته الكريمة نكتفي بالاشارة إليه [1] ، وأوضح تمثيل لهذا العداء يتّضح من الآية الكريمة : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ الناسِ عَدَاوةً للذين آمَنُوا اليهودَ ، وَالذينَ أشركوا ﴾ .

ولقد حاول الرسول ﷺ أن يصرف أولئك عن غيهم ، ودعاهم بالحسنى لكي ينقادوا الى الحق، وأن يرعووا فيصيخوا لصوت الإيمان، الداعي لكل ما فيه خير وأمن واطمئنان ، قبل أن يبلغ الشر مبلغه ، فكتب الى أهل خيبر من اليهود ما هذا نصه : - مخاطباً لهم باللهجة التي يعرفونها ، ومستدلا عليهم بأدلة كانوا يتخذون منها وسيلة للطعن في الدعوة الاسلامية ، وموضحاً لهم انه لا فرق بين ما جاء به النبي الكريم موسى بن عمران وما جاء به خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام ، بل ان محمداً ﷺ جاء مؤيداً ومصدقاً لما جاء به موسى ﷺ ، وها هو نص ما كتب :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ، ﷺ ، صاحب موسى وأخيه ، والمصدق لما جاء به موسى . ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة ، وإنكم لتجدون ذلك في كتابكم : « محمد رسول الله ، والذين معه ، أَشِدّاء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم رُكّعاً سُجّداً يبتغون فضلاً من

---

(١) « السيرة النبوية »ج٢ من ١٦٠ الى ١٣٤ طبعة الحلبي .

الله ورضواناً ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره، فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفّار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيما» . واني أنشدكم الله ، وأنشدكم بما أنزل عليكم ، وأنشدكم بالذي أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المنّ والسّلوى ، وأنشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله ، الا أخبرتموني : هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد ؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم ، فقد تبيّن الرشد من الغيّ ، فأدعوكم إلى الله وإلى نبيّه) [1] .

قال ابن اسحاق : وكان الذين حزّبوا الأحزابَ من قريش وغطفان وبني قريظة : حييٌّ بن أخطب ، وسلام بن أبي الحقيق أبو رافع ، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق ، وأبو عمّار ، ووحوح بن عامر ، وهوذة بن قيس. فأما وحوحُ وهوذةُ وأبو عمّار ، فمن بني وائل ، وكان سائرهم من بني النضير [2] . ممن انتقل إلى خيبر بعد إجلائهم من المدينة .

لم تُجْدِ كلُّ الوسائل التي بذلها الرسول ﷺ لتصرف أولئك عن غيّهم وضلالهم ، ولكي تدرأ عن المسلمين شرهم وأذاهم .

ولهذا فكان لا بدّ – لكي تأخذ الدعوة الإسلامية طريقها في الانتشار والظهور – من أن توجّه إلى جرثومة الشرّ في هذه الواحة ما يزيلها، ويطهّر تلك الأرض منها ، فوجه الرسول ﷺ اهتمامه إلى هذا الأمر ، ممثّلا في القضاء على رؤوس الفتنة والعداوة، فكانت سرايا إلى بلاد خيبر لقتل رؤوس الشّرّ ، أعقبتها الغزوة النبوية التي كانت الحاسمة في تطهير هذه الأرض من

---

(١) « السيرة النبوية » لابن هشام ٢ / ١٩٣ .
(٢) « السيرة النبوية » ج ٢ ص ٢١٠ .

ذلك الوباء الذي كاد أن يستشري ، ولن نطيل على القاريء بسرد أخبار السرايا ، أو بذكر أسبابها ، بل نكتفي بإيراد خلاصة قد تكون كافية – ولو بقدر ضئيل – وعلى من يريد التوسع الرجوع إلى أمهات كتب التأريخ.

١ – في سنة خمس من الهجرة كان مقتل كعب بن الأشرف . قال ابن هشام : ولما أصابت الأوس كعبَ بن الأشرف في عداوته لرسول الله ﷺ ، قالت الخزرج : والله لا تذهبون بها فضلاً علينا أبداً ؛ قال : فتذاكروا : مَنْ رجل لرسول الله ﷺ في العداوة كابن الأشرف ؟ فذكروا ابنَ أبي الحُقيق ، وهو بخيبر ؛ فاستأذنوا رسول الله ﷺ في قتله فأذن لهم . فخرج إليه من الخزرج من بني سَلِمَة خمسة نفر : عبد الله بن عتيك ، ومسعود بن سنان ، وعبد الله بن أُنيْس ، وأبو قتادة الحارث بن رِبْعيّ ، وخزاعيُّ بن أسود حليف لهم من أسلم. فخرجوا وأمَّرَ عليهم رسول الله ﷺ عبد الله بن عَتيك ، ونهاهم عن أن يقتلوا وليداً أو امرأة . فخرجوا حتى إذا قدموا خيبر أتوا دار ابن أبي الحقيق ليلاً ، فلم يدعوا بيتاً في الدار إلا أغلقوه على أهله . قال : وكان في عِليّةٍ له إليها عَجَلة [1] قال : فأسندوا فيها ، حتى قاموا على بابِه ، فاستأذنوا عليه ، فخرجت إليهم امرأته فقالت : من أنتم ؟ قالوا : ناس من العرب نلتمسَ الميرة ؛ قالت : ذاكم صاحبكم ، فادخلوا عليه. قال : فلما دخلنا عليه أغلقنا علينا وعليها الحجرة ، تخوفاً أن تكون دونه مجاولة تحول بيننا وبينه ؛ فصاحت امرأته فنوهت بنا ، وابتدرناه ، وهو على فراشه بأسيافنا ، والله ما يدلنا عليه في سواد الليل إلا بياضه كأنه قِبْطية ملقاة [2]. قال : ولما صاحت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه ، ثم يذكر نَهْيَ رسول الله ﷺ فيكفُّ يدَه ، ولولا ذلك لفرغنا منها بليلٍ . قال : فلما ضربناه بأسيافنا تحامل عليه عبد الله بن أُنيْس بسيفه في بطنه حتى أنفذه وهو يقول : قَطْنِي قَطْنِي !! أي حسبي حسبي .

---

(١) العجلة : يجعل كالسُّلم .

(٢) القبطية : نوع من الثياب البيض تصنع بمصر .

قال : وخرجنا ، وكان عبد الله بن عتيك رجلاً سيّء البصر ، قال : فوقع من الدرجة فوُثئت يده وثئاً شديداً — ويقال : رجله ، فيما قال ابن هشام — وحملناه حتى نأتي به منهراً [١] من عيونهم ، فندخل فيه . قال : فأوقدوا النيران ، واشتدوا في كل وجه يطلبوننا ، قال : حتى إذا يئسوا رجعوا إلى صاحبهم فاكتنفوه وهو يقضي بينهم . قال : فقلنا : كيف لنا بأن نعلم بأن عدوّ الله قد مات ؟ قال : فقال رجل منا : أنا أذهب فانظر لكم ، فانطلق حتى دخل في الناس . قال : فوجدت امرأته ورجال اليهود حوله وفي يدها المصباح تنظر في وجهه ، وتحدثهم وتقول : أما والله لقد سمعت صوت ابن عتيك ، ثم أكذبت نفسي وقلت : أنـّى ابن عتيك بهذه البلاد ؟! ثم أقبلت عليه تنظر في وجهه ثم قالت : فاظ وإله اليهود ، فما سمعت من كلمة كانت ألذّ إلى نفسي منها . قال : ثم جاءنا فاخبرنا الخبر ، فاحتملنا صاحبنا فقدمنا على رسول الله ﷺ فأخبرناه بقتل عدو الله ، واختلفنا عنده في قتله ، كلنا يدعيه . قال : فقال رسول الله ﷺ : « هاتوا أسيافكم » قال : فجئناه بها ، فنظر إليهـا . فقال لسيف عبد الله بن أُنيس : « هذا قتله ، أرى فيه أثر الطعام » .

فقال حسان بن ثابت — وهو يذكر قتل كعب بن الأشرف ، وقتل سلام ابن أبي الحُقيق — :

لله درُّ عصابـة لاقيتهـم ... يا ابن الحقيق وأنت يا بن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليـكم ... مَرَحاً كأسْدٍ في عَرين مُغرف [٢]
حتى أتوكم في محـلّ بلادكم ... فسقوكم حَتْفاً ببيض ذُفـَّف [٣]
مُستبصرين لنصر دين نبيهم ... مستصغرين لكل أمر مُجْحف [٤]

---

(١) المنهَرُ : مدخل الماء في الحصن .
(٢) البيض : السيوف . العرين : غابة الأسد . المُغْرِف : الملتف الأغصان .
(٣) ذُفـَّف : سريعة القتل .
(٤) مُجْحِف : يذهب بالأموال والأنفس .
« السيرة النبوية » ٣/٢٨٦/٢٨٩

وسلام بن أبي الحقيق ، هو ابن مِشْكَم ، وكنيته أبو رافع ، وهو من زعماء يهود بني النضير الذين انتقلوا إلى خيبر بعد إجلائهم من المدينة وكان ممن حَزّب الأحزاب لغزو الرسول ﷺ في وقعة الخندق ، ويلاحظ أن بعض المتقدمين فرق بين سلام بن أبي الحقيق ، وابن مشكم وأبي رافع ، وهذا خطأ فكل هذه الأسماء تنطبق على واحد .

٢ - وفي سنة خمس من الهجرة كان سرية عبدالله بن رواحة لقتل يسير بن رزام اليهودي . قال المؤرخون : وكان من حديث يسير بن رزام اليهودي انه كان بخيبر يجمع غطفان لغزو رسول الله ﷺ فبعث اليه رسول الله عبد الله ابن رواحة في نفر من أصحابه ، منهم عبد الله بن أنيس حليف بني سَلِمة ، فلما قدموا عليه كلموه وواعدوه ، وقرّبوا له وقالوا له : إنك إن قدمت على رسول الله استقبلك وكرّمك واستعملك على خيبر . فلم يزالوا به حتى خرج معهم في نفر من يهود ، فحمله عبدالله بن أنيس على بعيره وردَفه ، حتى إذا كان بالقَرْقرة قرقرة ثبار من خيبر على ستة أميال ندم يسير بن رزام على سيره الى رسول الله ، ففطن له عبد الله بن أنيس وهو يريد السيف ، فاقتحم به ، ثم ضربه بالسيف فقطع رجله ، وضربه يسير بمخرش في يده من شوحط فأمّه[1] في رأسه ، وقتل الله يسيراً ومال كل رجل من أصحاب رسول الله ﷺ على صاحبه من يهود فقتله إلا رجلا واحداً أفلت على راحلته ، فلما قدم عبدالله ابن أنيس على رسول الله ﷺ تفل على شجّته فلم تَقِحْ ولم تؤذه[2] .

ويذكر بعض المؤرخين أن عبد الله بن رواحة غزا خيبر في عهد الرسول ﷺ مرتين ، هذه ، ومرّة أخرى لم أجد لها تفصيلا .

٣ - وفي شهر المحرم من السنة السابعة من الهجرة كانت غزوة خيبر . ويحسن أن نسوق خبر هذه الغزوة مستوفى بقدر الإمكان :

(١) المخرش : العصا المعقوفة ، والشوحط : شجر معروف ، وأمّه : جرحه في رأسه .

(٢) تاريخ الطبري - ١٧٥٩/١ ، وتاريخ خليفة بن خياط ص ٣٩ ، والسيرة النبوية ٤/ ٢٦٦ « طبقات ابن سعد » : ٩٢/٢ .

عندما عزم رسول الله ﷺ على المسير اليها أُتي بدليل يدعى حسيل بن نويرة الأشجعي فقال : يا رسول الله : إن لها طرقاً تؤتى منها ، فقال ﷺ : سَمِّها لي ، وكان يحب الفأل والاسم الحسن ، ويكره الطيرة والاسم القبيح ، فقال الدليل : لها طريق يقال له حزن ، قال : لا نسلكها . قال : لها طريق يقال له شاس ، قال : لا نسلكها ، قال : لها طريق يقال له حاطب ، قال : لا نسلكها ، قال بعض رفقائهم : ما رأيت كالليلة أسماء أقبح من أسماء سميت لرسول الله ، قال : لها طريق واحدة ولم يبق غيرها يقال لها مرحب ، قال ﷺ : نعم أسلكها ، فقال عمر رضي الله عنه : ألا سمّيت هذه الطريق أول مرة [1] ؟

ثم سلك به الدليل صدور الأودية ، ومرّ على عصر ، فبني له فيها مسجد ، ثم على الصهباء ، ثم أقبل بجيشه حتى نزل بواد يقال له الرجيع ، فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر ، وكانوا لهم مظافرين على رسول الله ﷺ ، قال ابن إسحاق فيما نقله ابن هشام عنه [2] :

لما سمعتْ غطفانُ بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر جمعوا له ، ثم أقبلوا لمناصرة اليهود ، ولكنهم خشوا على أموالهم وأهلهم فرجعوا . وتدنّى رسول الله ﷺ الأموال يأخذها مالاً مالا ، ويفتتحها حصناً حصناً ، فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم ، وعنده قتل محمود بن مسلمة ، أُلقيت عليه رحاً ، ثم القَمُوص — حصن بني أبي الحقيق ، وأصاب رسول الله ﷺ منهم سبايا منهن صفيّة بنت حُيَيّ بن أخطب ، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وبنتي عم لها ، فاصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه فأعرس بها بخيبر أو ببعض الطريق ، وأعطى ابنتي عمها دِحْية بن خليفة الكلبي . يقول ابن جرير [3] : ان الرسول ﷺ لما تصفح السبي ألقى رداءه على صفية.

---

(١) معجم البلدان: مادة مرحب.

(٢) السيرة النبوية ٣/٣٤٤ وما بعدها .

(٣) تاريخ ابن جرير ١/١٧٧٣ .

وقد أورد ابن سعد في « الطبقات »[1] خبر زواج الرسول ﷺ بصفية بهذا النص : (لما غزا رسول الله ﷺ خيبر ، وغنَّمه الله أموالهم ، سَبَى صفية بنت حيي ، وبنت عمّ لها من القموص ، فأمر بلالاً أن يذهب بها إلى رحله ، فكان لرسول الله ﷺ صفيٌّ من كل غنيمة ، فكانت صفية مما اصطفى يوم خيبر ، وعرض عليها النبي ﷺ أن يعتقها إن اختارت عتقَها مَهْرَها . فقالت : أختار الله ورسوله . وأسلمت ، فأعتقها وتزوَّجها ، وجعل عتقها مهرها . ورأى بوجهها أثر خضرة قريباً من عينها فقال : « ما هذا؟ »قالت : يا رسول الله رأيت في المنام قمراً أقبل من يثرب حتى وقع في حجري ، فذكرت ذلك لزوجي كنانة فقال : تحبّين أن تكوني تحت هذا الملك الذي يأتي من المدينة ؟! فضرب وجهي . واعتدت حيضة ، ولم يخرج رسول الله ﷺ من خيبر حتى طهرت من حيضتها ، فخرج رسول الله ﷺ من خيبر ولم يعرس بها ، فلما قُرِّب البعير لرسول الله ﷺ ليخرج وضع رسول الله رجله لصفية لتضع قدمها على فخذه فأبت ، ووضعت ركبتها على فخذه ، وسترها رسول الله ، وحملها وراءه ، وجعل رداءه على ظهرها ووجهها ، ثم شده من تحت رجلها ، وتحمل بها ، وجعلها من جملة نسائه ، فلما صار الى منزل يقال له ثبار[2] على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرس بها ، فأبت عليه ، فوجد النبي ﷺ في نفسه من ذلك ، فلما كان بالصهباء وهي على بريد من خيبر قال رسول الله ﷺ لأم سليم : « عليكنَّ صاحبتكنَّ فامشطنَها » وأراد رسول الله أن يعرّس بها هناك . قالت أم سليم : وليس معنا فسطاط ولا سرادقات فأخذت كساءين أو عباءتين فسترت بينهما الى شجرة فمشطنها وعطرنها . قالت أم سنان الأسلمية : وكنت فيمن حضر عرس رسول الله ﷺ ، بصفية ، مشطناها وعطرناها ، وكانت جارية تأخذ الزينة من أوضإ ما يكون من النساء ، وما وجدت رائحة طيب كان أطيب من ليلتئذ ، وما

---

(١) ج ٨ ص ١٢٠ (طبعة بيروت) .
(٢) في المطبوعة (تيار) تصحيف انظر « تاج العروس » و « معجم البلدان ».

شعرنا حتى قيل: رسول الله يدخل على أهله وقد نمصناها ونحن تحت دومة . وأقبل رسول الله ﷺ يمشي اليها فقامت اليه ، وبذلك أمرناها ، فخرجنا من عندهما وأعرس بها رسول الله هناك وبات عندها ، وغدونا عليها وهي تريد أن تغتسل ، فذهبنا بها حتى توارينا عن المعسكر فقضت حاجتها واغتسلت ، فسألتها عما رأت من رسول الله ﷺ ، فذكرت انه سر بها ، لم ينم تلك الليلة ولم يزل يتحدث معها ، وقال لها: «ما حملك على الذي صنعت حين أردت أن أنزل المنزل الأول فأدخل بك» ؟قالت : خشيت عليك قرب يهود . فزادها ذلك عند رسول الله ، وأصبح رسول الله فأولم عليها هناك وما كانت وليمته إلا الحيس ، وما كانت قصاعهم إلا الأنطاع ، فتغدّى القوم يومئذ ثم راح رسول الله فنزل بالقُصَيبة وهي على ستة عشر ميلاً) . انتهى كلام ابن سعد

ثم فتح رسول الله ﷺ حصن الصعب بن معاذ ، وما بخيبر حصن أكثر طعاماً وودَكاً منه .

وانحاز أهل خيبر الى حصنيهم الوطيح والسلالم ، وكانا آخر حصون أهل خيبر افتتاحاً ، فحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة .

وخرج مرحب اليهودي من الحصن طالباً للمبارزة ، فبارزه محمد بن مسلمة الذي قُتل أخوه محمود ، فقتله محمد ، ثم خرج ياسر أخو مرحب مبارزاً فلاقاه الزبير بن العوام فقتله الزبير .

وبعث رسول الله ﷺ رايته مع أبي بكر لمحاصرة الحصن ، فرجع ولم يكُ فتحٌ ، وفي الغد بعثها مع عمر بن الخطاب فلم يك فتح ، فأعطاها في الغد علي بن أبي طالب فلما دنا من الحصن خرج اليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من اليهود فطاح تُرْسُهُ من يده فتَتَرّسَ بباب الحصن ، ولم يرجع حتى فتح الله عليه ، وأُتي رسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع ، وكان عنده كنز بني النضير ، فسأله عنه ، فجحد أن يكون يعرف مكانه مع ما لقيه من عذاب ، وقد وجد بعضه مدفوناً في خربة شوهد كنانة يطيف بها كل غداة قبل

إمساكه ، ثم قتل محمد بن مسلمة كنانةَ بأخيه محمود .

وبعد حصار أهل خيبر في حصنيهم الوطيح والسلالم حصاراً أيقنوا معه بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ أن يسيِّرهم وأن يحقن لهم دماءهم ، ففعل ، وكان قد حاز الأموال كلها ، إلا ما كان من ذينك الحصنين ، فلما نزلوا سألوا رسول الله أن يعاملهم في الأموال على النصف ، وقالوا : نحن أعلم بها منكم وأعمر لها . فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم . فلما سمع بذلك أهل فدَك بعثوا الى رسول الله ﷺ يسألونه أن يسيّرهم ، وأن يحقن دماءهم ويخلّوا له الأموال ، ففعل ، فكانت خيبر فيئاً للمسلمين . وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب .

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مصليّة ، وضعت السم في ذراعها لما علمت أنه ﷺ يحب الذراع فعلم ﷺ بذلك ، فدعا بها فاعترفت قائلة : بلغتَ من قومي ما لم يخف عليك فقلت : إن كان ملكاً استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيُخبَر ، فتجاوز عنها .

وكان فتح خيبر في شهر صفر سنة سبع ، والمسير اليها في المحرم [١].

وكانت المقاسم على أموال خيبر على الشّق ونطاة والكتيبة . فكانت الشق ونطاة في سهمان المسلمين . وكانت الكتيبة خمس الله ، وسهم النبي ﷺ وسهم ذوي القُربى واليتامى والمساكين ، وطعم أزواج النبي ﷺ وطعم رجال مشوا بين رسول الله ﷺ وبين أهل فدك بالصلح .

وقسمت خيبر على أهل الحُدَيبية ، من شهد خيبر ومن غاب عنها ، ولم يغب عنها إلا جابر بن عبدالله بن عمرو الأنصاري ، فقسم له رسول الله ﷺ كسهم من حضرها .

---

(١) انظر تفصيل الغزوة في « طبقات ابن سعد » ٢/١٠٦ إلى ١١٧ .

وكان واديها وادي السُّرَيْر ووادي خاص ، وهما اللذان قسمت عليهما خيبر .

وكانت نطاة والشّقُ ثمانية عشر سهماً ، نطاة من ذلك خمسة أسهم والشقُ ثلاثة عشر سهماً ، وقسمت الشق ونطاة على ١٨٠٠ سهم .

وكان عدّة الذين قسمت عليهم خيبر من أصحاب رسول الله ﷺ الف سهم وثمانمائة سهم ، برجالهم وخيلهم ، الرجال ١٤٠٠ والخيل ٢٠٠ ، فكان لكل فارس سهمان ولكل راجل سَهْمٌ .

وذكر أن أول سهم خرج من خيبر بنطاة سهم الزبير بن العوام ، وهو الخَوُع ، وتابعه السُّرَير . ثم ذكر ابن هشام سهام الشق .

وذكر أن رسول الله ﷺ قسم الكتيبة وهي وادي خاص بين قرابته وبين نسائه ، وبلغ ما قسمه من الكتيبة — حسب الجدول الذي أورده ابن اسحاق — ٢٨٧٠ وسقا ، ومن المعروف أنه ترك منها ما قد يحتاج إليه في نوائبه . ولقد بلغ خرص نخيل خيبر كلها في عهد الرسالة أربعين ألف [1] وسق ، قام بالخرص الصحابي الجليل عبدالله بن أبي رواحة ، فادعى اليهود الزيادة فيه ، فخيّرهم بين أخذ الثمرة بخرصها ، أو تركها للمسلمين بخرصها . فقالوا : هذا العدل الذي قامت عليه السموات والأرض ، ثم أخذوها ولا شكّ أنهم فعلوا ذلك واثقين بأنهم الرابحون .

ومن هذا يمكن الاستنتاج بأن غلة النخيل في خيبر في العهد النبوي كانت ٤٠٠٠٠ وسق (أي حمل بعير) .

ويفهم مما ذكره ابن اسحاق وغيره أن الرسول ﷺ أتى إلى الوادي من الجهة الشرقية الشمالية ، لكي يحول دون غطفان القبيلة التي تنتشر في جهات خيبر من الشرق ومن الجنوب ومن الشمال ، فنزل في سفح الوادي الواقع في

---

(١) « الأموال » للقاسم بن سلام - ١٠٦ الطبعة المصرية الثانية .

الناحية الشمالية بما يقرب من ٥ أكيال ، وضرب مخيمه هنـــاك ، وجرى التناوش بالرمي في النبال بينه وبـــين أهل الحصون التي تقع غرب الوادي وجنوبه على ارتفاع كبير ومن ثم استشهد عدد من أصحابه وهو في منزله ذلك، ومن عادته عليه الصلاة والسلام أن يقبر شهداءه بقرب الأمكنة التي أصيبوا بها ولهذا يجد المرء مقبرة تقـع في الطرف الشمالي من الوادي يخترقها طريق خيبر إلى تبوك بعد أن يجوز الوادي وقبل أن يطل على سفح الجبل هـــذه المقبرة تضم رفاة عدد من أصحاب الرسول ﷺ وها هي أسماؤهم كما أوردها ابن هشام في مختصره لسيرة ابن اسحاق :

١ ــ ربيعة بن اكثم من بني اسد . ٢ ــ وثقف بن عمرو من حلفـاء بني أمية . ٣ ــ رفاعة بن مسروح من حلفاء بني أمية . ٤ ــ عبدالله بن الهبيب من حلفاء بني أسد ابن عبدالعزى . ٥ ــ بشر بن البراء بن المعرور من الأنصار. ٦ ــ مسعود بن سعد من بـني زريق . ٧ ــ محمود بن مَسْلَمَة من الأوْس . ٨ ــ أبو ضَيَّاح [النعمان] بن ثابت من بني عمرو . ٩ ــ عمارة بن عقبة من غِفَار . ١٠ ــ عامر بن الأكوع من أسْلم . ١١ ــ الأسود الراعي من أهل خيبر . ١٢ ــ مسعود بن ربيعة من بني زهرة ، حليف للقارة . ١٣ ــ أوس ابن قتادة من الأنصار [١].وممن ذكر ابن سعد [٢] :١٣ ــ الحارث بن حاطب الأنصاري . ١٤ ــ ربيعة بن أكثم من بـني أسد . ١٥ ــ أنيف بن وائل . ١٦ ــ فضيل بن النعمان .

وقد أورد الواقدي ــ فيما نقله ابن كثير [٣] عنه ــ نصاً فيـــه تفصيل لافتتاح الحصون هذا نصه :

لما تحولت اليهود من حصن ناعم وحصن الصعب بن معاذ إلى قلعة الزبير ، حاصرهم رسول الله ﷺ ثلاثة أيام فجاء رجل من اليهود يقال له عزال فقال:

---

(١) « سيرة ابن هشام » ٣/٣٥٨ .   (٢) « الطبقات » : ٢/١٠٧ .

(٢) « البداية والنهاية » ٤/١٩٨/١٩٩ .

يا ابا القاسم تؤمنني على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النطاة وتخرج إلى أهل الشق فإن أهل الشق قد هلكوا رعباً منك ؟. قال فأمنه رسول الله ﷺ على أهله وماله فقال له اليهودي : انك لو أقمت شهراً تحاصرهم ما بالوا بك ، إن لهم تحت الأرض دبولاً يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعتهم فأمر رسول الله ﷺ ، بقطع دبولهم فخرجوا فقاتلوا أشد القتال وقتل من المسلمين يومئذ نفر وأصيب من اليهود عشرة ، وافتتحه رسول الله ﷺ وكان آخر حصون النطاة ، وتحول إلى الشق وكان به حصون ذوات عدد فكان أول حصن بدأ به منها حصن أُبيٍّ فقام رسول الله ﷺ على قلعة يقال لها سمران فقاتل عليها أشد القتال فخرج منهم رجل يقال له عزول فدعا إلى البراز فبرز إليه الحباب بن المنذر فقطع يده اليمنى من نصف ذراعه ووقع السيف من يده وفر اليهودي راجعاً فاتبعه الحباب فقطع عرقوبه وبرز منهم آخر فقام إليه رجل من المسلمين فقتله فنهض إليه أبو دجانة فقتله وأخذ سلبه وأحجموا عن البراز فكبر المسلمون ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه وأمامهم أبو دجانة فوجدوا فيه أثاثاً ومتاعاً وغنماً وطعاماً وهرب من كان فيه من المقاتلة وتقحموا الجزر كأنهم الضباب حتى صاروا إلى حصن البزاة بالشق وتمنعوا أشد الامتناع فزحف إليهم رسول الله ﷺ وأصحابه فتراموا ورمى معهم رسول الله ﷺ بيده الكريمة حتى أصاب نبلُهم بنانه عليه الصلاة والسلام فأخذ كفاً من الحصا فرمى حصنهم بها فرجف بهم حتى ساخ في الأرض وأخذهم المسلمون اخذاً باليد ، قال الواقدي : ثم تحول رسول الله ﷺ إلى أهل الاخبية (؟) والوطيح والسلالم حِصْني أبي الحُقَيق ، وتحصنوا أشد التحصين وجاء إليهم كل من كان انهزم من النَّطاة إلى الشّق ، فتحصنوا معهم في القموص وفي الكتيبة وكان حصناً منيعاً وفي الوطيح والسّلالم ، وجعلوا لا يطلعون من حصونهم حتى هم رسول الله ﷺ أن ينصب المنجنيق عليهم فلما أيقنوا بالهلكة وقد حصرهم رسول الله ﷺ أربعة عشر يوماً نزل إليه ابن ابي الحقيق فصالحه على حقن دمائهم ، ويسيرهم ويخلون بين رسول

الله ﷺ وبين ما كان لهم من الأرض والأموال والصفراء والبيضاء والكراع والحلقة ، وعلى البزّ إلا ما كان على ظهر إنسان — يعني لباسهم — فقال رسول الله ﷺ : « وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله ان كتمتم شيئاً » فصالحوه على ذلك .

قلت : ولهذا لما كتموا وكذبوا وأخفوا ذلك المسك الذي كانت فيه أموال جزيلة تبين أنه لا عهد لهم فقتل ابني ابي الحقيق وطائفة من أهله بسبب نقض العهود والمواثيق . انتهى كلام ابن كثير .

وعلى ذكر الحصون يحسن إيراد بعض ما ذكره المتقدمون حول حصون خيبر ، وقد تقدم ذكر أكثرها ، وهذه الحصون بنيت من الصخر ، بناءً غير مشذَّب ، أي إن أكثر الصخور المستعملة في البناء لم تصلح وتهيّأ إلا بالطريقة التي تجعلها ثابتة في المكان الذي توضع فيه ، وقد أقيمت تلك الحصون في المرتفعات الواقعة على ضفتي الوادي الغربية والجنوبية ، وجزء من الضفة الجنوبية الشرقية ، حيث تقع حصون الشق والنطاة ، أما التي على الضّفة الغربية فهي أقوى الحصون وأعمرها الآن وان كانت آيلة للخراب ، والصعود إلى هذه الحصون شاق ، ذلك أن الطرق القديمة كانت ضيقة وصعبة السلوك بحيث لا تصعد إلا بمشقة ، وخاصة بعد أن بدأ الخراب الحصون ، فتناثرت الصخور في طرقها .

وقد وقع اختلاف وخلط حول أسماء بعض هذه الحصون في كتب المتقدمين ، وهذا ما دفع إلى ذكر ما عرفت مما ذكروا منها، على ما في ذلك من التكرار .

١ — الحصْنُ — في خيبر — فيه بقية الناس ، وهو لعمر بن الخطاب[١].
وأقول : يظهر أن المقصود هنا هو ما يسمى الآن الحصون — وقديماً حصن

---

(١) « المناسك » - ٥٣٩ -

القموص – وكان فيه مقر الإمـــارة قبل سنوات ، وهو أعظم حصن في خيبر ، من حيث الكبر ، والارتفاع ، واطلاله على الواحة .

٢ – حصن أُبَيّ : من حصون الشّق في خيبر ، وقد قام رسول الله ﷺ على قلعة يقال لها سمران (سموان) في محاربة ذلك الحصن حتى فتحه، ومنه تحول إلى حصن البزاة بالشق ، فيما نقل ابن كثير عن الواقدي .

وكان حصن أبيّ أول حصن بدأ به من حصون الشّق [١] .

٣ – حصن الأخبية : ذكر الواقدي أن الرسول ﷺ بعـــد أن افتتح حصن البزاة في الشقّ ، تحول إلى أهل الأخبية والوطيح والسلالم حصني أبي الحقيق [٢] .

٤ – حصن بني أبي الحُقَيق : ويُدْعى : الغمُوض . كذا في « معجم البلدان » وغيره وأخشى أن تكون الكلمة تصحيف القموص .

٥ – حصن البُزَاة : ذكر الواقدي فيما نقله عنه ابن كثير أن رسول الله ﷺ لما افتتح حصن أُبيّ ، وهو من حصون الشقّ في خيبر هرب من فيه من المقاتلة وتقحّموا الجـــزر كأنهم الضباب حتى وصلوا إلى حصن البزاة بالشق وتمنعوا أشد الامتناع ، فزحف إليهم رسول الله ﷺ وأصحابـــه فتراموا ورمى معهم رسول الله ﷺ بيده الكريمة ، حتى أصاب نبلهم بنانـَهُ ﷺ فأخذ كفـّاً من الحصا فرمى حصنهم بها ، فرجف بهم حتى ساخ في الأرض ، وأخذهم المسلمون ، ثم تحول رسول الله ﷺ إلى أهـــل الأخبية والوطيح والسلالم حصني أبي الحقيق . (وانظر حصن المنزال والنزار)

٦ – حصن الزُّبير : (ويسمى قلعة الزُّبَير)[٣] تحولت اليهود من حصن

---

(١) « البداية والنهاية » ١٩٨/٤

(٢) « البداية والنهاية » ١٩٨/٤.

(٣) « البداية والنهاية » ١٩٨/٤

ناعم وحصن الصعب إلى قلعة الزُّبير ، وهذا الحصن في رأسه قلعة وهي أشبه بالبرج حاصره المسلمون ثلاثة أيام فجاءهم يهودي يدعى عزال فقال : لو اقمت يا أبا القاسم شهراً ما ضرّهم ، لهم دبول تحت الأرض يخرجون ليلاً فيشربون منهـــا ، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون فان قطعت عنهم شربهم اصحروا لك ، فسار الرسول ﷺ إلى دبولهم فقطعها . فلمـــا قطعها خرجوا وقاتلوا أشدّ قتال فقتِل منهم عشرة وافتتح الحصن[1] .

ويقول الأستاذ حسين با سلامة : انه سمى حصن الزبير لوقوعه في سهم الزبير ابن العوام (ض) ولا أراه صحيحاً .

٧ — حصن السلالم : وسماه صاحب « المناسك » سُلَيْلِم، وقال فيـه : وعُظْمُها للنبي[2] ﷺ وقال البكري : سُلالِمُ — بضم أوله وبكسر اللام والثانية : حصن من حصون خيبر .. وذكره السكوني : سُلَيْلِمُ على لفظ تصغير سُلَّم والأول أصَحّ[3] . وأقول : سمعتهم هناك يقولون : سُلَيْلِم. وقال البكري — أيضاً — بعـــد ذكر الاستيلاء على ناعم والقموص والشق والنطاة وخيبر : فلما افتتح من حصونهم ما افتتح انتهوا إلىحصنيهم الوطيح والسلالم فحاصرهم رسول الله ﷺ بضـــع عشرة ليلة حتى إذا ايقنوا بالهلكة سألوه ان يُسَيِّرَهُم .. الخ .

٨ — حصن الصعب : أول ما افتتح حصن ناعم ، ثم حصن القموص ومن سباياه صفية بنت كبيرهم حيي بن أخطب ، فتزوجها رسول الله ﷺ وجعل عتقها صداقها ، ثم افتتح حصن الصعب بن معاذ وما كان بخيبر حصن أكثر طعاماً وودكاً منه ، ثم انتهى إلى الوطيح والسلالم ، وكان آخر حصون خيبر افتتاحاً[4] .

---

(١) « حياة سيد العرب » ٣/١١١ . (٢) ص ٥٣٩ .
(٣) « معجم ما استعجم » .
(٤) تاريخ ابن جرير » ١ / ١٥٧٦ « تاريخ ابن خلدون » ٢/٧٩٦ « المختصر في تاريخ البشر » لأبي الفداء — حوادث سنة سبع من الهجرة .

٩ – حصن الظهار : قال ياقوت : من حصون خيبر [١] .

١٠ – حصن الغـمُوض – بالضاد المعجمة – احد حصون خيبر ، وهو حصن بني الحـُقـَيْق ، وبه أصاب رسول الله ﷺ صفيّة بنت حُيَـيّ بن اخطب ، وكانت عند كنانة بن الربيع بن ابي الحـُقـَيق ، فاصطفاها لنفسه .

وأقول : هو القموص ، ويظهر ان أحد الاسمين مصحف عن الثاني [٢] .

١١ – حصن القَمُوص – أو الغَمُوص – هو أعظم حصون الكتيبة وأمنعها وأثناء حصاره أصيب الرسول ﷺ بمرض الشقيقة ، فلم يخرج للقتال فأرسل الراية مع أبي بكر (ض) ، وفي اليوم الثاني مع عمر (ض) وفي اليوم الثالث مع علي (ض) فبرز من الحصن الحارث أخو مرحب مبارزاً فتصارع هو وعلي (ض) فقتله علي. ثم خرج ياسر وكان من أشدّ اليهود بطشاً وشجاعة، وكان معه حربة يحوش الناس بها حوشاً ، فطلب المبارزة وهو يقول :

قد علمتْ خيبر أني ياسر شاكي السلاح، بطـل مُغَاوِر
إذا الليوث اقبلت تبـادر وأحجمت عـن صولة تسامر
إن حسامي فيه موت حاضر

فبرز إليه الزبير بن العوام (ض) وهو يقول :

قـد علمت خيبر أني زبّار قَرْمٌ لقَرْمٍ غيرنكْسٍ فَرّار
ابن حمـاة المجد وابن الأخيار ياسر لا يغررك جمع الكفّار
فجمعهم مثل السراب الجاري

فاشتد القتال بينهما فقتل الزبير عمارا .

ثم خرج مرحب – وهو ملك خيبر – من الحصن ، قد لبس درعين ، وبيضة من حجر مثقوب ومغفراً ، وبيده رمحه وسيفه ، وهو يخطر ويرتجز :

---

(١) « معجم البلدان » .
(٢) « معجم البلدان » .

قد علمتْ خيبر أني مرحبُ شاكي السلاح ، بطل مُجَرَّبُ
إذا الحروب أقبلت تلتهب

فبرز له عامر بن الأكوع يرتجز :

قد علمت خيبرُ أني عامر شاكي السلاح ، بطل مغامر

فوقع سيف مرحب في ترس عامر ، فذهب عامر يسفل له فرجع إليه سيفه فقطع أكحله فمات . ثم أقبل مرحب يرتجز :

قد علمتْ خيبر أني مرحبُ شاكي السلاح بطل مجرّبُ
أطعن أحياناً وحيناً أضرب إذا الليوث أقبلت تحرّبُ
إنّ حِمَايَ لَلْحِمَى لا يقربُ

وطلب المبارزة فخرج إليه علي بن أبي طالب (ض) وهو يرتجز :

أنا الذي سمّتني أمي حيدره كَلَيْثِ غاباتٍ كريه منظرُهْ
أوفيهم بالصاع كَيْلَ السَّنْدرهْ

فضرب علي(ض)رأس مرحب فقتله، واشترك في قتله محمد بن مسلمة(ض)، فقسم رسول الله ﷺ سلبه بين الاثنين [1] .

ويسمي البكري القموص حصن خيبر الأعظم الذي فتح على يد علي بن أبي طالب (ض) وأن أسفله مسجد رسول الله ﷺ [2] .

وقال ياقوت : القموص — بفتح القاف — من جبال خيبر ، كان فوقه حصن أبي الحُقَيق اليهودي [3] .

١٢ — حصن الكتيبة : حصن من حصون خيبر ، لما قسمت خيبر كان القسم على نطاة والشق والكتيبة ، فكانت نطاة والشق في سهام المسلمين ،

---

(١) « البداية والنهاية » ١٨٧/٤ وما بعدها . « حياة سيد العرب » ١١٤/٣ و١١٧ .
(٢) « المناسك » ٥٤٠ « معجم ما استعجم » .
(٣) « معجم البلدان » .

وكانت الكتيبة خمس الله وسهم النبيّ وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين، وطعم أزواج النبي ﷺ وطعم رجال مشوا بين رسول الله ﷺ وبين أهل فدك بالصلح[1] . وفي كتاب « الأموال » لأبي عبيد : الكثيبة بالثاء المثلثة .

وفي قصة خيبر أنهم وجدوا في الكَتِيبة طعاماً كثيراً قد أعدّوه لمأكلتهم وكانتْ سنة مُرْزِمة [2] .. وقال الواقدي كان حصناً منيعاً [3] . والصحيح أنه مجموعة من الحصون « انظر الكتيبة » .

وقال السمهودي : وروى ابن شبة أن أهل الوطيح وسلالم صالحوا عليهما النبي ﷺ ، فكان ذلك له خاصة ، وخرجت الكتيبة في الخمس ، وهي مما يلي الوطيح وسلالم ، فجمعت شيئاً واحداً ، فكانت مما ترك رسول الله ﷺ من صدقاته ، وهو يقتضي ان بعض خيبر فتح عنوة وبعضها صلحا ، وبه يجمع بين الروايات المختلفة في ذلك ، وهو الذي رواه ابن وهب عن مالك عن ابن شهاب قال : فتح بعضها عنوة وبعضها صلحا ، والكثيبة اكثرها عنوة ، وفيها صلح ، قلت لمالك . وما الكثيبة ؟ قال : أرض خيبر ، وهي أربعون ألف عذق .

قلت : المراد أن الكثيبة بخيبر ، لا أنها كل أرضها لما سبق [4] .

وقال في « المناسك » : الوادي المتصل بالوطيحْ إلى طبران وإلى خاض كله للنبي ﷺ يسمى الكتيبة [5] .

وقد نقل ابن كثير عن مالك أن نخلها أربعون ألفاً عند فتحها [6] .

---

(١) « معجم البلدان » .
(٢) « معجم ما استعجم » .
(٣) « البداية والنهاية » ١٩٩/٤
(٤) « وفاء الوفاء » .
(٥) « معجم البلدان » ص ٥٤٠
(٦) « البداية والنهاية » ج ٤٠٢/٤

وفي الكتيبة حصون : منها القموص ، والوطيح والسلالم [١] .

وروى ابن سعد[٢] أن رسول الله ﷺ لما صالح بني أبي الحُقيق جزّأ النطاة والشّق خمسة أجزاء ، فكانت الكتيبة جزءاً منها ، ثم جعل رسول الله ﷺ خمس بعرات ، وأعلم في بعرة منها (لله) مكتوباً. ثم قال رسول الله ﷺ : اللهم اجعل سهمك في الكتيبة ، فكانت الكتيبة خمس رسول الله ﷺ وكانت السُّهمان أغفالاً ليس فيها علامات ، فكانت فوْضَى للمسلمين على ثمانية عشر سهماً .

وأورد أن عمر بن عبد العزيز – وهو خليفة – أمر بتوزيع عشرة آلاف دينار على بني هاشم ، وأن تؤخذ من الكتيبة .

١٣ – حصن مرحب هو مقر الامارة إلى عهد قريب ، وقد جدد ورمم سنة ١٩٣٠ – وهو حصن القموص المتقدم ذكره .

وقال في « المناسك » : وفي نطاة حصن مرحب وقصره [٣] .

١٤ – حصن المزال – من حصون الشق في خيبر – بعد فتح حصن النطاة فرّ من فيه إلى حصن المزال فتحصنوا فيه وامتنعوا أشدّ امتناع . فكانوا أشدّ أهل الشقّ رمياً للمسلمين بالنبل والحجارة ، وأخذ رسول الله ﷺ كفاً من الحصا فحصب بها حصنهم فرجف الحصن فأخذه المسلمون وانهزم من سلم من أهله إلى حصون الكثيبة [٤] .

كذا أورد الأستاذ حسين باسلامة اسم هذا الحصن، وفي «البداية والنهاية»: حصن البزاة ، ولا شكّ أن إحدى الكلمتين محرفة عن الأخرى .

---

(١) « حياة سيد العرب » ٣/١١٨

(٢) « الطبقات » ٥/٣٨٨.

(٣) ص ٥٤٠ و « معجم ما استعجم » .

(٤) « حياة سيد العرب » ٣/١١٢

١٥ — حصن ناعم : حصن من حصون خيبر ، عنده قتل محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة ، ألقوا عليه رحاً فقتلوه عام خيبر [١] .

١٦ — حصن النزار : قال ابن سعد : الشق ، وبه حصون منها حصن أُبي ، وحصن النزار . كذا في مطبوعة « الطبقات »[٢] وفي بعض الكتب : البزاة ، وفي بعضها المنزال والنزال، ولا شك أن بعضها مصحف عن بعض .

١٧ — حصن النطاة أول حصن فتح من حصون خيبر ، وقد حاصره المسلمون عشرة أيام ، وفي إحدى الليالي أصاب الحرسُ يهودياً احضروه للرسول ﷺ فأخبره أن أهل الحصن يتسللون ليلاً ينقلون ذراريهم تهيُّئاً للقتال ، وان في الحصن بيتاً تحت الأرض فيه منجنيق ودبابات وأدرع وسيوف ، فإذا فتحت الحصن أوقفتك عليه فإنه لا يعرفه غيري . وفي رواية أُخرى: يستخرج المنجنيق وينصب على الشقّ،ويدخل الرجال تحت الدّبابات فيحفروا الحصن ، فتفتحه من يومك ، وهكذا تفعل بحصون الكتيبة [٣] .

١٨ — حصن وَجْدَة : وبه نخل وأشجار ، وهولرسول الله ﷺ [٤] .

١٩ — حصن الوطيح : حصن من حصون خيبر ، قال السهيلي : سمي بالوطيح بن مازن ، رجل من ثمود ، وكان الوطيح أعظمها ، وآخر حصون خيبر فتحاً ، هو والسُّلالم . وفي كتاب « الأموال » لأبي عُبَيد : الوطيحة بالهاء [٥] .

٢٠ — الحُصُون — جمع حصن — قرية من قرى خيبر يطل عليها حصن كبير ، فيه قصر الامارة القديم ، وفي سفح الحصن ، في وسط البلدة يوجد الجامع الكبير ، وهذا الوصف ينطبق على حصن القموص .

---

(١) « معجم البلدان » .
(٢) : ٢ / ١٠٦
(٣) « حياة سيد العرب » ٣/١٠٨
(٤) « المناسك » ٥٣٩
(٥) « معجم البلدان » .

بعد أن تم استيلاء المسلمين على بلاد خيبر قام الحكم في هـذه البلاد على أساس العدل التام، فكان الرسول ﷺ يرسل إليها من يخرص الثمار، فإذا قال اليهود :تعدَّيْت علينا، خيَّرهم الخارص قائلاً: إن شئتم فلكم،وإن شئتم فلنا . فيقولون : بهذا قامت السموات والأرض[1] . وكان ممن تولَّى خرصها عبدالله ابن رواحة عاماً واحداً ، ثم قتل — رضي الله عنه في غزوة مؤتة — فجعل رسول الله ﷺ مكانه جبَّار بن صخر بن أمية وأبا الهيثم بن التيِّهان الأنصاريين وقد كان اليهود هم الذين يتولون القيـام على الأموال ، ولهم نصف ثمارها .

واستعمل رسول ﷺ فروة بن عمرو البياضي ، على المغانم .

وعين رسول الله ﷺ ولاةً على خيبر ، كان منهم :

١ — سواد بن غَزِيَة البلوي حليف بني عدي بن النجار ، وممن شهـد بَدْراً وغيرها من المشاهد مع رسول الله ﷺ[2] .

٢ — عمرو بن سعيد بن العاص[3] بن أميـة بن عبد شمس القرشي ، من قدماء الصحابة إسلاماً ، وهو الذي قال فيه أخوه أبان لمـا أسلم هو وأسلم أخوهما خالد بن سعيد :

ألا لَيْتَ مَيْتاً بـ (الظريبة) شاهِدٌ   لما يفتري في الدين عمرو وخَالِدُ
أطاعا — مَعاً — أمْرَ النساء ،فأصبحا   يعينانِ من أعدائنـا من نكايِدُ

فقال عمرو :

أخي،ما أخي! لا شاتِمٌ أنا عِرْضَهُ   ولا هو عـن سوء المقالة يُقْصِرُ
يقول إذا اشتدت عليـه أمورُهُ:   ألا ليت ميتا بـ (الظريبة) يُنْشَرُ
فَدَعْ عنكَ مَيْتاً قَدْ مضى لسبيلِهِ   وأقبل على الحـقّ الذي هو أظْهَرُ

وقد أسلم أبان ، وتولَّى الثلاثة أعمالاً للرسول ﷺ فكان خالد أميراً على اليمن ، وأبان على البحرين ، وعمرو على سواد خَيْبر ، وعلى وادي القُرى ،

---

(١) « السيرة النبوية » ٣ / ٣٦٩ .
(٢) « الاستيعاب » لابن عبد البر و « الإصابة » رقم ٣٥٨٢ .
(٣) « تاريخ خليفة بن خياط » .

وبقي أميراً في أول عهد أبي بكر ، حتى قتل – شهيداً رحمه الله ، في عهده في أجنادِين وكان من الأبطال ، وله في الفتوح مواقف مشهورة [١] .

وفي عهد الخلفاء الراشدين استمرت حال خيبر في عهد ابي بكر (ض) على ما كانت عليه في عهد الرسول ﷺ .

اما في عهد الفاروق فإنه لما كان في سنة عشرين من الهجرة رأى الفاروق (ض) – وهو البعيد النظر الصائب الرأي ، الحكيم في تدبير الأمور – ان اليهود الموجودين في خيبر يكونون مجتمعاً فاسداً نشأ على كراهية المسلمين ولم يقابلوا ما أضفى عليهم الاسلام من عدل وأمن إلا بالنكران ، فقد قاموا في عهد الرسول ﷺ فقتلوا رجلاً من أصحابه هو عبدالله بن سهل ، ولما طالب أوليـــاؤه بالقود أنكر اليهود ولم تكن هناك وسيلة سوى أن يقوم الرسول ﷺ بدفع ديته مائة ناقة ، وكان الرسول ﷺ قد قال في مرضه الذي مات فيه « لا يجتمع بجزيرة العرب دينان » وكان قد اشترط لأهل خيبر من اليهود أن يخرجهم متى أراد .

ثم في عهـد عمر بن الخطاب خرج ابنه عبدالله ومعه الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود إلى اموالهم بخيبر ، فانفرد عبدالله في مكان وحـده فعدا عليه اليهود وهو نائم ففدعوا يديه ، اي فكوا مفصليها ، فاستصرخ صاحبيه فسمعا صوته وأتيا إليه وحملاه إلى المدينة بعد أن أصلحا يديه ، فقـال عمر (ض) :هذا عمل يهود. ثم قام في الناس خطيباً فقال: أيها الناس ان رسول الله ﷺ كان عامل يهود خيبر على انا نخرجهم إذا شئنا ، وقد عدوا على عبدالله ابن عمر ففدعوا يديه كما قد بلغكم ، مع عدوهم على الانصاري قبله ، لا نشك أنهم أصحابه ليس لنا هناك عدو غيرهم فمن كان له مال بخيبر فليلحق به فاني مخرج يهود ،فأخرجهم ، فقال رئيسهم بعد ان وصل عمر إلى خيبر : لا تخرجنا

---

(١) « الإصابة » رقم الترجمة : ٥٨٤٨ .

دعنا نكون فيها كما أقرنا رسول‌الله ﷺ وأبو بكر فقال عمر : أتراني سقط علي قول رسول الله ﷺ ؟ كيف بك إذ رقصت بك راحلتك نحو الشام يوماً ثم يوماً ثم يوماً وقد خرج مع عمر جبار بن صخر ، وكان خارص أهل المدينة وحاسبهم ويزيد بن ثابت وهما قسما خيبر بين اهلها على اصل قسمة السهام في عهد رسول الله ﷺ [1] .

وبفعل الفاروق (ض) تطهرت هذه الواحة من مجتمع وصل إلى درجة التعفن ، وأصبح جديراً بالاستئصال .

وتختفي عنا أخبار خيبر بعد ذلك سوى الاختلافات التي وقعت حول نصيب الرسول ﷺ منها ومطالبة فاطمة ابنته والعباس عمه وعلي بن ابي طالب ابن عمه ، وهي أمور معروفة في كتب التاريخ لا نريد التعرض لها .

ويظهر أن الواحة أصبحت موطناً لكثير من أثرياء أهل المدينة كطلحة ابن عبيد الله وغيره ، وانها أصبحت تنعم بالراحة والاطمئنان بحيث يجد فيها الذين يطلبون الراحة ما يبتغون ، ومن ثم نرى علي بن أبي طالب يلجأ إليها عندما يشتد الخلاف بين الخليفة عثمان (ض) والناقمين من بعض أموره .

وعلى ذكر عثمان يظهر أنه كان اتخذ منها منفى ومن سجنها مكاناً لمن يرى فيه خروجاً عن الطاعة، فهناك شاعر يدعى عبد الرحمن بن حسل من الموالي، وقد كان من الناقمين على عثمان (ض) والداعين للخروج عليه ، وقد قال في هجوه شعراً لا نستبيح لأنفسنا إيراده ، فما كان من عثمان إلا أن أمر به فحبس في القموص من خيبر ومن شعره وهو محبوس :

إلى الله أشكو لا إلى الناس ما عدا
أبا حسنٍ ، غِلاً شديداً أُكابِدُهُ

(١) « السيرة النبوية » ج ٣ ص ٣٧٢ و « البداية والنهاية » ج ٤ ص ٢٠ وما بعدها .

بخيبر في قعر القموص كأنها
جوانب قبْرٍ أعمق اللّحْدَ لا حِدُهْ

أأنْ قُلْتُ حقّاً ، أو نشدتُ أمانةً
قُتِلْتُ ؟! فمن للحقّ إن مات ناشده[1]

ويظهر أن عثمان رضي الله عنه كان قاسياً على الشعراء ، (انظر قصته مع ابن ذي الحبكة في « معجم البلدان » مادة دنباوند) .

ويروى ابن سعد [2] ان عمر بن الخطاب غرّب ربيعة بن أُمية بن خلف إلى خيبر ، وكان صاحب شراب ، فهرب إلى أرض الروم مرتدّاً . ومن هنا يصح القول بأن خيبر كانت في عهد الخليفتين الراشدين مَنْفَى .

وعلى ذكر عثمان يروي المؤرخون أنه تملك في خيبر . قال ابن سعد : كان لعثمان بن عفان عند خازنه يوم قتل ثلاثون الف الف درهم ، وخمسمائة الف درهم ، وخمسون ومائة الف دينار ، فانتهبت وذهبت ، وترك الف بعير بالربذة ، وترك صدقات كان تصدق بها ببئر أريس ، وخيبر ، ووادي القرى قيمة مائة الف دينار .



(١) « الاصابة » رقم ٥١٠٨ .
(٢) « الطبقات » ٣ / ٢٨٢ .

خيبر في بعض المؤلفات العربية

سأورد بعض الأقوال التي اطلعت عليها متعلقة بخيبر ، وقد يكون في بعضها تكرار غير ان حرصي على ان أقدم للقارىء جل ما رأيته في كتب المتقدمين دفعني إلى ذلك .

خيبر من الناحية اللغوية :

للمتقدمين في تعليل اسم خيبر ثلاثة أقوال . ١ – أنه مشتق من قولهم ارض خبرة اي طيبة الطين سهلة. على ما ذكر ابن دريد [١] . ٢ – أنه سمي باسم رجل من العماليق نزل بها وهو خيبر بن قانية بن عبيل بن مهلائل بن ارم ، وان هذا اول من نزلها [٢] . ٣ – ان الخيبر بلسان اليهود هو الحصن، ولكون هذه البقعة تشتمل على حصون سموها خيابر ، واحدها خيبر ، وإلى هذا القول مال كثير من الباحثين في عصرنا .

وأرى أن هذا الاسم (خيبر) قديم، ولما جهل اللغويون معناه تكلفوا لتأويله مختلف الأقاويل، كعادتهم في اسماء المواضع القديمة . ونجد هذا فيما نقل ياقوت عن ابي القاسم الزجاجي أنها سميت بخيبر بن قانية بن مهلائل بن ارم بن عبيل، وعبيل اخو عاد بن عوض بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام . وهو عم الربذة وزرود والشقرة بنات يثرب ، وكان أول من نزل هذا الموضع. انتهى.

---

(١) « جمهرة اللغة » ج ٣ ص ٣٥٦ .

(٢) « معجم ما استعجم » و « معجم البلدان » و « تاج العروس » .

فالزجاجي أو من نقل عنه حاول أن يفسر معاني اسماء هذه المواضع المذكورة بهذا الخبر الخرافي ، ونجد هذا كثيراً في كلام ابن الكلبي كما قالوا في دومة الجندل واجا وسلمى وفدك وفيد وغيرها من أسماء المواضع الكثيرة .

أما القول بأنه مأخوذ من لسان اليهود وان الخيابر الحصون، فمن المعروف ان خيبر كان معروفاً قبل أن يسكنه اليهود ، فماذا كان اسمه ؟ يمكن القول بأن هذه الكلمة مما وافقت اللغة العبرية العربية، ولعل ما ذكر ابن دريد هو اقرب الأقوال إلى الصواب .

وورد اسم خيبر في أحاديث عن النبي ﷺ منها حديث: «خربت خيبر» . و«إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » ومنها حديث :« خير قرى عربية خيبر[1] ». وحديث : « ميلان في ميل من خيبر مقدس » وحديث : « خيبر مقدسة والسُّوارقية مؤتفكة » وحديث : « نعم القرية في سُنَيَّات المسيح خيبر » — يعني زمان الدجال [2] .

ولا شكّ أن أكثر هذه الأحاديث لا يصح عند علماء الحديث ، وإنما أوردتها لأنها تصوّر جانباً من النظرة التي كانت معروفة في القرن الأول الهجري ، نحو بلاد خيبر .

وعلى ذكر خيبر تحسن الإشارة إلى أن في جنوب الجزيرة واديا بهذا الاسم، فيه قرى تبلغ ١٣ قرية ، وسكانها من قبيلة شهران ، ويقع جنوب بيشة ، وجنوب وادي هِرْجاب الذي هو من روافد وادي بيشة .

ووادي خيبر هذا من روافد وادي تثليث ويصف فؤاد حمزة خيبر هذه

---

(١) «طبقات ابن سعد» ١/٣٠٨ ، وانظر عن قرى عربية مجلة « العرب » السنة الرابعة ص ٩٨٣ و ص ٧٦٩ السنة الثانية .

(٢) « وفاء الوفاء » .

البلاد بأنهـا قد تكون أكبر من بلاد خيبر المدينة ، وأعدل هواء ، وأعذب ماء [1] .

(وتقع خيبر هذه بقرب الدرجة ٤٢/٥٩َ طولاً و٤٥َ/١٨ْ عرضاً تقريباً).

ومن غريب المصادفات أن وادي خيبر يجتمع مع واد آخر يدعى الشيق ويسقي قرى خيبر ، وفي خيبر الأخرى وادي الشّق معروف .

ولم أر لهذا الوادي ذكراً في المؤلفات التي اطلعت عليها .

أما ما جاء في كتب المتقدمين عن خيبر المعروفة فمنه : —

١ — خيبر : بينها وبين المدينة ثمانية برد ، مَشْيَ ثلاثة أيام .

تخرج من المدينة على الغابة العُليا ، ثم تسلك الغابـة السُّفلى ، ثم تسلك وادياً يقال له رحب ، ثم ترقى في نقب يَرْدُوج ، وفيـه مسجد لرسول الله ﷺ ، ثم تسلك وادياً يقال له الدَّومة ، وبه آبار ، ثم الأشمـذ : جبل ، ثم الشُّقَّة (السعة) وهي حَرّة ، ثم نُمار ، وهي من خيبر على ستة أميال .

وأول حد خيبر الدومة ، ثم تصير الى سوق خيـبر وحصونهـا ، وسوق خيبر اليوم المِرْطة ، وكان عثمان بن عفان مَصَّرها ، والحصن فيه اليوم بقية من الناس ، وهو لآل عمر بن الخطاب ، ثم حصن وَجْدَة ، وبه نخـل وأشجار ، وهو لرسول الله ﷺ ، ثم سُلالِم (سليـلم) ، وعُظمها لرسول الله ﷺ ، ثم الأهيَل : جبل في أصله آطام لليهود ، ومزارع وأمـوال ، تعرف بالوَطِيـح ، فيه طُعْمُ أزواج رسول الله ﷺ ، وبـني المُطَّلِب ، وبني مخزوم ، ثم الوادي المتصل بالوَطيح ، الى طبران وإلى خاض ، كله لرسول الله ﷺ يسمى الكَتِيبة ، والكتيبة من حصون خيبر .

وهنـاك الصَّهْباء التي أعرس بها رسول الله ﷺ ، وهي من خيبر على بَريد .

---

(١) « في بلاد عسير » - ٦٨ -

وحصن خيبر الأعظم القَمُوص وهو الذي فتحه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأسفله مسجد النبي ﷺ .

وهناك نَطاة والشِّق ، وهما واديان ، بينهما أرض تسمى السَّبِخَة ، والمخاضة ، تفضي إلى مسجد رسول الله ﷺ الأعظم ، الذي صلى فيه أربعين يوماً مقامه بخيبر ، وبنى عيسى بن موسى هذا المسجد ، وأنفق فيه مالاً جليلاً ، وهو على طاقات معقودة ، وله رحاب واسعة ، وفيه الصخرة التي صلى اليها رسول الله ﷺ ، وهو أول نطاة ، وهذا المسجد يسمى المَنْزَلة ، وفيه تُصَلَّى الأعياد اليوم ، وهو أول نطاة .

وفي نطاة حصن مَرْحب ، وقصره ، وقع في سهم الزُّبير بن العوَّام . وبالشِّق عيون ، وفيه عين تسمى الحَمَّة (الحمية) ، وهي التي سماها النبي ﷺ قِسْمة الملائكة ، يذهب ثلثا مائها في فَلَج ، وثلثٌ في فلج ، والمسلك واحد ، وقد اعتبرت منذ زمن رسول الله ﷺ الى اليوم ، يطرح فيها ثلاث خشَبات ، أو ثلاث بَعْرات ، فتذهب اثنتان في الفلج الذي له ثلثا مائها ، وواحدة في الفلج الثاني ، ولا يقدر أحد أن يأخذ من ذلك الفلج أكثر من الثلث ، ومن قام في الفلج الذي يأخذ الثلثين ليرد الماء الى الفلج الثاني غلبه الماء وفاض ، ولم يرجع الى الفلج الثاني شيء يزيد على الثلث ، والعين العظمى بالنطاة تسمى اللُّحَيْحة .

وأقرب الطرق الى خيبر من المدينة من بطن نخل تعدل منها يمنة الذاهب عن صافي واد واحد يوماً وليلة ، وبينهما مياه وبها حساء صغار وآبار للأعراب .

وأول دار افتتحت بخيبر دار بني قِمَّة ، وهي بنطاة ، وهي منزل الياسر أخي مرحب ، وهي التي قالت فيها عائشة : ما شبع رسول الله ﷺ من خبز الشعير والتمر حتى فتحت دار بني قِمَّة .

وقال محمد بن سهل الكاتب : سميت خيبر بخيبر بن قاينة بن مهلائيل ،

وهو أول من نزلها ، وقال ابن اسحاق : كان رسول الله ﷺ حين خرج من المدينة إلى خيبر ، سلك على عَصْر .

هكذا روى عنه ، بفتح العين وإسكان الصاد المهملة ، بعدها راء مهملة ، وفي بعض النسخ : عَصَر ، بفتح الصاد .

قال : فبنى له فيها مسجد ، قال : ثم سلك على الصَّهْباء ، ثم أقبل حتى نزل بواد يقال له الرَّجِيع ، فنزل بين أهل خيبر وبين غطفان ، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر ، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ فكان أول حصن افتتحه رسول الله ﷺ حصن ناعم، فلما افتتح من حصونهم ما افتتح ، وحاز من أموالهم ما حاز، انتهوا إلى حصنيهم: الوطيح والسلالم، فحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة ، حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم ، وأن يحقن لهم دماءهم ، ففعل ، فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا ، بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يسيرهم ، ويخلوا له الأموال ، ففعل . ولما نزل أهل خيبر سألوه أن يعاملهم في الأموال على النصف ، وقالوا : نحن أعلم منكم ، وأعمر لها ، ففعل على أنه إذا شاء أن يجليهم أجلاهم وصالحه أهل فدك على مثل ذلك .

قال ابن إسحاق : ووادِيا خيبر : السُّرَير وخَلْص(خاص)، وهما اللذان قسمت عليها خيبر ، فخلص بين قرابة رسول الله ﷺ وبين نسائه ، قال : وأول سهم خرج من خيبر بنطاة سهم الزبير بن العوام ، وهو الخَوْع .

وقال ابن لقيم العبسي في الشق ونطاة ، وذلك عند فتح خيبر :

رُميتْ نطاة من الرسول بفَيْلق	شَهْباء ذات مناكب وفقار
واستيقنت بالذل لما أصبحت	ورجال أسلم وسطها وغفار
ولكل حصن شاغل من خيلهم	من عبد أشهل أو بني النجار
صبحت بني عمرو بن زُرْعة غدوة	والشق أظلم ليلها بنهار[1]

(١) « المناسك » - ٥٣٩ و « معجم ما استعجم » جمعنا بين ما في الكتابين .

٢ - وبخيبر قوم من يهود وموال وخليطى من العرب [(١)] . كذا قال الهمداني ، وهو من أهل القرنين الثالث والرابع الهجريين وهذا خطأ ، فقد اجلى عمر بن الخطاب اليهود من خيبر ، وكأن الهمداني جهل هذا .

٣ - وقال الهجري : خيبر بحرة النار [(٢)] .

٤ - خَيْبر بلد حصين - مثل المروة - بها جامع حسن ، وثَمَّ الباب الذي قلعه أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (ض) وهي والمروة والحوراءمدن خيبر [(٣)] .

٥ - الخَيْبريُّ : هذا [نسبة]لاسم لقلعة حصينة على منازل من المدينة، على طريق الشام، فتحها رسول الله ﷺ سنة ست من الهجرة.الخَيْبَرُ بلغة اليهود الحصن . اشتهر بهذه النسبة جماعة منهم أحمد بن عبد القادر اللخمي الدمشقي ، ولا أدري الخيبري اسم لجده ، أو نسبة إلى خيبر ؟ يروى عن منبه بن عثمان ، روى عنه أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ، ومات بعد سنة تسع وسبعين ومائتين [(٤)] . وعلق المحقق الأستاذ الشيخ عبد الرحمن اليماني : في « اللباب » : فاته النسبة إلى خيبري بن أفلتٍ بن سلسلة بن عمرو ابن سلسلة ، بطن من طيءٍ ثم من بحتر منهم مدلج بن سويد بن مرثد بن خيبري ، مجير الجراد .

٦ - خيبر : ناحية على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشام ، ويطلق هذا الاسم على الولاية ، وتشمل هذه الولاية على سبعة حصون ومزارع ونخيل كثير

---

(١) « صفة جزيرة العرب » - ١٣٠ -
(٢) « ابو علي الهجري » ص ٢٣١ .
(٣) « أحسن التقاسيم » - ٨٣ - المؤلف سنة ٣٧٥ .
(٤) « الأنساب » للسمعاني ٥/٢٥٢ .

وأسماء حصونها : حصن ناعم، وعنده ُقتل محمود بن مسلمة ، والقموص حصن ابي الحقيق . وحصن الشق ، وحصن النطاة ، وحصن السلالم وحصن الوطيح وحصن الكتيبة . وأما لفظ خيبر فهو بلسان اليهود الحصن ، ولكون هذه البقعة تشتمل على هذه الحصون ُسمِّيت خيابر [١] .

٧ – وخيبر بها نخيل كثير وهي بلد بني َعنَزَة ، والخيبر بلغة اليهود : الحصن،وهي في جهة الشمال والشرق عن المدينة على نحو ست مراحل . وقال الادريسي : وخيبر مدينة صغيرة كالحصن ذات نخيـــل وزروع ، وكانت في صدر الاسلام داراً لبني قريظة والنضير وكان بها السموأل بن عــادياء ، ومنها إلى المدينة أربـع مراحل [٢] .

وأقول : يفهم من كلام الهمداني في « الإكليل » ان سكنى قبيلة عنزة في بلاد خيبر بعد انتقال بني حرب من اليمن إلى الحجاز في القرن الثاني الهجري، فقد نقل ان بني حرب لما صارت إلى قدس من الحجاز وبهـــا عنزة ومزينة وبنو الحارث وبنو مالك من سليم ، ناصبتهم الحرب عنزة ، والذي هــاج ذلك ان رجلاً حربياً وآخر عنزياً امتريا في جذاذ نخل ، فعدى الحربي على العنزي، فضربه ضربة بتك بها يده ، فعدت بنو حرب يومئــذ ، وهي ستمائة رجل ، فأجلوا من بالبلد من عنزة إلى الأعراض من خيبر [١] .

أما السموأل فمن َتيماء .

٨ – امارة خيبر : مركزهــا : خيبر ، وهي قرية أو مجموعــة قرى في واحة تسمى باسمها ، واقعة في حرة على مرتفع يبلغ (٢٨٠٠) قدم فوق سطح البحر ، وعلى بعد ستين ميلاً من شمالي المدينة المنورة .

---

(١) « معجم البلدان » .
(٢) تقويم البلدان لأبي الفداء المتوفى سنة ٧٧٢ – ٨٩ –
(١) الاكليل ١ ص ٣٠٣ .

وتقع البلدة نفسها في وادي الزايدية في أكبر أودية خيبر ، وبها قلعة قديمة تسمى الحصن ، وبها عيون ماء جارية ، والواحة غير صحية ، والعرب لا يحبون الإقامة فيها خوفاً من الحمى .

قال دوتي Ch.doughty الذي أقام بخيبر من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٧٧ م حتى شهر آذار (مارس) سنة ١٨٧٨ م : خيبر مجموعة من الأودية العريضة ، وهي غنية بالمياه .

وقيل للأمير شكيب أرسلان : إن بها سبعة أودية سائلة ، ونخيلاً من فوق التصور ، ويبلغ عدد سكان خيبر (٣٠٠٠) نسمة أكثرهم مولدون[١] .

٩ – ويصف الأستاذ حافظ وهبه خيبر (سنة ١٣٥٤ / ١٩٣٥ م)

فيقول : هي قرية أو مجموعة قرى في واحة تسمى باسمها ، واقعة في حرة على مرتفع يبلغ ٢٨٠٠ قدم فوق سطح البحر ، وهي على بعد ستين ميلاً من شمالي المدينة المنورة .

والبلدة نفسها تقع في وادي الزايدية[٢] أكبر وديان خيبر ،وبها قلعة قديمة تسمى الحصن ، وبها عيون ماء جارية كثيرة [٣] .

وخيبر اسم مشهور من قديم في الإسلام ، فقد وقعت فيها معارك . وسكانها ٣٠٠٠ نسمة أكثرهم مولدون . والعرب لا يحبون الإقامة فيها خوف الحمى .

والواحة غير صحية ، وقد كانت خيبر موطن اليهود في صدر الإسلام .

١٠ – خيبر : على وزن جعفر ، واحة واسعة ، غزيره المياه ، تقع في حرة تعد من أعظم الحرات وأوسعها مساحة ، على مرتفع يبلغ علوه نحو

---

(١) « جغرافية شبه جزيرة العرب » ص ١٢٧ .
(٢) « جزيرة العرب » ط ٤ ص ٢١
(٣) فيه : زيدية ، خطأ .

(٨٥٠) متراً عن سطح البحر، وعلى مسافة لا تزيد عن ١٨٩ كيلومتراً للشمال الشرقي عن المدينة المنورة .

وفي المواسم التي تهطل فيها أمطار غزيرة تتدفق بهـا السيول ، ترسل ينابيـع خيبر كميات من المياه على شكل نهر تقريباً . وفي هذا النهر توجـد أسمـاك يبلغ طول الواحدة منهـا قدمين ، تعيش في الفجوات المغمورة التي تتشكل بين الصخور وبالاضافـة إلى ذلك فأن التمور والقمح والشعير تنمو بكميات وافرة في المنطقة .

ويقدر عدد سكان الواحة بما يزيد على ثلاثة آلاف رجل ، موزعين على القرى السبـع التي تتألف منها الواحة ، وأهم هذه القرى قرية « البشر »وهي المركز الاداري للمنطقة .

وفي مواسم جَني التمر يفد إلى المنطقة بدو يتراوح عددهم بين ٥٠٫٠٠٠ و٦٠٫٠٠٠ نسمة .

ومما هو جدير بالذكر أن المعركة الفاصلة التي نشبت بين جاليات اليهود التي كانت تقطن خيبر وبين الرسول عليه السلام عام ٧ هـ : ٦٢٨ م . كانت في موقع قرية « ام كدا » ، على حوالي ميلـين إلى الجنوب الغربي من قرية « البشر » وقد أقيم مسجد تخليداً لذكرى هذه المعركة . وأما الصحابة الذين استشهدوا فيها فقد دفنوا في مكان قريب من قرية البشر ، أطلق عليها اسم « مقبرة الشهداء » .

وتقع منازل « أولاد سليمان » من عنزة ، بأطراف خيبر من جهة الشمال والشرق .

ويروى أنه كان في منطقة « خيبر » ستة سدود لخزن مياه الري [١] .

---

(١) « الجزيرة العربية » تأليف مصطفى مراد الدباغ ١٢٦/١

خيبر الآن إمـــارة تابعة من حيث الترتيب الاداري لإمارة حائل وتتكون من مجموعة من القرى ، فصلت ذكرها في قسم الأماكن من هـــذه الرحلة ، ومن أشهرها الشريف ويسمى قرية بشير وفيه مدرسة يبلغ تلاميذها ١٤٠ تلميـذاً ومكيدة ، وطلاب مدرستها ١٢٩ ، وهناك قرى أخرى فيها مدارس ، ويقدر عدد سكان خيبر الآن بـ ٦٠٠٠ نسمة ، مع ملاحظة ان أكثر اهل الواحة من عنزة من البدو الرحل ، ولم يشملهم هذا التعداد .

ومما هو مضاف إلى خيبر ، وداخل في منطقتها :

١ - فدك : وتعرف الآن باسم الحايط ، وسيأتي الكلام عنها مفصلاً .

٢ — يديع : وهو اسم كان يطلق على واد فيه مياه مع نخيل كثـيرة ، ويعرف الآن باسم الحويِّط تصغير حائط .

٣ — ضرغد : واد فيه نخيل .

٤ — ضريغد : واد فيه نخيل أيضاً .

٥ — الصلصلة: في أعلى وادي خيبر المسمى الغرس—بالغين والراء مفتوحتين — فيما بين خيبر والمدينة .

٦ — غمرة : في اسفل وادي خيبر .

وكل هذه المواضع ، وغيرها من القرى تحدثنا عنها في مكان آخر .



خيبر في كتابات بعض الغربيين

ويحسن – بهذه المناسبة – أن نشير إشارة موجزة إلى من زار خيبر ، ممن عرفناه من الغربيين :

١ – هناك شخص يدعى (لود فيكو فارتيما) يقال إنه من رومانيا من أسرة نبيلة فيها ، وبعضهم يصفه بأنه بولوني [١] . هذا الشخص – على ما يبدو من المذكرات المنسوبة إليه – غادر البندقية سنة ١٥٠٣ م (أي في أول القرن السادس عشر الميلادي) فبلغ القاهرة فبيروت فطرابلس فحلب فدمشق ، حيث تعلم اللغة العربية ، وكان عرف في القاهرة ضابطاً من ضباط دولة المماليك ،معرفة مكنته من أن يكل إليه هذا الضابط مع ستين من رجاله حراسة الحجاج المتجهين إلى مكة ، ومن ثم سار مع الحجاج الشاميين حتى بلغ مكة – فيما قال – وكان فيما مَرَّ به خيبر ،وقد وصفها وصْفاً هو أقرب إلى الخيال ، وأصبح مجالاً للشك – حتى لدى الغربيين – فقد وصفته الكاتبة الفرنسية (جاكلين بيرين) بأنه قاصّاً رائعاً [٢] ، وأوردت من تصوراته أشياء هي أقرب إلى الخيال [٣] ومن ذلك وصفه للمسجد النبوي والحرم المكي ، ومناسك الحج ، وصْفاً يشوبه كثير من الأمور التي هي أبعد ما تكون عن الواقع . وسنعود للحديث عنه .

---

(١) « اكتشاف جزيرة العرب » – ٣٨ ، وما بعدها –

(٢) « اكتشاف جزيرة العرب » – ٣٩ –

(٣) « اكتشاف جزيرة العرب » – ٤٢ –

٢ـكارلو غوارماني الايطالي الذي زار خيبر سنة ١٨٦٤ بحجة أنه جاء لشراء الخيول الأصيلة ، وقد ورد ذكر وصفه لخيبر ، مما يدل على أنه كان دقيقاً في وصف ما شاهده.

٣ – شارل دوتي – صاحب الرحلات المعروفة – الذي زار خيبر سنة ١٨٠٠ – وقد تحدث فلبي كثيراً عن رحلاته ، ومشاهداته في خيبر ، واتخذ منها أساساً لما قام به من مشاهدات ، ورحلات دوتي لم تعرَّب بَعْدُ ، ولهذا لم أستطع أن أقدم للقاريء شيئاً منها لجهلي باللغة الانجليزية ، غير أن فلبي اعتمد عليها كثيراً .

٤ – الشيخ عبدالله فلبي :

وقد زار خيبر سنة ١٩٥٠ – فيما بين اليوم الـ ٢١ والتاسع والعشرين من شهر ديسمبر (كانون الأول) وأمضى فيها أربعة أيام ، متجولاً ومتنقلاً ، وباحثاً وناقِلاً ما شاهده من كتابات ، ومتصلاً أتم الاتصال بأهل البلدة ، من أميرها الذي أكرمه غاية الاكرام ، لكونه يحمل أمراً من الملك عبد العزيز بذلك فمن دونه .

وقد سجل مشاهداته في كتابه « ارض مدين – The land of midian » الذي عُرِّب خطأ باسم « أرض الأنبياء مدائن صالح » وقد ملأت تلك المشاهدات ٣٤ من الصفحات ، من ص ١٣ إلى ص ٤٨ في الأصل الإنجليزي ، وفيها وصف مشاهداته في الطريق من المدينة إلى خيبر ، يضاف إليها ٢٤ صفحة في وصف مشاهداته من خيبر إلى تيماء ، وهي مشاهدات قائمة على أسس قوية من الدراسة العميقة ، ووصف بارع لما رآه من أمكنة أثرية ، بدقة وحرص شديدين بقدر استطاعته .

ويلاحظ أن فلبي :

١ – ليس من المتخصصين في دراسة الآثار ، ويمكن أن تقف مقدرته عند حدّ نقل ما يشاهده من النقوش ، وهو نقل قد يعتوره الخطأ إذا لم يستعمل آلة التصوير .

٢ – أنه جاهل بتاريخ الجزيرة وجغرافيتها ، ذلك لأن حياته كانت في الإتجاه السياسي منذ كان موظفاً في بغداد ، ثم شرق الأردن ، ثم في الهند ، ثم في المملكة العربية السعودية ، ولهذا فهو حينما يقرأ الكتابات العربية في المؤلفات المعروفة لا يقيم القراءة ، فيقرأ مثلاً اسم (العضامي) بالياء المشددة التي هي ياء النسبة يقرأها (العصامَي) باعتبارها مَدَّة للميم المفتوحة ، وحينما يرى في احدى المخطوطات الحديثة كلمة (تنيف) – أي تزيد ، والتعبير عامي – يقرأها (شنيف) ويظنه شخصاً ، ومن ثم يعتبره قائداً [١] .

٣ – انه عندما يجد اسم موضع أو قبيلة يقرب هذا الاسم إلى اسم قديم يسارع إلى الربط بين الاسمين ، فهو عندما وجد من قبائل حسمى وما حولها قبيلة تدعى العِمْرَان ، بادر إلى الاستدلال بالآية الكريمة (وآل عمران ..) وحملها على هؤلاء الحديثي العهد ، قائلاً : واسم القبيلة يذكر المرء بـ (آل عمران) وهي العشيرة التي انحدرت من آدم ونوح وابراهيم [٢] .

٤ – أنه يجهل حالة الشعوب القديمة ، ولهذا عندما لا يشاهد كتابات عبرية في بلاد خيبر يؤوّل ذلك بقوله : (التفسير الوحيد لذلك أن اليهود كانوا متقدمين أكثر من العرب في ذلك الوقت ، ولذلك فإنه من المحتمل أن يكونوا استعملوا سعف النخل أو رقّ الغزال ، أو غير ذلك من المواد السريعة التلف في تدوين ما شاؤا من تاريخهم ومراسلاتهم ، ومن الطبيعي أن مثل هذه الأشياء لا تعمر طويلاً ، وخاصة إذا كانت مدفونة في أراضي الواحات التي تشبه المستنقعات) .

وقد فاته – ١ – أن أكثر من يسكن هذه الواحات كانوا من الطبقة الجاهلة من الفلاحين – ٢ – أن اليهود ما كانوا يكتبون بالعبرية ، وإنما كانوا يكتبون بلغة البلاد التي يعيشون فيها ، ويصونون الكتابة العبرية صيانة تحول دون ابتذالها ، وهذا شيء معروف لدى علماء الآثار .

---

(١) انظر ص٣٦٧ من كتابه عن تاريخ المملكة المعرب باسم « تاريخ نجد » .

(٢) كتابه المعرب ص ٢٨٧

٥ – أنه كان يرافقه بعض المرشدين ، ومنهم من لا يعرف كثيراً من الجهات التي يسير فيها ، وفلبي ُطلَعَة ٌ يسأل عن اسم كل مكان يمرّ به ، وعن كل جبل يشاهده ، وعن كل واد يقطعه في طريقه، والويل لمرشده إذا أجابه بعدم معرفته لاسم أي شيء مما سأل عنه من ذلك ، وأقل عقوبة ينالها طرده ورجوعه إلى رئيسه الذي قد كُلّف من قبل جهات أعلى منه بأن يقدم لفلبي كل عون، ولهذا فإنّ المدة الطويلة التي مكثها فلبي في الجزيرة جعلت هذا الأمر معروفاً عنه ، معرفة دفعت كل شخص تحتم الظروف عليه مرافقته أن يسعى لنيل رضاه ، بأية وسيلة كانت ، فكان أذكى هؤلاء المرشدين هو من يقدم للشيخ عبد الله فلبي جواباً سريعاً عما يسأل عنه . فيبادر إلى تسجيله، إن حقاً وإن باطلاً، ولهذا جاء كتابه عن «أرض مدين» محشوّاً بأسماء هي أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع ، وماذا يفعل المرشد المحتاج أكثر من أن ينال رضا من قد يبذل له من المكافأة ما يطمح إليه ؟!

إلا أن الحقيقة التي يجب أن تقال هي أن فلبي أسدى للجزيرة العربية يداً قصر عن مدّها إليها من سواه ، وقد مكنته حضوته لدى الملك عبد العزيز – رحمه الله – وما بذله له من مختلف أوجه العون مما لم يحظ به غيره ممن حاول أن يكتب عن هذه الجزيرة كتابات وافية في مختلف نواحيها التاريخية والجغرافية ، ولكن فلبي بزّه في ذلك بحيث أصبحتُ كتبه مصدر كل دارس لتلك النواحي على اختلافها .

أما كتابته عن خيبر فتعتبر من أوفى الدراسات ، وهو في كلها – أو جلها – قد توخّى الحقيقة، فأصابها . هذا من حيث تدوين مشاهداته، أما استنتاجاته فينبغي لكل دارس أن يقف منها موقف المتعمق الباحث الذي لا يكتفي بما يقدمه فلبي من رأي في الموضوع .

ومن الخرافة ما ذكره الرحالة ُلودْفِيكو دي فارتيما الذي يعتبر من أول الرحالة الغربيين الذين زاروا بلاد العرب والذي زار خيبر على ما يقال سنة ١٥٠٣ م ، فقال بأنه وجد أربعة آلاف أو خمسة آلاف يهودي من المختنين

الذين يغلب على لونهم السواد ويكرهون المسلمين يقيمون هناك. ان هذه الخرافة قائمة على مجرد الحدس ، فاليهود لا وجود لهم في ذلك العهد ، وكراهية هؤلاء السود قد يكون أصلها أنهم يكرهون البدو الذين يعاملونهم معاملة قاسية ، معاملة السيد للمسود .

أما الرحالة كارلو غوارماني الذي قدم الى خيبر سنة ١٨٦٤ م في زي بدوي يبحث عن الخيول الأصيلة ، فإنه عند دخوله المدينة المحوطة بمزارع النخيل لم يدهش لرؤية سكانها وخيل اليه انه في السودان ، وقد استقبله الحاكم التابع لأمير شمر في حائل استقبالا حسناً بوصفه مبعوثاً تركياً ، وتمكن من التجول في المدينة على هواه ، ووصف غوارماني مدينة خيبر فقال : ان عدد سكانها ألفان وخمسمائة نسمة على وجه التقريب ، وهي مقسومة إلى سبعة أحياء ، يشغل كل منها وادياً من الوديان السبعة الواقعة في جبل الحرة الذي تكثر فيه ينابيع المياه العذبة ، ويشرف على هذه الأودية صخرة شديدة الضخامة مرتفعة يعلوها حصن قديم جداً يدعى قصر اليهودي ، وقد زار خرائبه لكنه لم يجد سوى أطلال من الخرائب دون أية كتابات أثرية . أما السكان فمن نسل العبيد الأحباش من قبيلتي أولاد سليمان وعلي ، وقد شغلوا منطقة خيبر زمناً طويلاً حتى قضى الجدري على عدد من أسيادهم منذ عدة قرون سلفت ، واعتبروا المياه مصدراً لذلك الوباء ، فنزحوا عنها وتركوها لهم ، ولكنهم لم يتخلوا لهم عن ملكيتها بل احتفظوا بحق استيفاء قرطين (؟)من البلح عن كل شجرة في الموسم ،على انهم تركوا لهم الحرية في أن يقوموا بزراعات أخرى لحسابهم الخاص ، لذا فإن القبيلتين تقتربان من خيبر في كل عام من غير أن تدخلاها لاعتبار انها شؤم على البيض ، فيسلمهم السود البلح الذي يصيبهم ، ويدفعون لهم مبلغ تسعة آلاف وثلاثمائة وعشرين فرنكاً من عملة سنة ١٨٦٥ الذي تعهدوا بدفعه لأمير حائل الشمري .

يقول غوارماني ان هؤلاء السود وجميعاً مسلمون انهم دمثو الأخلاق ، وليس صحيحاً ماقيل عن وجود يهود في تلك المنطقة في القرن الثامن عشر ، وإذا صح انهم

وجدوا يوماً فما ذلك إلا في عصور متقدمة جداً ، وهذا ما يدور حوله الجدل حتى الآن ، فلا شيء في الوقائع التي رواها غوارماني ، عدا اسم القصر المتهدم ، يسمح بالبت في المسألة ، ويعتقد اليوم ان الكتابات الأثرية النيوبابلية قد تلقي بعض الأضواء على ذلك [1] .

ويظهر أن بعض البلاد تستهوي أفئدة بعض زائريها فينظرون اليها نظرة الفة ، بل نظرة اجلال ، ولعل هـذا يوضح لنا آثاراً منسوبة إلى النبي ﷺ وهي عند أهل الحديث ضعيفة ، غير انها مما أثر عن اناس من اهل القرن الأول الهجري ، فقد روى الفيروز آبادي صاحب المغانم المطابة عن الزبيربن بكار عن ابراهيم بن جعفر عن ابيه أن رسول الله ﷺ قال : « ميلان في ميل من خيبر مقدس » وروي عن سعيد بن المسيب مرفوعاً : « خيبر مقدسة والسُّوارقية مؤتفكة » وروى عن سليمان بن صخر مرفوعاً : « نعم القرية في سنيات المسيح خيبر » يعني زمان الدجال [2] ؟

ذكرتني هذه الآثار بما كتبه فلبي عند زيارته لخيبر قال والنص من الترجمة العربية وهي غير كاملة : (شعرت – وأنا في خيبر – بأنني في مكان مقدّس ، أمّه شارلز دوتي منذ نيف وسبعين سنة ، وقد قام بوصفه بروعة واتقان بشكل لم يترك إلا القليل القليل لكي يقال عن مثل هذا المكان الأثري الذي ما أقل ما تغير فيه شيء منذ اليوم ، الذي زاره فيه شارلز . انتهى .

لقد أشرت فيما تقدم عن طبيعة بلاد خيبر إلى كونها منطقة زراعية ، وإلى أن من طبيعة كثرة المياه في أماكنها المنخفضة جعلتها بلاداً موبوءة ، وهذان الأمران مما عرفت به هذه الواحة منذ القدم ، ولهـذا يحسن التحدث عن هاتين الناحيتين حديثاً فيه شيء من التفصيل وها هو :

---

(١) « اكتشاف جزيرة العرب » ص ٢٩١ .

(٢) « المغانم المطابة » ص ١٣٧ .

الناحية الزراعية في خيبر

كثير من سيول الحرة الواسعة المحيطة بخيبر التي تتدفق من الجنوب ومن الجنوب الغربي تتجمع في منخفض من الأرض ليس واسعاً سعة تجعل تلك المياه تتصرف تصرفاً يستفاد منه ، ثم إن ذلك المنخفض يحاط بجبال صخرية مرتفعة ، أما تربته فهي تربة طينية يخالطها بعض الرمل الجوانب الشمالية منها ولكن بقلة ، ومن ثم أصبح هذا المنخفض تتوفر فيه صفتان هما غزارة المياه والتربة الحسنة التي تجرف السيول بعضها من أمكنة في الحرة فتنزل بها إلى ذلك المنخفض ، إلا أن هذه السيول تكون بدرجة أكثر مما تحتاجه الأرض المنخفضة ومن ثم كثرت الينابيع فيه كثرة زادت عن الحاجة ، ومن المعروف أن كثرة المياه تحدث في الأرض ضعفاً من الناحية الزراعية وخاصة إذا كانت تلك الأرض ذات تراب أو طينة تكثر فيها الأملاح .

وقد كانت واحات خيبر في الزمن القديم منظمة تنظيماً يجعلها صالحة للزراعة .

فلقد استعمل قدماء أهل هذه البلاد السدود ، فأقاموها في أعالي الأودية لأغراض ثلاثة : — ١ — حصر قدر من الماء لوقت الحاجة — ٢ — إرواء ما حول السدود من الأرض التي لا عيون ولا آبار فيها — ٣ — حجز المياه القوية لئلا تحدث في الواحة فيضانات تؤثر في المزروعات أو منازل السكان . والمتقدمون من المؤرخين لم يعنوا بهذا الجانب — أعني إقامة السدود — من

حياة السكان ، غير أن الآثار الباقية من تلك السدود تدل على حذق ومهارة في إقامتها ، وإدراك لفائدتها وها هي أهم السدود المعروفة الآن : —

١ — سَدّ الحصيد : سدٌ يقع على واد يدعى الحصيد من أودية خيبر ، ينحدر حتى يلتقي بشعيب الثمد ، وهو سَدٌ يمتد أمْيالاً ، وكان عرض جداره — في بعض المواضع — يقارب ٢٥٠ ياردة وارتفاعه ٤٠ قدماً ، مبني بالحجارة التي لم تشذب ، وبالطين والكلس ، وقد حدث الخراب في طرفيه من جراء تدفق المياه ، والاهمال ويبعد عن خيبر في الجنوب الغربي بـ٣٠ كيلاً [١] (انظر صورته).

وأثار دهشة فلبي أن السّدّ لا يزال قائماً كما شيّد في الأصل . ويعلل فلبي وجود هذا السد وسد قصر البنت — وهما يقعان في أعالي أودية خيبر —يعلل ذلك بأن بعضها أنشيء لاحتجاز الماء ومنع الفيضانات من أن تغمر الأراضي، على أن تستخدم المياه المحجوزة في الزراعة فيما بعد، فتوفر هذه السدود الري لأراضي تبعد مسافة أميال فتجعلها مخصبة .

٢ — سَدُّ الصهباء : ونقل السمهودي أن البخاري روى في خبر رجوع النبي ﷺ من خيبر بصفيّة : فخرج حتى إذا بلغنا سَدّ الروحاء حلّت قال السمهودي : وكنت أستشكله لأن صفية حلت بالصهباء ، وليست الروحاء بطريق خيبر . ولهذا قال الكرماني : قيل الصواب سدّ الصهباء . وقد ثبت في رواية أخرى للبخاري: حتى بلغنا سدّ الصهباء، وصوّبها الحافظ ابن حجر. وبين ابن سعد أن الموضع الذي وقع فيه البناء بصفية على ستة أميال من خيبر [٢] .

٣ — سَدّ القُصَيبة ، وسماه فلبي سد قصر البنت : من سدود خيبر ، يقع في الجنوب الغربي على مسافة ٣٠ كيلاً ، وقد وضع على وادي الغَرَس ،

---

(١) فلبي .
(٢) « وفاء الوفاء » .

وبني بحجارة صلدة غير مشذبة ملصقة بالجص بمهارة، وقد طلي أعلاه بالاسمنت. وقدر فلبي طول هذا السد بأكثر من ٥٠٠ياردة وأن بقيته القائمة يبلغ ارتفاعها خمسين قدماً بسمك ١/٢ ١٣قدماً وتبلغ هذه السماكة الضعف عند قاعدة السدّ.

وهذا السد في رأي فلبي أكثر أهمية من سدّ الحصيد (انظر سدّ الحصيد).

٤ - سَدُّ المشقوق : من سدود خيبر شرق الشُّريف ، يبلغ سمكه ١٥ قدماً وارتفاعه ستة أقدام ، وطوله ١٤٠ ياردة . بني بحجارة غير مشذّبة ، وقد تهدم من جهته اليمنى ٣٠ ياردة[1] .

وشعيب المشقوق المقام عليه هذا السدّ من روافد شعيب هلهل (؟) الذي يخترق بساتين النخيل بقرب مكيدة .

ويظهر أن هذه السدود كانت صالحة ومستعملة إلى مـا قبل الإسلام بزمن أي في العهد الذي يطلق عليـــه مؤرخو العرب زمن سكنى العمالقـــة في هذه البلاد .

ثم ضعف أولئك القوم الزراعيون الذين أقاموا السدود وأنشأوا الحصون وأجروا في بطن الواحة ينابيع من المياه كثيرة جداً ، وأتى من بعدهم اناس انصرفوا إلى نواحي أخرى غير الزراعة من التجارة والصناعة ، وهاتان الحرفتان كانتا رائجتين قبل الإسلام ، فالعرب أمة فروسية وصيد تحتاج إلى أدوات الحرب والصيد من سيوف ونبال ورماح وهي في الوقت نفسه تحتاج إلى بعض المصنوعات من الأواني وغيرها وحاجتها إلى الزراعة قد تنحصر في المادة الرئيسية من مواد الغذاء ، وكان التمر وكان القمح يعتبران الغذاءين الرئيسيين لسكان البادية ، ولهذا أصبحت العناية بهذين المحصولين في هـــذه الواحة مع التجارة والصناعة في حدود ضيقـــة هي كل ما تقوم عليه الحياة في واحة خيبر ، فالعربي لا يحتاج إلى الفاكهة ولا إلى الخضروات ، والفلاح

---

(١) فلبي .

بطبيعته لا يستطيع أن يصرف جهده إلا فيما يصرّفه من أثر زراعته ومن هنا انحصرت الزراعة — أو كادت — في واحات خيبر في الصنفين المذكورين .

ولقد عرفت خيبر قبل ظهور الإسلام بكثرة نخيلها ووفرة تمرها حتى أصبح من أمثال العرب كمستبضع التمر إلى أهل خيبر ، ومنه قول حسان ابن ثابت شاعر الرسول ﷺ .

وإنا ومن يهدي القصائد نحونا كمستبضع تمراً إلى أهل خيبرا

وعرف من أجود تمور خيبر : الصَّيْحاني[1] ، والبردي[2] بضم الباء ، وهو تمر شبيه بالبرني الذي لا يزال معروفاً في كثير من أنحاء الجزيرة ، ولما جاء الفتح الإسلامي كان أهم حاصلات خيبر التمر مضافاً إليه القمح والشعير ، وإذا رجعنا إلى أقدم تقدير للكمية التي تنتجها الواحة من التمر نجدها على ما ذكر أبو عبيد القاسم بن سلام تقارب ٤٠ ألف حمل بعير ومعروف أن الحمل لا يقل عن ٢٠٠ كيل (كيلوغرام) وعلى هذا التقدير يصبح المحصول في ذلك العهد لا يقل عن ٨٠٠٠ طن من التمر ويظهر أن المحصول بعد ذلك لم تتهيأ له من الوسائل ما يجعله يزداد بل الأمر بالعكس كما يتضح ذلك فيما بعد .

ولقد عرف من أنواع النخيل في هذه البلدة غير البردي القديم أنواع كثيرة منها :

١ — الحلوة — ٢ — الطيبة — ٣ — البرنية — ٤ — الهجرية ٥ — الخضرية — ٦ — المكتوم — ٧ — الجاوي — ٨ — الصفر — ٩ — البيض — ١٠ — العلبة — ١١ — النبيتة بالتصغير — ١٢ — القرن — ١٣ — الشقر — ١٤ — القرصية — ١٥ — الجفرة — ١٦ — فرخ الحلوة [3] وهناك أنواع أخرى ، ويعتبر تمر

---

(١) في « معجم البلدان » : ذو المروة يفضل تمره على سائر تمور الحجاز الا الصيحاني بخيبر والبردي والعجوة بالمدينة .

(٢) « صفة الجزيرة » — ٢٠٠ —

(٣) جريدة المدينة ع ١١٨٩ تاريخ ١٣٨٧/١١/٢١ عن أنواع التمور وعن التقدير .

الحلوة هو التمر المفضل لدى سكان هذه البـــلدة في العصر الحاضر . ومثل المتقدمون بجذوع نخل خيبر ، ففي شعر الفرزدق :

وهززن من جزع أسِنَّة صلّبٍ كجذوع خيبر ، أو جذوع أوال[1]

أما عدد النخيل فيقدرها بعضهم بما يقرب من ٥٠٠ ألف نخلة وهـو عدد غير مبالغ فيه إذا قارنا ذلك بمقدار المحصول في العصر الحاضر ، وهـــذا المحصول كما قدره فلبي عندما زار البلدة هو ٥٦٠ طناً من التمر ، ويقدره غيره بما يقرب من ٥ ملايين صاع ، والتقديران متقاربان .

إن هذه النخيل تنتشر في واحـــة خيبر في جهتيها الشرقية والجنوبية الغربية ، وهي تسقى من ينابيع صغيرة تنبع من أسفل الحرة في ذلك المنخفض وهذه الينابيع يعبر عنها السكان باسم العيون ، منها القديم ومنهـا الحديث . ويقارب عدد ما هو معروف الآن منها ٥٠ عيناً[2] . وسنشير هنا إلى أشهر تلك العيون .

- – عين ابراهيم : من عيون خيبر المعروفة (وهي عين المَرْوَى) .
- – عين أم البيضة : من عيون خيبر بقرب عين سلالم .
- – عَيْن البُحَيْر : من عيون خيبر المعروفة ، تروي نخيل الوطيح .
- – عين الجَمّة : أورد السمهودي نقلا عن الدميري أنها عين بأحـد أودية خيبر – ونقل الوصف الذي أورده البكري وقبـــله صاحب كتاب « المناسك » في « الحَمَّة » بالحاء المهمـــلة وكذا ضبطها البكري (وانظر عين الحمة) .
- – عين الحمة : أو الحميـة بالحاء المهملة وجاء في بعض الكتب التي لا

(١) « النقايض » – ٢٩٠ –

(٢) « جريدة المدينة » عدد ١١٨٩ تاريخ ١٣٨٧/١١/٢١ هـ .

يوثق بضبطها : الجمة بالجيم قال في كتاب « المناسك » [١] وهو أصل ما في « معجم ما استعجم » للبكري : وبالشق عيون ، اخبرني الحسني : ان عيناً تسمى الحمية وهي سماها ﷺ قسمة الملائكة ، يذهب ثلثا مائها في فلج، وثلث في فلج والمسلك واحد ، واخبرني أنها اعتبرت منذ زمان رسول الله ﷺ إلى اليوم يطرح فيها ثلاث خشبات ، فيذهب خشبتان في فلج وخشبة في فلج ، ويطرح ثلاث بعرات فتذهب بعرتان في هذا ، وبعرة في هذا ، ولا يقدر أحد أن يأخذ منها أكثر من الثلث ، وقال لي أبو الفضل الحسني : أنا اعتبرتها وقمت فيها لأرُدَّ الماء إلى الناحية التي يذهب فيها الثلث ، فغلبني الماء حتى كاد أن يفيض ولم استطع ذلك فخليت عنه وقد ضبطها البكري : الحَمَّة .

● – عين الخَـرَّار : قال عيسى بن دينار إنه عين بخيبر ، ويؤيد ذلك ما رواه ابن وهب أن سَهْلاً قام يغتسل يوم خَيْبَر حين هَزَم الله العدو [٢] – وذكر الحديث – وقيل : الخرار موضع بخيبر [٣] .

● – عين الراية : بقرب قرية بشر في خيبر ، ويزعمون أن الرسول ﷺ نصب رايته حيث هي .

● – عَيْن الدُّفَـيْفة : من عيون خيبر المعروفة الآن .

● – عين سَلالِم : من عيون خيبر المعروفة ، تسقي نخيل سلالم .

● – عين الصفصافة : إحدى عيون خيبر المعروفة .

● – عَيْن طيران : من عيون خيبر المعروفة ، وبقربها كهف قد سدت مدخله الصخور الساقطة من اعلاه ، وللأهالي حوله خرافات . وقد تقدم ذكر طبران – بالباء الموحدة – ولا أستبعد أن يكون تصحيف طيران.

---

(١) صفحة ٥٤٠ .

(٢) « معجم ما استعجم » .

(٣) « معجم البلدان » .

● – عين علي : من عيون خيبر ، وهم ينسبونها إلى علي بن أبي طالب (ض) .

● – عين قصيبة : مزارع واسعة في خيبر .

● – عَيْن القُوَير : من عيون خيبر ، بين سلالم ورُوَان .

● – عين اللحيحة : والعين العظمى بالنطاة تسمى اللُّحَيْحة[1] ويقصد نطاة خيبر .

● – عَيْن المَرْوَى : بقرب قرية بشر – في خيبر – ومنها يُستقى الماء للشرب ، وتسمى عين ابراهيم أيضاً – وتقدم ذكرها –

● – عين نطاة : نطاة حصن بخيبر وقيل عين بها (وانظر نطاة) .

ولوزارة الزراعة في العهد الحاضر دراسات واسعة عن هذه المنطقة ولكن يظهر أن أسوأ العوامل الطبيعية التي تحول دون إصلاحها عدم تصريف المياه الزائدة عن الحاجة ، واستنفاد الأرض الواقعة في المنخفض لكل ما يخصب التربة ، يضاف إلى ذلك عامل قوي حقاً وهو استفحال النباتات الطفيلية في الواحات استفحالاً أضعف المنتجات الزراعية وساعد على الاضعاف ان الطريق التي كانت تتبع في زراعة الواحة كانت ترتكز أهم ما ترتكز على النخيل الذي يعتبر محصوله هو جل ما تحتاج إليه البادية المسيطرة على الواحة، وقد قامت طريقة غراس النخيل فيها على طريقة بدائية ، فغرس النخيل وضع بطريقة جعلت بعض النخل لا يأخذ المساحة الكافية لخصبه ونموه، وجعلت بعضه ينشأ نشأة طبيعية بحيث يبدو متقارباً مرتكماً بعضه فوق بعض مما يسبب ضعفه ، وقديماً قال العرب على لسان النخلة: (أبعد أختي عني وخذ حملها مني) غير أن المشرفين على غراس النخل لم يدركوا هذه القاعدة ، وقد دفعتهم ظروفهم إلى أن يكتفوا بما تجود به عليهم طبيعة الأرض كرمت أو شحت

---

(١) « المناسك » – ٥٤١ –

ولهذا يجد الزائر حدائق النخيل في هذه الواحة على أسوأ ما يتصور المرء من حيث التنسيق والترتيب .

لقد كانت البادية التي تسيطر على الواحة تكتفي بما تجد من الثمرة ، وكان المشرفون على الفلاحة على درجة من الضعف لا تمكنهم من إصلاح أو تجديد ، ومن ثم بقيت حالة الواحة الزراعية على ما كانت عليه منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا وهي حالة محزنة حقاً ، وعندما حاولت يد الإصلاح عمل شيء جديد وجدت من الصعوبة ما يحول بينها وبين ذلك ، فالواحة الزراعية قد استنفدت جهدها ، والاصلاح يتطلب عملاً جذرياً ، وهو مما يحتاج إلى مبالغ طائلة، وطبيعة الأرض في الواحة نفسها لا تمكن من اجراء أي عمل جديد، فمن ذا الذي يستطيع إزالة التربة كلها وإجراء تخطيط جديد للغراس فيها ثم إيجاد مصارف حديثة لتصريف المياه الزائدة ؟!، لقد أصبحت السدود القديمة عاجزة عن حجز السيول ، وأصبحت الأرض بنباتاتها الطفيلية وبأملاحها تحتاج إلى تغيير جذري ، وأصبحت الواحة كلها خاضعة لما هي فيه من وضع طبيعي نشأ عنه أفظع كارثة تسبب لأهل هذه المنطقة عدم الارتياح وعدم القيام بأي نشاط ، وذلك من جراء كون المنطقة أصبحت مباءة للحمّى (الملاريا) التي سببتها كثرة المستنقعات وهي كثرة لا يمكن القضاء عليها إلا باعادة حالة المنطقة بصورة تتلاءم مع متطلبات الحياة وهذا ما سنشير إليه فيما بعد .

قد يقال : ان الواحة خصبة في القديم ، وكانت تعتبر من أغنى واحات الجزيرة ، فكيف آلت إلى هذا الوضع ؟ لذلك سبب إيضاحه هو :

فقدت بلاد خيبر قوتين كبيرتين كانتا السبب في عمرانها : قوة القبائل التي كانت تحميها وأهمها قبيلة غطفان ، ذات الموقف غير المشرف عندما غزا الرسول ﷺ البلاد ، ويظهر أن هذه القبيلة بدأ نفوذها يضعف منذ بدء ظهور الإسلام ووقوفها مواقف معادية له مع انقياد عدد من رجالها للطاعة

إيماناً أو خوفاً ، ولما بدأت الفتوحـات الإسلامية كانت القبيلة على حالة من التفكك، فانتقل كثير من عشائرها إلى مصر وغيرها فأقامت هذه العشائر هناك إلى العصر الحاضر وبقيت عشائر ضعيفة في منازلها الأولى بجوار خيبر وفي الأمكنة القريبة منه ، ولكنها كانت على درجة عظيمة من الضعف ، وهـذا يفسر لنا قول الإمام ابن حزم في «الجمهرة»[1]: أخبرني بعض أعراب طي أن بني محارب وبني أشجع بن ريث أذل قبائل قيس بالبادية اليوم . ومعروف أن ابن حزم عاش فيما بين سنتي (٣٨٤ و ٤٥٦) ، ومعروف أن قبيلة محارب ليست من غطفان ولكنها من جيرانهم ، أمـا أشجع فقبيلة غطفانية . هذه العشائر الضعيفة هي التي لا تزال تسكن في موطن غطفان القديمة وهم المعروفون بقبيلة هتيم .

ولعل أقوى قوة قضت على نفوذ قبيلة غطفان وشتّتتها خارج الجزيرة هي غزوة بغا القائد العباسي سنة ٢٣١ لهذه القبيلة بحيث شتتها من بلادها فانتقلت إلى مصر والشام وغيرهما .

بعد أن ضعفت قبيلة غطفان حلت محلها قبيلة أخرى ليست قيسية ولكنها ربعيّة ، وهي عنزة بن أسد بن ربيعة ، ومواطن عنزة في القديم لا يزال يكتنفها الغموض ، غير أنها من القرن الثالث الهجري إلى عصرنا الحاضر تحل في وادي القرى (الحِجْر ونواحيه) ممتدة إلى خيبر حيث تسيطر على واحاته، وتملك كثيراً من أمواله . لقد عرفت هذه القبيلة في هذه الجهات منذ القرن الثالث الهجري ، فقد كانت تمتد منازلها إلى جبل قدس الواقع بقرب المدينة ويقول الهمداني ، وهو ينقل عن رجل عاش في القرن الثالث الهجري[2] : ان بني حرب لما صارت إلى قدس من الحجاز وبها عنزة وبنو الحارث وبنو مالك من سليم ومزينة ناصبتهم الحرب عنزة ، والذي هاج ذلك ان رجـلاً حربياً وآخر عنزياً امتريا في جذاذ نخل ، فعدى الحربي على العنزي فضربه ضربـة

(١) ص : ٢٥٩ .
(٢) «الاكليل» ج ١ ص ٣٠٤ .

بتلك بها يده ، فعدت بنو حرب يومئذ وهي ستمائة رجل ، فأجلوا من بالبلد من عنزة إلى الأعراض من خيبر وقتلوا منها بشراً كثيراً [1] .

ويقول نصر بن عبد الرحمن الاسكندري وهو من أهل القرن الخامس في كتابه : حرة النار واد بين وادي القرى وتيماء من ديار غطفان وسكانها اليوم عنزة ، وبهـــا معدن البوزق ، وهي مسيرة أيام ، قال أبو المهند بن معاوية الفزاري — وفزارة من غطفان — :

كانت لنا أجبال حسمى فاللوى وحرة النار ، فهذا المستوى
ومن تميم قـــد لقينا باللوى يوم النسار وسقينـــاهم روى

وحرة النار هي حرة خيبر .

القوة الثانية التي فقدتها خيبر هي اليد العاملة في الحراثة فبعد أن أجلي السكان الأولون بقيت البلاد موزعة الأموال على ملاك كثيرين جداً ، وكلهم يعيشون بعيدين عن هذه البلاد ، وهي بلاد وبئة تنتشر فيها الحمّى ولا تتفق مع طبيعة العربي فيما يختاره من مكان لسكناه ، ولا شك أنها بدأت تضعف من جراء ذلك ، وبقيت على ضعفها ، وأصبحت القبيلة المسيطرة عليها تكتفي بأن تكل حراثة الأرض وغرسها لأناس من طبقة خاصة ضعيفة ، هم من الموالي . ومن أغرب الأمور أن سود البشرة لا تؤثر فيهم الحمى ، ولهذا فكثير ممن يقوم بالزراعة في البلاد التي تكثر فيها المستنقعات في جزيرة العرب كلهم من السود ، وهم لا يصابون بالحمى ، وقد تكون لديهم مناعة جسمية ، فإن جميع من كانوا يقيمون في خيبر سود البشرة وعرفوا بأنهم لا يتأثرون بالحمى (الملاريا) .

بقيت خيبر تحت نفوذ قبيلة عنزة منذ ذلك العهد إلى عهدنا الحاضر ، فأكثر عشائر عنزة لهم أملاك معروفة في هذه الواحة يحضرون اليها أوان صرام النخيل فيتزودون منها بما يحتاجون من تمرها ويبيعون ما زاد عن الحاجة ، ثم يرحلون إلى مراتعهم في سفوح حرتها الشمالية الشرقية ، وما حول ذلك من الأودية .

---

(١) « الاكليل » ج ١ ص ٣٠٤ .

الحالة الصحية في خيبر

طبيعة أرض واحـــة خيبر قابلة لأن تنشأ فيها مختلف الحشرات المؤذية الجالبة للأمراض ، فمستنقعات المياه الآسنة وكثرة الأشجار المتشابكة الملتفة والحفر العميقة والصخور المتلاصقة الكثيرة تجعل لحيـــاة تلك الحشرات من المكان الخصب ما يزيد في نموها وكثرتها ، ومن أسوأ تلك الحشرات البعوض الذي لا يصدق المرء بكثرته إلا عندما ينزل لا في وسط الواحة بل في جانب من جوانبها البعيدة عن المياه ، فإنه لا يلبث أن يشاهد أسراب البعوض في أي وقت من أوقات النهار أو الليل يتكاثر فوقه بدرجة مذهلة ولهذا عرفت الواحة بانتشار الحمَّى ، وأصبح الوصف بها في هذا المكان مضرب الأمثال بحيث أصبحت حُمَّى خيبر وحُمَّى النطاة – وهي إحدى محلات الواحة – من أسوإ ما يدعى به عند العرب ، فيقال : بفيه البرى ، وعليه الدَّبَرى ، وحمَّى خيبرى وشرُّ ما يرى ، فإنه خيسرى . ومن ثم نشأت فكرة انتقال الحُمَّى من المدينة إليها ، وهي فكرة دينية وردت في كتب على درجة من الصحة والثقة وإن لم تبلغ درجة الجزم ، فقد جاء في الأثر « اللهم حبب الينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشدّ ، وصحّحها ، وبارك لنا في صاعها ومُدّها وانقل حماها إلى خيبر أو الجحفة »[1] ويروى أن الحمّى قضت على أهل الجحفة قضاء مبرماً ، أما خيبر فإن عملها في الواحة أصبح مستمراً ، وإن وجدت بعض الأجسام شيئاً من المناعة ما قد يحميها من الفتك الشديد ، وهي

---

(١) « معجم البلدان » مادة شامة .

أجسام فئة خاصة من الناس ويحسن هنا أن نورد طرفاً مما جاء في كتب المتقدمين في هذا الموضوع . فمن ذلك :

قال الهمداني : ويمثل بحمَّى النطاة ، وحُمَّى القَطِيف [1] .

وقال غيره : وخيبر موصوفة بكثرة الحُمَّى ، ولا تفارق أهلها ، وكان اليهود يزعمون أن من أراد دخول خيبر ، يقف ببابها على أربعة (يديه ورجليه) وينهق نهيق الحمار عشر مرات ، ولا تضرّه حُمَّى خيبر ، ويسمى ذلك تعشيراً. بمعنى أن الحُمَّى ولوعٌ بالناس، وأنّ فاعل هذا حِمَارٌ . وحكي أن عروة بن الورد العبسي المعروف بعروة الصعاليك قصد مع أصحابه خيبر يمتارون منها ، فلما وصلوا إلى بابها عشَّرُوا خوفاً من وباء خيبر ، وأبى عروة أن يعشّر وقال :

وقالوا : اجْثُ وانهقْ لا تَضُرّكَ خَيْبَرٌ
وذلك من دين اليهود وُلُوعُ

لعمري لئن عشَّرْتُ من خشية الرّدى
نهاق الحمير ، انّني لجزوعُ

فلا وَألَتْ تلك النفوس ولا أتَتْ
على روضة الأجداد وهْي جَمِيعُ

فكيف وقد ذكّيت ، واشتد جانبي
سُلَيْمَى ، وعندي سامعٌ ومطيعُ

لسانٌ ، وسيفٌ صارمٌ وحفيظةٌ
وراءٌ لآراء الرجال صروعُ

تُخوّفني ريب الزمان وقد مَضَى
لنا سَلَفاً ـ قَيْسٌ مَعاً ـ ورَبِيعُ

---

(١) « صفة جزيرة العرب » – ١٢٤ – .

وحكي أن أعرابياً قدم خيبر بعيال كثير فقال :

قُلْتُ لِحُمَّى خيبر : استَعِدِّي
هاكِ عيالِي ، فاجهدي وَجِدِّي
وباكري بصالب وَوِرْدْ
أعانك الله على ذا الجُنْد

فَحمّ ومات ، وبقى عياله .

وقال شاعر :

كأنَّ بِهِ إذْ جِئْتُهُ خَيْبَرِيَّةٌ
يعود عليه وِرْدُها ومِلاَلُها

وقال الأخنس بن شهاب :

ظَلَلْتُ بها أعرى وأشعر سُخْنَةً
كما اعتاد مَحْمُوماً بخَيْبَرَ صالِبُ[1]

ومن شعر الشماخ بن ضرار الغطفاني[2] :

الا تلك ابنة الأموي قالتْ : أراكَ اليومَ، جِسْمُكَ كالرجيع
كأن نطاة خيبر زَوَّدَتْهُ بكور الورد، رِيِّثَةَ القُلُوع[3]

وقال كعب بن زهير :

طَلِيحٌ من التسْفارِ حتى كأنه حديثٌ بِحُمَّى أسأرتْها سُلالِمِ[4]

واستمر الأمر في هذه الواحة من حيث انتشار هذا الوباء من أقدم العصور

(١) « معجم البلدان » و « آثار البلاد واخبار العباد » - ٩٢ - و « المغانم » ١٦٢/١٦٣.
(٢) ديوانه - ٢٢٢ و « معجم ما استعجم » .
(٣) انظر شرح ديوانه .
(٤) « معجم ما استعجم » ،

إلى العصر الحديث ، ولقد حاولت الحكومة بمختلف الوسائل القضاء على هذا الدعاء الوبيل فلم تستطع ثم حاولت التخفيف منه فعملت ما في المستطاع من الوسائل ، غير أن الأمر لا يزال كما هو منذ أقدم العصور ، يقول فلبي : (وقد حدث في الفترة الأخيرة ان زار خيبر عدد من الاميركيين والخبراء الاجانب بما فيهم عدد من الاطباء المصريين . وذلك من أجل تقديم تقرر عن خير السبل الكفيلة بالقضاء على البعوض في المنطقة . وأحسن الوسائل لمد شبكة للري فيها ، غير ان دولة البعوض ما زالت تهيمن على المنطقة دون منازع ، كما أن المياه ما زالت تتدفق فوق الأرض فتركد فيها مشكّلة عدداً من المستنقعات ، تماماً كما أرادتها الطبيعة أن تفعل منذ بَدْءِ الخليقة) [1] .



(١) ص ٣٩ الترجمة العربية لكتاب فلبي .

فَــدك

ومما يقع في حرة خيبر من البـــلاد فدك ، وهي ذات شهرة كبيرة في صدر الاسلام ، ولكنها بعد أن أصبحت جزيرة العرب على حالة من الفوضى بعــد زوال العهد الأموي وصدر العهد العباسي جهدت هذه البلاد كما جهل غيرها ، حتى أن كثيراً من المؤلفين المتقدمين عدوها من البلاد المجهولة ، قال الفيروزابادي في الكلام على جبل ثور في المدينة : (وأغرب من ذلك أني سألت جماعات من أشراف المدينة الأمراء بها ،من الفقهاء والسوقة عن (فدك) ومكانها فكلهم عن بواء واحد : أجابوا بأنه لا يعرف في بلادنا موضعاً يدعى فدك . وهذه القرية لم تبرح في أيدي الأشراف والخلفاء يتداولونها ناس عن ناس إلى أواخر الدولة العباسية ، فكيف بجبل صغير واقع بطرف أُحُدٍ ، لا يتعلق به كبير أمر ؟!) .[1]

وقال السمهودي : واستغرب المجد عدم معرفة أهل المدينة لها اليوم ، وكنت أيضاً أستغرب لشهرتها وقربها [2] وأقول : ليس من شك في أن فدك هو ما يطلق عليه الآن اسم الحائط فجميع أوصاف المتقدمين تنطبق عليه ويحسن أن نورد طرفاً مما جاء في كتب المتقدمين عن هذه البلاد .

فدك من الناحية اللغوية :

للمتقدمين في تعليل هذا الاسم قولان: أحدهما أنه مأخوذ من قولهم: فدكت

---

(١) : « المغانم المطابة » ص ٨٢ .

(٢) : « وفاء الوفاء » .

القطن تفديكاً أي : نفشته ، وهذه القول لابن دريد ، وهو يحاول دائماً إيجاد صلة بين أسماء المواضع والأعلام ، وبين ما يشابهها من الأفعال ، وقد يتمحل لذلك ، فيقع في الغلط كما في مواقع كثيرة من كتابه « الاشتقاق » إذ قد يصحف الاسم ثم يحاول أن يجد له اشتقاقاً من فعله ، والقول الثاني : قول ياقوت : فدك من إخوة سلمى من العماليق ، وقال الزجاجي : سميت بفدك بن حام ، وكان أول من نزلها [1] . انتهى . ويظهر أن الزجاجي كان يحاول تعليل أسماء المواضع بنسبتها إلى أناس عريقين في القدم ، والواقع أن أسماء كثير من مواقع بلاد العرب جهلت معانيها قبل عهد التدوين ، فلما بدأ العلماء بتدوين العلوم ، لم يجدوا أمامهم شيئاً يقولونــه عن تعليل أسماء المواضع ، فلجأ كثير منهم إلى إيراد أقوال هي أقرب الى الخرافة .

ومما ينبغي ذكره أن بلاد فدك عرفت في العهد القديم بتقدمها في الزراعة والصناعة ، فقد ذكر ابن هشام في « السيرة » أن الرسول ﷺ ركب حماراً فوقه قطيفة فدكية [2] ، وفسروا ذلك بأنها مما صنع في فدك ، ووصفوا تمر فدك بالجودة ، قال الراجز :

من عجوة الشق نطوف بالودك ليست من الوادي ، ولكن من فدك

وقال الهجري الخمادعي : ضَربٌ من جيد الرطب ، إلى الخُضْرة ، رقيق صَقِرٌ ، يكون بيديع وفدك وتلك الأعراض انتهى [3] وكانت قبيلة مرة من غطفان يلقبون لقباً سيئاً لكثرة امتيارهم التمر ، وكانت منازلهم بين فدك وخيبر ، وكان غذاؤهم التمر [4] كما لقب بذلك بنو حنيفة وبنو عبد القيس لكون بلاد القبيلتين ذات نخيل .

---

(١) : معجم البلدان .
(٢) ج ٢ ص ٢٣٦ .
(٣) أبو علي الهجري – ٣٩٠ – .
(٤) الأغاني ٨٧/٢ .

وموقع فدك في واد منخفض من أودية الحرة الشرقية تكثر فيه المياه الراكدة، ولذلك عرف بكثرة الحمى كالحال في خيبر. قال رؤبة بن العجاج:[1]

كأنه إذ عاد فينا أو زحك   حمَّى قطيف الخط وحمى فدك

طرف من تاريخ فدك :

التاريخ القديم لجل المواضع الأثرية في بلاد العرب مجهول ، وما عرف من ذلك كان قبيل ظهور الاسلام ، وأشير اشارات موجزة إلى ما يتعلق بفدك من ذلك :

١ - يظهر أن قبيلة كلب التي كانت منتشرة في شمال الجزيرة امتد نفوذها إلى أطراف الحرة الشرقية فاستولت على فدك ، وسبت سبياً من أهلها .

فقد قال ابن ماكولا : الَحرْشا : هو الحارث بن حصن بن ضمضم من كلب بن وبرة ، كان يحرش الضباب وهو غلام ، وَقد رأس ، وله صار سَبي فدك حين افتتحتها كلب في الجاهلية [2] .

وقال الأصبهاني : وكانت أم النعمان بن المنذر ملك الحيرة - ويقال لها سلمى بنت وائل بن عطية الصائغ - من أهل فدك ، وكانت أمةً للحارث ابن حصن بن ضَمْضم بن عدي بن جناب من كلب [3] قال بعض الشعراء في هجائه :

قبَّحَ الله ، ثم ثَنَّى بلعن   وارِثَ الصائغِ الجبانَ الجهولا[4]

٢ - وقال الأصبهاني : سار البَرّاض حتى إذا كان بين ظهري غطفان إلى جانب فدك بأرض يقال لها أوارة قريب من الوادي الذي يقال له تيمن

---

(١) « تاج العروس » .

(٢) « الإكمال لابن ماكولا » ٢ / ٤٣٣ .

(٣) « تاريخ ابن جرير » القسم الأول ص ١٠١٧ .

(٤) « الأغاني » ٢ / ٢١ .

نام عروة ووجد البراض غفلته فقتله [١] .

٣ — في سنة ست من الهجرة كانت سرية علي بن أبي طالب (ض) إلى فدك في شعبان ، قال ابن جرير وحدثني عبدالله بن جعفر عن يعقوب بن عتبة قال: خرج علي بن أبي طالب في مائة رجل إلى فدك إلى حي من بني سعد بن بكر ، وذلك انه بلغ رسول الله ﷺ أن لهم جمعاً يريدون أن يمدوا يهود خيبر فسار إليهم الليل وكمن النهار ، حتى انتهى إلى الهَمَج ، وهو ماء بين خيبر وفدك ، وبين المدينة وفدك ست ليال ، وأصاب عيناً فأقر له أنه بعث إلى خيبر يعرض عليهم نصرهم على أن يجعلوا لهم ثمرة خيبر [٢] . فأغاروا عليهم فأخذوا ٥٠٠ بعير و ٢٠٠٠ شاة وهربت بنو سعد بالظعن ، ورأسهم وبر بن عُليم ، فعزل علي صفيّ رسول الله ﷺ لقوحاً تدعى الحقدة ثم عزل الخمس وقسم سائر الغنائم على أصحابه ، وقدم المدينة ولم يلق كيداً [٣].

٤ — وفي سنة سبع من الهجرة قال الواقدي : وفيها سرية بشير بن سعد إلى بني مرة ، بفدك في شعبان في ثلثين رجلاً فأصيب أصحابه وارتث في القتلى ثم رجع إلى المدينة [٤] . ويضيف خليفة بن خيَّاط في تاريخه : ورجع سَعْد جريحاً [٥] .

٥ — وذكر ابن إسحاق في المغازي قال : بعث رسول الله ﷺ غالب ابن عبد الله الكلبي إلى أرض بني مُرّة ، فأصاب بها مرداس بن نهيك حليفاً

---

(١) « الأغاني » ١٩ / ٧٥ .
(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٥٥٦ .
(٣) « طبقات ابن سعد » ٨٩/٢ .
(٤) « تاريخ الطبري » ج ٣ ص ١٥٩٢ و « مروج الذهب » ٢٦٢ .
(٥) « تاريخ خليفة » ٤٠ ـ وانظر خبر السرية مفصلاً في « طبقات ابن سعد » ٩٥١/٣ .

لهم من الحُرَقة ، قتله أسامة بن زيد . وذكر هشام ابن الكلبي أن النبي ﷺ بعثه إلى فدك فاستشهد دون فدك . قلت : المبعوث إلى فدك غيره ، واسمه أيضاً غالب [١] .

٦ - روي عن ابن عباس (ض) في قوله تعالى : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى)قال : قريظة والنضير وفدك وخيبر ، وقرى عرينة . قال : أما قريظة والنضير فإنها في المدينة ، وأما فدك فإنها على رأس ثلاثة أميال ، فبعث إليهم النبي ﷺ جيشاً عليهم رجل يقال له غالب بن فضالة من بني كنانة فأخذها عنوة انتهى . ويحتمل أن يكون الذي قبله [٢] .

وأقول : بنو كنانة بطن من كلب ، ولهذا فيظهر أن الرجل المذكور في في القصتين واحد ، نسب مرّة إلى أبيه ، وأخرى إلى أحد أجداده ، وتلك طريقة معروفة ووقع في النص من الأخطاء : عرينة صوابها : عربيّة ثلاثة أميال : ثلاث ليال .

٧ - كتب رسول الله ﷺ مع زيد الخيل لبني نبهان، بفدك ، وقال له: « أنت زيد الخير » فمكث بالفردة سبعة أيام ثم مات[٣] ...

أقول : هذا خطأ ، صوابه : بفيد ، وفيد من منازل بني نبهان ، بخلاف فدك فهو من بلاد بني مُرّة من غطفان .

٨ - لما بويع عبد الملك بن مروان (سنة ستين) كان عبد الله بن الزبير قد وجّه سليمان بن خالد الزرقي الأنصاري والياً على خيبر وفدك ، فبعث عبد الملك بن مروان عبد الملك بن الحارث بن الحكم في أربعة آلاف إلى المدينة ، فلما نزل أول عمل لابن الزبير مما يلي الشام هرب عماله ، فسار إلى وادي القرى وأرسل خيلاً إلى سليمان بن خالد والي خيبر وفدك فهرب ولكنهم لحقوه وقتلوه ثم وجه ابن الزبير ستمائة وأربعين فارساً إلى خيبر فوجدوا جند

---

(١) « الإصابة » رقم ٦٩٠٦

(٢) « الاصابة » رقم ٦٩٠٨

(٣) « الأغاني » ١٦/٤٨-

عبد الملـــك مقيمين بفدك يعتسفون الناس ، ويأخذون أموالهم ، فقاتلوهم وهُزم جند عبد الملك وأُسر منهم ثلاثين رجلاً قتلوا صَبْراً [1] .

٩ – في سنة ٢٣١ ، كانت وقعة بُغا الكبير بالأعراب في نواحي المدينة. قال ابن جرير : كان بغا توجه إلى فدك لمحاربة من فيها، ممن كان تغلب عليها من بني فزارة ومرة فلما شارفهم وجه إليهم رجلاً من فزارة يعرض عليهم الأمان ويأتيه بأخبارهم فلما قدم عليهم الفزاري، حذرهم سطوته وزين لهم الهرب فهربوا، ودخلوا في البر ، وخلوا فدك إلا نفراً بقوا فيها منهم ، وكان قصدهم خيبر وجنفاء ونواحيها ، فظفر ببعضهم واستأمن بعضهم وهرب الباقون مع رأس لهم يقال له الركاض إلى موضع من البلقاء من عمل دمشق وأقام بغا ، بجنفاء وهي قرية من حد عمل الشام ، مما يلي الحجاز نحواً من أربعين ليلة ثم انصرف إلى المدينة بمن صار في يديه من بني مرة وفزارة [2] .

١٠ – ولقد كانت فـــدك مثاراً لكثير من العداوة والإحن ، ومبعثاً للخلاف [3] طيلة ثلاثة قرون من الزمن .وأول ما نشأ من الخلاف في أمرها ما حدث بين فاطمة (ض) بنت رسول الله ﷺ وبين أبي بكر الصديق (ض) وكان هذا سبباً في المقاطعة بينهما ، حتى أخفي موت فاطمة على أبي بكر ، ثم كانت مثاراً للخلاف بـــين أزواج الرسول ﷺ وبين الخليفتين أبي بكر وعثمان (ض) أما عمر فقد سار على طريقة حكيمة ، ولكنها كانت أيضاً مبعثاً للنزاع بين العباس عم الرسول ﷺ وبين علي بن أبي طالب زوج فاطمة بنت الرسول ﷺ .

---

(١) « أنساب الأشراف » للبلاذري ٥/٣٥٥ ملخصاً .

(٢) تاريخ الطبري ج ١١ ص ١٣٤٢

(٣) بل جعل بعضهم – كالشهرستاني في « الملل والنحل » الخلاف حول فدك من الخلافات التي لها صلة بالدين الاسلامي لأنها تتصل بإرث النبي (ص) .

وقد نشأت خلافات أخرى حولها بين آل أبي طالب وبين الخلفاء العباسيين ، وكل هذه أمور زخرت بها المؤلفات القديمة ..

قال ياقوت : وفي فدك اختلاف كثير في أمره بعد النبي ﷺ وأبي بكر، وآل رسول الله ﷺ ومن رواة خبرها من رواه بحسب الأهواء، وشدّة المراء، وأصح ما ورد عندي في ذلك ما ذكره البلاذري في « فتوح البلدان » فإنه قال: بعث رسول الله ﷺ بعد منصرفه من خيبر إلى أرض فدك محيّصة بن مسعود ، ورئيس فدك يومئذ يوشع بن نون اليهودي ، يدعوهم إلى الاسلام ، فوجدهم مرعوبين خائفين، لما بلغهم من أخذ خيبر، فصالحوه على نصف الأرض بتربتها ، فقبل ذلك منهم ، وأمضاه رسول الله ﷺ وصار خالصاً له ﷺ لأنه لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ، فكان يصرف ما يأتيه منها في أبناء السبيل ، ولم يزل أهلها بها حتى أجلى عمر (ض) اليهود ، فوجّه إليهم من قوّم نصف التربة بقيمة عدلٍ ، فدفعها إلى اليهود وأجلاهم إلى الشام [1] .

ونحن لا نريد التوسع في هذا المجال ، بل نكتفي بإيراد جمل موجزة حوله :

١ – لما غزا رسول الله ﷺ خيبر وفتحها في سنة سبع من الهجرة ، قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك من المال والأرض ، فقدمت عليه رسلهم فقبل ذلك منهم ، فكانت فدك لرسول الله ﷺ لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ، وكان ممن مشى بالصلح بين أهل فدك وبين الرسول ﷺ محيصة بن مسعود ، وقد كافأه رسول الله ﷺ فأعطاه ثلاثين وسقاً من تمر ، وثلاثين وسقاً من شعير [2] .

٢ – وقال ابن سعد : كانت فدك صفياً لرسول الله ﷺ فكانت لابن

---

(١) « معجم البلدان » .

(٢) « السيرة النبوية » لابي هشام ج ٣ ص ٣٦٥ و ٣٦٨ .

السبيل . وسألته ابنته فدك ان يهبها لها ، فأبى رسول الله ذلك عليها ، فلم يطمع فيها طامع [1] .

وفي عهد ابي بكر الصديق (ض) ، قالت فاطمة رضي الله عنها ، ان رسول الله ﷺ نحلنيها ، فقال ابو بكر : أريد شهوداً ، فشهد لها علي بن ابي طالب (ض) فطلب شاهداً آخر ، فشهدت لهـا أم أيمن مولاة النبي ﷺ فقال : قد علمت يا بنت رسول الله انه لا يجوز الا شهادة رجل وامرأتين ، فانصرفت [2] .

٤ — ثم أدّى اجتهاد عمر بن الخطاب (ض) لما ولي الخلافة ، وفتحت الفتوح ، واتسعت على المسلمين أن يردها إلى ورثة رسول الله ﷺ ، وكان علي ابن ابي طالب (ض) ، والعباس بن عبد المطلب (ض) يتنازعان فيها ، وكان علي (ض) عنه يقول : ان النبي ﷺ جعلها في حياته لفاطمة (ض) وكان العباسي (ض) يأبى ذلك ويقول : هي ملك لرسول الله ﷺ ، وأنا وارثه . فكانا يختصمان إلى عمر (ض) ، فيأبى أن يحكم بينهما ، ويقول : أنتما أعرف بشأنكما ، أما أنا فقد سلمتها اليكما ، فاقتَتَصلا ، فمايؤتى واحد منكما من قلة معرفة [3] .

على ان ابن سعد يقول : إن عمر (ض) سلك بها ما كان رسول الله ﷺ يفعل [4] .

٥ — ثم كان عثمان فسلك بها طريقة عمر .

وعن عروة بن الزبير : ان أزواج رسول الله ﷺ أرسلن عثمان بن عفان

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٣٨٨ .

(٢) « المغانم المطابة » ص ٣١٢ .

(٣) « طبقات ابن سعد » ٣٨٨/٥ . وفي الصحيح أن عمر أمسكها سنتين ، ثم سلمها بعد ذلك . وانظر « وفاء الوفاء » ص ٩٩٥ وما بعدها .

(٤) « طبقات ابن سعد » ٣٨٨/٥ .

إلى ابي بكر يسألن مواريثهن من سهم رسول الله ﷺ فقال ابو بكر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة ، انما هذا المال لآل محمد لنائبتهم وضيفهم فإذا مت فهو إلي والي الأمر من بعدي» فأمسكن [1] .

ولا شك ان عثمان سار على هذه الطريقة . أو تركها على ما فعل بها عمر حيث دفعها إلى علي والعباس ، أما ما ذكره البكري [2] من أن عثمان أقطعها مروان بن الحكم فنراه غير صحيح ، ونرى الاقطاع كان من معاوية - كما سيأتي - وعلى فرض صحته فقد قال الحافظ ابن حجر : انما اقطع عثمان فدك لمروان ، لأنه تأول أن الذي يختص بالنبي ﷺ يكون للخليفة بعده ، فاستغنى عثمان عنها بإمواله ، فوصل بها بعض قرابته [3] انتهى وأقول : من المستبعد أن ينزعها من علي والعباس وهما هما من القوة .

٦ - فلما كانت الجماعة على معاوية سنة أربعين ولى معاوية مروان بن الحكم المدينة فكتب إلى معاوية يطلب إليه فدك فأعطاه إياها فكانت بيد مروان يبيع ثمرها بعشرة آلاف دينار كل سنة ، ثم نزع مروان عن المدينة وغضب عليه معاوية فقبضها منه فكانت بيد وكيله بالمدينة ، وطلبها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان من معاوية فأبى معاوية أن يعطيه ، وطلبها سعيد بن العاص فأبى معاوية أن يعطيه ، فلما ولى معاوية مروان المدينة المرة الآخرة ردها عليه بغير طلب من مروان ورد عليه غلتها فيما مضى ، فكانت بيد مروان فأعطى عبد الملك نصفها وأعطى عبد العزيز بن مروان نصفها ، فوهب عبد العزيز نصفها الذي كان بيده لعمر بن عبد العزيز ، قال فلما توفي عبد الملك طلب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد حقه فوهبه له وطلب إلى سليمان حقه فوهبه له ، ثم بقي من أعيان بني عبد الملك حتى خلصت لعمر بن عبد العزيز .

---

(١) « معجم البلدان » .

(٢) « معجم ما استعجم » .

(٣) « وفاء الوفاء » ص ١٠٩٠ .

قال جعفر : فلقد ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة ، وما يقوم به وبعياله إلا هي، تغل عشرة آلاف دينار في كل سنة ، وأقل قليلاً وأكثر ، فلما ولي الخلافة سأل عن فدك وفحص عنها ، فأخبر بما كان من أمرها في عهد الرسول وأبي بكر وعمر وعثمان حتى كان معاوية ، قال فكتب عمر إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم كتاباً فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي بكر بن محمد ، سلام عليك فانني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فإني نظرت في أمر فدك وفحصت عنه ، فإذا هو لا يصلح لي ورأيت أن أردها على ما كانت عليه في عهد رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان ، وأترك ما حدث بعدهم ، فإذا جاءك كتابي هذا فاقبضها وولها رجلاً يقوم فيها بالحق ، والسلام عليك .[1]

ويذكر الفيروز ابادي وغيره ان عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة كتب إلى عامله في المدينة يأمره برد فدك إلى ولد فاطمة ، فكانت في أيديهم أيام عمر بن عبد العزيز[2] .

٧ — فلما ولي يزيد بن عبد الملك قبضها ، فلم تزل في أيدي بني أمية ، حتى ولي السفاح[3].

٨ — وفي عهد السفاح أول الخلفاء العباسيين ، دفعها إلى الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب ، وكان هو القيم عليها ، ففرقها في ولد علي بن أبي طالب .

٩ — وفي عهد المنصور لما خرج عليه بنو الحسن قبضها عنهم .

١٠ — فلما ولي المهدي بن المنصور الخلافة أعادها عليهم .

١١ — ثم قبضها موسى الهادي ومن بعده إلى أيام المأمون .

---

(١) « طبقات ابن سعد » ج ٥ ص ٣٨٩ .

(٢) « المغانم المطابة » ص ٣١٢ .

(٣) المغانم ص ٣١٢ .

١٢ – وفي عهد المأمون جاءه رسول بني علي يطالب بها فأمر أن يسجل لهم بها ، فكتب السجل ، وقريء على المأمون ، فقام دعبل وأنشد :

أصبح وجه الزمان قد ضحكا برد مأمون هاشم فدكا

وعلى ذكر دعبل – فإن هذا الشاعر اتخذ مما جرى حول فدك متنفساً لغيظه ، ووسيلة للوقيعة في بعض سلف الأمة كقوله :

١ – أرى فيئهم في غيرهم مُتَقَسَّماً وأيديهم من فيئهم صفرات

إشارة إلى فدك وما تم من حبس فيئها عنهم [١] .

٢ – أصبح وجه الزمان قد ضحكا .

– وانظر القصيدة :

٣ – أتراه يغفر ذنب من أقصاك من فدك ، وأسخط إذ أباكِ أباك

وكان ذلك في سنة ٢٢٠ ، وكتب المأمون إلى عامله بالمدينة قثم بن جعفر أنه كان رسول الله ﷺ أعطى ابنته فاطمة (ض) فدك ، وتصدق بها عليها، وإن ذلك كان أمراً ظاهراً معروفاً عند آله عليهم السلام ، ثم لم تزل فاطمة (ض) تدعي منها بما هي أولى من صدق عليه ، وانه قد رأى ردها إلى ورثتها وتسليمها إلى محمد بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب ومحمد بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين ، ليقوما بها لأهلها [٢] .

١٣ – وفي عهد الخليفة جعفر المتوكل ردها إلى ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر (ض) [٣] .

---

(١) « شعر دعبل » - ٧٦/١٧١/٢٦٥ .

(٢) « المغانم » : ص ٣١٤ .

(٣) كل ما تقدم ملخص من « معجم البلدان » و « طبقات ابن سعد » .

فدك في بعض المؤلفات العربية

تشح المؤلفات الجغرافية وغيرها فلا تكاد تذكر بلاد بلاد فدك فيما بعد القرن الثالث الهجري ، وسبب هذا أن تلك البلاد – كغيرها من أجزاء الجزيرة – سادتها الروح القبلية ، فأصبحت في معزل عن العالم ، وها هو أهم ما اطلعت عليه مما يتعلق بها :

١ – قال ابن شبة – في ذكر صدقات علي – : وله بحرة الرجلا من ناحية شعب ربدا واد يدعى الأحمر ، شطره في الصدقة ، وشطره بأيدي آل مناع من بني عدي منحة من علي ، وكان كله بأيديهم حتى خاصمهم فيه حمزة بن حسن ، فأخذ منهم نصفه . وله أيضاً بحرة الرجلا واد يقال له البيضا ، فيه مزارع و ... وهو في صدقته . وله أيضاً بحرّة الرجلا أربع آبر (في الأصل الابر) يقال لها ذات كاته (؟) وذوات العسرا او معين ومعه ورعوان، فهذه الآبر في صدقته . وله بناحية فدك واد بين حرّة يدعى رعمه ، فيه نخل ووشل من ماء يجري وعلى بستانه زرنوق فذلك في صدقته . وله بناحية فدك واد يقال له الأشجن (الاسحن) وبنو فزارة تدعي فيه ملكاً ومقاماً، وهو اليوم في أيدي ولاة الصدقة . وله أيضاً بناحية فدك مال بأعلى حرة الرجلا يقال له القصيبة ، كان عبد الله بن حسن بن حسن عامل عليه بني عُمَير موالي عبد الله بن جعفر بن أبي طالب على أنه إذا بلغ ثمرة ثلاثين صاعاً –الصاع الأول فالصدقة على الثلث ، فإذا انقرض بنو عمير فيرجعه إلى الصدقة ،

فذلك اليوم على هذا الحال بأيدي ولاة الصدقة [1] .

٢ - ولما ذكر الهَمَذاني المدينة، قال : ومما يلي الشام خيبر ووادي القرى وتيماء ودومة الجندل ، وفدك ، وهو أقربها إلى المدينة [2] .

٣ - وفدك قرية بها نخيل وصوافي للسلطان وزروع . قال الشاعر :

من عجوة الشّقّ نطوفٍ بالودك   ليست من الوادي، ولكن من فدك[3]

٤ - فَدَك : بفتح أوله وثانيه : معروفة ، بينها وبين خَيبر يومان ، وحصنها يقال له الشَّمْرُوخ ، وأكثر أهلها بنو ثعلبة وأشجع ، وأقرب الطرق من المدينة إليها من النقرة ، مسيرة يوم على جبل يقال له الحبالة والعوال [4] ثم جبل يقال له جُبَار ، ثم واد يقال له وادي الغرس، ثم يديع ، وهي قرية لولد الرضا ، وبها أخلاط من الناس وهي كثيرة الرمان والنخل ، وبها عيون كثيرة ثم تركب الحرة عشرة أميال ، ثم تهبط إلى فدك . [5]

وطريق أخرى ، وهي طريق مصدق بني ذبيان وبني محارب : من المدينة إلى القصَّة ، وهناك تصدق بنو عوال من بني ثعلبة بن سعد ، ثم ينزل نخلاً ، فتصدق الخُضْر خُضْر مُحارب، ثم ينزل المُغيثة، فتصدق سائر بني محارب ، ثم الشامليَّة لأشجع ، ثم الرقمتين لبني الصادر ، ثم مُرْتَفَقاً لبني قتال بن يربوع - هكذا قال السكوني - وإنما هو رياح بن يربوع وأمه أم قتال بنت عبد الله بن عمرو بن لؤى بن التيم ثم فدك ، ثم الحُرَاضَة ، ثم خَيْبَر ، ثم الصَّهْباء لأشْجَع ، ثم ذَرَاة [6] .

---

(١) « تاريخ المدينة » لابن شبة المخطوط الورقة الـ ٣٧ .
(٢) « مختصر البلدان » - ٢٦ - .
(٣) « بلاد العرب » - ٧٦ - .
(٤) « معجم ما استعجم » : القذال .
(٥) « المناسك » - ٥٤١ - و « معجم ما استعجم » .
(٦) « معجم ما استعجم » .

٥ - قُرَى عَرَبِيَّــــةَ : كل قرية في أرض العرب نحو خيبر وفدك والسُّوَارقية .

(انظر عن (قرى عربية) البحثين المتعين اللذين كتبهما الاستاذ محمود محمد شاكر والدكتور عبدالله الوهيبي في مجــــلة « العرب » — ص ٧٦٩/٧٩٦ السنة الثانية و ص ٩٨٣/١٠١٧ السنة الرابعة) [١] .

٦ - فَـدَك : بالتَّحْريك ، وآخره كاف — قال ابن دريد : فدَّكْتُ القطنَ تفديكاً نفشته . وفدك قرية بالحجاز ، بينها وبين المدينة يومان ،وقيل ثلاثة ... فيها عين فـوَّارة ، ونخيل كثيرة .

وبين فدك والجبلين ليلة .

وينسب إليها أبو عبـد الله محمد بن صدقة الفدكي ، سمع مالك بن أنس ، روى عنه ابراهيم بن المنذر الحزامي [٢] .

٧ - فَـدَكُ : محركة — بلدة بخيبر ، فيها نخل وعين،أفاءها الله على نبيـه ﷺ وكان علي والعباس (ض) يتنازعانها وسلمها عمر إليهما فذكر علي (ض) أن النبي ﷺ كان جعلها في حياته لفاطمة(ض) وولدها،وأبَى العباس ذلك.

قال زهير بن أبي سُلْمى :

لِئنْ حللت بخـوٍّ في بــــني أسَدٍ
في دين عَمْرٍ ،وحالت بيننا فَـدَكُ [٣]

وأقول : وردت كلمة (بِخَوّ) في كثير من المؤلفات مصحفة(بِجوّ). وخوّ واد في ديار بني أسد فيه منهل يدعى الخَـوَّة معروف .

---

(١) « معجم ما استعجم » - ١٥ - . (٢) « معجم البلدان » .
(٣) « لسان العرب » و « تاج العروس » .

كلمة أخيرة عن بلاد خيبر

وبلاد خيبر فيها قرى وأودية وأمكنة ورد بعضها في الشعر القديم ، وبعضها في كتب التاريخ ، وقد نتعرض لأهم ما نعرف من ذلك بالقسم المتعلق بالامكنة من هذه الرحلة ، ولا يتسع المجال لتفصيل عن هذه البلاد أوفى مما تقدم .

ولقد كان انضواء هذه الواحة إلى الحضيرة الإسلامية في عهد الرسالة مما عاد على أهل ذلك العهد بكثير من الرخاء الاقتصادي ، وهيأ للمسلمين سُبُلاً واسعة للعيش ، وأوجد طرقاً هيأت الوسائل الكفيلة باستقرار اقتصادي شامل لتلك البلاد التي ترفرف فوقها راية الإسلام ، ولا نريد التوسع في إيضاح ذلك ، فهذا يحتاج إلى بحث مستوفى لا تَتَّسع له هذه الصفحات ، ونكتفي بالإشارة إليه بايراد نصَّين تاريخيَّين عن متقدمي المؤرخين هما :

١ — فلما فتح الله خيبر اتسع الناس بعض الاتساع ، وفي الأمر — بَعْدُ — ضيقٌ ، والمعاش شديد ، هي بلاد ظلف ، لا زرع فيها ، إنما طعام أهلها التمر ، وعلى ذلك أقاموا [١] .

٢ — كانت فدك لابن السبيل ، وكانت خيبر ، فكان الخمس قد جزأه ثلاثة أجزاء ، فجزءان للمسلمين ، وجزء كان ينفق منه على أهله ، فإن فضل منه فضلٌ ردَّه على فقراء المهاجرين [٢] .

---

(١) « طبقات ابن سعد » ١ / ٤٠٩ .

(٢) « طبقات ابن سعد » ٠ / ٥٠٣ .

إن إضافـــة هذه الواحة الخصبة إلى الحضيرة الإسلاميـــة كانت خيراً وبركة على المجتمع الإسلامي الذي كان يعيش داخل رقعة ضيقة من البلاد ، من الناحية الاقتصادية . يكفي التدليل على ضيقها ما ورد من قول عائشة (ض): (ما شبع رسول الله ﷺ من خبز الشعير والتمر حتى افتتحت دار بني قمة)[1]. وتلك أول دار افتتحت في بلاد خيبر ، ونصوص أخرى ستأتي الإشارة إلى بعضها في الكلام عن تحديد المواضع .

ثم أدركت هذه البلاد نفحة من نفحات الحياة ، حينما انضوت إلى حضيرة البلاد العربية السعودية ، وذلك في عام ١٣٤١ (شهر يوليو سنة ١٩٢٢ م) حينما ضمّت واحة خيبر وواحة الجوف ، وواحة تيماء ، وواحـــة وادي السرحان إلى حكم الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل [2] ، فدخلت في مرحلة جديدة من مراحل الحياة والتطور – وهذه الحياة في هذا الطور تحتاج إلى تفصيل وإيضاح ، ليس هذا محله .



---

(١) « معجم ما استعجم ».
(٢) « قلب بلاد العرب » لفؤاد حمزة ص ٣٨٨ الطبعة الثانية .

أما الرحلة الثانية إلى خيبر فهذا مجملها :

في صبـاح يوم الاثنين السادس من شهر ربيـع الأول سنة ١٣٧٠ (١١ مايو سنة ١٩٧٠ م) كان المسير من المدينة المنورة إلى تيماء ، مع الطريق الذي يتجه إلى المطار ، وعند بلوغه يتجه يساراً نحو خيبر ، تاركاً جبل أُحد ذات اليسار ، وهو طريـــق مُعَبّد مبلط ، إلا أن كثيراً من أجزائه عبثت بها السيول ، وأخرى جرفها إكثار السير فوقها فأصبح السير فيها متعباً ، رغم تتبّع بعضها بالاصلاح . وقد بديء في تمهيد طريق يدع جبل أُحُد على اليمين عند الاتجاه من المدينة إلى خيبر ماراً بسلطانة ، فمجتمع أودية المدينة حيث شُرع في بناء جسر فوق الوادي يقدر طوله بثلاثة أكيال .

عند الانحراف من قرب المطـــار يشاهد المرء الرقم الدال على مسافات الطريق وقد كتب فوقه : (٦٧٤ إلى تبوك) . ومن المعروف أن المسافة من المدينة إلى هذا المكان تبلغ عشرة أكيال بحيث تكون المسافة من تبوك إلى المدينة ٦٨٤ كيلاً ، كان المسير (٥٥د / ١١ س) .

وعند الساعة الـ ٤٠ / ١٢ كنا نجوز واديـــاً يدعى وادي العين وكانت علامة المسافات تحمل الرقم (٦٠٤) أي إن المسافـــة من المدينة الى هذا الموضع ٧٠ كيلا .

وفي الساعة الواحدة والربـع بلغنا قرية الصُّلصُلة ، وبقربها يشاهد رقم

المسافة (٥٦٥) أي ان ما بينها وبين المدينة هو ٦٩ كيلاً ، وبعد مسيرة ٢٥ دقيقة تأتي قرية الثَّمَد ، الواقعة فوق ربوة من الأرض في أعلى وادي الدوم ، وتبعـــد عن الصلصلة على ما يشير اليه الرقم المحاذي لها من المسافة وهو (٥٢٥) بـ ٣٠ كيلا .

والمسافة بين الثمد وبـــين خيبر ٢٢ كيلاً ، ويرى بجوار قرية شُريف — أول قرى خَيبر الواقعة على ضفة واديه العظيم — الرقم ٥١٣ — بحيث تكون المسافة بين خيبر وبين المدينة = ١٧٣ (مائة وثلاثة وسبعين كيلا) . لم أطل المكث في خيبر ، فقد سبق أن زرتها وتحدثت عنها . ومن شُريف انحدار في بطن الوادي ثم صعود ، بمقدار ستة أكيال (من رقم ٥١٣ إلى ٥٠٧) ويشاهد المرء عند بَدء الصعود على يمين الطريق ويساره قبوراً تعرف بقبور الشهداء ،وهم —على ما هو معروف عند أهل هذه البلاد— الصحابة الذين قتلوا حينما غزا رسول الله ﷺ خيبر ، ومن المُحزن حقـاً أن الطريق المعبَّد (طريق السيارات) يشقُّ مقابر الشهداء من وسطها ، بحيث أن بعضها يمر الطريق فوقه .

وقد أثر هذا في نفسي تأثيراً دفعني إلى أن أكتب لأخي الأستاذ محمد عمر توفيق — وزير المواصلات — كتاباً برقم٧١ وتاريخ ١٣٩٠/٤/٣–١٩٧٠/٧/١٧ أثار اهتمام معالي الوزير ، وكتب إلى جهة الاختصاص بشأنه برقم ١٢٦٨ في ٩ / ٥ / ١٣٩٠ أرجو أن يكون له من الأثر ما يكفل صيانة تلك القبور أيـاً كان أصحابها .

وينزل الطريق في بطن وادي خيبر مرّة أخرى بعد ذلك بمسافة قصيرة ثم يخرج منه .

وعندما يصل الرقم ٤٨٢ (أي بعد أن يسير في خيبر واحداً وثلاثين

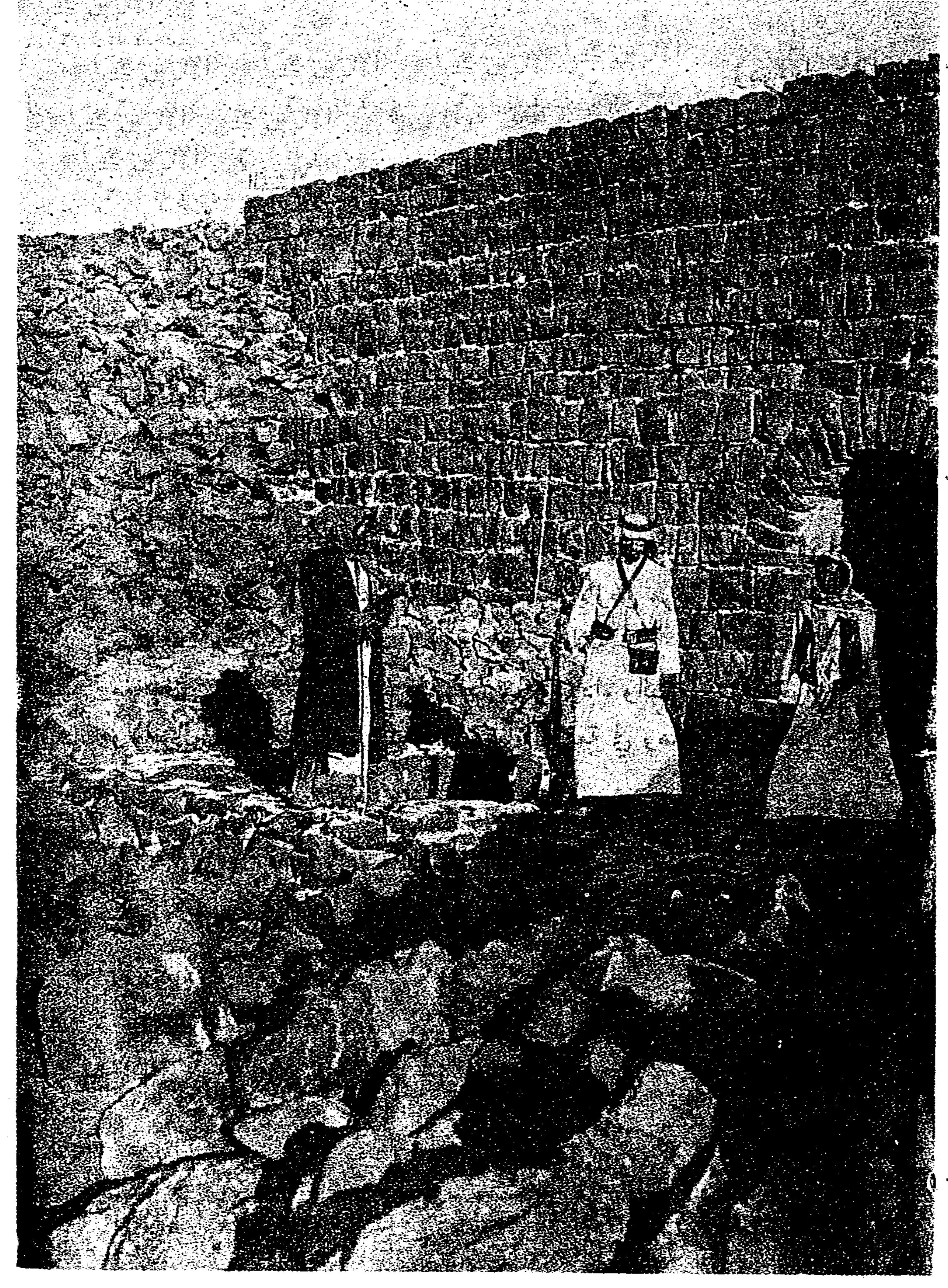
كيلاً) يبلغ مفرق الطريق المتجه إلى العُلا على اليسار . وهو طريق غير مُعَبَّد .

ووادي العشاش – فيه مقــاهٍ وبنايات يسيرة ، يقع عنــد الرقم ٤٦٤ – أي إنــه يبعد عن خيبر ٤٩ كيـلاً (انظر قسم المواضع) وبعد مسيرة أربعين كيلاً (أي عند رقم ٥٢٤) تقع حُفَيِّرة الأيدا والحُفيرة – تصغير حفــيرة وهي البئر ، والأيْدَا لقب يطلق على أسرة من شيوخ قبيلة عَنَزَة .

من حُفيرة الأيدا يُخرَج من الجبال إلى أرض براح ممتدة حتى قُرْب بلدة تَيْماء ، تُدْعَى هذه الأرض الجَهْرَا (وضعت في الخريطة جهارا خطأً) .

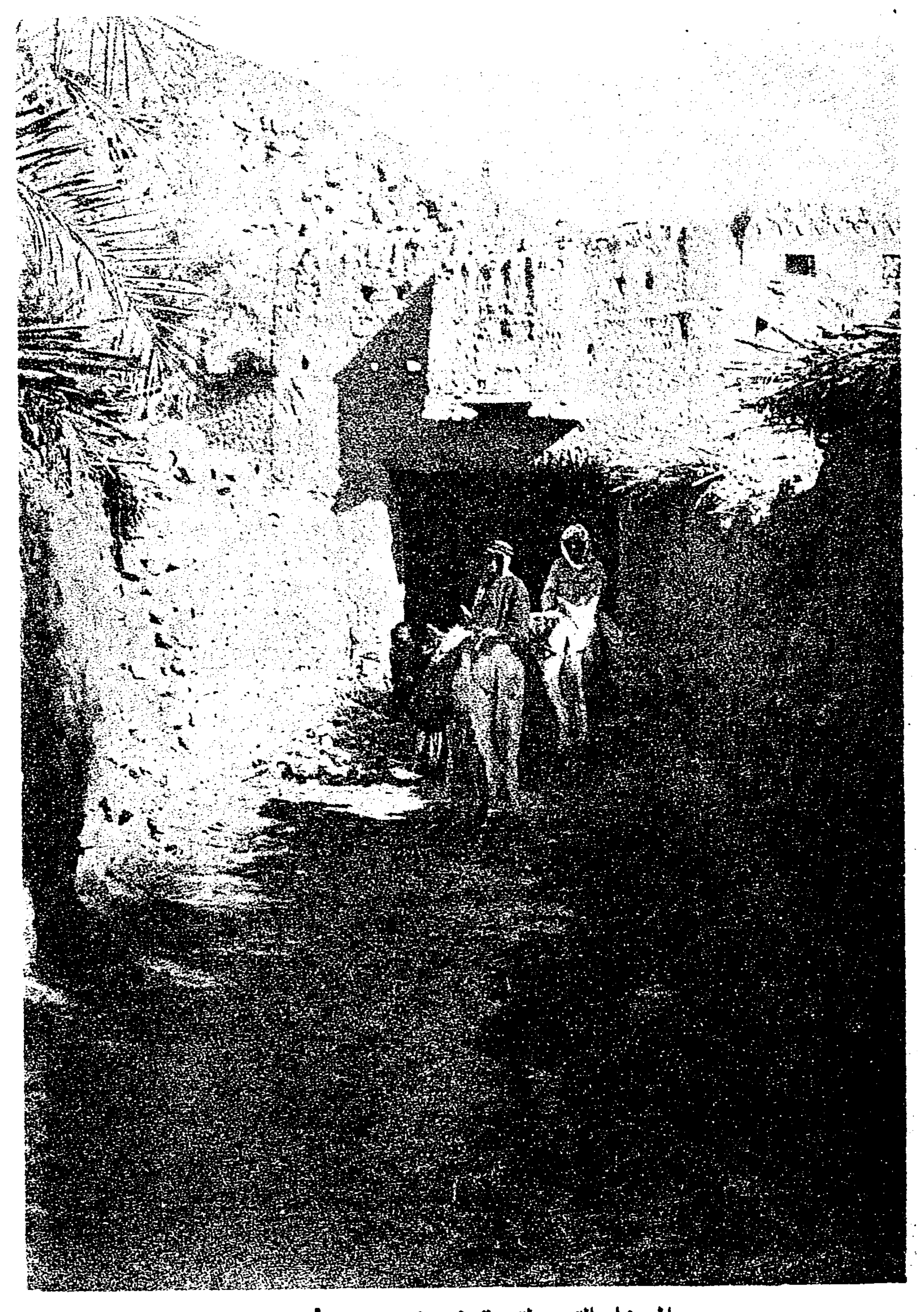
هذه الأرض فيها قفافٌ وأجارع وأودية، وأكثر نباتها الرمث وفي أوديتها الطلح ، ومن نباتها الجثجاث. والسير في هذه الأرض مريح لاستوائها، والطريق مُعَبّد . حتى يقطع المسافر (١١٣) مائة وثلاثة عشر كيلاً حيث يصل إلى منحدرات صخرية ، وآكام قليلة الارتفاع سوداء والصخور (صخور حرة) ولا يزال في انخفاض حتى يبلغ بلدة تيماء الواقعة في وهدة من الأرض .





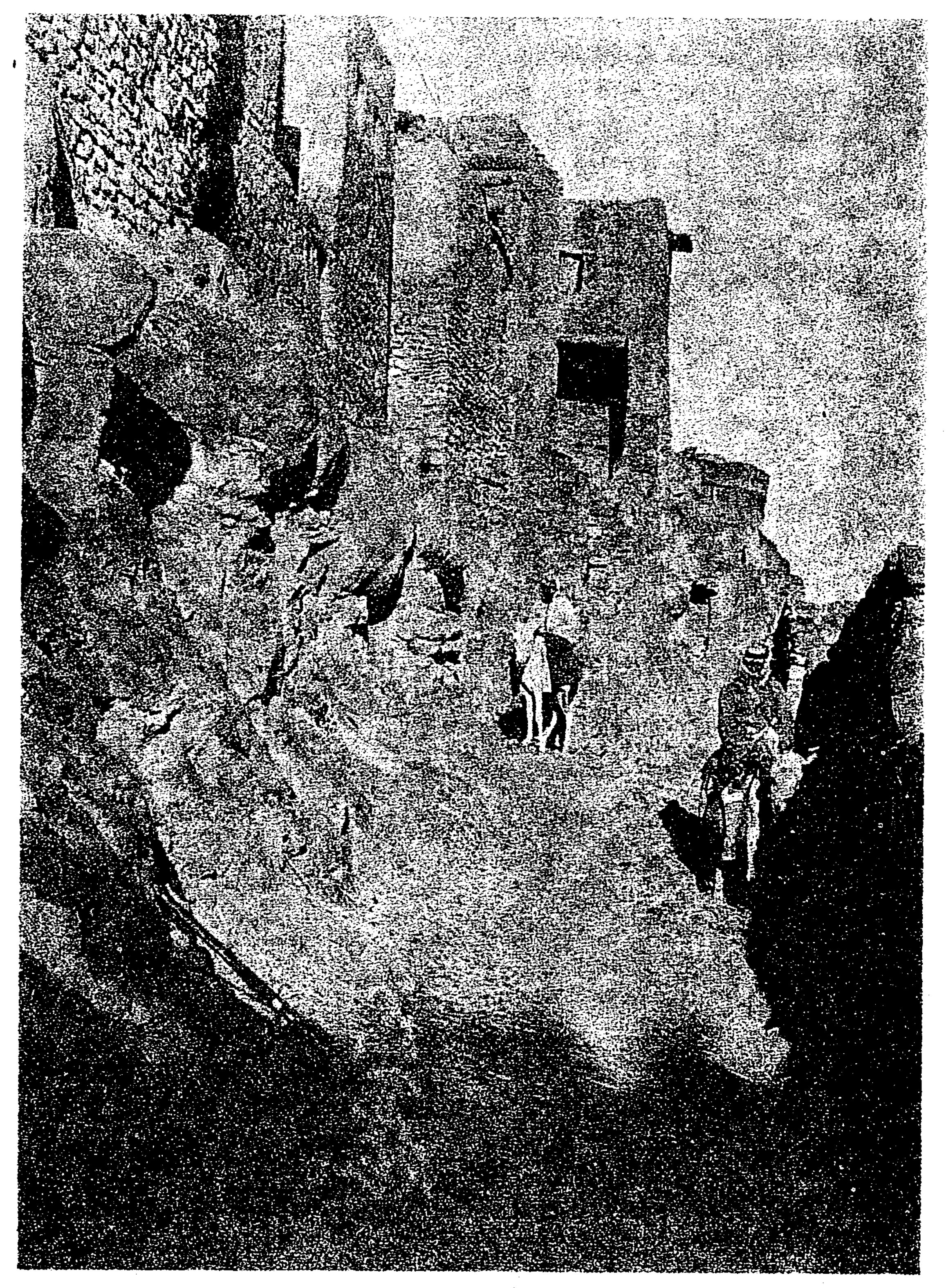
سدّ الحصيد في خيبر (انظر ص ٢٨٢)

(تصوير فلبي)



المدخل القديم لقرية شريف (بِشْر)

(تصوير فلبي)



المدخل القديم لقرية مكيدة (أم كدا)

(تصوير فلبي)

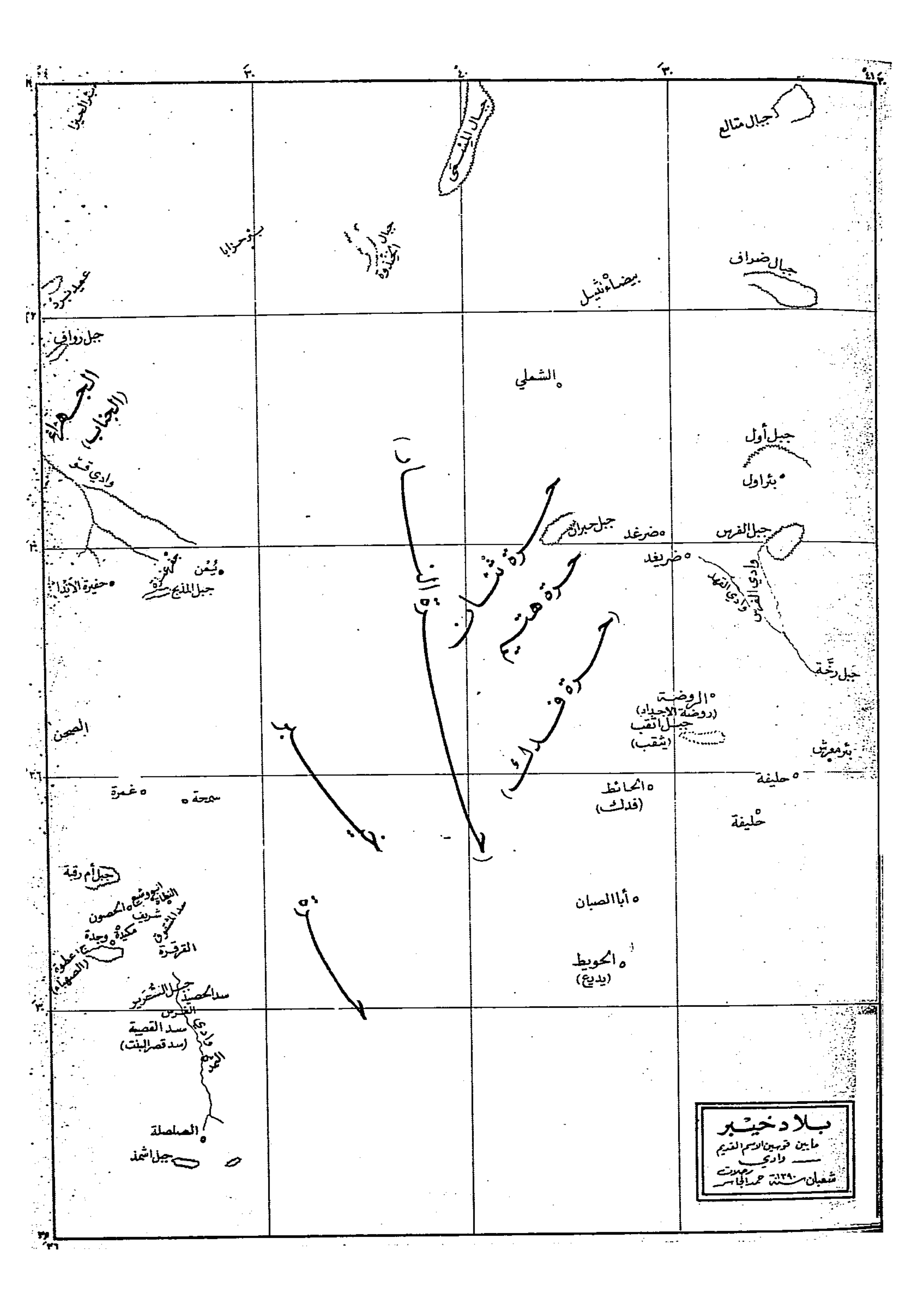
حصن مرحب مطل على الواحة (تصوير فلبي)

حصن مرحب والطريق اليه (تصوير فلبي)



البيت الذي سكنه الرحالة دوتي ، ثم كان مقراً للمدرسة يوماً ما ويعرف ببيت النجمي (أو النجومي)

(تصوير فلبي)



بلاد خيبر
ما بين قوسين الاسم القديم
وادي
شعبان سنة ١٣٩٠ حمد الجاسر
جبال متالع
جبال ضراف
بيضاء نثيل
الشملي
جبل أول
بئر اول
جبل حبران
ضرغد
جبل الفرس
ضريغد
جبل رخة
الروضة
(روضة الأجداد)
جبل النقب
(شقب)
بئر معرش
حليفة
الحائط
(فدك)
أبا الصبيان
الحويط
(يديع)
جبل روافي
وادي قو
يثعن
جبل المذبح
حفيرة الأيدا
الصحن
غمرة
سميحة
جبل أم رقبة
الحصون
شريف
مكيدة
وجدة
القرقرة
سد الحصيد
سد القصية
(سد قصر البنت)
الصلصلة
جبل أشمذ
حرة هتيم
حرة فدك

تيماء وآثارها

تيماء

بلغت تيماء الساعة السادسة ظُهْراً، وكانت المسافة بينها وبين المدينة (٢٢٠) مئتين وعشرين كيلاً على ما يظهر من علامات المسافات، إذ الرقم الواقع في مدخل المدينة هو (٢٦٤) وهذا هو بيان المسافة بينها وبين تبوك.

تناولت طعام الغداء في (قهوة) في مدخل البلدة، يقدم صاحبها — وهو يمني — ما يحتاجه المارُّ من الطعام والشراب، بطريقة قد لا تلائم من ألف حياة المدينة، ولكنها مقبولة لدى من ألف حياة الصحراء، على ما فيها. وقبل العصر كان المسير إلى تبوك، ولكنني طلبت من سائق السيارة أن ينزلني عند قصر أمير تيماء.

كان أحد الرفقة في السيارة من أهل حايل، وكان يظنني بخارياً ولكنه عندما رآني متجهاً لقصر الأمير أبدى اعتذاره قائلاً: (أستر ما واجهت منا) فأجبته (ما واجهت إلا الزّين) وعرفت أنه يدعى (ابن مِجْرَاد) وكان كريم الخلق وهو من أهل مدينة حائل، وقد قطعنا الطريق بحيث لم نشعر بشيء من السأم لأن الرجل محدث بارع، وذو معرفة قوية بالناس ولما علمت أنه من مدينة حائل سألته أتعرف (ف . م)، فأجاب: وكيف عرفته أنت؟ — لأنه لا يزال يظنني بخارياً — فأجبته: كنت قد مررت بدمشق ومررت ببيروت فقال: (أوه أعرف أبوه، أما هو فمن سفراء الدولة المتجولين، وحنا ناس

ضعوف !) فقلت : أتعرف (م . ع) ؟ فأجاب : (من سفير متجول إلى غني يضارب ببورصة العالم ! قلنا لك الله يهديك : حنا ما نعرف الكبار ، إنشدنا عن أبناء جنسنا ؟ ولكن الظاهر أنك ما أنت بخاري) .

فقلت له : (بخارى منها أول عالم جمع الأحاديث الصحيحة عن الرسول ﷺ) فقاطعني قائلاً : (أنا ما سبيت البخارية ، فأنا عارف انهم ناس طيبين وهربوا بدينهم وهاجروا ، ولكن أحب أعرف من أنت) فتجاهلت قوله وأمضينا الشطر الأكبر من الوقت في أحاديث طلية ، وقص علي قصة قتل هوبر ، وعلى ذكره فقد كان أحد أقارب ابن مجراد من مرافقيه .

نزلت عند باب قصر الإمـــارة ، وقلت للشرطي: انني ضيف . فقال : (يا هلا ومرحبا) ثم نادى بأعلى صوته رجلاً أتى مسرعـــاً وحمل حقيبتي وأدخلني معه إلى دهليز القصر ، وقد أعد على الطريقة المألوفة قديماً في القصور الكبيرة في الرياض حيث بني بجوانب الجدران بشكل مقاعد من الطين مرتفعة عن الأرض جلست فوقها ، ودخل الرجل القصر ثم عاد، وأدخلني مجلساً واسعاً مرتفع السقف جداً ، وأثاثه على الطريقة الحديثة ، وأوقد نار القهوة ، وبدأ بعملها ، وسرعان ما حضر الأمير الذي استقبلني هاشاً باشاً ، وأمر بتهيئة الغداء فأخبرته بأنني (قد تغديت) وأكدت له ذلك ، فأخذني إلى داخـــل القصر بعد تناول القهوة والشاهي إلى حجرة مفروشة قدْ هيىء فيها ما يحتاجه المرء ، وبعد الاستراحة مر بي ودعاني لتناول القهوة في مكان آخر هو منزل صهره وكاتبه الشاب الأديب سعود بن متعب المزْيد الذي قام بمرافقتي في جولة حول المدينة فيما بعد .

قمت بعد العصر بجولة حول البلدة ومعي الشابُ الذي ذكرته آنفاً وهو من بلدة الرس ، سعود بن مُتعِب المزيد صهر الأمـــير وقد تزوج احدى بناته ، وأنجبت منه .

شاهدت آثار ما يعتقد بأنه حصن السموأل (الأبلق) المتصل بسور

البلدة في غربها ، وهذا السُّور تَـلّ عريض طويل مبني من الحجارة ، وقد تهدم كثير من جوانبه بحيث لم يبق منه سوى الأساس ، وفي بعض الجوانب لا تزال بقاياه قائمة ، ففي الجهة الجنوبية من البلاد يبدو الباقي من السور شامخاً مرتفعاً ، بحيث يقارب الارتفاع عشرة أمتار .

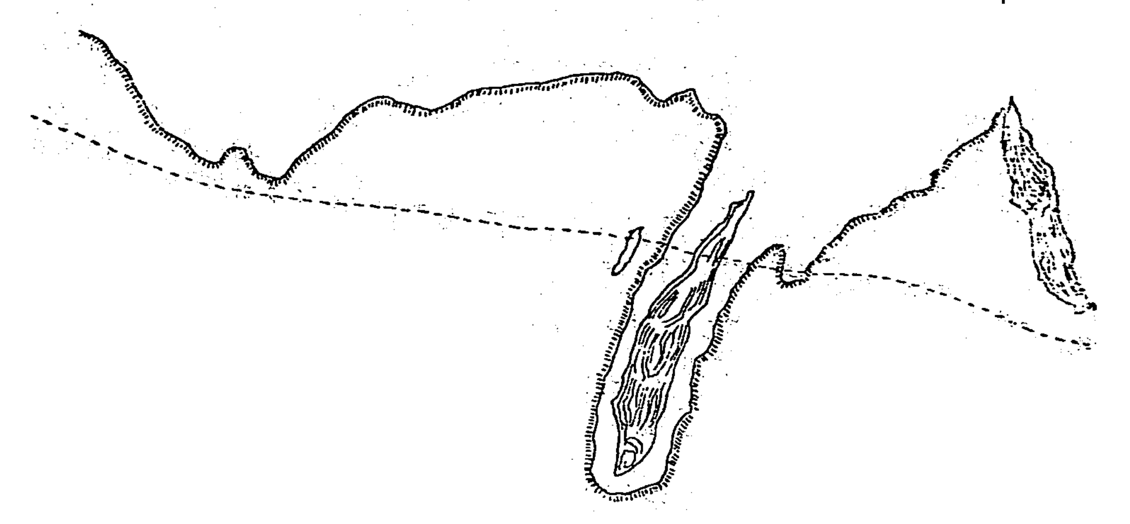
تقع البلدة في منخفض من الأرض، حيث تنحدر السيول إلى هذا المنخفض من الجنوب ومن الشرق مارّة ببلدة تيماء وبساتينها، وكانت البلدة فوق مرتفعات الوادي في جنوب هذه الوهدة (المنخفض) ثم تتجه السيول الى الشمال ، حيث تبتلعها سَبخة واسعة لا منفذ لما ينحدر اليها من السيول لإحاطتها من الشمال بتلٍّ صخري مرتفع .

كان السور يحيط بالبلدة وحدائقها وحصونها من ثلاث جهات، على ما يبدو من آثاره الباقية ، من الجنوب ومن الغرب ومن الشرق ومن الشمال الغربي ، أما الجهة الشمالية ، فيحيط بالبلدة – على بُعْد منها على حافة السَّبِخة – تلّ مرتفع ، برز منه جُبَيل يُدْعى (طَويل سَعِيد) وتقع مباني البـــلدة الآن في الجنوب الغربي بالنسبة لمجتمع السيول (السَّبخـــة) وتتوسّط بئر هَدّاج في وسط البلدة، وهذه البئر حفرة عميقة ليست مستديرة ولا مُرَبعة، بل شبيهة بحرف (ر) متعددة الجوانب مطوية بالحجارة طيّاً مختلفاً ، فكل جانب أو زاوية لا يتصل طيّها بطي الجوانب الأخرى ، وليست البئر على ما يتناقل الناس عنها من السعة وغزارة الماء ، فهي ضيقة ، وماؤهـــا ليس قويّاً ، فالمرء يشاهد قاعها ، وقد نبتت بقربه بعض الأشجار ، وعندما زار الملك سعود – رحمه الله – البـــلدة تبرع بأربع مضخّات ، وأمر بمهندس ليتولى تركيب تلك المضخات على البئر ، ولا تزال مقامة عليها ، والبساتين التي تشرب من ماء البئر قليلة وصغيرة ، ونخلها ليس من النوع الجيّد .

وأهل البلدة مشتركون في تلك البساتين منذ القدم ، ولهذا يوجد البستان الواحد يشترك فيه العشرة من الملاّك فأكثر بينما لا يتجاوز نخله الخمسين .

وأشهر أسرها : آل رمان ، وآل سلامة وآل خلف بن عمر .

يبلغ السور الذي كان يحيطا بالبلدة — على ما يستدل من آثاره الباقية — اثني عشر كيلاً . ويظهر أنه كان قـــد أقيم من السّبخة التي تقع شمال البلدة بمحاذاة التل الواقع شمالها ، والبلدة — كما قلنا — تقع في منخفض ، بين تلال مرتفعة ، ويشاهد في الجنوب الغربي منها جبيلات ليست مرتفعة ، ولكن لوقوعها في صحراء مستوية ، تشاهـــد من بُعْدٍ مرتفعة ، من أبرزها جبل (غُنَيم) — بضم الغين وفتح النون ثم ياء ساكنة فميم — وهو يشكل سلسلة آكام،مرتفعةالرؤوس،وها هي آثار السور القديم كما رسمه الأستاذ شارل‌هوبر:



سور تيماء القديم (كما رسمه هوبر)

أما العشاء الطيب الدسم الذي أمر الأمير باعداده بعد العِشاء ، وحضره علية القوم في بلدة تيماء فقد أتاح لي فرصة طيبة لتبادل الأحاديث مع أولئك الإخوان ساعات طويلة كلها إيناس وإمتاع ،وبعده في حجرتي كان أن جلست مجلس التلميذ أمام الأخ أحمد أبو الحسن ـ من أهل بلدة العلا، ومن كبار موظفي الإمارة ـ أقرأ عليه ما كتبه قلبي ، قراءة استزادة واستفادة وتصحيح لكثير من الأخطاء الواقعة في أسماء المواضع وغيرها .

كما تحدثت في مجلس الأمير قبل العشاء مع الشيخ برجس بن محمد بن ثويني

آل رمَّان وهو المشرف الآن على حماية الآثار من قبل وزارة المعارف .

ولا أنسى ما شهدته من لطف وسماحة خلق يتمتع بها فضيلة قاضي تيماء الشيخ صالح الغفيلي ، ولا ما بذله الشاب الأديب سعود بن متعب صهر الأمير وكاتبه الخاص في سبيل إيقافي على أهم المعـــالم الأثرية في البلدة ، في جولة في سيارته استغرقت أكثر من ساعتين . والأخ سعود يظهر أنـــه يطالع صحفنا بتتبع ، فإنني ساعة قابلت الأمير قال : لقد عرفنـــا قبل خمسة أيام بأنك ستزورنا ، لأن الابن سعود قرأ ذلك في إحدى الصحف .

وقد دعاني عدد من الإخوان لتناول القهوة في منازلهم غير أن قصر وقت إقامتي مما حال بيني وبين الاستزادة من كرمهم ولطفهم .

بتُّ ليلة الاثنين (١٣٩٠/٣/٦ - ١٩٧٠/٥/١١ م) في تَيْماء ، في ضيافة أميرها (من سنة ١٣٨٤) سليمان بن يوسف الشنيفي الذي أمر بتهيئة غرفة من الغرف الواقعة في وسط القصر ، ومع أنني كنت أشاهد البعوض ليلاً في الغرفة وجوارها ، إلا أنني وقد سهرت أول الليل في قراءة ما كتب فلبي عن تيماء لتصحيح الأسماء على رجل فاضل يدعى أحمد أبو الحسن ، من بلدة العُلا ، وقـــد أقام في تيماء إقامة طويلة ، وهو كاتب إمارة تـــيما - لذلك استغرقت في النوم ، بعـــد أن تغطيت ، فلم استيقظ إلا عند سماعي أذان الفجر .

كان الأمير حريصاً على أن يوفر لي ما استطاع من وسائل الراحة ، فلم أشعر بعد أن استيقظت وجلست أطالع في كتاب، على ضوء مصباح(اتريك) - لم أشعر إلا بقرع الباب ، وكنت قد أوصدته بحجر كبـــير وضعته في أسفله ، فلما فتحته وجدت الأمير قد أحضر القهوة والحليب ، وبعدهما طعام الافطار ، وكانت السيارة مهيأة لتوصلني إلى إحدى المقاهي الواقعة في البلدة على طريق تبوك ، ومن ثمَّ توجهت إلى هذه البلدة .

تيماء من الناحية التاريخية

تعتبر تيماء من أقدم مدن المملكة ، وقد أثبتت الآثار التي وجدت فيها صحة هذا، أما مؤرخو العرب فيذكرون أن أول من نزلها العمالقة من بني سام ، وكثيراً ما يطلق المؤرخون اسم العمالقة والعماليق على الامم القديمة التي يشاهدون لها آثاراً قوية ، فسكان اليمامة القدماء عندهم طسم وجديس من العمالقة ، وسكان المدينة بنو هف وبنو مطر وغيرهم من العمالقة أيضاً، وسكان مكة قبل أبناء اسماعيل من العمالقة ، وسكان فلسطين الذي وصفهم الله في القرآن الكريم بأنهم قوم جبارون من العمالقة أيضاً،وفراعنة مصر من العمالقة.

ويظهر أن العمالقة هي الأمم القوية المجهولة التي خلفت آثاراً عمرانية في البلاد التي سكنت ، أما محاولة جعلها قبائل ذات أنساب متصلة فهي أقرب إلى طرق القصاصين من تحقيقات الباحثين ، ومع ذلك يحسن إيراد طرف مما جاء في الكتب المتقدمة ، قال صاحب كتاب « الروض المعطار » [1] : وكانت أمة من العماليق نزلوا في قديم الزمان الحجاز ، وكان ملكهم بتيما يقال له الأرقم بن أبي الأرقم، فسكنوا مكة والمدينة والحجاز كله، وعتوا كبيراً ، فلما أظهر الله عز وجل موسى عليه السلام ، على فرعون وأهلكه وجنوده ، ووطيء الشام وأهله بعث بعثاً من بني اسرائيل الى الحجاز ، وأمرهم ألا يستبقوا منهم أحداً بلغ الحلم ، فلما أظهرهم الله عليهم فقتلوهم حتى انتهوا إلى ملكهم بتيماء الأرقم بن أبي الأرقم فقتلوه ، وأصابوا ابناً له

---

(١) مخطوطة مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت في المدينة المنورة .

شاباً وكان من أحسن الناس ، فضنوا به عن القتل وقالوا: نتركه حتى نقدم به على رسول الله ﷺ فيرى فيه رأيه ، فأقبلوا به وقبض الله موسى عليه السلام قبل قدوم الجيش، فلما سمع بهم الناس تلقوهم فسألوهم عن أمرهم فأخبروهم بفتح الله عليهم وقالوا: إنا لم نسبق منهم أحداً إلا هذا الفتى لنقدم به على نبي الله موسى، فيرى فيه رأيه. فقالت لهم بنو اسرائيل: إن هذه لمعصية منكم، لما خالفتم أمر نبيكم ، والله لا تدخلوا علينا أبداً فحالوا بينهم وبين الشام فقال الجيش بعضهم لبعض : إن منعتم بلدكم فخير منه البلد الذي قدمنا منه ، وكانت الحجاز إذ ذاك أشجر بلاد الله تعالى واظهره ماء، فكان هذا أول سكنى اليهود الحجاز، فكانوا بزهرة بين السافلة والحرة ، ونزل جمهورهم بمكان يقال له يثرب بمجمع سيول بطحان والعقيق وسيل قناة مما يلي زغابة . وتفرقت هناك قريظة والنضير واتخذوا الآطام والمنازل ، ونزل بعض قبائل العرب عليهم .

قال أصحاب المغازي : قدم الصديق (ض) خالد بن سعيد بن العاصي حين وجه الجنود إلى الشام جعله ردءًا بتيما ، وأمره ألا يبرحها وأن يدعو من حوله للانضمام إليه ، فاجتمعت عليه جنود كثيرة وبلغ الروم عظم ذلك العسكر فضربوا على الدرب الضاحية بالشام البعوث إليهم ، فكتب خالد إلى أبي بكر بذلك ، فكتب إليه أبو بكر (ض) أن أقدم ولا تحجم ، واستنصر الله تعالى. فسار اليهم خالد بن سعيد فلما دنى منهم تفرقوا .. ودخل من كان تجمع في الاسلام فكتب بذلك إلى أبي بكر فكتب أبو بكر إليه : أقدم . فسار من تيما فيمن كان معه فسار اليهم بطريق من بطارقة الروم يدعى ماهان فهزمه وفلّ جنده ، فكتب بذلك إلى أبي بكر (ض) يستمده ، فعند ذلك انساح أبو بكر (ض) إلى الشام ، وعناه أمره .انتهى كلام صاحب «الروض».

وقال ابن جرير : ومن العماليق – أبناء لاوذ بن سام بن نوح – أهل تيماء ، وكان ملك الحجاز منهم بتيماء اسمه الأرقم [1] .

---

(١) « تاريخ ابن جرير » ١ / ٢١٣ .

وإليه أغزى موسى (ع س) بَعْثَـهُ الذي ندبه إلى الحجاز [١] .

وقال ابن خلدون : من العماليـق بنو الأرقم بالحجاز إلى تيماء ، ويسكنون مع ذلك نجداً ، وملكهم يسمى الأرقم وكان موسى بعث جيشاً لغزو العمالقة وأمرهم ألاّ يستبقوا أحداً ، فاستبقوا ابنا للأرقم ، ضنّوا به على القتل ، فمنعهم قومهم من دخول الشام لهذه المعصية ، فرجعوا إلى بلاد العمالقة ونزلوا المدينة [٢] .

وهذه النصوص التي أوردنا بعض نماذج منها نجد ما يؤيدها :

ففي الوثائق الآرامية القديمة التي عثرعليها فيتيماء نقرأ مثلاً كيف أنه قامت هناك حوالي القرن الخامس قبل الميلاد مستعمرة آرامية تجارية [٣] .

ويذكر الأستاذ عادل عياش ان الملك البابلي نابونيد في سنـــة ٥٥٢ قبل الميلاد غزا تيماء ، فاستولى عليها بعد قتل أميرها ، وإهلاك مواشي المنطقة كلها. ثم أقام في مدينة تيماء، وبنى لنفسه قصراً على غرار قصره في بابـــل ، وجمّل المدينة ، وبنى الأسوار لتحصينها [٤] .

وورد اسم تيماء في « جغرافية بطليموس » باسم Thaima وهو يقصـد واحة تيماء [٥] .

وفي التوراة أن واحـــة تيماء كانت تابعة لقبائل من بني إسماعيل ، أو لغيرها من ولد إبراهيم من زوجته قطورة [٦] .

---

(١) « الاكليل » ١ / ٧٤ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢ / ٤٨ و ٥٩٥ .

(٣) « التاريخ العربي القديم » - ٤١ -

(٤) عادل العياش مجلة « العرب » ص ٤٩١ السنة الأولى .

(٥) « شمال الحجاز » - ١٣٢ -

(٦) سفر التكوين : ١٥ / ١٤ وانظر « شمال الحجاز » ص ١٠٠ .

وجاء في التوراة [١] : سكان تيماء كانوا يشتغلون بالتجارة ، وكانت لهم قوافل تجارية .

ونجد في المؤلفات العربية التاريخية خبر غَزْو الزباء ملكة تَدْمُر ، لتيماء وعجزها عن الاستيلاء عليها ، بحيث أصبح المثل المنسوب إليها : (تَمَرَّدَ مارد وعَزَّ الأبلق) من أشهر الأمثال العربية .

ومهما يكن القول حول هذا المثل إلا أنه يوضّحُ لنا قدم الأبلق ، إذ الزباء هذه عاشت في القرن الثالث الميلادي وقتلت سنة ٢٧٣ م تقريباً [٢] .

وهذا مما يدلُّ على أن هذا الحصن كان قديماً ، وأنَّ إضافة بنائه لأناس تأخروا عن هذا الزمن قد يكون من قبيل التجديد والإصلاح .

وقبل ظهور الإسلام ، يتكرر اسم تيماء في الشعر الجاهلي كثيراً ، في شعر امرىء القيس وفي شعر النابغة وغيرهما .



(١) سفر أيوب ٦/١٩

(٢) المفصل في تاريخ العرب ٣/١٢٣

أسطورة اليهود في تيماء

أبرز ما يقرأه الباحث في تاريخ تيماء ارتباطها باليهود ، فالشاعر الإسلامي الشماخ يذكر في شعره عندما يصف دروس رسم دار معشوقته يذكر خط الحبر واللغويون وان فسروه بالعالم مطلقاً ، إلا أنهم قد يخصونه بعالم اليهود . يقول الشماخ :

كما خطّ عِبْرَانية بيمينه بتيماء حبْرٌ ، ثم عرَّض اسطرا[1]

وتبرز قصة السموأل بن عاديا ، الذي يكاد يتفق المؤرخون على انه يهودي ، ومن ثم يعرف أهل تيماء عند ظهور الإسلام بأنهم يهود صالحوا الرسول ﷺ سنة تسع من الهجرة ، عندما وصل إلى وادي القرى ، فقبل منهم الجزية ، وأقاموا ببلادهم وأرضهم حتى أجلاهم عمر (ض) من جزيرة العرب ، بل يورد الخطيب البغدادي نصاً يغاير هذا يقول فيه : أن عمر بن الخطاب أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز وكان رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل خيبر أراد أن يخرج اليهود منها ، وكانت الأرض لما ظهر عليها لله وللرسول وللمسلمين ، فسأل اليهود رسول الله ﷺ أن يتركهم على أن يكفوه العمل ولهم نصف الثمر ، فقال رسول الله ﷺ « نقرّكم على ذلك ما شئنا » . فأقروا حتى أجلاهم عمر في إمارته إلى تيماء وأريحا[1] .

---

(١) ديوان الشماخ بن ضرار الغطفاني ١٢٩ طبعة دار المعارف بمصر .

(٢) « السابق واللاحق في تباعد ما بين الراويين عن شيخ واحد » مخطوط شتر بيتي ورقة ٨ .

ومما ورد في الشعر العربي قول بعض الاعراب :

إلى الله اشكو لا إلى الناس انني بتـيماء تـيماء اليهود غريب
واني بتهبـاب الرياح موكل طروب إذا هبت علي جنوب
وان هب علوي الرياح وجدتني كأني لعلوي الرياح نسيب [1]

وقال العبيد بن عياش البكري :

سلوا أهل تيماء اليهود تمرّها صبيحة خمس، وهي تجري صفورها

بل نجد بعض الذين يؤلفون في تحديد المواضع يطلقون عليها اسم تـيماء اليهودي مثل ياقوت في « معجم البلدان » ، فهل كان سكانها الاقدمون من اليهود اما ان ديانتهم هي اليهودية وأنهم من العرب الصريحي النسب .؟!

من المعروف ان سكان جزيرة العرب قبل الاسلام كانوا يدينون بديانات مختلفة، ففد انتشرت الديانة اليهودية في جنوب الجزيرة وفي شمالها، وانتشرت الديانة النصرانية في شمال الجزيرة وشرقها وجنوبها ، وانتشرت المجوسية في شرق الجزيرة بل نجد بعض هذه الديانات قد توغلت في وسط الجزيرة ، فنجد بعض قبائل من بكر بن وائل يسكنون وادي مَلهَم وما حوله وهم يدينون بالنصرانية ، ويبنون في بلادهم كنيسة تكون معروفة حتى يقدم وافدهم طلق ابن علي الحنفي السحيمي على الرسول ﷺ وهو يبني مسجده في المدينـة ، فيأمر الرسول أصحابه بالاستعانة به –بعد أن أسلم- في البناء ثم يعود إلى بلاده وتزول الكنيسة، ونجد بعض مشاهير بني تميم في وسط نجد يدينون بالمجوسية، ويسمون إحدى بناتهم باسم فارسي (دختنوس) .

ومسألة انتشار الأديان بين العرب أمر مفروغ منه . وانتقال جالية من اليهود إلى شمال الحجاز شيء معروف أيضاً ، ولكن تلك الجالية كانت تقيم في كنف القبائل العربية ، ولم يكن لها حول أو طول ، بل كانت على درجة

---

(١) « معجم البلدان » .

من الذلة والاستكانة على حد ما يصف ذلك الشاعر العربي وهو جماعة البارقي حين يقول في وصف الأوس والخزرج :

واذلوا اليهود فيها وأخلوا	منهم الحرتين واللابات
أصبح الماء والفسيل لقومي	تحت آطامها مع الثمرات
ولهم من بني اليهود عبيد	خول من نواضر وبنات
ورعاة لهم تسيم سروحا	وسقاة قوارب وطهاة

ولا شك أن الديانة اليهودية قد انتشرت في تيماء ولكن سكانها لم يكونوا يهوداً ، بل كانوا في ذلك العهد عرباً قحطانيين من غسان ، وما كان اليهود يستطيعون في ذلك العهد أن يتوغلوا إلى تيماء الواقعة في مكان متوغل بين منازل القحطانيين في الغرب والشمال والشرق ومنازل العدنانيين في الجنوب والجنوب الغربي .

ان اليهودية لصقت بتيماء حينما عرف من أهلها السموأل بن عاديا ، وهو عربي قحطاني غساني كما سنوضح ذلك فيما بعد ، ومن ثم عرفت بتيماء اليهودي للتفريق بينها وبين مواضع أخرى تسمى بهذا الاسم .

أما مصالحة الرسول ﷺ لأهلها على الجزية فقد صالح اناساً من العرب عليها كما فعل مع الاكيدر الكندي وقومه سكان دومة الجندل وهم من بني كلب من قحطان ، وكما فعل أصحابه فيما بعد حينما أخذوا الجزية من بني تغلب وهم من ربيعة من عدنان لبقائهم على دينهم من النصرانية .

وبالاجمال فإن سكان تيماء من العرب الصريحين في نسبهم ، وكانوا عند ظهور الإسلام يدينون باليهودية،ثم انتقلوا إلى الاسلام بعد ان توطدت قواعده في الجزيرة،وممن تركوا اليهودية أبناء السموأل الذين كانوا معروفين في تيماء إلى منتصف القرن الرابع الهجري كما قال أبو بكر بن دريد:السموأل بن عاديا بن حيا من الازد اولاده بتيماء إلى اليوم [١] .

(١) الاشتقاق ص ٤٣٦ والمعرب للجواليقي - ١٨٨ -

وممن استوطن تيماء مع سكانها الأقدمين بعض قبائل من طي قال الهمداني : (من الحجر إلى تيماء – موضع السموأل – في دهناء ثلاث مراحل بطان ، ويسكن ما بين ذلك من طي بنو صخر ، واخوتها بنو عمرو ، وبطن من بحتر. وقرار تيماء اليوم لطي ، ثم لبني زريق وبني مرداس ، وبني جوين والغثاة – وهم موال [1] – .

بل عدها صاحب كتاب « العزيزي » وهو من أهل القرن الخامس حاضرة طيء [2] ، وذكر ابن سعيد المغربي ان سكانها من بني صخر من طيء ، وابن سعيد من أهل القرن السابع الهجري [3] ، وقد خالط سكانها من طيء قبائل أخرى ، فصاحب « الاغاني » يقول : تَيْماء خاصّة منزل لبني عُذْرة ، وليست من منازل بني عامر وإنما يرويه عن المجنون من لا يعلمه . قال هذا صاحب « الاغاني » حينما أورد قول كثير الشاعر [4] :

وخبَّرتماني أن تيماء مَنْزِلٌ   لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذي شهور الصيف عنا قد انقضتْ   فما للنوى ترمي بليلى المراميا ؟

واورد صاحب «الاغاني» في خبر مهاجاة جميل بن معمر وجواس بن قطنة العُذْريين : لا تذكر يا جميل اباك في فخرٍ ، فإنه كان يسوق معنا الغنم بتيماء ، عليه شملة لا تواري استه [5] . ويقول : آل يسار من قبيلة كلب ، كانوا يسكنون تَيْمَاء ولهم هناك عدد وجلد ، ومنهم حسينة اليسارية التي قال فيها الشاعر ابن مَيّادة (وهو الرمّاح بن أبرد من مخضرمي الدولتين) :

---

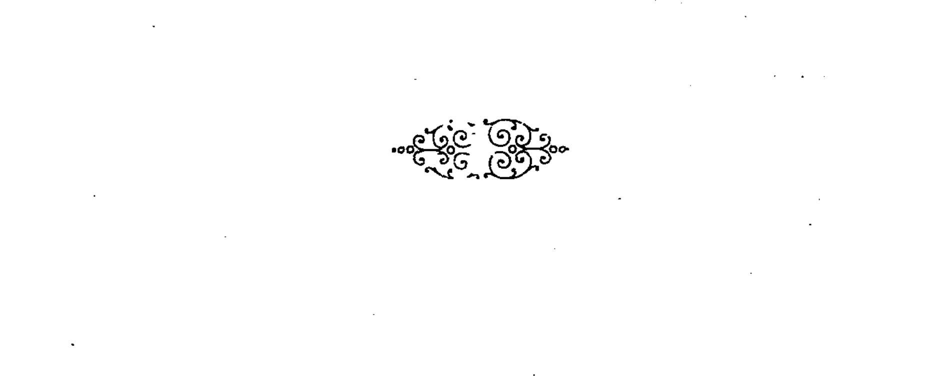
(١) « صفة جزيرة العرب » ص ١٣١ .
(٢) « تقويم البلدان » ص ٨٧ .
(٣) تاريخ ابن خلدون ١٣/٦ .
(٤) « الاغاني » ٨٩/٧ .
(٥) ٩ / ١١٢ .

ستأتينا حسينة حيث شئنا   وإن رغمت أنوف بني يسار [1]

ويذكر ابن خلدون ان بني مالك بن عُقيل من كعب بن ربيعة من العدنانية كانوا في أرض تيماء من نجد ثم انتقلوا إلى البصرة [2] .

وهذا غريب حقاً ، وأخشى أن تكون عبارة ابن خلدون غير مستقيمة.

وبالاجمال فان سكان تيماء في العهد الحاضر ينتمون إلى طيء لانهم ينتسبون إلى شمر ، وشمر باتفاق النسابين من طيء .



(١) « الأغاني » : ٢ / ١١٠ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦ / ٢٤ .

حول السموأل

يكاد يجمع نسابو العرب على أن السموأل من الازد من قحطان ، غير أن بعض من لا خبرة لهم بأنساب العرب أو من لهم بعض الميول إلى التوهين من شأن العرب يحاولون نسبته إلى اليهود ، فيلصقونه بهم الصاقاً ، وقد يكون هذا بسبب ديانته ، أما مـــا جاء في كتب النسب التي وصلت إلينا مثل « نسب معد واليمن الكبير[١] » و« مختصر كتاب الجمهرة[٢] » و« الاشتقاق[٣] » لابن دريد و « الأغاني[٤] » لأبي الفرج الاصفهاني و « جمهرة انساب العرب[٥] » لابن حزم فان نسب السموأل على النحو الآتي : (السموأل بن حيا بن عاديا ابن رفاعة بن الحارث بن ثعلبة بن كعب بن عمرو مُزَيقياء ، وكان يهودياً ، وهو الذي يضرب به المثل في الوفاء ، وهو صاحب تيماء ، وولده شريح بن السموأل ولولده هنالك عدد ، ومدحه الأعشى ، وكانوا ملوك تيماء .

ويقول ابن دريد : السموأل عبراني وهو اشمويل فاعربته العرب وكذلك حيا وعاديا ، ويقول صاحب « الأغاني » فيما نقل عن محمد بن سلام والطوسي وابن حبيب السموأل بن غريض بن عاديا بن حيا ، والناس يدرجون غريضاً في النسب وينسبونه إلى جده .

وينتقد أبو الفرج قصر النسب فيقول : وهذا عندي محال ، لأن الأعشى

---

(١) ص ٢٩٧ . (٢) ص ١٨٢ . (٣) ٤٣٦ . (٤) ٩٨/١٩ .
(٥) ص ٣٧٢ .

أدرك شريح بن السموأل ، وأدرك الإسلام ، وعمرو مزيقياء قديم لا يجوز أن يكون بينه وبين السموأل ثلاثة ، ولا عشرة إلا أكثر – والله أعلم – .

ولعل من أبرز أخبار السموأل قصته مع امرىء القيس وهذا ملحقها :

لما أراد امرؤ القيس الشاعر الذهاب إلى قيصر ملك الروم أودع عند السموأل دُرُوْعاً ، فلما مات امرؤ القيس غزاه ملك من ملوك الشام لأخذ الدروع ، فتحرز منه السموأل ، فأخذ الملك ابنا له وكان خارج الحصن ، وصاح بالسموأل ، فأشرف عليه فقال : هذا ابنك بين يدي ، وقد علمت أن امرؤ القيس ابن عمي ومن عشيرتي وأنا أحق بميراثه ، فإن دفعت إليّ الدروع وإلا ذبحت ابنك فقال : أجلني . فأجله فجمع أهل بيته وشاورهم فأشاروا كلهم بدفع الدروع فلما أصبح أشرف على الملك وقال : ليس إلى دفع الدروع من سبيل فاصنع ما أنت صانع ، فذبح الملك ابنه وهو مشرف ينظر إليه ، ثم انصرف الملك بالخيبة ، فوافى السموأل بالدروع الموسم – فدفعها إلى ورثة امرىء القيس . وقال من قصيدة :

وَفَيْت بأدرع الكنْدي إنيّ إذا ما خان أقوام وفَيْتُ
وأوصى عادِياً يَوْماً بألاّ تُهَدِم يا سموأل ما بَنَيتُ
بنى لي عاديـا حِصْناً حصيناً وماءً كلما شئْتُ ارتويت [1]

وقال الربيع بن ضبع الفزاري :

ولقد أتيتُ بني المُضَاضِ مفاخراً وإلى السموأل زُرْته في الأبلق
فرأيت أفضل من تحمَّل حاجة إن جئته في غارم أو مُرْهق
عرفتْ له الأقوام كل فضيلة وحوى المكارم سابقا لم يُسْبَق

وقال فيه امرؤ القيس قصيدته :

طرقتك هـذا بعد طول تجنب وَهْناً ، ولم تك قبل ذلك تطرق [2]

---

(١) « مجمع الأمثال » و « الأغاني » ٦/٨٤ . (٢) « الأغاني » ١٩/٩٩ .

قال صاحب الأغاني [1] : وهي قصيدة طويلة ، وأظنها منحولة لأنها لا تشاكل كلام امرىء القيس ، والتوليد فيها بيّن ، وما دوّنها في ديوانه أحد من الثقات ، وأحسبها مما صنعه دارم بن عقال لأنه من ولد السموأل .

ويحاول الدكتور جواد علي[2] توهين خبر وفاء السموأل ، فهو بعد أن يورد الاختلاف في أسماء أجداده، ويورد القول بأنه من ولد الكاهن بن هارون ابن عمران – اعتماداً على ما نقله صاحب مجلة « المشرق » – السنة الـ ١٢ ص ١٦٢ – عن بعض المصادر العربية ، يورد نسبته إلى غسان ، ونسبه عن دارم بن عِقال – ثم يورد طعن الأصبهاني في اختصار هذا النسب ، ويورد الدكتور قصة استجارة الأعشى بشريح بن السموأل ، ثم يعقب عليها بما روى ابن قتيبة في « الشعر والشعراء » أن الرجل الذي استجار به الأعشى هو شريح بن عمرو الكلبي ، لا شريح بن السموأل .

ثم يقول الدكتور جواد : وإذا تتبعنا الروايات الواردة في قصة وفاء السموأل نجدها ترجع إلى : (١) قصة دارم بن عقال (٢) شعر الأعشى وفيه كثير من أخبار السموأل الذي نقله الأخباريون، ومنه جاء لفظ (تيماء اليهودي) ويفهم منه أن الأعشى كان ممن يرتادون حصن السموأل ، ثم أورد نقد أبي الفرج الأصبهاني لبعض روايات دارم بن عقال ، وأضاف إلى ذلك قوله [3] : ولا أستبعد أن تكون قصة الوفاء من صنع هؤلاء الصناع . ويرى ونكلر Winckler أن قصة الوفاء هذه أسطورة استمدت مادتها من أسفار (صمويل الأول) في التوراة، ومن الأساطير العربية القديمة ، نظمت على هذه الصورة، فجعل بطلها شخصين ، هما السموأل وامرؤ القيس .

هذا ماذكره الدكتور جواد علي، ويظهر أنه تأثر برأي صاحب مجلة « المشرق »

(١) ٨/٧٠

(١) « المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » ٣/٣٧٤ وما بعدها .

(١) « المفصّل » ٣/٣٧٨

وبهذا الباحث الغربي الآخر تأثراً دفعـــه إلى الاعتماد على مجرد استنتاجات تخالف ما يكاد يجمع عليه أكثر علماء الأدب .

حقاً ان رواية دارم لخبر التجاء امرىء القيس إلى السموأل تظهر فيهـــا المبالغة ، ويبدو التزيد في كثير من مواقفها .

قال أبو الفرج : قال دارم بن عقال – في خبره – : فلما وقعت الحرب بين طيّء من أجله خرج من عندهم ، فنزل برجل من بني فزارة عمرو بن جابر بن مازن ، فطلب منه الجوار . فقال له الفزازي : يا ابن حُجر إني أراك في خلل من قومك ، وأنا أنفس بمثلك من أهل الشرف ، وقد كدت بالأمس تؤكل في دار طيء ، وأهل البادية أهل برّ لا أهل حصون تمنعهم ، وبينك وبين أهل البادية ذُؤبان قيس، أفلا أدلك على بلد ؟ فقد جئت قيصر، وجئت النعمان ، فلم أر لضيف نازك ولا لِمُجْتَدٍ مثله ولا مثل صاحبه ، قال : من أين هو وأين منزله ؟ قال : السموأل بتيماء وسوف أضرب لك مثله هو يمنع ضعفك حتى ترى ذات غيبك ، وهو في حصن حصين ، وحسب كبير ، فقال له امرؤ القيس : وكيف لي به ؟ قال : أوصلك إلى من يوصلك اليه ، فصحبه إلى رجل من بني فزارة يقال الربيع بن ضبع الفرازي ، ممن يأتي السموأل ، فيحمله ويعطيه – إلى أن قال – ثم مضى القوم حتى قدموا على السموأل ، فأنشده الشعر فعرف لهم حقهم ، فأنزل المرأة في قبة أدم ، وأنزل القوم في منزل له براح، فكان عنده ما شاء الله ثم إنه طلب اليه أن يكتب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني بالشام ليوصله إلى قيصر فاستنجد له رجلا ، واستودع عنده المرأة والأدراع والمال ، وأقام معها يزيد بن الحارث ابن معاوية ابن عمه [1] ، الخ.

ولكن شعر امرىء القيس وشعر النابغة نقلا الينا من غير طريق دارم هذا الذي هو من ذرية السموأل ، كما أن المثل العربي : (أوفى من السموأل)

---

(١) « الأغاني » : ٨/٦٩/٧٠ .

جاء من غير طريقه. ومجرد التزيد في الخبر لا يقضي باطراح الخبر من أساسه، حقاً أن للعاطفة أثراً في المبالغة، ولكن ذلك يبدو عند التعمق في البحث والدراسة.

ولو سرنا على الطريقة التي سار عليها صاحب مجلة «المشرق» وهذا الباحث الغربي الثاني لأبطلنا كثيراً من وقائع تاريخنا.

أما وجود قصة مماثلة لقصة السموأل فليس دليلاً كافياً لاعتبار أصل القصتين واحد، فالحوادث تتكرر منذ أقدم العصور إلى عصرنا الحاضر وما أسهل طرق الهدم.

وما دمنا في الحديث عن السموأل وقد عرفنا ان ذريته كانت تقيم في تيماء إلى منتصف القرن الرابع، فيحسن أن نورد بعض أخبار من عرفنا من أبنائه وأحفاده.

١ – شريح بن السموأل :

هَجَا الأعشى الشاعر رجلاً من كلب، ثم انه وقع في أسره من غير أن يعرفه، ومَرَّ الكلبي بشريح بن السموأل الغسّاني صاحب تيماء، بحصنه الأبلق والأعشى مأسور معه فقال الأعشى لشريح :

شُرَيْحُ لا تتركَنِّي بعدما عَلقت	حبالك اليوم، بعد القِيْد أظفاري
قدْ جُلْت ما بين بانِقْيَا إلى عَدَنٍ	وطال في العُجْم تكراري وتسياري
فكان أكرمهم عَهْداً وأوثقهم	عَقْداً أبوك بعرف غير إنكار
كالغيث ما استمطروه جاد وابلُه	وفي الشدائد كالمستأسد الضاري
كُنْ كالسموأل إذا طاف الهمام به	في جحْفَل كسواد الليل جَرّار
إذْ سامَهُ خُطَّتَي خسْفٍ فقال له:	قل ما تشاء فإني سامع حارِ[1]

(١) حار : اي يا حارث وهو الملك الحارث بن أبي شِمْر الغساني.

فقال : غَدْرٌ وثكل أنتَ بينهما فاختر وما فيهما حظ لمختار

فشكَّ غير قليل ثم قال له : اقتل أسيرَك ، إني مانع جاري

وسوف يُعقِبُنِيه إن ظفِرْتَ به رب كريمٌ ، وبيضٌ ذات أطهار

لا سِرُّهُنَّ لدينا ذاهبٌ هدَراً وحافظاتٌ إذا استُودِعْن أسراري

فاختار أدرُعه كي لا يُسَبَّ بها ولم يكن وعده فيها بِختار

فجاء شريح إلى الكلبي فقال له : هبْ لي هذا الأسير ، فوهبه له ، فطلب شريح من الأعشى أن يقيم عنده ليكرمه ولكنه طلب منه ناقة ناجية ركبها ومضى ، ولما عرف الكلبي أنه الأعشى أرسل الى شريح يطلبه فأخبره بذهابه [١] .

٢ – سعية (شعبة) بن غريض بن السموأل :

كان (سعية) شعبة بن غريض شاعراً ، وهو الذي يقول لما حضرته الوفاة :

يا ليت شعري حين أندب هالكاً ماذا تُؤبنني به أنواحي

أيقلن : لا تبعد فرب كريهة فرجتها ببشارة وسماح

ولقد ضربت بفضل مالي حقَّه عند الشتاء وهبة الأرواح

ولقد أخذت الحق غير مخاصم ولقدر رددت الحق غير ملاحي

وإذا دعيت لصعبة سهلتها أُدعى بأفلح – مرة – ونجاح

ولما حج معاوية رآه يصلي في المسجد الحرام، وعليه ثوبان أبيضان فأرسل اليه فأتاه الرسول فقال : أجب أمير المؤمنين قال : أوليس قد مات أمير المؤمنين ؟! قيل : أجب معاوية :فأتاه فلم يسلم عليه بالخلافة. فقال له معاوية: ما فعلت أرضك التي بتيماء ؟ قال : يكسى منها العاري ويرد فضلها على الجار قال : أفتبيعها ؟ قال : نعم . قال : بكم ؟ قال بستين ألف دينار ، ولولا خلة أصابت الحي لم أبعها . قال لقد اغليت . قال : اما لو كانت لبعض

(١) « الأغاني » ٦/٨٥ و ٩/٩٩ .

اصحابك لأخذتها بستماية الف دينار. قال: اجل!! وإذ بخلت بأرضك فأنشدني شعر ابيك يرثي نفسه (ثم اورد الشعر المتقدم) فقـــال معاوية : انا كنت بهذا الشعر اولى من ابيك ، قال كذبت ولؤمت !. قال : اما كذبت فنعم ، واما لؤمت فـلِمَ ؟ قال : لأنك كنت ميت الحق في الجاهلية ، وميته في الإسلام . اما في الجاهلية فقاتلت النبي ﷺ والوحي ، حتى جعل الله كيدك المردود ، واما في الإسلام فمنعت ولد رسول الله ﷺ الخلافة ، ومـا انت وهي وانت طليق بن طليق ، فقال معاوية : قد خرف الشيخ فأقيموه ، فأُخذ بيده فأقيم . [1]

ومن شعر سعية :

إنّـا إذا حارتْ دواعي الهوى	وأنصت السامعُ للقائـــل
واعتلج القوم بألبابهـم	في المنطق الفاصل والقائل
لا نجعـــل الباطل حَقـاً ولا	نُلِظُّ دون الحق بالباطل
نخاف أن تُسْفَهَ أحلامنـــا	فنخمل الدهر مـع الخامل

وكان معاوية وعبد الملك بن مروان كثيراً ما يتمثلان بهذا الشعر [2]

وقوله :

أرى الخِلاّن لما قَلَّ مالي	واجحفت النوائب وَدَّعُوني
فلما ان غنيت وعاد مالي	اراهم — لا ابالك — راجعوني
وكان القوم خِلاّناً لمـــالي	وإخواناً لما خُوِّلْتُ ، دوني
فلمـــا مَرَّ مـــالي باعدوني	ولمـــا عاد مالي عاودوني [3]

٣ — دارم بن عقال بن حبيب الغساني :

هذا من شيوخ عبدالله بن ابي سعـــد الوراق[4] ، من اهل القرن الثالث

---

(١) : « الأغاني » ٣/١٨. وهذا الكلام لا يليق بصحابي جليل ، وقد قال الرسول (ص) « لا تسبُّوا أصحابي » الخ .

(٢) « الأغاني » ٩/١٠١

(٣) نسبها صاحب « الأغاني » لسعية بن غريض أخي السموأل .

(٤) انظر ترجمة الوراق هذا في « المناسك » ص ١٢٤ الى ١٥٦ .

الهجري ، ذكره ابو الفرج الأصبهاني في معرض حديثه عن امرىء القيس الشاعر . عندما ذكر من نقل اخباره من العلماء عنهم قائلاً :

قال ابن ابي سعد : واخبرني دارم بن عقال بن حبيب الغساني احد ولد السموأل .

ويظهر ان الأصبهاني ضعيف الثقة برواية دارم هذا ، فهو عندما ينقل عنه ان عامر بن جوين الطائي قال شعراً معرضاً بهند بنت امرىء القيس يضيف : هكذا روى ابن ابي سعد عن دارم بن عقال ، ومن الناس من يروى هذه الأبيات للخنساء . وعندما ينقل ان امرأ القيس مدح السموأل بقصيدة مطلعها [1] :

طرقتك هند بعد طول تجنب وَهْناً ، ولم تَكُ قبل ذلك تطرقُ

يقول : وهي قصيدة طويلة ، واظنها منحولة ، لأنها لا تشاكل كلام امرىء القيس ، والتوليد فيها بيّن ، وما دوّنها في ديوانه احد من الثقات ، واحسبها مما صنعه دارم ، لأنه من ولد السموأل .

وعندما يورد قول امرىء القيس :

عارضٍ زَوْراء من نَشَمٍ مع باناتٍ على وَتِرهْ

يقول : هكذا في رواية دارم . ويُرْوى : غَيْر بانات . و : تحت بانات .

ولما اورد اخبار السموأل قال : وحكي عبدالله بن ابي سعد عن دارم بن عقال – وهو من ولد السموال ان عاديا بن رفاعة بن ثعلبة بن كعب بن عمرو مُزَيقيا بن عامر ماء السماء وهذا عندي محال ، لأن الأعشى ادرك شريح بن السموأل وادرك الاسلام ، وعمرو مزيقياء قديم ، لا يجوز ان يكون بينه وبين السموأل ثلاثة آباء ، ولا عشرة ، إلاّ اكثر – والله اعلم [2] .

(١) « الأغاني » ٨ / ٦١ و ٦٩ و ٧٠ .
(٢) « الأغاني » ٩٨/١٩ .

في العهد الإسلامي

يحدثنا ابن جرير الطبري في تاريخه [1] بقوله :

(وقد كان ﷺ بعث خالداً إلى دومة الجندل فأخذها عنوة واخذ ملكها اكيدر بن عبد الملك اسيراً فدعاه إلى الذّمة والجِزَاء ، وكذا فعل بابني غريض ، وقد أُخذا فادعيا انهما اودّاؤُه ، فعقد لهما على الجزاء والذمة).

ويظهر ان ابني غريض هذين من ابناء السموأل ، ذلك اننا نجد من بين آبائه غريضاً ، وهو اسم كثر استعماله لدى المتهودين في الجزيرة .

اما المسعودي فيورد الخبر بصيغة اخرى فيقول :

(وكان اهل تيماء اعداء لرسول الله ﷺ ورؤساؤهم آل السموأل ، احد اوفياء العرب ، وهو صاحب الحصن المعروف بالأبلق الفرد ، وقد ذكره الأعشى في مديحه لشريح بن السموأل فقال :

بالأبلق الفرد من تيماء منزله
حصنٌ حصينٌ ، وجارٌ غير غدّارِ

فلما بلغهم ما نزل بأهل وادي القرى صالحوا رسول الله ﷺ على أداء الجزية [2] .

وقد ولى رسول الله ﷺ يزيد بن ابي سفيان إمارة تيماء [3] .

---

(١) « تاريخ ابن جرير » ١/١٣٧٤

(٢) « مروج الذهب » للمسعودي في ذكر حوادث السنة السابعة من الهجرة .

(٣) « المحبر » - ١٢٦ - و « فتوح البلدان »

ولا تسعفنا المصادر العربية التي لديّ وهي قليلة بتوضيحات وافية عن تيماء ، بعد وفاة الرسول ﷺ سوى ما سبقت الإشارة إليه من اجلاء بعض المتدينين بالديانة اليهودية إليها في عهد الفاروق (ض)[1].

حتى يأتي زمن الاختلاف بين علي (ض) ومعاوية — رحمه الله — فنجد ما يلي :

وفي سنة ٣٩ وجه معاوية عبد الله بن مسعدة الفزاري في الف وسبعمائة رجل إلى تيماء ، وامره ان يصدق من مر به من اهل البوادي ، وان يقتل من امتنع ، ففعل ذلك واجتمع اليه بشر كثير من قومه فلما بلغ ذلك علياً فوجه المسيب بن نجبة الفزاري ، فسار حتى لحق ابن مسعدة بتيماء فاقتتلوا ذلك اليوم حتى زالت الشمس قتالاً شديداً وحمل المسيب علي بن مسعدة فضربه ثلاث ضربات كل ذلك لا يريد قتله ويقول له: النجاء النجاء!!.. فدخل ابن مسعدة وعامة من معه الحصن ، وهرب الباقون نحو الشام وانتهب الأعراب إبل الصدقة التي كانت مع ابن مسعدة ، وحصره ومن كان معه المسيب ثلاثة ايام ثم القى الحطب على الباب والقى النيران فيه حتى احترق فلما احسوا بالهلاك اشرفوا على المسيب فقالوا : يا مسيب قومك فرق لهم وكره هلاكهم فأمر بالنار فاطفئت، وقال لأصحابه قد جاءتني عيون فأخبروني ان جنداً قد أقبل اليكم من الشام فانضموا في مكان واحد فقال له عبد الرحمن بن شبيب : سر بنا في طلبهم فأبى ذلك عليه ، فقال له : غششت أمير المؤمنين وداهنت في أمرهم[2].

---

(١) ونقل السمهودي عن البيهقي عن الواقدي .. أقام رسول الله (ص) بوادي القرى أربعة أيام ، وقسم ما أصاب ، وترك الأرض والنخل بأيدي يهود ، وعاملهم عليها ، فلما بلغ يهود تيماء ما وطىء به رسول الله (ص) خيبر وفدك ووادي القرى صالحوه على الجزية ، واقاموا ببلدهم واموالهم ، فلما كان عمر أخرج يهود خيبر وفدك ، ولم يخرج أهل تيماء ووادي القرى لأنهما داخلتان في أرض الشام ، ويروى أن ما دون وادي القرى الى المدينة حجاز ، وأن ما وراء ذلك من الشام. فانصرف رسول الله (ص) بعد أن ترفع من خيبر ومن وادي القرى . وقال أحمد بن جابر : قيل ان عمر أجلى يهود وادي القرى ، وقيل لم يجلهم « وفاء الوفاء ص ١٣٢٩ » .

(٢) ابن جرير وابن الأثير حوادث سنة ٣٩ .

وتختفي اخبار هذه البلاد - كغيرها من انحاء الجزيرة - اختفاء كاملاً ، إلا حينما تجتاح البلاد القريبة بها إحدى الجوائح العظيمة التي تشملها ، فإن اسم تيماء قد يرد عرضاً كما حدث في زلزال سنة ٥٥٢ الذي عم الشام وشمال الجزيرة .

وفي العصور المتأخرة اصبحت تيماء - كغيرها من كثير من انحاء الجزيرة- تعيش في عزلة تامة عن العالم ، ويسودها نفوذ قبلي ، حتى كان القرن الثاني عشر الهجري حيث بدأت قبيلة شمر تسيطر على النواحي الشمالية من الجزيرة وكان ان استوطن تيماء بعض الأسر الشمرية عاشت البلدة تحت نفوذها ، ومن هؤلاء اسرة آل رُمّان ، وممن تولى امارتها منهم :

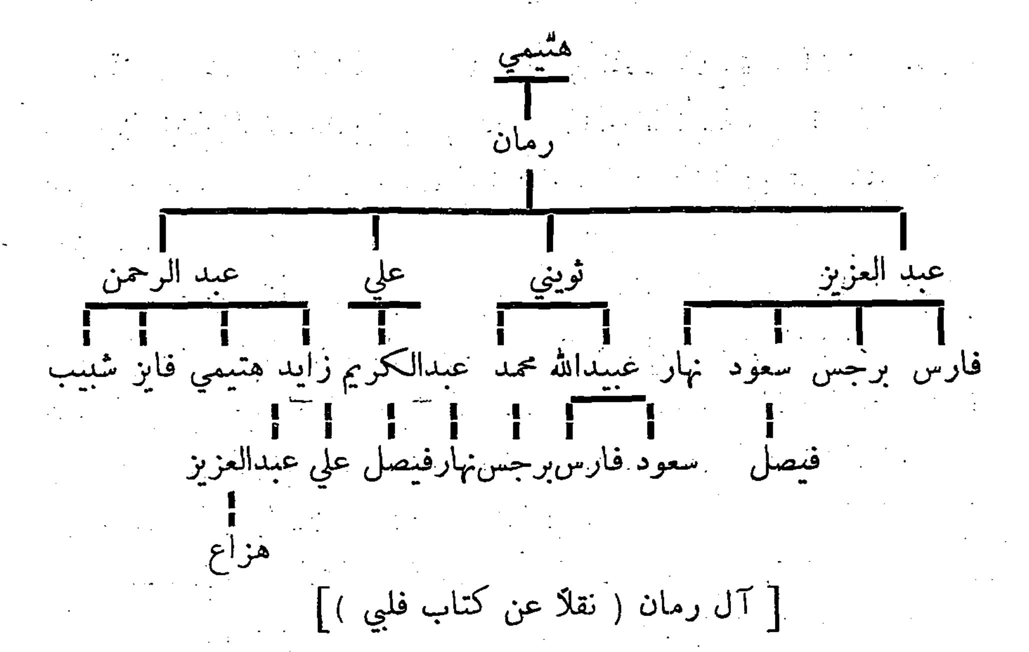
١ - رُمّان بن هُتَيمي (سنة ١٢٨١ هـ ١٨٦٤ م) .

٢ - عبد العزيز بن رمان (١٢٩٨ هـ ١٨٨٠ م) .

٣ - عبد الكريم بن علي بن رمان (١٣٣٥ هـ ١٩١٦ إلى ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠)

وقد أوفى فلبي الحديث عن اسرة آل رمان التي حكمت هذه البلاد من سنة ١٨٦٤ ، في عهد الجد الأول للأسرة رمّان بن هُتَيمي إلى ان اغتيل آخر امير منها وهو عبد الكريم بن رمّان في سنة ١٣٦٩ (١٩٥٠) .

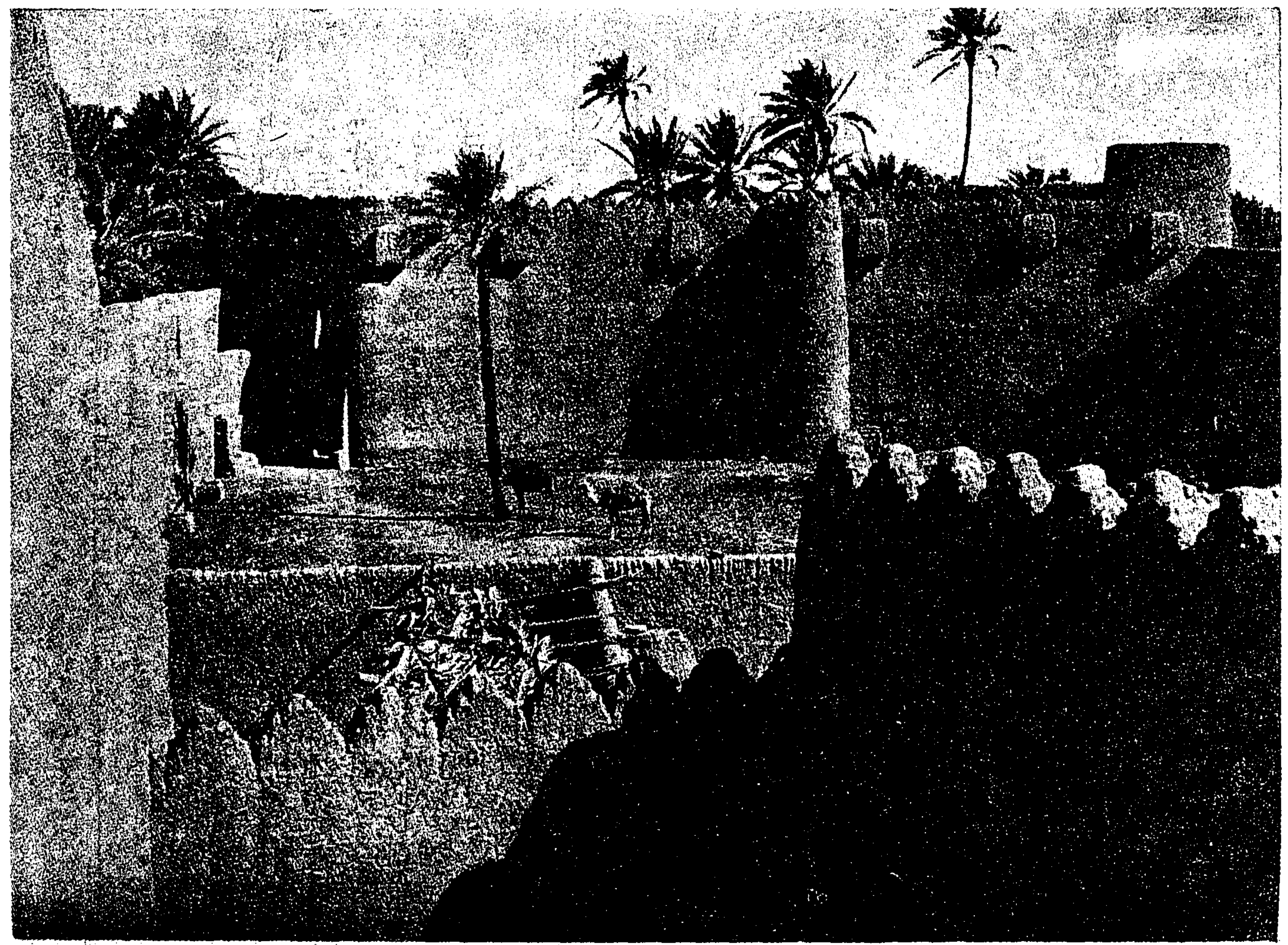
وذكر ان صلة هذه الاسرة بحكام حايل حسنة ، حتى كان عام (١٣٣٥ هـ) ١٩١٦ حينما قتل عبد الكريم بن رمان شخصياً يدعى ناصر بن عتيق وكان ممثلاً للأمير ابن رشيد ، قتله مع جميع حرسه ، واستقل بامارة البلدة ، وقال عنه : انه خير من حكم الواحات خلال النصف الأول من هذا القرن . مع انه دمر الضاحية الغربية ، والقسم الأكبر من الضاحية الشرقية في تيماء ، وبهذا دمر الأهمية الاقتصادية للمنطقة التي يحكمها ، وذلك ليؤمن منطقة مفتوحة امامه ليرى غزاته وهم على بُعْدٍ ، وليحافظ على استقلال منطقته في حالة تعرضها لغزو خارجي ويضيف فلبي : إنه بعد مضي ما يقرب من خمسين عاماً هي فترة حكمه الذي كان مثيراً لشعور اتباعه ، كان من بين افراد اسرته من كان ناقماً عليه فكان ذلك سبباً في قتله .



[آل رمان (نقلاً عن كتاب فلبي)]

بعد مقتل ابن رمان في آخر سنة ١٣٦٩ هـ قدم الأمير خالد أحمد السديري إلى البلدة ، واشرف على تهدئة الحالة فيها ، وشق في وسطها شارعاً تصل منه السيارات إلى القصر ، قصر ابن رمان الذي انشىء سنة ١٣٣٨ هـ ولا يزال قائماً تحله الإمارة ، (انظر صورته ص ٣٤٩) ورتب شؤون الحكم فيها . حتى بعث الأمير عبد العزيز بن مساعد امير حائل احد رجاله الأمير عبد الله بن ابراهيم الشنيفي فتولى الإمارة في اول عام ١٣٧٠ .

وفي سنة ١٣٨٤ تولى إمارة تيماء الأمير سليمان بن يوسف الشنيفي ، وهو اميرها الآن (١٣٩٠/١٩٧٠).



قصر ابن رمان الذي بنى سنة ١٣٣٨ (تصوير فلبي)

الآثار في تيماء

للسائحين من الغربيين الفضل الأول في معرفة كثير من آثار شمال الجزيرة مثل العلا وتيماء ، وقد زاد هذه الأخيرة منهم عدد كبير ونقلوا كثيراً من آثارها إلى المتاحف الغربية ، فصانوها وحفظوها من الضياع ، وقام العلماء المختصون بدراسة تلك الآ ثار بإبراز كثير من اخبار هذه المدينة اعتماداً على ما عرفوه من آثارها ويحسن ان نورد بعض اسماء الذين زاروا تيماء من الغربيين:

١ – جورج اغسطس والان الفلندي سنة ١٨٨٤ م

٢ – غوارماني [١] الإيطالي زارها سنة ١٨٦٤ .

٣ – دوتي Doughty صاحب الرحلات المشهورة المطبوعة زارهـــا سنة ١٨٧٧ .

٤ – شارل هوبر Charles Huber زارها سنة ١٨٨٤ ووصف زيارته في مجلة ضخم طبع في باريس سنة ١٨٨٨ باسم Journal d'un voyage en Arabie وهو الذي نقل اهم اثر اكتشف في شمال الجزيرة وسنتحدث عن هوبر Huber فيما بعد . ويقول صاحب كتاب ـ « تاريخ العرب القديم [٢] » : الفضل في الحصول على كثير من النقوش العربية الشمالية يرجع بلا شك إلى امثال دوتي Dougty وهوبر واويتنج Eoting الذين غامروا بحيـاتهم وقاموا برحلات

(١) انظر عنه « اكتشاف جزيرة العرب » للأستاذ قدري قلعجي ص ٢٨٩.
(٢) ص ٣٨ .

شاقة في شمال غرب بلاد العرب بين ١٨٧٦ و ١٨٨٤ وقد بلغ الثلاثة مدينة حايل .

٥ – بعثة تبشيرية قدمت من القدس ذكرها فلبي في كتابه « ارض مدين »

٦ – دوجلاس غرّوثر Douglas Garruthers زارها سنة ١٩١٠ .

٧ – بيرس جاسن Péres Jaussen زارها سنة ١٩١٠ .

٨ – سافيغناك Savignac زارها سنة ١٩١٠ .

٩ – جرترودبل Gertrodebell الانكليزية التي كان لها في العراق في اول هذا القرن نفوذ سياسي عظيم ، فقد زارت تيماء سنة ١٩١٣ .

١٠ – الويس موزل (Alois Musil) المستشرق التشيكوسلوفاكي ذو التآليف المعروفة عن شمال الجزيرة ، فقد زارها سنة ١٩١٧ تقريباً .

١١ – فلبي المستشرق المعروف وقد تحدث عنها في كتابه The land of Midian من صفحة ٧٢ إلى ص ١٠٥ وكشف كثيراً من آثارها ، أما الترجمة العربية لكتابه فهي محرفة وناقصة .

١٢ – جيرالدلانكستر هاردنج G. Lankester Harding مؤلف كتاب « آثار الأردن » وغيره من المؤلفات ، وهو انكليزي يقيم الآن في لبنان ، حدثني الدكتور محمودالغولبأنه زار تيماءفي الأيامالأخيرة معبعثة من المستشرقين الأمريكان (سنة ١٩٦٢) زارت سكاكة والجـوف وتيماء ، ومدائن صالح والعلا وتبوك ، وظفرت بنماذج من فخار قديم ، ونقلت صوراً لكتابات ثمودية ونبطية ، اهمها الكتابات التي وجدتها في قمة جبل غنيم الذي يقع على مسافة ثمانية اميال جنوب تيماء ، من اقدم الكتابات التي عثر عليها حتى الآن في البلاد العربية الشمالية ، وكان فلبي قـد استنسخها بيده [1] ، فتبين بعد

---

(١) « المفصل في تاريخ العرب » ١/١٣٤ وأحال على : Basor Num 168-1962 p. 9

مقارنة ما نسخه بالصور الفتوغرافية ان في نقل فلبي أوهاما عديدة .

ان اعظم هؤلاء السائحين اثراً هو شارل هوبر Charles huber ومن بعده فلبي Philby المعروف باسم الشيخ عبد الله فلبي .

فشارل هوبر قام برحلته في سنتي ١٨٨٣ و ١٨٨٤ زار بلدة تيماء وتبوك فيما بين ٢١ فبراير إلى اول ابريل من سنة ١٨٨٤ ، وزار كذلك العلا في تلك المدة ، وسجل كثيراً من مشاهداته في كتابه الذي سبقت الإشارة إليه والذي بلغ ٧٨٠ صفحة عدا الخرائط التي بلغت ٢٤ وهو باللغة الفرنسية ، وكان اهم ما عثر عليه حجر تيماء وهو حجر يبلغ وزنه ١٥٠ ك غ، وقد وصل إلى تيماء في ١٦ فبراير ونزل عند شخص يدعى عبد العزيز العنقري ، يظهر انــــه من رجال ابن رشيد ، وعرف امير تيماء عبد العزيز بن رمان . وزاره في بيته مرات ، وتناول عنده طعام العشاء ، وقويت الصلة بينه وبين رؤساء اهل البلدة فدعاه الشيخ ثويني الرمان للعشاء كما دعاه الشيخ فهد الطلق ، ايضاً ، وهو عندما يتحدث عن تيماء اثناء زيارته يقسمها ثلاثة اقسام :

١ – سوق العلي للشيخ ثويني بن رمان .

٢ – سوق الماضي للشيخ فهد الطلق .

٣ – سوق الحمدة للشيخ طالب العلي .

ويظهر انه يقصد محلات البلدة .

ويتحدث في يوم ١٨ فبراير بأنـــه ذهب هو والأمير عبد العزيز ، ومعه مملوكه وشخص آخر للبحث عن الحجر وانه طلب من عبد العزيز ان يأتيه بالحجر بأي ثمن كان ثم يكتب باللغة العربية : (وحمداً لله على الحصول على هذا الحجر !!) .

ثم يتحدث بأنه بينما كان الأمير عبد العزيز وشيوخ تيماء الثلاثة موجودين وجدها فرصة ليقول لعبد العزيز : بأنه يرغب الحصول على ذلك الحجر الذي

فوق القصر بطريق هدم الجدار بقوة ، ويذكر بعد ذلك ان عبد العزيز زاره في يوم ١٩ فبراير بعد الظهر ، وانه ألح عليه باحضار الحجر فوافق ، وذكر انه دفع لعبد العزيز كيساً من النقود لم يبين مقدار ما فيه ، وان عبد العزيز بعد ذلك قال : إن الحجر في قصر صاحبه يحتاج إلى مقابل ، ويقول هوبر بانه دفع كيساً آخر ، اما فلبي فيقول بأنه حصل عليه مقابل شلنات قليلة ، ولكن فلبي لا يفوته أن يقول : ان القوم في تيماء ما زالوا يذكرون هوبر ، الذي كان يدفع مثلي ضعف ما كان يتفق عليه مع السكان مقابل القيام بأي عمل من الأعمال .

ويتحدث هوبر كيف أن عبد العزيز ذهب ومعه مملوكه وشخص يدعى محمود ، وأحضروا له ذلك الحجر الذي عبر عن سروره عندما أحضر اليه ثم بدأ يفكر في طريقة نقله ، فهو حمل جمل ، وهو بحاجة إلى الحفاظ عليه لئلا ينكسر أو تنمحي بعض الكتابة أو الصورة أثناء السير ، ثم يذكر بأنه طلب من عبد العزيز استئجار أربع من الإبل لإيصاله الى تبوك ، فتظهر له صعوبة في ذلك من أجل أن قبيلة الشرارات وقبيلة بني عطية هما أقرب إلى تبوك من تيماء ، ومعنى هذا أنه معرض فيما لو استأجر من تيماء لتعرض بعض رجال هاتين القبيلتين أو لقبيلتي الفقير من عنزة وبني عطية الواقعتين بالقرب من تيماء وتبوك .

لا يعنينا من كل هـــذا إلا التعبير عما قاساه من مشقة للحصول على هذا الحجر ، وهي مشقة سببت فيما بعد القضاء على حياته .

لقد زار هوبر شمال الجزيرة إبان حكم محمد بن رشيد وقد زاره في حائل ، واجتمع به وأهدى له سيوفاً وأسلحة وغيرها ، وأرسل معه مرافقين لزيارة كل البلاد التي تحت نفوذ ابن رشيد في شمال الجزيرة ومن بين من أرسل معه شخص يدعى حمود بن مجراد ، ولا يزال أهل حائل يذكرون السيوف الهوبريات .

سار هوبر وتجول في جبال أجا بل في شمال الجزيرة وأنهى رحلته بعد حصوله على حجر تيماء ، ونقله إلى متحف اللوفر في باريس بطريق سكة حديد الحجاز ، من العلا إلى دمشق فما بعدها .

وكأن هوبر لم تطب نفسه بذلك فأعاد الكرة مرة اخرى وزار ابن رشيد في حائل ومعروف ان ابن رشيد يظهر الخضوع للدولة العثمانية الذي يظهر انها هي التي يسرت لهوبر رحلاته ، ولكنه بقدر ما وفق في رحلته الأولى خالفه التوفيق في الثانية ، ذلك ان ابن رشيد بعث في اثره زجلا يدعى ابن شميلان من شيوخ قبيلة هتيم وأمره بأن يسير بسيره حتى يصل إلى بلدة العلا منهياً رحلته ، وخارجاً من حدود امارة ابن رشيد ، وحينئذ يقتله ويحرق كل اوراقه ومع معه ما عدا الأشياء التي يحتاج إليها من متاع وزاد ولباس ، فهذه لابن شميلان نفسه ، وقد نفذ الرجل امر سيده .

ويظهر ان ابن رشيد كان سيء الظن بالرجل ، وانه كان يخشى من ان يكون جاسوساً او إنساناً كلف بعمل من شأنه امتداد النفوذ الأجنبي إلى جزيرة العرب ، والغريب في الأمر ان ابن رشيد لم يكتف بذلك، بل ارسل اناساً يتتبعون المواقع التي علم بأن هوبر نقل منها كتابات ، وكان مرافقوه عندما يشاهدونه ينقل الكتابة يظنون انه يكتبها هو في الأحجار ذلك بأنه يستعمل بعض الوسائل التي توضح الكتابة فنقلوا لابن رشيد انه يكتب في الجبال وفوق الأحجار ، فأرسل اناساً امرهم بتكسير كل الأحجار التي فيها كتابة ، مما نقله هوبر .

وهكذا الجهل ، فما الذي يضير ابن رشيد لو أمر بحفظ اوراقه وما نقل من آثار او أبقى على بعض الكتابات التي شاهدها ؟!.

أما فلبي فيقول عنه : وقد جمع هوبر كمية من النقوش من المنطقة المتاخمة لتبوك قبل مصرعه بشهر واحد على يد مرافقه العربي ، ولكنه لحسن الحظ كان قادراً على إيداع جميع تسجيلاته في جدة ، وذلك قبل أن يبدأ رحلته الأخيرة ليزور الجزء الشهير من تيماء .

وبعد أن يذكر فلبي ما جرى لموزل عندما هوجم في شمال الحجاز وأبيدت السجلات التي كان يدون فيها معلوماته يقول: وأكثر الأمور مشقة على النفس في الجزيرة أن يفقد المرء ما سجله أثناء تجواله الشاق في مجاهل البلاد، ولما كانت لي خبرة بشؤون الاكتشافات في الجزيرة كنت أبلغ مرافقي بأنه لو حدث لي حادث سوء فإنهم أحرار في التصرف بالمال الذي أحمله . أما الكتب والأوراق التي معي فلعلها تدر عليهم أضعاف ما يؤملون لو أنهم أوصلوها إلى أقرب قنصلية بريطانية، أو مؤسسة بريطانية في البلاد [1] .

يحوي حجر تيماء – وهو الآن في اللوفر في باريس – نقشاً من أعظم النقوش التي كشف عنها حتى الآن قيمة أثرية، ويرجع تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد وهو مكتوب باللغة الآرامية، وفيه أن أحد الكهنة استقدم إلهاً جديداً إلى تيماء يدعى صلم هجم، فأنشأ لهيكل الإله المعبود وقفاً، وعين له كهانة وراثية، ولقد مثل الإله في زي الأشوريين وظهر في أسفل الرسم رسم الكاهن الذي شيد هذا النصب [2] .

وها هو نص ما هو مكتوب في الحجر باللغة الآرامية وبالحرف الكنعاني القديم : وقد قرأه الدكتور محمود الغول :

[موجود الآن في متحف اللوفر (باللغة الآرامية وبالحرف الكنعاني القديم)]

١ – [بيرح ...] بشت ٢٢ [لملكا ...]
[في شهر ..] بسنة ٢٢ [للملك ..]

٢ – [صدقو بتيـ] ما صلم [زي محرم وشنجلا]
[قدموا في تيـ] ما لصلم [ذو محرم وشنحلا]

٣ – [وأش] يرا الهي تيما لصلم زي
[وأش] يرا آلهة تيما لصلم ذي

---

(١) : كتاب فلبي الترجمة العربية ص ١٨٤/١٨٥ .

(٢) : « تاريخ العرب المطول » لفيليب حتي ١/٥٠ .

٤ – [هجم لهن] شمه بيوما زن [بتيـ] ما
[هجم لذلك] أقامه في هذا اليوم[بتيـ] ما

٥ – [صلمشزب بر فطسري] ..... زي
[صلمشزب بن فطسري] ..... من

٦ –

٧ –

٨ – .... ا لهن [هاسوثا ز] ا
لذلك [هذا النصب]

٩ – زي [هقيـ] م صلمشزب بر فطسري
الذي [أقا] مه صلمشزب بن فطسري

١٠–[ببيت ص] لم زي هجم لهن إلهي
[ببيت ص] لم ذي هجم.ولذلك فآلهة

١١–تيما [صدق] و لصلمشزب بر فطسري
تيما [صدق] وا لصلمشزب بن فطسري

١٢–ولزرعه ببيت صلم زي هجم وجبر
ولولده ببيت صلم ذي هجم. ومن

١٣–زي يحبل سوثا زي إلهي تيما
يتلف هذا النصب فآلهة تيما

١٤–ينسحوهي وزرعه وشمه من أفضي
ينزحونه وولده وعقبه من وجه

١٥–تيما وها زا صدقتا زي يـ [هبو]
تيما.وهذه هي الصدقة التي يهبها

١٦–صلم زي محرم وشنجلا وأشيرا
صلم ذو محرم وشنجلا وأشيرا

١٧- إلهي تيما لصلم زي هجم ا [و]
آلهة تيما لصلم ذي هجم أ [ي]

١٨- من حقلا دقلن ١٦ ومن شيمتا
من الحقل نخلات ١٦ ومن بيت مال

١٩- زي ملكا دقلن ٥ كل دقلن
الملك نخلات ٥ (و) كل النخلات

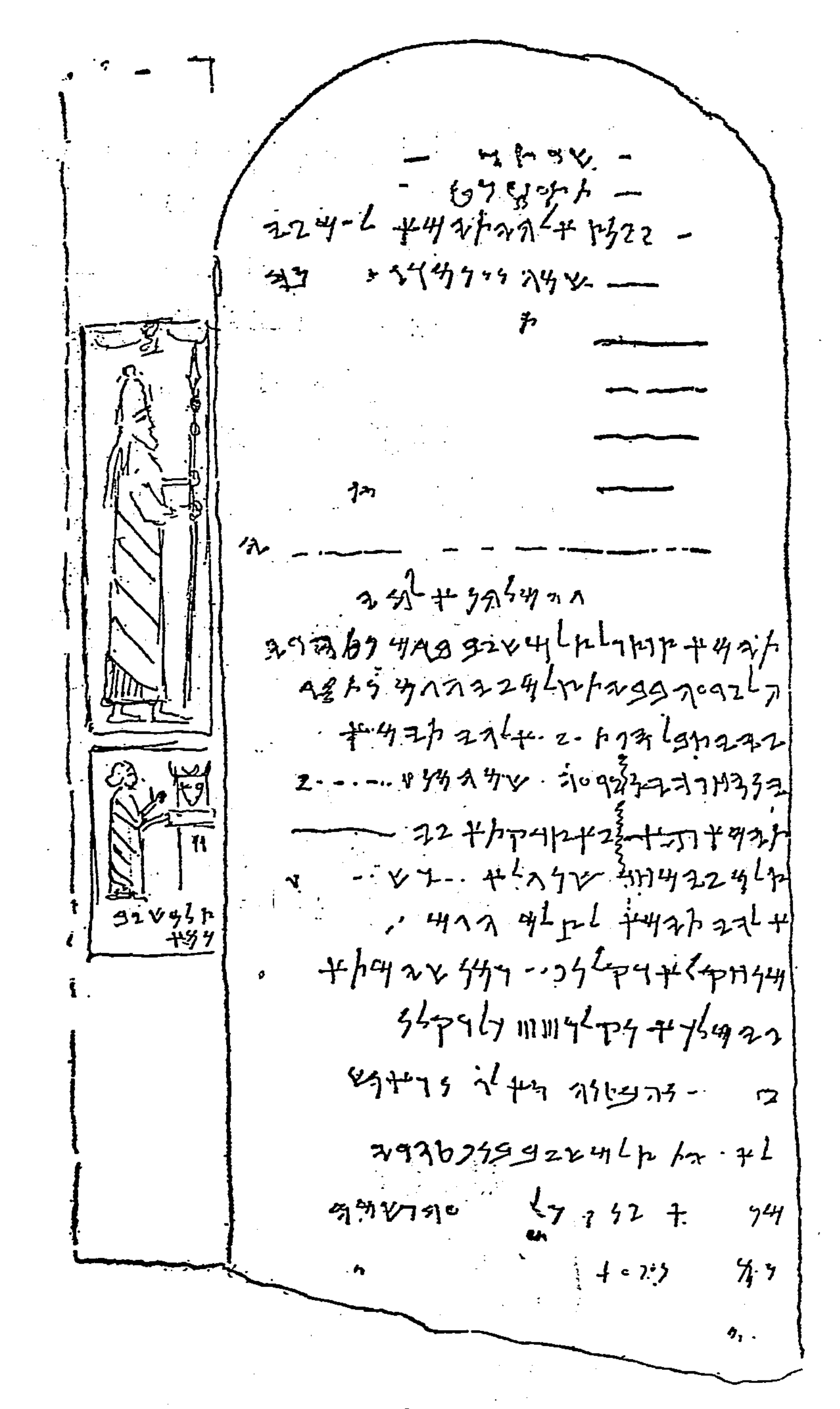
٢٠-٢١ [ها] شنه لشنه والهن وأنش
٢١ سنة فسنة . ولا يخرجن إله أو انسان

٢١- لا ىٍ [نفق] صلمشزب بر فطسري
صلمشزب بن فطسري

٢٢- من بيتا زنه ول [زر] عه وشمه
من هذا البيت ولا ولده ولا عقبه

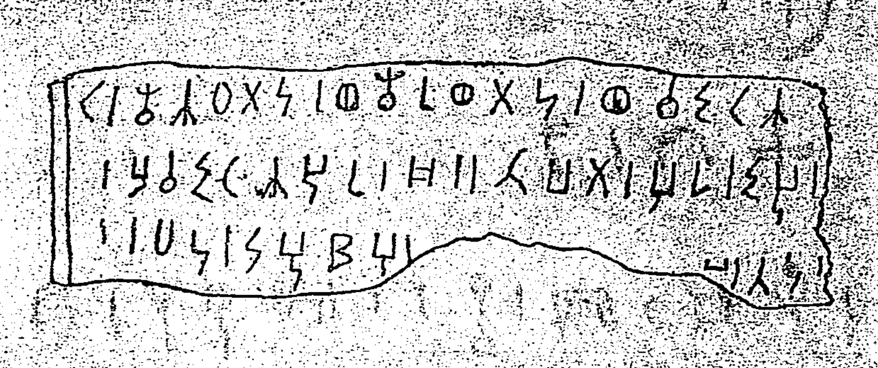
٢٣- كم [سريا بد] يتا زنه [لصلما]
ككهنة في هذا البيت [إلى الأبد]





حجر تيماء الذي نقله هوبر وهو الآن في (متحف اللوفر) بباريس

ونقل هوبر كثيرا من النقوش من الجبال والأمكنة الواقعة بقرب تيماء ، هذه نماذج منها — نقلاً عن كتابه — :



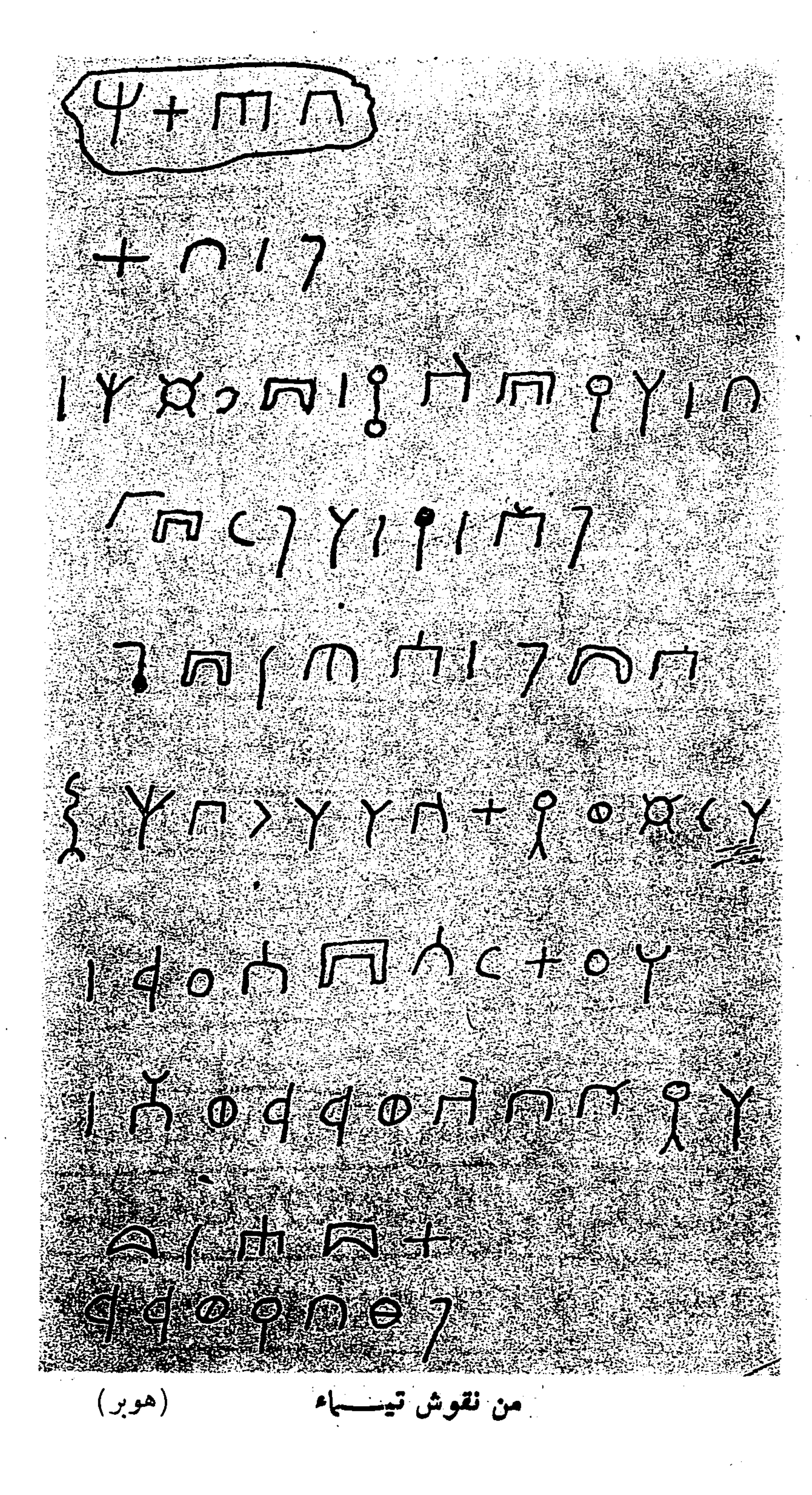
12

13

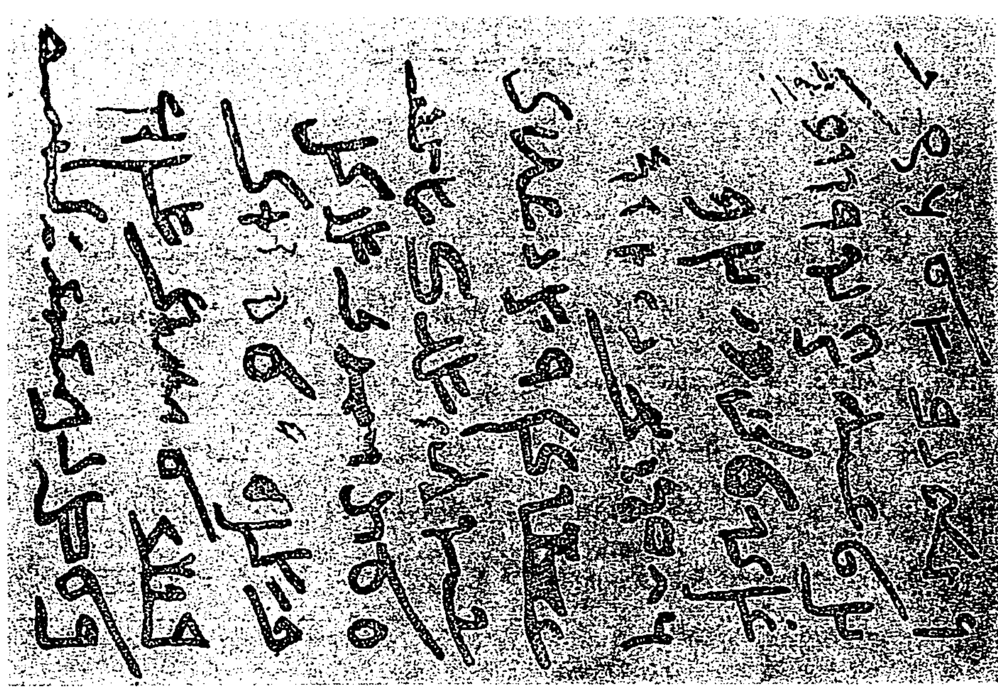
14

من النقوش القريبة من تيماء

(هوبر)



من نقوش تيمـــاء (هوبر)



من نقوش تيمـــاء (نقلاً عن كتاب هوبر)

ومن الكتابات العربية التي نقلها هوبر :

كتابة عربية بقرب تيماء

(هوبر)

كتابة عربية بقرب تيماء

(هوبر)

أما الشيخ عبد الله فلبي فقد زار تيماء سنة ١٩٥١ في اليوم الرابع من يناير ومكث فيها عشرة أيام باحثاً ومنقباً وناقلاً بعض الآ ثار، وقد وصف مشاهداته في كتابه الآنف الأخير ، ومع أن ترجمته العربية ناقصة وغير دقيقة ، فقد اضطررت للتعويل عليها والرجوع اليها لجهلي للغة الانكليزية، وقد اضطررت عند الاحالة إليها ذكر الاسم الذي عرفت به وهو «أرض الأنبياء» مع أن الاسم الصحيح لكتاب فلبي « أرض مدين » والمترجم ظن أن مدين (مداين صالح) فسمى الكتاب بهذا الاسم .

قمة جبل غنيم يبدو فوقها بقايا معبد مبني بالحجر للوثن (صلم)

تصوير عادل عياش

صورة أخرى للمعبد

من آثار المعبد في قمة جبل غنيم وتبدو بعض النقوش الثمودية وغيرها
(بتصوير عادل عياش)

كتابات ثمودية ورسوم من آثار المعبد في جبل غنيم
(تصوير عادل عياش)

ويوجد في الخبو في الجنوب الغربي من تيماء على مسافة ٢٠ كيلاً نقوشاًو كتابات ثمودية وعربية نقل قسماً منها الأستاذ عادل عياش ، وها هي نماذج مما نقل :

منطقة الخبو جنوب غرب تيماء (تصوير عادل عياش)

الخبو جنوب غربي تيماء بمسافة ٢٠ ك – كتابات كوفية (تصوير عادل عياش)

كما عثر الأستاذ عادل عياش على كتابات ثمودية في جبل غنيم ، وهـــذا نموذج منها :



في جبل غنيم ـ كتابات ثمودية ـ

(تصوير عادل عياش)

ولقد عثر فلبي في قمة جبل غنيم على معبد شاهد فيه صوراً مرسومة في بعض الصخور تمثل الأوثان ومنها صورة رأس بيضاوي الشكل لا لحية له ، واسع الجبهة ، يبرز من طرفيها قرنان فوق أذنين واسعتين – لعله للصنم صلم المذكور في نقش تيماء – وقد أمضى أربع ساعات في نسخ النقوش والصور وقدّر فلبي أن هذا المكان لم يزره أحد ممن ينظر إلى الصور نظرة كراهية ، ولو زاره أحد لما ترك من حجارته الأثرية حجراً فوق أخيه ، وذكر بأن هوبر وبيرزجاسن وسافيغناك لم يصلوا هذا المكان . ويضيف قائلاً : وأعتقد أن

اكتشاف قمة جبل غنيم من بين النتـــائج الرئيسية التي استطعت أن أحققها خلال تجوالي الطويل في أرض مدين .

أما أكثر النقوش أهمية فتسجل قصة استسلام ملك بابل [وربما كان نابونيدس] إلى رجل أسره في إحدى المعارك ، وقدم رئته إلى الإله .

وثمة نقش آخر حفره رجل اشترك – كما يبدو – في الحرب ضد دَيْدَان (العُلا الحديثة) .

وقد أشار الدكتور جواد علي إلى وجود نصوص ثمودية ، يظهر عليها أثر عبادة (صلم Salm) وقال : إن تيماء من أهم الأماكن التي كانت تقدس هذا الإله حوالي سنة ٦٠٠ قبل الميلاد ، ويرمز أهل تيماء إلى (صلم) برأس ثور ، وقد وجد هذا الرمز على النقوس الثمودية ، كما وجدت أسماء بعض الآلهة التي كان يعبدها أهل تيماء منقوشة في النصوص الثمودية ، مما يدل على أن قوم ثمود كانوا يعبدونها ، وأن هناك صلات ثقافية ودينية بين تيماء وثمود .

وقد ورد اسم (صلم) في النقش الروماني الذي عثر عليه في دومة الجندل وقد تقدم وصفه ، مما يدل على قوة الصلة بين تيماء وبلاد الجوف ، وهذا من الأمور البدهية .

ويقول فلبي : ولم يكن من الصعب أن يجد المرء بين خرائب تيماء القديمة الكثير من الأشياء الأثرية ، وكسر الحجارة المنقوشة وبقـــايا أواني الخزف ، وقطع النقود ، وما أشبه ذلك وقد جمعت منها مجموعة لا بأس بها ، ثم عرضتها في متحف جدة [١] .

وقد احتفظت بملء علبة كبريت من قطع النقود التي وجدتها لأقدمهـــا هـــدية للمتحف البريطاني في لندن ، ووجد الاستاذ جون ووكر المسؤول في

---

(١) ضُمَّ ما في هذا المتحف الى وزارة المعـــارف في الرياض . وانظر ص ٨١ « أرض الأنبياء » .

دائرة النقود الأثرية بينهـــا قطعتين نادرتين تعودان إلى زمن مِيْنان [1] ، في القرن الأخير الذي سبق عهد المسيحية [2] .

وحدثني الثقة وهو فضيلة الشيخ محمد الغفيلي ـ قاضي تيماء ـ حينما زرتها في شهر صفر سنة ١٣٩٠ ـ أن فلبي استحوذ على حجر آخر ذا قيمة أثرية قال لي الشيخ : عندما زار فلبي هذه البلاد كان سخيّاً في بذل النقود لكل من أتاه بحجر أو أثر ذي كتابة ، وكان فلانُ ـ سماه لي وأنسيته ـ قـد نَشَل بئراً قديمة ، فوجد في جوفها حجراً فيه صورة وكتابة ، فأهمله في النثالة مدة ، ثم احتاج إلى أن يضعه نصيبة قَبْرٍ ، وعندما زار فلبي البلدة، ورأى ما يدفع في سبيل الحصول على الآثار تذكر الحجر ، قـال : فأتيت به إلى فلبي . فلما رآه أخذته الرعشة من شدة الفرح ، وصار يقلبه بين يديه ، ويكرر قوله : ما عندك غير هذا ؟ فأجيبه بالنفي . وأخيراً قال لي : مـاذا تريد أن أدفـع لك ؟. فأجبته : الذي تريد . فقال : أنت وحظك ، وكان يضع النقود في جيبه ، وهي من الفضة ومن الريالات الفرنساوية (هم يسمون ريال ماري تريزا النمساوية بهذا الاسم) . فأدخل يده في جيبه وأخرجها ومدّها إلي فوضع في يدي سبعة ريالات . قال : فكدت أطير من الفرح . ثم بعد أن كرر عليّ السؤال هل لدي غيره وأجبته بالنفي ، وهو يقلبه بين يديه . قال : أوْصِلْهُ للخيمة ، وسلمـــه لفلان وتَعال معه . وفعلاً قمت بذلك ، ولما عُدْتُ قال : هل تريد أجرة ؟ فقلت : الشيء الذي تتفضل به منك . فأعاد قوله : أنت وحظّك . وأدخل يده في جيبـه مرة أخرى ثم أخرجها ومدّهـــا إليّ فإذا فيها تسعة ريالات ، فكدت أطير فرحاً ، ستة عشر ريالاً مقابل حجَر لا قيمة له ، وكان ذلك المبلغ في وقته ذا قيمة كبيرة .

---

(١) Minaean .

(٢) « أرض الانبياء » ـ ١١٣.

ولكنَّ فلبي – نفسه لم يذكر شيئاً عن هذا الحجر ، وتلك طريقته فقد يكون يخشى أن ينال من يقدم له شيئاً من الآثار شيئاً من العقاب، وقد يكون الأثر ذا أهمية تاريخية فيبعثه إلى من يعنى بدراسته ، أو غير ذلك من الأسباب.

ومع ما مُنيَتْ به تيماء من اختلاس كثير من آثارها فإنها كما يقول فلبي : يجد المرء بين خرائبها الكثير من الأشياء الأثرية ، بما في ذلك قطع الحجارة المنقوشة وبقايا أوان من الخزف ، وقطع النقود وما أشبه ذلك [١] .

يضاف إلى هذا كتابات في الصخور في بقايا القصور الواقعة بقربها وفي الجبال التي حولها مثل جبل غُنَيم (المعروف قديماً باسم حَدَد) .

ولدى قسم الآثار بوزارة المعارف بعض القطع الأثرية ، مما عثر عليه فلبي، والأستاذ حمد بن محمد العبيدي ولكنها ليست بذات قيمة كبيرة .

ويقول فلبي : يحيط بتيماء آكام صخرية من جهتيها الغربية والشمالية ثم يحيط بها سور قديم مبني بالصخور ، يمتدّ من جبال المملحة – الواقع في الشمال – ثم ينحرف نحو الغرب حتى يلتقي بالآكام الصخرية ، ويبدو أن موقع المدينة القديمة كان متصلاً بهذا السور في الجنوب الغربي من موقع البلدة في الوقت الحاضر .

ويقول فلبي في وصف هذا المكان : أرض واسعة تنتشر فيها خرائب عديمة الفائدة ، وكلها تخص مدينة تيماء الأثرية ، التي كانت في يوم من الأيام العاصمة الصيفية للملك نبونيدوس ملك بابل [٢] (Nabonidus) .

ويصف الأستاذ عادل عياش هذا الجزء من البلدة فيقول : الجزء الغربي من المدينة يضم التلال الأثرية التي تبلغ مساحتها ٦٤ هكتاراً ، يحيط بها مجموعة من الأسوار الحجرية الضخمة ، يبلغ طولها خمسة أميال ، يرجح أنها تعود إلى

---

(١) « أرض الأنبياء » – ١١٢.

(٢) « أرض الأنبياء » ص ١٠٣.

أواخر القرن السادس قبل الميلاد ، وبداية القرن الخامس قبله [1] .

ويرى هوبر وفلبي بأن أعمدة مسجد تيماء القديم تدل على أنه بني في مكان أثريٍّ [2] .

ولم تتيسّر لي زيارة هذا المسجد لقصر مدة إقامتي ، ولكوني نازلاً داخل قصر الإمارة الذي بناه عبد الكريم بن رمان سنة ١٣٣٨ هـ وفيه مسجده الذي قتل فيه وهو يصلي الصبح[3] ، وكل هذا القصر مبني بالطين على الطريقة التي كانت معروفة في بلاد نجد ، في بناء قصور الأمراء والحكام قبل نصف قرن من الزمان [4] .

وقبل توجهي إلى تبوك سألت الأمير عن حجر ذكر فلبي أنه رآه عند باب (القهوة) في قصر الامارة ، فقال انه لا يعرفه، ولكنه قد رأى حجراً خارج القصر ، في جدار مقابل لباب القصر ، وسار بي حتى أوقفني على ذلك الحجر ، وكان قد وضع في جدار أحد البيوت المجاورة للقصر وضعاً غير مقصود ، ويظهر أن ذلك البيت بني حديثاً ، وكان الحجر بين أحجار أخرى لم أر فيها كتابة ، أما هذا الحجر فيحوي نصفه كتابة عربية كوفية ، لم أستطع قراءتها كلها لكثرة ما عُبِث بها من كتابات حديثة فوقها ، غير ان البسملة واضحة وتاريخ (٥١٤ أربعة عشر وخمسمائة) واضحة ، ولو مسح ذلك الحجر لإزالة ما الصق بالكتابة من آثار (الطباشير) لكان من الممكن قراءة الكتابة ، أما النصف الثاني فيحوي كتابة يظهر أنها ثمودية (أو نبطية) والعبث فوقها أقوى إلا أن كثيراً من الحروف واضحة ، وطول هذا الحجر ذراعان ونصف بعرض شبر (تقريباً) والكتابة العربية في طرفه الأيمن .

---

(١) عادل عياش ٤٩٣ العرب السنة الأولى .

(٢) « أرض الأنبياء » – ١٠٩ – .

(٣) لا كما ذكر فلبي (بعد صلاة الجمعة) .

(٤) انظر وصف القصر في « أرض الأنبياء » – ١٠٦ – .

مدينة تيماء من الناحية الأثرية

ألقى الأستاذ عادل العياش من موظفي قسم الآثار في وزارة المعارف محاضرة قيمة عن « مدينة تيماء ، باعتبارها مركزاً حضارياً قديماً ، وعلاقتها بتاريخ الجزيرة، وأهميتها بالنسبة لمستقبل الأبحاث الأثرية في الجزيرة » ، وهـا هو خلاصتها :

من المعروف أن الجزيرة العربية لم تكن بمعزل عن الحضارات القديمة التي سادت بلاد ما بين النهرين ومصر والهند والشرق الأقصى .

وقـد ساعد وجود ثلاثة سواحل طويلة للجزيرة وقرب السواحل من بقاع خصبة — على تسهيل وصول السفن التجارية اليها .

وقد تهيأ للجزيرة العربية الاتصال عـبر المياه المغلقة في البحر الأحمر والخليج بمراكز الثروة والحضارة في مصر وإيران ، وبلاد مـا بين النهرين .

ورغم أن معرفتنا عن الملاحة العربية قبل العصر الهليني قليلة ، إلا أن شعوباً أخـرى تركت آثاراً عن رحلاتها في المياه العربية قبل ذلك بزمن طويل ، فالنقوش السومرية والأكادية (الألف الثالث ق. م.) تتحدث عن صلات بحرية بين أرض الجزيرة وبلاد « دلمون » و « مـاجان » ومُلخّا — والمعتقد أن دلمون هي البحرين ، وماجان هي عمان — .

كما ورد في نقش يعود إلى عهد (شـُلـْجي) من ملوك أُسرة أور الثالثة

(٢٠٥٠ - ق. م.) وعثر عليه في حفريات « لاجاش Lagash » وهي من أقدم المدن السومرية .

ورد في هذا النقش أن السفن كانت تبنى في « ماجان Magan » كما أن الساحل الغربي للجزيرة العربية كان على علاقة بحرية مع مصر منذ عهد ساحورع (٢٤٧٠ - ق. م.) .

وفي عهد الأسرة السادسة (٢٣٤١ ق. م. - ٢١٨٠ ق. م.) .

وكان الساحل الغربي للجزيرة على علاقة بحرية بموطن الفينيقيين ، وأقدم دليل على وجودهم نجده في سفر الملوك الأول :

(وعمل الملك سليمان سفناً في « عصيون جابر » التي بجانب « أيلة » على شاطىء بحر « سوف » في أرض « أدوم » ، فأرسل (حيرام) في السفن عبيده النواتي العارفين بالبحر ، مع عبيد سليمان فأتوا إلى « أوفير » وأخذوا من هناك ذهباً أربع مائة وزنة .. وأتوا بها إلى الملك سليمان) .

و (عصيون جابر) هي « تل الخليفة » غربي العقبة — وقد أجريت في هذا الموضع حفريات أثرية من قبل المدرسة الأمريكية للآثار في سنة ١٩٤٠ . وعثر على مسامير كثيرة من النحاس والحديد المخلوط ، وقطع من حبال كبيرة وكتل من القار لعمل السفن .

وبالاضافة إلى هذه الاتصالات البحرية فقد كانت الجزيرة العربية على اتصال ببلدان الشرق الأدنى عن طريق بري .

ويعتقد بعض العلماء وعلى رأسهم (سبرنجر) أن هذا الاتصال يعود إلى عصور ما قبل التاريخ مؤكداً أن وجود البخور في الجزيرة العربية كان محور التجارة العالمية القديمة وفي رأي (سبرنجر) ان عرب الجزيرة منتجي البخور هم الذين وضعوا أساس التجارة العالمية .

واليوم لا يُستَغرَبُ مثل هذا الرأي بعد النتائج التي توصلت إليها

الابحاث والحفريات التي تمت في جنوب الأردن ، والتي اشارت إلى وجود مثل هذا الاتصال في الالف السادس قبل الميـــلاد ، وهي الأبحاث التي قام بها (جورج هورسفيلد) في « عين الشلالة » في « وادي رم » . في منطقـــة حِسْمى ، وكذلك في « كلوة » في منطقة « البيق » .

ان أقدم مصدر تاريخي لدينا عن هذا الطريق البري هو ما ورد في سفر الملوك (الاصحاح العاشر) عن زيارة ملكة سبأ لسليمان ، التي تمت عن طريق البر ، في الوقت الذي كان فيه السبئيون يستعملون الطريق البري من جنوب الجزيرة العربية إلى سورية .

والعوامل التي ساعدت على نشاط هذا الخط :

١ ــ قلة الموانيء الممتازة على البحر الأحمر بسبب طبيعته القاسية وشعابه المرجانية .

٢ ــ الشعب المرجانية فيه والتي تعين على القرصنة .

٣ ــ الرياح الشمالية التي كانت تهب جنوباً على هـــذا الجانب من البحر الأحمر طوال العام مما كان يجعل سير السفن فيه من الجنوب إلى الشمال متعذراً .

ولقد لعب هذا الخط البري دوراً هاماً في تاريخ الجزيرة العربية الحضاري والسياسي وخاصة في الألف الأول قبل الميلاد .

وكان الخط يمتد من اليمن ، ويسير شمالاً موازياً لساحل البحر الأحمر حتى يصل المدينـــة المنورة ، ثم يأخذ اتجاهاً يساير اتجاه الخط الحديدي الحجازي الحالي ، ماراً بمدينة « العـــلا » و « مدائن صالح » ومنها إلى « البتراء » في الجنوب الغربي للاردن ومن «البتراء» كان يتفرع منه خط يسير غرباً إلى «غزة» و « عسقلان » على البحر المتوسط ، بينـما يخرج خط من « البترَاء » متجهاً عبر سيناء إلى مصر كما كان خط ثالث يخرج من « البترَاء » متجهاً شمالاً إلى دمشق وآسية الصغرى .

وهنالك فرع هام لهذا الطريق البري الواقع في الجزء العربي من الجزيرة العربية ، ويبدأ هذا الفرع من « مدائن صالح » ويتجه إلى « تيماء » ومنها عبر الصحراء إلى بلاد ما بين النهرين ، أو إلى « الجوف » ومنها إلى « وادي السرحان » ثم إلى سورية .

وعلى هذا الخط التجاري البري نشأت ممالك ومدن ، صار لها شأن كبير في تاريخ الجزيرة ، ومنها دولة سبأ التي بلغت أوج قوتها في الفترة ما بين القرن العاشر والخامس قبل الميلاد ، ودولة (معين) في نجران (القرن الرابع قبل الميلاد – القرن الأول الميلادي) ودولة قتبان (القرن السابع قبل الميلاد – القرن الأول الميلادي) بالاضافة إلى مدن أخرى مثل« ديدان » و « تيماء » .

وعلى هذا الطريق البَري كانت تنقل حاصلات جنوب الجزيرة من البخور بالاضافة إلى البضائع المستوردة من شرق افريقية والهند ، وربما الصين .

ويمكننا تقدير أهمية هذا الطريق إذا عرفنا شيئاً عن مدى إنتشار استعمال السِّلع التي كانت تُنقل على هذا الطريق ، فالبخور والتوابل كانت تستخدم للتطيب والتطبّب ، كما ان البخور كان يُحرق في الطقوس الدينيـــة ، وفي الجنائز وفي حفلات الزواج .

وكانت الجزيرة العربية تزوِّد مراكز الحضارات القديمة في الشرق الأدنى بما تحتاج إليه من البخور ، فقد كان لدى (رمسيس الثالث) في القرن ١٢ ق م مباني خاصة لتخزين البخور اللازم لعبادة الإله (آمون) . كما أن إيران كانت في عهد (داريوس) تتلقى أكثر من ثلاثين طناً من البخور . وكان البخور يحرق دوماً على مذبح الإله (بل Bel) في « بابل » .

على هذا الطريق التجاري البري قامت « تيماء » وعلى ازدهاره توقف ازدهارها .

تيماء في المصادر التاريخية :

لقد ورد ذكر « تيماء » في بعض المصادر والوثائق التاريخية .

● — ورد ذكر تيماء في سفر ايوب (٦ : ١٩ ف) في معرض الكلام عن القوافل التجارية لتيماء وعلاقتهـــا مع قوافل السبئيين التجارية ، الذين كانوا سادة التجارة البرية في الجزيرة .

● — « تيماء » في الوثائق التاريخية التي كشفت عنها الحفريات في بلاد ما بين النهرين .

● — وأقدم ذكر لتيماء في الوثائق المكتوبة يعود إلى عهد (تغلات بلاسر) سنة ٧٣٢ ق . م) وقد ورد ذكرهـــا في سياق الحديث عن الضرائب التي كانت تدفعها « تيماء » له ، وقد عثر على هذا النقش في حجر مكتوب وجد في (CALAH) ويذكر أن (تغلات بلاسر) أخضع الملكـــة Zabibe ملكة الجزيرة العربية وأخذ منها ضريبة من الجمال ، كما أخضع أهالي « تيماء » و « سبأ » و « بدنة » .

الوثائق التي تعود الى عهد الامبراطورية البابلية الأخيرة:

وتغطى الفترة الواقعة من أول حكم الملك (آسر حدون) حتى سقوط « بابل » على يد (قورش) .

وقد ورد ذكر « تيماء » في النصوص التاريخية التي تصف عهـــد الملك (نابونيدس) واعتلائه السلطة وفتوحاته وأهمها نقش وجد في «Esk Harran» أقيم بمناسبة وفاة والدته [١] .

---

(1) Publ. A. Hogan . 1907
Hu (A XIX) 1946 pg. 405 - 489.)

وكذلك نقش آخر عن أعمـال (نابونيدس) منذ توليه السلطة حتى سقوط بابـل ، وهو النقش المعروف بـ The Nabonidus Chronicle (1) وفيها يذكر أن (نابونيدس) قد أقام في « تيماء » في العام السابع لتوليـه السلطة بعد أن ترك ولي عهده ورجال دولته في بابل .

إلا أن أكمل وصف لما تعرضت له « تيماء » على يد (نابونيدس) ورد في نقش على لوح محفوظ الآن في المتحف البريطاني برقم ٣٨٢٩٩ ونشره :

(Babyloniun Historical 2) Sidney Smith texts)

وفيه نعرف عن (نابونيدس) ما يلي :

عطّل حكم القانون والنظام .

أصبح شعبه في عوز وحاجة .

قتل النبلاء في الحرب .

عطّل التجارة .

اغضب الآلهة ، واوقف الاحتفال بعيد رأس السنة .

وبعد ان عمل ذلك في بابل ، ولى ابنه الأكبر محله .

وخرج في (سنة ٥٥٢ ق. م) في حملة طويلة وصل فيها إلى «تيماء» حيث قتل اميرها وقتل ماشيتها وماشية سكان المناطق المجاورة ، واقام بجيشه في « تيماء » إلا أنه بعد أن احتل المدينة قام بتجميلها ، وبنى لنفسه قصراً على غرار قصره في بابل ، وبنى الأسوار لتحصين المدينة ، وهو الذي كتب على نقشه : (أنا الذي وقفت في الجمع لأكيل المديح لنفسي ، قائلاً : أنا الحكيم الذي اطلع على المكنون ، وعلى كل شيء) .

تيماء في المصادر الاسلامية:

يذكر أبو الفرج الاصفهاني [٢] تيماء في معرض الحديث عن هرب امرىء

---

(1) Publ. T. G. Pinches. (T S B A, VII.)

(٢) « الأغاني » ٧٢/٨ و ٨٢ و ٩٨/١٩ طبعة بولاق .

القيس من ديرة بني فزارة واحتمائه بالسموأل الذي كان يقيم في حصن له في واحة تيماء .

أما الواقدي في كتاب المغازي [٢] فيذكر ان اليهود أقاموا في تيماء ودفعوا الجزية للرسول ﷺ بعد أن سمح لهم الرسول ﷺ بالاقامة بعد طرد يهود خيبر،كما يذكر أن عمربن الخطاب(ض)الذي أخرج يهود خيبر وفدك ، سمح ليهود تيماء بالبقاء فيها . أما ابن القلانسي فيذكر تيماء في معرض حديثه عن الزلزال الذي أصابها سنة ١١٥٧ م.

أهمية تيماء بالنسبة لمستقبل الأبحاث الأثرية في الجزيرة :

ما تقدم هو جل مـا نعرفه الآن عن تاريخ تيماء ، أما بقية القصة فهي مدفونة في تيماء نفسها ، وشواهدها موجودة في بطن التلال الأثرية ، القائمة فيها ، ولئن كان اكتشاف مخطوطات البحر الميت في الاردن سنة ١٩٤٨ هو أهم حدث أثري في العشرين سنة الماضية ، فسيكون لتلال « تيماء » إذا مـا قدر لها أن تبدي أسرارها لمعاول علماء الآثار ، سيكون لتيماء حظ أوفر في مجال البحث الأثري .

وسيسهم كشف تيماء في زيادة معرفتنا عن كثير من أحوال التجارة التي كانت قائمة بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها والحضارات التي نشأت في بلاد ما بين النهرين .

كما أن كشف تيماء سيمدنا – إذا مـا علمنا انها تقع على حدود اثنتين من الممالك العربية، هما مملكة الأنباط ومملكة معين – بمعلومات وافية عن هاتين المملكتين .

ان اتخاذ (نابونيدس) لتيماء مركزاً سياسياً يجعلنا نأمل في العثور على

(٢) « المغازي » ٢٩٢ طبعة ولهوزن .

أضابير من السجلات المكتوبة مما سيكون له أثر كبير في إعادة كتابة تاريخ الشرق الأدنى القديم ، في القرن السادس قبل الميلاد .

هذه بالإضافة إلىأن « تيماء » هي النقطة التي تم فيها آخر مرحلة لاتصال التقاليد السياسية والحضارية لدولة بابل بالتقاليد الآرامية المحلية التي ظهرت أخيراً في الجزيرة العربية . (كما يفهم من نقش مكتوب في حجر وجده هوبر سنة (١٨٨٠ م) وموجود الآن في اللوفر ، ويعود الى القرن الخامس(ق.م) ومما تقدم فإن تيماء واحة غارقة في التاريخ وليست مالكة لزمـام الصحراء فحسب .

وصف تيماء والآثار الباقية فيها :

تقع واحة تيماء في قاع شاسع يحاذي غرب نجد ، وتكوّن بقعة خضراء متوفرة الماء في وسط صحراء مهلكة ، ويحيط بها أرض خصبة تنتج الفواكه والغلال . والواحة عبارة عن قاع يخترقه سبع شعاب ، هي :

١ – الحسينية . ٢ – خويلد . ٣ – حيداجور .
٤ – السيفية : ٥ – الطليحات . ٦ – الروشام .
٧ – زلومّ .

وتنقسم واحة تيماء إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

١ – المنطقة الوسطى وتسمى (الهَدّاج) .
٢ – الشرق .
٣ – الغرب ، الجزء الذي يضم التلال الأثرية الـتي تبلغ مساحتها ٦٤ هكتاراً يحيط بها مجموعة من الأسوار الحجرية الضخمة يبلغ طولهـا خمسة أميال يُرجح انها تعود إلى أواخر القرن السادس قبل الميلاد وبداية القرن الخامس قبل الميلاد .انتهى كلام الاستاذ عادل عياش .

صفحات من تاريخ تيماء

[لعل من أوفى من كتب عن تيماء – من الناحية التاريخية القديمة – المستشرق الويس موزل Alois Musil في كتابه « شمال نجد Northern Negd » وقد رأيت إيراد كل ما كتب ، لأن الكتاب لم يعرَّب بَعْدُ ، ولأنه خلاصة ما جاء في كتب المتقدمين مما سبق إيراد كثير منه بنصّه ، ويلاحظ أنه قد وقع في الكلام أخطاء كثيرة يمكن تصحيحها من مقابلتها بالنصوص الأصلية التي أشار إليها]

إن واحة تيماء مذكورة في التوراة ، باعتبار سكانها من سلالة ابراهيم من زوجته قطورة لا من الاسماعيليين ، كما ذكرت في كتابي « شمال الحجاز » . وكان ما ذكرته هناك قائماً على أساس الترجمة اليونانية للنص العبري القديم للتوراة ، وتلك الترجمة أفضل من النص الموجود في كتاب التوراة الحالي . حيث أن سفر التكوين العبري ٢٥ : ٣ يذكر أن سبا ودِدان من سلالةابراهيم وقطورة فقط ، ونص ترجمة التوراة من هذه الفقرة يشير في حالة النصب إلى : « شبان Saban » و تيمان Taiman » و « دِدان Dedan » . في حين أن إسم سبان في حالة الرّفع يُقرَأُ سَبا Saba ، يبدو ممكِناً أن إسم تيمان Taiman في حالة الرّفع هو تيما Taima أو تِمَا Téma وأن النص العبري قد استُخدم من قِبَلِ مترجمٍ أشار إلى سكان واحة تيما بأنهم من سلالة ابراهيم من قطورة وأقرباء لِسَبا ودِدان الذين كانوا متاخمين بمنازلهم وبعِلاقتهم لأولئك الذين كان يرد ذكرهم كثيراً في تقارير أخرى .

إن سفر التكوين العبري ٢٥:١٥ يُصَنِّف تيما Téma مع حَدَد Hadad[١] ويطور Yetûr ، المُنحدرين من اسماعيل ؛ إن نص ترجمة التوراة لهذه الفقرة، من ناحية ثانية، يُشير بشكل أصح إلى قبيلة تيمان Taiman (بدلاً عن تيما Téma) على أنها من أصل واحد مع حَدَد Hadad ويطور Yetûr ؛ طالما كما نعلم من فقرات أخرى ، أن قبيلة تَيمن Taiman أو تيمان Témân ، التي كانت تنتمي إلى أدوميت Edomites (سفر التكوين ٣٦:١١) كانت تُخيم في ضواحي منطقة الإسماعليين (أنظر شمال الحجاز ، صفحات : ٢٥٠ و ٢٩٦)، على بعد خمسمئة كيل تقريبا من واحة تيما Têma(Tejma).

يصف (إشعيا) ISaiah ٢١ : ١٣ — ١٥ الدمار الذي كان يتهدد قوافل دِدان Dedan (دَيْدَن حسب ترجمة التوراة) الذين هربوا أنفسهم في المساء في غابة كثيفة خشيَة أن يُشاهدوا أو أن تُشاهد نارهم. وكان سكان أرض تيما Têma يُحذرون من تزويد العطاش بالماء أو تقديم الخبز إلى الفارين.

لا يوجد أدنى شك أن سكان واحة تيما Têma كان لهم مستعمرات على طول طريق النقل من دِدان Dedan (العلا) إلى الشمال، ويبدو واضحا أنه كان هنـــاك طريق إلى تيما مُتَفـرّعة من هذه الطريق عِند مدقع محطة المُعَظم الحديثة في الأزمنة الغابرة ؛ وهكذا يمكن أن يكون سكان تيما قد قاموا بإمداد دِدان إما في هذه المحطة أو في ضواحيها. كانت أشجار الأقاسيا Acacia والطرفاء Tamarisk (سيال وطلح Sejàl & Talh) وافرة كثيراً في هذه الأنحاء وكانت تُشكل غِياضاً كثيفة بحيث كان يجد الهاربون بها ملجأ.

لقد تَنبَأ أرميا النبي (٢٥ : ٢٣ — ٢٤) بالدمار الذي كان يتهدّد دِدان Dedan وتيما Têma ، وبوز Bûz ، كما كان يتهدد جميع محلوقي الرؤوس، جميع ملوك الجزيرة العربية، وجميع ملوك العرب الذين يعيشون في الصحراء .

---

(١) حدد هو اسم جبل تيماء المعروف الآن باسم جبل غنيم .

يُتَحَدَّث عن تيا Têma هنا علاوة عن دِدان Dedan وعن سُكّان واحة بوز Buz في مُنخفض السِّرحان . كان يطلق على زُعماء مثل هذه المستوطنات إسم ملوك أرميا للجزيرة العربيّة ؛ (ملوك العرب القاطنين في الصحراء) كانوا زعماء من البدو . (أنظر شمال الحِجاز ، صفحات ٢٧٤ - ٢٧٥) .

يَصِف (سفر أيوب Job ٦ : ١٩) قوافل تيا Têma وحملات شِبا Seba' للتفتيش عن مياه الأمطار المُتَبَقِّيَة في الوديان ومجاري الأنهر بدون جدوى . لقد تَبَخَّرت الرطوبة بأكملها . - وهنا أيضاً كان يأتي على ذكر سكان واحة تيا Têma فيا يتعلق مع السبائيين Sabaeans سادة طرق القوافل الكبيرة في الجزيرة العَربية .

يروي تاريخ نابونيدوس Nabonidus (سميث ، نص تاريخ بابيلونيا [١٩٢٤] ، ب ل .Pl ١٢) ، المقدمة ، (مقتطفات ، مقتبسات كونيفورم Cuneiform Inscription [١٨٨٢] ،صفحات ١٥٦ ف. ١٦٠ ف. سميث ، أوب op ، سيث cit ، ص١١١ شرايدر في Keilinschriftliche Bibliothêk [١٨٨٩ - ١٩٠٠] ، المُجَلَّد الثالث،الجزء الثاني ، صفحات ١٣٠ ، ١٣٢، أن الملك بابونيدوس Nabonidus بَقِيَ في تيا Tema' من ٥٥٢ حتى ٥٤٥ ميلادية . وتروي المقتطفات الجديدة من هذا التاريخ (سميث ، أوب op ، سيث cit ، ب ل .pl ١١) ، المقدّمة ، (سميث ، op سيث cit ، صفحة ١١١) ، عن حَملةٍ ضد أدُمّو Adummu وتيا Têma' في سنة ٥٥٢ ميلادية. إن لوحة المتحف البريطاني ٣٨،٢٩٩ (سميث ، اوب op ، سيت cit ، .pl ٧) ، المقدمة تُعطي وصفاً شاعرياً عن رحلة نابونيدوس Nabonidus البعيدة على طريق لم تكن مُستعملة في الأزمنة القديمة باتجاه تيا في أمُرّو Amurru استولى نابونيدوس Nabonidus على المدينة ، وقتل ملكها مع الكثير من رعاياه ، زَيَّن المدينة ، وأنشأ لنفسه قصراً مماثلاً لقصر بابل .

حسب نَصٍّ نشره سميث أن مدينة تـيما تقع في أمُرّو Amurru ، وقد سار نابونيدوس Nabonidus إليها عن طريق أدُمّو Adummu . إن أمُرّو Amurru تدل على المقاطعات إلى الغرب من بابل ، وعلى الأخص سوريا ؛ يمكن تكون أدمّو Adummu هذه هي إدوم Edom التي جاء ذكرها في التوراة .وهل بإمكاننا أن نفترض أن تكون أمُرّو Amurru قد امتدت حتى واحة تيا التي نوّهنا عنها ؟ يجب علينا أن نتوقّع أن يكون التاريخ قد حدد موقع تيا Tejma التي ذكرنا في عروبا Aruba (الجزيرة العربية) وليس في أمُرُّو Amurru كون الإسم الثاني يُستخدم على مناطق مأهولة ومفلوحة في الغرب . كان يتوجّب على الملك أن يسير مسافة ٤٥٠ كيلاً من أدُمُّو Adummu (إدوم Edom) إلى تـيما Tejma التي ذكرنا عبر أراض جرداء . لقد دام السير عبر الصحراء مدة لا تقلُّ عن عشرين يوماً ، كما أن الوصف الشاعري لا يأتي على ذكر الصحراء ، أو عـن ملاقاة أية صعوبات ، مع أن بعض التقارير الأخرى كانت قد بالغتْ في وصف الأهوال لمثل هذه الرحلات . إن النقص في عدم إيراد شيء عن الصحراء ، وعن علاقة تـيما مع أَدُمَّو Adummu ، أو إدُم Edom ، وموقعهـا في أَمُرُّو Ammurru ، أو سوريا ، كان يعني إن إقامة نابونيدس Nabonidus في تيا Tema كانت في منطقة إدُم Edom المأهولة والمفلوُحة . هناك إشارة في التوراة إلى قبيلة تيمان Têmàn ، التي كان إسم مدينتهـا الرئيسية يبدو مختلطاً مع واحة تيا Tejma تلك التي نوّهنا عنها ، كما ورد في بعض الفقرات . أن إقامة الملك نابونيدوس Nabonidus في تيا Tema (التوّانة at -Twâne) في شمال إدُم Edom ، كانت ستجعله في وضعٍ أفضل بكثير ويمكّنه من الإشراف على جميع طرق التجارة التي تتجمَّعُ في مصر وسورية من الجنوب الغربي وشرق الجزيرة العربية من وجوده في واحة تيا .

تمتد صحراء النـّفود الرملية التي لا يمكن أن يُستَخلـَص منها أي اتصالٍ مباشر فيما بين واحة تيا وبابل . كان على جميع قوافل التجارة المُتـَّجهة من

بابل إلى تيما أن تقوم بدورة إمـا إلى الشمال أو الجنوب من صحراء النفود .
وكان يجب على القوافل الذاهبة إلى مصر أو سوريا من الخليج الفارسي أن
تمر عبر واحة تيما فقط ، ولهذا كانت تيما محطة ذات أهمية . فاذا اعتبرنا أن
على المسافر المُتَّجِهِ من تيما إلى بابل أن يقطع مسافة ١٢٠٠ كيلاً تقريباً عبر
صحراء غير مضيافة وفي أن المسافة فيما بين تيما وحدود إدُم Edom المأهولة
والمفلوحة (أو سوريا) هي ٤٥٠ كيلاً تقريباً ، فإننا نُدرك الصعوبات
التي لا يمكن التَّغلُّب عليها والتي سوف تُجابه في حُكم الامبراطورية البابليّة
من مثل هذا المكان الغير المناسب . إن موقع تيما الطبيعي بعيـدٌ جداً عن
طُرُق التجارة الرئيسيّة ، لا يؤهلهـا من ممارسة أي نفوذٍ على الواحات
والقبائل في شمال غربي الجزيرة العربية، ومن المستبعد كثيراً أنها كانت مركزاً
للادارة الأشورية أو البابليّة . وأهمية تيما Tema سوف تكون مختلفة تماماً
لو أنها كانت واقعة في شمال إدُم Edom .

ونشر دوغرتي Dougherti ، مجموعة برقم ١٣٤ ، من سِجلاّت إرك
Erech (١٩٢٠) ، مؤرَّخة في سنة نابونيدوس Nabonidus العاشرة (٥٤٦
ميلادية) التي تروي أن المؤونة كانت تُنقل إلى الملك من أرض تيما . وأمـا
المجموعة رقم ٢٩٤ ، التي نشرها دوغرتي Dougherti ، من محفوظات إرك
Erech (١٩٢٣) ، فتَروي كيف أنه كان يُدفع خمسون وزناً Shekels من
الفضة مع كمية من الدّقيق لصاحب الحمار الذي كان يُرسل في رحلة إلى أرض
تيما Tema في السنة الخامسة من عهد نابونيدوس Nabonidus (٥٥١ ميلادية).
كانت هذه السجلاّت مع غيرها تؤكد وجود اتصالات مُتَكَرِرة بين إيرح
Ereh (المقَيّر al-Mkajjer) في ناحية بابل السفلى وأرض تيما . ولولا هذه
النصوص التي نشرها سميث (أنظر ما قبل ، صفحة ٢٢٥) لكان ينبغي لنا
أن نبحث عن أرض تيما Tema في مكانٍ ما على شاطىء الخليج الفارسي من
ناحية الجزيرة العربية ، وبالتالي ليس إلى الشمال من إدُم Edom أو في واحة
تيما Tema التي نَوَّهنا عنها . وكان يلزم الحمار الذي أُرسل من إيرح Ereh إلى

تيما Tejma السّير مسافة ١٢٠٠ كيل تقريباً من خلال أراضٍ جرداء . ومن الصعب جداً ، مع ما يحمله من الدقيق بالإضافة إلى صاحبه ، أن يكون قد قطع أكثر من ثلاثين كيلاً في اليوم من مثل هذه الرحلة الطويلة الشّاقة ، هذا بالإضافة إلى ما يجب تزويده به من الماء والعَلَف . كما أن الراكب ليس بمقدوره العيش مدة أربعين ، ومع الاستراحات الضرورية ، ٥٠ يوماً على الدقيق فقط دون أن يحتاج إلى الماء كل يوم . وإذا افترضنا بأن الرجل مع حماره سارا من إيرح Ereh إلى واحة تيما التي أوردنا ذكرها ، فيجب علينا أن نفترض أيضاً أنهما قد اتّبعا طريقاً مزوّداً بالمحطات حيث يكون بالإمكان التّزود بالماء والعلف ، والمؤَن الأخرى كل مساء . وطالما أنه لا يوجد أي سِجِلٍّ بابليّ أو أشوري يثبت مثل هذا الافتراض فإنه من الأفضل أن يظل وجود تيما Tema في واحة تيماء Tejma التي أوردنا ذكرها موضع شَكٍّ كبير .

أقام سكان تيما اتصالات مع المدينتين الأشورية والمصرية معاً عن طريق الاشتراك الفعلي في التجارة كما بدا من أحد السجلات Corpus Inscriptionum Semiticarum الجزء الثاني ، المجلد الأول ، العدد ١١٣) التي ذكرت ، أن إبن بِطوسير Petosir سَلمْشِزِب Salmsezeb ، وهو كاهن ، قد شَيّد مَوْقع منذور للرب صَلم الهَجَم Salm of Hagam ، كما قام سَلمْشِزِب Salmsezeb بتثبيت وظيفة الكاهن على هذا الموقع المقدس في هيكل صَلم الهجم Salm of Hagam لنفسه ولأبنائه ، كما نال موافقة الرب وملك تيما Têma ، وأيضاً الحصة المستحقة للهيكل من دخل أراضي المشاع . وكانت آلهة تيما هي : صَلم المَحرم Salm of Mahram ، سَنجَلا Sangala ، وأسيرا Asira . وكان اسم بلدة تيما ، يقرأ بمثل ما هو في التوراة .

يصف أبو الفرج في (الأغاني ٨/٨٢ و ١٩/٩٨) هرب امرىء القيس مع دليله من أرض بني فزارة الى الزعيم السموأل الذى كان يحل أحد الحصون

في واحة تيماء . وبينما كان في طريقه وقع نظره على بقرة وحشية قد جرحت برمية سهم فأمسك بها ، وظهر على الفور بعض الصيادين من بني ثُعل وكان ثُعَل جيرانا للسموأل [1] لذلك فأنهم واكبوا الشاعر الى تيما حيث استقبله السموأل بالأكرام . فترك امرؤ القيس مائة درع مزخرفة عند الزعيم وذهب إلى سورية . لذلك فقد تحرك الحارث ابن ظالم ، أو كما ذكر آخرون : الحارث ابن أبي شمر الغساني ، على رأس فرقة قوية إلى واحة تيما وطلب تسليم الدروع . وقد هدد بقتل ابن السموأل الشاب ، الذي كان قد اعتقله بينما كان يقوم بالصيد فيما لو رفض تلبية طلبه . ولما لم يقم السموأل بتسليم عدة الحرب هذه قتل الحارث الغلام . وحسب ما ورد في بعض المراجع : كانت والدة السموأل تنحدر من قبيلة الغسانيين ، وكان اسم والده كاهن بن هارون بن عمران .

إن الأبلق ، وهي القلعة التي كان يقطنها ، كانت في الماضي تحت سيطرة عاديا ، أحد أجداده ، التي كان قد أمر بحفر بئر جوفي على مقربة منها . وكان العرب متعودين زيارة هذه القلعة المضيافة لشراء ما يلزمهم .

وحصن الأبلق ، كانت على الأرجح حظيرة مربَعة ، مُحاطة بجدارٍ عالٍ أقيمت المساكن الصغيرة تجاهه ، وفي الوسط ساحة مكشوفة وكان الدخول إلى هذه القلعة عن طريق مدخل واحد أُقيم في الحائط كما كانت الساحة تستعمل سوقاً .

لقد نظم الشاعر الأعشى شعراً هجا به أحد الأعراب من قبيلة كلب . فهاجم هذا الأعرابي المغتاظ المكان الذي كان يقيم الأعشى به في ذلك الوقت وأخذه أسيراً ، وبما أنه كان يجهل كون الأسير المعتقل هو الشاعر فإنه أخذه الى واحة تيما ، التي كان شريح بن السموأل بن عاديا الغساني سيداً

(١) : هذا خطأ فبنو ثعل بقرب الجبلين بلادهم وهم من طي .

لها في ذلك الوقت . فعرف شُريح الشاعر وساعده على الفكاك من الأسر . وفي وصف آخر للحادثة نفسها لا يشير إلى كون السموأل من الغسانيين، وهو إغفال له ما يبرره كما يبدو ، طالما أن عائلة السموأل كانت تنحدر من أصل يهودي .

ويذكر الواقدي (في المغازي ص ٢٩٢) أنه عندما عَلم اليهود الذين كانت واحة تيما تخصهم بأنباء إبادة أبناء جلدتهم في خيبر ، استسلموا لمحمد وقاموا بدفع الجزية ، (أو الضريبة المباشرة) . وقد قيل : إن الخليفة عمر قد نفى اليهود من واحات خيبر وفَدَك وليس من وادي القرى وتيما حيث أن وادي القرى كان يتبع سورية بينما كانت منطقة الحجاز تبدأ إلى الجنوب من هذا الموضع .

إن التفسير الذي قيل عن امتناع عمر عن ابعاد اليهود من تيماء هو كلام ملفق ظهر في وقت متأخر وكان يتناقض مع حديث آخر ، الذي نصّ على أن محمداً كان قد حدد واحة تبوك كعلامة للحدود بين الحجاز وسوريا ، وفي الحقيقة فمنطقة الحجاز كانت تمتد في ذلك الوقت – ولم تزل - حتى جبال الشراة As - Serà ولما تغيرت الإدارة السياسية انتقلت الحدود السياسية لسوريا والحجاز بطريقة أصبح بها وادي القرى مندمجاً سياسياً مع سوريا بشكل مألوف .

يسجل البلاذري في «الفتوح» أن الخليفة عمر نفى السكان اليهود من واحة فدك وتيما وخيبر ويذكر العباس ابن عامر Al - Abbas ibn ´Amer (إبيد Ibid صفحة ٣٥) أن الخليفة معاوية قد ابتاع أراضي أحد اليهود في وادي القرى وحسب هذا فإنه من المستبعد أن يكون اليهود قد أبعدوا من وادي القرى، إنما – من الممكن – من ناحية ثانية أن يكون معاوية قد اشترى هذه الأراضي قبل أن يصبح خليفة ، أو ، بمعنى آخر ، قبل أن يكون اليهود قد طردوا

من قِبَلِ عمر، وعلى كل حال فإن حوض تبوك الضخم كان قد شيده أحد المهندسين المعماريين اليهود [١] .

اعتنق الشاعر شعبة بن غريض Sa'ba ، إبن أخ السموأل بن عاديا الاسلام (كما ذكر أبو الفرج) وكان متشيعاً لِعَلي . وذات مرة رآه الخليفة معاوية وهو يؤدي صلاته داخل الحرم في مكة ، فأرسل في طلبه وعرض عليه رغبته في شراء أراضيه في واحة تيما ، ووافق الشاعر على ذلك ، إذ أن عائلته كانت في أشد درجات الفاقة وطلب مبلغ ستين ألف دينار . دفعها له معاوية وأصبح سيداً لعقاره في تيما .

حسب هذا السجل،كان اليهود لا يزالون يملكون العقارات في تيما أثناء ولاية معاوية ، وبالتالي : لم يكن عمر هو الذي قد نفاهم [٢] .

أرسل الخليفة معاوية في ٢٩ أيار سنة ٦٥٩ ، ألفـــا وسبعمائة مقاتل بقيادة زعيم من فزارة الى تيما لجمع الضريبة (الصدقة ، وهي الزكاة عند الإسلام) من البدو المقيمين في المنطقة المجاورة (الطبري ، التاريخ ٣٤٤٦/١. اليعقوبي ، التاريخ ٢٣٠/٢) وعندما عَلم عليٌ بذلك أرسل هو أيضاً أحد زعماء قبيلة فزارة معه عدد من المقاتلين الى تيما فنشبت المعركة أمام الواحة ، فاندحر على أثرها أتباع معاوية ، فهرب بعضهم الى سورية ، ولجأ الباقون إلى قلعة هذه الواحة واستولى البدو على الأنعام التي كانت قد جمعت كما قاموا بمساعدة أتباع علي في أعمال الحصار الحربية . وبعد ثلاثة أيام جمعوا الوقود خارج الأسوار وأشعلوه فأصبحت حياة الحامية مهددة ، ولكن القـــادة الاثنين توصلا إلى اتفاق ، فأطفىء الحريق ، وفي الليل هرب جنود معاوية الى سوريا .

أثناء عهـد الشاعر جميل بن عبد الله ، المعاصر للخليفة الوليد بن عبد الملك ، كانت ضواحي تيما تخص بني عذرة (أبو الفرج ٩٥/٧) .

---

(١) يشير إلى أن ابن غريض اليهودي طوى بئر تبوك بأمر الخليفة عمر .

(٢) كيف هذا والرجل يصلي في الحرم ؟!

حسب أقوال ابن خرداذبة (المسالك ص ١٢٨) كانت تيما مندمجة ضمن منطقة مكة الادارية . وفي تيماالتي كانت تقع فيما بين الحجاز وسوريا ، كانت تنتصب قلعة الأبلق الفرد حيث كان يقطن السموأل بن عاديا ، ملك اليهود ، في وقت من الأوقات .

ويعدد ابن الفقيه في (البلدان ص ٢٦) القرى التالية الواقعة في اتجاه سوريا : خيبر ، وادي القرى ، تيما ، دومة الجندل ، وفدك ، وكانت هذه الأخيرة أقربها الى المدينة .

ويصف الاصطخري في (المسالك ص ٢٢) واحة تيما بأنها قلعة كانت تزدحم بالسكان أكثر من تبوك ، التي كانت تقع الى الشمال منها ، على بُعد ثلاث من الحدود السورية ، وقد قيل : إن الواحة كانت تحتوي على بساتين واسعة من أشجار النخيل وكانت تزار من قِبَلِ البدو باعتبارها سوقاً . وفي الحقيقة أن تيما هي إلى الجنوب الشرقي من تبوك .

ويذكر الهمداني في (« صفة جزيرة العرب» ١٣١/١) أنه بعد مسيرة ثلاث من واحة الحجر يصل المرء الى تيما ، مدينة السموأل القديمة ، الواقعة في حوض رملي . وكان بنو صخر، وبنو عمرو، بالإضافة الى قبيلة بحتر ينحدرون من قبيلة طي ويملكون المساكن في واحة تيما ، يخيمونُ بينها وبين الحجر . وإلى جانب هؤلاء كانت المنطقة مأهولة أيضاً من بني زُريق وبني مرداس الذين كانوا مع بني جوين والغثاة من موالي قبيلة طيء .

ويذكر المقدسي في «أحسن التقاسيم » ص ١٠١ و ٢٥٢ أن تيما هي المدينة الوحيدة في صحراء شمال الجزيرة العربية . وهو يمدحها لكونها (مدينة قديمة واسعة البقعة ، كثيرة النخيل ، هائلة البساتـــين ، غزيرة الماء ، مع خفة عجيبة ، وعين مليحة تخرج في شباك حديد ، الى بركة، ثم تتفرق في البساتين ولهم آبار حلوة ، وهي في سهلة ، ولكن أكثرها خراب ، الجامع فيها والعمارات حول السوق ، وكل تمورها جيدة ، وفي أهلها شَرَهٌ ، ولا عالم

يرجع اليه ، ولا حاكم يعول عليه ، ورأيت خطيبهم بقالاً ، وحاكمهم نـَعّالاً مع تعصب عظيم ، ودروع داودية يلبسونها في الفتن .

كان هذا الدرع منسوباً إلى داود ، وهو اليهودي الذي قام بصنعه .

يكتب البكري في (المعجم ص ٢٠٨ و ٤١٩ و ٤٦٥) ، أن مدينة تيماء المحصنة تقع على شاطىء بحيرة العقيرة التي كانت تُزَوَّد من نهر فيحاء في وسط بساتين النخيل والتين والكروم الواسعة. وكان السكان ينتمون جزئياً إلى بني جُوَيْن وبني عمرو من قبيلة طي . وكانت بساتين رعبل والكِبس Al -Kibs وهما بستانان مخصبان . يستشهد البكري بمقطع يذكر أن اليهودي أبا الذيّال يرثي أبناء جلدته الذين كانوا قد نُفوا من هذه الواحة . ويعتقد البكري أن الحادث كان قد وقع في زمن النبي محمد .

لا يوجد نهر في واحة تيما بل إن المياه كانت تجري في شعيب ألجرَيدا Graidà والسنانية As - Snànijje ، وتملأ الحوض الذي كانت تـيماء واقعة بجانبه . بعد هطول أمطار غزيرة فقط . وأما الفيحاء فإنه لقبٌ يدل على مجرى شعيب الجريدا .

حدث زلزالٌ في تموز سنة ١١٥٧ ، وقد قاست تيما الكثير بسببه (إبن القلانسي ، في الذّيل ، [أمِدروز Amedros] ، صفحة ٣٤٣) .

يعرف ياقوت (المعجم ١/٩٠٧) عن واحة تيما أنها قرية صغيرة تقع على طريق الحج من سوريا ، والتي تتجة بمحاذاة الحدود فيما بين سوريا ووادي القرى . وأما قلعة الأبلق الفرد التي كانت في وقت من الأوقات ملك لليهودي السموأل بن عاديا ، فقد كانت تطل فوق هذه الواحة . ونتيجة لذلك فقد دُعِيَت تيماء اليهودية . إن طريق الحج من سوريا ، والذي تقع تيما عندها ، فهي الطريق التي تسير من دمشق بمحاذاة الحوض الشرقي لحوران من خلال منخفض السرحان الى تيما ومن ثم إلى المدينة .

يكتب أبو الفداء ، في (التقويم ص ٨٧) أن قلعة تيماء واقعة في وسط بساتين النخيل ، ويوجد فيها سكان أكثر عدداً من سكان تبوك .

وحسب قول المقريزي (الخطط)أن مستوطنة تيماء المزودة تزويداً جيداً بالمياه تقع على مسافة أربع من قلعة الحجر وأن تجارتها لا يُعتد بها .

ويذكر حاجي خليفة ، في (جهان نوما) (القسطنطينية ، ١١٤٥ هجرية ، صفحة ٥٣١) ان قلعة تيما كانت مشهورة بتمورها ، وسكانها يفوقون سكان تبوك ، وكانت تخص قبيلة طي في وقت من الأوقات،ويوجد بها قلعة ذات لون أبيض واسود تسمى الأبلق . وعلى مسافة ثلاث من هذا المكان ، وفيما ورا وادي الصوان As - Sawwan الذي تكثر فيه المياه ، كانت تقع قـلتة . انتهى كلام موزل في كتابه : « شمال نجد »

– ومما جاء في كتاب الويس موزل « شمال الحجاز » :

١ – والحوليات الآشورية تعنى بمدينة تيما (Tema) واحة تيماء التي كانت وفقاً للتوراة « سفر التكوين ٢٥ : ١٣ – الترجمة السبعينية ٢٥ : ٣ » تابعة لقبائل من بني إسماعيل ، أو لغيرها من ولد ابراهيم من زوجته قطورة ، فسكان تيماء كانوا يشتغلون بالتجارة وكانت لهم قوافل تجارية « سفر أيوب ٦: ١٩ » فكانوا لذلك مضطرين أن يرسلوا الهدايا إلى تجلات بلاصر الرابع ، الذي كان يسيطر على الطرق المؤدية إلى مواني البحر الأبيض المتوسط [١] .

٢ – في « سفر أشعيا ٢١ : ١٣/١٥ » توجد إشارة إلى القافلة التجارية من ددان [العلا] التي اضطرت إلى أن تقضي الليل في البرية ، وقد طُلب من أهل تيماء أن يسارعوا إليها بالماء والخبز ، إذ كان أفرادها عطشى جياعاً [٢] .

٣ – وأشار موزل إلى أن بطليموس في جغرافيته عدّ من المدن الواقعة في بلاد العرب السعيدة : ثيماء (Thaima) وقال : هي واحة تيماء المعروفة [٣] .

(١) ص ٨٦ (٢) ص ٩٦ (٣) ص ١٣٢

حصن الأبلق :

لهذا الحصن شهرة تاريخية عظيمة في الكتب العربية وفي الشعر العربي ، وينسب بناؤه إلى عاديا الجد الأول للسموأل ، على رأي من يرى أن أبا السموأل هو غريض بن عاديا ، ويقول أحد المؤرخين في وصفه: كان مبنياً من حجارة سود وبيض.وقيل: سمي الأبلق لأن في بنائه بياض وحمرة،وقيل: لأنه بني من حجارة مختلفة الألوان[١]، ويقول ياقوت الحموي : إنه على رابية من تراب فيه آثار أبنية من لبن لا تدل على ما يحكى عنها من العظمة والحصانة ، وهو خراب ، وكان أول من بناه عاديا أبو السموأل [٢] ، ويصفه القزويني في « آثار البلاد وأخبار العباد [٣] » بقوله : على تل من تراب ، والآن بقي على التل آثار الأبنية القديمة ، والقزويني عاصر ياقوتاً وعاش بعده إلى ٦٨٥ هـ ويلاحظ على هذا أولاً أن المثل العربي إذا صحت نسبته إلى الزباء وهو (تمرد مارد وعز الأبلق) فإن الزباء من أهل القرن الثالث الميلادي ، والسموأل أدرك ابنه شريح الأعشى الشاعرَ الذي أدرك الإسلام ، ولهذا فإن الزمن بين عهد الزباء وزمن عاديا جد السموأل أو أبيه طويل، وهذا يدل على أن الحصن بني قبل السموأل .

وفي بعض الكتب العربية القديمة نسب بناء هذا الحصن إلى سليمان بن داود (ع. س) وهي نسبة تعتمد على ما هو معروف عند العرب من نسبة كل بناء قوي إلى سليمان الذي سخر الله له الجن والشياطين ، يعملون له ما يشاء من الأعمال العظيمة ، وهناك أبنية وآبار في الجزيرة نسبت إلى سليمان والجن والشياطين ، وقد لحظ هذا المعري الذي يقول :

وقد كان أرباب الفصاحة كلما رأوا حَسَناً ، عدّوه من صنعة الجنّ

(١) « مجمع الأمثال » للميداني .

(٢) « معجم البلدان » .

(٣) ص ٧٣ .

ثانياً : ان آثار الحصن وأطلاله لا تزال باقية وهو مبني من الحجارة لا من اللبن كما قال ياقوت، وآثاره تدل على العظمة والقوة،ويظهر أن ياقوتاً لم يشاهد تلك الآثار ولكنه نقل وصفها عن غير خبير، ولهذا وقع في الخطأ. ويحسن أن نورد هنا وصفاً من الشعر العربي القديم للشاعر الأعشى الكبير قال :

أرى عادياً لم يَدْفع الموتَ ماله ... وفردٌ بتيماء اليهودي أبلق
أقام ذراه ابن داود حقبة ... له أزجٌ سامٍ ، وطيٌّ موثَّقُ
يوازي كبيدات السماء ، ودونه ... بلاط ودارات وكلس وخندق
له دَرْمكٌ في رأسه ومشارف ... ومسك وريحان وراحٌ تُصَفَّقُ
وحور كأمثال الدُّمى،ومناصف ... وقدرٌ وطبّاخ وصاع ودَيْسَقُ
فذاك ، ولم يعجز من الموت ربه ... ولكن أتاه الموت لا يتَأبَّقُ

والعرب ينسبون كل مستطرف من البناء إلى سليمان بن داود (ع. س) كما ينسبون كل قديم الى عاد [1] .

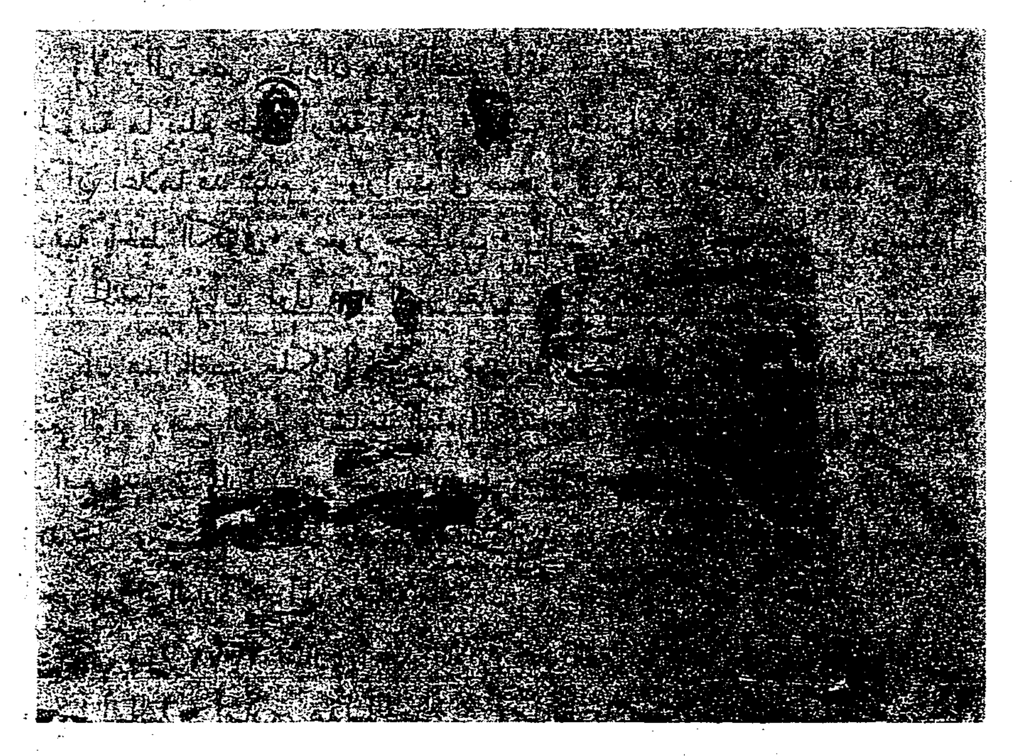
وأرى أن حصن السموأل كان يشمل كل مدينة تيماء فقد أحاطها بسور عظيم وأحيطت من قبل أحد الملوك بذلك السور وهو يضم قصوراً عديدة وفي داخلها أهم حدائق البلدة وكل منازلها ، وتلك الحصون والمنازل هي على درجة من القوة والمحافظة على البقاء بما هو متوفر داخلها من مياه ومزارع ، وهذا لا يمنع من القول بأنه كان لآل السموأل اجداده فمن قبلهم ثم هو وابناؤه كان لهم قصر من بين تلك القصور القديمة التي يحيط بها سور عظيم يحمي كل المدينة، وقد شاهدت أثناء زيارتي لهذه المدينة ، عدداً من تلك القصور ومنها ما يطلق الأهالي عليه اسم قصر السموأل وها هو بيان أهم تلك القصور التي شاهدت آثارها :

١ ــ قصر السموأل : في الجنوب الغربي من البلدة ، وفوق تلٍّ مُطلّ

---

(١) : « الاكليل » ٨/١١٤ (طبعة برنستن) .

عليها لا يبعد عنها أكثر من كيلين بقرب الطريق إلى المدينة يوجد آثار بناء كان محاطاً بسور قوي من الصخر العظيم ، ومتصل بسور المدينة ، وفي وسط هذا السور توجد آبار ، ومساحة هذا المكان واسعة ، ويظهر أن ذلك السور يشمل حدائق كما يدل على هذا تعدد الآبار فيه ، وسعته ، ويطلق عليه عند أكثر سكان هذه البلدة اسم قصر السموأل ، غير أن المرء لا يشاهد في ذلك المكان آثاراً للمساكن - داخل السور - وكل مـا يلفت النظر فيه ضخامة جدرانه .



بعض آثار سور القصر الذي يظن أنه قصر السموأل ، والواقفان هما السيدان عبد الرحمن النانيه وصالح الشايع

(الصورة من الاستاذ حمد العبيدي)

٢ – قصر الرَّضم : (جمع رَضَمَة وهي الصخرة) في الجهة الغربية الشمالية من البلدة قَصْر يعرف بـ (قصر الرَّضَم) يدعه الطريق إلى تبوك يميناً بما يقارب الكيل .

هذا القصر مبني بالصخور الضخمة ، بناية قوية ، رأيت من صخوره ما يبلغ عشرة أقدام طولاً ، وعرض بعض أساسات البناء تبلغ ١٧ قدماً ، ومنها ما يبلغ تسعة أقدام ، ويبلغ طول جدار هذا القصر من الناحية الغربية ٤٨ خطوة ، ومن الشمال ٤٣ ومن الجنوب ٥٦ خطوة .

وفي الجهة الشرقية منه بئر ، قيل لنا أنها كانت مجهولة حتى أرشد إليها السائح (شارلز هوبر) .

ولا تزال بعض جدران هذا القصر قائمة ، تهدم أعلاها وبقي في الجهة الجنوبية ما يبلغ طوله أربعة أمتار ، وبقية الجدران في الجهات الأخرى باقية إلا أن أعلاها قد تهدم . ورأيت في صخرة في شرقي الحصن ساقطة كتابات عربية بالخط الكوفي، وصور حيوانات ، والبئر منحوتة في الصخر ، ويستدل من (المنحاة) أن طول هذه البئر يقارب ٣٥ متراً .

كان هذا القصر ملكاً لأناس يعرفون بـ(الوشايحة) وأحدهم (وُشَيِّح) بضم الواو وفتح الشين وتشديد الياء المكسورة ، بعدها حاء ، يقال إن جدهم الرابع قدم من بلدة (مَوْقَق) بقرب حايل ، ومن هؤلاء الشيخ فيّاض بن زيد آل وُشَيِّح ، كان قاضياً في بلدة تيماء في عهد عبد الكريم بن رمّان آخر أمراء البلدة من آل رمّان .

وفي سنة ١٣٧١ اشترى عبد الله بن محمد القين من أهل المدينة ، وكان مديراً للمالية ، اشترى هذا الحصن ، وما بقربه من أرض زراعية واسعة بألف ريال ، اشتراه من عبد العزيز وعبيد واخوانها آل وُشَيِّح .

لقد أجرى آل وُشَيِّح ماء بئر الحصن إلى أرض خارجه ، ولا يزال أثر المجرى (الساقي) قائماً .

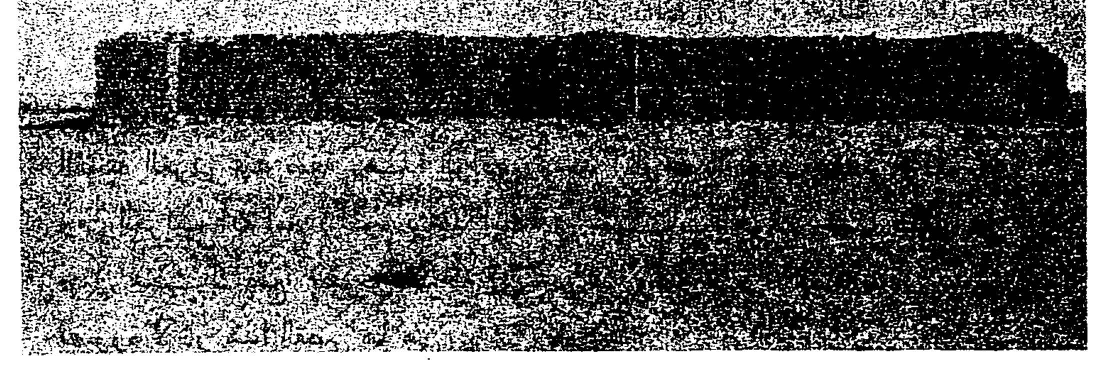
٣ – قصر بدر بن جوهر في جنوب بلدة تيماء تقع آثار المدينة القديمة ، ومن أبرز آثارها ما يدعى باسم قصر الشايب ويسمى أيضاً قصر بدر بن جوهر وتحاك حوله قصص خرافية .

ويرى فلبي أن بدراً هذا من أبطال العصور القديمة . غير أنه لا يُعرف عنه شيء . ويزعم أن كثيراً من الدلائل تشير إلى أنه يهودي ولكنه لا يذكر دليلاً واحداً من (الكثير).

ويحسن أن نورد هنا ملخص أسطورة بدر بن جوهر كما يرويها ويتناقلها أهل تيماء الآن وهم يعتقدون أن بدر بن جوهر هذا عربي وإن جهلوا نسبه ، وملخص الأسطورة حسبما يتناقلون أنه كان يسكن في مدينة تيماء رجلان هما بدر وبدير ابنا جوهر وكان يحكمان المدينة ، ولبدر ابنة رائعة الجمال ، وكانت محجبة على الطريقة العربية ، وأبوها وأسرتها عرب يتصفون بالغيرة العربية ، ومن عادة الفتيات الجميلات وجود حساد ومبغضين لهن ، ومن بين هؤلاء من وشى بها إلى أبيها متهماً إياها بأنها ذات صلة غير شريفة فما كان من أبيها إلا أن هجم عليها ليقتلها ظلماً وقبل ذلك رفعت يديها إلى السماء داعية ، وفاضت أنفاسها الطاهرة ، فأصيبت المدينة بسبب دعوتها بكارثة فيضان أغرق جل مزروعات المدينة وخرب أكثر بيوتها. ومن ثم نزح بدر أبوها وعمها بدير إلى مدينة العلا المعروفة ولا تزال هناك أسرة تعرف بآل بدير من سكان العلا ينتسبون الى أخي بدر بن جوهر العربي التيماي .

٤ – قصر زلُّوم : يوجد في غرب تيماء وادٍ يعرف بوادي زَلُّوم ، يخترق جنوب تيماء الغربي ، حتى يفيض في سبختها الواقعة في شمالها ، وبطرف البلدة القديمة الغربي عند ضفة هذا الوادي توجد آثار قصر يعرف بقصر زَلُّوم ، ومن الغريب أن اسم زلُّوم يوجد أيضاً في جهات الجوف حيث يطلق على جبل هناك يقع بطريق المتجه إلى عَرْعَر وقد كرم الاستاذ عادل عياش بصورة لآثار هذا القصر ها هي :

آثار قصر زلوم ، ويرى الاستاذ عادل عياش أن من المحتمل أن يكون من مخلفات القرن الخامس قبل الميلاد



واجهة قصر زلوم

تيماء في كتب الجغرافيين وغيرهم

أورد فيما يلي أهم ما قرأت عن تيماء في كتب المتقدمين ولا تفوت الإشارة إلى أن اسم تيماء من الاسماء القديمة جداً ، ولهذا يحاول بعض المتقدمين أن يعلل هذا الاسم بأنه اسم أمة من الامم فالهمداني ينقل عن ابن اسحاق قوله : ومن ولد دان بن فهلوج [1] : جاسم أمة كانت بعمان والبحرين ، فدرجت ، وبنو هف ، وسعـــد ، وهزّان الاولى ، وبنو مطر ، وبنو الأزرق ، أمم كانوا بحجاز المدينة. وبنو بديل ، وراحل ، وغفار وتيماء ، وكان منهم الأرقم ملك الحجاز بتيماء ، وإليـــه أغزى موسى عليه السلام بعثه الذي ندبه إلى الحجاز ، ومنهم بنو ثابر ، وبنو عبد بن ضخم . ويقال ضخم حي من عبس الأولى ، وكانوا يسكنون الطائف فانقرضوا ، وفيهم يقول أمية بن أبي الصلت:

كما أفنى بني عبد بن ضخم　　فما يذكو لصاليها شهاب
بني بيض ورهط بني معاذ　　وفيهم عزة وهمُ غـــلاب

كل هذه القبائـــل التي أولها جاسم ، وآخرها عبس الأولى من العرب العاربة [2] .

وابن اسحاق وغيره من متقدمي المؤرخين كثيراً ما يعولون على ما جاء في التوراة في الأخبار القديمة ، غير أن ما جاء فيها مما يتعلق بتيماء يقارب هذا

(١) وفهلوج ـ على رأيه ـ بن امراز بن أشوذ بن سام بن نوح .
(٢) الاكليل ١/٧٢ .

القول ، فهو يعتبر تيماء من ابناء اسماعيل بن ابراهيم ، ففي « سفر التكوين»[1] هذه اسماء بني اسماعيل بن ابراهيم – الذي ولدته هاجر المصرية جارية سارة : بنايوت :بكر اسماعيل ،وقيدار ، وأدبئيل ، ومسام ، ومشماع ، ودومة ومسّا ، وحدار ، وتيما ، ويطور ، ونافيش ، وقدمة . هؤلاء بنو اسماعيل ، وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم . وعلى ذكر التوراة فإنها تشير إلىأن أيوب – وهو من ذرية ابراهيم – له صديق من تيماء يدعي أليفاز التيماني[2] .

قد يكون اسم تيماء أطلق على هذه البلاد لأن أمة من الأمم القديمة تدعى بهذا الاسم سكنته في عصور قديمة ، وهذا مما تؤيده الأخبار والآثار .

وقد يكون الاسم أُطلق عليها – في عهد متقدم أيضاً – لكونها أرضاً براحاً واسعة . فقد جاء في كتب اللغة :

١ – تَيْماءُ : أرضٌ تيماءُ قفرة مضلة للساري فيها، مهلكة له،أو واسعة وقال الجوهري : التيماء الفلاة ، وتيماء موضع ، وقال نصر : هو بلد مشهور عند وادي القُرَى من منازل اليهود قديماً . وقال غيره : هي بليدة ببادية تبوك من جهة خيبر على منتصف طريق الشام منها حسن بن إسماعيل التيماوي[3] .

٢ – وقيل : المتَيَّمُ المضَلَّلُ ، ومنه قيل للفلاة تيماء ، لأنه يُضَلُّ فيها . وأرض تيماء : مضلّة مهلكة . وقيل : واسعة . ابن الأعرابي :التيماء: فلاة واسعة . قال الأصمعي : التيماء التي لا ماء بها من الأرضين ونحو ذلك . قال أبو وجزة[4] ...

٣ – أرض تيماء : قفر ، لا أنيس بها . وتيماء موضع ممدود قال الأعشى :

---

(١) الاصحاح : ١٦/١٤ .

(٢) « سفر أيوب » الاصحاح الثاني .

(١) « تاج العروس» .

(٤) « لسان العرب » ولم يورد قول ابي وجْزة .

بالأبلق الفرد من تيماء منزلُـــهُ حصنٌ حصين، وجارٌ غير غدّار[1]

ويظهر أن اسم تيماء يطلق على مواضع أخرى :

١ – ذكر ابن سعد في « الطبقات »[2] عن ابن عباس (ض) أن نساء أهل مكة احتفلن في عيد كان لهن في رجب ، فلم يتركن شيئاً من إكبار ذلك العيد إلا أتينه ، فبينا هن عكوف عنـــد وثن ، مُثّل لهنَّ كرجل ، في هيئة رجل ، حتى صار منهن قريباً ، ثم نادى بأعلى صوته : يا نساء تيماء إنه سيكون في بلدكن نبيٌّ يقال له أحمد ، يبعث برسالة الله ، فأيما امرأة استطاعت أن تكون له زوجـــاً فلتفعل . فحصبته النساء ، وقبّحْنَهُ ، وأغلظن له ، وأغضت خديجة على قوله، ولم تعرض له فيما عرض فيه النساء .

وأورد أيضاً[3] في قصة إسلام سلمان الفارسي وإتيانه إلى عالم في بيت المقدس وأنه قال له : (والله ما أعلم اليوم في الأرض رجلاً أعلم من رجل خرج بأرض تيماء ، وان تنطلق الآن توافقه، فيه ثلاث آيات : يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة، وعند غضروف كتفه اليمنى خاتم النبوة مثل بيضة الحمامة لونها لون جـــلده – وساق خبر قدوم سلمان على النبي ﷺ في المدينة . قد يكون المقصود من الخبر الثاني بأرض تيماء أي أرض الحجاز، وتيماء متصلة به ، أما الخبر الأول فلا ينصرف إلا إلى مكة ، مع أنني لم أر من ذكر هذا الاسم من أسماء مكة ، ومع ما قد يقال عن هذا الخبر فالذي يعنينا إطلاق الاسم على مكة في عهد متقدم .

٢ – تيماء قويرة صغيرة بقرب قرية الشعراء الواقعة في سفح جبل ثهلان .

٣ – قويرة صغيرة أخرى أيضاً يدعها طريق المدينة من القصيم ذات اليمين ، قبل أن يصل إلى منهل النقرة بما يقارب الـ ٤٠ كيلا ، وقد مررت بهـــا

---

(١) « جمهرة اللغة » لابن دريد ٢/٣٠ .

(٢) ج ٨ / ١٥ .

(٣) ج ٤ / ٨٢ .

وشاهدتها . ومما تنبغي ملاحظته أن تيماء الواردة في قول امرىء القيس في معلقته :

وتيماء لم يترك بها جذعَ نخلةٍ ولا أُطُماً إلا مشيداً بجندل

هي تيماء البلدة المعروفة ذات الآطام والنخيل بخلاف المسميات الأخرى ، فلا ينطبق عليها هذا الوصف . وها هو أهم ما جاء في كتب المتقدمين مما اطلعت عليه متعلقاً بتيماء — على ما فيه من تكرار — :

١ — وليس في هذه البادية مدينة إلا تيماء ، وهي مدينة قديمة ، واسعة البقعة ، كثيرة النخيل ، هائلة البساتين ، غزيرة الماء ، مع خفة عجيبة ، وعين مليحة ، تخرج في شباك حديد ، إلى بركة ، ثم يتفرق [الماء] في البساتين ، ولهم آبار حلوة ، وهي في سهلة إلا أن أكثرها خراب ، الجامع فيها والعمارات حول السوق ، وكل تمورها جيد ، وفي أهلها شرَهٌ ، ولا عالم بها يرجع إليه ، ولا حاكم يعول عليه ، ورأيت خطيبهم بقالا ، وحاكمهم نعَّالاً مع تعصب عظيم ، ودروع داودية يلبسونها في الفتن [1] .

٢ — تَيْماءُ من أمهات القُرى ، ويقال انها صلح، صالح أهلها رسول الله ﷺ . قال السكوني : ترتحل من المدينة وأنت تريد تيماء ، فتنزل الصهباء لأشجع ، ثم تنزل أشمذينِ لأشجع ، ثم تنزل العين ، ثم سِلاحَ لبني عذرة ، ثم تسير ثلاث ليال في الجِناب ، ثم تنزل تيماء وهي لطيء .

وكان حمل بن مالك بن النابغة يسكن الجنابَ ، وبينه وبين تيماء حصن الأبلق الفرد ، الذي كان ينزله السموأل ، وفيه يقول الأعشى :

بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصنٌ حصين، وجارٌ غير غدّارِ

وكان حبيب بن عمرة السلاماني ، ورويفع بن ثابت البلوي وأبو خزامة

(١) « أحسن التقاسيم » ص ١٠١ .

العذري يسكنون الجناب ، وهي أرض عذرة وبليٍّ ، وكل هؤلاء من أصحاب النبي ﷺ قد روى عنه .

وفي الطريق المذكور جبل يهتدى به يسمى بَرِداً ، وجبل آخر مشرف على تيماء يسمى حُدَداً [1]. ولتيماء طريق آخر : تخرج من المدينة فتأخذ على البيضاء ، ثم تأخذ في بطن إضم وهي لبني دهمان من أشجع ، ثم تنزل غُشَى وهي لعذرة ، ثم تنزل مطرائين ، وهي لبلي بنت عمرو بن الحاف بن قضاعة ، ثم تنزل وادي القرى ، ثم الحِجْر ، ثم تسير إلى تيماء في فلاة ثلاثاً .

وطريق ثالثة إلى تيماء : من المدينة إلى فيد ، ومن فيد إلى الهتمة ، وهي عين ، ثم إلى مُلَيْحة ، ثم إلى الشَّطَنِيّة أو النفيانة أيها شئت ، وهما بئران بينهما ميل ، ثم الدعثور ، ثم مِيثب ، ثم البُويرة ، ثم عُراعر ، ثم العبسية ، ثم ذو أُرُك ، ثم رِقدة ، ثم خناصرة ، ثم الثمد ، ويدعى ثَمد الفلاة ثم حدد ، ثم تيماء .

وطريق رابعة : من الشطنية المذكورة يسرة ، حتى ترد العتيقة ، ثم الغَمْر ، ثم سقْف ، فيه نخل ، ثم الصُّلصلة ، ثم جفر الجفاف (الحقاف) ثم جَنَفَى ثم مُلَيْحة ، ثم النقيب برأس حرّة ليلى ، ثم بطن قَوٍّ ، ثم تمن (تيمن) ثم رواوة (راوة) ثم برِد ، ثم تيما .

وقال الشاعر :

وحدثتماني أن تيماء منزل لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذي شهور الصيف أمست قد انقضت فما لِلنَّوَى ترمي بِليلى المراميا

وتَيْماء مدينة لها سور ، وعلى شاطىء بَحْر طوله فرسخ ، وبها بحيرة يقال لها العقيرة (العفيرة) ونهر يقال له نهر فَيْحاء ، وهي كثيرة النخل والتين والعنب ، وبها ناس كثير من بني جُوَين من طيّء ، وبني عمرو وغيرهم.

ثم تخرج من تيماء إلى الشام على حوران والبثنية وحِسْمَى [1] .

(١) معجم ما استعجم للبكري ص ٣٢٩/ ٣٣٠ وفيه (جددا) تصحيف .

٣ – وتيماء حصن عامر ، بقيته أزليَّة ، وهو أعمر من تبوك ، وبينهما أربع مراحل وبين تيماء وأول الشام ثلاثة أيام .. وبتيماء مياه ونخيل ومنه تمتار البادية ، وبه تجارات قلائل .

ويسكن بين أيلة وتبوكَ إلى واديالقرى قبائل لخم وجذام وجهينة وبلي، وبلادهم بلاد إبلٍ وألبان وأسمانٍ ، وهم ينتجعون مراعي هذه الأرضين ، ولهم كرم وبذل لما في أيديهم ، وهم يسكنون بيوت الشعر ، وينتقلون من موضع إلى موضع ، لا يقيمون في مكان ، ولهم مصايف ومرابع يدورون عليها ، وينتقلون إليها [(١)] .

٤ – تَيماءُ – بالفتح والمدّ – بُلَيدٌ في أطراف الشام، بين الشام ووادي القرى ، على طريق حاج الشام ودمشق ، والأبلق الفرد حصن السموأل بن عاديا اليهودي مشرف عليها ، فلذلك يقال : تيماء اليهودي . وقال الأزهري : المتيَّمُ المُضَلَّلُ ومنه قيل للفلاة : تيماء، لأنه يُضَلُّ بها . قال ابن الأعرابي: [تيماء] أرض واسعة . وقال الأصمعي : التيماء الأرض التي لا ماء فيها ولا كلأ ، ولا نحو ذلك . ولما بلغ أهل تيماء في سنة تسع وَطْءُ النبي ﷺ وادي القرى أرسلوا إليه وصالحوه على الجزية ، وأقاموا ببلادهم ، وأرضهم بأيديهم، فلما أجلى عمر (ض) اليهود عن جزيرة العرب أجلاهم معهم .

قال الأعشى :

ولا عادِيا لم يمنع الموتَ مالُهُ   ووِرْدٌ بتيماء اليهودي أبلق [(٢)]

وأقول : – ١ – ليست تيماء بين وادي القرى وبين الشام ، بل وادي القرى يقع في الشمال الغربي عنها وهو أقرب إلى الشام – ٢ – طريق حجاج دمشق المعروف كان يمرُّ بتبوك ويدعها يساره مارّاً بالعلا غربها . أما طريق

---

(١) نزهة المشتاق للادريسي نسخة باريس رقم ٢٢٢٣ المخطوطة سنة ٧٤٤ .
(٢) « معجم البلدان » .

القوافل القديم المارّ بوادي السرحان فتيماء فلم أرَ من ذكر أن الحجاج يسلكونه (ومن حفظ حجة على من لم يحفظ) .

٥ – تيما : من أمهات القرى ، على سبع ليال من المدينة المكرمة ، ولها سور على شاطيء بحر طوله فرسخ . ويخرج من تيما إلى الشام على حوران والبثنية وحسمى وبين تيما وأول الشام ثلاثة أيام .

وبتيما مياه ونخل ، ومنه تمتار البادية ، وبه تجارات قلائل ، وفي تيما يقول الشاعر في قصة السموأل بن عاديا حين استودعه أموال امرىء القيس ابن حجر وسلاحه وكراعه فبعث إليه الحارث بن أبي شمر الغساني ليأخذ كل ذلك منه فمنعه ، ولم يجبه إلى ذلك :

بالأبلق الفرد من تيماء منزله ... حصن حصين وجار غير غدّار[1]

٦ – وتيماء حصن أعمر من تبوك ، وبها نخيل وفي الكتاب « العزيزي » قال : تيماء حاضرة طيّ وبها الحصن المعروف بالأبلق وينسب إلى السموأل ابن عادياء الذي يقول فيه :

لنا جبل يحتله من نجيره ... منيع يردّ الطرف وهو كليل
هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره ... له غُرَرٌ مشهورة وحجول[2]

٧ – إمارة تيماء : مركزها : تيماء ، وهي بلدة صغيرة تقع في واحة تدعى باسمها ، وهي إلى الجنوب الغربي من النفود ، على بعد (٦٥) ميلاً من شمال العلا ، وهي واقعة في منخفض من السهل المرتفع ، الذي يبلغ ارتفاعه (٣٤٠٠ قدم) وإعتبر Jaussen et Savignac طول هذا المنخفض (٣) كيلومترات وعرضه (٥٠٠) متر .

والهواء في تيماء صحي وجيّد جداً .

---

(١) « الروض المعطار » مخطوطة مكتبة عارف حكمة في المدينة .
(٢) « تقويم البلدان » – ٨٧ – .

وأرض تيماء خصبة وصالحة للزراعة ، ولا سيما زراعة النخيل ، ويزرع فيها القمح ، والشعير ، والذرة ، والفواكه على اختلاف أصنافها ، وتمر تيماء جيد ويعتبر من أجود أنواع التمر . وبواحة تيماء عين [1] غزيرة المياه ، يبلغ اتساع فوهتها أكثر من خمسين قدماً ، ومركب عليها سواني من جميع جهاتها.

وواحة تيماء مسورة بسور من الطين ، وبهـــا أبراج للدفاع ، مبنية من اللبن ، وتيماء بلدة أثرية يوجـــد فيها بقايا هيكلين ، وعمارة قائمة الزوايا وساحات ، واضلاع ، وبعض الأبنية .

يبلغ عدد سكان تيماء نحو (٢٥٠٠) نسمة ، وأغلبهم من ولد سليمان ، وبها بعض الموالي وبعض التجار من جبـــل شمر ، ويحضر بعضهم لتصريف تجارتهم التي يجلبونها من بغداد ، وساحل الخليج الفارسي . ويبيع سكانها محاصيلهم للبدو الرحل [2] .



(١) هي بئر هداج وليست عيناً .

(٢) « جغرافية شبه جزيرة العرب » ص ١٢٦ .

تيماء من الناحية الثقافية القديمة

تدل الكتابات الكثيرة المنتشرة حول تيماء من آرامية وثمودية وصفوية إلا أن تيماء كانت ذات ماضٍ ثقافي . أما الكتابات العربية القديمة فيرى بعض الباحثين – مثل فلبي – أنها من آثار بعض الحجاج ، غير أنني لا أوافقه على ذلك لأنها توجد في أمكنة لا تقع على طريق تيماء إلى خيبر ، ثم أن المتقدمين ذكروا لحجاج الشام طريقاً واحداً يمر بتبوك ، متجهاً إلى العُلا ، تاركاً تيماء جنوبه على مسافة بعيدة .

وتدل قصة إسلام عمرو بن عبسة السلمي – الصحابي – على أن في تيماء عنـــد ظهور الإسلام كتاباً اتصل هذا الصحابي الجليل بأحدهم فأخبره بصفة النبي ﷺ .

وفي الأشعار العربية القديمة ما يدل على انتشار الكتابة في تيماء .

ثم لا نجد فيما بين أيدينا من المصادر القديمة ما يمكننا من معرفة شيء عن ماضي تيماء الثقافي ، سوى مـا سبقت الإشارة إليه من أشعار السموأل بن عاديا ، صاحب القصيدة المشهورة التي مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضَهُ ... فكلُّ رِداءٍ يرتديـــه جميلُ
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها ... فليس إلى حسن الثناء سبيلُ

وهي قصيدة تغني شهرتها عن ذكرها. ثم أحد أحفاد السموأل ، وتقدمت ترجمته ، وحفيد متأخر وتقدمت ترجمته أيضاً . ولا نجد بعد ذلك سوى ما

يورده السمعاني في كتاب « الأنساب »[1] عرضاً ، حينما يقول :

التَّيمْاوي : بفتح التاء من بعدها ياء ساكنة منقوطة بنقطتين من تحتها والميم والألف بعدها واو هذه النِّسبة إلى تيماء ، وهي بليدة في بادية تبوك إذا خرجت من خيبر اليها ، وهي على منتصف الطريق من الشام ، قال أبو محمد الخازن :

وتارةً تَنْتَحِي نَجْداً ، وآونَةً
شعب الغُوَيْرِ ، وطَوْراً قَصْر تَيْماءِ

ومنها حسين بن اسماعيل التيماوي ، يروي عن درباس ، روى عنه أحمد ابن سليمان ، وقال أبو حاتم الرازي : هو مجهول .

ودرباس الذي يروي عنه حسين هو ابن دجاجة مجهول أيضاً .

وهناك جانب مهم من جوانب الناحية الثقافية وهو ما أشار اليه بعض المتقدمين من المؤرخين من أن الكتابة العربية نشأت أول ما نشأت في تيماء ودومة الجندل ، وقد ذكرنا النص التاريخي في ذلك عند حديثنا عن دومة الجندل ، وهذا له أصل فيما عثر عليه من كتابات، أيَّدَتْ أن أصل الكتابة العربية انتشرت من الجهات الشمالية لبلاد العرب . وهي إشارات تحتاج إلى دراسة عميقة من المعنيين بالدراسات الأثرية .



(١) ج ٣/ ١١٦ .

تيماء من الناحية الزراعية

يقوم البحث في هذه الناحية على معرفة وفرة الماء الصالح للزراعة ، وعلى جودة التربة وسعتها .

وهذا يتطلب أن نورد طرفاً مما ذكره الباحثون قديماً عن الماء في تيماء .

كانت تيماء في الزمن القديم تقوم على ضفاف نهر عظيم ، ينحدر من الجهة الغربية الجنوبية ، ثم يسير متجهاً صوب الشمال الشرقي ، وعلى ضفاف هذا النهر تقع المدينة كما يفهم من كلام البكري وقد أوردناه كاملاً .

ويعلق موزل في كتابه : « شمال نجد » على كلام البكري قائلاً: لا يوجد نهر في واحة تيماء ولكن السيول كانت تجري في شعيب الجريْدَا والسنانية ، وتملأ الحوض الذي كانت تيما بجانبه ، وأما الفيحا فإنه لقب يطلق على شعيب الجريدا .

ولكن كلام موزل مبني على غير أساس من المشاهدة يتبين هذا بما يلي :

١ – أن وادي الجرُيداء – بضم الجيم – لا يجري إلى تيماء ، بل يدعها شرقاً ، متجهاً شمالاً حتى يفيض إلى أرض تدعى جَرِيش – بفتح الجيم وكسر الراء وبعدها ياء ثم شين معجمة – تقع شمال تيماء ، وتبعد عنها بما يزيد على ٦٠ كيلاً . وتقع أيمن الطريق الممتد منها إلى تبوك .

٢ – السنانية التي ذكرها صوابها السَّلِيلة وهو واد يخترق بلدة تيماء من الجنوب الغربي حتى يفيض في السبخة الواقعة في شمال البلدة .

ويظهر أن عوامل الجفاف قد اثرت في جريان هذا النهر ، حتى لم يبق منه سوى ينابيع عرفت في عصور متأخرة منذ القرن الأول الهجري باسم آبارٍ واسعة ، أصبحت مياه النهر تتجمع بها ، منها « الوجاج » و « بئر هدّاج » التي نجد الشاعر الإسلامي المدني ابراهيم بن هرمة يقول من مطلع قصيدة يمدح فيها والي اليمامة في أول القرن الثاني الهجري وهو السريّ بن عبدالله الهاشمي ، فيقول :

أَ ألحمامة في نَخْلِ ابن هِدّاج هاجت صبابة عاني القلب مهتاج[1]

ولا نجد للمتقدمين ما يحدد مكان ابن هَدّاج هذه كعادتهم في كثير من مواطن الجزيرة ، ولكننا نكاد نجزم بأنه عني موقع تيماء ، هذه التي لا تزال معروفة ، وذلك لقربه من هذه الجهة ، ولكون تيماء كانت من الأمكنة التابعة للمدينة في ذلك العهد .

وتنقطع عنا أخبار تيماء من ناحية الثروة المائية التي كانت معروفة عند المتقدمين بالغزارة ، كما أوردنا من كلام البكري ، ثم نجد مما له صلة بالموضوع ما أورده المقدسي في كتابه « أحسن التقاسيم » حيث يقول : وما رأيت أسرع برودة من ماء تيماء وأريحا وهما أخف مياه الإسلام[2] .

وإذا كُنّا لا نجد فيما بين أيدينا تفصيلات وافية عن هذه الناحية ، فليس الذنب ذنب البلاد نفسها ، ولكنه ذنب الذين تَصَدّوا لتدوين أخبار الجزيرة العربية وآثارها ، فهم – في الغالب – يعيشون بعيدين عنها ، وقلّ أن يدوّنوا من أخبارها إلا القليل الذي يتلقفونه مبتوراً وناقصاً من أفواه بعض الرواة الذين اعتادوا ارتياد امهات المدن الإسلامية .

---

(١) « ديوان ابن هرمة » .

(٢) « أحسن التقاسيم » ص ١٠١ .

ويصف فلبي بئر هداج بأنهـــا (كانت مورداً لكثير من قوافل الجمال والماشيـــة التي تقصدها من أماكن بعيدة للورود ، كما أن الواحات المجاورة للبئر تروى من مياهها . ويقول السكان إنها تستطيع أن ينزح الماء منها ٩٩ جملاً دفعة واحدة أثناء فصل الصيف) .

غير أني –وقد شاهدت هذه البئر – رأيت كثيراً من هذا الوصف فيه مبالغة كبيرة ، فهي عبارة عن حفرة عميقة تشكل في مظهرها شكل قوس متعرج وجوانبها مطوية بالحجر ، بطريقة غير منظمة ، وقاع البئر تكثر فيه الأشجـار النابتة من التين وغيره ، والماء ينبع فيه من مكان ضيّق ، قالوا لي بأنه لم يجر فيه حفر ولا إصلاح ، وفوق البئر آلات (مضخّات) رافعة للماء أربع ، ولعلها كانت تخرج من الماء ما فيه كفاية لريّ البساتين الموجودة في البلدة في الوقت الحاضر ، وقد لا تتسع مساحة الأرض لكونها محاطة بأمكنة غير صالحـــة للزراعة ، ففي الجانبين الشرقي والغربي آكام صخرية ، وفي الجهة الجنوبية مجرى للسيول ، وقد ُجرفت التربة الصالحة للزراعة ، وفي الجهة الشمالية أرض سبخة ، ولعلهـــا هي المكان الذي ذكر المتقدمون أنه بحيرة ، ثم أصبح في وقت من الأوقات مَمْلَحَةً (أي مكان يستخرج منه الملح) يضاف إلى كل ما تقدم أن ُملاّك هذه البئر كانوا يسيطرون على تلك المساحة الضيقة من الأرض ، ولهذا فقد كان من اثر ذلك أن تبقى المساحة التي تغمرها ميـــاه هذه البئر محصورة في مكان ضيّق .

ونظراً لتراكم الأوساخ في قاع البئر فقد قررت هيئة صحيّة كون مائها غير صالح للشرب ، وأنه يحدث لشاربه داء العصرة (الدوسنطاريا) .



بئر هداج والإبل تخرج ماءها قبل وضع المضخات فوقها (تصوير فلبي)

وهناك بئر أثرية قديمة وصفها فلبي نقلا عن سماعه من أهل البلدة فقال : ويمر الطريق من تيماء إلى حايل عبر جزء من السور الدائري الأثري، ما يزال قائماً ، وما ان يمر المرء من هذا السور حتى يجد الكثير من الخرائب المنتشرة حول فجوة كبيرة من الأرض هي كل ما تبقى من بئر أثرية كبيرة ، أو لعلها كانت نبعاً أطلقوا عليه اسم الوجّاج ... ولو أمكن اعادة بئر الوجاج صالحاً لخزن الماء بعد أن يعاد تصليح نبع الوجاج فمما لا شك فيه انه سيكون هناك أمل في أن تعود تيماء بلداً غنياً كما كانت قبل ٢٥٠٠ سنة [١] .

إن واحة تيماء ، وهي واحة ضيقة حقاً تحاط بمرتفعات صخرية ، تقدر على حسب رأي جوسين سافيجناس Jaussen et Savignac طول المنخفض الذي تقع فيه تيماء بثلاثة أكيال طولاً وعرض ٥٠٠ متر [٢] .

وليس كل هذا المنخفض مزروعاً ، فإن القسم الشرقي الشمالي منه سبخة ملحية واسعة يظهر أنها مكان بحيرة قد نضبت .

وسكان تيماء في العصر الحاضر يعيشون على الطريقة البدائية القديمة بحيث تجد الحديقـــة الصغيرة التي لا تضم سوى عدد قليل من أشجار النخيل [٣] يشترك في ملكيتها أفراد كثيرون ينحدرون من اجداد يرتفع نسبهم ثم يتفرعون فروعاً كثيرة ، وكل واحد له جزء من هذه الحديقة الصغيرة يتلاءم مع صلته بالمالك القديم فيهم القوي يرغب الاصلاح ويقدر عليه وفيهم الضعيف الذي لا يستطيع ذلك فلا يرغب فيه ، ومن ثم منيت هذه البلاد بضعف من ناحية الزراعة .

ويظهر أن التجـــارب الحديثة لاستنباط المياه لم تجري في هذه الواحة ، ولهذا لا يستطاع الحكم عليها من ناحية الزراعية غير أني شاهدت غربي الواحة فيما بينها وبين تبوك وفيما بينها وبين خيبر أراضي واسعة في منبسط من

(١) « ارض الانبياء » ص ١١٣ - ١١٦ .

(٢) Encyclopedia De Islam .

(٣) قدره سليمان الدخيل في كتاب « القول السديد » بـ ٦٠٠٠٠ نخلة عام ١٣٣٢ .

الأرض سهل يكثر فيه النبات بدرجة تحمل على القول بأنه فيما لو وجد في واحة تيماء من المياه ما يصل إلى درجة من القوة يستطاع به الانتفاع بتلك الأراضي ، فإن الواحة ستصبح خصبة ، وقديماً قال جغرافيو العرب بأنها كانت ممتاراً للبادية ، وأنها من أهم أسواقهم التجارية . التي يجدون في ثمرات نخيلها ما يحتاجون .

أما في الوقت الحاضر ، فإن أهم ما شاهدته في الواحة هو الحديقة المجاورة لقصر ابن رمان ، والتي كانت يوماً مـا من أملاكه ، فأصبحت تابعة للقصر الحكومي تسقى من بئر هـداج كما تسقى البساتين الصغيرة المجاورة لها ، وهذه البئر على ما قال لي أمير البلدة كافية لري البساتين الصغيرة المحيطة بها ، والمضخات الأربع تنزف ماءها نزفاً لم يدفع إلى الاستزادة ، ويقول : بأن الماء ينبع من أسفل البئر ، ولو قدر إجراء تجربة لزيادة الحفر وتوسيع فوهة المنبع لربما حصلت زيادة في المياه ، ولكن الحاجة لم تدع إلى ذلك . وقد اشرت فيما سبق إلى أني أعتقد أن هذه البئر كانت يوماً ما نهراً جارياً بدأ بالنضوب والتقلص والانخفاض شيئاً فشيئاً حتى أصبحت بحالتها الحاضرة .

والجانب الثاني المتعلق بالناحية الزراعية في هذه البلاد هو وجود التربة الصالحة . وتيماء تقع في منخفض من الأرض ، إلا أنه يحيط بها قفار واسعة ، ذات سهول وأودية ومستنقعات وقيعان وهي حينما ينزل بها المطر تجود بأنواع النبات ، وتعتبر من أجود المراعي ، وتمتد تلك الأراضي الواسعة فيما بينها وبين خيبر ، وفيما بينها وبين العلا وتبوك ، كما تمتد شرقاً وجنوباً .

وكان يطلق على القسم الغربي والجنوبي قديماً اسم الجناب ، ويعرف الآن باسم الجَهْرَاء ، والكلمة عربية فصيحة ، إذ الجهراء مـا استوى من ظهر الأرض ، ليس بها شجر ولا آكام ولا رمال إنما هي فضاء [1] ، وكذلك هذه الأرض .

---

(١) « لسان العرب » .

قد يقال : إن السهل المنبسط الذي تقع فيه بلدة تيماء ومزارعها ، هو على درجة من الضيق لاتمكن من التوسع فيه من الناحية الزراعية ، يضاف إلى ذلك أن القسم الكبير منه وهو شماله الشرقي تكاثرت فيه الأملاح حتى أصبح سبخة غير صالحة للزراعة ، وهذا حق ، ويضاف إلى ذلك أن الماء الموجود الآن في تيماء ليس على درجة من القوة بحيث يمكن أيضاً من إنشاء مشروعات زراعية واسعة . ولكن مما لا شك فيه أن تربة السهول والمستنقعات الواقعة بقرب تيماء على درجة قوية من الخصب ، كما يدل على ذلك وفرة نباتها وجودته وتنوعه حينما تصاب بالغيث ، وليس من المستبعد أن يوجد في تلك الأراضي الواسعة ماء يفي بالغرض .

ولقد كانت تيماء – في قديم أمرها – من أهم البلاد التي يمتار منها أهل البادية التمر – وكان غذاء رئيسياً – ومن يدري فقـــد يأتي الوقت الذي تصبح هذه البلاد ممتاراً لما يحتاج إليه من تمر وحبوب وغيرها .



تيماء من الناحية التجارية

يروي شارل هوبر في رحلته أن أهل تيماء ينسبون إلى شاعر من بني هلال قوله في وصف بلدة تَـيْما :

مَنْ قال تَـيْما قريةٍ صادقٍ بهـا   كثير بها بيع التجار الربايحْ
يا وَيْ دِيْرةٍ لَـوْ بْهَا اليُومْ ماذَنْ   كثيرٍ بْها الأنْـقَاشْ هو والصَّوايح

ويفسر هذه بقوله : انها بلدة تجارة ، وما أحسنها من بلدة لو أنّ فيهـا مآذن في مساجد تقام فيها العبادة ، ولكنها خالية من ذلك ، وليس فيهـا سوى الخصومات و كثرة الصياح .

لقد كانت تيماء على طريق عظيم يربط خليج العقبة والبتراء غرباً بخليج العرب شرقاً ، ولقد تقاطعتها قوافل الراحلين من الشام ونواحي الشمال ، إلى اليمن في الجنوب ، فصارت محطة لهم ، يعرجون عليها في سفرهم . وهي وسط بين مكة والشام ، وفي منتصف الطريق بين بابل ومصر ، ولذلك بلغت مكانة وعِزّةً تتناسبان مع موقعها الجغرافي [١] . وفي المؤلفات العربية القديمة أنه كان يقام فيها سوق تجاري عظيم للبوادي .

والمشهور أن (نابونيدس) ٥٥٦/٥٣٨ قبـل الميلاد ، آخر ملوك الدولة البابلية الثانية اتخذ تيماء عاصمة له من سنة ٥٥٠ إلى سنة ٥٤٥ قبل الميلاد ، مما يدل على أنها كان بها حضارة زاهية [٢] .

---

(١) « تاريخ العرب المطول » ٤٩/١ .
(٢) « الجزيرة العربية » ١٧٢/١

تيماء في العصر الحاضر

تقع مدينة تيماء بقرب الدرجة ٢٧/٣٧َ° طولاً ٢٨/٣٠َ° عرضاً ، ويقارب سكانها ٣٠٠٠ نسمة وتحوي مجموعة من الأبنية أكثرها قديم غير منسق وفيها بنايات حديثة ، وأهم منشآتها الحديثة الشارع الرئيسي الذي أمر بشقه الأمير خالد السديري في سنة ١٣٧٠ هـ بعد قتل عبد الكريم الرمان في آخر سنة ١٣٦٩ هـ . ولا تزال الامارة تقيم في القصر المبني من الطين في سنة ١٣٣٨ من عهد عبد الكريم بن رمان وهو قصر بني على الطراز العربي المعروف في قصور الرياض وحائل، يتكون من سور مرتفع تحيط به الأبراج من جميع النواحي، وله باب يدخل منه إلى دهليز ينعرج ذات اليسار وفي هذا الدهليز بجانبه مقاعد بنيت من الطين على طراز المقاعد التي كانت معروفة قديماً أمام قصر الرياض قبل هدمه وانشائه حديثاً على الطراز الحديث، كانت العادة في تلك المجالس في الرياض وفي حائل وفي تيماء ان الحاكم يجلس فوقها بدون أن يوضع تحت الجالسين شيئاً من الفرش ، مما يحول بينهم وبين المقعد المبني من الطين ويحيط بذلك الحاكم المقربون لديه ، أما الاتباع فيجلسون في الأرض ، وذلك الدهليز يتسع لما يقرب من ٥٠ جالساً ، فوق المقاعد وتحتها وبعد هذا الدهليز على جهة اليمين مكان القهوة وهو مجلس واسع يفي لما يقارب الـ ٥٠ جالساً على الأرض وسقف هذا المكان مرتفع جداً ، بحيث يمكن ان يسع طابقين اثنين ، ثم على اليمين مسجد صغير هو مسجد القصر ، ومع صغره كانت تقام فيه صلاة

الجمعة ، وفي هذا المسجد لقي الحاكم الأخير من اسرة آل رمان حتفه ، وبعد المسجد على اليسار باب صغير يفضي إلى ساحة واسعة من القصر ،عندما رأيتها تخيلت أنها كانت يوماً ما قصراً او موقع قصر أثري وفي هذه الساحة الواسعة تتسرب جميع مياه القصر من مختلف جهاته ، وفي وسطها أحجار وضعت على فوهة تبتلع المياه ، ولا أدري إلى أين تذهب ، وفي القسم الغربي منها حجرة بمرافقها هيئت لنزول الضيوف الاعزاء فيما يظهر ،وكان حظي حسناً وكان الأمير إلي محسناً فقد سكنتها ،وفي المساء أقام الامير حفلة عشاء دعا اليها أعيان البلدة أو بعضهم على مائدتين كبيرتين وكان النور من مولد كهربائي ضعيف فاستعيض عنه بمصابيح تسمى (اتاريك) في هذه الساحة الواسعة التي تهيأ عند الحاجة بفرشها بالكراسي وبالبسط ولها باب ضيق في شرقيها يتصل بقسم من القصر خصص للحريم ، وفيه يقيم الامير باسرته ، ولا أعرف عنه شيئاً إلا أن من أبوابه الصغيرة ما يتصل بالحديقة الكبيرة الواقعة في شرقه ، والتي هي حديقة ابن رمان وقد اوفاها الشيخ عبدالله فلبي وصفاً ، ومنها باب يخرج إلى الساحة الضيقة الواقعة في شمال القصر ، ومنها يبدأ الشارع الرئيسي الكبير ، وبقربها تقع بئر هداج ، وبقرب القصر منازل بعض حاشية الإمارة ، ومنها ما بني على الطراز الحديث وقد دعاني الشاب الذي تولى إرشادي لزيارة كثير من الأماكن التاريخية القريبة من المدينة فتناولت القهوة مع الأمير وهو صهره زوج ابنته الشاب الذي من أهل بلاد الرس من القصيم وينمى إلى قبيلة العجمان من قحطان ووالده لا يزال حي يرزق ويقيم في بلدة عفيف في عالية نجد.

يقدر الشيخ حافظ وهبة – رحمه الله – سكان بلدة تيماء بـ ٢٥٠٠ نسمة[١] وهذا التقدير قد يكون له وجهة من الصحة عندما ندرك أن تيماء تقع متوسطة بين منازل البادية ومناهلها ، ولكننا إذا أردنا أن يكون التقدير صحيحاً حينما نضيف أولئك ، يجب أن يكون العدد أكثر أما الحضر فهم في

---

(١) : « جزيرة العرب في القرن العشرين » .

رأيي لا يبلغون هذا العدد ، وخاصة عندما يلقي المرء نظرة على بلدة تيماء .

وفي المدينة جامع كبير انشيء حديثاً ومساجد أخرى سوى مسجدها الأثري الذي سبقت الإشارة لديه ، وفيها مدرسة ابتدائية للبنات ، مررت بخارجها فرأيتها مبنية بناية حديثة ، وعلمت بأن البناية مستأجرة وان فضيلة قاضي البلدة وهو رجل قصيمي عجْمي قحطاني بنى بنايات كثيرة أفضل بها على هذه البلدة فأصبحت الدوائر الرسمية التي قد تجد من ظروفها ما لا يمكنها من العمران تجد مبنياً ما قد يفي بحاجتها .

وقد كرم فضيلة القاضي فاتصل بالأمير الذي أبلغني بأنه يدعوني لتناول القهوة في بيته ولما زرته بعد القيام بجولة قصيرة خارج المدينة وجدت بيته من خير البيوت ، وذكرت وأنا أدخل فيه ما شاهدته في بعض الدور القديمة في دمشق من حيث السعة ووجود بهو واسع أمـــام المدخل مخصص لغرس بعض أشجار الفاكهة التي شاهدتها على درجة من القوة ، ثم شاهدت من نظافة البيت وحسن ترتيبه مـا دفعني إلى أن أتحدث مع الشيخ لمـاذا لا تكون بنايات البيوت على ذلك الطراز وعلى طراز بيت صهر الأمـــير الواسع ذي الحديقة الصغيرة الجميلة ؟

ولكنه أجابني بـأن أكثر أهل هذه البلدة يعيشون عيشة البداوة ، وكل ما تشاهد من أبنية حديثة فهو لأناس طرأوا عليها .

في البلدة امكنة لبيع النفط إذ هي تقع في الطريق بين المدينة وتبوك ، وفيها قهوتان يهيأ فيها للمسافر ما قد يحتاج إليه مؤثثتان على طريقة مقاهي مكة قديماً بالكراسي الخشبية الطويلة المصنوعة من الخوص ، ويعمل فيهما أناس من أهل اليمن الذين انتشروا في هذه الأيام في مختلف انحاء الجزيرة ، ويقدمون من الطعام للمسافر أنواعاً هي أقرب إلى ما كان معروفاً قديماً في مطاعم مكة من الرز وبعض أنواع الخُضر والخبز .

وفي البلدة محلات حكومية للمحكمة وللشرطة وغيرهما بطريقة حديثة البناء وبسيطة حقاً .

وامارة تيماء مرتبطة بامارة حائل إدارياً غير انها تتصل بوزارة الداخلية في الشؤون الادارية أما شؤون البادية فمرجعها الامير ابن مساعد في حائل .

لقد كانت تيماء بحكم موقعها المتوسط من أهم البلاد التي تقصدها البادية ، وكانت في القديم أعمر من تبوك ذات نخيل تمتار منها البادية[1]،ولكن الآن قد تغيرت الأحوال، فبعد أن كانت البادية محصورة في ناحية من الأرض تفتحت أمامها المناهج واتسعت المسالك وعبدت الطرق وزال الخوف فأصبح كل ذي حاجة يستطيع أن يجلب حاجته من أقصى المعمورة ، ولكن هذا لا يعنى أن البلاد لا تستطيع بثرواتها الطبيعية أن تفي بحاجات السكان وخاصة بما تنتجه أرضها .

وهذا يتطلب دراسة عميقة من المعنيين بالشؤون الاقتصادية الزراعية ، ولم أقرأ فيما وصل إليّ ما أستطيع به الحكم من هذه الناحية على هذه الواحة الجميلة .

ويحسن أن نورد كلمة موجزة عن الطرق :

لقد تم تعبيد الطريق الموصل بين تيماء والمدينة ويبلغ ٤٧٦ كيلاً ،وبينها وبين خيبر ٢٥٩ كيلاً وبينها وبين تبوك ٢٤٠ كيلاً ، وكل ذلك معبد مبلط بالاسمنت ، وفيه مواضع يجري الآن تغييرها وإصلاحها .

أما الطريق بينها وبين العلا – ويبلغ ١٠٤ أكيال - فليس معبّداً غير أن وزارة المواصلات أعلنت في الصحف في الأيام الأخيرة بأنها تريد تعبيده ومتى تمّ ذلك يُصبح طريقاً رئيسياً مهماً يربط تيماء بشمال الحجاز .

---

(١) كتاب ذكر المسافات وصور الأقاليم رقم ٣ جغرافية مكتبة عارف حكمة في المدينة ورقة٦ وهو منسوب في بعض المصادر إلى أبي يزيد البلخي ، والنسبة بحاجة الى التحقيق

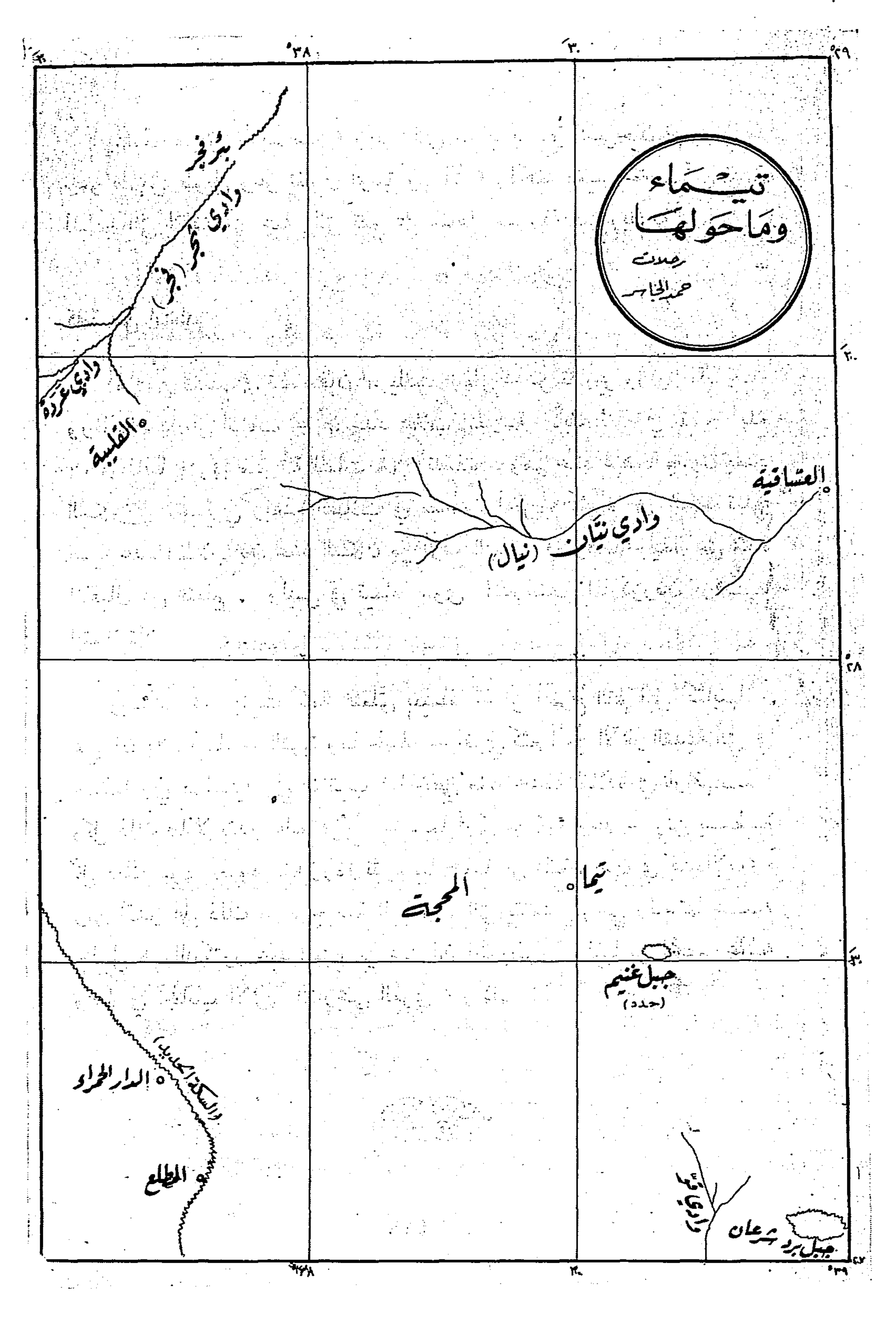
وهناك طريق لا بد منه ، وهو الذي يصلها بوادي السرحان ثم بالجوف، وهو طريق طويل وعر يخترق أودية ورمالاً ، ولكنه مفيد حقاً بالنسبة للبادية التي لا تستغني عنه والتي تقيم على مناهل معروفة فيه وبقربه .

كلمة عن التعليم :

أما عن التعليم في تيماء فإن مما يلفت النظر – من تقارير وزارة المعارف، ورئاسة مدارس البنات – أن عدد طلاب المدرسة الابتدائية في تيماء بلغ ٢٦٦ طالباً ، وفي مدرسة البنات ١٦٨ تلميذة ، وهو عدد عندما يقارن بعدد السكان التقديري وبعدد الطلاب في مدارس أخرى كثيرة في البلاد تبدو نسبة عدد الطلاب بين عدد السكان من أرفع النسب ، وهذا يدل على شدة الاقبال على التعليم . وليس في تيماء سوى المدرستين المذكورتين وهما ابتدائيتان .

وبعد : فقد بقيت كلمة تتعلق بتيماء – لن أطرح القلم قبل كتابتها – هي أن بلاد تيماء – القرية وما حولها – تحوي كثيراً من الآثار القديمة التي في حفظها وفي دراستها وفي التنقيب عما خفي منها خدمة لبلادنا في تاريخها ، وكل ذلك مما لا يقدر عليه فردٌ – مهما أوتي من قوة وعلم – ولن يستطيع كل ذلك سوى جهود متآزرة، تقوم بها جماعة من المتخصصين في هذه الأمور، ومن أقدر على ذلك من « جامعة الرياض » التي يقتعد كرسي رئاستها عالم جليل هو الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الخويطر ، وفيها من انحصر علمه وعمله في الجانب الأثري التاريخي العربي ، وكفى !!





تيماء
وماحولها
رحلات
حمد الجاسر
بئر فجر
وادي أبجر (فجر)
وادي عردة
القليبة
العشاقية
وادي نيّان (نيال)
تيماء
المحجة
جبل غنيم
(حدد)
الدار الحمراء
السكة الحديد
المطلع
وادي قمر
جبل برد شرعان

بين

تبوك و عمّان

الى تبوك

وفي الساعة الثانية عشرة والربع من صباح يوم الثلاثاء ، ٧ / ٣ / ١٣٩٠ – ١٢ \ ٥ / ٩٧٠ – كان السفر إلى بلدة تبوك ، ويظهر أن الأمير الشنيفي رغب أن يخفف عني من عناء السفر ، فبعد أن شملني من إكرامه الكثير من حسن استقبال وكرم ضيافة وتهيئة جولة خارج المدينة مع صهره الشاب سعود المتعب ، ثم بحفلة العشاء الكريمة حقاً ، وبتهيئة المبيت المريح وطعام الإفطار في الصباح المبكر كان عرف رغبتي في السفر ، فدعا أحد سائقي سيارات الإمارة،وأمره بأن يأخذني إلى مركز الشرطة الواقع في طرف البلدة على الطريق إلى تبوك، وقال له : « تَرَى حمد يركب في أي سيارة ، وَايتْ أو حمالي أو غير ذلك!! لكن لا يتأخر لأنه يحب سرعة السفر وهو ما يتعب من ركوب السيارات » وكان قد أخبر مدير الشرطة ونحن على العشاء برغبتي في السفر لكي يتصل هاتفياً عندما تمر سيارة متجهة إلى تبوك ، وكل ذلك من قبيل الإكرام – جزاه الله خيراً – .

ساعة وصولي إلى القهوة المجاورة لمخفر الشرطة وجدت سيارة صغيرة استأجرتها وحدي ، واتجهت بي الساعة الثانية عشرة ، غير أن صاحبها كان قد اتفق مع راكبين آخرين مر بهما في القهوة الأخرى وأخذهما بالسيارة ، ثم أصبحوا يتصرفون في السيارة وفي السير كما يشاؤون ، وبقيت بينهم وقد دفعت الأجرة كاملة تابعاً ، لقد كان الاستمرار في المسير في أرض براح واسعة ، حزوم وأودية صغيرة ذات نبات من الأشجار الصغيرة حتى أوشكنا أن نقطع نصف المسافة بين تيماء وتبوك وهي ٢٦٣ كيلاً .

وفي الساعة الواحدة والربع كان الوصول إلى القليبة بعد أن دخلنا سلسلة من الجبال متفرقة ، والقليبة تقع في واد يعرف باسمها وهو من روافد وادي ثجر- وسيأتي إيضاح عنها وعن الوادي - والقليبة هذه فيها بنايات قليلة، وفيها مركز للإمارة وأميرها الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله الوائل التويجري، وفيها مدرسة وبريد ولاسلكي ومخفر للشرطة وجامع وهي ملتقى طرق القريات والعلا وتيماء ، والمسافة بينها وبين تبوك ١٣٥ كيلاً ، وبينها وبين تيماء ١٢٨ كيلاً ، والمكث فيها لم يزد على ربع ساعة لتسجيل أسماء المسافرين وأوراق سفرهم .

وفي الساعة الثالثة (حسب التوقيت الغروبي) كان الوصول إلى مدينة تبوك والنزول في فندق يدعى (فندق السعادة) في وسط البلد وهو على ما يقال أحسن فندق في البلدة ، والسكن فيه لا بأس به ، والأجرة ملائمة فهي عشرة ريالات .

بعد الاستراحة قليلاً رغبت في زيارة الأخ الاستاذ علي الثرثرة، وقد عرفته قبل ثلاثة وعشرين عاماً عندما مررت بهذه البلدة ، وكان رئيس ديوان أميرها في ذلك العهد الأمير خالد بن أحمد السديري الذي رأيت من كرم خلاله ما لا أنساه، ورأيت في أخلاق الأخ علي من الدماثة واللطف ما جعل من حقه علي أن أزوره ، وما كنت إذ ذاك متأكداً من وجوده في البلدة ، غير أنني لما سألت صاحب الفندق عنه أخبرني بأنه موجود وأنه مدير فرع وزارة الزراعة ، وأراني المكان ، فذهبت اليه فوجدته في مكتبه ، ووجدت عنده الأخ الشيخ سليم بن سليمان الغربض ينتمي إلى أسرة الغرضان من الحميدات من الكعابنة أي بني كعب، وهؤلاء ينتمون إلى قريش ، وهم من أقدم سكان هذه البلدة وأوسعهم ثراء ونفوذاً واتصافاً بالأخلاق العربية الكريمة . بعد انتهاء الزيارة أخبرت علياً بأني سأسافر في المساء ، ولكنه عارض وقال : لا يمكن حتى تتعشى ، فوافقت بعد إلحاح ، فما كان من الأخ سليمان الغريض إلا أن قال : ولا يمكن أيضاً حتى تتغدى غداً - إن شاء الله - ، فحاولت

أن أعتذر، ولكنه ألح إلحاحاً لم أستطع مخالفته، وكان الرجل قد تهيأ للسفر إلى الرياض في صباح الغد ، ولم أكن أعلم بذلك ، ولما سلمت وسطت له بعض الإخوان غير أنه أصر ، ثم قمت بجولة في داخل المدينة وعدت إلى الفندق وبينما كنت جالساً أمام بابه بعد صلاة العصر إذا بفضيلة الأخ الشيخ صالح التويجري يأتي إليّ ويدعوني للخروج معه لمشاهدة بعض الحدائق في ضاحية البلدة ، وبعض أمكنتها الأخرى .

والشيخ صالح من ألطف من عرفته من القضاة خلقاً ، وأسمحهم نفساً ، وقد نال في هذه البلدة سمعة حسنة ومحبة لدى أهلها ، وكان في أكثر أحكامه – على ما بلغني – يسير على طريقة الإصلاح، ويحرص أن يزيل ما بين المتخاصمين بطريقة حسنة ، ومن هنا اكتسب بين أهل البلدة ما اكتسبه من رضا ومحبة.

كان مما شاهدنا من الحدائق حديقة كبيرة للأمير خالد السديري، وحديقة الشيخ صالح ، وتقع هذه في داخل البلدة، بحيث أصبحت متنزهاً لأهل تلك المدينة ، فعندما دخلناها شاهدنا عدداً كثيراً من الطلاب منتشرين بين الحدائق يذاكرون دروسهم ، ورأينا في جانب آخر عدداً من النسوة ، ورأينا مكاناً يحوي بركة للسباحة واسعة محاطة بجدار مرتفع ، وبجوارها مجلس وغرفة، وقد هيىء كل ذلك لقضاء من يرغب أن يمضي نزهة نهارية بجوار هذه الحديقة التي تضم مختلف الأشجار من الفاكهة وأنواعاً من مزروعات الخضر الموسمية ، وأبا كرم الشيخ – أكرمه الله – إلا أن نطعم مما في الحديقة وليس فيها في ذلك الوقت سوى بعض الخضر ، من الجزر والخس والفجل وأمثال ذلك ، فكان أن قدم لنا فلاح الحديقة من خيار ما لديه، وكان الشيخ فكهاً ، فخيرني بين آكل من الخس الذي له قلب أو النوع الآخر الذي لا قلب له ، فلما استوضحت عن الفرق بينهما أجاب: بأن الافرنجي منهما له قلب، أما العربي فلا قلب له !! غير أنه استدرك قائلاً : ومن يدري فقد يكون هناك من أنواع هذه النبات العربية

ما لا يعدم القلب !! واجتمعت عند الشيخ في الحديقة بالأخ التويجري أمير القليبة الذي كان غائباً عنها عند المرور بها ، كما اجتمعت بالقائد محمد الهنيدي قائد منطقة تبوك ، وهو من خـــير من رأيت من القادة العسكريين سمتاً وعقـــلاً .

وكانت القهوة بعد صلاة المغرب في منزل الشيخ القريب من الحديقة ، ومن جامع البلدة الكبير ، وقد أخذني إلى جانب من جوانب الدار فأراني ناحية منعزلة مؤثثة تأثيثاً جميلاً ، ومهيئة بما يحتاج إليه المرء من وسائل الراحـــة قائلاً : هـــا هنا نزل أخواك عثمان وعثمان – يعني الشيخ عثمان الحقيل رئيس ديوان رئاسة القضاء في نجد والشيخ عثمان الصالح مدير معهد العاصمة النموذجي في الرياض ، وأضاف: وتحسن إليّ لو نزلت منزلهما ، غير أنني اعتذرت شاكراً بمـــا قبله من عذر .

وبعد العشاء كان الاجتماع في بيت الاستاذ علي الثروة ، وكان اجتماعاً ادبياً مع أن أكثر من حضره من رجـــال الدولة وذوي الأعمال الذين لا صلة لهم بالأدب ،غير أن فضيلة القاضي – وكنا تحدثنا عن تبوك من الناحية التاريخية – أحضر جزءاً من « البداية والنهاية » لابن كثير فيه صفة غزوة تبوك . كان من بين الحاضرين الشيخ حمزة سحلي مـــدير المالية والجمارك الذي كانت تربطني بوالده الشيخ مصطفى سحلي أحد قضاة بلدة الوجه ، تربطني به رابطة صداقة ومعرفة قديمة ترجع إلى سنة ١٣٦٤ هـ ، حين كنت موظفاً في بلدة ينبع ثم بعد ذلك بخمس سنوات عندما مررت الوجه في طريقي لعملي قاضياً في ظبا ونواحيها وابنه الكريم مدير المالية على جانب كبير من كـــرم النفس وسماحتها .

وممن ضمه المجلس تلك الليلة ابننا الاستاذ عبد العزيز الفرشوطي أحد أدباء بلدة الوجه والذي كان يوماً ما يتولى التحرير في إحدى صحفنا في المنطقة الغربية

وهو في تبوك يدير مكتب وزارة التجارة ، وقد أولاني كثيراً من لطفـه ، فأخذني في سيارته لزيارة كثير من الدوائر الرسمية وغيرها .

لا داعي للاطالة الا ان ما غمرني من الانس في تلك الليلة لا يمكن أن يزول أثره .

وفي صباح يوم الأربعاء (١٣٩٠/٣/٧) قمت بزيارة ديوان الامارة للسلام على الأمير مساعد بن احمـــد السديري الذي عندما أردت زيارته قبل ذلك علمت بأن من عادته الخروج إلى البر بعد انتهاء أعماله الرسمية والبقاء هناك إلى وقت متأخر من الليل ، قابلت ساعة ما وصلت الديوان الاستاذ سليمان التركي السديري مساعد الأمير ورئيس ديوانـــه وهو من خيرة الشبان الذين عرفتهم ثقافة واتزاناً وسعة إدراك ولطف معشر ، ثم بعد أن قابلت الامير مساعداً لم استغرب ما شاهدت منه من لطف وكرم ، فتلك سجية عرفتها في إخوانه الثلاثة عبد العزيز – رحمه الله – وخالد وعبد الرحمن وفي غيرهم ممن عرفت من الأسرة السديرية الكريمة .

كنت قررت السفر بعـد تناول الغداء عند الشيخ سليمان الغريض رئيس البلدية ، ولكن سعــادة الامير مساعد غير بكرمه ولطفه ما كنت قررت ، وقال الكلمة المعروفة عندالعرب عندما يريدون المبالغة في الإكرام : (الضيف بحكم المضيف) وهكذا كان ، فقد استمتعت من جراء ذلك بسهرةممتعة ليست كالسهرات التي اعتادها الآخرون ، ولكنها سهرة عربية اضفى عليها كرم الأمير ما أبرزها بصورة تعتبر فريدة ، فقد جمع عدداً من الشعراء وهو يعرف بأنني ممن يتذوق الشعر العامي ويرتاح لسماعه ويرى فيه مادة أصيلة لدراسة أدبنا وتاريخنا ومعرفة مختلف اوجه الحياة الاجتماعية بيننا .

لقد رأى بعـــد الحاح متواصل مني ان يضيف إلى فضله فضلاً ، وذلك انني اخبرته بأن أبنائي في لبنان وفي تلك الليلة سمعنا في المذياع أخباراً غير

سارة عن اعتداءات اليهود على جنوب لبنان ، ورأى انني في قلق فكري من هذه الناحية ، وكان قد قرر في الصباح ان يهيء لي رحلة لمشاهدة آثار مدين في جنوب حقل فيما بينه وبين المويلح ، وهناك مقناً وعَيْنُونـَا ومغاير شعيب والبدع والخريبة وكلها أمكنة أثرية تستدعي الزيارة والمشاهدة .

هيأ لي أكرمه الله سرعة العودة إلى لبنان ، عندما رأى رغبتي في ذلك ، فأمر بسيارة هيء فيها ما يلزم للمسافر ، ونصحني بأن اشاهد في الطريق آثار البتراء في وادي موسى فقد شاهدها فأعجبته ، واستغرب كيف لم أزر تلك الجهة مع قربها .

ودعته منتصف الليل معبراً عن عجزي عن شكره وعدت إلى البلدة ، وفي الصباح المبكر كان مدير المالية الصديق الكريم الشيخ حمزة بن مصطفى سحلي قد الح عليّ بأن اتناول عنده طعام الافطار ، وأرسل رسولاً يرشدني إلى البيت ، كما بعث بآخر إلى صاحب السيارة يخبره بأن يمر بي عندما ينتهي من تهيئة وسائل سفري ، وهكذا كان .



مدينة تبوك

لقد اتسعت البلدة وتغيرت تغيُّراً مفاجئاً بعد حوادث فلسطين الأخيرة ، لقد زرتها عام ١٣٦٧ هـ ، فرأيتها تتكون من مبانٍ من الحجر قليلة أنشئت في العهد التركي تستعمل لموظفي السكة الحديد وعمالها ، وأكواخ من اللبن والطين مساكن لأهـــل البلدة ، وقَـصْرٍ كبير بني من اللبن والطين ؛ في أول عهد الحكومة واتخذ مقرّاً لدائرتي المالية والجمارك ، وبناية تتكون من حُجَرٍ قليلة ينزلها الأمير ، وكان في ذلك العهد الأمير خالد بن أحمد السديري وكان السكان في ذلك العهد لا يتجاوزون ألف نسمة ، بيـــنما كانوا سنة ١٣٥٤ لا يبلغون الألف [١] .

وكان في البلدة عُوينات ضعيفة يبض منها الماء بضعفٍ منها (١) عَين السِّكر [٢] – بكسر السين واسكان الكاف بعدها راء – وهي عين تبوك القديمة (٢) عين الشيخ رُحيّل (٣) عين الشيخ كـُرَيّم (٤) أبو سبعة (٥) الحِثا – بالخاء بعدها ثاء ساكنة فميم (٦) المُعترضة (٧) عين رايس ، وعلى هذه العوينات نخيلات قليلة ، أما في هذه الآونة فقد حفرت في البلدة آبار ارتوازية ، وفي بعض الجهات منها نبع الماء غزيرا من عُمقٍ يتجاوز مئات الأمتار ، وجرى على ظاهر الأرض، وفي بعضها عثر على ماء غزير ، استعملت

---

(١) قدرهم حافظ وهبة في « جزيرة العرب » ص ١٩ بـ ٨٠٠

(٢) نضبت الآن .

المضخّات الرافعة لجريانه ، وقد نضب ماء العوينات القديمة ، ومات أكثر نخلها ، وغرست حدائــــق جميلة ، بجوار المدينة منها حديقة للشيخ صالح التويجري ، قاضي تبوك ، وأخرى للأمير خالد السديري ، وثالثة للأستاذ علي الثرة مندوب وزارة الزراعة ، وحدائق أخرى ، وأنشيء في المدينة كثير من الدارات (الفلل) والدور الجميلة ، غرست حولها الأشجار ،وخططت البــــلدة تخطيطاً حسناً ، وأنشىء لكثير من الدوائر الرسمية محلاّتٍ واسعة كالإمارة والبلدية والمستشفى و (نادي الضباط) وغير ذلك من المباني . وانشىء فيها عدد من المساجد قال لي فضيلة القاضي الشيخ التويجري: إنها تبلغ اثنين وثلاثين مسجداً ، يُجمَّع في سبعة منها. وفي المدينة سوق طويل يخترقها، تزخر دكاكينه بمختلف البضائع ، وتتفرع في جوانبه محلات لبيع مختلف الأشياء كالخضر واللحوم والحطب والفحم وغير ذلك ، وأنيرت البلدة بالكهرباء ، وأدخل الماء إلى المنازل ، وتوفرت فيها جُلّ الوسائل التي تتوفر في أرقى مدن المملكة، ولا تزال في تقدم واطراد نـُمُوٍّ ، فسينشأ فيها هذا العام ٥٠٠ دارة ، لبعض موظفي الدولة ، وهي واقعــــة في براح واسع من الأرض ، ومحلاتها متباعدة ، وماؤها غزير وعذب ، وإن كان بواسطة الضّخّ بالآلات ، ويخشى أن تزيد المياه عن الحاجة فيكوّن مستنقعاتٍ شاهدت بعضها بجوانب بعض الحدائق .

ومن أغرب ما شاهدته في هذه المدينة أن أكثر المتاجر ودكاكين البيع في أيدي بعض إخوانــــا من الطارئين على هذه البلاد من الشام (فلسطين والأردن وسورية) واليمن ، وغيرهم .

ونالت تبوك حظها من التعليم ففيها مكتب للاشراف على التعلم من قبل وزارة المعارف ، يديره الأستاذ عبد الرحمن بن عواد الحجيلي ، يشرف هذا المكتب على ٢٢ مدرسة ابتدائية نهارية و ٩ مدارس ليلية ، ومدرسة واحدة

أهلية و ٦ مدارس قروية ، وفي تبوك مدرسة لأبناء الضباط فيها أقسام ثلاثة : ابتدائي ومتوسط وثانوي ، وفي تبوك مدرسة ثانوية .

والفتاة في تبوك تتمتع بما تتمتع به أختها في البلاد الأخرى من حيث التعليم ففي تبوك مكتب للإشراف على تعليم البنات يديره الأستاذ اسماعيل ابن محمد الدخيل، يتولى الاشراف على ثلاث مدارس ابتدائية ومعهد للمعلمات، ومدرسة متوسطة وقد بلغ عدد التلميذات في تلك المدارس عام ١٣٩٠ ما يقرب من ١٥٠٠ .

وتلك المدارس ليست في مدينة تبوك وحدها ، بل فيها وفيما يتبعها من القرى . أما الطلاب في تبوك ففي المدارس الابتدائية – باستثناء مدرسة أبناء الضباط – ١٣٠٣ حسب إحصاء سنة ١٣٨٨ وفي المتوسطة ١٢٩ .

وقد زرت – أنا والأخ عبد العزيز الفرشوطي – الأستاذ الحجيلي وأردت أن أعرف منه عدد الطلاب ، فقال : إنه مذكور في الإحصاء الذي نشرته الوزارة . فقنعت منه بذلك ، وأخبرته أن الاحصاء لديّ .

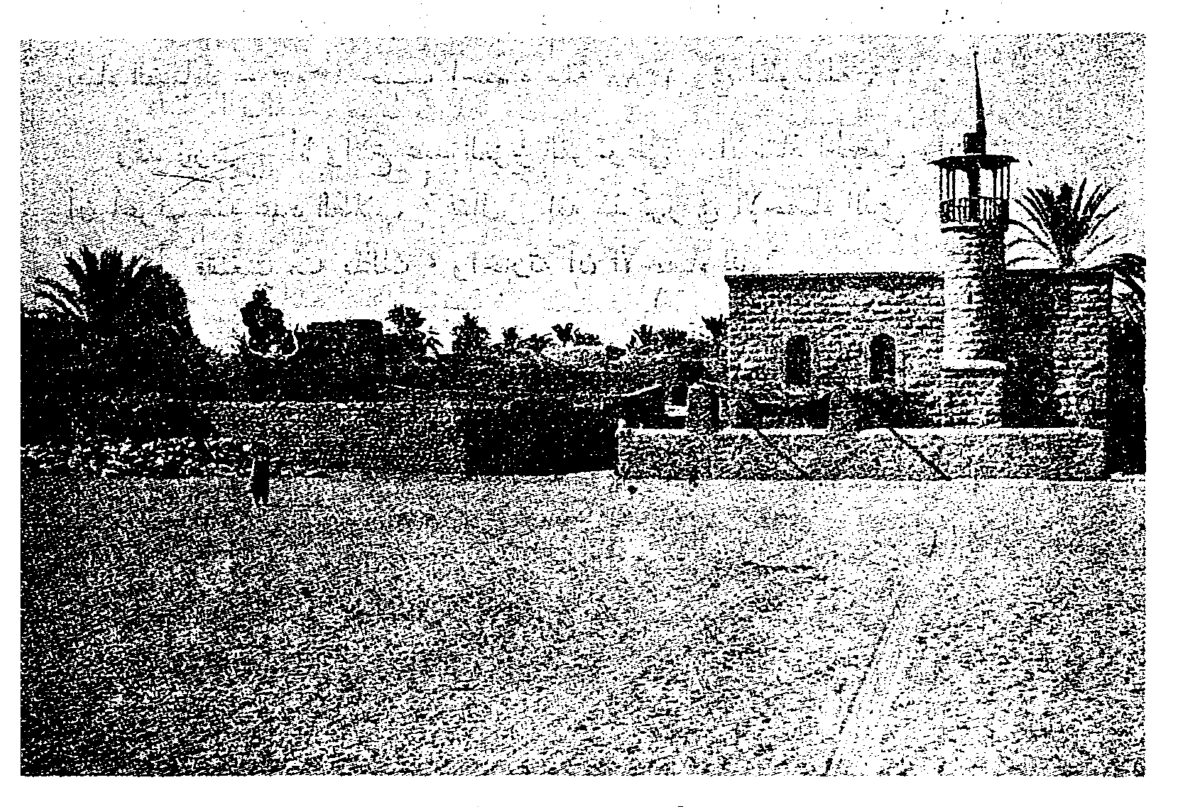


الآثار في تبوك

أوفى فلبي الحديث عن كثير من المواضع الأثرية بقرب تبوك .

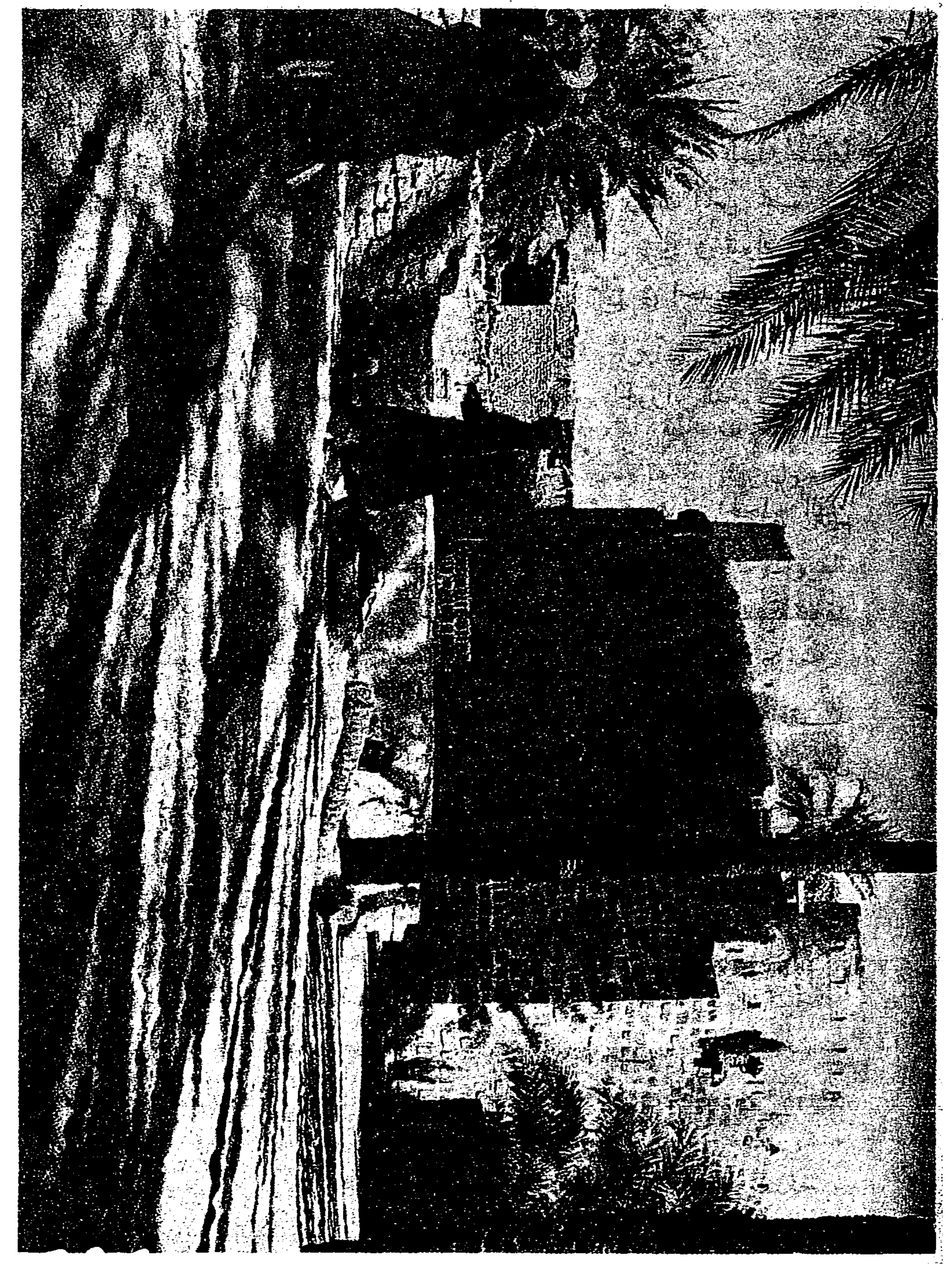
أما عن الآثار الاسلامية الباقية فأهمها :

١ — مسجد تبوك ، وهو من المساجد النبوية القديمة ، وطرأ على عمارته تطورات آخرها سنة ١٣٢٥ هـ .



مسجد تبوك — جدد سنة ١٣٢٥ هـ

٢ — قلعة تركية بنيت سنة ١٠٦٤ — كما يظهر من كتابة فوق بابها .



قلعة تبوك (أنشئت في العهد التركي سنة ١٠٦٤هـ)
وقد أصبحت داخـــل المدينة ، وهي الآن أحد مخافر الشرطة

ويجاور المسجد من شرقيه مقبرة قديمة، وقد أحسن القائمون عليها، صُنعاً بإحاطتها بسور يحميها ، ولا شك أن هذه المقبرة تضم رفات أناس يجب أن تصان قبورهم وتحترم ، فقد مات أثناء إقامة الرسول ﷺ في تبوك عبدالله ذو البجادَيْن المزني[1] ، الذي كان يحدو بالرسول ﷺ في إحدى رحلاته من مكة إلى المدينة بالأبيات الآتية :

تَعَرَّضي مدارجاً وسومي   تَعَرُّض الجوزاء للنجوم
هذا أبو القاسم فاستقيمي

وضمت المقبرة رفاة بعض المشاهير من أهل البلدة وغيرهم من الحجاج الذين كانوا يمرون بها .

ومن الآثار: عين تبوك ، ولها ذكر كثير في المؤلفات العربية القديمة، وقد نضبت هذه العين منذ عشرين عاماً .

ويظهر أن يد الاصلاح امتدت إلى هذه البلاد في عهد الفاروق ، فقد ذكر صاحب « معجم البلدان » أن عمر بن الخطاب (ض) أمر ابن غَريض اليهودي بطيّ بئر تبوك ، وكانت تنطمّ في كل وقت . ولا شكّ ان المقصود هنا هو عين تبوك الواقعة بجوار المسجد في وسط البلدة ، والتي تحيط بها الرمال من الناحية الشمالية الشرقية .



(١) : « السيرة النبوية » ١٧٢/٤ .

تبوك في كتب التاريخ والرحلات

انحصرت عناية المؤرخين المسلمين بالنسبة لتبوك في ناحيتين أولاهما : أن الرسول ﷺ غزاها وهي آخر غزوة وصل بها إلى حدود الشام ، وقد أورد خبر الغزوة مفصلة ابن اسحاق ثم ابن هشام ومن جاء بعدهما ممن أوفى خبر الغزوة وما يتصل بها من استسلام أهل وادي القرى ودومة الجندل وتيماء وخضوع تلك الجهات للرسول ﷺ وأوردوا من بين ذلك وثائق تاريخية على درجة من الأهمية ، لم تنل بعد الدراسة الكافية ، ومن أمثلة ذلك كتاب الرسول لأهل مقنا ، وهي قرية لا تزال معروفة على ساحل خليج العقبة بين (المويلح) المعروف قديماً باسم (النبك) وبين العقبة ، وكتابه ﷺ لأهل دومة الجندل ، وقد مر ذكره .

الناحية الثانية : عنايتهم بالمساجد النبوية الواقعة في الطريق بين المدينة وتبوك ، ذلك أن المؤرخين الإسلاميين حرصوا أشد الحرص على تسجيل أسماء الأماكن التي صلى فيها الرسول ﷺ ومن أقدم منعني بذلك ابن اسحاق صاحب «السيرة» ثم ابن هشام ملخصها ، ومن المتقدمين الحربي صاحب كتاب « المناسك ومنازل الحج » وهو من منشورات دار اليمامة ، ثم من جاء بعده ومنهم الفيروزآبادي صاحب كتاب « المغانم المطابة في معالم طابة » وهو من منشورات دار اليمامة أيضاً وبعدهم السمهودي في كتاب «وفاء الوفاء» ومختصره « خلاصة الوفاء » ويحسن أن نورد هنا في ما جاء في رحلة الخياري المدني «تحفة الأدباء وسلوة الغرباء» عن هذه المساجد ، فقد قال ما نصه : (وكانت مساجده في سفره إلى تبوك معروفة) نقل ذلك عن المتقدمين وأضاف:(ففي

كل منزل نزله اتخذ مسجداً ، وجميعها معروفة إلى مسجد تبوك) وأردف (قلت : هكذا نقل بيقين محال الصلاة منه ﷺ وانها معروفة بهذه الطريق بعض أهل المغازي والسير ، وقد سلكت أنا هذه الطريق ، وسلكها جمع كثير لا يحصى عددهم من المدنيين وغيرهم ، ولم يقف أحد على تعيين محل منها في منزل من المنازل إلى أن وصلنا إلى تبوك لا ظناً ولا تخمينا ، فما بالك باليقين والتعيين ، ومن لقيناه من البادية الذين ربما يكون عندهم خبر من ذلك ، ولم نسمع منهم شيئاً في ذلك ، ولعل سببه ما هو معلوم من أن هذه الطريق انقطع سلوكها مدة مديدة أيام كانت الخلافة ببغداد فما كانت الحجوج ترد إلا من طريقها ولم نعلم إلى الآن متى كان ابتداء سلوكها من جهة الشام بعد انقطاعها لنا بيقين المـــدة المذكورة ، ولعل الله ييسر علمه لنثبته في هذه الوريقات ، وبعد تسطير ما ترى رأيت العلامة المراغي والعلامة المطري قالا في تاريخيهما للمدينة الشريفة ما لفظه : — وقد اتفقت عبارتهما عليه — ذكر محمد بن اسحاق في سيرته ومحمد بن الحسن زبالة والحافظ عبد الغني رحمهم الله المساجد التى صلى فيها رسول الله ﷺ بين المدينة وتبوك منها مسجد تبوك ، قال ابن زبالة : ويسمى مسجد التوبة ، قلت : وهو من المساجد التي بناها عمر ابن عبد العزيز ، ومسجد بثنية مدران تلقاء تبوك ، ومسجد الأخضر على أربع مراحل من تبوك ، ومسجد ذات الزراب على مرحلتين من تبوك ، ومسجد بذات الخطم على خمس مراحل من تبوك ، ومسجد بطرف البتراء من ذنَب كواكب ، ومسجد بشق تاراء ومسجد بذي الحليفة ، ومسجد بالشوشق ومسجد بصدر حوضى ومسجد بالحجر ومسجد بصعيد قرح ومسجد بوادي القري ومسجد بالرقعة أو الرقمة من الشقة شقة بني عذرة ومسجد بذي المروة من أعمال المدينة بينهما ثمانية برد كان بها عيون ومزارع وبساتين أثرها باق إلى اليوم ، ومسجد بفيفاء الفحلتين من أعمال المدينة ، ومسجد بذي خشب بضم الخاء والشين على مرحلة من المدينة)[1] أورد الخيـاري الأسماء ولكنه لم يجدد موضعاً واحداً مما تقدم وأشرنا إلى بعضها في قسم المواضع .

(١) تحفة الأدباء ص ٦٠ ج ١

أما من الناحية الجغرافية فقد عني المتقدمون بالحديث عن تبوك من حيث معنى الكلمة من الناحية اللغوية ومن حيث ما ورد عن الرسول ﷺ من صلته بها ، أما الناحية اللغوية لتعليل الاسم فقد تأثر بما عرف عن المتقدمين من محاولتهم تعليل كل اسم قديم بما يتفق مع التعليل العربي ، وهذا في رأيي خطأ ، فهناك أسماء يجهل العرب معناها ، ويتمحل اللغويون والأخباريون في تأويلها معاني بعيدة عن الحقيقة ومن هنا يحسن أن نرْجع إلى النصوص القديمة في معنى كلمة تبوك ، تاركين التفصيل للاستاذ الدكتور عبدالله الوهيبي الذي سيتحدث عن هذا الموضع في القسم الجغرافي المتعلق بشمال الحجاز من تأليفه .

يقول موزل: يذكر بطليموس اسم محلة تعرف باسم (تَـبَاوَا Thapaua) عند الحدود الشمالية الغربية لبلاد العرب السعيدة « جغرافيا ٦ (٧ : ٢٧) وإني اعتبر هذا الاسم تحريفاً للفظة (تبوكا Thapaucha) أو تبوك ، إذ ينطبق كل منهما على الآخر [1] .

وإذن فهو يرى عدم صحة ما روي من أن الاسم اطلق على الموضع بسبب ما جرى للعين، وان اسم تبوك كان معروفاً عند جغرافيي اليونان، ولا شكَّ أن القول بأن اسم تبوك عرف بعد غزوة الرسول ﷺ قول غير صحيح ، فالمؤرخون يذكرون ان اسم تبوك كان معروفاً قبل تلك الغزوة ، ولو لم يكن كذلك لما كان لقولهم : عزم على غزوة تبوك مَعْنى، إذ ذلك العزم كان قبل الوصول اليها .

وها هو أهم ما ذكره اللغويون وغيرهم عن تبوك :

١ تبوك : أرض بين الشام والمدينة . وفي « العباب » : بين وادي القُرى والشام ، وإليه نسبت غزوة من غزواته ﷺ .

---

(١) « شمال الحجاز » - ١٤٠ -

واخْتُلِفَ في وَزْنِها ، وَوَجْهِ تسميتها . قال الأزهريُّ : فإن كانت التاء في تبوك أصلية فلا أدري مِمَّ اشتقاق تَبُوك . وإن كانت للتأنيث في المضارع فهي من بَاكَتْ تَبُوكُ . ثم قال : وقد يكون تبوك على تفعُول .

وقرأت في « الروض » للسُّهَيلي ما نصه : غزوة تبوك : سُمِّيَتْ بعين تبوك ، وهي العين التي أمر رسول الله ﷺ الناسَ أن لا يَمَسُّوا من مائها شيئاً ، فسبق إليها رجلان وهي تَبَضُّ بشيء من ماءٍ ، فجعلا يدخلانِ فيها سَهْمَيْنِ ليكثر ماؤها ، فسبَّها رسول الله ﷺ ، وقال لهما — فيما ذكره القُتَيْبِي — : « ما زلْتُما تبوكانِها منذ اليوم » ؟ قال : فبذلك سُمِّيَتِ العَيْنُ تَبُوكَ .

ووقع في « السِّيرة » فقال : « مَنْ سبق إلى هذا » ؟ ! — فقيل له : يا رسول الله : فلان ، وفلان ، وقال الواقدي : — فيما ذكر لي — سبقه أربعة من المنافقين : معتِّب بن قشير ، والحارث بن يزيد الطائي ، ووديعة بن ثابت ، وزيد بن نصيب .

وقال ابن عَبَّادٍ : التَّبُوكي : عِنَبٌ طائفيٌّ ، أبيض ، قليل الماء ، عظام الحب ، نَحْوٌ من عظم الاقماعي ، ينشقُّ حبُّه على شجره ، — وكذا في « التهذيب » — زاد ابنُ عَبَّادٍ : وكأنه نُسِب إليها — أي إلى أرض تبوك [1] .

واستدرك صاحب « التاج » تبوك — لأن الأزهري قد نقل عن بعض أصالة التاء — كما فعل في تبوك — ويقوي هذا القول ما سمعت من عامّة أهل الشام ينطقون به بضم الأول ولذا ذكره الصاغاني وصاحب « اللسان » هنا مَرَّة ثانية .

٢ — واورد صاحب « اللسان » الاسم في « بوك » وفي « تبك » وليس فيه زيادة عما هنا .

---

(١) « تاج العروس » ـ باك / ت ب ك ـ

٣ – تَبُوك – بالفتح ثم بالضّم ، وواو ساكنة وكاف : موضع بين وادي القرى والشام، وقيل : بركة لأبناء سعد من عذرة ، وقال أبو زيد . تبوك بين الحجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر ، نصف طريق الشام وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب إلى النبي ﷺ ويقال : إن أصحاب الأيكة الذي بعث للبهم شعيب (ع. م) كانوا فيها ولم يكن شعيب منهم وإنما كان من مدين ، ومدين على بحر القلزم على ست مراحل من تبوك ، وتبوك بين جبل حسمى وجبل شروري ، حسمى غربيها وشروري شرقيها . وقال أحمد بن جابر البلاذري: توجه النبي ﷺ في سنة تسع للهجرة إلى تبوك من أرض الشام وهي آخر غزواته ، لغزو من انتهى اليه أنه قد تجمع من الروم وعاملة ولخم وجذام ، فوجدهم قد تفرقوا فلم يلق كيداً ونزلوا على عين فأمرهم رسول الله ﷺ أن لا أحداً يمس من مائها فسبق اليها رجلان وهي تبض بشيء من « ماءٍ فجعلا يدخلان فيها سهمين ليكثر ماؤها . فقال لهما رسول الله ﷺ : ما زلتما تبوكان منذ اليوم » فسميت [١] بذلك تبوك ، والبوك إدخال اليد في في الشيء وتحريكه ، وركز النبي ﷺ عَنَزَته فيها ثلاث ركزات فجاشت ثلاثة أعين ، فهي ترمي بالماء إلى الآن ، رأقام رسول الله ﷺ بتبوك أياماً حتى صالحه أهلها .. وبين تبوك والمدينة اثنا عشرة مرحلة ، وكان ابن غريض اليهودي قد طوى بئر تبوك ، لأنها كانت تنطم في كل وقت ، وكان عمر بن ابن الخطاب (ض) أمره بذلك [٢].

(١) أورد ابن كثير في « البداية » ٥/١١ ما هذا نصه : وروى مالك عن معاذ بن جبل أنهم خرجوا مع رسول الله (ص) عام تبوك فقال : إنكم ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك وانكم لن تأتوها حتى يضحي ضحى النهار ، فمن جاءها فلا يمسّ من مائهـا شيئاً حتى آتي . قـال فجئناها وقد سبق اليها رجلان والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء فسألهما رسول الله (ص) : هل مسستما من مائها شيئاً ، قالا : نعم . فسبهما وقال لهما ما شاء الله أن يقول ثم غرفوا من العين قليلاً قليلا ، حتى اجتمع في شيء ثم غسل رسول الله وجهه ويديه ثم أعاده فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس ثم قال رسول الله (ص) « يا معاذ يوشك إن طالت بك الحياة أن ترى ما ههنا قد ملىء جناناً » أخرجه مسلم من حديث مالك به .

(٢) : « معجم البلدان » وكتاب الحازمي « الأماكن ».

٤ – وزار محمد ابن رُشَيدٍ الأندلسي تبوك ، مرَّ بها في طريقه للحج في أول شهر ذي القعدة عام ٧٨٤ هـ ، وقال في وصفها : هي أدنى أرض الشام إلى المدينة ، وهي أقصى أثر رسول الله ﷺ ، وحين دنونا منها بأميال خمسة أو ستة عبـــأ الناس الجيش ، وتزينوا بالأسلحة ، ورتبت الرجال والفرسان وخلفهم الرواحل ، ونزل كثـــير من النـــاس عن رواحلهم ، وساروا بها يسوقونها ، وعبؤوها بجزل الحطب ، حتى كأنها مراكب بحرية موسقة وذلك لتعذر الحطب بأرض تبوك إلا على بعد منها ، ويذكر الناس أنهم انما يعبؤون الجيش عند دخولها عادة لهم ، يزعمون فيها الاقتداء لأنه ﷺ دخلها كذلك، والله أعلم–ولا شك أنه انتهى إليها وأقام بها ولم يتجاوزها وكانت مدة إقامته فيها عشرين ليلة ، وهي آخر غزاة غزاها رسول الله ﷺ بنفسه سنة تسع من الهجرة فسار فيها رسول الله ﷺ بالمسلمين لغزو الروم في شهر رجب ، وعاد إلى المدينة في شهر رمضان ، ثم أورد حديث أن رسول الله ﷺ قال : «إنكم ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك، وانكم لن تأتوها حتى يضيء النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي »فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين تبض بشيء من ماء ، فسأل رسول الله ﷺ : « هل مسستما من مائها شيئاً »؟ فقالا : نعم، فسبهما رسول الله ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول ثم غرفوا من العين بأيديهم قليلاً قليلا ، حتى اجتمع في شيء ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه ، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير ، فاستقى الناس ، ثم قال رسول الله ﷺ : « يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة – ان ترى ما هاهنا قد ملىء جنانا » .

ثم نقل عن ابن وضاح قوله : أنا رأيت ذلك الموضع كله حوالي تلك العين جنانا خضرة نضرة، وعقب قائلا : قلت : صدق ﷺ فقد رأينا هذا الموضع قد ملىء جنانا من نخيل وبينها يسير زرع للاعراب ، وهذه العين صهريج كبير مطوي بالحجر ، يجتمع فيه ماء كثير ، ويخرج منه إلى جفر آخر كبير ، يجتمع فيه ما يسيل من ذلك ، وماؤها كثير عذب ، فاغتسلنا من هذه العين

المباركة ، وتضلعنا من مائها الطيب المبارك . وبمقربة من العين أصل شجرة يابس ، فيه غصن كبير ناعم أظنها سدراً ، يزعم الناس أنه ﷺ رقد هناك فاخضرت الشجرة — والله أعلم — ولقد اتفق لي هناك أن أخذت يسيراً من لحائها بسكين الأقلام على حكم التبرك لما ذكر من أمرها ، ولأني رأيت بعض من حضر هناك أخذ شيئاً منها متبركاً ، فرأيت شخصاً قد أقبل إلي ، لم أعرفه قبل ، ولا بعد فقال لي : حتى أنت تفعل ذلك ؟ فقلت : ولم ؟ وما تنكر من ذلك ؟ فقال : إن كان حقاً ما ذكر فيقتدي الناس بك في الأخذ منها فيفنيها الناس ، فيذهب هـــذا الأثر المبارك ، فتكون سبب اذهابه ، وإلا يكن فيقتدي الناس بك في باطل ، أو معنى هذا الكلام ، فشكرته وانصرف [1] .

ويظهر أن عادة التسلح عند الوصول إلى تبوك أصبحت مستمرة إلى ما بعد ذلك العهد قال صلاح الدين الصفدي (٦٩٦/٧٦٤ هـ) :

أتينا بالسلاح إلى تبـــوك	وذلك عادة صارت فسارت
دخلناهـــا بإيمان صحيح	دياجي الشرك منه قد استنارت
لو أن جماعة الكفار فيهـا اسـ	تجاشت نحونا لـبَـنِـنَـا استجارت

وقال :

أقول وفي الركائب من براه الـ	ـهوى وسواه حين يراه حاكي :
إذا جاءت (تبوك) بنا المطايا:	تبين من بكى ممن تباكى [2]

٥ — وقد زار ابن بطوطة تبوك في عام ٧٢٧ (نهاية عام ١٣٢٦ م) وسمع من الحجاج أن كثرة الماء في عين تبوك إنمـــا هي من بركة الرسول ﷺ ، ويذكرون ان النبي ﷺ دخل هذه الواحة على رأس حملة حربية فمن عادتهم

---

(١) « مجلة العرب » ص ٤٥٤ السنة الثالثة .

(٢) « مجلة العرب » ص ٣٣٨ السنة الثالثة والشطر الأخير مضمن من قول المتنبي : إذا اشتبكت دموع في خدود الخ ..

إذا وصلوا منزل تبوك أن يأخذوا أسلحتهم ويجردوا سيوفهم ويحمـلوا على المنزل ويضربوا النخيل بسيوفهم ، ويقيم الحجاج في تبوك أربعة أيام للراحـة وإرواء الجمال واستعداد الماء للبرية المخوفة التي بين تبوك والعلا .

٦ - ومرَّ بتبوك الشيخ ابراهيم الخياري المدني في سنة ١٠٨٠هـ (١٦٦٩م)، وقال : (أشرفنا على تبوك المنزل المبارك ، وشاهدنا قلعته المبيضة ، ورأينا أهل الشام الواردين عليه للملاقاة مع ما معهم من الأمتعة والأسباب التي تعد للبس والكسوة ، وما يناسب ذلك من الازواد وأنواع الحلوى التي يتهاداهـا الحجاج بعد وصولهم إليها ، وأنشدت هذين البيتين بعدما وقع لنا مزيد صفاء وأكيد محبةٍ ووفاء ، ورحض لأدران السفر وإزالة ما يوجب الكدر :

قصدنا إلى وادي تبوك عشية ... لننشق عرفاً للشآم يطيب

فمنذ بهـا صرْنا أرينا محاسناً ... تسلي الفتى الأوطان وهو غريب

ثم ساق خبر غزوة تبوك وقال بعد ذلك :

(وأما ما يتعلق بنفس المكان المسمى : بتبوك ، فقد وصلناه ضحوة يوم الاثنين تاسع الشهر ، فرأيناه وادياً عذب الهواء والماء ، متسع الجوانب والأكناف والأرجاء، به قلعة عامرة البناء، محكمة الوضع شامخة الرفع، مبنية بالحجر المنحوت بين الصفرة والحمرة بناء حسن الالصاق بحيث لا يظهر ما بين الحجرين لولا الكمال بالنورة ، وهي مشتملة على دهليز يقابل الباب فيه دكة لطيفة وبابها محكم فيه كتابة على قيشاني لفظها : (أمر بتعمير وتجديد هذه القلعة المباركة مولانا السلطان محمد خان عز نصره على يد العبد الضعيف محمد بن الناشف التذكرجي سنة أربع وستين وألف) . وبعد الدخول أرض مربعة مفروشة بالحجر، وعلى يمين الداخل ايوان معقود وفي الأركان أوضات ومقابل الباب والايوان صورة مسجد مفروش بالبسط وفيه محراب وفي وسط الصحن صورة بئر يقال إن ماءها نبع لا من المطر ، وبجانبه حوض منقور من الحجر يملأ للتوضي والاستعمال، ويشتمل على أوضات أيضاً في الدور الثاني وعلى مسجد غير مسقوف فوق المسجد الأول ، هذا صيفي وذاك شتوي ، وبأعلاها مدافع

كبار يرمي بعضها عند وصول الحاج إلى ذلك المنزل ، وقد نقل أهل التاريخ أن بها مسجداً مأثوراً ويقال علىألسنة الواردين: إن هذا المسجد الذي بداخل القلعة هو محل ذلك المأثور والله أعلم ، والى جانب القلعة من الخـارج ، على يمين الداخل بركتان إحداهما مربعة والأخرى متطاولة ويقال أن ماءها ينبع نبعاً من الأرض لا يؤتى به لا بسانية ولا بغيرها من الآلات وهو عذب كما علم وبالقرب من البركة بساتين مشتملة على أشجار عنب وليم وتين كثيرة داخل البساتين وخارجها وهناك سوق مشتملة على أبنية قديمة ويقابل باب القلعة بناء مربع يقال: إنه معد للضعفاء والمنقطعين هذا ما يتعلق بالمكان، وأما من يقدم اليه من الشام الملاقين للحجاج فإنهم يقدمون جماعات كثيرين مضاهين للحج بخيام عظام وعساكر ومدافع وسردار ، وكان في عامنا هذا موسى بيك ابن التركمان حسن المشهور بالشجاعة ، وينقلون من الشام كل موجود بهـا من الفاكهة وفيعامنا هذا نقلوا التفاح والعنبوالرمان لعدم استوائها، وأما غيرهما فلم ينضج فلم ينقل،وأما سائر النقليات والمخللات والأرزاز والحبوب والملابس بأنواعها والفرشوالثياب فأمر كثير،ويقوم بها سوق عظيم لم تر العين قبله مثله، والحبوبوالأجبان والدقيق ويعملون الرقاق الحواري،وغيره مما يؤكل والبيض الكثير وما لا يسعنا شرحه(١) .

٧ – وحاجي خليفة في كتابه « جهان » يمتدح من بين منازل الحاج محلة تبوك لكثرة نخيلها ومائها ،وكثرة الماء بها انما هو من بركة الرسول ﷺ ووفقاً لما يذكره حاجي خليفة فإن السلطان سليمان قد جدد القلعة هناك وبني بركة كبيرة للماء .

٨– ويقول محمد اديب (٢) : إن تبوك تعرف كذلك بعاصي خرما ويحدد المسافة بينها وبين المنزل المعروف بقاع البسيط باثنتي عشرة ساعة، ويقول ان النخيل البري ينمو هناك بكثرة ، وأما القلعة والبركة بها فيرجعان إلى عهد السلطان سليمان، ثم يقول: إن في القلعة شجرة تين عظيمة، حفر بجوارها عين

(١) رحلة الخياري ص ٥٤ و ٧٣ و ٧٤ ج ١ . (٢) « شمال الحجاز » – ١٤٤ –

ماء ، وفي البركة عين تتدفق بشدة وينبت بالقرب منها أشجار التين والرمان والسفرجل والعنب والباذنجان والبطيخ ويقال إن في تبوك مسجداً حيث صلى الرسول،وقد جدده عمر بن عبد العزيز.وامام تبوك مكانيسمى ثنية المدراري كان فيه كذلك مسجد صلى فيه النبي ﷺ وبهذه المناطق ينبت البعيثران بكثرة وكذلك الغابات ، لان الماء يسيل هناك ، وفي البقاع المجاورة فان العرب يقيمون في أماكن يزرعونها ، وقليل من أكواخ البدو قد بقي حتى الآن حيث كانت تقوم القرى والحلل قديماً ، وغير بعيد من هذه المنطقة تقع القرية المساة بسرغ . وجميع هذه الأماكن تابعة للحجاز الذي تقع فيه مكة والمدينة واليامة ، ووفقاً لما يذكره الأصمعي ، فالحجاز اسم للمنطقة التي تشتمل الحرار ، فجميع منازل سليم حتى المدينة تسمى الحجاز لأنها تحتجز بالجبال .

ويعلق موزل: لم توجد مطلقاً ولا توجد الآن أية غابات بالقرب من تبوك، ولكن يوجد إلى الغرب والشمال الشرقي كثير من الغضا الذي يكون في هيئة أحراش ترى من بعيد كأنها الغابة الصغيرة ، ومنذ انشئت سكة حديد الحجاز أخذت هذه الأحراش تتضاءل فقد كان الغضا يقطع ويرسل إلى المحطات المختلفة على طول الطريق أو كان يستعمل لعمل الفحم الذي ينقل إلى دمشق، وثنية المدراري أو المدرا الحديثة الواقعة قريباً من قصير التمرة على نحو من عشرين كيلاً من تبوك ، أما منازل العرب فتقوم بالقرب من حديقة الرايس، وبالقرب من عين الجرثومة وبالقرب من بير القنا وفي كل مكان إلى الجنوب والغرب من محلة تبوك . أما قرية سرغ فتذكرنا بالمنزل المعروف بسرغ، الذي يقع على مائة وسبعة عشر كيلاً إلى شمال الشمال الغربي من تبوك.

وينقل موزل[١] عن يوسف الملكي بأن تبوك كانت تسكنها في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) قبيلة الحميد (الحميدات) التي كانت قد هاجرت إلى الشمال .

---

(١) « شمال الحجاز » — ١٤٥

٩ – وفي منتصف القرن الثاني عشر الهجري (١١٥٧ هـ) لم تكن بلدة تبوك تعدو كونهـا منزلة صغيرة من منازل الحجاج ، قليلة السكان كما يفهم هذا من وصف السويدي لها في رحلته ، التي نورد نصّ كلامه على ما فيه من طول . قال[١] : (مرحلة ُجغَيمان – بضم الجيم ، وفتح الغين فياء ساكنة ، فميم مفتوحة فألف ، وآخر الحروف نون – سمِّيتْ كما قيل لنا باسم شيخ من شيوخ الأعراب ، كان يأخذ الصرّ عندهـا ، وبعضهم يقول : جغينمان ، يزيدون نوناً بين الياء والميم ، وتسمى هذه المرحلة أيضاً بـ (المدوَّرَة) لأنها بقرب جبل صغـير مدوَّر ، وفي تلك الأرض قلعة بناها في عصرنا المرحوم عبدالله باشا الآيديني ، يوم كان أمير الحاج ، ويكتنف القلعة بركتان كبيرة – وفيها العين ، وصغيرة تستمدُّ من الكبيرة ، ووسط القلعة بئر معين ، وعادة الحجاج أيضاً يودعون أمتعتهم فيها – جزى الله عبد الله باشا هو الذي باشر عمارة القلعة والبِرَك ، وكان قبل ذلك – كما أُخبرت – فيها ماء قليل جداً بحيث يتقاتل الحجاج على الماء حتى قيل : كل قربة ماء بقربة دم ! . والمسافة اثنى عشر فرسخاً – ونحمد الله أنه لم يقع علينا مطرٌ منذ خرجنا من دمشق إلى مكة المكرمة ، ولم نجد بَرداً مع أنهم كانوا يحذروننا من برد المزيريب ، وعنيزة ومعان ، ولا مسَّنا نصبٌ ولا تعب ، مع أنَّ الفصل إذ ذاك كانون الأول .

وتليها مرحلة (ذات ِحجّ) بكسر المهملة ، كذا سمعتهم ينطقون بـه ، ولم أدر ما وجه التسمية ، وفيها قلعة صغيرة ، حواليها أشجار ونخيل قليلة ، وفي داخل القلعة عين ماءٍ عذب ، وحولها بركتانِ كبيرة وصغيرة ، والمسافة اثني عشر فرسخاً .

وتليها مرحلة (تبوك) وهي التي كانت الغزوة المشهورة واقعة فيهـا ،

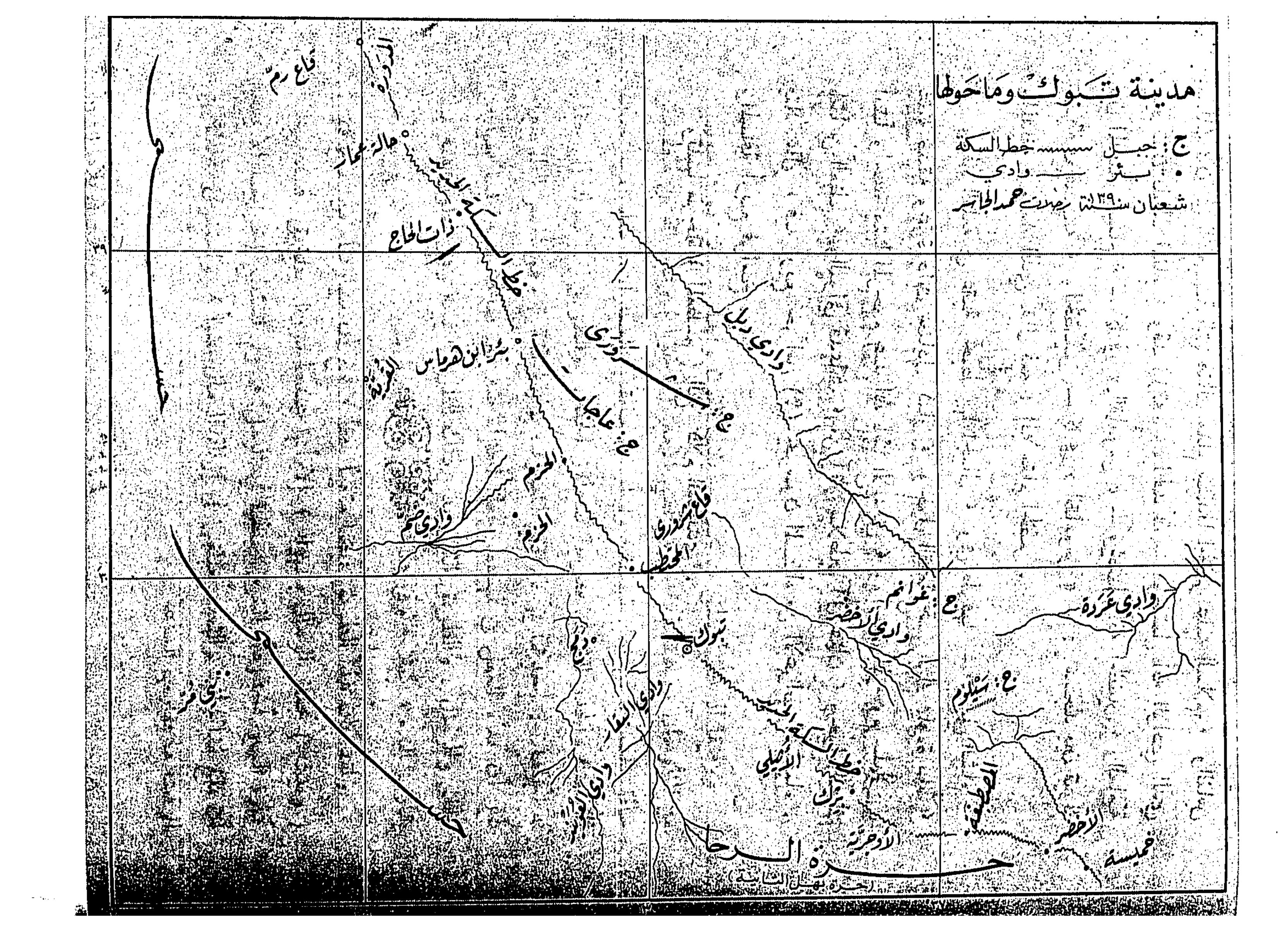
---

(١) مخطوطة مكتبة عـارف حكمة في المدينة ، والسويدي هـو عبد الله رأس الأسرة السويدية في بغداد (١١٠٤ / ١١٧٤ هـ) « الدر المنتثر » ص ٨٧ .

المعروفة بين أهل السِّيَر بغزوة تبوك، وفيها الآن قلعة صغيرة حواليها أشجار التين والنخيل ، إلا أن النخل صغار ، وفي القلعة حُرَّاسٌ ، وعادة الحجاج يضعون أمتعتهم فيها ، ولا سيما ما يتعلق بالأكل . والمسافة عشرون فرسخاً، إلا أنَّا قطعناها بأربعة (؟) وعشرين ساعة ، وعادة الحجاج يجعلون هذه المسافة مرحلتين، الأولى مرحلة القاع — وهي عبارة برٍّ أفيَح ، لا ماء فيه ، وأقمنا في تبوك يوماً ، وزارنا محدث الأقطار الشامية الشيخ إسماعيل العجلوني فلم يجدني في الخيمة ، فجاء يوماً ثانياً ، يوم الإقامة ، هو والشيخ سليمان ، شيخ المحيا، فتحادثنا معهما مقدار ساعة ،واعتذر الشيخ من تقصيره في دمشق، حيث لم يكرر الزيارة .

وتليها مرحلة (المغر) جمع مغرة ، بفتح الميم ، وسكون الغين ، وتحرّك أيضاً — هي في الأصل : طين أحمر ، والمُمَغَّرُ — كمعظَّم — المصبوغ بها ، وبُسْرٌ ممغَّر كمحدّث لونه كلونها ، والأمغر : جمل على لونها ، والمُغَر — محرّكة — والمُغْرَة — بالضمّ — لون ليس بناصع الحمرة ، أو شُقْرة بكُدرةٍ ، والأمغر : الأحمر الشعر والجلد ، والذي في وجهه حمرةٌ في بياضٍ صافٍ ، ولبن مَغِير — كأمير — أحمر يخالطه دمٌ ، وأمغرت : احمرَّ لبنُها ، وهي مُمْغِرٌ ، فإن كان معتادها فمِمْغَارٌ ونَخْلةٌ ممغار : حمراء التمر — انتهى من «القاموس» — وهي منزلة بين جبلين، حجارتها حمراء كالمغرة ، ولعلَّ هذا وجه التسمية ، ويحتمل أن يكون الأصل المغرة ، فجمعها العَوَمُّ . والمغرة — كما في « القاموس » — موضع بالشام ، لبني كلب. وأوس بن مَغْراء السعدي من شعراء مُضَر .

ومن عادة جهال الحجاج أنهم يلتقطون منها أحجاراً بقدر الأنملة ، يزعمون أنها من دود سيدنا أيوب، على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام، ويزعمون أنه إذا دُقَّ ينفع للجراحات ذروراً . والمسافة اثني عشر فرسخاً.



مدينة تبوك وما حولها
ج: جبل   خط السكة
• بئر   وادي
شعبان سنة ١٣٩٠ رسمت حمد الجاسر
قاع رم
ذات الحاج
خط السكة الحديد
بئر ابن هرماس
ج: عاجات
وادي ديل
وادي ضم
الحزم
قاع قرورى
المحطة
تبوك
ج: غوانم
وادي الأخضر
وادي عمرة
ج: سيلوم
الأثيلي
وادي البقار
الأخضر
خميسة
الأوجرية
حرة الرحا
حرة بهل الناسية

وتليها مرحلة (الأخَيْضِر) بالتصغير — ويقال الأخضر أيضاً — سُمّيتْ بذلك لأنّ في القلعـــة التي هناك مقام سيّدنا الخضر عليه السلام ، والناس يتبركون بذلك المقام ، وقد زرته — والحمد لله — ويحتمل أنه الوادي الذي بين المدينة والشام ، — كما في « القاموس » — ويحتمل أنه الخضير ، والعامّة تصرّفت فيـــه ، والخُضَيْر — كما في « القاموس » — : مسجد بين تبوك والمدينة ، ولعله الذي يقال فيه : إنه مقام الخضر .

وهذه القلعة في عقبة تحيط بها الجبال ، وفي طرفها — مما يلي الشام — عقبة ضيقة وعرة ذات جنادل كبار ، وحول القلعة خمس برك مملوءة ماءً ، أنشأ واحدة منها المرحوم عبد الله باشا الآيديني ، وواحدة المرحوم سليمان باشا بن العظم ، والبواقي قديمات ، من آثار سلاطين آل عثمان ، وحول البرك بناءٌ عالٍ ، فيه أربع أُحرّاس (؟) يحرسون المـــاء من الأعراب الأشقياء . والمسافة أربع فراسخ .

وتليها مرحلة (المعظّم) الخ كلام السويدي .



من تبوك إلى حَقْل

في صباح يوم الخميس (٩ / ٣ / ١٣٩٠هـ – ١٣ / ٥ / ١٩٧٠) في الساعة الثانية صباحاً كان السير من تبوك إلى حقل ، وفقاً لمشورة الأمير الذي حبَّذ أن يكون المسير إلى هذه البلدة للمرور بالعقبة ، وزيارة آثار وادي موسى (سلع والبتراء) .

ورفيقا الرحلة مُطلق بن نحَى – بفتح النون والحاء – من ذوي عون من الرُّوسان من عُتيبة ، من مرافقي الأمير (الأخويا) وعبد الله بن مُطَلِّق سائق السيارة من أهل تبوك ، ولم أر في سائقي السيارات مثله من حيث الأناة ، والحذر الشديد بدرجة تتجاوز الحد . والطريق من تبوك إلى حقل له اتجاهان : أحدهما يمر بالوادي المعروف بـ (زَيْتة) وهو أقصر الطريقين، غير أن بَدْءَ العمل في تمهيده جعل أجزاء منه غير صالحة للسير لما فيها من الحفر والرمال . والطريق الثاني يدع ذلك الطريق يمينه وهو أطول منه بما يقارب الـ ٣٠ كيلا ، وفي هذا الطريق كان سيرنا .

ولقد كان هذا الطريق أيضاً متعباً حقاً ، فمع أن سيارتنا من نوع قوي (ونيت) تجتاز الرمال بسهولة ، إلا أنها عندما مررنا بطريق قد جعلته كثرة السير أخدوداً انغرز أسفلها في الرمل ، ولم نستطع إخراجها إلا بعد أن بلغ منا الجهد والتعب مبلغهما في إزالة الرمال عنها ، واستغرق ذلك من الوقت ما يقارب الساعة .

كان المسير الساعة الثانية صباحاً ، وكان عدّاد المسافة يشير إلى الرقم (١١،٩٨٦) وبعد مسيرة ١٥ كيلا مررنا بمكان يدعى (دمَج) في واد بهذا الاسم ، وفي هذا المكان (مركز) حكومي . والوادي يدفع سيله في وادي البَقّار . ودمج هذا في سفح آكام حِسْمَى الشرقية .

ومن قرب هذا المكان يشاهد المرءُ قمم جبال شرَورَى وجبل عاجات على اليمين ، من بُعدٍ ، ثم انحرفنا ذات اليسار ، ودخلنا في مرتفعات حسمى وأوديتها . وبعد مسيرة ٣٠ كيلا من تبوك وصلنا إلى موضع يدعى وضام ضمٍّ ، والوضام جمع وضمةٍ ، وهي المسيل أي (التلعة) والشُّعبة من أعلى الوادي – عند أهل هذه الناحية –

ثم وصلنا وادي ضمٍّ – بفتح الضادالمعجمة وتشديد الميم – وهذا الوادي من أعظم الأودية الواقعة بين تبوك وحقل ، والطريق يسير فيه وبقربه مسافة طويلة (وانظر الكلام عنه في قسم المواضع) .

وصلنا هذا الموضع ورقم المسافات قد بلغ (١٢٠٣٥) – أي أن المسافة بينه وبين تبوك ٤٩ كيلاً – .

ثم قطعنا هذا الوادي وانحدرنا بعد مسيرة كيل واحد في وادٍ آخر من روافد وادي ضمٍّ يُدْعى وادي الهَدَد – بفتح الهاء والدال – .

وبعد أن خرجنا منه وصلنا إلى أرض تُدْعَى الشُّكاعَى – بضم الشين وفتح الكاف وفتح العين بعدها ألف – ثم انحدرنا إلى وادٍ بهذا الاسم ، يبعد عن تبوك ٥٨ كيلاً (أي أننا وصلنا الوادي والرقم ١٢٠٤٤) .

وبعد خروجنا من وادي الشُّكاعَى وارتفاعنا إلى نَبْوَةٍ من الأرض ، بعد قطع خمسة عشر كيلاً وصلنا إلى مكان رَمْلي قد حفرته عجلات السيارات ، فكان أن غرَّزت فيه سيارتنا ، ومكثنا في معالجة إخراجها ما يقارب الساعة .

ثم سرنا بين هضاب حِسْمَى ، وهي هضاب حينما يشاهدها المرء يتخيلها قصوراً من حيث ارتفاعها ، واستواء جوانبها واستقامتها بدرجة تجعلها أشبه شيء بالجدران المقامة الملساء الجوانب ، ومن تلك الهضاب ما يبدو أشبه ما يكون بالقصور التي أدرك الخراب بعض جوانبها ، فبقيت جوانب أخرى قائمة سامقة الارتفاع ، ومن تلك الهضاب ما يطوق أعلاه لَوْنٌ يخالف لون الهضبة نفسها ، إذ هي في الغالب كُمَيْتِيَّة اللون ، ورؤوس بعضها يعلوها البياض .

وعندما بلغ مُشير المسافات الرقم (١٢٠٨٠) مررنا بقاعٍ متّسع يُدْعى (قاع بني مُرٍّ) وقد كتب اسمه في الخريطة : (آبار بني مُرٍّ) ولكننا لم نشاهد آباراً ويقول سائق السيارة : إنه لا يعرف آباراً فيها ماء الآن ، ولكن فيه آثار آبار ، إحداها يقال بأنه كان عليها سَبْع مقاماتٍ ، أي أنها كانت تتسع لإدلاء سَبْع دِلاءٍ ، وكانت في القديم – على ما يقال – من أعظم مناهل البادية في هذه الجهة .

والذي استرعى انتباهي كثرة العواصف في هذا المكان فمنذ أن قربنا منه ونحن نشاهد الغبار يبدأ في الارتفاع من الأرض قليلاً قليلا ، ثم لا يلبث أن يتكاثف شيئاً فشيئاً مرتفعاً في السَّمَاءِ حتى يغطي الأفق ، وحالما يتفرق يعود إلى الارتفاع وهكذا شاهدناه كل الوقت الذي سرنا فيه في ذلك الموضع ويبعد قاع بني مُرٍّ عن تبوك (٩٤) كيلاً .

وبعد اجتياز ذلك الموضع بـ ١٩ كيلاً مررنا بهضبة لها رؤوس برز منها ثلاثة بارتفاع جعلها تُشاهد من بُعْدٍ ، وتُدْعى هذه الهضبة تُلَيْثُوَّة ، يدعها الطريق يساره .

وبعد مسيرة كيل واحد مررنا بأعلى وادي أُرَيْط (بضم الألف وفتح الراء تصغير أُراط وهم ينطقون الهمزة واواً فيقولون : وُريط والواو والألف يتعاقبان في مثل هذا الاسم كما في أضاخ ووضاخ) وهذا الوادي من روافد

وادي ضمٍّ ، وأكثر نبات هذا الوادي هو الرّتم – بالراء والتاء وهم يضمونها – ويقولون : إنّ هذا النبات ترعاه الغنم ، ولكن حليب راعيته أو لحمها يسبّب للشارب أو الآكل تخديراً في الجسم ، وهذا النبات أشبه ما يكون بالمَرْخ في أغصانه ، وفي ورقه ، وترتفع شجرته أطول من القامة وتعظم بحيث يُستظَلُّ بها ، ومنه شجيرات دقيقة الأغصان خضراء نَضِرة ، ويقولون : إن حطبه من أجود أنواع الحطب ، وأنه أشبه شيء بحطب الغضا .

كنا وصلنا أعلى وادي أُرَيط والرقم الذي يشير إلى المسافات قد بلغ (١٢١٠٦) وبعد مسيرة (١٣) كيلا مررنا بهضبة كبيرة تُدْعَى بَجْدة (بفتح الباء واسكان الجيم بعدها دال) يَحُفُّها الطريق ويدعها يمينه ، ويقولون بأن في أعلاها ماء .

والمياه في هذه المواضع قليلة ، وأغلبها في شعاف الجبال ، تتكون من الأمطار ، وتنضب عند قِلّتها .

ثم بعد مسيرة ثلاثة أكيال هبطنا في وادي أُرَيْط ، الذي كُنّا قد مررنا بأعلاه ، والوادي هنا يبعد عن تبوك (١٤٥) كيلا ، وهو كثير التعرُّج .

والمسير بين هضاب شامخة وأودية وتِلاع في أرض تكثر فيها الرمال ، وكان الرفيقان يجهلان أسماء كثير من المواضع . غير أننا ونحن نجتاز وادي أُريط ، وبعد أن سرنا بعد هبوطنا الوادي (١٧ كيلا) سنحنا جبلاً على يميننا فقال لي سائق السيارة : هذا جبل (أبا القَيس) ولا أدري هل كان مصيباً أو مخطئاً .

ومن أشهر الأودية التي مررنا بها وادي الأبيض ، وهذا الاسم يطلق على واد عظيم هو أعلى وادي (عْفَال) وهم ينطقون العين ساكِنة ، والفاء مفتوحة ممدودة ، بعدها لام (انظر تحديد المواضع) .

هبطنا وادي الأبيض عندما بلغ مشير المسافات الرقم (١٢،١٤٣) أي إن المسافة بينه وبين تبوك تبلغ (١٥٧ كيلا) .

وينحدر في هذا الوادي شعب كثيرة منها (أم نُخيلة) وهي على الخريطة[١] (النـُّخيلة) . وقد مررنا بهذه الشعبة عندما بلغ الرقم (١٢،١٤٩) أي بعد سير ستة أكيال بعد هبوطنا الوادي ، ثم وصلنا وادياً يدعى وادي صُرَيْم (ينطقون الاسم بإسكان الصاد وفتح الراء ثم ياء مفتوحة فميم (وكتب في الخريطة السريم[٢] خطأ) .وكان رقم المسافات قد بلغ(١٢،١٧٢) أي أن المسافة بينه وبين تبوك (١٨٦ كيلا) – وصريم هذا من روافد وادي عُفَال . وعندما بلغ الرقم (١٢،١٨٨) هبطنا وادي عفال ، هبطناه في مجتمع أشهر روافده : وادي الأبيض ، ووادي صُرَيم ، ووادي الشَّرف (بين هذا المكان وبين تبوك ٢٠٢ مئتان واثنان من الأكيال) .

وبعد قطع ما يقارب الكيل من المسافة حيث يتسع الوادي بلغنا مجتمع الطرُق من حَقـْل شمالاً ومن تبوك شرقاً ومن الشيخ حُمَيد غرباً ، ومن هنا شرعنا في السير في الطريق المعبَّد المسفلت الممتد بين شرم الشيخ حُمَيد وبين حقل ، والذي سيُمَدُّ إلى تبوك أيضاً .

بعد عشرة أكيال من مجتمع الطرق بلغنا رأس الشَّرَف،ويدعى الشرفة، شرفة بني عطية . ومن هذا المكان ينحدر السيل إلى وادي عفال ، وبعد الانحدار منه غرباً صوب حَقـْل تنحدر السيول غرباً إلى البحر ، وهذا الموضع المعروف بالشرف من أشدّ هذه المواضع بَرْداً في الشتاء بحيث يزعمون أن الثلج يشاهد على قمم الجبال المحيطة به ، وهو لارتفاعه شديد الهواء .

ويبعد الشَّرف عن تبوك (٢١٣ كيلا) . ومنه ننحدر في وادٍ يدعى – على ما قال لنا رفيقنا الرويس العتيبي – سرُّ أُمِّ جُمَيْع – بكسر السين

---

(١)«أبحاث جيولوجية» رقم B ٢٠٠ - I (٢) «أبحاث جيولوجية» رقم B ٢٠٠ - I

وتشديدالراء ، وُجميع بضم الجيم وفتح الميم – تصغير الجمع مضافاً إلى كلمة أمّ ، وهذا الوادي يصبُّ في البحر نزلنا أعـلاه والرقم (١٢،٢٠٢) ، وبعد أن قطعنا خمسة أكيال مررنا بأنف جبل تركناه يسارنا قيل لنا : إن اسمه (المُجَيْفِل) تصغير المجْفَل وهو في الخريطة (مجيفل) غير معروف، وبعد اجتيازه شاهـدنا من بعد – على أيماننا – وادياً قيل لنا إن اسمه (عُمَيق) بفتح الميم – تصغير عَمْق – وعندما بلغ الرقم (١٢،٢١٢) هبطنا وادياً يدعى أمُّ جُرْفين انحدرنا فيه حـتى بلغنا البحر والرقم (١٢،٢٣١) أي (١٩) كيلاً عنْ عميق ، ومصبه في البحر يدعى الحُمَيْضَة (تصغير حَمضة) ميناء صغير فيه بنايات قليلة ومراكب بحرية صغيرة للصيد .

وبلغنا بلدة حَقْل عندما بلغ رقم تحديد المسافات (١٢،٢٤١)أي إن المسافة بين حقل وتبوك من هذا الطريق الذي سلكناه تبلغ (٢٥٥) خمسة وخمسين ومئتي كيل قطعناها في تسع ساعات تقريباً ، بحيث لم نصل إلى بلدة حقل إلا بعد غروب الشمس بنصف ساعة . وكنا قد استرحنا بعد أن اجتزنا نصف الطريق وطعمنا وشربنا القهوة، فأمضينا من الوقت في الاستراحة قرابة ساعة ، نزلنا إلى البلدة نزولاً فهي واقعة في منخفض من الأرض ، ولما دخلنا بلدة حقل رأيناها مضاءة بالكهرباء، ورأينا مكاناً كتب فوقه : (بوفيه السنوسي) وكنا بحاجة إلى الاستراحة فدخلناه فوجدُنا في داخله ساحة واسعة في صدرها مَرْنَى (تلفزيون) وكان المنظر من إسرائيل أخباراً ثم صُوَراً للهجوم الإسرائيلي على القرى اللبنانية ،وكان منظراً أحدث لنا كثيراً من الاستياء والاشمئزاز، وكان واضحاً جداً فرغبنا في الخروج، ولكن سرعان ما دخل الساحة رجل عرف رفيقيّ فسلم عليهما ثم دعانا جميعاً بإلحاح إلى بيته ويدعى ابراهيم محمود المصري من أهل تبوك وجده ابراهيم كان قاضياً في تبوك قبل العهد السعودي ، وكان من مصر . أمـا السيد ابراهيم فموظف في شؤون المياه في حقل .

كانت رغبتنا ألاّ نستجيب لأية دعوة ، وألاّ نذهب إلى أمير البلدة إلا بعد أن نتعشى ، ظناً منا بأننا سنجد في البلدة مطعماً . ولكننا بعد أن بحثنا

علمنا أنه لا يوجد سوى هذا (البوفيه) و (مقهى) بقرب الشاطىء لا يقدم طعاماً ، فكان أن استجبنا لدعوة الداعي ، وبعد تناول القهوة عنده ذهبنا إلى الأمير للسلام عليه ، ثم حضر مضيفنا موجهاً الدعوة للأمير للعشاء، الذي هيّأ لنا مكاناً للمبيت في دارة (فلّة) كان أحد الأمراء بناها على الشاطىء بعيدة عن البلدة .

لقد كان الأمير ابراهيم بن مزيد – من بُريدة – على درجة كبيرة من كرم النفس وسماحة الخلق ، فأعد لنا في تلك الدارة ما نحتاج إليه. وأبى كرمه إلا أن نبقى صباح يوم الجمعة حتى نتناول طعام الغداء عنده .

وفي الصباح دعانا لطعام الإفطار (فكوك الريق) السيد عبد الله الغريس مدير البلدية ، وهو من أهل بريدة ، وخاله السيد سليمان الجارد الذي تولى إدارة خفر السواحل زمنا ما .

لقد كان الأمير ابن مزيد كريم الخلق مع كل من كان ذا صلةٍ به ، وكان بنا حفياً – نحن ثلاثة – بعد تناول طعام الإفطار ذهب صاحباي لقضاء بعض حاجاتهما ، وذهب بي الأمير لمشاهدة معالم البلدة ، وهي – كما قلت – تقع في منخفض من الأرض على شاطىء البحر الممتد غربها، وعلى هذا الشاطىء نخيلات قليلة، وعدد قليل من البساتين ، ومع قرب البحر منها إلا أنها خضرة نضرة ، ذلك أنها تقع في مجرى وادٍ عندما يسيل يجرف سيله الأملاح ، أو يقللها ، والبلدة تقع على جوانب هذا الوادي الذي عندما يصل اليها يتفرع فرعين: أحدهما يخترقها والثاني يقع شمالها على مقربة منها، ولهذا فهي مهددة بأن يجرفها السيل ، إذ هي في مضيق بين جبلين يحيطان بها شمالاً وجنوباً ، بل هما سلسلتان من الجبال تحيطان بالوادي الممتد من الشرق إلى الغرب، وفروعه من أقاصي جبال حسمى .

أبرز ما رأيت من مباني البلدة (المستوصف) وقد بني بناء حديثاً ، وشاهدت موقع المدرسة التي شرع في بنائها بقرب شاطىء البحر .

وفي البلدة إمارة ومحكمة ، ومدرسة للبنات وبلدية ، وغيرهـــا من الهيئات الحكومية غير أنها تحل بنايات صغيرة بالأجرة .

ومن بلدة حَقْل يشاهد المرء شاطىء البحر المقابل وجباله المتصلة بجبال الطور ، كما يرى من قرب أنوار (أيْلات) والمسافة بين البلدتين تقارب (٢٧) كيلاً فهي من حقل إلى العقبة خمسة وعشرون كيلا . والعقبة على رأس البحر ، و (ايلات) بمحاذاتها على رأس البحر أيضـــاً ، والمسافة بينهما لا تتجاوز الميلين ، و (أيلات) من العقبة تشاهد بوضوح ، الميناء فيها البواخر والسفن ، والبلدة الواقعة في شرقي الميناء ، بحيث أن المرء يرى السفن الراسية في الميناء من قُرْبٍ .

وحدثنا أمير بلدة حقل بأن الأرض الواقعة بين البلدة – بلدة حقل – وبين البحر ، كان قد سبق إقطاعها ، ولكن الأمير أبدى وجهة نظره لولاة الأمور ، وذلك بأن تقسم تلك الأرض إلى قسمين قسم يكون شاطئاً للبلدة ، لتجميلها وتهيئته مكان تَنَزُّهٍ وراحة لأهل البلدة ، وقد يُهَيَّأ فيه في المستقبل مسابح ، وأمكنة استراحة . والقسم الثاني الذي لا يلي البحر تبنى فيه امكنة تحلها الهيئات الرسمية ، فكان أن قُرِّر إلغاء الإقطاع القديم حيث لم يجر فيه أيُّ تغيير من إعمار أو إصلاح ، بل بقي على حالته .

أمـــا تقدير الأمير لسكان بلدة حَقْل فهو أكثر مِمّا قدرته اللجنة التي نُدِبت لإجراء إحصاء للسكان في سنة ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) ذلك أن تلك اللجنة – في رأي الأمير – اكتفت بمعلومات لا يراها صحيحة ، ولا مبنية على أساس من الدراسة والخبرة ، وذلك بسبب استعجال تلك اللجنة استعجالاً لم يمكنها من القيام بعملها قياماً كاملا .

ويقدر أمير بلدة حقل سكانها مع من يتبعها من أهل البادية بـ٧ آلاف نسمة أي بزيادة ألفين على تقدير تلك اللجنة التي قدرت سكان حقل بادية وحاضرة ١٧٦٥

وسكان علقان بادية وحـــاضرة ١٧٦٧

وسكان أبا الحنشان بادية وحاضرة ١٣٦٣

٤٨٩٥

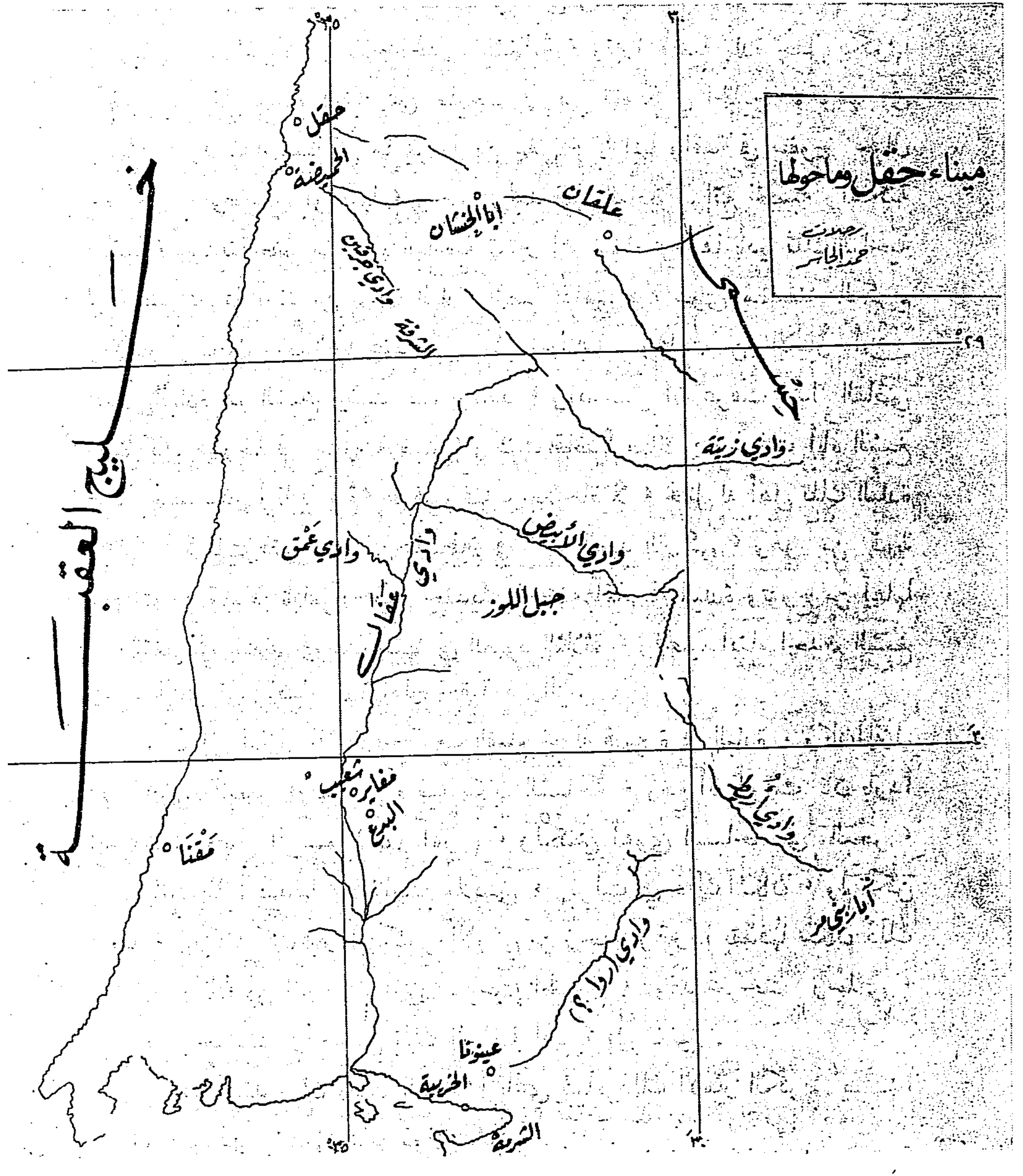
ومعروف أن علقان وأبا الحنشان في أعلى وادي حقل ، وهذه الجهة تتبع إدارياً إمارة القريات وسلاح الحدود الشمالية ، وتبرز أهمية بلدة حقل بكونها آخر ميناء تلي ميناء العقبة على خليجها ، وهي تتحكم في الخليج لوقوعها في وسطه ، ويشاهد منها كل ما يمر به من سفن ، كما أنها واقعة في سفوح جبال حِسْمَى ، ومفيض اوديتها ، وحسمى تجد فيها البادية مراتع خصبة وأمكنة تألفها ، ومدينة حقل من هذه الناحية تعتبر أهم ميناء ترتادها بادية تلك الناحية لم أحظ بمعرفة أحد من سكان البلدة لقصر اقامتي فيه سوى مضيفنا الكريم والأمير وشابين وجدناهما عنده مر ذكر أحدهما . وعلمت من الامير أن قاضي البلدة هو الشيخ رشيد محمد رشيد ، وقد سبق ان عرفت هذا القاضي حينما كان مدرساً في مدرسة ضبا ، وكنت قاضياً هناك ، وعرفت أباه الشيخ محمد رشيد مديراً للمدرسة ، عرفت فيه رجلا فاضلاً ، يحمل له أهل تلك البلدة اجمل الذكريات فقد قدم من فلسطين في آخر العهد التركي ، وهو من قرية سلفيت من قضاء نابلس ، قدم جندياً ولكنه أقام في البلدة وتزوج من أهلها ثم اشتغل في التعليم في مدرستها في العهود الثلاثة ، وانجب أبناء احدهم الشيخ رشيد الذي تولى قضاء بلدة املج حقبة من الزمن .

عدت إلى المنزل للاستراحة بعد القيام بجولة قصيرة في البلدة ، وكان المنزل على شاطيء البحر ،وقد هيىء فيه مكان للسباحة ، ومع أن الوقت كان بارداً إذ نحن في فصل الربيع (١٥ أيار) ، ولكنني أهوى السباحة في البحر ، وان كنت لا أجيدها ، فخلعت ملابسي ، ونزلت في ذلك المكان ، ولم يكن عميقاً ، ولكنه كان مملوءاً بكسر الأواني من زجاج وغيرها يقذفها سكان ذلك المنزل ، وكان من أثر ذلك أنني أسرعت الخروج ، وقد تجرحت رجلاي ، غير أنني احسست راحة من تلك الرياضة المحببة إلى نفسي .

لا أطيل فقد حان وقت الغداء ، الذي هيأه ذلك الأمير الكريم يداً وخلقاً ، والذي ينطبق عليه قول الشاعر :

وما الخصب للاضياف ان يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب

وحقاً فقد جمع الصفتين .ودعناه — نحن الثلاثة — شاكرين وسرنا لِطيتنا.



(رسم يوضح ميناء حقل وما حولها)

حقل في كتب الرحلات

عرفت حَقْل – قديماً – بأنها مينا تيماء وتبوك ، والمعلومات عنها من هذه الناحية قليلة جداً .

ولكنها اشتهرت فترة من الزمن حينما كانت أحد الأماكن التي يمر بها طريق الحجاج من مصر – بطريق البر ، ثم هجرت حقبة من الزمن بعد أن امتدّ نفوذ الصليبيين إلى نواحي فلسطين – كما يفهم من « رحلة ابن جبير » حيث استعيض عن الطريق البرّي بالطريق البحري من عيذاب إلى جدة . ثم عاود الطريق بعد زوال الصليبيين إلى عهود متأخرة . ويحسن هنا أن نورد مجمل وصف لميناء حقل – قديماً وحديثاً – :

١ – حَقْل : بفتح الحاء وإسكان القاف بعدها لام ميناء قديم على ساحل خليج العقبة ، ويقع جنوب العقبة بما يقارب الـ ٢٥ كيلاً ، ومنه يشاهد ميناء إيلات ، ويقارب عدد سكانه ألفي نسمة .

وقد ذكر المتقدمون أنه كان ساحل تيماء ، وذلك باعتبار تيماء أهم بلدة تقع في شمال الجزيرة ، وكانت أقوى وأعمر من تبوك التي فاقتها هذه الأيام عمراناً .

ويقع مينا حقل في خَوْرٍ تجتمع فيه أودية عظيمة تأتيه من الشرق من سلسلة جبال حِسْمَى ، فتكون فوهة واسعة على ساحل البحر ، تحصرها الجبال من الناحيتين الجنوبية والشمالية .

وحينما يقوى جريان المطر في هذه الأودية تكون قرية حقل معرضة لخطرها ، والساحل صخري ، وليس عميقاً ، ولكن أرضه بسبب ارتفاعها عن البحر تنبت النخيل وأشجار الفواكه ، وماء آباره مقبول ، إذ ملوحته قليلة لكونه يأتي من أمكنة مرتفعة عن البحر ، والمرء عندما يقبل عليه يُطِلُّ من مكان مرتفع ، ثم ينزل إليه ، والخليج أمامه ضيّق ، بحيث أن

المرء يشاهد جبال الطور ، أو القريبة منهـا ، كما يشاهد طرف الخليج ، وخاصة الجانب الذي لا تحجز الجبال رؤيته ، مثل أيلات ، أما العقبة فهناك أطراف من الجبال تتصل بالبحر فتحجز الرؤية ، والمرور بينها وبين البحر إلى العقبة ضيّق جِدّاً في بعض الجهات ، وها هو بعض مـا جاء في كتب المتقدمين عن حقل :

١ـ حَقلُ ـ قال ياقوت أيضاً ـ مكان دون أيلة بستةعشر ميلاً،كان لعزّة صاحبة كثيِّر فيها بستان ، فقال :

سقى دِمنتين ، لم نجدْ لها أهْلا ... بِحقلٍ لكم يا عَزّ ، قد زانتا حَقلا
نجاءُ الثُّرَيّا كلَّ آخِر لـيلةٍ ... تجودهما جوداً وتُرْدِفُهُ وَبْلا

٢ـ وقال ابن الكلبي: حَقْلُ ساحل تيماء[1] . وقال أبو سعد : حقل قرية بجنب أيلة على البحر ، ونسب إليها أبا محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين الحَقلي مولى نافع ، مولى عثمان بن عفان (ض) وكان إماماً فقيها فاضلاً ، توفي في شهر رمضان سنة ٢٢٤ ومولده سنة ١٥٤[2].

٣ـ قال الجزيري[1]:والعادة القديمة أن يتغدى الركب بآخر حقل،لأجل التزود من الماء ، وفي بعض السنين ـ في نيّف وأربعين [وتسعمائة] ـ شرب بعض أهل الركب من الماء المذكور فحصل لهم خلل في عقولهم ، وبعضهم يتفاوت في ذلك،وأقاموا على ذلك نحو ثلاثة أيام ، وعوفوا من ذالك ، فيقال إن تلك الحفيرة المشروب منها كان بها نوع من النبات يسمى الداثورة ، خالط أجزاء الماء ، فحصل منه ذلك، وبالقرب من دوار حقل تقدير ربع بريد بئر تسمى مَبْرَك ، وبحقل أيضاً واد يطلع إلى حِسْمى [3] .

٤ـ وسماه النابلسي«الحقل» وقال بفتح الحاء المهملة وسكون القاف وآخره لام : فيه نخيل وآبار طيبة الماء. ولكنه أخطأ حين أورده معرفاً، والتعريف لا يدخل الاعلام إلا سماعاً ، والمسموع والمنقول بدون تعريف (حقل) .

(١) : « صفة جزيرة العرب » ـ ١٧١ـ .
(٢) : « معجم البلدان » . (٣) : « درر الفوائد » ـ ٥٠٢ .

إلى وادي موسى (البتراء)

وبعد الظهر الساعة الثامنة من يوم الجمعة (١٠/٣/١٣٩٠ — ١٥/٥/١٩٧٠م) كان المسير من حَقْل ، فمررنا بنقطة الحدود بين السعودية والأردن في موضع يُدْعى الدِّرة بكسر الدال وتشديد الراء المفتوحة ، ولا فاصل بين الحدَّين ، فالمخفر السعودي مجاور للمخفر الأردني ، وفي كل واحد من المخفرين موظفون للجوازات وللتفتيش ، وللحكومة الأردنية قصر جميل بني حديثاً بناية محكمة بالصخر وبهندسة جميلة بهيئة حصن ، ويبعد هذا المكان سبعة أكيال عن بلدة حقل ثم بعد مسيرة سبعة عشر كيلاً بلغنا موضعاً يُدْعى البُرَيج — تصغير بُرْج ، كان قبل ثلاثة أعوام هو أول مخافر الحدود السعودية ، ويبعد هذا عن ميناء العقبة مسافة كيل واحد ، ويُدْعى البُرَيج لوقوعه في سفح جبل فوقه بُرج مطل على العقبة وعلى الطريق .

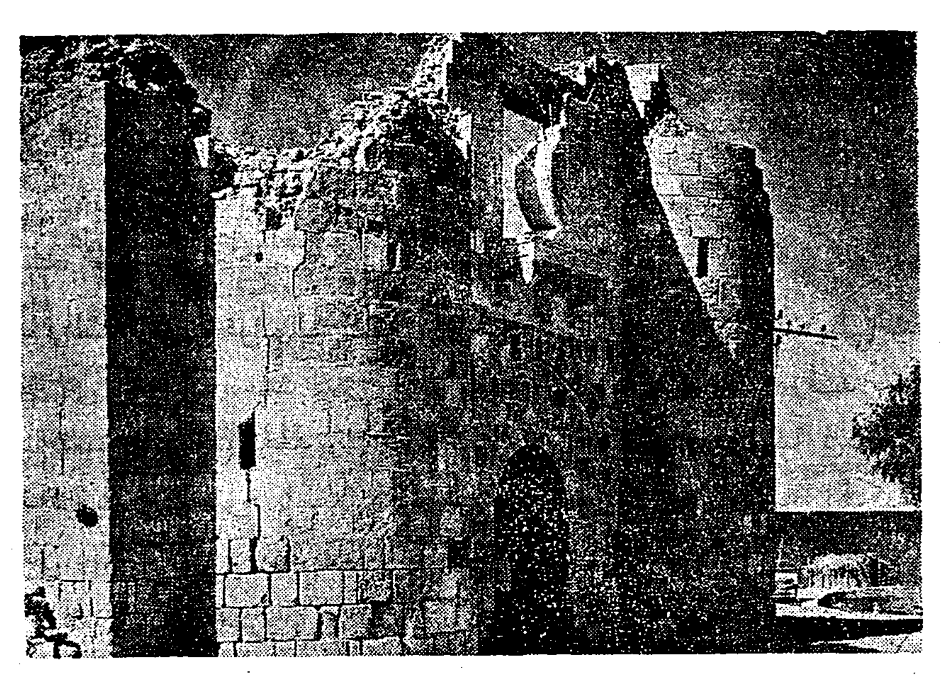
والمسافة بين حقل والعقبة ٢٥ كيلاً ، والطريق غير معبد بينهما وهو يسير على الشاطيء حيث تدنو الجبال منه ، وهي قليلة الارتفاع وقد برزت معالم تعمير العقبة في الميناء وفي غيره من المباني ، ويظهر أن الرغبة في سكناها لم تكن بالدرجة القوية كما يظهر ذلك من عدم إتساعها مع أن العناية الحكومية تتجلى في الطرق وفي بعض المنشآت الأخرى حول الميناء .

والعقبة كانت معروفة في القديم باسم أَيلة ، وورد ذكرها في كتب التفسير وفي التوراة ، ولما غزا الرسول ﷺ تبوك صالح أهلها على الجزية ، وفي صدر الاسلام كثر سكانها من بني أمية من موالي عثمان وأقاربه وغيرهم ، وكانت

كثيرة النخل والزرع ، وسميت العقبة إذ الطريق منها إلى حقل فيه عقبة كأداء ، كثيراً ما لقي منها المسافرون عنتاً ومشقة ، وقد أصلحت مراراً — أصلحت في عهد خمارويه بن أحمد بن طولون ومن بعده ، ولأيلة ذكر في عهد صلاح الدين ، وحصاره لقلعتها ثم فتحها في سنة ٥٦٦ هـ ، وليس هذا محل التفصيل في تاريخها ، غير أنهـا نالت شهرة عظيمة بكونها أحـد منازل طريق الحج المصري ، فذكرت في كثير من كتب الرحلات أما القلعة الباقية فهي من آثار القرن الثامن الهجري .

كانت رغبتنا الاقامة في العقبة ، ولكننا لم نشاهد فندقاً أو مكاناً للبقاء ، ولهذا واصلنا السير ، مع رغبتنا في الاستراحة .

وقد مررنا بالقلعة القديمة التي اصلح جوانب منها ، ولم استطع تمييز الكتابة التي فوق الباب ، وهي مبنية بالصخر بناءً محكماً .



قلعة العقبـــة

الرحلة إلى بلاد الأنباط

ما كانت الرحلة إلى بلاد الأنباط في وادي موسى (البتراء) فيما يسمى الآن بالمملكة الأردنية الهاشمية مقصودة غير أن كرم الأمير مساعد بن أحمد السديري هيأ لي ذلك ورغبني فيه ، ومن ثم واصلت السير إلى تلك الجهة بعد المرور بمدينة العقبة ، وزرت المواضع الأثرية زيارة قصيرة غير أنها ذات أثر قوي فمع أنني لم أجد في الفندق المخصص للزوار مكاناً أبيت فيه برغم ما بذلته من مختلف المحاولات ، وانني اضطررت للمبيت داخل السيارة وكانت ليلة ليلاء ، فلقد كان البرد قارصاً مما دفعني إلى إقفال الزجاج غير أنني تركت نافذة صغيرة للهواء ، فوجد منها البعوض أوسع منفذ لكي يجد من جسمي مرتعاً خصباً حال بيني وبين النوم طول الليل ، بحيث استيقظت قبل طلوع الفجر ، وأيقظت رفيقي اللذين كانا قد استعدا بما يحتاجان إليه من فراش وغطاء ، ونعما بنوم لذيذ ، كدّرته بإيقاظهما لصلاة الفجر ، وبقينا الثلاثة نصنع القهوة والشاهي أمـــام الفندق الفخم في فنائه الواسع بجوار عدد من الحافلات الضخمة التي تزخر براكبيها من السائحين الغربيين فتيات وفتيان وشيوخاً،وبعد تناول القهوة والشاهي كان الذهاب إلى المكان المعد بحسب إرشاد الزوار إلى الأمكنة الأثرية غير أن الوقت كان مبكراً ، وكان المكان مقفلاً مما دعا الأدلاء أو المرشدين إلى أن يطلبوا منا من الأجرة ما لا نستطيع دفعه ، ومن ثم اضطررنا إلى السير وحدنا بعد أن عرفنا الاتجاه . سرنا مشياً على الأقدام في واد منحدر ضيق تحيط به الجبال ويزدان جانباه بمختلف الأشجار المزهرة ، وكان الدليل بيدي كتاب « آثار الأردن » وهو من تأليف الأستاذ

لانكستر هاردنج وتعريب الأستاذ سليان موسى ، والواقع أن الأمر لا يحتاج إلى دليل فالطريق واحـــد يوصل إلى نهاية واحدة هي موقع مدينة البتراء الأثرية ، الواقعة على مسافة تقارب خمسة أكيال من الفندق الواقع في أسفل وادي موسى بعد القرية المعروفة الآن بهذا الاسم ، وقديماً باسم الجي ، سرنا في الوادي وشاهدنا أهم آثاره حتى أوشكنا أن نبلغ النهاية منه ، ثم عدنا ، وبعد أن قاربنا الخروج منه قابلتنا أفواج السائحين بين راكب على فرس أو حصان وماش على قدميه ، وقد استغرقت جولتنا ما يقرب من ساعتين عدنا بعدها إلى سيارتنا بعد أن شاهدنا أهم الآثار ولا نطيل على القارىء ، فتلك آثار قد حفلت المؤلفات الأردنية بايضاحها ، وليس من شأننا التوسع في ذكرها ، بأكثر مما نحـــاول أن نذكر أصول تلك الآثار ، وان أهلها جاؤوا من بلادنا من الحجاز فاسسوا حضارة بقيت آثارها مسجلة في الصخور والأحجار في هذه البقعة من الأرض .

إن سكان هذه الجهة يدعون الأنباط ويوضح لغويو العرب المعنى القديم لهذه الكلمة توضيحاً نكتفي بما أورده بعضهم من ذلك ماقال صاحب« لسان العرب » « وصاحب تاج العروس في شرح القاموس » ونصه : نبط : نبط البئر استخرج ماءها . والنبط : جيل ينزلون البطائح في سواد العراق بين النهرين ، وهم الأنباط ، سموا بذلك لاستنباطهم ما يخرج من الأرضين .

وفي حديث ابن عباس : نحن معاشر قريش من النبط ، من أهل كوثى ، وهي بلدة يسكنها الأنباط وبها ولد ابراهيم . ومثل قول ابن عباس ورد عن علي بن أبي طالب (ض) .

ولما سأل عمر بن الخطاب عَمْرَو بن معدي كرب عن سعد بن أبي وقاص قال : أعرابي في حبوته ، نبطي في جبوته – أي في جبايته للخراج وعمارة الأراضي ، كالنبط حِذقاً بها ومهارة فيها .

وقال رجل لآخر : يا نبطي فقال الشعبي : لا حدّ عليه ، كلّنا نبط . يريد الجوار في الدار ، دون الولادة [١] .

وفي كلام أيوب بن القِرّيّة : أهل عمان عَرَبٌ استنبطوا ، وأهل البحرين نبط استعربوا . وفي حديث عمر بن الخطاب (ض) : تَمَعْدَدُوا ولا تستنبطوا – أي تشبّهوا بمعدٍّ ولا تتشبهوا بالنّبط – وفي الحديث الآخر : لا تَنَبَّطُوا في المدائن ، أي لا تتشبهوا بالنبط في سكناها ، واتخاذ العقار والملك [٢] .

ويُعرف ياقوت النبطيّ بأنه كل من لم يكن راعياً أو جنديا ، من ساكني الأرضين ، هذا النبطي عند العرب [٣] .

وتبقى الإشارة إلى أن الانباط كانوا قبيلة عربيـــة احتلت الجزء الشمالي الغربي من الجزيرة ، وكان من آثارهـا إيجاد نوع من الكتابة تعرف بالنبطية منها اشتقت الكتابة الكوفية [٤] وكان مما نقلته هذه القبيلة العربية من الآثار الغربية في جزيرة العرب عبادتها للأصنام معروفة عند عرب الحجاز مثـــل العـــزى وهبل وذي الشرى واللات والأخيران همـــا الآلهة الكبرى عندهم [٥] ، وكان الانباط يستعملون اللغة الآرامية السائدة في كل بلاد الشرق الأوسط . ويعـبر مؤرخو العرب المتقدمين عن الآراميين باسم العمالقة ، ومن آثارهم حجر تيماء المعروف [٦] .

وكان للانباط دولة قوية من أشهر ملوكها :

١ – الحارث الأول (١٦٩ – ١٤٩ قبل الميلاد) .

---

(١) « تاج العروس » .
(٢) « لسان العرب » .
(٣) « معجم البلدان » مادة عربة .
(٤) « تاريخ العرب » للدكتور صالح احمد العلي ص ٤٤ وكتاب « آثار الأردن » ص ١١٨
(٥) المصدران السابقان ص ١١٨ و ٤٤ .
(٦) « تاريخ العرب » ٤٤ .

٢ – الحارث الثاني (١١٠ – ٩٦ قبل الميلاد) .

٣ – عبادة الأول (٩٠ قبل الميلاد) الذي اشتبك مع اليهود الذين حاولوا الاستيلاء على فلسطين .

٤ – الحارث الثالث (٨٧ – ٦٢ قبل الميلاد) .

وقد استطاع الملك الحارث الثالث أن يهزم اليهود في وقعات عديدة واستنجد به أهل دمشق فأغاثهم واستولى على البلاد [١] ، وأدخل الحضارة الهلينية بلاد الأنباط ، وجاء بمعماريين سوريين شادوا له قبراً يعتبر من آيات الفن الرائع ، يعرف باسم « الخزنة » في البتراء (انظر الصورة ص ٤٦٧) ونظم طرق هذه المدينة وأبنيتها الجميلة .

وبقي نفوذ دولة الأنباط في هذه البلاد حتى سنة ١٠٦ م حيث غزا الملك الروماني في تراحان الشرق ، وأرسل إلى البتراء حملة استولت عليها بدون مقاومة ، ومن ثم جعلتها جزءاً من المقاطعة العربية التي أنشأها الرومان في الطرف الجنوبي من سورية لصد هجمات البادية ، وجعلوا قاعدتها بُصْرى ، وبهذا انتهت حياة الأنباط السياسية [٢] .

ولا يتسع المجال للحديث عن مدنية الأنباط وتنظيماتها الإدارية ، ونفوذها الحربي .

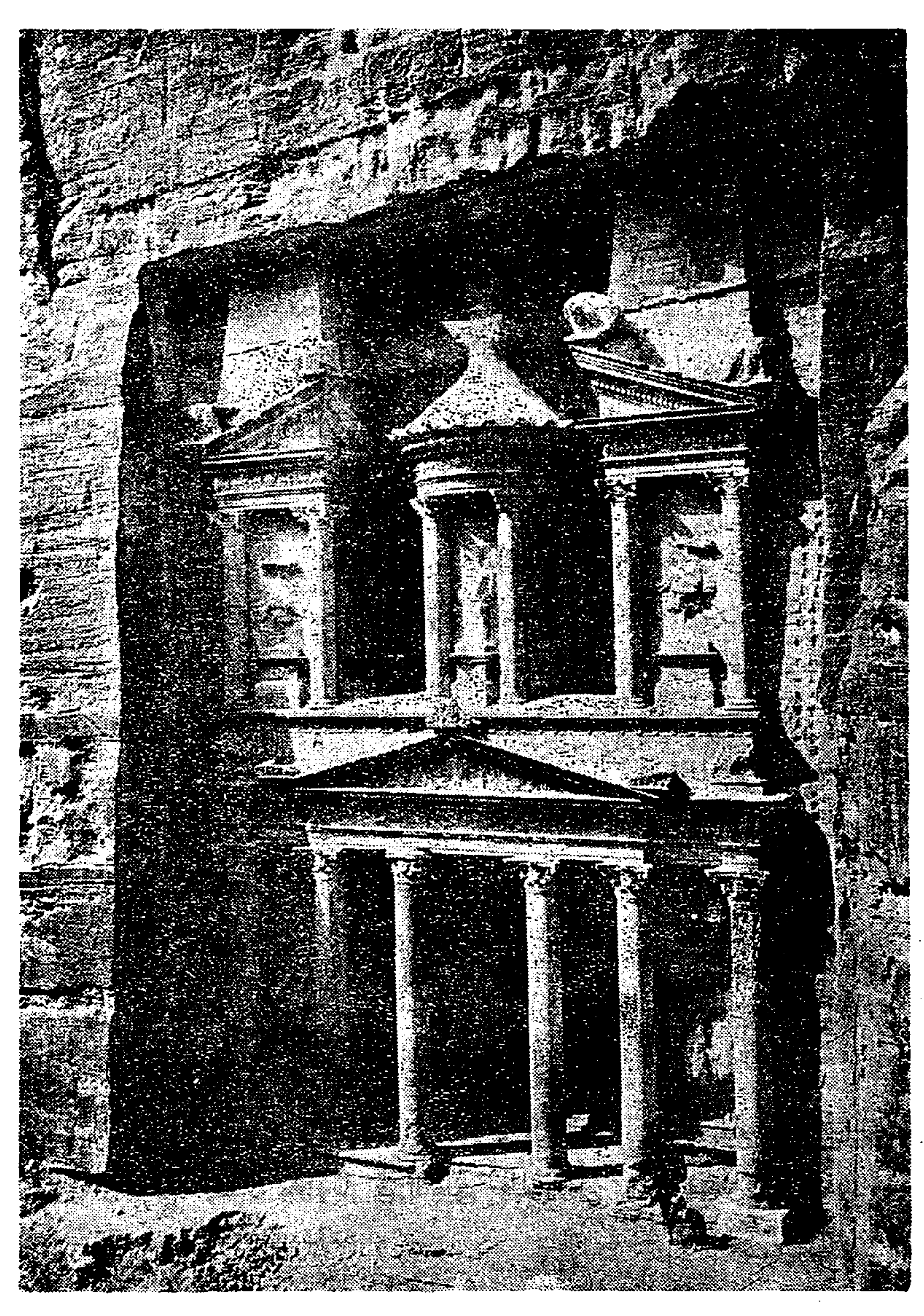
ولكن الأمر الذي يجب التحدث عنه أن هؤلاء الأنباط من عرب شمال الجزيرة ، بل هم أقرب العرب إلى أهل الحجاز [٣] ، بحكم لغتهم وأسمائهم ، ومعبوداتهم ، وعاداتهم وتقاليدهم .

---

(١) « محاضرات في تاريخ العرب » للدكتور صالح احمد العلي – ٠ :

(٢) « محاضرات في تاريخ العرب » للدكتور صالح احمد العلي – ٤١/٢ .

(٣) « المصدر السابق » ٢ :



قصر البتراء المعروف بـ (الخـــزنة)

الصلة بين الأنباط وعرب الشمال

هناك أدلّة كثيرة تحمل على القول بأن الانباط قدموا من الحجاز ، واستوطنوا شماله ، ويظهر ان قدومهم كان من سراة الحجاز الواقعة جنوب الطائف ، ثم انتقلوا إلى قرب المدينة ، ومن الادلة على ذلك :

١ — معبوداتهم التي كان من أشهرها اللات الصنم المذكور في القرآن الكريم : « أفرأيتم اللات والعزى » وذو الشرى وهذا الالهان هما أكبر آلهة الانباط[١] أما ذو الشرى فكانوا دائماً يجسدونه على هيئة كتلة من الصخر أو عمود بينما كانوا كثيراً ما يقرنون اللات بالينابيع والماء . وكلمة (دو شرا) نابعة من الكلمة العربية ذو الشرى[٢] ، وذو الشرى من الأصنام المعروفة في السراة ، وهو من معبودات قبيلة دوس الازدية كما ذكره المؤرخون ، ويذهب الأستاذ هاردنج إلى ان من اسم هذا الإله اشتق اسم سعير الذي تصفه التوراة بأنه أشرق من سعير أي من جبال السراة وتسميه التوراة يهوه[٣] .

ومن الأدلة على صلة الأنباط بشمال الحجاز أن كثيراً من أسماء بلادهم لا يزال لها ارتباط بالحجاز ، فمثلاً :

١ — السيق : وهو الطريق المعروف الآن إلى البتراء الوادي المحصور بين الجبال لا نزال نرى اسماً له مقارباً في النطق يطلق على واد يفيض في وادي خيبر

---

(١) « آثار الاردن » ص ١١٨ .

(٢) « المصدر السابق » ص ١١٨ .

(٣) « المصدر السابق » ص ١١٨ .

في بلاد شهران ، في الجنوب الشرقي من السراة ، ولكنهم هناك ينطقونه بالشين (الشيق) ومن أودية حِسْمَى وادي السِّيق ، ينحدر منجبل اللوز ، فيفيض في وادي عفال الذي يفيض في البحر شرق الخريبة وعينونة (الدرجة ١٥َ / ٣٥ْ و ٤٠َ / ٣٥ْ طولاً ، و ١َ٠ / ٢٨ْ و ٢َ٠ / ٢٨ْ عرضاً تقريباً).

٢ – وعيرة : وهو جبل فيه قصر الآن من عهد الصليبيين قرب وادي موسى بقرب البتراء [١] . وبقرب المدينة جبل عظيم يقع شرق أُحد يعرف بهذا الاسم حتى الآن (وعيرة) بفتح الواو وكسر العين . ومن أشهر قمم جبال حِسْمَى قمة وُعَيْر بضم الواو وفتح العين ، يشاهدها المتجه من تبوك إلى حقل رأي العين .

٣ – الجِيْ : قرية تقوم منازلها على إحدى الضواحي المجاورة لمدينةالبتراء وتتزود من مياه النبع الغزيرة ، ولكنها لا تصل بجريانها إلى البتراء [٢] . وهذه القرية تعرف الآن باسم وادي موسى . وبقرب المدينة في شرقها وادي الجي الذي تنحدر فروعه من جبل قدس الأبيض وورقان ، وما حولها ، ويسير متجهاً صوب الشرق حتى يصب في وادي الصفراء ، الذي يصب في البحر غرب المدينة .

٤ – سلع : يطلق هذا الاسم على وادي البتراء الذي تقع فيه آثارها الضخمة . وهو في الوقت نفسه يطلق على جبل يقع في الشمال الغربي من المدينة ، وأصبح الآن داخل مبانيها .

هذه إشارات واضحة تدل على عمق الصلة بين الأنباط وبين عرب الحجاز ويبقى أن نشير إلى ما أثر عن مؤرخي العرب المتقدمين من صلة الأنباط بعرب الحجاز .

---

(١) « آثار الاردن » ص ١١٣ .

(٢) « المصدر السابق » ص ١١٢ .

يعد متقدمو المؤرخين الأنباط من العمالقة ، وهم يطلقون هذا الاسم على جميع الأمم التي يجهلون أصلها ، ولا شك أن تدوين التـــاريخ العربي جاء متأخراً إلى ما قبيل ظهور الإسلام بزمن يسير ، ولهذا نجد أن اسم العماليق يطلق على كل الأمم التي كانت تسكن الجزيرة العربية ، ويجهل النسابون أنسابها ، ويكتفون بما يشاهدون من آثارها القوية ، التي يصفونها بأنها من آثار العمالقة أي الأمم القوية ذات الحضارة العمرانية التي لا يعرفونها ، ومن ثم نجد من أخبار هؤلاء العمالقة الذين ينتسب اليهم الأنباط في الكتب التي بين أيدينا ما ذكره ياقوت في « معجم البلدان » من أن الحز هو آخر السروات في جنوب الحجاز ، ما انحدر إلى البحر منه فهو تهامة ، ويقول : كان بنو الحارث بن عبد الله بن يشكر بن مبشر من الأزد غلبوا العماليق على الحز فسموا الغطاريف ، ويقول أيضاً: حلية واد بتهامة أعلاه لهذيل وأسفله لكنانة ، وقال أبو المنذر: ظعنت بجيلة وخثعم إلى جبال السراة فنزلوها وسكنوا فيها فنزلت قسر بن عبقر بن أنمار بن إراش جبال حلية وأسالم وما صاقبها ، وأهلها يومئذ من العاربة الأولى يقال لهم بنو ثابر فأجلوهم عنها وحلوا مساكنهم ، ثم قاتلوهم فغلبوهم على السراة ، ونفوهم وقاتلوا بعد ذلك خثعم فنفوهم عن بلادهم ، فقال سويد بن جدعة أحد بني أفصى بن نذير بن قسر :

ونحن أزحنا ثابراً عن بلادهم	بحلية أغناما ، ونحن أسودها
إذا سنة طالت وطال طوالها	وأقحط عنها القطر وابيض عودها
وجدنا سراة لا يحوّل ضيفنا	إذا خطة تعيا بقوم نكيدها
ونحن نفينا خثعماً عن بلادهم	تقتّلُ ، حتى عاد مولى سنيدها
فريقين : فرق باليمامة منهم	وفرق بِخَيْف الخيل تترى حدودها [1]

ولقد بقي الأنباط معروفين حتى ظهور الاسلام ، وكانت صلاتهم بالعرب قوية ، وكانوا يتاجرون مع أهل المدينة فقد نقل الخياري في رحلته [1] أن

(١) : « معجم البلدان » .
(١) « تحفة الأدباء » ١ / ٥٥ .

قادمة من الأنباط ، قدموا المدينة بالدَّرْمك (دقيق الخبز الأبيض) والزيت والزيتون ، يتَّجرون فيها وبغيرها من متاع الشام ، فذكروا أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام لقتال المسلمين . وبسبب ذلك كانت غزوة تبوك ، ولم يكن من ذلك شيء ، إنَّما هو شيء قيل لهم فقالوه [١] انتهى . ومنهم بقية في دومة الجندل ، سبقت الإشارة إلى ذكرها .

إن من عادة القبائل عندما تتحضر أن تستهين بأنسابها استهانة تجعلها لا تعبأ بها ، وهكذا كان شأن الأنباط فقد تحضروا وتناسوا أنسابهم ومن ثم جاء القول: (لا تكونوا كالنبط إذا سئل أحـــدهم عن نسبه قال : انني من بلدة كذا) ولا تزال هذه الطريقة مستعملة بين كثير من القبائل المتحضرة وخاصة في شمال الجزيرة عندما يسأل أحدهم عن نسبه ينتسب إلى البلدة التي عاش فيها ، ولا ينتسب إلى جد معروف .



(١) « تحفة الأدباء وسلوة الغرباء » ج١ ص ٥٥ .

معجم المواضع

[تحوي الصفحات الآتية وصفاً موجزاً لأهم المواضع (من قرى ومدن ومناهل وأودية وجبـــال وآبار وعيون) في بلاد تبوك وتيماء والجوف وخيبر والقريات (وادي السرحان) وما حول تلك البلاد ، وأغلب ما جاء في تحديد تلك الأمكنة مأخوذ من « المعجم الجغرافي الحديث للبـــلاد العربية السعودية » الجزء الخاص بشمال المملكة ، ويلاحظ عدم التوسع في تحديد الأمكنة الشمالية الساحلية اذ تحديدها ضمن الجزء المتعلق بشمال الحجاز من المعجم المذكور الذي يعده الأستاذ الدكتور عبدالله الوهيبي . وقد يمر بالقارىء ذكر لبعض الأمكنة غير واف ذلك أنني حاولت ذكر ما له صلة بالمواضع المشهورة فقد يكون معروفا عند غيري ، وقد تمكن الابحاث في المستقبل من معرفته ، أو قد يرد ذكره في بعض الكتابات أو المؤلفات القديمة] .

— أ —

* أبا الصُّبَّان : — بضم الصاد وتشديد الباء المفتوحة الممدودة فنون — وادٍ أسفل وادي أبلة ، يصب فيه هذا الوادي ، يقع بين الحائط والحويّط . وسكانه من هُتَيم يقارب عددهم ٦٠٠ نسمة ، ويقع هذا الوادي بين الحائط والحويط وهو إلى الأول أقرب (قرب الدرجة ٢٦َ/٤٠ْ طولاً و ٤٣َ/٢٥ْ عرضاً شمالياً) وواديه يتجه صوب الشمال الشرقي ، ويجتمع مع الأودية التي تنحدر من شرق الحائط وجنوبه ، وتصب جميعها في الحُليفة من أهم روافد وادي الرُّمة .

ويقارب عدد سكان قرية أبا الصبان ٦٠٠ نسمة أكثرهم من البدو الرُّحَّل.

* أبا الخنشان: اسم حديث لمنهل من أشهر مناهل حِسْمَى ، وقد أصبح الآن قرية سكانها يزيدون على ألف نسمة ، والموقع غرب علقان ، حيث سيل وادي علقان يفيض فيه ، ثم يتجه إلى وادي وحقل . (يقع هـذا المنهـل بقرب الدرجة : ١٥َ/ ٣٥ْ طولاً شرقياً ، والدرجة : ١٥َ/ ٢٩ْ عرضاً شمالياً) .

* أَبْلَـة : – بفتح الهمزة بعدها باء موحدة ساكنة ، فلام فهاء – واد ينحدر من حرة خيبر ، بين الحائط والحُوَيّط ، وفيه هِجْرةٌ بهذا الاسم ، سكانها العوامرة من هُتَيم . وهذا الاسم قديم فقد قال الهجري : قور أبلة عن يديع بأربعة أميال ، شمال مَغْرب [1]. انتهى وهذا الوصف ينطبق على ذلك الوادي .

* أبو وَشيـع : قرية في خيبر تقع في واد يدعى الشّق في وسط الواحة ، يقارب سكانها ٧٠٠ نسمة .

ووشيـع بفتح الواو وكسر الشين المعجمة بعدها ياء فعين مهملة .

وأكثر ملاك نخيل هذه القرية عشيرة الفقير من عنزة ولم أر لهذا الإسم فيما بين يدي من الكتب ذكراً ، غير أن بعضهم صحف اسم (وَسِيـع) بالسين المهملة فجعله بالشين وهذا يطلق على منهل بقرب الدهناء لا يزال معروفاً ، ولعل اسم (أبو وشيـع) حديثاً – والوشيـع – عند أهل البادية – الصوف المصبوغ بالحمرة ، وكانوا يزيّنون به منسوجاتهم .

* أُبيط (بيط): منهل للبادية من قبيلة الشرارات في أرض تدعى الخُنْفَة وتسمى هذه الأرض (الهوج) على ما أخبرني الأخ عبد الله بن جُرَيِّد .

---

(١) « ابو علي الهجري » ٣٨٩

* إثرَةُ : لم أجد فيما بين يدي من الكتب ذكراً لهذا الإسم سوى ما جاء في كتاب «بلاد العرب»[1] قال العامري : أُفيعة وأبايض واثرة كلهن من بلاد بَلْقيْن ، وينبت فيهن الفث [2] الذي يُجنى ويؤكل انتهى . وبلقين هؤلاء مختلطون مع قبيلة كلب نسباً وبلاداً فقد كانوا يسكنون في جهات قُراقر ، وخاصموا كلباً في ملكه في عهد عبد الملك بن مروان – كما سيأتي – ولهم ماء فيه يدعى باسم ضاحك ، ولعل غرابة الإسم وأمثاله من المواضع الواقعة في وادي السرحان هي التي دفعت المتقدمين إلى عدم ذكرها . ويقول ياقوت[3]: مَثَر لم أجد له أصلا في اللغة العربية ، وهو موضع بقرب الشام من ديار بلقين .

ولم أجد لهذا الاسم(أثرة) ضبطاً . إلا أنه ينطق بكسر الهمزة واسكان الثاء وفتح الراء بعدها هاء .

ومن أشعار المتأخرين ما قالته فتاة شرارية كانت تقطن بقرب دَوْقرَا وهو جبل بقربه مجتمع للسيول بين القريَّات والجوف ، فاشتاقت إلى إثرة فقالت :

متى نضَى دَوْقَرا يافي ... قَطّانها ، وَاكْثُرْ هَمّهْ
متى يزوعنّ الاسلافِ ... نزوع ولا نلتفِت يَمّهْ

فأجابها رجل من قومها :

هَبَّيْت يا بادع القافِ ... والخير عسى اللهْ يْتِمّهْ
أخيَر من مِنوْهْ وكافِ ... طباطِب أرْضها مْشِمَّهْ
واثْرَه النْيَا دَمّهَا السافي ... والعَيْن مَنْ طبَّها تْحِمّهْ

وطال القول بينهما .

---

(١) : ص ٢٤٤ .

(٢) الفَثُّ : حبٌّ بريٌّ يأخذه الأعراب في المجاعات فيدقونه ويختبزونه . وقيل : من نجيل السباخ من الحموض يختبز كذا قال اللغوين: ويظهر أنه من نوع السمح أنظر ص١٠٠ من هذا الكتاب.

(١) « معجم البلدان » .

واثرة قرية قديمة تقع شرق قرية مَنْوَه ، وتبعد عن النبك – القاعدة – ٢٨ كيلا . (الدرجة ٣٥َ / ٣٧ْ طولاً شرقياً و ٢٧َ / ٣١ْ عرضاً شماليا)وفي هذه القرية آثار قديمة ، مساكن أصبحت مطمورة . وثلاثة قصور :

١ – قصر يُدعى قصر الذيّاب – نسبة لسكانه الآن ، وهذا القصر مبني بالصخور السود . وفي بعضها كتابات قديمة ، ويظهر أنـه بني على أنقاض قصر قديم ، إذ بعض الصخور الأثرية التي تحوي بعض النقوش القديمة ، أو الصور المتقنة تنتشر في بعض الجدران بدون ترتيب ، ويظهر أن البناء الأخير كان في صـدر الإسلام ، حيث يحوي الحجر الذي وضع سقفاً لباب القصر كتابة بالخط الكوفي القديم المتقن هذا نصها : [بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون] في أربعة أسطر . وتحت هـذا الحجر حجر آخر يظهر أن فوقـه كتابة طمست ولم يبق منها سوى رسم هـلال ب وقد تكون الكتابة احدثت في عهد متأخر بعد أن امتد الحكم العثماني إلى بلاد الشام وأطرافها . ثم بعد أن زال هذا الحكم في العهودالأخيرة طمست الكتابة ولم يبق سوى رسم الهلال الذي كان شعار الدولة العثمانية . ويقع هذا القصر في داخل القرية .

٢ – أم قُصير : وهذا قصر آخر لم يبق سوى اطلاله ، بني من حجارة سوداء . وبقربه آثار قناة تمتد حتى تصل إليه ، ويقع داخل القرية .

٣ – قصر البرسلان . ويقع على تل مرتفع بجوار القرية ، وتمتد إليه قناة ماء ذات فوهات (خَرَز) لا يزال الماء يجري فيها ، وكنت ظننت أن هذا القصر أنشىء حديثاً بعد أن هرب زعماء الدروز من سورية في العهد الأخير ولكنني علمت بأنه أقدم من ذلك العهد .

وفي اثرة آثار مبانٍ ومقابر وأقبية وقنوات، وجد فيها كثير من الأحجار التي تحوي كتابات صفوية تقدمت نماذج منها (ص ٦٣ و ٦٤ و ٦٥) .

وقالت آن بلانت في وصفها[1] (أثرة):هي أصغر من (كاف) إلا أنها تفخر بالبناية القديمة ، القلعة المصغرة في داخل الأسوار ، شيء ما على طراز بيوت (هارون الرشيد) . وهـــذه مبنية بحجارة سود ، حسنة التربيع منتظمة الوضع ، بدلاً من الطين ، المادة العربية الشائعة في البناء .

وعلى عتبة المدخل توجد – أو بالأحرى كان يوجد – كتابة بحروف قديمة ، ربما حميرية ، التي كنا سننقلها لو أنها كانت واضحة ، ولكن الجو قـــد كاد يمحوها[2] . وهنا ها نحن قد أضافنا (جروان) وهو شاب عديم الترتيب بنصف ذكاء ، وله شعر طويل في جدائل ، ووجه أشبه بكلب (اسكوتلندي) ، وهو ابن مرزوقة ابنة عم محمد ذاته . ومع أنه لا شيء فيه يدعو إلى الفخر به كقريب ، فانا نجده مضيفاً لطيفاً يقظاً . وأمه امرأة ذكية وكريمة الأصل ، وانه ليبدو غريباً أن يكون لها ولد بهذه الضعة وأبناؤها الثلاثة الآخرون (جروان وهو أكبر أربعة) لهم ذكاؤهم مثل سائر النـــاس ، ولكنهم موضوعون في الخلفية وجاءت (مرزوقة) لتراني الآن بطبق كبير من التمر في يدها ، وتوقفت لتتحدث . ان وجهها ما زال جذاباً ، ولا بد أنها كانت جميلة إلى حد كبير . وألاحظ أنهـــا تلبس عدداً من الخواتم الفضية كخواتم الزواج .

وتخبرنا (مرزوقة) اننا سنجد كثيرين من أقرباء (ابن عروج) في الجوف . وهي نفسها غادرتها صغيرة ، هي تتحدث عنها كفردوس أرضي ، من حيث انتزعت لتعيش في هذه الواحة الصغيرة التعيسة ، وحقاً أن (أثرة) مكان بائس كل شيء فيها ما عدا بستان جروان ، وبعد مشية في بستان النخيل ، منعني عرَجِي من الانضمام ، وجلسنا جميعـــاً إلى عشاء طيب مكون من خروف وخبز ثريد – وللخبز مذاق كالفطائر الممتازة – قام بتقديمه لنـــا

---

(١) « رحلة إلى بلاد نجد » ص ١٩

(٢) أخبرنا أن هذه الكتابة ذات صلـــة بكنز مستورد وهو وهم شائع بين العرب الذين لا يستطيعون القراءة (الأصل) وأقول : هذا خطأ فالكتابة عربية وقد أوردناها .

جروان بشخصه ، وهو واقف ، طبقاً للأسلوب العربي عندما يأكل الضيوف، وتلاحظه أمه بعناية ، وتخبره ما يجب أن يفعل ، ومن الواضح ، ولو أن لديه من الحس مـــا يجعله قليل الكلام أنه ينظر إليه كمن (لا وزن له) في العائلة ، ويصف (ولفرد) المشية في البستان بأنها ممتعة نوعاً ما ، فمحمد وعبد الله يلقيان خطباً طويلة ثناء على كل ما رأيا ، ويحكيان لرئيس رجال جروان قصصاً خارقة عن أبهة (تدمر) وثروتها .

وبستان جروان ، الوحيد في أثري ، يحتوي على ٤٠٠ نخلة ، كثير منهـا مغروس حديثاً ، ولا يوجد فيها شجرة يزيد عمرها عن ٢٥ سنة . وكان من بينها نخلة من صنف (الحلوة) ، تمر الجوف الحلو ، استوردت من هناك ، واعتبرت هنا من النوع العظيم الندرة . وفي هذه النقطة كان هناك ترديد حار بالإعجاب (كورس) . وبان إعجاب شديد بشجرات الاثل أيضاً . وهي تربى من أجل الأخشاب ، وتنبثق من الأرومة حين تقلع ، وست سنوات من النمو يجعلها على ارتفاع عشرين قدماً .

* أثقب : جبل يقع في جنوب الروضة ، في الشمال الشرقي من الحائط (فدك قديماً) ويسمى الأثقب معرّفاً أيضاً و (ثقب) أيضاً ، ويعرف قديماً باسم يثقب (أنظر هذا الاسم والفيضة وثقب) .

* الأثمَاد – كأنه جمع ثَمَد – وسكان هـذا الموضع عنزة والرشايدة (هُتَيم » وليسوا كما ذكر ابن دخيل [1] الدغيرات ويقع شرق الشّمْلِي ، بقربه في غرب أجأ أحد جبلي طيء .

* الأجداد: جمع جُدٍ وهو البئر. وهو اسم موضع بنجد في بلاد غطفان فيـه روضة [2] – (وأورد قول النابغة الوارد في يثقب) وفي« ديوان عروة

(١) : القول السديد – مخطوط – .

(٢) : « معجم البلدان » .

ابن الورد » شرح ابن السكيت : الأجداد بلد لبني مرة وأشجع وفزارة [1] (وانظر : روضة الأجداد) .

* أُدْماء : — بالضم والمد — موضع بين خيبر وديار طي ، وَثَمّ غدير مُطْرِق [2] (أنظر مُطْرق) .

* الأخْضَرُ : منزل قرب تبوك بينه وبين وادي القُرى كان قد نزله رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك ، وهناك مسجد فيه مصلى النبي ﷺ والأخضر هذا منهل لا يزال معروفاً ، يقع في واد شرقي تبوك وجنوبه يدعى الأخضر أيضاً . والمنهل يقع شرق حرّة الرحا (بقرب الدرجة ٢َ٠ / ٢٨ْ طولا و ١٠َ / ٣٧ْ عرضاً) أما الوادي فهو أعظم الأودية القريبة من تبوك ، له روافد من الجنوب من حَرّة الرحا ومن شرَوْرَى الواقعة شمال تبوك ويقع منهل الأخضر على بعد ٧٠ كيلاً من تبوك في الجنوب .

ويقع الأخضر في منازل طريق الحج من الشام ، يطلق عليه اسم الأخيضر في كثير من كتب الرحلات ، وفيه يقول ابن حَجلة :

غرفْتُ طعامي بالأخيضر فاغتدى يكدّر عيشي رملُهُ حين يركُدُ
فما زالت الزرقاء يبيضّ وجهها ووجهك يا وادي الأخيضر أسودُ

وقال صلاح الدين الصفدي :

عبرنا على وادي الأخيضر عندما حثثنا المطايا واطمأنّتْ مواكبُه
وأحسبه إن كان أخضر إنمـا تلظى بـه صبٌّ فخفت جوانبه

وقال :

لما ارتقى الركب في وادي الأخيضر في أمنٍ ومَنٍّ يـُغشّي كلّ إنسانِ
لم نشك في سيرنا ضيا ولا ظمأً وصاننا الله انّا ننزل الصاني [3]

(١) ص ٩٥ .
(٢) : « معجم البلدان » .
(٣) « العرب » — ٣٣٨ — السنة الثالثة .

* إرَم – بالكسر ثم الفتح – اسمٌ عَــلَمٌ لجبل من جبال حِسْمَى ، من ديار جذام بين أيلة وتيه بني اسرائيل ، وهو جبل عال عظيم العلو ، يزعم أهل البادية أن فيه كروماً وصَنَوْبراً ، وكان النبي ﷺ قد كتب لبني جعال ابن ربيعة بن زيد الجذاميين أنَّ لهم إرم ، لا يحلها أحد عليهم ، لغلبهم عليها ، ولا يحاقُهُمْ ، فمن حاقَّهُمْ فلا حَقَّ له وحقُّهم حقٌّ (وانظر حِسْمَى)[1].

ويعلق الأستاذ موسل على قول ياقوت : فــوق جبل إرم – أو الرّمّ حالياً – يمكن أن تنبت الكروم وأشجار الصنوبر إلى يومنا هذا . ولكني لم أرَ شجرة واحدة من الصنوبر إلى الجنوب من عَمّان .

وعـين البديعة التي يذكرها ابن السكّيت هي عين واحة البديع التي تقع على أي حال على ثلاثين كيلاً شرقي الطرف الشمالي الغربي لجبال حِسْمَى نفسها .

وعين نعمان تقع – فيما أرى – في النِّعْمِي الحديثة عند الطرف الجنوبي الغربي لحِسْمَى .

بينما تكون عَلَلاَن – في الغالب – هي المكان الذي تنزله القبائل ، والمعروف باسم عَلَقان ، وهذا المكان يأتيه الماء من العلي ، وهو اسم يذكّرنا بلفظ عللان[2] .

وبينما يكون الاستاذ موسل معقولا في تعليقاته هذه نراه يخلط خلطاً غريباً في اسم (حرة نهيل) التي وردتْ في « معجم البلدان » مصحفة . فينقل عن وستنفيلد ، ناشر المعجم ومحققه أنه لم ير لها ذكراً في الكتب . وانها ربما كانت (نهيا) الواردة في شعر المتنبي ، وينقض موسل هذا بأن نهيا ليست في حِسْمَى ، ولكنها في الجنوب الغربي من تَدْمر . ويقرر أن تلك الحرة تقع في طرف المنطقة البركانية في الشمال الغربي من الحجر ، وقــال : إن هناك

(١) « معجم البلدان » .

(٢) « شمال الحجاز » - ١٣٩ - الترجمة العربية .

موضعاً يسمى مَهير ، والنون في أول الكلمة كثيراً ما تبدل ميماً كما أن اللام في آخر الكلمة قد تُصَحّف راء[1] .

وأقول : إن صواب الكلمة (بهل) بالباء بعدها هاء فلام قال الهجري : وبين حَرّة ليلى وحرة سلامان وهي إحدى حرتي بَهْل مقدار أربعة أيام : الجناب[2] ، والصَّمْد ثم يليها حَرّة الكريتيم ، وهي حرّة بَهْلٍ الثانية وهي اليوم لِبلّيّ ، وآخرها حِسْمَى جذام . وأورد في قصيدة طويلة لنهار ابن الشهاق وهو مسجون :

أقول وأبواب المخيَّسِ دوننا مظاهرة الأركان قُفْلاً على قُفْلِ
ألا يا أبا السّلاّم هل أنت رافعي على الطاقة العليا قليلاً على جُعْلِ
لعلّي أرى بَرْقاً وإن كان دونه ذُرَى المشرفات الشُّمّ من حَرّتي بَهْلِ[3]

* الأزْرَقُ : وادي الأزرق بالحجاز. والأزرق ماء في طريق حاج الشام دون تيماء[4].

وذكر بعضهم أنه هو وادي السرحان. أما الوادي الذي في الحجاز فيقع بعد وادي خليص إلى مكة بميل[5] .

* أشمَذ – بفتح الهمزة والميم ،وينطق الآن – بكسر الميم (وانظر أشمذان) قال البكري : الأشمَذُ جبل تلقاء خيبر ، وهما جبلان لأشجع[6] .

* أشمَذان – مثنىّ أشمذ . قال رزاح بن ربيعة العُذري – أخو قصي بن كلاب جد الرسول ﷺ – أخوه لأمه :

جمعنا من السِّرّ ، من أشمَذَيـ ـن ، ومن كل حيٍّ جمعنا قبيلا

(١) « شمال الحجاز » - ١٣٨ -
(٢) الجناب يسمى الآن الجهراء .
(٣) « ابو علي الهجري » – ٢٣١ -
(٤) : « معجم البلدان » .
(٥) أنظر كتاب « المناسك » ص ٤٦٢ .
(٦) : « معجم ما استعجم » .

أشمذان ها هنا جبلان – وقيل قبيلتان ، وقال نصر : أشمذان جبلان بين المدينة وخيبر ، تنزلها جهينة وأشجع[١] . وأقول : الصواب قول نصر هما جبلان لا يزالان معروفين ، يشاهدان من قرية الصُّلصُلة – الواقعة في منتصف الطريق بين المدينة وخيبر ، غربها ، رأي العين يحفها الطريق ويمرّ من بينها ، فأشمذ جبل كبير ذو شناخيب كثيرة ، يقع على يمين المتجه من خيبر إلى المدينة ، بعد أن يجوز قرية الصلصلة ، بمحاذاة الكيل ٥٧ من المدينة ويبعد عن الصلصلة بما يقارب الـ ١٠ أكيال ، وبمحاذاته جبيل أسود صغير – يسمونه شميذ – يدعه الطريق على اليسار للمتجه للمدينة ، والظاهر أن الاسم أطلق على الجبلين من باب التغليب . وقد كتب اسم جبل أشمذ في إحدى المصورات الجغرافية[٢] (جبل الشمط) خطأ ، ويقع أشمذ بقرب الدرجة ١٩َ/٣٩° طولاً و ١٠َ/٢٥° عرضاً .

* أُعيرضُ – بضم الهمزة وفتح العين : ماء بين جبلي طيّء وتيماء[٣]

* أغلب : جاء في شعر هذيل لمليح بن الحكم الهُذَلي :

وأغلب من أعمال تَيما ، كأنه إذا ما اكتسى في طخيَةِ الليل أكلفُ

أغلب : جَبَلٌ . ويروى أقوَر ، وهو جبل . وأكلف : أسود[٤].

* أَقلِبَةُ الحرازج : أقلِبَةُ جمع قَليب ، وهي البئر ، والحَرازجُ : اسم موضع أضيفت الأقلبة إليه كما يفهم من « القاموس » و « وشرحه » ففيها : الحرازج – الراء قبل الزاي – : مياه لجذام ، قال راجزهم :

لقد وَرَدْتُ عافيَ المدالج من ثَجْر ، أو أقلبة الحرازج

وأقول : تُعرف الآن باسم (القَليبة) وواديها من روافد وادي ثجر وسيأتي ذكرها .

* أقوَرُ : (أنظر أغلب) .

* أم الرقبة : جبل مطل على خيبر من الناحية الغربية ، وكان يعرف قديماً باسم (ذي الرُّقيبة) كما سيأتي في الكلام على جنفاء .

(١) كتاب نصر – مخطوط – « معجم البلدان » . « المغانم المطابة » .

(٢) : « ابحاث جيولوجية مختلفة – خريطة رقم I/٢٠٥B » .

(٣) « معجم البلدان » . (٤) « شرح اشعار الهذليين » – ١٠٤٢ –

* أم ِكدا: وينطقون الكاف بين الفتحة والكسرة بعدها دال مفتوحة ، من قرى خيبر ، ويقولون بأن المعركة الفاصلة بـين الرسول ﷺ وبين أهل خيبر وقعت فيها وهي في الجنوب الغربي من قرية ُشريف ، وتبعد عنها بما لا يزيد على ٤ أكيال ، وتقع على مرتفع من الأرض ، وبقربها مسجد ينسب للنبي ﷺ .

وصواب أم كدا مكيدة ، ونشأ الخطأ من أنها تنطق (مكيدة) باسكان الميم فتكتب بالحروف اللاتينية (Umm Kida)ثم تـُعرّب أم كدا أما القول بأنها سميت بذلك لكثرة الكدا ـ جمع كدوة أو كدية ـ فيها فلا أراه صحيحاً.

* أُم هشيم : قرية يقدر عدد سكانها بحوالي ٢٠٠ نسمة وهي من قرى هُتيم ، تقع بقرب الحليفة في وادٍ يعرف بهذا الاسم يفضي إلى الحـُليفة .

* الأمغر : منهل فيه آبار يقع شمال العيساوية ، على الجانب الغربي من وادي السرحان ، بمفيض شعبان الفكوك في الوادي ، ويبعد عن العيساوية بحوالي ٢٠ كيلاً ويقع بقرب الدرجة ٥٥َ / ٣٧ْ طولا شرقيا ، ٥٠َ / ٣٠ْ عرضاً شمالياً .

* أوَيْسِط (تصغير أوسط) : مَنْهلٌ يقع جنوب العيساوية وشمال المَيْسِري في الحافـة الغربية من وادي السرحان ، وطريق السيارات إلى الجوف يدعه يساره ، وكان الطريق يمر به على الإبل ، فقد ذكرته آن بلانت في رحلتها إلى نجد ، وقد أنشئت فيه هجرة للشرارات عنـد إنشاء الهجر في عشر الخمسين من هذا القرن(ويقع بقرب الدرجة ٨َ /٣٨ْ طولاً شرقياً ١َ/٠/٣٠ْ عرضاً شمالياً) .

* الأهْيَل ُ: جبل في أصله آطام اليهود، ومزارع وأموال تعرف بالوطيح، فيه ُطعْم أزواج النبي ﷺ وبني المطلب وبني مخزوم[1]. وجاء في شعر المتنخل:

هل تعرف المنزل بالأهْيَل كالوشم في المعصم لم يخمل

ـ أي ليس بخامل[2] ـ وأقول المتنخل يشكريٌ ، وبلاد يشكر بعيدة

---

(١) « المناسك » ٥٤٠ و « معجم ما استعجم » و « معجم البلدان » .

(٢) « معجم البلدان »

عن خيبر ، فلعله يقصد موضعاً آخر .

* أوْل : موضع في بلاد غطفان ، بين خيبر وجبلي طيّ ءِ ، على يومين من ضَرْغد .

وأقول : هذا الموضع لا يزال معروفاً ، وفيه بئر حفرت حديثاً ، ويطلق الاسم على جبل بجوار البئر وعلى الموضع ، ويقع هذا شرق قرية ضَرَغْد ، في الطريق منها إلى حايل ، بمسافة تقارب ٥٠ كيلاً (الدرجة ٤٥َ/٤٠° طش و ٤٠َ/٢٦° ع ش تقريباً) وكتب خطأ في إحدى الخرائط (عول) [١] .

* الأيْكـَةُ التي جاء ذكرها في كتاب الله عز وجل: (كـَذَّبَ أصْحَابُ الأيْكةِ المرسلينَ) قيل : هي تبوك التي غزاها النبي ﷺ آخر غزواته ، وأهل تبوك يقولون ذلك ويعرفونه ، ويقولون : ان شعيباً (ع.م) أُرْسِل إلى أهل تبوك ، ولم أجد هذا في كتب التفسير ، بل يقولون: الأيكة الغيضة الملتفة الأشجار ، والجمـــع أيْكٌ وأن المراد بأصحاب الأيكة أهل مدين . قلت : ومدين وتبوك متجاوران [٢] وأقول : لا يزال يطلق اسم الأيكة على واد من روافد وادي عفال ، في المنطقة المعروفة باسم بلاد مدين ، والتي فيها آثار مغاير شعيب وغيرها .

— ب —

* البَحْرَةُ : وادٍ يقع بطريق خيبر إلى المدينـــة ، ويبعد عن خيبر ٢١ كيلاً — وسيله يصب في الغَرَس وادي خيبر وسكانه من هُتَيم .

* البِـدْعُ:وادٍ يقع بين أبلة وأبا الصَّبَّان يفيض في الحليفة،سكانه هُتَيم.

* البِـدْع : (بكسر الباء وإسكان الدال) ، قُرَيَّة في وادي السرحان بقرب قرية الناصفة .

* البِـدْعُ — ويقال : بِدْعُ ابْنِ رَشْدَان ، قرية يقارب سكانها ٦٠٠ نسمة من عَنَزَة ، وتقع شمال بيضاء نثيل .

(١) « أبحاث جيولوجية مختلفة ، خريطة رقم B ٢٠٥ - I » .
(٢) « معجم البلدان » .

* بَدِيع : (انظر يديع) فقد صحف هذا الاسم تصحيفاً فظيعاً فقالوا: (بديع / يربغ) كما وقع في « معجم ما استعجم » وغيره .

* البَدِيعة : ماءة بِجِسْمَى [١].

* بَرْد : بالفتح ثم السكون : جبل يناوح رؤافاً ، وهما جبلان مستديران ، بينهما فجوة ، في سهل من الأرض غير متصلة بغيرهما من الجبال ، بين تيماء وجفر عنزة ، وجفر عــنزة في قبليها [٢] . وعَدَّه البكري جبلاً مشرفاً على طريق تيما [٣] .

وأقول: جبل بِرْد وسمي في إحدى المصورات الجغرافية[٤] (برد شرعانة) (يقع على الدرجة ١َ / ٢٧ْ طولاً و ٥٩َ / ٣٨ْ عرضاً) في الجنوب الشرقي من تيماء بما يقارب ١٠٠ كيل ، ويدعه طريق المتجه اليها من الجنوب على اليمين غير بعيد ، ويشاهد من الطريق .

وسمي في بعض الخرائط (البرد) مُعَرَّفاً خطأ .

أما شرعانه فيظهر أنه تحريف شِرْعان ، وهو جبل في تلك الجهــة . أورد الهجري :

[ولما بـــدا] هضب المِجَنِّ وأَعرضَتْ
شماريخ من شِرْعان يردي بها [الوعْلُ] [٥]

* بَرْقُ – بلفظ البرق الذي يلمع من السحاب – قريةٌ قرب خيبر ، وأظن أن عبد الرحمن بن ارطاة عناها بقوله :

لا تبعدنَّ إداوة مطروحة كانت حديثا للشراب العاتق
حَنَّتْ إلى بَرْقٍ فقلت لها : قِري بَعْضَ الحنين ، فإن وجدك شائقي
بأبي الوليــد وأم نفسي كلما بدت النجوم وذَرَّ قرن الشارق [٦]

ويوم برق من أيام العرب ، وهو يوم للضباب [٧] (وانظر بُغَيث) .

(١) « معجم البلدان » .
(٢) « معجم البلدان » .
(٣) « معجم ما استعجم » ،
(٤) « أبحاث جيولوجية - رقم B ٢٠٤ - I » .
(٥) « ابو علي الهجري » - ٣٥١ -
(٦) « الاغاني » ٧٩/٢ .
(٧) « معجم البلدان» .

* بُسَيْطَةُ : بلفظ تصغير بسطة ، أرض في البادية بين الشام والعراق ، حدُّها من جهة الشام ماء يقال له أمَرّ ، ومن جهة القبلة موضع يقال قعبة العَلم ، وهي أرض مستوية ، فيها حصىً منقوش ، أحسن ما يكون وليس بها ماء ولا مرعى ، أبعد أرض الله من السكان ، سلكها أبو الطيب المتنبي لما هرب من مصر إلى العراق ، فلما توسطها قال بعض عبيده وقد رأى ثوراً وحشياً : هذه منارة الجامع! وقال آخر منهم وقد رأى نعامة: وهذه نخلة ! فضحكوا فقال المتنبي :

بُسَيْطةُ ـ مهلاً ـ سقيت القطارا تَركتِ عيونَ عبيدي حَيَارى
فظنوا النعامَ عليكِ النخيـــل وظنوا الصُّوَار عليكِ المَنَارا
فأمْسَكَ صحبي بأكوارهم وقد قصد الضِحْكُ منهم وجارا

وقال نصر : بسيطة فلاة بين أرض كلب وبلقين ، بقفا عفر ، أو أعفر ، وقيل على طريق طيء إلى الشام .

وأقول: تسمى الآن البسيطة وبسيطا ويقول الشاعر العامي المعاصر الهربيد:
ألـلِّي لهم باقصى بْسَيْطا مدالي .

والبسيطة تقع بقرب غربي وادي السرحان وتمتد بامتداد الوادي من وادي حدرج إلى قرب نهاية الوادي من الناحية الجنوبية (أي من الدرجة ٣٠/١٩َ° الى الدرجة ٣٠/٣٠َ° عرضاً شمالياً وغرباً من الدرجة ٠٠/٣٨َ° الى الدرجة ٣٥/٣٨َ° طولاً شرقياً) .

* بِشر : (انظر الشرَيف) وفي بعض الكتب الحديثة (بشير » وهذا ناشىء عن ترجمة الكلمة من الانجليزية إلى العربية ، وهي أكبر قرية في خيبر .

* بَغْثُ : واد عند خيبر ، بقرب بُغيث[1] .

* بُغَيث : بَغْثُ وبغيث اسم واديَيْنِ في ظهر خيبر، لهما ذكرٌ في بعض الأخبار ، وهناك قريتان يقال لهما بَرْق وتعنق ، في بلاد فزارة[2] .

---

(١) : « معجم البلدان » .   (٢) : « معجم البلدان » .

وأقول : لا يزال هذا الوادي معروفاً ، ولكنه يُسَمَّى أبو بغيث : يقع شرق خيبر ، في الحرة .

* البقّار : واد يقع غرب تبوك بما يقارب عشرين كيلا ، ومن روافده وادي دَمَج . ولم أر لهذا الموضع ذكراً على كثرة المواضع التي تسمى بهذا الاسم ويغلب على ظني أنه المعنى بقول الأبيرد بن هَرْثمة العذري ، وكان تزوج امرأة وساق اليها خمسين من الابل : — أورده ياقوت — :

وإني لسَمْحٌ إذ افرق بينها بأكثبة البقّار يا أُمَّ هاشم
فأفْنَى صداقُ المحصناتِ إفالَها فلم يبق إلا جلة كالبراعم

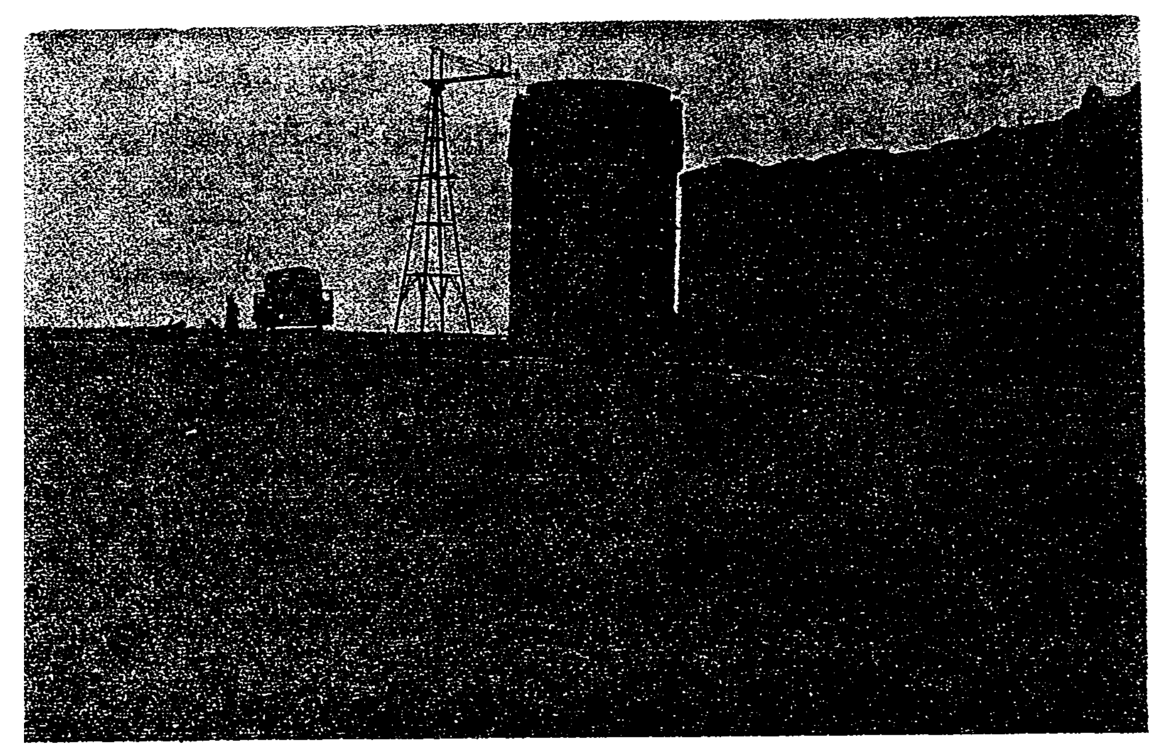
ذلك أن هذه المواضع من منازل بني عذرة . ويقع البقار بقرب الدرجة ٣٠َ / ٣٦ْ طولاً و ١٥َ / ٢٨ْ عرضاً — وسط الوادي — تقريباً .

* البئر ، أو بئر ابن هرماس ، إحدى محطات سكة حديد الحجاز ، فيما بين المحتطب وذات الحاج ، ولوقوعها على الطريق بين الشام والمملكة فقد بدأ فيها العمران وكثر سكانها ، وتقع غرب جبل شرَورى ؛ وبغربها يوجد مكان أثريٌّ يُدعى القُرَيَّة .

(وتقع البئر بقرب الدرجة ٥َ /٣٦ْ طولا شرقياً و٥١َ /٢٨ْ عرضاً شمالياً) .

وتسمية هذا الموضع حديثة ، ويظهر أنه منسوب إلى أحد مشائخ القبائل في هذه الجهة ، ونجد في كتاب « عامان في عمان » قصة طريفة لأحدهم يُدعى هليّل بن هرماس ، وفد على الأمير عبد الله بن الحسين ، فمنحه لقب (باشا) فقال أستاذنا أبو الغيث الزركلي :

إن الامير أبا طلالٍ ماجدٌ منع الهباتِ ، وجاد بالألقاب !!



(بئر ابن هرماس) احدى محطات السكة الحديدية الحجازية

* بئر فجر : إحدى محطات الطريق بين تيما والقريات
[تقع بقرب الدرجة : ٥٤َ | ٢٧ْ و ٥٢َ / ٢٨]
(وانظر ثجْر فهو الاسم الصحيح) .

* بَيْسَانُ : موضع في جهة خيبر قريب من المدينة، وإياه اراد كُثَيِّر بقوله لأنها بلاده [١] :

فقلتُ – ولم أملِكْ سوابِقَ عَبْرَة –
سَقى أهلَ بيسانَ الدِّجانُ الهواضِبُ

وفي الحديث ان رسول الله ﷺ نزل في غزوة ذي قرد على ماء يقال له بيسان فسال عن اسمه فقالوا : يا رسول الله بيسان وهو ملح ، فقال رسول الله ﷺ : « بل نعمان وهو طيب » فغير رسول الله الاسم ، وغير الله الماء،

(١) « معجم البلدان » .

فاشتراه طلحة وتصدق به ، وجـــاء إلى النبي ﷺ وأخبره . فقال ﷺ : « ما أنت يا طلحة إلا فيّاض » فسمي طلحة الفياض قاله الزبير بن بكار [١]

* بيضاء نثيل – أي ذات النثيل الأبيض ، والنثيل ما يخرج من البئر عند حفرها – .

بلدة يقارب عدد سكانها ١٥٠٠ نسمة وأكثر سكانها من عنزة [٢] . وقـد ذكر ابن دخيل أن سكانها الدغيرات وهذا خطأ وتقع في الطرف الشمالي الشرقي من الحرة – حرة فدك – خارجة عنها (بقرب الدرجة ٢٠َ / ٤٠ْ طولاً و ٥َ / ٢٧ْ عرضاً) .

وكتب اسمها في إحدى الخرائط : (بيضة [٣] نثيل) خطأ ، وسكانها الآن جلهم من البدو الرحّل .

البيضاء : (انظر عين البيضاء) .

– ت –

* تبوك : مدينة تعتبر مركز إمارة شمال الحجاز ، يتبعها ١٠ قرى ، و٥٢ موردا من موارد المياه للبادية . وقد جرى تقدير تقريبي لسكانها سنة ١٣٨٣هـ (١٩٦٣ م) جاء فيه أن جملة سكان الامارة ٢٧٦٤٢ نسمة منهم ٦ / ٦٣ ٪ رحل و ٤/٣٦ ٪ حضر ، وأن عدد سكان مدينة تبوك وحدها ٣٠١٦ نسمة ولكن السكان ازدادوا زيادة في سبع السنوات الأخيرة ، وأضيف إلى الامارة قرى وأمكنة أخرى . ومن أهم أسباب زيادة السكان أن المدينة أصبحت قاعدة – في السنوات الأخيرة – لوزارة الدفاع ، وأن الحوادث التي سببت إقفال قناة السويس جعلت طريق الشام إلى الحجاز هو أصلح طريق لنقل

---

(١) « معجم البلدان » و « المغانم المطابة » .
(٢) « تاريخ نجد » للريحاني و« القول السديد » لابن دخيل - مخطوط - .
(٣) « أبحاث جيولوجية » - خريطة رقم B ٢٠٥ - I .

البضائع فانتعشت الحالة الاقتصادية ، وكثر السكان ، وانتقل إلى تبوك كثير من طلاب الرزق من مختلف البلاد بحيث يشاهد المرء فيها اليمني والشامي والنجدي والحجازي والعربي وغيره من الأجناس (وتقع مدينة تبوك بقرب الدرجة ٣٢َ / ٣٦ْ طولاً و ٢٧َ / ٢٨ْ عرضاً تقريباً) .

وقد تقدم الحديث عنها مفصلاً .

أما تاريخ المدينة فيمكن تقسيمه إلى مراحل :

١ ـ العهد الذي سبق العصر الإسلامي ، وهو تاريخ مجهول، مع أن البلدة معروفة فيه إذ يقول موزل : (يذكر بطليموس اسم محله تعرف بـ (تباوا Thapaua) عند الحدود الشمالية الغربية لبلاد العرب السعيدة «جغرافيا ٦/٧: ٢٧ » وإني أعتبر هذا الاسم تحريفاً لكلمة (تبوكا Thapaucua) أو تبوك إذ ينطبق المكانان كل منهما على الآخر [١] .

وإذن فهذا يدل على قدم البلدة .

٢ ـ في العهد الإسلامي حين غزاها الرسول ﷺ وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك ، أما القول بأن اسم تبوك مأخوذ من الأثر النبوي : « ما زلتم تبوكونها » الخ.. فهذا الأثر لا يثبت لدى علماء الحديث الحريصين على تدوين كل صحيح من أقواله ﷺ ومن ثم لا يصح التعويل عليه ، لا سيما وأن البلدة معروفة بهذا الاسم قبل أن يقوم الرسول ﷺ بغزوتها .

٣ ـ لقيت عناية من مؤرخي المسلمين لغزوتها ولذكر المساجد النبوية في طريقها ، ولم يكن هناك من العناية ما يمكن من تدوين ما يتعلق بها من الناحية التاريخية .

٤ ـ أصبحت إحدى منازل حجاج الشام ، ولهذا فقد ورد اسمها في كثير من الرحلات .

---

(١) : « شمال الحجاز » ـ ١٤٠ ـ

٥ – ثم تمّ مدّ السكة الحديدية ، فأصبحت تبوك إحدى المحطات فنالت ذكراً وتسجيلاً في السجلات والمصورات الجغرافية ، وعناية بإنشاء بعض المباني الحديثة فيها مما قد يحتاجه موظفو الدولة ، أو ما يتعلق بالأماكن الأثرية ، فأنشئت بناية المحطة ، والقلعة ، وجدد بناء مسجدها الأثري .

٦ – دخلت مدينة تبوك في طورجديد في عشر الـ ١٣٩٠ حيث أصبحت من أمهات مدن المملكة ، فنظمت تنظيماً حديثاً وكثرت فيها البنايات الحديثة وأنيرت بالكهرباء ، ودخل الماء العذب بيوتها ، وغرست بجوارها الحدائق ، وكثر سكانها كثرة ساعد عليها اتساع رقعتها ، وتوفر الوسائل التي تتوقف عليها حياة المدن الحديثة .

* تُرْعَةُ : وذكر ابن شبة في صدقات علي (ض) وادياً يقال له ترعة بناحية فدك ، بين لابتي حرّة [1] . كذلك قال السمهودي ، وأقول : ليس الاسم واضحاً في كتاب ابن شبة فهو هكذا (برعه) وانظر ص ٣٠٦ من هذا.

* تَعْنُق – بالنون والقاف – قرية قُرْبَ خَيْبَرَ [2] .

* تَيْماء – البلدة المشهورة قديماً وتُعَدُّ الآن تابعة لاقليم حايل إدارياً – ويبلغ عدد سكانها قرابة (٣٥٠٠) نسمة .

وفيها مدرسة ابتدائية يبلغ عدد طلابها ٢٦٦ تلميذاً تابعة لإدارة التعليم في تبوك ومدرسة متوسطة طلابها ١٤ ومدرسة للبنات – تقدم ذكرها –

(وتقع بلدة تيماء بقرب الدرجة ٣٠َ / ٣٨ْ طولاً و ٣٧َ / ٢٧ْ عرضاً تقريباً).

ويصف الاستاذ حافظ وهبة بلدة تيماء بأنها بلدة صغيرة في وسط واحة (أو مستعمرة) باسمها ، واقعة إلى الجنوب الغربي من النفود ، على بعد ٦٥ ميلاً شمال العُلاَ ، وهي واقعة في منخفض من السهل المرتفع ، يبلغ ارتفاعه ٢٤٠٠ قدماً ، والواحة مسورة بحائط من الطين ، وبها أبراج للدفاع ، مبنية من اللبن .

---

(١) « وفاء الوفاء » .

(٢) « معجم البلدان » .

وبالواحة أشهر عين ماء في بلاد العرب ، إذ يبلغ اتساع فوهتها أكثر من خمسين قدماً ، ومركب عليها سواني من جميع الجوانب ، ومياهها غزيرة .

ويضيف قائلاً : أرض تيماء خصبة وصالحة للزراعة ، ولزراعة النخيل ، ويزرع فيها القمح والشعير والأرز (؟) والفواكه على اختلاف أصنافها ، وتمر تيماء جيد ، ويعتبر من أجود أصناف التمر .

وعدد سكانها نحو ٢٥٠٠ نسمة ، وأغلبهم من وِلْد سليمان ، وبها بعض الموالي ، وبعض التجار من جبل شمَّر ، وبعضهم يحضرون لتصريف تجارتهم التي يجلبونها من بغداد ، وساحل الخليج ، والأهالي يبيعون محاصيلهم للبدو الرحَّل ، والهواء في تيماء جيّدٌ جدّاً وصحيٌ [١] .

* تَيْمن ذي طلال : واد إلى جنب فَدَك في قول بعضهم ، والصحيح انه بعالية نجد [٢] .

وأقول : ذو طلال – ويدعى طلال – منهل لا يزال معروفاً غرب وادي الجريب (الجرير) وهو بعيدٌ حقّاً عن فدك .

– ث –

* ثِبَار – بكسر الثاء وفتح الباء آخره راء – : موضع على ستة أميال من خيبر ، به قَتَلَ عبدُ الله بنُ أُنيس أُسَيْرَ بْنَ رزام اليهودي . ذكره الواقدي بطوله – وقد روي بالفتح وليس بشيء [٣] وأضاف ابن سعد في خبر مقتل ابن رزام إليه اسم قرقرة فقال : قرقرة ثبار .

وانظر : (قرقرة) [٤] .

---

(١) « جزيرة العرب في القرن العشرين » ص – ٦٦ – الطبعة الرابعة سنة ١٩٦١ .
(٢) « معجم البلدان » .
(٣) « معجم البلدان » و « طبقات ابن سعد » ١٢٠/٨
(٤) ج ٩٢/٢

١ – ثَجْر : من ديار بَلْقَيْن من قُضاعة ، بئارٌ كثيرة ، بين تيماء والشام [١] .

٢ – وأورد البكري [٢] من رجز الجُلَيح بن شديد التغلبي :

فصبّحتْ والشمس يجري آلُهَا من ثَجْرَ عَيْناً بارداً سِجَالُها

وقال : بِثَجْرَ ، أو تَيْمَاء ، أو وادي القُرَى .

ـ الغَمْر : واد فيه ثِمادٌ ، ماؤها قليل ، بين ثَجْر وتيماء .

ـ قعبة العَلَم : أرض واسعة ينزلها العرب زمن الربيع، وهي كثيرة النَّصِيّ ، وليس فيها ماء عَذْب ، وهي في قبلي بُسَيطة ، والعلم جبل عالٍ في غربيها ، منسوبة إليه ، وهي في طريق السَّالك من تبوك ، وفي قبليّها ماء عذب يقال له ثجر .

٣ – ثَجْر: من ديار بَلْقيْن من قضاعة ، بئارٌ كثيرة بين تيماء والشام [٣] (انظر بئر فجو وفجر) ..

٤ – ثَجْرُ – بالفتح ثم السكون وراء – ماء لبني القين بن جَسر يجوش، ثم بإقبال العلمين ، حمَلٍ وأعفر ،بين وادي القُرى وتيماء .. قال ابن ميَّادة:

خليلي من غيظ بن مرة بلّغا رسائل منا لا تزيدكما وقرَا
ومُرَّا على تيماء نَسْلَ يَهُودها فإن لدى تيماء من ركبها خبرْا
وبالغمر قد جازت وجاز مطيُّها فيسقى الغوادي بطن بيسان فالغمرا
فلما رأت أن قد قربن أثابرا عواسف سهب تاركاتٍ بنا ثجرا
أثار لها شحط المزار وأجمحت أموراً وحاجات نضيق بها صدرا [٤]

(١) « أبو علي الهجري » ٣٩٨
(٢) « معجم ما استعجم » .
(٣) « ابو علي الهجري » - ٣٩٨ .
(٤) « معجم البلدان » .

[لم يذكر ياقوت أثابر في موضعه] .

وأقول : ثجر وادٍ يعرف الآن باسم وادي (فجر) بإبدال الثاء فاء ، وهي لهجة قديمة ، بسبب تقارب مخرجي الحرفين (وانظر لبقية التفصيل : فجر) .

* ثقْب : (أنظر الفيضة : فيضة ثقب) .

* الثَّمَدُ : قرية صغيرة تبعد عن خيبر ٢٢ كيلا في الطريق إلى المدينة ، وأول من أنشأها ابن لافي من هُتَيم لتكون هجرة له ولقومه عند إنشاء الهُجر.

وتقع على ضفة وادٍ يُعرف باسم الثمد أيضاً ، وهو من روافد وادي الغَرس أحد أودية خيبر الكبار .

* ثَمْغ : — بالفتح وبالغين المعجمة الساكنة — : مالٌ بخيبر لعمر بن الخطاب (ض) قاله المجد لحديث الدارقطني : أن عمر أصاب أرضا بخيبر يقال لها ثمغاً فسأل النبي ﷺ فقال له : احبس أصلها وتصدق بثمرتها [١] . ورجح السمهودي أن ثمغاً هذا في المدينة في شاميها وأن ما في رواية الدارقطني من تصرف بعض الرواة ، أو أن كُلاّ من صدقتيه يسمى ثمغا . وأورد ابن سعد في « الطبقات » عن نافع عن ابن عمر قال : أصاب عمر أرضاً بخيبر فأتى النبيّ ، ﷺ ، فاستأمره فيها فقال : أصبت أرضاً بخيبر لم أصب مالاً قط أنفس عندي منه ، فما تأمر به ؟ قال : إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها ، قال فتصدق بها عمر ، قال : إنه لا يباع أصلها ولا توهب ولا تورث ، وتصدق بها في الفقراء والقربى وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضيف ، ولا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ويطعم صديقاً غير متموّل فيها. قال ابن عون: فحدثت به محمد بن سيرين فقال : غير متأثل مالاً ، قال إسماعيل قال ابن عون : وحدثني رجل انه قرأ في قطعة أدم، أو رقعة حمراء ، غير متأثل مالاً [٢] :

---

(١) : « وفاء الوفاء » .

(٢) « طبقات ابن سعد » ٣ / ٣٥٧ .

* ثَميلة الثُّمَيْد : قُرَيَّة صغيرة بقرب الثمد الواقع على وادي خيبر (الغرس) .

* ثنية مِدْران : بكسر الميم : موضع في طريق تبوك من المدينة بنى النبي ﷺ فيه مسجداً في مسيره إلى تبوك [1] .

مدران لا يزال معروفاً ولكنه يسمى المدرا (بحذف النون) وهو واد ينحدر مشرقاً حتى يجتمع بوادي الأثيلي على مسافة ٢٠ كيلاً جنوب تبوك .

ويقول موزل : ثنية المـــدران هي نفس الخانق المعروف باسم المِدْرا ، والذي يبدأ عند أطلال قصر التمرة ، وربما كانت هذه الأطلال هي البقايا الوحيدة لمسجد مدران ، وهي لا تقع على المحجة ، ولكن على ٢٠ كيلاً إلى الغرب منها [2] .

* جبار (حبار، حار) جبل ذكره البكري[3] وصاحب «المناسك[4]» في الطريق بين النقرة وفدك ، وبعد وادي الغرس ـ وأقول هذا الجبل ، غير المنهل المعروف باسم جُبَار – والذي سيأتي ذكره في (يمن) – والذي يظهر أنه بقرب يُمْن في شمال الحرة خارجها ، أمـــا هذا الجبل الواقع بين فدك والنقرة فهو في جنوب الحرة (حرة خيبر) فيما يظهر من كلامهم .

٦ الجبعاوية:تقع غرب العسافية وتبعد عنها ١٥ كيلاً تقريباً، منهل للبادية.

* الجُثا : بضم الجيم وتخفيف الثاء والقصر – موضع بين فدك وخَيْبر ، يطأه الطريق ، قال بشير أبو النعمان بن بشير :

لعمرين لحيٌّ بين دار مُزاحم وبين الجُثا لا يجشم الصبر حاضر [5]

* الجَرُّ : سفح الوطيح بخيبر ، والوطيح والنطاة في خيبر ، يمثل بحمى النطاة وحمَّى القطيف [6].

---

(١) : « معجم البلدان » .
(٢) : « شمال الحجاز » – ١٤١ – .
(٣) : « معجم ما استعجم ».
(٤) ص ٥٤٢ .
(٥) : « معجم البلدان » .
(٦) :« صفة جزيرة العرب » – ١٢٤ – .

* الجَـرَاوِيُّ : — يروي بضم الجيم وفتحها والضم أكثر — مياه في بلاد القين بن جَسْر ، وقيل : هي قلب على طريق طيّ ، إلى الشام . وقيل : مياه لطيّء بالجبلين ، قال بعض الأعراب :

ألا لا أرى ماء الجراوي شافِياً صَدَايَ ،ولو رَوّى غليل الركائِب
فيا لهْف نَفْسِي كلّما التحتُ لوْحَةً على شربة من ماء أحواض يَاطب[1]
ترقرق مـاء المزن فيهنّ والتقى عليهن أنفـاس الرياح الغرائب
بِريحٍ من الكافور والطلح أبرمت بـه شِعب الأرواد من كل جانب
بقايا نطـاف المصدرين عشية بمدورة الاحواض ، خضر النصايب

النصايب : صفائح من الحجارة ، تدار حول الحوض .

وأقول : الجراوي يقع في طرف وادي السرحان الجنوبي ،جنوب النبك أبو قصر يبعد عنه ٢٠ كيلا تقريبـاً ويدعه الطريق المتجه إلى الجوف شماله بمسافة قصيرة ويقع بقرب الدرجة ٤٥َ / ٣٨ْ طولاً شرقياً ١١َ / ٣٠ْ عرضاً شمالياً وهو مَنْـهَلٌ معروف من أشهر مناهل وادي السرحان .

* الجربوعية : قُرَيَّة تقع في مفيض وادي الغَرّا (الغرة فيالخريطة خطأ) في وادي السرحان على الضفة الغربية ، بين جماجم والأمغر ، ويدعها الطريق إلى الجوف يساره(تقعبقرب الدرجة ٤٠َ/٣٧ْ طولاًشرقياً٠١َ/٣١ْ عرضاًشمالياً).

* جُرْفين (ويقال أم الجرفين) وادٍ ينحـدر من شمال الشَّرَفَـة ، (بقرب الدرجة ١َ/٣٥ْ طولاً و ٠٠َ/٢٩ْ عرضاً) ويتجه صوب الشمال الغربي، ويلتقى به وادي أبا الحنشان الذي يقع في أعلاه عَلـقَان ، والذي ينحدر من غرب حِسْمَى (بقرب الدرجة ٣٥/٣٠ طولاً و ٦َ/٢٩ْ عرضاً) من فروع متعددة ، يلتقيان بقرب الدرجة (٣٤/٥٩ طولاً و ٢٩/١٥ عرضاً) عندمـا يصبّان في البحر عند ميناء الحُمَيِّضة جنوبي حقل بما يقارب بضعة أكيال ، ويخترقه الطريق إلى حَقـْل من أسفل الشرفة إلى قُرْب مَصَبِّهِ ، وقد سمى

---

(١) ياقوت ـ الجراوي / يا طب ـ

الجزيري هذا الموضع : بين الجُرْفين [1] ، ودعـــاه النابلسي في رحلته أم الجزفين ، والجرفين .

* جَفْر عَنَزَة : يقع بقرب حفيِّرة الأيدا ، في شرقها ، وبقربه منهل يُدْعى آبار المُنْدَسَّة ، طغى اسم هذا المنهل على الجفر حتى كاد أن ينسى .

* الجُفيرات : قُصيرات أربعة في وادي السرحان ، تقع جنوب قُرَاقِر وشرق العين البيضاء بما يقارب ٧ أكيال ، وكان أكثر سكانها من البادية وهم قليلون جدّاً ، بعد أن وقف مشروع انعاش البادية .

(وتقع هذه بقرب الدرجة ٣٧/٤٥ طولاً شرقياً ٣١/١٠ عرضاً شمالياً) .

* جَماجِم : منهل في وادي السرحان ، كان فيه قرية صغيرة ، لما كان مشروع إنعاش البادية قائماً ، أما الآن فقد قلّ مستوطنوه. ويقع في المنتصف فيما بين النبك – القاعدة – والعيساوية .

(وتقع هذه بقرب الدرجة ٣٧/٣٢ْ طولاً شرقياً ٣١/٣ عرضاً شمالياً) .

* الجِنَابُ : فيما بين الوادي ، وبين الشمال ،منه على ليلتين ونحو ذلك. وبالجناب فيما ذكروا – الماء الذي كانت عليه ناقة الله – قُفّ ، وهو لفزارة ولعُذْرَة ، وأما الوادي وما حوله فلعذرة وبَلِيّ وسعد الله ، وجُهَينَة [2]

٢– الجناب – بكسر أوله – أرض لغطفان – هكذا قال أبوحاتم الأصمعي .. وقال ابراهيم بن محمد بن عرفة : الجناب أرض لفزارةْ وكلب . ويدل على أن لعذرة فيها شرك قول جميل لبثينة : ما رأيت عبد الله بن عمرو بن عثمان على البلاط إلا غِرْتُ عليك وأنت بالجناب وقال الشماخ :

أقول وأهلي بالجنـــاب وأهلها بنجدين ، لا تبعُد نوى أُم حشرج

وقال طفيل :

الأهل أتى أهل الحجاز مغارنا ومن دونهم أهل الجناب فأيهب [3]

٣ – وذكر ابن سعد في « الطبقات » [4] خبر سرية بشير بن سعد إلى

---

(١) « درر الفرائد » – ٥٠٤ .
(٢) : « بلاد العرب » ٣٩٨ .
(٣) « معجم ما استعجم » .
(٤) : ٢ / ١٢٠ .

يمن وجبار في شوال سنة سبع : بلـــغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من غطفان بالجناب قد واعدهم عيينة بن حصن ليكون معهم ليزحفوا إلى رسول الله ﷺ وذكر الخبر وقال : والجناب يعارض سلاح وخيبر ووادي القرى .

وذكر أيضاً [1] سرية عكاشة بن محصن الأسدي إلى الجناب أرض عذرة وبـــلي .

وقال عن رويفع البلوي وأبي خزامة العذري – وهما صحابيان – كانا يسكنان الجناب [2] .

٤ – وقال الهجري [3] :

١ – وبين حرة ليلى وحرة سلامان الجناب والصَّمْدُ .

٢ – عنيزة في غير موضع .. وهي هنا قرن بأباريات من جانب الهميان. بين حرة ليلى والجناب قال عبد العزيز بن زرارة :

وخفت نواها من جنوب عنيزة ... كما خف من نبل المعالي جفيرها

٣ – َقوٌ وادٍ بين قوارة الجناب وبين صمد عذرة .

٥ – من الحجر إلى تيماء في دهناء ثلاث مراحل بطان . ويسكن مـــا بين ذلك من طيء بنو صخر وأخوتها بنو عمرو وبطن من بحتر [4] .

٦ – وفي « معجم ما استعجم » [5] :

١ – إذا تصوبت في ثنايا العَرْج إلى أقصى بلاد فزارة فأنت مُتْهِمٌ ، فإذا جاوزت بلاد فزارة إلى أرض كلب فأنت بالجناب .

٢ – ظعنت سعد هُذَيم ونهد من ليث بن أسلم من قضاعـة فنزلوا وادي القرى والحجر والجِناب .

---

(١) ٢ / ١٦٤ .
(٢) ٤ / ٣٥٤ / ٣٥٦ .
(٣) ص ٢٣١/٣٤٨/٣٨٣
(٤) صفة جزيرة العرب ١٣١
(٥) ص ١٣/٣٨/٤٣/٣٢٩

٣ – ترتحل من المدينة تريد تيماء فتنزل – الصهباء – أشمذين العين – سلاح لبني عذرة : (ثم تسير ثلاث ليال في الجناب ، ثم تنزل تيماء) .

٤ – وقال زُهير :

عفا من آل فاطمة الجِواءُ فَيُمْنٌ فالقوادم فالحساء
فذو هاش فميث عريتنات عفتها الريح بعدك والسماءُ
فذروة فالجِناب كأنَّ خُنسَ النعاج الطاويات بها المُلاءُ[1]

٥ – الجناب بين مُرَّة بن سعد بن ذبيان ، وبين بني ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة .

٦ – دَبْر : جبل في ديار غطفان قبل الجناب. قال أرطاة بن سُهَيَّة :

تعسفن الجناب منكِّباتٍ ذُرَا دَبْرٍ يُعاوِلن النذيرا

٧ – عِرْنانُ : جبل بالجناب ، دون وادي القرى قال ابن مقبل :

من رمـل عِرْنان ، أو من رَمْلِ أسنُمةٍ
جَعْـد الثرى ، بات بالأمطار مَدْجونا

وقال شبيب بن البرصاء المُرِّي :

قلت لغلاَّقٍ بعرنان : ما تَرَى ؟ فما كاد لي عن ظهر واضحة يبدي[2]

وقال الحارث بن ظالم المُرِّي :

مَلأنَ الأرض مكرُمَةً وخيرا إلى مـا بين وجرة فالجِناب[3]

٧ – وفي « معجم البلدان » :

١ – أجبال صُبْح : موضع بأرض الجناب لبني حصن بن حذيفة وهرم ابن قطبة ، وصبح رجل من عاد كان ينزلها على وجه الدهر قال الشاعر :

ألا هل إلى أجبال صُبْح بذي الغضا غَضَا الأثل من قبل الممات مَعَادُ ؟
بلادٌ بها كُنَّا وكُنَّا نُحِبُّها إذ الأهلُ أهلٌ ، والبلاد بِلاَدُ

---

(١) « معجم ما استعجم » . (٢) « معجم ما استعجم » .
(٣) نفس المصدر - ١٣٧١ -

٢ — بَرِدُ : جبل في أرض غطفان ، يلي الجناب .

٣ — الجِنَابُ — بالكسر — موضع بِعِراض خَيْبر وسلاح ، ووادي القُرى ، من منازل بني مازن من فزارة ، بين المدينة وفيد ، قال ابن هرمة :

بانوا بأدماء من وحش الجناب لها   أحوى أخينس ، في أرطاته حِزَقُ

٤ — قال الشماخ بن ضرار الغطفاني — فزارة من غطفان — :

أقول وأهلي بالجِنَاب وأهلها   بِنَجْدَيْن: لا تَبْرَحْ نوى أُمِّ حَشْرَج

٨ — وجاء في شرح شعر النابغة : حدد أرض لكلب هو الحدُّ ما بين جوش والجناب وجوش أرض لبني القين [١] .

هذا ملخص ما جاء في الكتب التي اطلعت عليها عن الجناب ، وقد اوردته بطوله لشهرة هذا الموضع في كتب المتقدمين مع عدم معرفته في الوقت الحاضر ، وملخص تلك الأقوال :

١ — أنه من بلاد فزارة وعذرة وبلي وجهينة وكلب ، وهذا الكلام حق ، فلكل قبيلة من تلك القبائل شرك فيه ، فهو يتصل ببلاد غطفان وفزارة منها ، كما يدل على ذلك ما أورده ابن سعد ، وهو يتصل ببلاد عذرة كما تدل تلك النصوص وغيرها ، فقد ذكر صاحب « الأغاني » :

١ — اجتماع عمر بن ابي ربيعة بجميل الشاعر بالجناب [٢] .

٢ — وكما ذكر ابن قتيبة [٣] في خبر اجتماع جميل وبثينة : إنا لعلى ماء من الجناب ، وقد اتقينا الطريق ، واعتزلنا مخافة جيوش تجيء من الشام إلى الحجاز.

وبلاد بني عذرة تقع في جهته الشمالية الغربية . كما تقع بلاد بلقين وكلب في جهته الشرقية .

---

(١) « ديوان النابغة » تحقيق الدكتور شكري فيصل ص ٨٢ .
(٢) الاغاني ١٢٩/٢ .
(٣) الشعر والشعراء ص ٣٥١ .

٢ – من مياه الجناب يمن ولا يزال معروفاً وسلاح وجبار وهما مجهولان الآن ، ولا يبعد أن يكون سلاح بقرب المنهل المعروف الآن باسم آبار المدسة الواقعة شرق يمن على مقربة منها ، لأن البكري عدها في المنازل بين اشمذين وتيما .

٣ – في الأقوال المتقدمة وصف الجناب بالوحش . وهذا يدل على أنه ارض واسعة فيها أودية وأمكنة ، تربتها الظباء وغيرها من الوحش .

٤ – هناك أمكنة معدودة بالجناب ولا تزال معروفة ، مثل عرنان وحدد وقو ، فعرنان يطلق على موضعين : خلط بينهما المتقدمون : جبل لا يزال معروفاً يقع في الجنوب الشرقي من بلدة تيماء فيما بينها وبين الجبلين (حايل) (بقرب الدرجة ٣٢َ / ٣٩ْ طولاً و ١٥َ / ٢٧ْ عرضاً) يدعه الطريق يمينه ، والموضع الثاني : واد يقع بقرب العلا وهو ذو رمل كثير ، وهو الذي ورد في شعر ابن مقبل الذي أورده البكري ، والجناب واقع بين الموضعين ، أما وادي قو فهو واد عظيم يخترق جنوب الجناب ، ولا يزال معروفاً ، قال الأستاذ عبد الحميد مرداد في كتابه عن « مدائن صالح » ص ١٥٥ – : (وادي القرى وهو الوادي المشترك بين العلا ومدائن صالح . ثم وادي عِرنان – بكسر العين وسكون الراء – وهو ملاصق للعلا أيضاً وهو كثير الرمل تغوص فيه اخفاف الابل) . وحدد هو جبل تيماء المعروف الآن باسم غنيم .

٥ – ومن المواضع التي ليست معروفة صمد عذرة ، وهذا يقع في شمال الجناب ، ولكن الهجري عندما حدد عردة ، وذكر أنها في الصمد أصبح من اليسير معرفته إنه هو الجبال والآكام الصخرية الممتدة بين العلا غرباً بميل نحو الجنوب إلى شرقي تبوك ، حيث يوجد وادي عردة .

من هذا التحديد المتقدم لا يسع الباحث إلا الجزم بأن الجناب هي الأرض الفسيحة الواسعة الواقعة في عراض خيبر من الشرق إلى تيماء حيث يحدها جبل

حدد ، – وهو جبل تيماء (إغنيم) – ثم تمتد هذه الأرض نحو الشمال حتى تتصل بوادي عردة الذي يقع أعلى وادي القليبة القرية التي يمر بها المتجه إلى تبوك ، وهذه الأرض يطلق عليها الآن اسم (الجهراء) أرض ذات أودية ومستنقعات واسعة والجبال فيها قليلة أبرز ما يشاهد المرء منها جبل برد ، وهو معدود من الجناب ، ولا يزال معروفاً يدعه طريق تيماء شرقاً ، ويرى من الطريق ، قبل أن يرى المرء جبل حدد ، وكل أوصاف المتقدمين تنطبق على هذه الأرض .

* جَنَفَاءُ – ممدودة – وهي من ضغن عَدَنة ...

١– حرة النار تبتدىء من الشقرة إلى المحيط – وادٍ يفصل بين حرة النار وحرَّة ليلى مقدار ثلاثة أيام ثم تليها حرة ليلى وتنقطع بجنفاء من ضغن عدنة، وخيبر بحرَّة النار [١]

٢– جنفاء – ولا اعلم شاهداً على القصر – من بلاد فزارة ، وكان أبو الشموس البلوي صاحب رسول الله ﷺ ينزل جنفاء . روى السكوني من طريق أبي جعفر محمد بن الحسن بن مسعود الرزني قال : أخبرني أعرابي من بني جشم بن معاوية – أحد بني مازن – قال : سعيت على بني فزارة ، فأول مجامعها الشبيكة ، لبني زُنيم بن عدي بن فزارة ثم الغزيلة وهي لبني الصادر وناس من فزارة ، ثم نزلنا النقرة ، وصدّقنا بني سُليم وبني شَمْخ ؛ ثم نزلنا الحسْي ببطن الرُّمة . ثم نزلنا جنفاء ، ثم نزلنا الصُّلصلة ، فصدّقنا بني عدي ابن زُنيم بن فزارة ، ثم نزلنا الأنقرة ، وأهلها مازن بن فزارة ، ثم نزلنا قِدَة وهي لبني بَدْر ، ثم نزلنا بَطْن الجريب ثم نزلنا حُدْمة ، وهي في أصل طَهْيان ، وطهيان جبل ، قال الشاعر :

فليْتَ لنا من ماءِ زَمْزَمَ شَرْبَةً مُبَرَّدَةً ، باتَتْ على طهَيَانِ

يريد : بدلاً من ماء زمزم [٢] ...

(١) : « أبو علي الهجري » ص ١٨٢/٢٣٣ . (٢) : « معجم ما استعجم »

٣ – قال زَبّانَ بن سيّارٍ الفزاري :

فإنّ قلائِصاً طوّحْنَ شَهراً ضَلالاً ما رحَلنَ إلى ضَلالِ
رحَلتُ اليكَ من جَنَفَاءَ حَتّى أنخْتُ حيال بيتك بالمطالي

وقد قصره الراجز فقال :

إذا بَلَغْتِ جَنَفَا فنامي واستكثري ثَمّ من الأحلام

وهو موضع في بلاد فزارة ، روى موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال : كانت فزارة ممن قدم على أهل خَيبر ليعينوهم ، فراسلهم رسول الله ﷺ ألا يعينوهم ، وسألهم أن يخرجوا عنهم ، ولكم من خَيبر كذا وكذا ، فأبوا ، فلما فتح الله خيبر أتاه من كان هنـــاك من بني فزارة فقالوا أعطنا حظنا ، والذي وعدتنا فقال لهم رسول الله ﷺ : حَظّكُمْ – أو قال – لكم ذو الرقيبة ، لجبل من جبال خيبر ، فقالوا : إذن نقاتلك ، فقال : موعدكم جنفاء ، فلما سمعوا ذلك خرجوا هاربين. والجنفاء : موضع بين خيبر وفيد[1].

وأقول : قول ياقوت الأخير ينطبق على الموضع الذي قبله ، فجنفاء تقع في ضغن الحرّة ، وهو منحدرها شرقاً – أي فيما بين حرة خيبر وبين فيد – ولكنها متصلة في طرف الحرة حينما تُسهل ، وذلك ما يسمى الضغن حتى الآن ، وهي الآن قرية يزيد سكانها على ١٠٠ نسمة .

* جَوْش – بالفتح وبعضهم يرويه بالضم والصحيح الفتح ثم السكون وشين معجمة : وهو جبل في بلاد بلقين بن جَسر ، بين اذرعات والبادية قال أبو الطمحان القيني :

تجاوزن من جوشين كل مفازة وهُنّ سوامٍ في الأزمّة كالإجْلِ

قال السكري : أراد جوشا وحددا [2] وهما جبلانِ في بلاد بني القين بن جسر ، شمالي الجناب ، نزلها تيم وحمل وغيرهما قال النابغة :

---

(١) : « معجم ما استعجم » .
(٢) في المطبوع : جدد . والصواب : حدد إذ لم يذكر شيئاً عن جدد .

ساق الرفيدات من جوش ومن حُدَدٍ   وماش من رهط ربعيٍّ وحجّارِ

حددِ : أرض لكلب عن الكلبي . وقال أبو الطيب المتنبي :

طردت من مصر أيديها بأرجلها   حتى مرقن بنا من جوش والعلم

وقيل في تفسير جوش والعلم : موضعان من حسمى على أربع .

وقرأت بخط ابن خلجان – في شعر عدي بن الرقاع بضم الجيم ، وذلك في قوله :

فشبحنا قناعاً رعت الحيوة (؟)   أو جُوش فهي قُعْسٌ نِوَاءُ

جمل ناوٍ :أي سمين.وجمال نواءٌ أي سمانٌ. وكذلك قرأت في شعر الراعي المقروء على أحمد بن يحيى حيث قال :

فلمـــا حَبا من خلفنا رمْلُ عالج   وجُوش بَدَتْ أعناقها ودجُوجُ [1]

* الجوف : يطلق اسم الجوف في الجزيرة على مواضع أشهرها :

١ – جوف آل عَمْرو – المعروف أيضاً باسم دومة الجندل – وسنفصل الحديث عنه هنا .

٢ – جوف مُراد نسبة لقبيلة قحطانية معروفة ويقع في جنوب نجران ، ولا يزال معروفاً .

٣ – الجوفُ في أرض بني سَعدٍ ، ذكره ياقوت وغيره ، وأورد من قصيدة :

خلا الجوفُ من قتال سَعدٍ فما بها   لمستصرخ يدعو الثبورَ ، نصيرُ

وأورد أيضاً :

شفينا الغليلَ من سُمَير وجعونٍ   وأفلتنا ربُّ الصلاصل عامـــرُ
وأيقن أن الخيل إن يعلقوا به   يكن لفسيل الجوف بعدك آبرُ

---

(١) « معجم البلدان » .

وكان – في القديم – لعبد القيس ، ثم صار لبني سعد من تميم ، ولا يزال معروفاً، وكان حمى للأمير عبد الله بن جلوي – أمير الأحساء سابقاً – ويقع في جنوب ثاج، وحنيذ، والصرّار، في غرب إقليم الأحساء – غرب الجُبيل .

وهناك أجواف أخرى غير هذه ، إذ كلمة الجوف تطلق على المكان المنخفض من الأرض والثلاثة المذكورة من أشهرها .

أما جوف آل عمرو ، فقد نسب إلى سكانه الأقدمين ، وهم بنو عمرو من قبيلة طيّء ، وكانت طيّء تسكن جوف الخنقة ، ثم جوف طريب ، في جنوب الجزيرة ، ثم انتقلت إلى شمالها من الجبلين ورمل عالج وهو رمل بحتر (النفود الكبير) ثم الجوف (دومة الجندل قديماً) وهذا هو موضوع حديثنا.

وهذا الجوف لم أجد له ذكراً فيما بين يديّ من الكتب التي عنيت بتحديد مواضع الجزيرة مع وروده في شعر المتنبي وسماه (عقدة الجوف) ولكنه عرف باسم (دومة الجندل) في المؤلفات القديمة . كما عرف باسم القُريّات أيضاً. قال ياقوت : القريات جمع تصغير قرية:وهي دومة وسكاكة والقارة[1].

واسم الجوف جاء من المعنى اللغوي ، الذي يقصد بهُ الأرض المنخفضة ، وهكذا كان هذا الموضع ، ويعرف حديثاً أيضاً باسم (نقرة الجوف) و (جوف آل عمرو) و (الجوف) غير مضاف ، وهو أشهر اسم عرف به في عهدنا .

وقد ورد اسم الجوف في أخبار الحروب بين بني سُليم وكلب في القرن الأول الهجري . فقد ذكر صاحب « الأغاني » [2] أن عمير بن الحباب السلمي

---

(١) « معجم البلدان » .

(٢) ٢٠ / ١٢٢ .

أغار على كلب بالاكليل ، ثم بالجوف ،ثم بالسماوة . ولا شكّ أن الجوف هنا هو هذا إذ هو من منازل قبيلة كلب .

وقال ياقوت: عقدة الجوف موضع في سماوة كلب – بين الشام والعراق ، ذكره المتنبي في قوله :

إلى عُقْدة الجوف حتى شفت ... بماء الجُراويّ بعض الصَّدَى [1]

وقبل هذا البيت :

وأمست تُخيّرنا بالنقا ... ب ،ووادي المياه ،ووادي القُرى

وقلنا لها أين أرض العرا ... ق، فقالت – ونحن بتربان – : ها

وهَبَّتْ بحسمى هبوب الدبو ... ر ، مستقبلاتٍ مهب الصبا

روامي الكفاف ، وكبد الوهاد ... وجار البويرة ، وادي الغضا

وجابت بُسَيْطَةَ جوب الردا ... ءِ ، بين النعام ، وبين المها

إلى عقدة الجوف – الخ ...

ولاح لها صَوَرٌ ، والصباحْ ... ولاح الشغور لها والضحا

ومَسَّى الجميعيَّ دئداؤُها ... وغادى الأضارع ثم الدَّنا

فيالك لَيْلاً على أعكش ... أحمَّ البلاد ، خفِيِّ الصُّوَى

وردنا الرُّهيمة في جوزه ... وباقيه اكثر مما مضى

قال البكري : فنسّق ابو الطيب في هذه الأبيات المحالَّ والمياه من وادي القرى إلى الكوفة [2] .

وترى آن بلانت أن الجوف ووادي السرحان كانا بحراً .

---

(١) « معجم البلدان » .

(٢) « معجم ما استعجم » - ١٣٢٠ -

قـالت [1] : بعد استمرارنا في السير ساعتين أخريين ونصف ساعة في أرض متكسرة انتهينا أخـيراً إلى مرتقى واقف الانحـدار بَرْهَن - عند صعودنا له - على انه أقصى طرف لمنخفض (سكاكا) ، وفوقه وجدنا أنفسنا في سهل حصباوي .

ان المنظر من هذا الطرف ، وأنت تنظر إلى الخلف ، كان مدهشاً، وقدم لنا في الحال فكرة عن (جيولوجية) المنطقة كلها ، حوض (سكاكا) الكبير بتلاله والتلال الرملية ، وسلسلة التلال الطويلة التي تقع الواحة تحتها وسلسلة جبل (الحامية) أيضاً ، كلها مجرد جزر في الحوض ، وهو يبدو بالإضافة إلى ذلك أنه يضم الجوف وكذلك القرى الشرقيـة في المحيط الرئيسي له . و (ولفرد) الآن لديه شك قليل في أن (سكاكا) والجوف هما حقاً الذيل، كما كان الأمر بالنسبة لوادي السرحان أو على الأصح رأسه ، لأن من المحتم أن يكون الكل في شكل شيء ما ، يشبه حيواناً مائياً كالضفدع (أبو ذنيبة)، وهذه النقطة هي أنفه .

ان (الحماد) أو السهل حيث كنا الآن ، أعلى من (قارة) و (سكاكة) بـ ٣٥٠ قدماً ، أو ٢٢٢٠ قدماً فوق سطح البحر . وهو مستو تماماً وخال من النبات، امتداد مسطح أسود من تربة حصباوية مغطاة بحصى صغيرة مدورة، يمتد إلى الجنوب الغربي حتى الأفق ، ولا يشبه أي شيء في الحوض الأسفل .

اندهشنا كثيراً أن نجد سهلاً مفتوحاً كهذا أمامنا ، لأننا الآن لم نتوقع شيئاً غير الرمال ، ولو أننا لم نستطع أن نراها ، إلا أنهـا لم تكن بعيدة ، وهذا فقط كما لو كان شاطىء النفود الكبير .

وقـد وقع خلط وغَلَطٌ في كتاب « جغرافية شبه جزيرة العرب » تأليف الأستاذ عمر رضا كحالة :

١ - الخَلْطُ بين الجوف ووادي السِّرحان [2] ، فهما متغايران .

---

(١) « رحلة إلى نجـد » ص ١٠٥ .   (٢) ص - ٢١٥ - الطبعة الثانية .

٢ – الغلط فيما ذكر أن الجوف يقع في المنتصف بين الفرات وطريق الحجاز الحديدي . فالجوف لا صلة له بطريق سكة حديد الحجاز .

ومنشأ هذا الخلط كون الجوف يجاور وادي السرحان من الجنوب ، ويتصل به ، بحيث يرى بعض الباحثين أن وادي السرحان والجوف يكوّنان – في القديم – بَحْراً ويقول الجغرافيون – في وصف هذه الجهة :

١ – تَقَعُ واحة الجوف في منخفضٍ يقع نحو (٥٠٠) قدم تحت سطح الصحراء المحيطة بها ، ويبلغ طول هذه الواحة نحو ثلاثة أميال ، في نصف ميل عرضاً ، تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ، وكلها حدائق وبساتين وبها نحو ١٢ قرية .

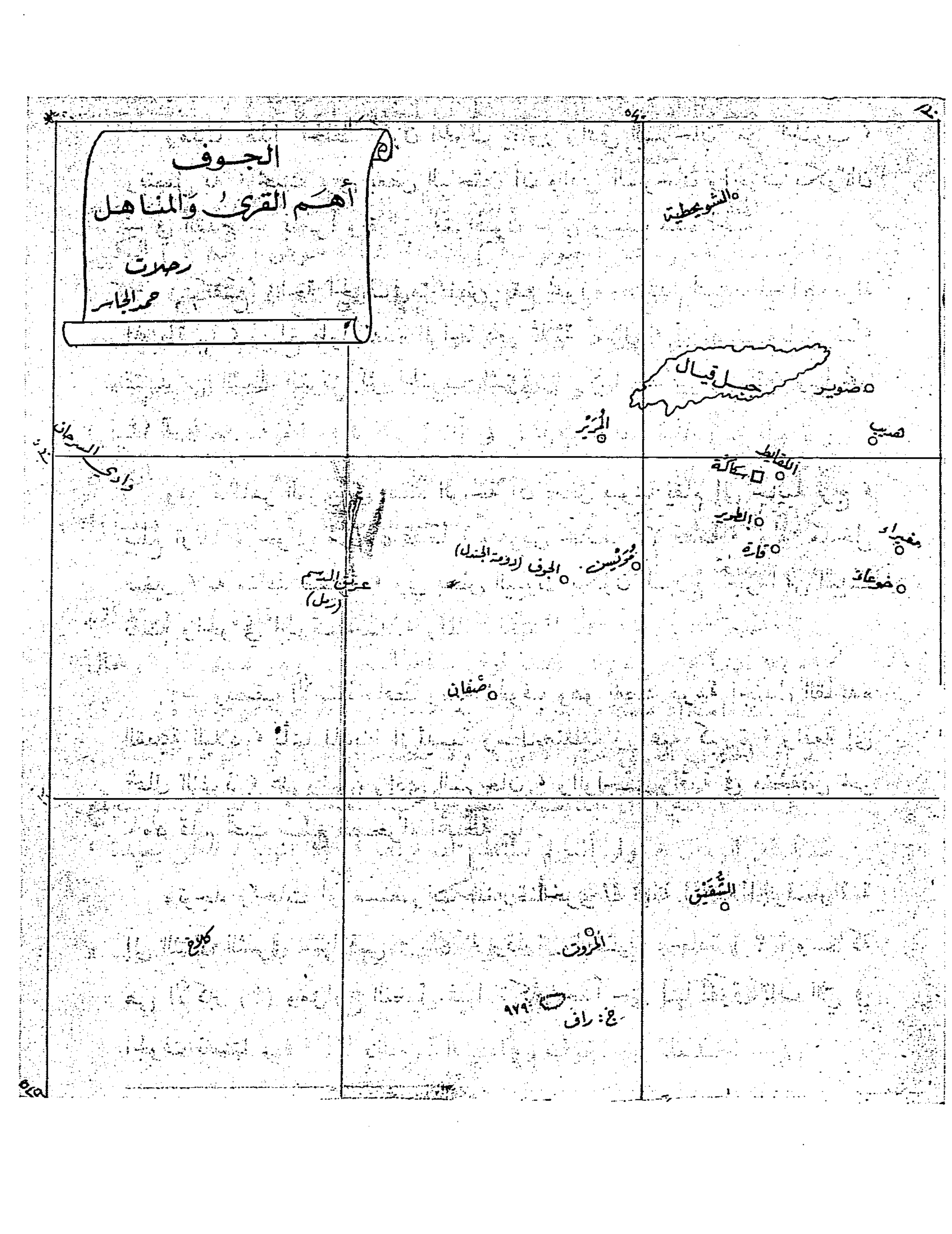
ومن مظاهر القرى في هذه الواحة أن بعض بيوتها يقام إلى جانبه برج ، يبلغ ارتفاعه حوالي ٤٠/٥٠ قدماً ، وعرض حائطه ١٢ قدماً ، وله مدخل صغير ، به منافذ صغيرة ، وفي بعض البيوت يكون البرج جُزءاً من البيت نفسه والجو في الجوف جيّد ، والماء عذب [١] .

٢ – ويصف الأستاذ حافظ وهبة الجوف وهو يقصد دومة الجندل القاعدة القديمة للبلاد ، بأنها المدينة الرئيسية وسط منطقة زراعية كبيرة ، واقعة إلى شمال النفوذ ، على رأس وادي السرحان ، والواحة واقعة في منخفض نحو ٥٠٠ قدم تحت سطح الصحراء المحيطة بها .

وتوجد واحات أو مستعمرات صغيرة أخرى ، تابعة لواحة الجوف واقعة إلى الشمال الشرقي منها فهي : سكاكة وقارة والطُّوير وجادة (؟) وسكاكة هي الأكبر (؟) ومزارع النخيل فيها تكثر جداً حتى أنها تفوق تلك التي في الجوف نفسها .

---

(١) « جغرافية شبه جزيرة العرب » – ٢١٥ –



الجوف
أهم القرى والمناهل
رحلات
حمد الجاسر
الشويحطية
جبل قيال
ضوير
الجرير
هسيب
اللقائط
سكاكة
الطوير
قارة
مغيراء
خوعا
دومة الجندل (الجوف)
وادي السرحان
صفان
الشقيق
المروت
ج: راف

وموقع الجوف الجغرافي مهمّ جدّاً ، لأنه يقع على الطريق المباشر ما بين سورية ووسط بلاد العرب ، وبين جبل شمّر وجبل الدروز ، وعلى بعد نحو ٣٠٠ ميل من كل من هذه المواقع ، وهي الواحة الوحيدة الواقعة بين العقبة وبغداد [١] .

*الجَـهْرَاء : ما استوى من الأرض،لا شجر فيها ولا آكام ولا رمال وإنما هي فضاء – هذا المعنى اللغوي للجهراء ، ويطلق هذا الاسم على أرض واسعة تقع شرق حرار خيبر وشمالها فيما بينها وبين تيماء وفيما بين تيماء وتبوك والعلا، أي أنها تحيط بتيماء غرباً وشمالاً .

وتعرف هذه الأرض قديماً باسم الجناب – بكسر الجيم وفتحها – وفيه يقول ابن دارة :

خليلي إن حانت بحمص منيتي فلا تدفناني وارفعاني ، إلى نجد
ومُرَّ على أهل الجناب بأعظمي وإن لم يكن أهل الجناب على القصد
فإن أنتما لم ترفعاني فسلما على صارة ، فالقور ، فالأبلق الفرد
لِكيما أري البرق الذي أومضت له ذُرى المُزُنِ عُلوِيّاً،وماذا لنا يُبدي؟

(وانظر الجناب)

* جفر عَنزَة : يرد اسم هذا المنهل في سياق تحديد مواضع منها :

١ – بَرْد ورؤاف : جبلان مستديران ، بينهما فجوة في سهل من الأرض غير متصلة بغيرهما من الجبال . في مفازة بين تيماء ، وجفر عنزة ، وجفز عنزة في قبيلتها [٢] .

٢ – العُرَدَة : – بالضم – ماء عِدٌ ، من مياه بني صخر من طيِّء ، وهو بين العلا وتيماء ، وجفر عنزة ، في أرض ذات رمل وجبال مقطعة [٢] .

---

(١) « جزيرة العرب في القرن العشرين » الطبعة الرابعة ص ٦٧ .
(٢) : « معجم البلدان » .

وعلى هذا فإن تحديد هذا المنهل يقع بقرب منهل يُمْن في شرقيها - وفي الجنوب مما يعرف باسم حفيرة الأيدا ، ولا يزال في تلك الجهة موضع يعرف باسم الجفر ، لا شك أنه جفر عنزة ، ويقع في أحد روافد وادي قَـوٍّ على مقربة من حفيرة الأيدا شرقها .

* جِيَارُ : الجيار - بالكسر ككتاب : موضع من أرض خيبر . قاله الزمخشري [1] .

وأقول هـــذا الاسم تصحف على الزمخشري وياقوت والفيروز آبادي والسمهودي فأوردوه بالياء بعد الجيم - والصواب الباء الموحدة (جبار) غير معرّف وفي « طبقات ابن سعد » : يمن وجُبَار بين فدك ووادي القرى. (وانظر يمن) .

* الجِيْفَةُ - وهو ذو الجِيفة : موضع بين المدينة وتبوك، بنى النبي ﷺ عنده مسجداً في مسيره إلى تبوك [2] (وانظر حَوْصا) .

(ح)

* الحاج - (ذات الحاج) .

* الحائِطُ (على اسم حائط النخل) من أكبر قرى حرّة خيبر ، وكان يعرف قديماً باسم (فدك) ويضاف إليه الجزء الشرقي من الحرة فيسمى حرة فدك ، ويبلغ سكان الحائط الآن قرابة ١٢٠٠ نسمة ، وجلهم من هُتَيم ، وتلاميذ مدرسته ١٢٦ ، وهو واقع في شرقي حرة خيبر، داخِلاً فيها (بقرب الدرجة ٢٩َ/٤٠ْ طولاً و ٢٦/٠٠ْ عرضاً) وهو في وادٍ كثير النخيل قدر عدد نخيله الأستاذ صالح الدخيل بـ ٢٠٠٠٠ نخلة - في عهده [3] قبل خمسين عاماً.

---

(١) « الجبال والأمكنة » و « معجم البلدان » .

(٢) « معجم البلدان »

(٣) « القول السديد في أخبار إمارة آل رشيد » - مخطوط - .

* حاطِبُ : طريق بين المدينة وخَيبر ، ذكره في غزوة خيبر من كتاب الواقدي ، وقصته مذكورة في مَرْحب[١] .

* الحبالة : جبل ذكره صاحب « المناسك [٢] » والبكري[٣] في الطريق من النقرة إلى فدك ، وهو أقرب إلى النقرة بينهما يوم وليلة .

* حَدَد ، قال نصر : - بفتح الحاء المهملة - جبل مشرف على تيماء ، يهتدي به المسافر - ويصحف بالجيم [٤] .

وقال الهجري : حدد هو جبل تيماء [٥] .

وقال ياقوت حدَدُ - جبلٌ مطل على تيماء ، وقال ابن السكيت : حدد أرض لكلب عن الكلبي - قاله في شرح قول النابغة :

ساقَ الرُّفيداتِ من جَوْشٍ ومن حَدَدٍ وماشَ من رهطِ ربْعيٍّ وحجّارِ

وحدد هذا يعرف الآن باسم غُنَيم . وقد سبق الحديث عنه وعما كشف فيه من آثار (ص ٣٦١)، وقد ورد اسم حدد مقرونا بتيماء باعتبارهما من أبناء إسماعيل في « سفر التكوين - ٢٥ : ١٥ » .

* حدْرج : واد ينحدر من الطُّبيق ويفيض بوادي السرحان ، وفيه منهل للبادية ومفيضه في غرب الوادي بين أُويسط وطبرجل

* الحَدِيثة : قرية تقع بقرب الحدود الاردنية ، فيها قصر لمفتشي الحدود ولاسلكي ، ومستشفى كبير في بناية حديثة ، ومبنى جديد للجوازات ، وكل هذه تقع فوق مرتفع يقع في الشمال الغربي من القرية التي تحتوي على بيوت مبنية بالطين واللبن، وفيها مدرسة تضم

---

(١) معجم البلدان .
(٢) ص ٥٤٢ .
(٣) « معجم ما استعجم » .
(٤) كتاب نصر الورقة الـ ٦٣ .
(٥) « أبو علي الهجري » ٣٦٨ .

٣٧ تلميذاً . والماء من آبار داخل البيوت بعمق ٤و٨ أمتار وتبعد عن النبك – قاعدة الامارة – ٢٥ كيلاً ، وتقع بقرب الدرجة : (٨َ٠ / ٣٧ْ طولاً شرقياً و ٢٩َ /٣١ْ عرضياً شمالياً) وهي في مجتمع أودية يفيض سيلها في سهل الرشراشية في الشمال الغربي من القريات .

* الحُسُرَضة : كانت قرية من قرى خيبر ، ولكنها الآن غير مسكونة ، وتقع شرق أبي وشيع ، يدعها طريق تبوك على اليمين .

* حـــرّة تبوك : وهو الموضع الذي غـــزاه رسول الله ﷺ [١] . وهذه الحرة تعرف الآن باسم حَرّة الرّحاء ، الواقعة جنوب تبـــوك ، وكانت تعرف أيضاً باسم حَرَّة بهل[٢] ، ولبهل حرّة أخرى دونها إلى وادي القرى وتدعى قديماً حرة الكـُرَيتِم ، وتعرف الآن باسم حرّة العُوَيرض .

* حرة فَدَك : قال ياقوت وغيره : أعلى الرُّمة من الحرّة حَرّة فدك ، وحرّة النار [٣] . انتهى .

وأقول: حرة فدك هي الجانب الشرقي من حرة خيبر، وليست حرة منفصلة عنها ، ولهذا لم يفردها الهجري بالذكر عند ذكر جرار العرب[٤] ، ومن عادة العرب إطلاق اسم الموضع على ما يتصل به ، ولهذا فإن حرة خيبر تُعرف بحرة النار ، وبحرة فدك – جانبها الشرقي ، وبحرة ضرغدُ – ولابة ضرغد ، جانبها الشمالي الشرقي ، وهي الآن تعرف باسم حرة هُتيم لكون هذه القبيلة تسكن أكثر مواضعها ، ويسمى طرفها الشمالي حرة تـَنْنان وقديماً حرة ليلى .

*حَرّةالرّجْلا(الرجلاء) : بديار بني القين، بين المدينة والشام، سميت بذلك لأنه يترجل فيها ويصعب المشي ، وفي الصحاح : حرة رجلى أرض مستوية ،

---

(١) « معجم البلدان » .

(٢) « أبو علي الهجري » ،

(٣) « بلاد العرب » ٧٦ – « معجم البلدان » .

(٤) انظر « أبو علي الهجري » ٢٣١ .

كثيرة الحجارة ، يصعب المشي فيها ، وفي القاموس : وحرة زجلى كسكرى ويمد ، حرة خشنة يترجل فيهـا ، أو كثيرة الحجارة ، وقال ابن شبة في صدقات علي : وله بحرة الرجلا من ناحية شعب زيد [1] وادٍ يدعى الأحمر شطره في الصدقة وشطره بأيدي آل مناع من بني عدي منحة من علي ، وله أيضاً بحرة الرجلى واد يقال له البيضاء فيه مزارع وعضاه، وهو في الصدقة ، ثم قال : وله بناحية فدك بأعلى حرة الرجلى مال يقال له القصيبة [2] .

والقول الأخير يفهم منه أن حرة الرجلاء بناحية فدك .

* حرة ليلى – لبني مرة بن عوف بن سعد من غطفان ، يطؤهـا الحاج الشامي في طريقه إلى المدينة ، وعن بعضهم انهـا من وراء وادي القرى من جهة المدينة ، فيها نخل وعيون ، وقال بعضهم : هي في بلاد بني كلاب ، قال الرماح بن ابرد المري – وهو ابن ميادة – وقد أمره الوليد بن يزيد بن عبد الملك بالمقام في الشام :

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً بحرة ليلى حيث ربتني أهـلي
بلادٌ بهـا نيطت عليَّ تمائمي وقطعن عني حين أدركني عقلي

وأقول : هذه الحرة هي القسم الشرقي الشمالي من حرة خيبر ، كما يفهم من كلام الهجري ، وهي المعروفـة الآن باسم (حرة اتنان) و (حرة هتيم) وفي طرفها الجنوبي يقع (ضَرْغد) وهي التي يفصل بينها وبين حرة النار (حرة خيبر) واد مخيط – كما ذكر ذلـك الهجري – ولا يزال الوادي معروفاً وها هو نص كلامه : وحرة النار تبتديء من الشقرة إلى المخيط – وادٍ يفصل بين حرة النار وحرة ليلى مقدار ثلاثة أيام ، ثم تليها حرة ليلى ، وتنقطع بجنفـاء من ضغن عدنة ... وبين حرة ليلى وحرّة سلامان مقدار أربعة أيام : الجِنابُ والصَّمْد [3] ..

---

(١) « وفاء الوفاء »
(٢) في مخطوطة تاريخ ابن شبة : سعب ريدا . (٣) « ابو علي الهجري » – ٢٣١

* حرة النار : بلفظ النار المحرقة ، قرب حرة ليلى ، وقيل : حرة لبني سليم ، وقيل : بمنازل جذام وبلي وعذرة ، وفي القاموس : هي قرب خيبر ، وقال عياض حرة النار في حديث عمر من بلاد بني سليم بناحية خيبر ، وقال نصر : حرة النار بين وادي القرى وتيماء من ديار غطفان وبها معدن . وذكر الأصمعي حرة فدك في تحديد بعض الأودية ، ثم قال : وحرة النار فدك ، وفدك قرية بها نخيل وصوافي . فاقتضى انها بفدك وهي التي سالت منها النار التي اطفأها خالد بن سنان عن قومه ، لما سبق في نار الحجاز أن قومه سالت عليهم النار من حرة النار في ناحية خيبر ، تأتي من ناحيتين جميعاً ، وفي رواية . تخرج من جبل من حرة اشجع ، وفي رواية : أنهم طلبوا منه إسالة الحرة ناراً ليؤمنوا به ، فدعا الله فسالت عليهم ، قال الراوي : فرأيتنا نعشي الابل على ضوء نارها ضلعا الربذة وبين ذلك ثلاث ليال ، وفي رواية : أن نار الحدثان خرجت بحرة النـــار حتى كانت الابل تعشى بضوئها مسيرة إحدى عشرة ليلة .

وفي الحديث أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب (ض) ، فقال عمر : ما اسمك؟ قال . جمرة ، قال : ابن من ؟ قال : ابن شهاب ، قال : فمن أنت ؟ قال : من الحرقة ، قال : أين مسكنك ؟ قال : حرة النار ، قال : بأيها ؟ قال : بذات اللظى ، فقـــال عمر : أدرك الحي لا يحترقوا - وفي رواية « فقد احترقوا » - قبل : إنه إذه رجع إلى أهله فوجد النار قد احاطت بهم .

ولها ذكر في شعر النابغة ، وسماها أم صبار ، وقال أبو المهند الفزاري :

كانت لنا أجبال حسمى فاللوى وحرة النار فهـــذا المستوى
ومن تمـــيم قد لقينا باللوى يوم السّتار وسقيناهم روى [1]

وفي كتاب نصر : حرّة النار بـــين وادي القـــرى وتيماء من ديار غطفان وسكانها اليوم عنزة ، وبها معدن البورق وهي مسيرة أيام قال أبو المهند بن معاوية الفزاري :

---

(١) « معجم البلدان » و « المغانم المطابة » و « وفاء الوفاء » .

كانت لنا أجبال حسمى فاللوى   وحرّة النـــار فهذا المستوى
ومن تميم قد لقينـــا باللوى   يوم النسار وسقينـــاهم روى

(في « المغانم » يوم الستار) .

وأقول : حرّةُ النار: هي حرّة خيبر كما جاء في كتاب «الهجري» قال: تبتدىء حرة النار من الشقرة إلى المخيط واد يفصل بين حرة النار وحرة ليلى مقدار ثلاثة أيام ، ثم تليها حرة ليلى ، وتنقطع بجنفاء من ضغن عدنـــة ، وخيبر بحرّة النار ، وعيينات ، وأعراض أشجع ، وأعراض ثعلبة ، وبه الفرس .

* حَزْن : طريق بين المدينة وخيبر ، ذكره في مغازي الواقدي ، في غزوة خيبر ، وخبره في مرحب [1] .

* حِسْمَى: بكسر أوله وبالميم مقصور : موضع من أرض جذام . ويقال ان الماء بقي بحسمى بعد نضوب الماء في الطوفان ثمانين سنة ، وبقيت منه بقية الىاليوم فهو ماء حسمى ، ذكره ابن دريد وغيره ، وقال عنترة :

سيأتيكمُ عني ـ وإن كنت نائياً   دخانُ العَلَندي دون بيتي مِذوُذُ
قصائد من قيل امرىء يُحتَدِيكمُ   وأنتم بحسمى ، فارتدوا وتقلدوا

يخاطب بني فزارة فدل أن حسمى من ديارهم . وقد تقدم من قول ابن دريد وغيره أنها من مياه جذام وهو الصحيح وفيه أغار الهُنَيْد الصُّلعي ــ وصليع بطن من جذام ــ على دحية الكلبي وقد نزلوادياً من أوديته يقال له شيار وهو منصرف من عند قيصر حين بعثه رسول الله ﷺ فكان ذلك سبب بَعثة رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سرية إلى حسمى ، فأصاب من جذام ، وقتل الهُنيد بالفضافض من ديارهم ، وروى ابن قتيبة ــ بسنده ــ

(١) « معجم البلدان » .

أن أسامة سمع النبي ﷺ يقول : « بشر رَكيب السعاة بقطع من جهنم مثل قور حسمى »[1].

– وأما حسمى فبين فزارة وجذام ، وهي من حدود جذام ، وبحسمى بئر إرم من مناهل العرب المعروفة [2] .

حسمى : – بالكسر ثم السكون مقصور – أرض ببادية الشام بينها وبين وادي القرى ليلتان ، وأهـــل تبوك يرون جبل حسمى في غربيهم ، وفي شرقيهم شروري . قال الراجز :

جاوزْنَ رَمْل أيلة الدهَّاسا وبطن حسمى بلداً هِرْماسا

– أي واسعاً – وحسمى أرض غليظة وماؤها كذلك لا خير فيهـا ، تنزلها جذام . وقال ابن السكيت : حسمى لجذام جبال وأرض ، بين أيلة وجانب تيه بني إسرائيل الذي يلي أيلة ، وبين أرض بني عذرة ، من ظهر حرّة بهل[3] فذلك كله حسمى ، قال كثير :

سيـأتي أمير المؤمنين ودونه جماهير حسمى قورها وحزونها
تجاوب أصدائي بكل قصيدة من الشعر مهداة لمن لا يُهينها

ويقال : آخر ماء نضب من ماء الطوفان حسمى فبقيت منه البقية إلى اليوم ، فلذلك هو أخبث ماء .

وفي أخبار المتنبي وحكاية مسيره من مصر إلى العراق قال : حسمى أرض طيبة ، تودي لبن النخلة من لبنها ، وتنبت جميـع أنواع النبات ، مملوءة جبالاً في كبـد السماء ، متناوحة ملس الجوانب ، إذا أراد الناظر النظر إلى قلة أحدها فتل عنقه حتى يراها بشدة ، ومنها ما لا يقدر احد أن يراه ، ولا يكاد القتام يفارقها ولهذا قال النابغة :

---

(١) « معجم ما استعجم » .
(٢) « صفة جزيرة العرب » ١٢٩ .
(٣) في الأصل : «نهيل» تصحيف ، وانظر « أبو علي الهجري » ٢٣١/٢٣٢ .

فأصبح عاقلاً بجبال حسمى دقاق التراب محترم القتام

واختلف الناس في تفسيره ولم يعلموه، وتكون مسيرة ثلاثة أيام في يومين، يعرفها من رآها من حيث يراها ، لأنها لا مثل لها في الدنيا .

ومن جبال حسمى جبل يعرف بإرم عظيم العلو ، يزعم أهل البادية أن فيه كروماً وصنوبراً .

وفي حديث أبي هريرة : تخرجكم الروم منها كفْراً كفْراً إلى سُنْبُك من الأرض . قيل له : وما ذلك السنبك ؟ قال حِسْمى جذام .

وقرأت في بعض الكتب أن بعض العرب قال : إن الله اجتبى ماء إرم والبديعة ، ونعمان ، وعلان لعباده المؤمنين . وهذه المياه كلها بحسمى ، وفي كتب السير وأخبار نوح : أن حسمى جبل مشرف على حرّان . وهذا بعيد من جهتين احداهما أن الجودي بعيد من حرّان ، بينهما أكثر من عشرة أيام ، والثانية أنه لا يعرف بالجزيرة جبل اسمه حسمى [1] .

* حِسْمَى قال أبو جَرَادة الأشجعي : غُضْيان والعَرَبة ولعلع من مدافع حِسْمَى جذام [2] .

وأنشد الهجري من ارجوزة طويلة لحسين بن قبيصة الجذامي :

وعزلت أيلة والبحر المضمّ عنها يميناً وتعدّت في الأتم
وعزلتْ حزم ردام ذا الشـلم عنها يميناً وتياسرت لـلأم
وصبَّحَتْ نُعْمَى وأكوار النعم

الأتم : واد يسيل من حِسْمَى على ليلة .

نُعْمَى ماءة يفيء عليها ظلّ الشوق بالعشي .

والشوق : أعظم جبل بحسمى [2] .

---

(١) : « معجم البلدان » .

(٢) « ابو علي الهجري » ٢٣٥/٢٣٦

ويصف فلبي حسمى – من حيث كثرة ما في صخور جبالها من الكتابات والنقوش الأثرية بأنها عبارة عن مكتبة ومتحف للصور ، يعرض فيها أدب العرب الأقدمين وفنّهم ، وهي غنية بالآثار إذا ما قورنت بمنطقة تيماء وما جاورها (١) .

وقد وجد فلبي فيها في حرّة الرحا المتصلة بحسمى – في روافة – مَعْبداً قديماً فيه كتابات نبطية ، ويونانية يرجع تاريخ بعضها إلى سنة ١٦٥ بعد الميلاد (٢) وذكر أن الأستاذ خالد الفرج زار هذا المعبد فيما بعد ونقل ما فيه من نقوش نبطية ونقل نقشاً يونانياً مهمّاً ، وآخر أصابه عطب شديد من جَرّاء محاولة تجزئته ليصبح قابلاً للحمل (٣) ويبعد مكان هذا المعبد عن تبوك ١١٠ أكيال ، على ما أفادني به الأستاذ علي الثروة .

* الحصاة (وقد تسمى أم حصاة) : واد يفيض في وادي السّرحان من الجهة الغربية ، فيما بين الأمغر والجربوعية ، وفيه منهل للبادية .

* الحُصَيدَات : جبل في شعر عدي بن الرّقَاع :

فلما تجاوزن الحُصَيْداتِ كلها ... وخلّفْن منها كل رَعْنٍ ومَخْرَمِ
تخطّيْنَ بَطْنَ السِّرِّ حتى جعلنه ... يلي الغرب، سَيْر المُنْتَوي المتيمِّم (٤)

وأقول : هما واديان ينحدران من آكام مرتفعة واقعة غرب النبك (قاعدة القُرَيَّات) فيتجهان صوب الشمال الشرقي حتى يفيضان في وادي السرحان . وتقع بلدة النبك بينهما فيدعى الجنوبي منها : حصيدة الشرقية والشمالي : حصيدة الغربية (وسيأتي ذكرهما) وواد ثالث شرق وادي السرحان .

* حُصَيّدة : واد يقع شرق النبك (انظر قرقر) . وهناك واد آخر يدعى حصيدة الغربية بين الحديثة والنبك ، وهناك وادي حصيدة الشرقية .

---

(١) ص ٢٢٥ (٢) ص ٢٠٩

(٣) ٢٢٠ وعن معبد روافة انظر شمال الحجاز : ص ٣٠ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١١٥ ، ١٢٨ ، ١٢٩ وسماه (الغوافة) .

(٤) « معجم البلدان » .

* حصيدة الشرقية : واد يقع جنوب النبك (القاعدة) ، بقربه فيه آبار ، وسيله يفيض في وادي السرحان بقرب النبك .

حصيدة الغربية واد يقع شمال النبك – القاعدة – ثم يتجه صوب الشمال الشرقي حتى يصب في الوادي ، في المنتصف بين النبك والحديثة وفي الوادي آبار تردها البادية .

* الحَصَانُ : (بالفتح) : ماءة في الرمل بين جبلي طيّء وتيماء وأقول : تُعرف الآن باسم الحصانة – مؤنثة ، ماءة لقبيلة عنزة ، بين تيماء وحائل ، على الطريق المسلوك قديماً بالإبل .

حَضوضى : – بفتح الحاء والضاد المعجمة بعدها واو ساكنة ، ثم ضاد مفتوحة ممدودة بألف قصيرة - يكثر استعمال هذا الاسم في الدعوة على عدوٍّ ، بأن يقع في مهلكة ، ويحاك حول الوقوع في حضوضى – أو نقرة حضوضى – أساطير كثيرة ، ويطلق الاسم على مواضع في الجزيرة تتفق في صفاتها .

ويحسن أن نورد بعض أقوال علماء اللغة في معنى هذا الاسم ، وان كُنّا نميل إلى أنه مشتق من الحضيض وهو المكان المنخفض .

قال ابن دريد : وألقاه الله في حَضَوْضى ، وهو لهيب النار ، معرفة لا تدخلها الألف واللام . وحضوضى موضع لا تدخله الف ولام .

وحضوضى – النار معرفة لا تدخلها الألف واللام (١) .

أما صاحب « لسان العرب » فلم أجده ذكر شيئاً عن حضوضى في محل ذكره .

٣ – وفي «التاج» حضوضى: كشروري، ويقال أيضاً: حَضُوض حَضُوض كصبور– جبل في البحر أو جزيرة فيه ، كانت العرب تنفي إليه خلعاءَها .

---

(١) : « جمهرة اللغة » ج ٣ ص : ٣٩٩/٢٣٣ .

أما كلام المؤلفين في تحديد الأمكنة فهو بالنسبة لتحديد حضوضى موجز وغير دقيق ، وها هو أهم ما ذكروا :

١ - قال ياقوت : حضوضى بفتح أوله والضادين ، وسكون الواو ، مقصور، مثل قَرَوْرى : جبل في الغرب ، كان العرب في الجاهلية تنفي اليه خلعاءها [١] .

وقال الحازمي : حضوضى - أوله حاء مفتوحة وبضادين معجمتين - جزيرة في البحر[٢] وهو نصّ كلام نصر [٣] .

٣ - وقال الزمخشري : حضوضى موضع ، وقيل جبل في البحر [٤] .

والأمكنة التي تعرف باسم حضوضى هي :

١ - حضوضى الواقعة في وادي السرحان (بين ٥َ/٣٨° و ١٥/٣٨° خط الطول الشرقي و ٤٢َ/٣٠° و ٥٦َ/٣٠° العرض الشمالي على وجه التقريب) . وهي أوسع الأمكنة المعروفة بهذا الاسم ، وأشهرها .

وهي سبخة مستطيلة عرضها ٦ أكيال تقريباً . ويمـــر بطرفيها الجنوبي والشمالي طريقان يخترقانها ، الجنوبي يمتد من قرب بئر قُدَير (ورمل فيه ماء على وجه الأرض يتناول باليد وكان مورداً للابل) يمتد الطريق إلى المعاصر ، والثاني يمتد إلى المابيَّة من العيساوية ويمر بالأمغر وطوله ٥ أكيال تقريباً . وفي طرفها الشمالي قويرة صغيرة .

ويحوك أهل هذه الجهة حولها كثيراً من الأخبار منها أن رجلاً اسمه حربي عرف شيئاً مما يقال عنها بأنه لا يستطيع أحدٌ اجتيازها ، لابتلاعها من يمرُّ

---

(١) : « معجم البلدان » .
(٢) : « الأماكن » - الورقة ٦٩
(٣) : « الأمكنة والمياه والجبال » - ٥٦ -
(٤) : « الجبال والأمكنة والمياه - ٧٦ طبعة بغداد سنة ١٩٦٨ .

فوقها ، وكان له جواد أصيل ، فركبه ودفعه بقوة من عدوه ، لاختراقها ، ولكنه سرعان مـا دخلها حتى ساخت قوائم حصانه ، ثم الحصان ، ثم راكبه ، ومن ثمَّ جاء المثل : (هفّ هفّة حربي على حصانه) ويقولون : إن الظباء وغيرها من الصيد تتحامى المرور منها، فإذا حيزت إليها انصرفت إلى جهات غيرها .

والواقع أنها كغيرها من السبخات ، ذات قشرة يابسة رقيقة ، تحتها طين ناعم لزج غير قابل للتماسك ، مشبع بالرطوبة لابتلاع تلك الأرض مياه كثير من الأودية التي تفضي إليها .

٢ ـ حَضَوْضَى مجتمع أودية عظيمة في شرق المدينة منها واديالعقيق، أعظم الأودية ينحدر من جبال الحجـاز وحراره ممتداً من قرب الطائف متاخماً لسفوح الجبال والحرار من الشرق ممتداً من الجنوب إلى الشمال ، وقبل أن تكون المدينة غربه تجتمع به أودية تأتيه من الشرق منها وادي الحناكية (نخل قديماً) ووادي الشُقْرة ، الذي أعلاه وادي الصويدرة (الطرف قديماً) وأودية أخرى فإذا اجتمعت تلك الأودية كوّنت منخفضاً من الأرض بين جبال وحرار يدعى المكان حضوضى، يبتلع كثيراً من تلك السيول، ويظهر أن هذا المنخفض حدث بعد أن حصل ثوران بركان الحرة في سنة ٦٥٤ الذي أوجد سَدّاً عظيماً [١] لحجز السيول عن المدينة ، إذ سيل تلك الأودية كان يتصل بوادي قناة فبعد أن يبتلع ذلك المنخفض ما يبتلع منه يسير في واد يدعى الخَنَق حتى يفضي إلى وادي قناة ، ووادي المدينة الواقع فيما بينهاوبين أحد ، (بقرب الدرجة ٥َ / ٤٠ْ طولاً شرقياً و ٢٢َ / ٢٤ْ عرضاً شمالياً).

ويظهر أن ذلك المنخفض حـدث من جرّاء تراكم الصخور العظيمة التي سَدّت مجرى الوادي ، والتي لا تزال آثارها باقية مشاهدة .

---

(١) انظر تفصيله في « وفاء الوفـاء » وفي « الوفاء بمـا يجب لحضرة المصطفى » الورقة ٤١ ـ مخطوطة الاسكوريال ـ

٣ – حَضَوْضَى ذكرهـا ياقوت بقوله : بِرْكٌ وادٍ لبني قُشَير بأرض اليمامة يصبُّ في المجازة ، وقيل : هو لهزّان ، ويلتقي هو والمجازة بموضع يقال له : إجْلَة وحَضَوْضَى . انتهى .

وأقول : وادي برك لا يزال معروفاً ، ينحدر من الجبال الواقعة جنوب العرض ، ومن بعض جباله ، مشرقاً حتى يخترق جبل عارض اليمامة من مكان يدعى قديماً فوهـة برك ، وفيهة برك ، وأعلى الوادي من بلاد بني قشير ووسطه حينما يخترق العارض – العلاة – من بلاد بني هزّان قديماً ويجتمع هو ووادي المجازة – وادي نعام والحوطة – الذي يأتيه من الشمال في موضـع يعرف باسم أجلة إلى الآن ، وقد يدعى مجتمع الوادي المجازة .

وقد تكونت رمال عند مجتمع الواديين فغيرت مجراهما القديم . (ومكان اجتماعهما بقرب الدرجة ٥٥َ / ٤٦ْ الطولية و ٣٠َ / ٢٣ْ العرضية) .

وبالإجمال فإن هذه السبخات تكثر في الجزيرة ، وتكوينها الطبيعي ممـا يدركه غاية الإدراك علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) والرحالون –وخاصة الغربيون – أشاروا إلى أمكنة كثيرة يتحاشى الناس المرور فوقها ، كما ذكر ذلك الرحالة (تسيجر) في كتابه عن « رمال بلاد العرب » في جهات الربع الخالي ، المعروف قديماً بـ(صَيْهَد) كما أن هناك أمكنة كثيرة تكون بقرب سواحل البحار ، غير أنَّ مما تجب ملاحظته أن للخيال أثراً كبيراً فيما يتناقله الناس عن ابتلاع السبخات والرمال للمارّة بها ، وساعد على إنتشار ما يقال عدم الحاجة إلى ولوج تلك الأماكن .

* حُفَرَة : قرية دارسة من قرى خيبر ، بجوار الحرضة شمالها ، فيهـا آثار عيون ومزارع .

* حُفَيِّرَة الأيْدَا – تصغـير حَفِيرة – بضم الحاء وفتح الفاء وكسر الياء مشددة بعدها راء فهاء ، مضافة إلى الأيْدَا بفتح الهمزة فياء مثناة تحتية ساكنة ، فدال مفتوحة ممدودة هي إحدى هجر الاخوان التي أنشئت لتكون مستقراً للبادية فيما بين سنة ١٣٢٧ و ١٣٤٥ . والأيدا من مشايخ عنزة .

وتقع الحفيّرة فيما بين خيبر وتيماء وفيها آبار ، وسكان من البادية من عنزة لا يستقرون فيها دائماً .

وقد أضيفت إلى الايدا لأنه صاحبها وللتفريق بينها وبين حُفَيِّرة أخرى تُدْعَى حفيّرة الشَّمْلِي في الطريق بين تيماء وحائل ، وهناك حفيِّرات أخرى ، مثل حُفَيِّرة الهيضل شيخ الدعاجين من عتيبة في شرق إعرْض القُوَيعية .

(وحفيرة الايدا بقرب الدرجة ٩َ / ٢٨ْ طولاً شرقياً و ٢٨َ / ٢٦ْ عرضاً شمالياً) وقد رسمت في إحدى الخرائط (حفيرة العيدا خطأ) — الخريطة رقم B ٢٠٥ — أبحاث جيولوجية مختلفة -

* حَقْل — تقدم الكلام عليه مفصلاً (ص ٤٥٤) .

* الحليفة همـا حليفتان ، قريتان تقعان شرق حرة الحائط ، في أعلى وادي الرمـة ، حيثما تنحدر فروعه من الحرة ، وتسهل الأرض وتتسع ، الغربية الجنوبية ادركها الضعف فأصبحت تدعى الخاربة ، والشرقية الشمالية ذات سكان ونخل يقارب عدد سكانها ٥٠٠ نسمة ، وفيها مدرسة بين القريتين تلاميذها ٣٥ ، وسكانها آل جلدان من هتيم وتقعان على طريق المتجه من حايل إلى المدينة .

وتدعى الغربية الجنوبية — وهي العليا — حُليفة ابن شُميلان من شيوخ هُتيم ، ويقارب عدد سكانها في الماضي ٥٠٠ كثير منهم رحل ، وهتيم سكان الحُلَيْفتين .

ويلاحظ التفريق بين هذا الموضع (الحُليفة) وبين ذي الحُليفة ، الواقع بجوار المدينة المنورة ، وهو ميقات الإحرام لأهلها ولمن مرّ بـه ، ويعرف الآن بأبيار علي .

* الحميضة: قال الجزيري : بالقرب من بين الجرْفين تقدير نصف بريد حفيرة تسمى الحميضة — بحاء مهملة مضمومة ، وميم مفتوحة ، بعدها ياء ساكنة ، وضاد معجمة مفتوحة . وأقول : تقدم وصفها (ص ٤٥٤) .

* حَوْصاءُ : موضع بين وادي القرى وتبوك نزله رسول الله ﷺ حين سار إلى تبوك ، وهناك مسجد في مكان مصلاه في ذنب حوصى . ومسجد آخر بذي الجيفة من صدر حوصا . وقال ابن إسحاق : اسم الموضع حوضى – بالضاد المعجمة والقصر – كذلك وجدته مضبوطاً بخط ابن الفرات وقال: بنى به مسجداً . قاله الحازمي .

ويرجح موزل أن مسجد حوصى هذا هو عين الأطلال التي تقع قريباً من عين الحوصى، عند تقاطع الطريق في الشمال الشرقي من تبوك وعلى مسافة بعيدة منه [1] . وإذن فهو يقرأ الاسم بالصاد المهملة – لا بالمعجمة – كما في سيرة ابن هشام، غير أن هناك من العلماء من يراه بالصاد المهلة وأن مصلى الرسول ﷺ في موضعين منه في ذنب حوصاء وفي ذي الجيفة من صدر حوصاء [2] .

* الحُوَيّطُ : يعرف قديماً باسم (يَدِيْع) وادٍ فيه نخيل كثيرة ، قدر عددها الدخيل بـ ٢٥٠٠٠ في عهده [3] وبلدة بهذا الاسم يبلغ سكانها ١١٠٠ نسمة جلهم من هتيم ، ويقع في سفح حرة خيبر الشرقي ، جنوب الحائط (فدك قديماً) على مقربة منه (بقرب الدرجة ٢/١ ٢٩َ/٤٠° طولاً و٣٥َ/٢٥° عرضاً) .

* الحَيْلُ : موضع بين المدينة وخيبر ، كانت به لقاح رسول الله ﷺ فأجدبت ، فقرّبوها إلى الغابة ، فأغار عُيينة بن حصن الفزاري، ويوم الحيل من أيام العرب [4] .

(خ)

* خَاصٌ : قال ابن اسحاق : وكان واديا خيبر : وادي السّرير، ووادي خاص ، وهما اللذان قُسمت عليها خيبر . ووادي الكتيبة الذي خرج في خمس الله ورسوله وذوي القربى وغيرهم [5] .

---

(١) : « شمال الحجاز » – ١٤١ – .
(٢) : « المغانم المطابة » – ١٢٣ –
(٣) : « القول السديد » مخطوط .
(٤) « معجم البلدان » .
(٥) « معجم البلدان » .

وورد هذا الاسم في بعض الكتب (خاض) .

* خَبَّان : قال نصر : خبّان جبل بين معدن النقرة وفدك ، وقيل : حبان وحيّان [١] .

* الخَرّار : قيل موضع بخيبر وقال عيسى بن دينار : إنه عين بخيبر ، ويؤيد ذلك ما رواه ابن وهب – وساق السند إلى أبي أمامة بن سهل : أن سهلاً قام يغتسل يوم خيبر حين هزم الله العدو [٢] .

* خُشين : تصغير خشن : جبل . وفي المثل : إنّ خُشيناً من أخشن ، وهما جبلان أحدهما أصغر من الآخر كما قيل : العصا من العُصَيَّة . قال ابن اسحاق – وعدّد غزوات النبي ﷺ – : وغزوة زيد بن حارثة جذام من أرض خشين قال ابن هشام : من أرض حِسمى [٣] .

* خَضْرَاء الحائط – بلدة يقارب عدد سكانها ٧٠٠ نسمة من قرى الحائط (فدك قديماً) سكانها أكثر هتيم .

* خَضِرَةُ : عَلَمٌ لخيبر كَفَرِحة ، كأنه لكثرة نخيلها ، وفي الحديث : أغدُبنا إلى خضرة ، وكان الرسول ﷺ عزم على النهوض إليها ، فتفاءل بقول علي (ض) يا خضرة ، فخرج إلى خيبر ، فما سُلّ فيها غير سيف علي (ض) حتى فتحها الله . وقيل : نادى إنساناً بهذا الاسم فتفاءل ﷺ بخضرة العيش ونضارته [٤] . قوله فما سُلّ فيها الخ هذا لا ينطبق على الواقع .

* خِلْصُ : واد من أودية خيبر [٥] .

وأقول : وقع اختلاف بين المتقدمين في هذا الاسم ، هل هو خلص أو خاص – أو خاض على ما تقدم - وأرى الصواب خاص .

* خِلّيت : بكسر أوله وثانيه – مثل سكّير وخِمّير – آخره تاء مثناة : وهو اسم للأبلق الفرد الذي بتيماء ، بلد بأطراف الشام [٦] .

---

(١) « معجم البلدان » .

(٢) « معجم ما استعجم » و « معجم البلدان » .

(٣) « معجم البلدان » .

(٤) « تاج العروس » .

(٥) « معجم ما استعجم » ،

(٦) « معجم ما استعجم »

* الخَـفْـق (وتنطق القاف بين الجيم والسين ولهذا فيغلط بعضهم بكتابتها الخفْج) : بلدة يقارب عدد سكانها ٧٥٠ نسمة .

وتقع في الحرة وهي من بلاد بني رشيد(هتيم)شمال الحائط بميل نحو الغرب.

* الخَـوْعُ : قـــال ابن اسحاق : الخوع موضع بِنَطاةِ خَيْبر ، وهو سَهْم الزُّبير بن العوام [١] .

وقال ياقوت : جبل أو موضع قرب خيبر [٢] .

* خَوْعَى : أورد الهجري [٣] :

تربَّعَ بالملحـــاء أول صيفـــه إلى جزْع خَوْعى حين جيدتْ خمائلهْ

وأورد صاحب كتاب « بلاد العرب » لشاعر لم يُسَمّه :

لعمرك إني بـــين أقواز عالجٍ وخَوْعَى لنـــاءٍ في المحلّ غريبُ
بعيد من أهل المطْلَيَيْنِ وحمَّةٍ لِحَيٍّ بِخَوْعَى ، والغمار خبيبُ
وذي القُورِ ، لا جادتْ بذي القُور قطرة
وجادتـــه رِيْحٌ زَعْزَعٌ ، وجَـذُوب

وقال البكري : خَوْعَى موضع بالحجاز . قـال العرجي :

بِشرج الهضبتين وحيث لاقى رقاقُ السهل من خَوْعَى الحزُونا

وقال امرؤ القيس [٤] :

أبلغ شهاباً وابلـــغ عاصماً ومالكاً ، هل أتاك الخُبْرُ ما لِي
انا تركنا منكم قتلى بِخَوْ عَى ، وسُبِيّاً كالسعـــالي

وأقول : إذا صحّ قول البكري فالاسم يطلق على موضعين ، ذلك أن خَوْعى من أشهر مناهل بادية قبيلة الرُّولة ، في إمـــارة الجوف ، وتقع في الجنوب الشرقي من القاعدة (سكاكة) وتبعد عنها بمسافة تقرب من ٢٥ كيلاً ، وتقع شرْق ظهرة قارة (بقرب الدرجة ٢٩َ / ٤٠ْ طولاً شرقياً و٤٨َ / ٢٩ْ عرضاً شمالياً) .

---

(١) « معجم ما استعجم » . (٢) « معجم البلدان » .
(٣) « ابو علي الهجري » ص ٣٧٠ . (٤) ص ١٧٠ .

* خيبر : بلاد واسعة ذات قرى وأودية وهي تابعة لامارة حايل (وقد تقدم الكلام عليها بتفصيل) .

(د)

* الدَّابيَّة: بلدة يقارب عدد سكانها ٥٠٠ نسمة شرق جنوب حرة فدك . تقع في الجنوب الغربي من الحُليفة بـ ٧٥ كيلاً تقريباً .

* دار بني قِمَّة : هي أول دار افتتحت بخيبر ، وهي بنطاة ، وهي منزل الياسر أخي مرحب ، وهي التي قالت فيها عائشة : ما شبع رسول الله ﷺ من خبز الشعير والتمر حتى فتحت دار بني قِمَّة (١) .

* دَبْرُ –بفتح أوله وإسكان ثانيه وبالراء المهملة– جبل في ديار غطفان، قِبَل الجناب. قال أرطاة بن سُهَيَّةَ :

تَعَسَّفْن الجِنابَ منكِّباتٍ ذُرَا دَبْرٍ ، يعاولن النَّذِيرا(٢)

وقال ياقوت : دَبْرٌ جبل جاء ذكره في الحديث قال السكوني : هو بين تيماء وجبل طيِّءٍ (٣) .

* دَجُوجُ : رمل متصل بعلم السعد ، جبلان من دومة على يوم ،ودجوج رمل مسيرة يومين إلى دون تيماء بيوم ، يخرج إلى الصحراء (؟) بينه وبين تيماء .. قال الراعي :

إلى ظعُن كالدَّوْم فيها تزايل وهزّة أجمـال لهن وسيجُ
فلما حبا من خلفها رمل عالج وجوش بدتْ أعناقها ودجوجُ

وقال الغوري هو رمل في بلاد كلب– وليلةدجوج: مظلمة – قال الراجز:

أقربها البقار من دجوجـا يومين لا نوم ولا تعريجـا

---

(١) « معجم ما استعجم » – خيبر – .
(٢) « معجم ما استعجم » .
(٣) « معجم البلدان» مادة : الجبلين .

وقـــال الأسود : دجوج رمل وجرع ومنابت حمض [1] بفلاة من أرض كلب [2] .

* دغـْنـُون : قرية يقارب عدد سكانها ١٠٠ نسمة وهي من قرى هتيم في الحرة ، جنوب الحائط (فدك قديماً) .

* الدَّوادِمي : (يلاحظ التفريق بين هذه البلدة ، وبين البلدة الواقعة في جنوب نجد بطريق الحجاز ، والتي هي اكثر شهرة من هذه) . يبلـغ عدد سكان هذه البلدة حوالي ٣٥٠ وهي من قرى الحرة (حرة فدك) تقع شمال الحليفة العليا بميل نحو الغرب .

* الدوم : (انظر وادي) .

* الدَّوْمة : أول حدّ خيبر ، من جهة المدينة [3] .

* دومة الجندل : تُضَمُّ الدال وتفتح على مـــا ذكر ياقوت ، ونقل عن الواقدي : دوماء الجندل . وعن ابن الكلبي : لما كثر ولد اسماعيل (ع.م) بتهامة خرج دوماء بن اسماعيل حتى نزل موضع دومة وبنى به حصْناً ، فقيل دوماء ، ونسب الحصن إليه ، ثم نقل عن أبي سعد السمعاني [4] : دومـــة الجندل في غائط من الأرض ، خمسة فراسخ ، ومن قبل مغربة عين تَثُجُّ ، فتسقي ما به من النخل ، والزرع ، وحصنها مارد ، وسميَت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجَنْدل . ونقل عن أبي عبيد السكوني : دومة الجندل حِصْنٌ وقُرى بين الشام والمدينة ، قرب جبلي طيْ وكانت به بنو كنانة من كلْب ، ودومة من القريات ، والقريات دومة وسكاكة ، وذو القارة ، فأما دومة فعليها سور يتحصن به ، وفي داخل السور حصن منيـع يقال له مارد

---

(١) في الاصل : ومناة حمص وهذا خطأ .

(٢) « معجم البلدان » .

(٣) « المناسك » : ٥٣٩ -

(٤) الذي في «الأنساب» للسمعاني: الدُّومي - بضم الدال هذه النسبة الى دومة الجندل موضع فاصل بين الشام والعراق .

وهو حصن أكيدر الملك السكوني الكندي ثم نقل ياقوت أن الأكيدر كان منزله أولاً بالحيرة ، وكان يزور أخواله من قبيلة كلب ، ويخرج معهم للصيد فعثروا على مدينة متهدمة، لم يبق إلا حيطانها ، وهي مبنية بالجندل، فأعادوا بناءها ، وغرسوا فيها الزيتون وغيره ، وسموها دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة الحيرة [١] .

وقال البكري : دومة ما بين الحجاز والشام على عشر مراحل من المدينة وعشر من الكوفة وثمان من دمشق واثنتي عشرة من مصر ، وسميت بدومان ابن اسماعيل ... وكان افتتاح دومة صلحاً وهي من بلاد الصلح التي أدت إلى رسول الله ﷺ الجزية [٢] .

وقال صاحب « الروض المعطار » : دُومة الجندل – بضم الدال – على عشر مراحل من المدينة ، وعشرين من الكوفة وثمان من دمشق ، واثني عشر من مصر . قال عياض : هي بضم الدال وفتحها ، وانكر ابن دريد الفتح ، وهو موضع من بلاد الشام قرب تبوك ، وسميت بدومان بن اسماعيل عليه السلام كان ينزلها .

ودومة حصن منيع مقفل حصين ، وبه عمارة ، ومتصل به عين التمر ويعدُّ ابن خلدون دومة الجندل من أسافل الحجاز [٣] . وهذا خطأ . وكثير من المؤرخين المتأخرين كثيراً ما يضيفون أمكنة في الجزيرة إلى الحجاز لشهرة هذا القطر ، وإن كانت تلك الأمكنة بعيدة عنه .

وتتحدث الكاتبة الفرنسية جاكلين بيرن في كتاب « اكتشاف جزيرة العرب [٤] » عن وصف الرحالة الفنلندي جورج أغسطس والان الذي زار

---

(١) « معجم البلدان » .
(٢) « معجم ما استعجم » .
(٣) « العبر » ١/١٠٧ .
(٤) ص ٢٨٢ / ٢٨٣ .

شمال نجد سنة ١٨٤٥ م (١٢٦١ هـ) لمدينة الجوف (دومة الجندل) فتقول :

وصلوا عند آخر وادي السرحان إلى دائرة من الجبال الصغيرة الكلسية الحجارة تقع بينها مدينة الجوف التي يفتخر سكانها بتسميتها (جوف الدنيا) لأنها تقع على بُعْدٍ مُتَسَاوٍ من مختلف تخوم الجزء الشمالي من الجزيرة العربية وجنوبيها ، ومن الرياض والمدن المقدسة .

ان وصف والان لهذه المدينة فريد من نوعه : (تتألف من اثني عشر حياً محاطاً كل منها بسور القرميد تقوم في وسطها قلعتها الحصينة المشرفة عليها، كل ذلك في شكل دائرة واقعة على منحدرات احد الجبال الصغيرة ، تنتشر منازل اللبن أو الحجر في بعض الأحيان ، التي تفصل فيما بينها بساتين الخضار أو الأزقة الضيقة غير المنتظمة ، حول الساحة العامة حيث ينيخ الغرباء جمالهم عند وصولهم إليها وحيث يجتمع أبناء الحي عصراً لقضاء الساعة التي تسبق الغروب في التحدث عن الأعمال، تحيط بساتين الخضر ومزارع النخيل بالمدينة من جهة الجبل حيث ينابيع المياه ممتدة نحو أسفل الوادي ، وتزرع الحبوب ما بين الاشجار ، ولكل بستان حسب أهميته ساعات معينة للسقاية اليومية، تسال خلالها المياه إليه في الأزقة الفاصلة. تنبت في هذه البساتين أشجار التين والمشمش والدراقن والعنب وغيرها على الرغم من قلة عددها ، ما عدا خمسة عشر صنفاً من البلح تعطيه أشجار النخيل التي تمتاز بها المنطقة وتعرف بكونها من أفضل الأصناف في بلاد نجد .

إن أغرب ما في هذه المدينة التركيب الاجتماعي لكل قرية ، فلكل قرية منظرها الخاص ، وسكانها المتميزون من غيرهم ، ولم يغفل والان تحليلها بدقة عجيبة ، وذكر تاريخها وعلاقاتها الخاصة بهذه أو تلك من القبائل البدوية .

إن أقدم حي فيها الحي المحيط بالقلعة، حيث كانت تقوم كنيسة في الماضي وأغلب سكانه من جنوبي نجد ، ولكن فيها حياً آخر انشئت فيه قلعة أحدث من الأولى ، بسبب العداوة التي كانت قائمة ما بين الحيين ، واربعة أخماس

السكان في هـــذا الحي من السوريين ، ويرى في الأحياء الأخرى بدو من وادي السرحان ينتسب بعضهم إلى قبيلة الشرارات والبعض الآخر إلى قبيلة شمر ، والمعارك فيما بين هذه الاحياء لا تقل عن المعارك التي تدور فيما بين القبائل الضاربة في الصحراء ضراوة ، فقد قام رئيس عشيرة شمر منذ ثماني سنوات خلت نصرة لحلفائه في هذا الحي يغزو الحي المعادي ، وتدمير منازله واتلاف بساتينه ، ومزارع نخيله وردم آباره غـــير تارك لسكانه سوى الحياة وحرية اللجوء إلى قبيلة الشرارات .

وقد أتم والان اللوحة التي رسمها بمعلومات عن المستوى الثقافي فذكر أن عدد الذين يقرأون فيها ويكتبون اكبر من عدد القراء ومجيدي الكتابة في المدن التركية العربية ، وان أهلها يتعاطون نظم الشعر والموسيقى والغناء .

ليس سكان الجوف محاربين ولا تجاراً لذا فإنهم بعكس ما يحدث عـــادة يعتمدون على أخوانهم البدو في تأمين الأرز والقمح لهم من سورية والعراق وفي القيام بالتبادل التجاري .

وتصف الليدي آن بلنت دومة الجندل بما تعريبه[1] :

والمدينة مع بساتينها محاطة بسور من اللبن ، ارتفاعه عشرة أقدام ، وطولها نحو ميلين من الشمال إلى الجنوب ، ونصف ميل عرضاً . وبقية السهل تقريباً مسطح موات من الرمل ، مع بقعة هنا وأخرى هناك من الأرض الصلبة ، وصلصال رملي حيث تتجمع المياه عندما ينزل المطر ، ويبقى الملح عندما تجف .

وأينما حُفِرَتْ بئرٌ اتخذ بستان صغير، مسيج بحائط ، ومزروع بنخل .
ويوجد حوالي اثني عشر من هذه الحقول القاصية يحتل كل واحد منها حوالي فدانين أو ثلاثة .

وفي مكان واحد يوجد أربعة أو خمسة بيوت بساتينها معها ولها منظر

(١) : « رحلة إلى نجد » ص ٥١ وما بعدها .

قرية . والحوض بكامله ، باستثناء هذه الواحات ، أبيض يخطف البصر ، وتظهر أحراج النخيل كبقع سوداء على سطحه .

والجوف نفسها لا تحتوي على أكثر من ستمائة بيت ، وهي كصناديق مربعة من اللبن ملتمة معظمها حول خربة (مارد) ، لكن ليس جميعها ، إذ يوجد حوالي ستة منها منفصلة تلتم في أجزاء مختلفة من الحرج ، وكثير من هذه البيوت لها نوع من الأبراج ، أو طابق علوي ، وهناك أبراج صغيرة على مسافات غير منتظمة حول السور الخارجي. إن إحدى القسمات الرئيسية للمدينة ، بالإضافة الى مارد ، هي قلعة جديدة خارج صحن الحصن تماماً ، يعيش فيها نائب ابن رشيد وتقع على أرض مرتفعة ، وهي مبنى مؤثر في النفس ، مربع الشكل ، وله أسوار ذات شرفات ، وذات ارتفاع قدره ٤٠ قدماً ، تتاخمها أبراج دائرية ومربعة تستدق أطرافها مرتفعة ٤٠ قدماً على البقية ، وليس لها نوافذ ، بل ثقوب للرمي منها ، ولكل برج زوائد تشبه القلنسوة لنفس الغرض .

وليس في الجوف ما يمكن أن يعتبر سوقاً ، ولا حتى شوارع ، كما يفهم المرء عموماً من هذه الكلمة ، مجرد عدد من الخطوط المتعرجة ، ذات جدران من اللبن على الجانبين .

وعندما دخلنا المدينة راكبين وجدنا هـــذه الخطوط مزدحمة برجال مسلحين ، جميعهم يحملون سيوفاً بالطريقة التي رأيناها في كاف ، مسودي الوجوه ، وغير مسرورين من رؤيتنا .

ويظهر أن الجنود الذين رأينا على وفاق تام مع كل انسان وهم حقاً ذوو أرواح مرحة بحيث أنه سوف يكون من الصعب أن تتخاصم معهم . ولكن الجوف محـــل مقهور ، وفي حالة حصار دائم ، والنظام المحافظ عليه صارم جداً . وعلى ذلك فقد انتقلنا بكل مخيمنا إلى أرباض المقر الرسمي ، وها نحن مخيمون تحت أسواره .

إن القصر ، وهو – كما قلت – خارج المدينة قام ببنائه منذ حوالي اثني عشر عاماً ، متعب بن رشيد ، أخو الأمير طلال (صديق المستر بلجريف)، ورغم أنه حديث جداً في تشييده ، فله مظهر العصور الوسطى الكامل ، لأن الهندسة المعمارية لا تتغير قط في بلاد العرب .

وهو مبنى بهيج بأبراجه الأربعة في الأركان ، تتخلله الثقوب ولكن بدون نوافذ . ويوجد باب واحد فقط ، وذلك صغير في زاوية من زوايا السور ، ويبقى دائماً موصداً . وفي داخله يدور المدخل ويتعرج ، وبعد ذلك يوجد فناء صغير تحيط به أسوار عالية و (قهوة) ، بالاضافة إلى بضع غرف صغيرة وكلها مظلمة وكئيبة كالجب .

هنا يعيش نائب الحاكم مع ستة جنود شبان من حائل ، الذين يحكمون ويقومون بأعمال الحامية وأعمال الشرطة في الجوف . والحاكم نفسه غائب الآن فقط في (سكاكا) ، المدينة الصغيرة الأخرى في نطاق منطقة الجوف ، وهي على بعد ٢٠ ميلاً من هنا . وهو عبد زنجي ، كما أخبرنا ، ولكنه شخص على درجة كبيرة من الأهمية ، وصديق شخصي للأمير .

وأقول : (دومة الجندل) هي أشهر بلدة في الجوف وكان هـذا الاسم عند اطلاقه يقع عليها . وكانت قاعدة تلك البلاد حتى كان عام ١٣٧٠ حينما كان الأمير تركي بن أحمد السديري أميراً لهذه البلاد فنقل القاعـدة في ذلك العهد إلى سكاكة . وتبعد الجوف (دومة الجندل) عن سكاكة خمسين كيلاً والطريق مُعَبَّدٌ بين المدينتين وتقع دومة الجندل بقرب الدرجة ٤٩َ / ٣٩ْ طولاً شرقياً و ٥٢َ / ٢٩ْ عرضاً شمالياً .

* الدِّيْسَةُ : من منازل السَّمَرَات من هتيم تقع في وادي السُّرَيْر بقرب خيبر .

* ذات الحاج : كانت من منازل الحج الشامي قديماً ، ثم صارت من محطات السكة الحديدية ، ومما ورد فيها من الشعر قول صلاح الدين الصفدي :

سلكنا الفـَجَّ ،نقصد ذات حَجٍّ بطرق للهدايـــة مستقلـّهْ
فـــآثار المطيّ بهـــا بدورٌ وآثار الجياد بِها أهِلـّهْ [1]

وكانت ذات الحاج هي أول مكان مأهول يصله المسافرون من الحـــدود الأردنية إلى تبوك ولهـــذا بدأت تنتعش ، وأنشىء فيها مباني قليلة لموظفي الجوازات وغيرهم ، غـير أن مركز موظفي الدولة نقل إلى البئر (بئر ابن هرماس) الواقعة جنوبها ، فأصبحت ذات الحاج لا أهمية لها مع وقوعها في واد ينحدر من حسمى جهة الشرق وهي داخلة في طرف جبال حسمى (بقرب الدرجة ١َ / ٢٩ْ طولاً و ١٠َ / ٣٦ْ عرضاً) .

* ذراة : كذا ورد هذا الاسم في « معجم ما استعجم » في الكلام على فدك . ولا أستبعد أن يكون الموضع الوارد خبره في قصة فتكة البرّاض باسم (اوارة) .

* ذَيالة : خلاةٌ من خلاة الحرّة ، بـــين نخل وخيبر ، لبني ثعلبة .. والخلاة أضخم من القـُنـّة [2] .

وأقول : ذيالة – هذه – تقع شرق الصلصلة وهي روضة فيها قـُليّبات ، وارضها تزرع على الأمطار ، وهي للرشايدة من هـُتيم .

* الرّجيع : ذكر ابن اسحاق في غزاة خيبر ، أنه ﷺ حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عِصر فبني له فيها مسجد ، ثم على الصّهباء ، ثم أقبل حتى نزل بواد يقال له الرّجيع ، فنزل بينهم وبين غطفان ، ليحول بينهم وبين أن يمدّوا أهل خيبر ، فعسكر به ، وكان يروح لقتال خيبر منه، وخلـّف الثقل بالرجيع والنساء والجرحى [3].

وقال ابن سعد [4] في خبر استشهاد عامر بن الأكوع في خيبر : (فحمل

---

(١) « العرب » - ٣٣٨ - السنة الثالثة .
(٢) « معجم البلدان » .
(٣) « معجم البلدان » .
(٤) « الطبقات » ٣٠٣/٤ .

إلى الرَّجيع فقبر مع محمود بن مسلمة في قبر بغارٍ ، فقال محمد بن مسلمة : يا رسول الله اقطع لي عند قبر أخي . فقال رسول الله ﷺ : «لك حضْر الفرس : فإن عملت فلك حضر َفرَسين » ويلاحظ التفريق بين هذا وبين الرجيع الواقع في أعلى وادي الهدة بقرب عسفان الذي وقع ذكره في خبر سرية خبيب وأصحابه في عهد الرسول ﷺ .

* رُحَيَّة : قرية تقع شرق الجراوي في جنوبي وادي السرحان بينهما سبخة شغار .

* رَخَّةُ : قال نهيكة الغطفاني :

عُصُبٌ دفعن من الأبارق من قَنَا بجنوب رَخَّة فالرقاق فيثقب

قال الأخفش : موضع يقال له رَخة فصغره جبيهاء الأشجعي ثم نسب اليه ما حوله وجمع ، فقال :

جنوب رخَيَّات فجزع تناضب مزاحف جرّار من الغيث باكرا

وكذا فعل امرؤ القيس في قوله :

وبين رُخيّاتٍ إلى جنب أخرب

قلت : وهذا الذي ذكره الأخفش وهم[1] .

وأقول : جبل رخّة لا يزال معروفاً ، يقع غرب أدبي ، وفي الشمال الشرقي من جبل يثقب ومن حليفة ، ويجاوره من الشمال جبل الرخيخ ، أما جبل قنا فيقع بينه وبين جبل أدبي (بقرب الخط ٥٨َ/٤٠° طولاً و١٠َ/٢٦° عرضاً) .

* الرسلانية : قصر قديم مبني بالحجر ، يقع مجاوراً لقرية النبك ، بينها وبين جبل الصعيدي ، ويمتد إلى هذا القصر قناة يجري فيها الماء في جوف الأرض ، منذ عهد قديم ، ولا يزال ماؤها جارياً ، والقصر مسكون .

---

(١) : « معجم ما استعجم » .

وكنت ظننت القصر منسوباً إلى آل رسلان الأمـــراء من الدروز الذين التجأوا إلى هذه الجهة عندما احتلت فرنسا الشام ولكنني علمت من أستاذنا الخير الزركلي بأن آل رسلان حينما كانوا في وادي السرحان ، كانوا يحلون في خيام ، وقد زارهم أستاذنا وشاهد منازلهم في النبك في سنة ١٣٤٧ هـ ثم أن القصر قديم جداً ، له مئات السنين ، فيما يظهر من الآثار حوله ومن نمط بنائه ومظهر أساساته القديمة .

* الرَّضْمُ : ذات الرَّضم : من نواحي وادي القُرى وتيماء [١] .

* رَضْوَى : تلال من القور السُّود ، تقع في الجنوب الشرقي من قرية إثرة ، الطرف البارز يدعى رَضْوَى والآخر يُدْعى رُضَيْوى – بالتصغير – وتشاهد من عين الحواسي – شرقاً – رأي العين ، على مسافة قريبة .

وفي جبل رَضْوى قبور ، وفي بعض الصخور كتابات قديمة . وينبغي التفريق بين رضْوَى هذه الواقعة في وادي السرحان في شماله، والتي لا شهرة لها عند المتقدمين ، وبين رَضْوى الجبـــل العظيم الواقع بقرب ينبع والذي أتت كتب المتقدمين بوصفه وتحديده بتفصيل .

* رَعْبَلُ : موضع تيماء قال أبو الذَّيَّال اليهودي يبكي على اليهود حين أنزل الله بهم بأسه ، وأخرجهم من تيماء :

لم تَرَ عيني مثْلَ يَوْمٍ رأيته ... بِرَعْبَل ما اخْضَرَّ الأراكُ وأثمرا [٢]

* الرَّغِيفيَّات : – بفتح الراء – آبار في الشَّقِيق الواقع في جهة القبلة من سكاكة .

* الرُّقَبُ – بفتح القاف – وادٍ ينحدر من جبل العلم ، ويصب في وادي الرُّمَة ، وسكانه من قبيلة هُتَيم .

---

(١) « معجم البلدان » .
(١) « معجم ما استعجم » .

* الرُّقَيبَة : ذو الرُّقيبة – تصغير رقبة – وقال نصر: رَقِيبة – بفتح أوله وكسر ثانيه وياء مثناة من تحت ساكنة ، وباء موحدة قال : جَبلٌ مطل على خيبر ، له ذكر في قصة لعُيَيْنة بن حصن الفزاري . وأنشد راوي التصغير :

وكأنما انتقلت بأسفل مُعتُبٍ من ذي الرُّقيبة أو قعاس وُعُولُ

وأقول : يعرف الآن باسم أبو رقبة وتقدم ذكره في حرف الألف .

(وانظر جنفاء) .

* رُوَاف : قال ياقوت : بِرْدٌ ورؤاف جبلانِ مستديران في مفازة بين تيماء وجفْر عَنَزَة . قال قيس بن الخطيم :

ألْفَيتَهُمْ يوم الهياج كأنهم أُسْدٌ بِبيشَةَ ، أو بغافِ رُؤاف

وأقول : الجبلان لا يزالان معروفين . يقعانِ شرقي الجهراء (الجناب قديماً) ويشاهدان رأي العين من وادي قوٍّ ، شرقه ، والغربي منهما: رؤاف والشرقي الأدنى إلى تيماء : برد . ويدعها طريق تيماء من خيبر يمينه بعد أن يتجاوز حُفيِّرةالأيْدَا (ويقعرؤاف بقرب الدرجة ١َ / ٢٩ْ طولاً و٥٨َ/٢٦ْ عرضاً) .

* الرُّوافة : جبل يقع في جنوب حِسْمَى متصل بها ، في شرق حرة الرحا ، وسيوله تجتمع بسيول حسمى ، فتصب في البحر وفي طرفها بقرب البحر تقع قرية تِرْيم وفي الجنوب الغربي من روافة جبل شار وفي روافة عثر موزل وقلبي على آثار معبد قديم (وهو بقرب الدرجة ٥َ /٣٦ْ و ٤٥َ /٢٧ْ).

* الرَّوَانُ : بفتح الراء المشددة ، فواو مفتوحة مخففة ممدودة بألف ، فنون : قرية تقع غرب قرية (أبو وشيع) من قرى خيبر ، على مرتفع صخري ، في الشمال الغربي من الواحة ، وبجوارها جبل يُدعى القَرَيْن ، محاط بالرمال .

* الرّوض : واد ينحدر من شرقي حرة خيبر فيفيض في الحُلَيفة أحد فروع وادي الرُّمة ، وسكان الرّوْض من هُتَيم .

* الرّوْض : قرية من القرى التابعة لخَيْبر ، يقارب سكانها ٩٠ نسمة .

* الرّوْضُ — ويعرف أيضاً باسم : روض ابن هادي : بلدة يقدر عدد سكانها بـ ٧٠٠ نسمة ، تقع شمال الحائط ، وابن هادي رشيدي من قبيلة هتيم .

* رَوضة الأجداد : ببلاد غطفان — وهي جمع جُدٍّ ، وهي البئر الجيّدة الموضع من الكلأ ، قال ابن الأعرابي : الأجداد خرائق[1] تكون فيها المياه ، أو آبار مما حفرت[2] عاد . قال مرداس بن حُشيش الثعلبي :

إن الديار بروضة الأجـــداد ... عفـّت سورٍ رسمها وغوادي
من كل سارية وغادٍ مُدجنٍ ... حنق البوارق مونق الروّادِ

وقال لي الصاحب الوزير الأكرم[3] : أنا رأيتها وهي قريبة من وادي القصيبة قبلي عرض خيبر ، وشرقي وادي عِصر . قال الهيثم بن عديّ : خرج عروة بن الورد العبسي — عروة الصعاليك — وأصحابه إلى خيبر ، يمتارون منها ، فعشّروا ، وهو أنهم يرون أنهم إذا خافوا وباء مدينة وأرادوا دخولها وقفوا على بابها ، وعشروا كما تعشر الحمير . والتعشير نهاق الحمير ، فيرون أنه يُصرف عنهم وباؤها . قال فعشروا خوفاً من وباء خيبر ، وأبى عروة أن يعشّر ، وقال :

وقالوا:احْبُ وانهَقْ ، لا تضرُّك خيبرٌ ... وذلك من دين اليهـــود ولوعُ
لعمري لئن عشّرتُ من خشية الرّدى ... نهـــاق الحمـــير إنني لجزوعْ

---

(١) في « المعجم » المطبوع : حدائق — تصحيف .
(٢) وفيه : حوت . (٣) يعني القفطي .

فلا وألت تلك النفوس، ولا أتت
على روضة الأجـــداد وهي جميع
فكيف وقد ذكيت واشتد جانبي
سليمى – وعندي سامعٌ ومطيع : –
لسانٌ وسيف صارم، وحفيظـــة
ورأي لآراء الرجـــال صروع
تخوفني ريب المنون وقـــد مضى
لنا سلفٌ : قيس – معًا وربيعُ

قال : فدخلوا وامتاروا ورجعوا، فلما بلغوا إلى روضة الأجداد ماتوا إلا عُروة [1] .

وأقول : –١– يفهم من كلام الوزير (وهو القفطي) الذي نقله ياقوت وقوع روضة الأجداد في قبلي خيبر، ولكن المفهوم من كونها في طريق عروة وأصحابه – وهم من عبس – إنها تقع شرق خيبر – ٢ – ويفهم من بيت النابغة الذي قرنها بيثقب قربها من هذا الجبل (أنظر يثقب) – ٣ – كما يفهم من كلام ياقوت أن الأجداد في نجد أن هذه الروضة خارجة من الحرة – وكل هذه الأوصاف تنطبق على موضع يدعى الروضة، فيه واد بهذا الاسم ينحدر إلى وادي الحليفة الذي هو من فروع وادي الرُّمة، والروضة الآن قرية مسكونة، تقع في الشمال الشرقي من بلدة الحائط (فدك قديماً) على مسافة تقارب ٢٥ كيلاً، وفي الشمال الغربي من قرية الحليفة السفلى تقارب ٣٠ كيلاً وتقع شمال جبل أثقب (يثقب قديما) في أرض واسعة، طيبة التربة، في منبسط من الوادي، يفصل بينها وبين أثقب جبيل صغير يدعى الهضب، متصل بأثقب، ومن الغرب مسجد يدعى الأصفر، وشرقاً جبل مُحَجَّرة

(١) « معجم البلدان » . « ديوان عروة » تحقيق عبد المعين الملوحي ص ٩٥ .

(كتب خطأ في إحدى الخرائط جبل أم حجرة ، وجذيبة العُفر (كتب خطأ : جذبة العفر) .

وقد يطلق على اسم الروضة القرية اسم الرَّوض أيضاً (بقرب الدرجة ٣٢َ/ ٤٠° طولاً و ٧َ/٢٦° عرضاً تقريباً).
ويقارب سكان الروضة الآن الف نسمة من هتيم ، وفي مدرستها ٩٠ تلميذا .

* روضة أم العَمْر – بفتح العين وإسكان الميم – روضة تقع في شمال خيبر على بعد ١٥ ميلاً ، فيها آبار وبيوت قليلة ، وتكثر فيها الأشجار .

* زَبْرَاءُ : موضع في بادية الشام ، قرب تَيْماء ، له ذكر في الفتوح أيام أبي بكر [١] .

* الزِّرَاب : واد يقع في الطرف الشرقي الشمالي لحرة بني عطية ، ويبعد عن تبوك ٧٠ كيلاً تقريباً في الجنوب . وقد ورد ذكرة في وصف مسير النبي ﷺ إلى تبوك ، وذكر المتقدمون أن فيه مسجداً من المساجد النبوية ،وسموا الموضع ذات الزِّراب .

* الزُّهَيْريات : آبار في الشَّقيق ، بقرب الرّغيفيات ، متجاورات من بلاد الجوف .

* سَبَّى وصفاراء : بئران برمل بُحْتر ، عن يوم من تَيْماء ، شرقاً إلى الشمال ، سَبَّى مقصورة ، وصفاراء ممدودة ، وكلٌّ مؤنث ، وتجمعان فيقال: سبَّى وصفاراء [٢] .

* السَّبِخَة : أرض بين النطاة والشق وهما واديان – في خيبر [٣] –
* سُبَيْحةُ : قريات أربع متجاورات ، تقع شرق قريّات عرفجة ، جنوب وادي السرحان .

---

(١) « معجم البلدان »
(٢) « ابو علي الهجري » - ٣٢٣ -
(٣) « المناسك » : ٥٠٠

* السّرّ : (انظر وادي السرحان) ويظهر أن اسم السّرّ – الذي كان من بلاد بَلْقين ، والذي كان في جهات الشام هو ما يعرف الآن باسم وادي السرحان ، ويلاحظ أن اسم السّرّ يطلق على أمكنة من أشهرها : (١) إقليم في نجد غرب الوشم وشمال القصيم وجنوب العِرْض ، فيه قرى (٢) وادٍ في شرقي اليمن ، غرب نجران ويعرف بسرّ بني الرويّة ذكره الهمداني وذكر مواضع في اليمن تسمى السر (٣) سرّ بني القين الذي ذكره نصر الإسكندري في كتابه[١] فقال : ضاحك ماء ببطن السّرّ في أرض بلقين من الشام. انتهى. وانظر (الحصيدات) .

* السرحان : (وادي) .

* سَرْغ : أول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك من منازل حاج الشام ، وهناك لقي عمر بن الخطاب (ض) أمراء الأجناد ، وبينها وبين المدينة ثلاث عشرة مرحلة . وقال مالك بن أنس : هي قرية بوادي تبوك وهي آخر عمل الحجاز .. وبها مات ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام في سنة سبع أو ثمان وسبعين ومائة وكان لسان آل الزُّبير[٢] ...

وأقول : يطلق اسم سرغ على مكان يقع في الشمال الغربي من تبوك على مسافة ١١٧ كيلاً - على ما ذكر موزل[٣] .

* سَرُوع : بخط أبي عامر العبدري : وأقبل أبو عبيدة حتى أتى وادي القُرَى ثم أخذ عليهم الجنينة والأقرع ، وتبوك وسروع ، ثم دخل الشام[٤] .

وأقول : أرى سروع هنا هي سَرْغ المتقدم ذكرها .

---

(١) الورقة الـ ١٠٠ مخطوطة المتحف البريطاني .
(٢) « معجم البلدان »
(٣) « شمال الحجاز » – ١٤٥
(٤) « معجم البلدان » .

* السُّرَير : واد يقع شرق وادي الغرس بقرب سدّ الحصيد ويطلق على أعلاه شعيب السمينان ، ويتجه من شرق الحرّة إلى خيبر ، تاركاً الجبل المعروف الآن باسم السُّرير جنوبه، وهذا الجبل يطل على قاع واسع من الأرض يدعى قديماً القرقرة والآن (القعقران) مطل عليه من الناحية الجنوبية (بقرب الدرجة ١٥َ /٣٩ْ طولاً و ٣١َ/٢٥ْ عرضاً) .

* سفيط : (صفيط)

* سكاكة : والسكاكة إحدى القرَيّات التي منها دومة الجندل ، وعليها سور ، لكن دومة احصن ، وأهلها أجلد .

كذا أوردها ياقوت معرفة (السكاكة) والمعروف (سكاكة) وقد أوردها ياقوت في مادة (دومة) : سكاكة . وكذا ينطق أهلها اسمها الآن ، ومنهم من يبدل الهاء ألفاً (سكاكا) وكانت في القديم قرية صغيرة ، وقد أصبحت قاعدة للمنطقة من عام ١٣٧٠ – تقريباً – نظراً لوقوعها في مكان مرتفع ، وقابل للتوسع ، بخلاف (دومة الجندل) الواقعة في منخفض من الأرض . وقد تدرَّجت سكاكة في سبيل التقدم حتى أصبحت تُعَدُّ من أهم مدن المملكة .

وقد ارتبطت – من حيث المواصلات – بأمهات مُدن المملكة ارتباطاً مباشراً منذ أنشىء فيها المطار منذ بضع سنوات ، ويقع المطار في الجهة الجنوبية منها ، وهو مطار صالح لنزول الطائرات – ما عدا النفاثة منها – وتنزل فيه الطائرات في أيام الأسبوع يوم الأحد. ومنه تتجه إلى (١) الرياض (٢) تبوك الحديثة – جدة (٣) عرعر – طريف – عمان .

ويمتد منها طرق رئيسية للسيارات: (١) الطريق المتصل بخط الأنابيب من سكاكا – عرعر (٢) سكاكا – دومة – النبك أبو قصر – طبرجل – العيساوية – النبك – الحديثة – عمان (٣) طريق تيما – من النبك أبو قصر – العسافية – تيما .

وفيها من المرافق العامة : مستشفى يتسع لـ ١٠٠ سرير ومستوصف ومدارس ومعهد للمعلمات وفروع لمختلف الدوائر الرسمية ، وبلدية ، ومحكمة وفيها فندق صغير ، ومكتبة أنشأها الأمير عبد الرحمن الأحمد السديري سنة ١٣٨٥ باسم (مكتبة الثقافة العامة) تحوي مجموعة من الكتب .

والمدينة منارة بالكهرباء وشوارعها واسعة ، مشجّر بعضها ، والماء فيها عذب .

(تقع بقرب الدرجة ١٣َ/٤٠ طولاً شرقياً و ٠٠/٣٠ْ عرضاً شمالياً) .

وقد زارتها آن بلانت فقالت في وصفها ما ملخصه :

إن سكاكا ، مع انها ليست مقر حكومة جوهر ، مدينة أكبر من الجوف - سبعمائة بيت ، كما يقولون ، وبساتين للنخيل على الأقل ضعف ما في الأخرى ومركز المدينتين يكاد يكون واحداً ، تجويف عريض محاط بحروف من الصخور الرملية ، ولكن حوض سكاكا أقل انتظاماً وتنتصب فيه تلال رملية وتلال نائية من الصخور .

وسكاكا كالجوف ذات قلعة قديمة تجثم على مرتفع يبلغ علوه حوالي مائة قدم ، وتسيطر على المدينة ، والمدينة نفسها مبنية بطريقة غير منتظمة وليس سور متصل حول بساتينها .

وتوجد بساتين كثيرة ومجموعة منازل منفصلة ، وهذه لم تخرب مثل تلك التي في الجوف من جراء الحروب الأخيرة ، وفي جملتها ، لها منظر بالغ النضارة ولم يترك فدان واحد قابل للري بدون استنبات . كل شيء مرتب ونظيف ، والأسوار جديدة الشرفات ، وكل منزل منسق ، كما لو كان بني حديثاً . والقطع المربعة الصغيرة المزروعة شعيراً يحيط بكل منها سياج من أغصان النخيل المجدولة ، والشوارع والأزقة أنيقة بشكل دقيق .

* سَلاح : ذكر ابن سعد في خبر وفد بني مُرّة أن رسول الله ﷺ سأل رئيسهم الحارث بن عوف : « أين تركت أهلك »؟ قال : بسلاح وما والاها.

وذكر في خبر سرية بشير بن سعد إلى يمن وجبـــار : وهي نحو الجناب ، والجناب يعارض سلاح وخيبر ووادي القرى [1] .

وقال ياقوت : سَلاح : — كأنه بوزن قطام — موضع أسفل خيبر ، وكان بشير بن سعد الأنصاري لما بعثه النبي ﷺ إلى يُمْنٍ وجُبار في سرية للايقاع بغطفان لقيهم بسلاح [2] .

ورواه البكري بكسر السين وأورد أن رسول الله ﷺ قال « يوشك المسلمون أن يحاصروا إلى المدينة حتى يكون أبعد مسالحهم بسلاح » وسلاح قريب من خيبر [3] .

* سُلاَلِمُ : أورد البكري هـذا الاسم بهذه الصيغة ، وأورده ياقوت مُعَرّفاً ، وورد في كتاب «المناسك» [4] : سُلَيْلم — بالتصغير وكذا سمعت هذا الاسم ينطق في خيبر وبعضهم يقول : سلاليم .

قال البكري وصاحب المناسك : وعُظْمها للنبي ﷺ وقال ياقوت : حصن بخيبر من أحصنها وآخرهـا فَتْحاً على رسول الله [5] ﷺ واقول : يطلق الاسم على قرية في خيبر في وادي السلمة ، في الجهة الغربية من سفـــح جبل عطوة (عطوى) وهي من قرى ولد علي من عنزة ؛

* سَمْحَة : قرية من قرى خيبر ، ذات نخل ، تقع في الشمال منهويدعها الطريق من خيبر إلى تيماء ، شرقه بمسافة ١٠ أكيال (وهي بقرب الدرجة ٢٠َ / ٣٩ْ طولاً و ٥٩َ / ٢٥ْ عرضاً) ويقارب عدد سكانها ١٥٠ نسمة .

---

(١) « الطبقات ج ٢٩٨/١ و ج ١٢٠/٢ .
(٢) « معجم البلدان » وكتاب نصر الورقة ٨٨ .
(٣) « معجم ما استعجم » .
(٤) ص ٥٣٩ .
(٥) « معجم ما استعجم » و « معجم البلدان » .

* سَمْرَان : بفتح السين وسكون الميم ، جبل بخيبر ، والعامة تقول : مَسْمَرَان [١] .

وفي «تحقيق النصرة» : شمران ، ويعرف هذا الجبل اليوم بِسَمْرَان [٢]

وقال السمهودي وهو يعدد مساجد الرسول ﷺ بخيبر : ومنها ، مسجد بسمران روى ابن زبالة عن ابراهيم بن جعفر عن ابيه ، قال : صلى رسول الله ﷺ على رأس جبل بخيبر يقال له شمران ، فثم مسجده من ناحية سهم بني النذار ، قال المطري : ويعرف هذا الجبل اليوم بشمران [٣] . كذا جاء في « وفاء الوفاء » وفي مخطوطة من كتاب المطري : بسمران – بالسين المهملة كما تقدم .

* سُمك : بضمتين – ماء بين تيماء والسماوة أرض كلب [٤] .

(ش)

* شاس : طريق بين المدينة وخيبر ، ولما غزا رسول الله ﷺ خيبر سلك مرحباً ، ورغب عن شاس [٥] .

* الشرفة – شرفة بني عطية : كالزلاقة المبنية مسطحة ، يساوي منتهاها سطح عقبة أيلة . وبهذه الشرفة تضرب الأمثال، ومن أقوال العامة : لا حجّ إلا بعرفة، ولا جمل إلا بعد الشرفة. لكن مشقتها العظمى على الجمال في الرجعة، وبردها في أيام الشتاء شديد جدّاً ، وفي أيام الاعتدال لا يخلو من البرودة [٦] هذا ما ذكره الجزيري . ولكن النابلسي سمّى الموضع الشرف أيضاً فقال :

---

(١) « المغانم المطابة » .
(٢) « تحقيق النصرة » - ١٦٦ -
(٣) « وفاء الوفاء » ص ١٠٢٨ .
(٤) « معجم البلدان » .
(٥) « معجم البلدان » .
(٦) « درر الفوائد » ٥٠٤ / ٥٠٥ .

المنزل العاشر من منازل الحاج المسمى بالشرف – بالتحريك – ويقال شرفة بني عطيَّة وقال :

جئنا لمنزلة في درب مصر إلى أرض الحجاز تسمى ثمَّ بالشرف
لا ماء فيها ولا أهل هناك لنا لكنها توصل الحجاج للشرف [١]

وقال السيد محمد كبريت المدني : شرفة بني عطية في واد قفر ، كثير الحطب ممحل ، لا يكاد يمرُّ به الطير ، اتفق انه لم يكن في الركب إلا من اشتكى الظمأ ، إلا من كان في حظيرة (إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه) ومما قيل فيه :

وقد حللنا بواد لا أَنيس به بنو عطيّة قد سموه بالشَّرفهْ
فنالنا منه بعد العيّ أربعة بَردٌ ،وخوف،ظما،والريح مختلفه [٢]

وأقول : لا يزال الموضع معروفاً – وقد تقدم وصفه ص:٤٥٣(ويقع بقرب الدرجة : ٨َ / ٣٥ْ طولاً و ٠٠/ ٢٩ْ عرضاً) وسيله ينحدر مجنبا حتى يصب في وادي عفال .

شَرَوْرَى :– بفتح الشين والراء وإسكان الواو بعدها راء مفتوحة ممدودة يطلق هذا الاسم على جبال في الجزيرة :

أ – أشهرها الجبل الواقع في شمال تبوك ، وقد ذكره المتقدمون .

قال ياقوت : تبوك بين جبل حسمى وجبل شرورى ، وحسمى غربيها ، وشرورى شرقيها .

وأهل تبوك يرون جبل حسمى في غربيهم ، وفي شرقيهم شرورى وقال لي القاضي أبو القاسم بن أبي جرادة : رأيت شرورى وهو جبل مطل على تبوك في شرقيها [٣] .

---

(١) « رحلة النابلسي » الورقة ١٢ نسخة فينّا .
(٢) « رحلة الشتاء والصيف » – ١٩ – .
(٣) : « معجم البلدان » .

وفي كتاب « النبات » شروری وادٍ بالشام قال :

سقوني وقالوا : لا تُغَنّ ولو سقوا جبال شروری ما سقوني لَغَنت

إن جبال شروری ليست شرق تبوك بل في الشمال الشرقي منه ، اللهم إلا إذا كانت اسم شروری في القديم يشمل الجبال الواقعة شرق تبوك ، وانه يقصد به جميع سلسلة الجبال الممتدة من شرق تبوك ، إلى ما يحاذي بئر ابن هرماس شرقاً .

وتقع جبال شروری هذه بين خطي ٣٦/٢٥ و ٣٧/٠٠ طولاً و ٢٨/٣٠ إلى ٢٩/٠٠ عرضاً – بحسب ما هي معروفة اليوم ، إما إذا شملت الجبال الواقعة شرق تبوك (أي على خط ٢٨/٢٨ عرضاً) فإنها تكون أطول من ذلك.

تمتد سلسلة جبال شروری من الجنوب إلى الشمال ، وبينها فجوات تتخللها أودية ، وأشهر اوديتها هو وادي دبل الذي يخترقها من الجنوب إلى الشمال ، وتنحدر فيه كثير من أوديتها ، وأكثر أوديتها تتجه غرباً حيث تكون الروافد الشرقية لوادي ضُمّ الذي يتصل بسلسلة جبال حِسْمَى مُغَرِّباً .

ب – جبل يقع في الشمال الشرقي من معدن بني سُلَيم (مهد الذهب) ، وقد ذكره المتقدمون :

١ – قران جبلان . وبقران معدن يقال له معدن بني سُلَيْم يأخذ عليه طريق الكوفة إلى مكة . وفيما بين قران والشمال شَرَوْرى جبال لبني سُليم ، وقريب من شَرَوْرَى العُمَق ، وهو منهل يطؤه الطريق إلى مكة من الكوفة [1] .

٢ – ومن العُمَق إلى المعدن ٢٢ ميلاً . والصفحة على عشرة أميال من المعدن ، عند المتعشى ، وهي بركة تسمى الصفحة ، وهي صفاح شَرَوْرى

(١) « بلاد العرب » – ٤٠٣ –

مربعة ، ويقال لهـذا الموضع بهوى (؟) وادٍ حسن واسع على ستة أميال من العُمَق ، يسير بين جبلين يُسَمَّى أحدهما شَرَوْرَى ، وهو الجبل الذي فيه الجنّ ، وتسير في أرضٍ لينة : أنشدني بعض الأعراب :

كأنها بين شَرَوْرَى والعُمق   وقد كساها السير جِلّاً من عَرَقْ

نواحة تُلْوِي بجلبابٍ خلق [1]

٣ – وقال الأصمعي : شرورى ورحرحان في أرض سُليم .

وقال النابغة الجعدي :

أمانةُ الله ، وهي أعظم من   هضب شرورى والركن من خِيَمِ

وقال الراعي :

تروّحْن من هضب الجثوم وأصبحت   هضاب شرورى دونه ، والمضيَّحُ

وقال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

أرقت لبرق مستطير كأنـه   مصابيح ، تخبو ساعة ، ثم تلمَح

يضيءُ سناه لي شرورى ودونَـهُ   بقاع النقيـع ، أو سنا البرق أنزح [1]

ويدعى هذا الجبل الآن شَرَارى ، على طريقة إبدال الواو ألِفاً عند أهل البادية كما يقول في (ثور) ثار ، ثم صار يطلق عليه هضب الشَّرَار . ويقع على شاطىء وادي العقيق الشرقي ، وسيوله تنحدر في العقيق ، ويقع جنوب منهل العمق الذي لا يزال معروفاً ، ويبعد عنه بما يقارب ١٥ كيلاً (الدرجة ٠٠َ/٤١° طولاً والدرجة ٤٥َ/٢٣° عرضاً) .

وشرورى هذا ورد ذكره كثيراً في الشعر القديم .

جـ – وفي الرُّبْع الخالي (المعروف قديماً باسم صَيْهد) شرق نجران بمسافة طويلة ، جبل يدعى شَرَوْرَى ، يمتد من الجنوب الى الشمال ، وليس عريضاً ، وفي طرفه الجنوبي الغربي (وديعة) .

---

(١) « المناسك » - ٣٣٢ -

(يقع هذا الجبل بقرب خط الطول الشرقي ٨َ/٤٧° وبين خطي العرض الشمالي ٠٠َ/١٧° و ٣٠َ/١٧°) ولم أر لهذا الجبل ذكراً فيما بين يديَّ من المصادر .

د — وذكر ياقوت جبلاً غير التي تقدم ذكرها قال عنه : قيل أبانين لأنه يليه جبل نحو منه ، يقال له شرورى ، فغلبوا أباناً عليه ، فقالوا : أبانانِ ، كما قالوا : العمران لأبي بكر وعمر ، وله نظائر .

وأقول : لم أر من ذكر شرورى هذا الذي بقرب أبان، وأبانان جبلان لا يزالان معروفين ، أبان الأبيض (أو الأحمر) وأبان الأسود (أو الأسمر) وشهرتها تغني عن تحديدهما وإذن فتثنيتهما حقيقية، وليست من باب التغليب، كما ذكر ياقوت ، وهو ينقل عن كتب ولا يحدد عن مشاهدة وخبرة وخاصة مواضع بلاد العرب .

وعلى ذكر شَرَوْرى يحسن إيراد طرفة تدل على عمق معرفة الأصمعي بمواضع الجزيرة . سأله الرشيد قائلاً : أما ترى قبح اسماء سكك بغداد ، مثل قطيعة الكلاب ، ونهر الدجاج ، وأشباه ذلك ، فهل للعرب مواضع قبيحة الأسماء ؟ قال : نعم ، قال الراجز :

ما تَرَى لمْحَ بارقٍ سُقِيَتْ ماؤُهُ يَبَهْ
فَشَرَوَرى ، فقَرَوْرَى فَحَبوْنا ، فَلَحْسَبَهْ

فقال الرشيد : لله درُّك فما رأيت مثلك ، خلقت لهذا الشأن وحدك[1].

* شُريف :(وتدعى الشريف وقرية بشر أيضاً) بضم الشين وفتح الراء بعدها ياء ساكنة ، ففاء .

هي أكبر قرية في واحة خيبر ، تقع في مكان مرتفع مطل على الوادي ،

---

(١) : « العرب » — ٤٥٦ السنة الأولى .

في مدخله بطريق القادم من المدينة ، وفيها بنايات قليلة حديثة ، ومقاهي ودكاكين .

وفيها مدرستان متوسطة وابتدائية ، وثالثة للبنات ومخفر للشرطة يقف عنده المسافرون للتحقق في وثائق سفرهم .

* الشّظاة : موضع قبل خيبر ، ورد ذكره في بيت من أشعار المغازي:

فإنك عَهْدي أن أُريك ظعائناً سلكن على ركنِ الشظاةِ فميثبا

وميثب : من خيبر [1] .

وأقول : أورد ابن هشام في «السيرة» قصيدة للعباس بن مرداس السلمي :

ولو أن أهل الدار لم يتصدعوا	رأيت خلال الدار مَلهىً ومَلعبا
فإنك –عمري– هل أريك ظعائناً	سلكن على ركن الشظاة فَتَيْأَبَا
عليهن عِينٌ من ظباءِ تبالة	أوانس يُصْبين الحليم المجرّبا
إذا جاء باغي الخير قلن – فجاءةً	له بوجوهٍ كالدنانير – : مرحبا
وأهلاً فلا ممنوع خير طلبته	ولا أنت تخشى عندنا أن تُؤَنبا

ومن هنا يظهر خطأ البكري فيرواية الشعر ، وفيتحديد المكان، فالشظاة هنا وادي قناة الواقع في شرق المدينة ، وليس في خيبر، وميثب صوابه : تَيْأب ، وهو جبل مطل على الشظاة شرقها ، لا يزال معروفاً ويشاهد من سد العاقول ، ولكنه يدعى الآن باسم (تَيْم) وقد اختلف المتقدمون في ضبط هذا الاسم هل هو تيب أو تيأب ، أو تيم – وليس هذا محل التفصيل وقد كتب اسمه في إحدى المصورات الجغرافية (تيام) خطأ [2].

* الشُّعَيْرَة – بالتصغير – : في قبلة دومة الجندل وهي منهل في سلسلة من الجبال ، ماؤه ملح ، وصاحبه الشيخ ماطل الجريّد من شيوخ الشرارات ،

---

(١) « معجم ما استعجم » .

(٢) : « أبحاث جيولوجية مختلفة خريطة رقم B ٢٠٥ – I .

وبقربه آبار أخرى لغيره (كتبت في الخارطة الشّعيرة) الدرجة ١َ / ٣٩ْ طولا شرقيا و ١ / ٢٩ْ عرضا شماليا .

* شغار : جوٌّ في الجنوب الشرقي من الجراوي فيه ست قصيرات، ومنهل للبادية للشرارات بقرب صُبيحا ، شرقها ، وفيه يقول الشاعر : يا ليتني ما وردت شغْار .

(والموقع بقرب الدرجة ٤٥ / ٣٨ْ طولاً — و ٣ / ٣٠ عرضاً).

* الشّق : واد في خيبر فيه عيون . أخبرني الحسني أن فيه عينا تسمى الحمّة ،وهي التي سماها النبيﷺ قسمة الملائكة، يذهب ثلثا مائها في فلج، وثلث في فلج ، والمسلك واحد ، وأخبرني أنها اعتبرت منذ زمان رسول الله ﷺ إلى اليوم ، يطرح فيها ثلاث خشبات فتذهب خشبتان في فلج [وخشبة في فلج] وتطرح ثلاث بعرات فتذهب بعرنان في هـذا وبعرة في هذا ، ولا يقدر أحد أن يأخذ منها أكثر من الثلث . وقال لي أبو الفضل الحسني : أنا اعتبرتها ، وقمت فيها لأرد المـاء إلى الناحية التي يذهب فيها الثلث فغلبني الماء . حتى كاد أن يفيض ، ولم أستطع ذلك فخليته [١] .

وكان رسول الله ﷺ قد أعطى ابن لقيم العبسي حين افتتح خيبر ما بها من دجاجة أو داجن ، فقال ابن لقيم :

رُميت نطاةُ من الرسول بفيلق شهباء ، ذات مناكبٍ وفقار
صبَحتْ بني عمرو بن زرعة غدوة والشقّ أظـلم أهله بنهار

— في أبيات ذكرها ابن هشام وغيره .

* الشّقٌّ : يقع في موضع يُدعى الجو ، ويبعد عن تبوك جنوبـاً ١٧٠ كيلاً ، بطريق السيارات إلى العـلا ، وهو للابل ست مراحل تقريباً وقد ذكر المتقدمون أن من بين مساجد النبي ﷺ في طريقه إلى تبوك مسجـد الشّقّ شقّ تارا .

---

(١) « المناسك » — ٥٤٠ —

* شَقّ : شَقّ من قرى فَدَك ، تعمل فيها اللُّجُم ، قال ابن مُقْبِل :

ينازِعُ شقّيّاً كأن عنانَهُ يَفُوتُ بهِ الإقْدَاعَ جِذْعٌ منقّحُ[١]

وقال أبو النَّدَى :

من عجوة الشِّق نطوفٍ بالوَدَكْ ليست من الوادي ولكن من فدك[٢]

وأقول : يظهر أن هذا الاسم يطلق على موضعين وادٍ في خيبر ، تقدم ذكره ، وهذه القرية التي من قرى فدك .

* الشقة : حَرَّة في طريق خيبر من المدينة (انظر : خيبر) .

* شمران : (انظر سمران)

* الشُّمْروخ : هو حصن فــدك على ما ذكر صاحب « المناسك[٣] » والبكري في « معجم ما استعجم » .

* الشَّمْلِي : بكسر اللام – بلدة تقع في طرف حرة هُتَيم (حرة فدك وحَرَّة ضَرْغَـد) في الطرف الشرقي الشمالي ، شمال ضَرْغد . ويقارب سكان هذه البلدة ١٦٠٠ نسمة ، وفيها مدرسة ابتدائية طلابها ٦٢ . وكتبت في إحدى[٤] الخرائط الشاملي ، خطأ (وتقع بقرب الدرجة ٢٠َ / ٤٠ْ طولاً و ٥٠َ / ٢٦ْ عرضاً) .

* شُنْط – بالضم ثم السكون – ماء بين جبلي طيء وتيماء في الرمل[٥] وأقول : لا يزال هذا الماء معروفاً ولكن نونه تبدل ميماً (شمط) في الطريق بين تيماء وحايل .

---

(١) الشقيّ : اللجام منسوب إلى شق قرية من قرى فدك ، والإقداع : كبح الفرس ليقل جَرْيه ، والجِذْع المنقح : المشذَّب المقشور

(٢) كتاب نصر ، الورقة ٩٥ – مخطوط – و « ديوان ابن مقبل » ٣٦ و « معجم البلدان » و « المغانم المطابة »

(٣) ص ٥٤٢ .

(٤) « ابحاث جيولوجية مختلفة – خريطة رقم B ٢٠٥ – I » .

(٥) « معجم البلدان » .

* شنيف : من حصون تيماء التي بناها سِنِمَّار لعاديا الغساني—انظرمارد—

* الشُّويحطية : تقع في الطريق بين سكاكة وبدنة — يقطع واديها الخط المبلط وتبعد عن سكاكة ٤٥ كيلاً تقريباً وواديها ينحدر من جبال تعرف بهذا الاسم ، تتصل بجبال الجوبة الغربية ، وجبال الجوبة هذه هي قيالات (قيال الكبير ، وقيال الصغير) وتلتقي جبال الشويحطية من الشرق بجبال الجوبة الشرقي ، ويفصل بينهما خشم زَلُّوم ، يقطعه الطريق المعبد . أما المنهل فيقع شمال الطريق (وتقع بقرب الدرجة ٢٧َ / ٣٠ْ طولاً شرقياً و ٧َ / ٤٠ْ عرضاً شمالياً) .

* شيبة : (كتبت في الخريطة : شائبة خطأ) ويقول شاعرهم :

نَطَّيتْ شَيْبَه ولابي شيْبْ   حوَّلْتَ انَا شَايْبٍ راسي
إنْ كانْ طَرْدَ الهوى به عَيْب   قبْلي يْعَيّبْ منَ النـاس

وشيبة ماء فوقه بنايات قليلة في جَوّ في بطن الوادي يَقع شرق النباج بقربه وبالقرب منه قُويرة سوداء في الشمال الشرقي منه . ويحيط بالماء جوٌّ واسع يُدْعى جوَّ شيبة . وهذا يقع بين النّباج وبين الجراوي في طرف وادي السرحان الجنوبي .

* صَارَةُ :— قال الزمخشري عن السيد عُلَيّ بضم العين وفتح اللام — صارة جبل بالصَّمد بين تيماء ووادي القرى . وأنشد :

وذو العرش أبداهن لي بين صارة   وبين العقارى قاربات مُبين[1]

وأورد البكري [2] للبعيث :

فصارَة فالقوّيْن لأياً عرفته   كما عرّض الحبر الكتابَ المرقّما

ولبشر بن أبي خازم :

عفا منهن جزع عريتنات   فصارة فالفوارع فالحِسَاءُ

---

(١) « الجبال والمياه » و « معجم البلدان » .   (٢) « معجم ما استعجم » .

وما أري الشاعرين قصدا صارة التي في بلاد بني أسد في أعلى القصيم ، وإن كان بشر أسديّاً . أما الصَّمْدُ فسيأتي تعريفه .

* صُبَيْحا : هجرة قديمة لقبيلة من الشرارات رئيسهم ضاحي بن جُريد، تقع في وادي السرحان ، بقرب شعار ، شرق النبك أبو قصر بـ ٢٥ كيلاً (وضعت في الخارطة : سبيحة خطأ) ، وتقع بقرب الدرجة ٤٥َ/٣٨ طولاً ١َ/٣٠° عرضاً .

* صُدَيع : وادٍ ينحـــدر من الطبَيْق إلى وادي السرحان ، ويقع بالقرب من العيساوية .

* صفَان : يقع في النفود قبلة المصلى من دومة الجندل، ويبعد حوالي ٢٠ كيلاً ، وهو جوٌ فيه آبار للبادية في جوف النفود .

(بقرب الدرجة ٤٥َ/٣٩° طولاً شرقياً و٤٠َ/٢٩° عرضاً شمالياً) .

* صُفَيط (سفيط) : وادٍ ينحدر من شرقي الحرة ويفيض في ذي الحليفة، سكانه من هتيم يقارب عددهم ٣٠٠منهم من الرحل أكثر من النصف .

* الصّلصلة : — بالضم — ماء لمحارب ، قرب ماوان ، قال نصر : أظنه بين ماوان والرَّبذَة [١] وأقول : هذا الظن في غير محلهِ ، فهي تقع شمالاً عن الموضعين بعيدة عنهما ، والصُّلصلة : واد فيه قريتان ، ويقع بـــين المدينة وخيبر ، ويبعد عن المدينة، بما يقارب الـ ٩٤ كيلاً ، وعن خيبر بـ ٤٨ كيلاً.

أما القرية الكبيرة الواقعة على الطريق فيقارب سكانها ٦٠٠ نسمة وهم من الذيبة من هتيم .

وفيها مدرسة يبلغ عدد تلاميذها ٣٧ — تحت إشراف إدارة التعليم في المدينة ، وهي في أعلى وادي الغرس ، واديهـــا من روافد الغرس ، ومنها يشاهد المرء جبلي أشمذين في الجنوب الغربي .

---

(١) «معجم البلدان» .

والصلصلة السفلى أصغر من المتقدم ذكرها وسكانها جماعة ابن رويضي من هتيم أيضاً .

* الصَّمد : صمدُ عذرة . ورد في كتاب الزمخشري[1] فيما نقل عن السيد عليّ في تعريف صارة . وذكره الهجري في مواضع من كتابه [2] فقد ذكر : — ١ — ان بين حرة ليلى وحرة سلامان : الجناب والصمد — ٢ — وقال عن ذي الغلالة : قرن أحمر بالصمد ، بين الصمد والحجر — ٣ — وذكر أن العردة من الصَّمد صمد عذرة ، بين الوادي وبين تيماء نصف بينهما — ٤ — وقال: قوّ واد بين قوارة الجناب وصمد عذرة. ومفهوم كلامه أن الصَّمد هذا يقصد به الأرض المرتفعة الواقعة فيما بين الجهراء شرقاً جنوبياً ووادي ثجر شمالاً شرقياً ويدخل فيه من الناحية الغربية وادي القليبة ووادي عردة ويمتد جنوباً بمجاذاة الجهراء حتى يقرب من وادي العشاش ووادي قوّ . وسيول وادي نيان ووادي ثجر تنحدر من الصمد ، ومنه ما يعرف الآن باسم حرّة الرحا ، أو حرة بني عطية ، وهي إحدى حرَّتي بهل قديماً .

* الصَّوَاري : هي الأودية من ناحية فدك . كذا في « الأغاني [3] » ولم أر لها ذكرا فيما بين يدي من الكتب .

* صوَير : يقع شرق شمال مدينة سكاكة ، منهـــل لبادية الرولة ، وقد أنشىء فيــه حديثاً مزارع ، ويبعد عن سكاكة ١٥ كيلاً تقريباً بين جبال الجوبة وبين نفيّد سكاكة الدرجة ٢٧َ / ٤٠ْ طولاً شرقيا و ٠٨ / ٣٠ عرضاً شمالياً) .

* الصَّهْباءُ : أعرس بها النبي ﷺ وهي من خيبر على بريد [4] .

---

(١) « الجبال والمياه والأمكنة » .

(٢) : « أبو علي الهجري » ص ٢٣١ / ٣٠٧/٣٣٩ / ٣٨٣ .

(٣) ٨ / ١٠٦ .

(٤) « طبقات ابن سعد » ١٢١/٨ و « معجم ما استعجم » .

وقال ياقوت : موضع بينه وبين خيبر روحة[1] له ذكر في الأخبار وهي في الطريق من المدينة إلى خيبر .

وجاء في « معجم البلدان » أيضاً : الضهياء ثنية الضهياء بقرب خيبر ، في حديث صفية . وأقول : هذا تصحيف الصهباء التي دخل الرسول ﷺ بصفية بقربها .

والصهباء جبل مطل على خيبر من الجنوب الغربي ، ويسمّى عَطْوة ، وقد يقال (عَطْوَى) ولكن هذا الجبل لا يبعد عن خيبر أكثر من بضعة أميال ، وهذا الجبل يلي خيبر قبل ثبار الذي ذكروا أنه بقرب القرقرة (قعقران الآن) وفي سفحه بلدة وجدة ، وهناك مسجد ينسب إلى الرسول ﷺ .

وفي الصهباء وردت خرافة عودة الشمس بعد غروبها ، ليصلي علي بن أبي طالب (ض) صلاة العصر في وقتها ، قال الإمام ابن حزم : قصة ردّ الشمس على علي (ض) باطلة باجماع العلماء ، وسفّه من قال بذلك .

وفي الصهباء مسجد منسوب للنبي ﷺ قال السمهودي – وهو يعدد مساجده ﷺ في خيبر – : [2]

ومنها : مسجد بالصهباء ، وهي على روحة من خيبر روى مالك عن سويد بن النعمان (ض) ، انه خرج مع النبي ﷺ عام خيبر ، حتى إذا كانوا بالصهباء ، وهي من أدنى خيبر ، نزل فصلى العصر ، ثم دعا بالأزواد ، فلم يؤت إلا بالسويق ، فأكل وأكلنا ، ثم قام إلى المغرب فمضمض ومضمضنا ، ثم صلى ولم يتوضأ ، قال المطري : والمسجد بها معروف [3] .

---

(١) « معجم البلدان »
(٢) « وفاء الوفاء » - ٨٢٣ ط : الثانية
(٣) « وفاء الوفاء » ص ١٠٢٨

(وانظر سدّ الصهباء في الكلام على خيبر من الناحية الزراعية) .

(ض)

* ضُرَاف : جبل بين الغياط ، وبين ذي أُرُل وجَنَفَاء ممدودة ، وهي من ضغن عَدَنَة ، منزل أبي الشَّمُوس البلوي ، صاحب رسول الله ﷺ[1] .

وأقول : (١) في الطرف الغربي من جبل حضن – الواقع بين جنوب أجأ وشمال رَمَّان ، سلسلة من الجبال رسمت في الخارطة (ذراف) بالذال ، أراه تحريف ضراف المذكور هنا . (بقرب الدرجة ٤٥َ / ٤٠ْ طولاً و٠٠ / ٢٧ْ عرضاً) .

(٢) وجبل آخر يدعى جبل ضراف متصل بجبل رمّان الجنوبي ، وهو جزء من سلسلة رمان (ويقع بقرب الدرجة ٣٢َ / ٤١ْ طولاً و٤٥َ / ٣٦ْ عرضاً)

* ضَرْغَدُ – بالفتح ثم السكون وغَين معجمة ودال مهملة – عَلَمٌ مُرْتَجَلٌ لا نظير له في النكرات . قيل : ضرغد جبل ، وقيل : حَرَّة في بلاد غطفان ، وقيل ماء لبني مُرَّة بنجد بين اليمامة وضرية ، وقيل مقبرة ، فمن جعلها مقبرة لا يصرف ، ومن جعلها حرة أو جبلاً صرف . قال عامر ابن الطفيل في يوم الرقم :

فلأبغينّكُمُ قَنَاً وعُوارِضاً ولأقبلَنَّ الخيل لابة ضَرْغَدِ

وقال سنان بن أبي حارثة المُرِّي :

وبضرغدٍ ، وعلى السديرة ، حاضرٌ وبذي أَمرَّ حريمهم لم يُقْسَمِ[1]

٢ – ضَرغَد : وقيل : حرَّة بأرض غطفان ، من العالية ، وقال الخليل : ضرغد : اسم جبل . ويقال موضع ماء ونخل وقال عامر بن الطفيل :

فلأبغينكم قنـــا وعُوارِضا ولأوردن الخيلَ لابَة ضرغد

---

(١) « ابو علي الهجري »

(١) « معجم البلدان » .

٣ – ضرغد : حرّة ضرغد في جبال طيء، وقال ابن الأنباري:ضرغد في بلاد غطفان ... وقال النابغة :

.. أو بلابة ضرغد .

اللابة والحرة واحد[١] .

٤ - أول على يومين من ضرغد بين خيبر وجبلي طيء[١] .

وأقول : ضرغدُ لا يزال معروفاً – بلدٌ فيه نخل، في وادٍ يقع في الجانب الشمالي الشرقي من حرّة خيبر (حرّة فدك) المعروفة بحرّة هتيم،ويطلق على تلك الناحية من الحرّة حرّة ثنان (وتعرف قديماً بحرة ليلى) ، ويقع ضرغد شمال الحائط (فدك قديماً) وشرق جبل حبران ، وغرب جبل أوْل ، وهذا يبعد عنه بما يقارب ٣٠ ميلاً والطريق من ضرغد إلى حايل يمرُّ بمنهل أوْل .

(ضرغد بقرب الدرجة ٣٠َ / ٤٠ْ طولاً و ٣١َ / ٢٦ْ عرضاً) .

وقد كتب في كثير من الخرائط (زرغط) خطأً[٢] وقد تنطق الدال طاء (ضرغط) خطأ أيضاً ويقارب سكان ضرغد ٤٠٠ نسمة وطلاب مدرسته ٢٥ تلميذاً وأكثر سكانه من قبيلة هتيم .

* ضريغد : قرية تقع في الجنوب الشرقي من ضرغد ، وعلى مقربة منه . في شرقي حرّة هتيم (حرة خيبر) وتدعى حرة ثنان ، وهي الطرف الشمالي الشرقي من حرة خيبر ويقع ضريغد غرب جبل الفرس (بقرب الدرجة ٣١َ / ٤٠ْ طولاً و $\frac{1}{2}$ ٢٩ / ٢٦ْ عرضاً) وقد كتب في كثير من المصورات الجغرافية وتنطق (زريغط[٣]) خطأ ويقارب سكان هذه القرية ٤٠٠ أكثرهم من الرحّل

(١) « معجم البلدان » .

(٢) « خريطة المملكة العربية السعودية » وما تفرع منها .

(٣) « خريطة المملكة العربية السعودية » وما أخذ عنها .

أما تقدير الريحاني [1] بـ ١٣٠٠ نسمة فأراه مبالغا فيه .

* ضِغْنٌ : يوم ضغن الحرّة من أيام العرب وهو ماء لفزارة ، بين خيبر وفيد [2] .

ومن « نوادر أبي علي الهجري » :

١ – جنفاء من ضغن عَدَنة .

٢ – حَرّةُ لَيْلَى : تنقطع بجنفاء من ضِغْن عدنة .

٣ – الضغن أنشد لأبي المسلّم عمرو بن المسلم الرياحي السلمي :

خليليّ رُدّاني إلى الضغن إنني إلى الضغن من حَرّي إليها لراجع

الضغن : بلد ، وبه برد ... اعلام ... صبح ... وهي بلد ... ضغن عدنة [مكان النقط كلمات غير واضحة في الأصل]

٤ – رَمّان : جبل أحمر ، قرب الضغن ضغن عدنة [3] .

ويلاحظ أن الاسم غير مضبوط هل هو بالغين أو بالفاء . ولهذا فهو في أكثر الأحيان يرد في المخطوطة بالفاء . ولا شكّ أنه تصحيف ، ومثله ما جاء في « معجم ما استعجم »: الضفن... قال عبد الرحيم بن جُهيم الأسدي:

سَرَتْ من قَنَا والضفن حتى تغوّلت بركبان أطلاح شتيت مآلها

الضفن : جبل قبل قنا. وأقول : الصواب: الضغن – بالغين في الموضعين، وليس جبلاً بل هو الأرض المسهلة من الحرّة الواقعة شرقها وفيه مياه وجبال، وهو واقع بين خيبر وفيد ، وان كان هذا الأخير بعيداً عنه ، وهو في بلاد فزارة .

---

(١) « تاريخ نجد الحديث » .

(٢) كتاب نصر و « معجم البلدان » .

(٣) « ابو علي الهجري » ص ١٨٢ / ٢٣١ / ٣٣٤ / ٣٧٠ .

ولعل من أدق مـــا ورد عن المتقدمين في تحديد عدنة قول الأصمعي : وادي الرُّمة يقطع بين عدنة والشَّرَبَّة ، فإذا جزعت الرُّمَة مشرقاً أخذت في الشربة ، وإذا جزعت الرمة إلى الشمال أخذت في عدنة . انتهى .

والضَّغن عند سكان هذه الجهة يقصد به كل ما أسْهَل من الحرة في أطرافها الشرقية ، وهي أرض واسعة ، فيها أودية وقرى منهـــا ضرغد وضريغد والنبوان وغيرها . وعلى هذا فليس علماً على مكان ، وإنما هو وصف ، وفي اللغة ما يؤيد هذا .

ويفهم من كلام الهجري أن الضغن هو كل جوانب الحرة الشرقية والشمالية ، حيث ذكر أن رمان قرب الضغن ، وحيث عدَّ جنفاء ، وجبل برد فيه .

ورمَّان جبل لا يزال معروفاً بقرب جبل سلمى (الدرجة ٣٠َ/٤١ْ طولاً و ٤٥َ/٢٦ْ عرضاً) . وبِرْد جبل لا يزال معروفاً أيضاً شمال جبل رُواف الآتي تحديده في (يمن) وهو بطرف الجهراء (الجناب قديمـــاً) أي بقرب الدرجة ٢َ/٣٩ْ طولاً و ٢َ/٢٧ْ عرضاً) .

* ضُمٌّ : واد يقطعه طريق المتجه من تبوك إلى حقل بعد أن يسير (٣٥) كيلاً تقريباً ، وهو من أعظم الأودية التي تخترق سلسلة جبـــال حسمى ، وتعذّيها بالمياه .

(ط)

* طبران : من مواضع خيبر القديمة فقد جاء في كتاب « المناسك » : ثم الوادي المتصل بالوطيح ، إلى طبران والى خاض ، كله للنبي ﷺ يسمى الكتيبة . ويظهر أنه في شرقي خيبر ، متصل به وبحصونه ونخيله ، ولا أستبعد أن يكون طبران تصحيف (طيران) بالياء آخر الحروف ، فهناك عين من عيون خيبر ، لا تزال معروفة بهذا الاسم .

* طَبرْجَلُ ـ بفتح الطاء والباء وإسكان الراء بعدها جيم مفتوحة فلام ـ مجموعة من المزارع ، فيها آبار عذبة الماء ، ركبت فوقها مضخات ، وأنشىء

عليهـــا بساتين صغيرة ، ويزرع على تلك الآبار القمح ، وقد قامت وزارة الزراعة بإنشاء مخازن للغلال ، وبنايات لموظفيها ، بحيث أصبح طبرجل مقراً التجارب الزراعية في الوادي لوقوعه في أرض واسعة ، وفي مجتمع أودية تنحدر من الغرب ، ومن أشهرها وادي الغِينة (بكسر الغين) ووادي ِحدرج (بكسر الحاء) وغيرهما من الشعاب والأودية التي تنحدر من الطبيق ومـــا حوله مشرقة حتى تصب في فيْضة واسعة في الوادي هي ما يعرف باسم طبرجل ، ويمر به الطريق بين القريات والجوف، وفيه مجموعة من القريات منها اللحاوية ، نسبة للشيخ عاشق اللحاوي من شيوخ الشرارات ، ويقع بقرب الدرجة ١٤َ / ٣٨ْ طولياً شرقياً و ٢٩َ / ٣٠ْ عرضاً شمالياً . ويبعد عن سكاكة ٢١٢ كيلاً ، وطبرجل مركز تجمع قرى وادي السرحان : النباج ، شيبة ، أويسط ، طيّب خضر ، الجراوي ، صبيحا .

* ُطعَيْس الملعب : ورد اسم هذا الموضع ، باعتباره من موارد المياه في أحد التقارير الرسمية المطبوعة ، والواقع أنه لا ماء فيه ، وما هو سوى مكان رملي (ُطعيس تصغير ِطعْس وهو بالفصحى ِدعْص) كان أبناء البادية من قبيلة الشرارات يجتمعون فيه ليلاً للعب والسمر، ويقع بين الميْسِري والنباج.

ورأينا ذكره للتنبيه على خطإ من ظنّه َمنهَلاً .

* الطـُّوَير : تعتبر البلدة الرابعة في إقليم الجوف ، وتقع جنوب بـلدة سكاكة والمسافة بينها ستة أكيال ، وتقع بقرب الطريق المعبد بين مدينتي الجوف وسكاكة ، وبينها المطار الواقع شمالها أربعة أكيال . وتقع بقرب الدرجة ١٣َ / ٤٠ طولاً ٥٦َ / ٢٩ْ عرضاً .

* طيبة اسم : (انظر : مكوة) .

* الطـَّيْري : آخر حدودة إمارة الجوف بينها وبين عرعر في شرق شمال سكاكة وتبعد عنها تقريباً بـ ١٢٠ كيلاً ، ويقع في واد يعرف أيضاً بهـــذا

الاسم ، شمال أبا القور ، وجنوب وادي معيلة ، أحد روافد وادي عرعر . (الدرجة ٥٩َ / ٤٠ْ طولاً شرقياً و ٣١َ / ٣٠ْ عرضاً شمالياً) .

(ظ)

* ظَهْرُ الحمار : موضع مرتفع يقع بين الشَّرف وبين أم جرفين . قال فيه النابلسي [١] :

كان من مصر للحجاز نزولٌ وصعود لنا ، بعون الباري

فركبنا متن الطريق وسرنا ومررنا من فوق ظهر الحمار

(ع)

* عِتان : أنشد الهجري [٢] لعمرو بن عون الصادري :

يهيج عليّ الشوق أن شطت النوى بسهميّة مـا شملها بـداني

تحلّ جثا والظهر ، رابعة به ومحضرها بالصيف جـوُّ عتان

قال : سهمية من سهم بن مرة ، عتان: من أعراض خيبر مما يلي عيينات . وأقول : يظهر أن هذا الموضع يقع في سفح الحرة الشرقي ، في الضغن .

* العُرَدَات : العُردات والواحـدة عُردة : هضاب وبراق بواقصة الأنعام ، من الصمد صمد عُذرة ، بين الوادي وبين تيماء ، نَصَفٌ بينهما [٣] .

* العُرَدَةُ : — بالضم — ماء عدٌّ من مياه بني صخرٍ من طيّءٍ وهو بين العلا وتيماء وجفر عنزة ، في أرض ذات رمل وجبال مقطعة [٤] .

---

(١) « العرب » ٢١٤ – السنة الثالثة .

(٢) ص : ٣٣٧

(٣) « أبو على الهجري » ٣٣٩ .

(٤) « معجم البلدان » .

ولا تزال عُردة معروفة ، فهي وادٍ يقع غرب طريق تيماء إلى تبوك ، وفيه منهل من أشهر مناهل البادية،فيه مركز حكومي ، ينحدر هذا الوادي من الجبال الواقعة شرق مدينة تبوك ويسير متجها صوب الشرق حتى يجتمع مع وادي القليبة في الجهة الشمالية ، ومن ثمّ يكوّن الواديان أحد فروع وادي ثجر (فجر) ويقول فلبي بعد ذكر قور القليبة التي تكون رأس وادي ثجر (فجر) يمرُّ بينها جدول آخر يصب في وادي فجر يعرف باسم شعيب عردة [1] .

* العِرضُ : عَلمٌ لوادي خيبر،وهو الآن لعنزة،فيه مياه ونخل وزروع [2] .

وأقول : العرض – في الأصل – يطلق على الوادي الذي فيه قرى وزروع، وهذا ينطبق على خيبر وعلى غيره ، فكأنه وصفٌ ، وليس علماً ، كما يقال عرض باهلة ، وعرض بني حنيفة ، وغيرهما .

* عَرْفَجاء : جوّ فيه منهل للشرارات في وادي السرحان ، يقع قبلة النبك أبو قصر وغرب صُبَيحا على مقربة منها ، ويبعد عن النبك ٢٠ كيلاً تقريباً (وقد رسم في الخريطة : عرفجة خطأ)(وتقع عرفجاء بقرب الدرجة ٤٣َ / ٣٨ْ طولاً و ٠١َ / ٣٠ْ عرضاً) .

* عِرْنانُ : – بالكسر ثم السكون ثم نون وآخره نون أخرى – قال السكوني : عرنان جبل بين تيماء وجبلي طيّء . قال نصر : عِرْنان : مما يلي جبال صبْح من بلاد فزارة . وقيل : رمل في بلاد عُقَيل . وقيل : عرنان اسم جبل بالجانب (الصواب : بالجناب) دون وادي القرى إلى فيد ، وهذا مثل قول أبي عبيد السكوني وقال الأصمعي : عرنان واد . وقيل : غائط واسع في الأرض منخفض . وقال الشاعر :

---

(١) « أرض الأنبياء » – ١٥٠ – .
(٢) « معجم البلدان » .

قلت لعلاق بعرنان : مـــا ترى ؟ فما كان لي عن ظهر واضحةِ يبدي

ويوصف عرنان بكثرة الوحش .. قال القتال الكلابي :

وما مغزل من وَحْش عرنان أتلعت بسنّتها ، أخلت عليها الأواعِسُ[1]

وأقول : تقدم ذكر عرنان في الكلام على الجناب .

* عَرُوس (بدون أل) : خَبْراء ، تجتمع فيها السيول وقت الشتـاء ، تقع قبل العسافية بـ ٤٥ كيلاً تقريباً ، وهي في وادي نيال على طريق المتجه من الجوف إلى تيماء ، وتبعد عن تيماء بما يقارب ١٠٠ كيل . (بقرب الدرجة ٠١َ / ٢٩ْ طولاً و ٣٣َ / ٢٨ْ عرضاً) .

* العسّافية : تبعد ٤٥٠ كيل إلى جهة تيماء بهـا ، مركز حكومي تابع لإمارة الجوف ، يفيض فيها وادي نيال (نيّان) يأتيها من الغرب . (وتقع بقرب الدرجة ٦٠َ / ٣٨ْ طولاً و ١٥َ / ٢٨ْ عرضاً) .

ويظهر أن اسم العسافية حديث ، قد تكون منسوبة إلى شخص يدعى بهذا الاسم ، وفي الأزمنة الحديثة عرف به أحد موظفي الدولة ممن لهم ذكر في هذه الجهة وفي جهات تبوك وهو من أهل بلدة الرّسّ في القصيم في نجد .

* العشاش : (وادي العشاش) .

* الـعْـصُبِـي : (كأنــه منسوب إلى العصب ، غير أنهم يضمون الصاد ويسكنون العين) ُقرَّية تقع شمال أُوَيْسِط جواره في طرف الوادي الغربي. (بقرب الدرجة ٥َ / ٣٨ْ طولاً و ٣٣َ / ٣٠ْ عرضاً) .

* عَصر : في الطريق بين المدينة وخيبر[2] وقال ياقوت: عِصْر ــ بكسر أوله وسكون ثانيه ، ورواه بعضهم بالتحريك والأول أشهر والأكثر ، وكل

---

(١) « معجم البلدان » .

(٢) « معجم ما استعجم » .

حصن يتحصَّنُ به يقال له عصر .

وهو جبل بين المدينة ووادي الفرع، قال ابن اسحاق - في غزاة خيبر -: كان رسول ﷺ حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عصر ، وله فيها مسجد ، ثم على الصهباء ، ورواه نصر ، ووافقه فيه الحازمي بالفتح ، وما أظنهما أتقناه ، والصواب بالكسر [1] .

* العصميَّةُ : حصنٌ في خيبر مطلٌ على وادي أبو وشيع وما حوله ، وقد بني من الحجارة بامتداد قمة جبل من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ، مشرفاً على وادي الشّق وما حوله . ويشاهد منه شمالاً جبل أبو رقبة، يفصل بينهما منبسط واسع من الأرض ، يمتد بامتداده من الشمال أكمات تفصل بينه وبين (أبو رقبة) .

ويشاهد من الحصن جبل عطوة وكثير من معالم خيبر .

* عظم : بضمتين : عرضٌ من أعراض خيبر ، فيه عيون جارية ، ونخيل عامرة [2] .

* العُظيمات : قرية صغيرة تقع في الجنوب الغربي من عين البيضا في وادي السرحان ، وتبعدعنها بما يقارب ٣ أكيال وسكانها يزيدون على المائة .

* عِفال : سماه الجزيري (وادي عفان) بتخفيف الفاء المفتوحة، ولكن النابلسي دعاه باسمه المعروف الآن عفال قائلاً : بكسر العين المهملة وفتح الفاء بعدها الف ولام [3] .

ومن أرجوزة للجزيري يصف طريق الحج المصري :

يا مَن ترى في (حقل) من تغليب واطلع إلى (الجرفين) من قريب

---

(١) « معجم البلدان » .
(٢) « درر الفرائد » ٥٠٤ ورحلة النابلسي - ١٢ - .
(٣) « درر الفرائد » - ٤٧٣ .

من قبله (ظهر الحمـــار) فاتئذ فهو صعود موعرٌ ، صعبٌ نكد
وبعد ذا يا ذا الحِجى لـ (الشرفه) ثم (النويعات) تليهـــا بالصّفهْ
وادي (عفانٍ) بعده (المغاره) (قبر الطواشي) بعـــد بالإشاره

وعفال هذا من أشهر الأودية التهامية الواقعة في شمال الجزيرة ، فيما بين جبال حسمى ، وساحل البحر ، وهو بالعين المهملة ، بعدها فاء مفتوحة مخففة ممدودة ، فلام .

وهو من أعظم الأودية في شمال الحجاز ، إن لم يكن أعظمها ، وقد قدر فلبي طول هذا الوادي بـ ١١٢ ميلاً ، وذكر كثيراً من روافده ، وذهب إلى أن الايكة المذكورة في القرآن الكريم أحد روافده المعروفة الآن .

ومن روافد وادي عفال : وادي الشرفة ، الذي ينحدر من شرفة بني عطية ، الواقعة (بقرب الدرجة ١َ / ٣٥ْ طولاً و ٠٠ / ٢٩ْ عرضاً) ويتجه هذا الوادي شرقاً حتى يجتمع بعدد من الأودية في متسع من الأرض فيه تلتقي الطرق من تبوك (من طريقين) ومن الشيخ حميد ، ومن حقل (بقرب الدرجة ١٢َ / ٣٥ْ طولاً و ٥٨َ | ٢٨ْ عرضاً) وعلى مسافة ٤٣ كيلاً جنوبي حقل .

ومن أشهر تلك الأودية : ١ — وادي القَحْزَا وفي الخريطة : القهـــازة خطأ . ٢ — وادي زَيتـة ، ينحدر الواديان من غرب حسمى ثم يجتمعان . ٣ — ويأتيهما من الشمال وادي واسط من حِسْمى فتكوّن الثلاثة واديـــاً واحداً . ٤ — يجتمع به من الجنوب وادي الصُّرَيم (في الخارطة : السريم خطأ) . ٥ — فشعيب الحجية (؟) جنوب الصُّريم ، ويرفده من الشرق شعيب علجان الذي ينحدر من سفوح جبل اللوز الشمالية ، وشعيب مطر من جبل اللوز ويأتيه من الغَرب وادي عَمْق ، أودية صغيرة غيره وأعلى شعيب علجان يُدْعى الأبيض ، ينحدر من جبال حسمى الشرقية . وبعد أن تجتمع فروع الوادي يتجه جنوباً ثم يمر بمغاير شعيب (البدع) وفي اتجاهه إلى الجنوب (بقرب الدرجة ٢٩َ / ٢٨ْ طولاً و ٠٠َ / ٣٥ْ عرضاً) حتى يصب في البحر الأحمر ،

فيما بين رأس حُميد الواقـــع في مدخل خليج العقبة وبين الخريبة وعينونا الواقعتين على خور من البحر شرقـاً من جزيرتي تيران وصنافر ، و (مصبه بقرب الدرجة ٣َ / ٢٨ْ طولاً و ١َ / ٣٥ْ عرضاً) .

* العُقَـيلة : – بضم العين – قرية لهتيم في وادي الغَرَس (واديخيبر) .

* عَلَـقَانُ : كان مَنْـهَلاً من أشهر مناهل حِسْمى في وادٍ يدعى علقان أيضاً ، ينحدر من سفوح جبال حِسْمى الشرقية ، متجهاً صوب الغَرْب ، حتى يمر بمنهل آخر يدعى أبا الحِنْشان ، ثم يأتي هذا الوادي من الشمال واد يدعى مَبْرَك (رسم في الخريطة المبرك: خطأ) ثم يفيض سيل الواديين بعد اجتماعهما وروافدهما في حَقْـل على شاطىء خليج العقبة . وقد أصبح علقان بلدة فيها سكان يربو عددهم على ١٧٠٠ نسمة (وتقع بقرب الدرجة ٢٣ / ٣٥ْ طولاً و ١٣َ / ٢٩ْ عرضاً) – وانظر عَلَلاَن –

* عَلَلاَنُ : – فَـعَلان من العَلَـل – ماءٌ بِحِسْمَى [١] ويراه موزل: ما يعرف الآن باسم عَلَـقَان ، (انظر إرم) .

* العَلَـمُ – لغة الجبل – وعلم السّعد ودجوجُ : جبلان من دومة على يوم ، وهما جبلان منيفان ، كل واحد منهما يتصل بالآخر ، ودجوج رمل متصل مسيرة يومين إلى دون تيماء بيوم ، يخرج منه إلى الصحراء ، وهو الذي عناه المتنبي بقوله :

طردت من مصر أيديها بأرجلها حتى مَرَقن بنا من جوش والعلم

قال : هما جبلان بينهما وبين حسمى أربع ليال [٢] .

* العوارض : (انظر وادي الدوم) .

* العمائر : يقارب سكان هـذه البلدة ٣٠٠ نسمة ، وتقع شمال الحائط وهي بلاد بني رشيد غربي الروض في سفح حرة خيبر الشرقي .

---

(١) « معجم البلدان » . (٢) « معجم البلدان » .

* العوال : جبل أو موضع ذكره صاحب (المناسك[1] » والبكري في الطريق من النقرة إلى فدك قبل وادي الفرس .

* العوشزي: واد ينحدر من الحرة (حرة خيبر) بقرب صفيط، سكانه هتيم .

* عُوق : من أرض غطفان في ظهر خيبر ، فيما بينها وبين نجد [2] ... وقال ياقوت : العوق : أرض في ديار غطفان ، بين نجد وخيبر .

* عَيْبَة : — بفتح العين وإسكان الياء بعدها باء مفتوحة فهاء — قرية من قرى خيبر ، تقع في غربيه في سفح جبل عطوة . وهي من قرى وِلد علي من عنزة .

* العَين : من قرى خيبر ، في شماله بينه وبين سَمْحَة ، وهي إلى سمحة أقرب ، كانت مسكونة ، أما الآن فخالية .

* عُيَيْبة : — تصغير عَيْبة — قرية صغيرة من قرى خيبر، تقع غربه في سفح جبل عطوة ، وهي من قرى ولد علي من عنزة .

* العيساوية : يظهر أن هذا الاسم حديث حيث لم أجد فيما بين يدي من المصادر لها ذكراً ، والعيساوية هذه تقدم الكلام عنها ص ٩٤ وهي قرية كبيرة تقع في ملتقى طرق متعددة إلى الجوف فالقُريات ، ومن وادي السرحان إلى تبوك عن طريق تيماء ، وهي ذات مبان حديثة وفيها مستوصف وبريد ومدرسة في بنايات حديثة ، وماؤها عذب بمضخات وفيها بساتين حسنة وتعتبر من أكبر قرى وادي السرحان وأعمرها ، وتقع على الضفة الغربية لوادي السرحان بقرب الدرجة ٥٩َ/٣٧° طولاً و٤٥َ/٣٠° عرضاً) ويقارب سكانها ٧٠٠ نسمة على وجه التقريب، ولا شك أنه متى تم تعبيد الطريق الموصل إليها ستكون ذات شأن .

---

(١) ص : ٥٤٢ .

(٢) : « معجم ما استعجم » .

* العين : ويقال عين الحواسي : غين أنشأها حامد بن عيسى العيسى من أهل الجوف فيعهد ابن شعلان ثم زاد عمارتها الأمير عبد الله الحواسي أحد أمراء القريات في منتصف القرن الحالي – على وجه التقريب – وغرسها نخلاً بعد أن أجرى ماءها . وبعد أن بنى قصراً وحفر بئراً جيدة وتقع مجاورة لقرية مِنوة في الجنوب الشرقي منها بمسافة ٤ أكيال وتبعد عن النبك ٢٤ كيلاً (الدرجة ٣٣َ/٣٧° طولاً شرقياً و ٢٦َ/٣١° عرضاً شمالاً).

* عين البيضاء : عين فوقها نخيلات ، تقع في الجنوب الشرقي من بلدة النبك وفي الجنوب الغربي من قراقر ، وسكانها يزيدون على ٣٠٠ نسمة وتبعد عن النبك (القاعدة) ٥٢ كيلاً . (الدرجة ٤٠َ/٣٧° طولا شرقياً ١٠َ/٣١° عرضاً شماليا .

(غ)

* غَدِير مُطْرِق : (انظر ادماء – مطرق)

* الغَرْس : وادي الغرس بين معدن النقرة وفدك [1] . وأقول : الغَرَسُ : بفتح الغين والراء – أعظم الأودية التي تنحدر إلى خيبر ، ويجتمع فيه عدد من الأودية منها وادي الدوم ووادي القُصَيبة ووادي البحرة وغيرها . ثم يتجه للشمال الغربي ، حتى يصب في وادي الحمض ، ويمتد وادي الغرس من شرق جبل اشمذ (كتب في الخريطة خطأ : الشمط) مارّاً بقرية الصلصلة، متجهاً شمالاً مخترقاً الحرّة، ويجتمع به عدد من الأودية .

* غَسَلُ – بالتحريك – : جبل بين تَيْماءَ وجبلي طيّء في الطريق بينه وبين لَفْلف يوم واحد .

---

(١) « معجم البلدان » .

وأقول : غسل قد غطته الرمال الواقعة في جنوب النفود الواقع غرب جبال شمّر ، يحده شرقاً جبال المِسْمَى ، وَغرْباً منخفض البُقيعة ،وجنوباً بئر حْزابا وما بقربها ، وجبال أبو مُغَير والنواحة (كتبت في الخارطة خطأ : النواهة وبعدها غَرْباً : عُمَيد بِرْد - تصغير عمود - وهو جبيل صغير يقع شرق جبل بِرْد - الذي تقدم ذكره - (وغسل بقرب الدرجة ٤٥َ / ٣٩ْ طولاً و ٢٨َ / ٢٧ْ عرضاً) .

* غَطّي : (بفتح الغين ، ثم طاء مشددة مكسورة) قرية صغيرة تقع في الجنوب الشرقي من بلدة النبك (القاعدة) (وتقع بقرب الدرجة ٢٠َ / ٣١ْ طولاً و ٣١َ / ٣٧ْ عرضاً) .

* الغَمْرُ : غَمْرُ بني جذيمة : بالشام ، بينه وبين تيماء منزلانِ من ناحية الشام ، قال عديٌّ بن الرقاع :

لمن الديار أقفرتْ بغبـــاء   لو شئْتُ هيَّجَتِ الغداةَ بكائي
فالغمر غمر بني جذيمةقد تُرى   مأهولةً ، فخلت من الأحياء[1]

وأقول : الغَمْر : منروافد وادي نيَّان، وهناك منهل يدعى الغمارية فيه مركز حكومي يقع شمال تيماء بمسافة تقرب من ٧٠ كيلاً .

* غمْرَة : وادي الدَّوم : وادٍ معترض من شمالي خيبر ، إلى قبليّها ، أوله من الشمال غمرة ، ومن القبلة القُصيبة [2].

وأقول : غمرة وادٍ فيه نخل ومياه في شمال خيبر لا يزال معروفاً ، وفيه قرية ، ويمرُّ الطريق إلى تيماء بقربها (الدرجة ١٥َ / ٣٩ْ ط و ٥٩َ / ٢٥ْ ع تقريباً) .

وغمرة هذه غير غمرة التي بقرب حائل والتي يظهر أنها هي الواردة في

(١) « معجم البلدان » .
(٢) « معجم البلدان » .

خبر سريّة عكاشة بن محصن تلك قرية الآن يقارب سكانها ٣٠٠ وفيها مدرسة.

* غُنُـيم : جبل ذو رؤوس ، أسود ، مطل على تيماء من الناحية الجنوبية الشرقية. وأغلب سيول تيماء تنحدر من سفوحه وما حوله من الآكام الجبيلات. واسمه القديم حدَد [١].

ولشهرته في تيماء ينتسب بعض أهل هذه البلدة إليه — على ما أخبرني الأمير سليمان الشنيفي — فيقول عندما يُسأل عن نسبه : أنا غنيمي ، ولعل هذا ناشىء من أن رجلاً مشهوراً كان يسمى غنيما ، ارتبط اسمه بهذا الجبل فأطلق الاسم على الجبل ، ومن ثمّ وجد من ينتسب إلى الرجل الذي جهل ، بعد أن عرف الجبل .

(ف)

* فجر : هو واد عظيم ، أعظم روافده واديان هما وادي القليبة (وفيه قرية بهذا الاسم) ووادي عرَدَة (بثلاث فتحات) وعند اجتماعها يتكون وادي ثجر ، [عند الدرجة ٣٣َ/٣٧° طولاً شرقياً ١َ/٢٨° عرضاً شمالياً) ثم يتجه الوادي نحو الشمال الشرقي مـــاراً بمنهل يسمى بئر فجر على طريق تيماء إلى القريات . ومن أعلى الوادي في جهة الجنوب الشرقي ، قبل القليبة يعرج طريق تبوك من القريات إلى اليمين ، وطريق تيماء إلى تبوك يمر بالقليبة (أنظر هذا الاسم) .

أما مفيض الوادي فهو في منخفض رملي، حيث يدع رمالاً مرتفعة تدعى الخوي غربه ، ورمالا أخرى تدعى الهوج شرقه، ثم يغيض في الرمل، وفجر هو ما يعرف قديماً باسم ثجر قـال ياقوت : ثجر ماء لبني القين بن جسر ،

---

(١) « أبو علي الهجري » ص ٣٦٨ — و « معجم البلدان » .

بجوش ، ثم باقبال العلمين : حمَل وأعفر ، بين وادي القرى وتيماء قال ابن ميّـــادة :

خليليَّ من غيظ ابن مرة بلّغا	رسائل مني ، لا تزيدكما وقرا
ألـّما على تيماء نسأل يهودهــا	فإنَّ لدى تيماء من ركبها خُبرا
وبالغمر[1] قد جازت ، وجاز مطيّها	فتسقي الغوادي بطن بيسان فالغمرا
فلما رأت أن قد قـربن أباتراً	عواسفَ سَهب تاركات بنا ثجرا
أثار لها شحطُ المزار وأحجمتُ	أُموراً وحاجاتٍ نضيق بها صدرَا

* فدك : واد ذو نخيل وعيون ، يعرف الآن باسم (الحائط) تابـــع لامارة حايل (مضى الكلام عليه مفصَّلاً ص ٢٩٥ — ٣١٠) .

* الفُـرْس : بضم الفاء وقيل بكسرها والسين مهملة ، واد بين المدينـة وديار طيّء ، على طريق خيبر ، بين ضرغد وأول .

وأقول : الفِرْس — بالفاء المكسورة بعدها راء ساكنة — وادٍ يقع شرق ضُريغد ، مِسْرَاح الغنم ، وبقربه أول . وهذا ينطبق تمام الانطباق على ما ذكر ياقوت . وهذا الوادي ينحدر من جبـل يدعى الفرس ومن جبل أول وما حولها . ويتجه جنوباً ، ويجتمع مع أودية كثيرة ، تفيض كلها في وادي الرُّمة شرق الحليفة وشرق بئر معرش (بالشين المعجمـــة لا بالمهملة ، كما في إحدى المصورات[2] (بقرب الدرجة ٤٥َ / ٤٠ْ طولاً و ٣٠َ / ٢٦ عرضاً)

* الفِقْـرَة : بكسر الفاء بعدها قاف ساكنة فراء مفتوحة فهاء —وتدعى فقرة البُحَيْر — اسم عين تقع في السلمة (السلالم) في خيبر ، يملك نخيلهـــا ولْد علي من عنزة — جماعة الأيْدَا .

---

(١) الغمر : وادٍ فيه ثماد ماؤها قليل بين ثجر وتيماء .

(٢) « ابحاث جيولوجية B ٢٠٥ - I » .

* فُقَيْرٌ : قال العمراني : موضع قرب خَيْبر [1] .

* الفُقَيّ : — ويلاحظ أن هذا الاسم يطلق أيضاً على وادي سُدَير — يقارب سكان هذه البلدة ١٠٠ نسمة وهذا من نواحي فدك (الحائط) ، ويقع في الجنوب من ضَرْغد .

* الفيضة : (فَيْضَةُ أثقب) : قرية يقارب سكانهـا ٣٠٠ نسمة وفي مدرستها ١٤ تلميذاً وتقع في شمالي الحائط ، في شرقي جبل اثقب (يثقب) .

* الفَيْضَة (فَيْضَةُ الشَّمْلِي) : يقدر سكان هذه البلدة ٢٥٠٠ نسمة وفيها مدرسة عدد طلابها ٢٧ ، وتقع شرقي بيضانثيل ، وتدعى فيضة ابن سُويلم من قبيلة عنزة وهي في ضغن حرة ليلى الشمالي .

(ق)

* القارة .. ذو القارة : إحدى القريَّات التي منها دومة وسكاكة وهي أقلهن أهلاً ، وهي على جبل، وبها حصن منيع[2] . وأقول: يطلق اسم القارة على مواضع من أشهرها :

١ — القارة : جبل في الأحساء فيه كهاف شديدة البرودة في الصيف ويظهر أنه يدعى الشعبان حيث جاء في « معجم البلدان » : الشعبان : جبل بالبحرين يُتبرد بكهافه . وذكره باسم القارة .

٢ — قارة بني العنبر : وتعرف الآن باسم القارة غير مضافة ، وقد ذكر الهمداني وغيره ، وهي إحدى قرى سدير .

٣ — القارة التي تقع في الجوف وهي التي تقدم قول ياقوت عنها وأهل

---

(١) « معجم البلدان » .

(٢) : « معجم البلدان » .

تلك الجهة يقولون : قارا على اسم موضع من نواحي بغداد على ما جاء في « الأغاني » [1] قال أبو جعفر أحمد بن محمد اليزيدي : دخلت على المأمون بقارا وهو يريد الغزو فأنشدته :

يا قصر ذي النخلات من بارا   إني حللت اليك من قارا
أبصرت أشجـــاراً على نهرٍ   فذكرت أشجاراً وأنهارا

وقارا هذه هي البلدة الثالثة في الجوف . وتقع في جنوب مدينة سكاكة ، والمسافة بينهما ١١ كيلاً .

وتقع بقرب الدرجة ١٤َ/٤٠° طولاً شرقياً و٥٥َ/٢٩ عرضاً شمالياً .

وقد زارت هذه البلدة الليدي آن بلنت ووصفتها بقولها :

بعد سفر ثمانية أميال خلال كثبان الرمل، خرجنا فجأة إلى قرية (قارة) وهي آخر ما سوف نرى لأيام كثيرة . وتسيطر عليها رابية صخرية عليها خَرِبَةٌ .

وهي تحتوي على سبعين أو ثمانين منزلاً . وحرج النخل المحيط بها جدير بالإعجاب لنخله وأثله .

انقشع الضباب وصارت الشمس حارة بما يكفي لجعلنا نشعر بالبهجة أن نجلس بضع دقائق تحت السور الطيني الذي يحيط بالواحة .

إنها كالجوف وسكاكا ، تحتوي على قلعة خربة على تل منخفض ، ولكن الاطلال الآن ليست أكثر كثيراً من أساسات لأسوار صخرية قديمة بنيت من غير (سمنت) .

* قَبال : رواه ابن جني بالفتح وقال : هو جبل عـــالٍ بقرب دومة الجندل . ورواه القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني بكسر أوله ، قالا ذلك في قول المتنبي :

(١) ج ١٨ ص ٩٣ طبعة الساسي .

فَوَحْش نجْدٍ منه في بلْبال يَخَفْنَ في سَلْمى ، وفي قَبَالِ[1]

[انظر قبل] وكل ما تقدم خَلْطٌ ، فاسم الجبل: قِيال – بالقاف بعدها ياء مثناة تحتية، لا باء، فلام– وهو جبال عظيمة تسمى الآن جبال قيالات ، ومنها قيال الصغير وقيال الكبير ، وتقع شمال دومة الجندل بميل نحو الشرق (من الدرجة ٥٨َ / ٣٩ْ إلى ١٥َ / ٤٠ْ طـــولاً شرقياً و ٠٠َ / ٣٠ْ إلى ٢٠َ / ٣٠ْ عرضاً شمالياً) .

* قَبَلٌ : جبل قيل إنه بدومة الجندل [2] [انظر قبال] .

وأقول : يظهر أنه تصحيف إذ المعروف قيال – بالياء المثناة التحتية – لا بالباء .

* قُدَيْر : بئر ماؤها على وجه الأرض ، بشكل دَحْلٍ ، تقع شرق العيساوية ، بينها وبين سبخة حضوضى ، وتبعد عن الأولى ٢٤ كيلاً وعن الأخيرة تبعد كيلاً واحداً وهي من مناهل البادية .

* قُراقر : كان من أشهر مناهل هذا الوادي ، وادي السرحان . ويظهر أن هذا الاسم قديماً يطلق على الوادي ، أما الآن فيطلق على موضع يدعى جو قراقر ، وفيه منهل للبادية آبار ، يقع شمال الجفيرات ، وشرق شمال عين البيضاء ، وجنوب شرق سمراء قصيبا (في الخريطة : قصيبة خطأ) ويقع جو قراقر في الجانب الشرقي الوادي (الدرجة ١٢َ/٣٧° طولاً شرقيا و١٥َ/٣١° عرضا شماليا) ويبعد قراقر عن النبك القاعدة بـ ٤٣ كيلاً تقريباً .

وقراقر هذا هو الذي مرّ به خالد بن الوليد عندما جاء بجيشه من العراق ماراً بدومة الجندل ، لإنجاد المسلمين في وقعة اليرموك سنة ١٣ هـ وها هو ملخص قصة مسيره :

---

(١) « ياقوت » .
(٢) : « معجم البلدان » .

ارتحل – خالد – من الحيرة إلى دومة ، ثم طعن في البر إلى قراقر . ثم قال كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم ، فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين ، فوصف له رافع بن عميرة [1] الضائي الطريق ، فأمرها خالد من معه بأن يترووا للشفة لخمس ، وأمر صاحب كل خيل بقدر ما يسقيها ، فظمأ كل قائد من الإبل الشُرُف الجلال ما يكتفي به ، ثم سقوها العلل بعد النهل ، ثم صَرُّوا آذن الإبل ، وكَعَموها ، وخلُّوا أدبارها وقال محرز بن حريش المحاربي لخالد : اجعل كوكب الصبح على حاجبك الأيمن ، ثم أمَّهُ تفض إلى سُوَى . فركبوا من قراقر مفوزين – في السماوة – إلى سوى ، وهي على جانبها الآخر مما يلي الشام ، فلما ساروا يوماً افتضوا لكل عدة من الخيل عشرا من تلك الإبل ، فمزجوا ما في كروشها ما كان من الألبان ، ثم سقوا الخيل ، وشربوا للشفة جرعاً ، ففعلوا ذلك أربعة أيام ، وفي صبيحة اليوم الخامس بلغوا سوى ، بعد سرى مضني ، وجدوا الماء فقال خالد : عند الصباح : يحمد القوم السرى وقال أحدهم في الدليل :

لله عَيْناً رافعٍ أنى اهْتَدى فَوَّزَ من قُراقِرٍ إلى سُوَى
خمْساً إذا ما سارها الجبس بكى ما سارها قبلك إنسي أرى

وقد عرف خالد (ض) بالمغامرات في اختراق الفيافي ، ففي ذي القعدة (سنة ١٢) خرج من الفِراض – تخوم الشام والعراق – مكتَتِماً بحجّه ، ومعه عدة من أصحابه ، يعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسمت ، فتأتى له من ذلك ما لم يتأتّ لدليل ، ولا رئبال ، فسار طريقاً من طرق أهل الجزيرة لم يُرَ طريقٌ أعجب منه ، ولا أشدّ على صعوبته منه ... استعرض البلاد متعسفاً متسمّتاً ، فقطع طريق الفراض ، ماء العنبري ، ثم مِشْقَباً ، ثم انتهى إلى ذات عرْق ، فشَرّق منها ، فأسلمه إلى عرفات من الفراض ، وسمي ذلك الطريق الصّد [2] .

---

(١) أنظر ترجمته في « الاصابة » رقم ٢٥٣٨ .

(٢) « تاريخ ابن جرير » - حوادث سنة ١٢ هـ .

* قَرْقَرُ : قرية قديمة كانت تقع جنوب قرية منوة بمسافة ميلين تقريباً (الدرجة ٣٢َ /٣٧ْ طولاً شرقياً و ٢٥َ /٣١ْ عرضاً شمالياً). ثم في سنة ١٣٨٥ جرف السيل كثيراً من مزارع القرية وغطاها بطبقة ملحية ، فانتقل أهلها إلى مكان يقع شرق النبك ـ قاعدة المنطقة ـ بعد أن عوضتهم الحكومة عما فقدوه، وبنوا فيه مساكن وحفروا آباراً وغرسوا قليلاً من البساتين ، ويسمى المكان حُصَيِّدة الشرقية ، باسم الوادي الذي يفيض على هذا المكان .

* القرقرةُ : أورد الفيروز آبادي في « المغانم المطابة » عن الزبير عن ابراهيم بن جعفر عن أبيه قال خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر ودليله رجل من أشجع فسلك بهم طريق صدور الأودية، فادركته الصلاة بالقرقرة فلم يصلّ حتى خرج منها، فنزل بين أهل الشق وأهل النطاة ، وصلى إلى عوسجة هنالك ، وجعل حوله احجاراً [1].

وقال البكري : قُرْقُرَةُ الكدر : مضافاً إلى كدر القطا وهي على ستة أميال من خيبر .

وبقرقرة الكدر قتل ابنُ أُنيس وأصحابه اليُسيرَ بن رزام اليهودي وأصحابه [2].

وفي خبر قتل ابن رزام اليهودي : فلما بلغوا قرقرة ثبار ، وهي من خيبر على ستة أميال — وذكر مقتله مع أصحابه [3] .

وقال السمهودي — في ذكر مساجد الرسول ﷺ في خيبر : ومنها : مسجد بين الشق والنطاة من خيبر روى ابن زبالة عن حسن بن ثابت بن ظهير أن رسول الله ﷺ (قصد خيبر) ودليله رجل من أشجع ، فسلك به صدور

(١) « المغانم المطابة » ١٣٦ .
(٢) « معجم ما استعجم » .
(٣) « طبقات ابن سعد » ٢ / ٩٢ « وفاء الوفاء » — قرقرة .

الأودية ، فأدركته الصلاة بالقرقرة ، فلم يصل حتى خرج منها ، فنزل بين أهل الشق وأهل النطاة، وصلى على عوسجة هناك ، وجعل حولها الحجارة[1]

وأقول : القرقرةُ : قاع يقع في طريق خيبر إلى المدينة ، ويبعد عن خيبر بـ ٧ أكيال .

ويسمى الآن (قعقران) .

* القـُرَيَّات : جمع تصغير القرية . قال أبو عبيدالله السكوني : من وادي القرى إلى تيماء أربع ليال ، ومن تيماء إلى القـُرَيَّات ثلاث أو أربع ، قال : والقريات دومة وسكاكة والقارة[2] .

أقول : ويظهر أن قُرَيَّات الملح ، أضيفت إلى الملح للتمييز بينها وبين قـُرَيَّات الجوف هذه ، مع أن اسم (القريات) الآن عند الاطلاق يتجه إلى قريات الملح ، لا إلى الجوف .

* قُرَيَّات الملح : يطلق هذا الاسم على قُرَى صغيرة متقاربة أشهرها كاف ومنوة والقَرْقَر وإثرة والعين والنبك الغربي (أو النبك أبو نخلة) قاعدة المنطقة الآن . حيث يوجد بجوار تلك القُرى سبخات كثيرة يستخرج منها الملح بطريقة تبخر مائه بواسطة الشمس ، يعمد أحدهم إلى حفر قطعة من الأرض مستطيلة ٤ × ٢ من المتر وعمق ١/٢ متر تقريباً حتى يجمّ الماء ويغطي وجه الحفرة فيترك ذلك أياماً فتتجمد الأملاح بشكل حبيبات مربعة صافية اللون بيضاء جدّاً ، ما لم يَسْفُ فوقها التراب أو يكون موقع الحفرة ذا تربة لها لون يمتزج بالماء ، فيتغير لون الملح بعد تبخرّ الماء .

والوقت الملائم لاستخراج الملح فصل الصيف .

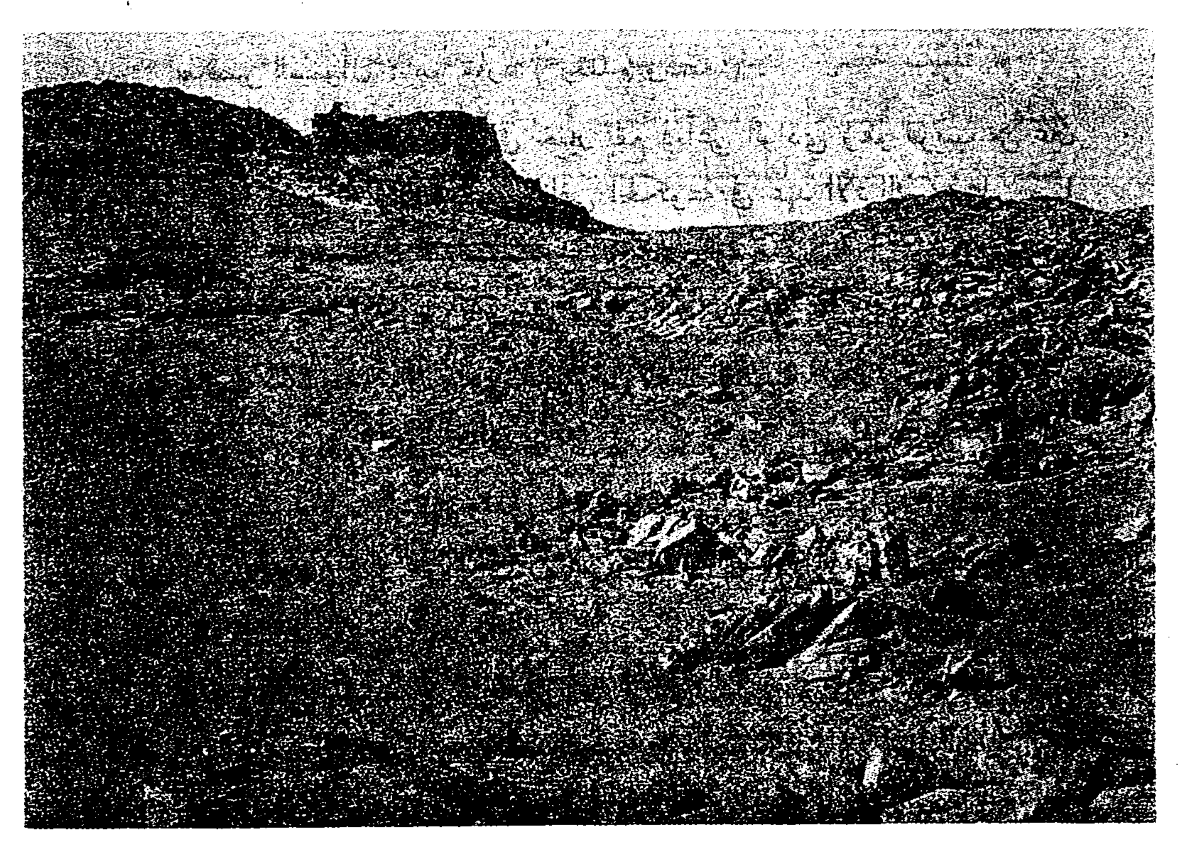
وتلك السبخات واسعة وكثيرة بقرب تلك القرى ، بحيث يملك الواحد منهم عدداً من الحـُفَر ، التي لا تحتاج بعد استخراج الملح منها إلى كبير جهد

---

(١) « وفاء الوفاء » ص ١٠٢٨ . (٢) ياقوت

من حيث استنباط الماء فيها لقربه من سطح الأرض وكانت حياة أهل تلك القرى تعتمد على استخراج الملح ، وتصريفه في أسواق الشام(الأردن وسورية وغيرهما) حينما كانت المواصلات لا تخضع لحدود أو قيود ، فيأتي البدوي من سورية أو الأردن وقد أوقر جمله بُرّاً ، أو قماشاً ، أو غير ذلك مما يحتاج إليه سكان تلك القرى ، فيبيع ذلك ويوقر جمله ملحاً بثمن ما باع .

* القـُرَّية ، أو قُرَيَّة – بالتصغير – مكان أثري يدل على أنه كان مقاماً فيه قلعة ومكان عبادة قديما ، وقد وصفه فلبي وصفاً كاملاً [1] ، ووجد فيه نقوشاً ثمودية كثيرة ، ومقابر في مغارات وصفها ، وسدّاً للمياه ، وغير ذلك من مظاهر الحضارة .



(آثار بقرب القريّة)

(١) « ارض مدين » الترجمة العربية ص ٢٤٨ وما بعدها .

(وتقع قرية هذه بقرب البئر — بئر ابن هرمـــاس ، الواقعة على خط السكة الحديدية - أي بقرب الدرجة ٠٠َ / ٣٦ْ طولاً شرقياً و ٤٦َ / ٢٨ْ عرضاً شمالياً تقريباً) . والموضع بحاجة إلى دراسة أثرية عميقة .

* قصر بدر بن جوهر : قصر أثري في تيماء (تقدم وصفه) .

* قصر زَلُّوم — بفتح الزاي وتشديد اللام المضمومة الممدودة بعدها ميم — قصر أثري في تيماء (تقدم وصفه) .

* قصر سلامة : آثار قصر مهدم ، وقبر يقع بقرب قرية سلالم في خيبر ، ويزعم فلبي — أو يرى — أنه آثار كنيس يهودي ، وتعليلات فلبي محل للشك ، بخلاف مشاهداته .

* قصر السموأل : هو مارد (وتقدم وصفه) .

* قصر الصفصافة : قصر في خيبر يقع في أعلى الوادي وهو قريب من عين تدعى بهذا الاسم ، وكان مقر موظفي الحكومة في عهد الأتراك ، على مـا ذكر فلبي ، وهو الآن خراب .

* القُصَيبة : بين المدينة وخيبر ، وهو وادٍ يزهو ، أسفل وادي الدوم ، وما قارب ذلك . وأول وادي الدوم من القبلة القصيبة[1] .

وأقول : وادي القصيبة يجزعه طريق خيبر إلى المدينة ، على مسافة ٣٩ كيلاً من خيبر ، أسفل وادي الصلصلة وأعلى وادي السُّرَير ، يفضي سيله إلى وادي الدَّوْم (وادي الغَرَس). وقال ابن سعد : القصيبة على ستة عشر ميلاً من خيبر [2] .

والقصيبة كما تقـــدم قرية في أعلى وادي السرير ، في واد يدعى وادي الغَرَس ، وهناك سد يدعى سد القصيبة ، وقصر البنت . (بقرب الدرجة ٢٠َ / ٢٩ْ طولاً و ٢٨َ / ٢٥ْ عرضا) .

---

(١) « معجم البلدان » .　　　(٢) « الطبقات » ٨ / ١٢١ .

ونقل السمهودي عن ابن شبة في ذكر صدقات عليّ قال : وله بناحية فدك بأعلى حرة الرجلا مال يقال له القصيبة . (وانظر الكلام عن فدك) .

* قِعَاسُ : جبل من ذي الرُّقيبة [1] . والرُّقيبة هو الجبل المعروف الآن باسم أمّ رقبة – تقدم – .

* قَعبة العلم : أرض واسعة ينزلها العرب في زمن الربيع ، وهي كثيرة النصي ، وليس بها ماء عذب وهي في قبلي بُسيطة ، والعلم جبل عال في غربيها منسوبة اليه ، وهو في طريق السالك من تبوك ، وفي قبيلها ماء عذب يقال له ثجر [2] .

* قُليِّب خضر : تصغير قَليب ، وخضر رجل معاصر ، وهي من أشهر مناهل وادي السرحان وماؤها عذب ، وفوقها مضخة ، وبجوارها بستان صغير ، وتقع مجاورة لطبرجل .

* القَليبة : قرية تقع في واد يدعى بهذا الاسم ، وتعرف قديماً باسم أقلِبة الخرازج ، وتبعد عن تبوك بـ ١٣٥ كيلاً وعن تيماء بـ ١٢٨ ووداديها من روافد وادي ثجر (فجر) بل هو أقوى روافده .

وقد شاهد فلبي – على ما ذكر في كتابه «أرض مدين» – خرائب قديمة تبعد عنها بما يقارب ميلين في الشمال الغربي منها في أرض منخفضة على الضفة الشمالية من واديها . وقال : إنه يعتقد أن بينها قبوراً سبئية ، ولكنه لم يجد فيها نقوشاً .

وتقدم ذكر القليبة (ص ٤٢٤) وتتبع إدارياً إمارة تبوك ويقدر عدد سكانها ٢٥٠ نسمة وتقام فيها الجمعة .

(وتقع بقرب الدرجة ٤٠َ/٣٧° طولاً و٢٨َ/٢٨° عرضاً) .

---

(١) « معجم البلدان » .   (٢) : « معجم البلدان » .

* قَوٌّ : أنشد الهجري لابن الدُّهي [١] :

خليليَّ سِيْرَا واجعلا هضْب وابشٍ   مَدى الطرف من أعضادِهنَّ المياسرِ
ومُرَّا على قَوٍّ ، فقيلا بِدوْمِهِ   ورُوحا إذا فاءتْ ظِلالُ الهواجر

قَوٌّ : وادٍ بين قوارة الجناب وبين صَمْد عُذْرَة .

فإنْ عسى أن تسلما وتَغْنَمَا   إذا قيل : تَرْعَى بالمُرَيْر الأباعِرُ

وقوٌّ هذا وادٍ عظيم يخترق الجهراء (الجِناب قديماً) ويقع جنوب تيماء يجزعه الطريق من خيبر إليهـا . ينحدر من المرتفعات الواقعة شمال خيبر (أطراف الحرَّة ، وما حولها) وينحدر مُتجهاً صوب الشمال تاركاً جبلي رواف وبرد يمينه حتى يفيض في المنخفضات الواقعة بين جبلي برد وغُنيم في شرق الجهراء (تقع أعالي الوادي فيما بين الدرجة ٠٠َ / ٣٩ْ و ٢٨َ / ٣٩ْ طولاً والدرجة ١٥َ / ٢٦ْ عرضاً ومفيضه بقرب الدرجة ٣٢َ / ٣٨ْ طولاً و١٥َ /٢٧ْ عرضاً) وقد وضع اسم هـذا الوادي (القاع) في كثير من المصورات الجغرافية خطأً .

ويلاحظ ان اسم قوٍّ يطلق على واد يقع شرق القصيم بقرب النباج (عيون ابن فهيد) فيما بينه وبين قُصَيبا .

(ك)

* كاف : احدى قُرَيَّات وادي السِّرْحان . وتنطق الكاف بين السين والكاف ، ولم أر لهذا الاسم ذكراً فيما بين يديَّ من المصادر ، وإن كان ياقوت قال : كاف حصن حصين بسواحل الشام ، قرب جِبْلة . وهو غير هذا — كما هو معروف — ومما تنبغي ملاحظته وجود أسماء مواضع في وادي السرحان وما حوله تتفق مع اسماء مواضع في الشام مثل النبك وقَرْقر .

وكانت قرية كاف قاعدة الوادي حتى سنة ١٣٥٧ (وتقدم ذكرها ص٣٤)

(١) « ابو علي الهجري » - ٣٨٣ -

وتقع في الشمال الشرقي من بلدة النبك - القاعدة الآن – والمسافة بينهما ١٨ كيلا .

وبقرب كاف من الجهة الغربية جبيل صغير يدعى الصّعيدي يبلغ ارتفاعه ٥٧٩ مترا ، وفي قمته آثار بناء قديم ، كأنه حصنٌ .

وفي سفح هذا الجبل قصر بني في ٢٣ رجب ٣٣٨ﻫ كما في حجر فوق بابه ، ولا يزال قائماً ، مسكونا من قبل خفر الطرق لوقوعه على الطريق المتصل بين طريق طريف وقريات الملح ، وقد استرحنا في داخل القصر قليلا بدعوة من سكانه ، وشاهدت في ساحة القصر بئراً كان يستعمل سجناً، عمقه يقارب ثمانية أمتار ، وفي أسفله تجاويف واسعة ، وأعلاه ضيق جداً ، وقد وضع فوقه باب من الخشب يقفل ويفتح عند الحاجة (وقد سبقت الاشارة إليه) . وهذا القصر من آثار سلطان بن شعلان .

(وتقع قرية كاف بقرب الدرجة ٢٨َ / ٣١ْ عرضاً و ٣٠َ / ٣٧ْ طولاً).

وزارت الرحالة الانجليزية آن بلانت هذه القرية في ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٧٩ (١٢٩٧ﻫ) فكتبت عنها : كاف قرية صغيرة لطيفة لها طابعها الخاص، متميزة تماماً عن أي شيء يراه المرء في سورية ، وكل شيء نموذج مصغر، الست عشر بيتاً المربعة الصغيرة، والأبراج الصغيرة ذات المشارف والأسوار بمشارفها بارتفاع ٧ أقدام – والسبعون أو الثمانون نخلة في بستان يروى من آبار، وبعض أشجار حسبتها في البداية سرو ، ثم اتضح لي أنها نوع من الأثل . ومع أنها محل صغير جداً، فإن (كاف) ذات منظر فريد مزهر ، فكل شيء هناك أنيق ، وفي إصلاح حسن ، ولن تجد شرفة واحدة مكسورة أو باباً خارجاً عن مفصلاته كما هي الحال بكل تأكيد في سورية . وهناك أيضاً عدد طيب من صغار النخيل غرست في وسط النخلات الأكبر سناً ، وشجيرات تين حديثة ، وكروم ، أشياء قل أن تجدها في الشمال .

والناس لطاف المنظر ، حسنو السلوك ، ولو أنهم في البداية أفزعونا قليلاً

بطوافهم، والسيوف في أيديهم. وهذه أما يحملونها منكسة على كلا الكتفين أو يقبضون على غمدها بكلتا اليدين ، أشبه كثيراً بما يشاهد المرء في الأشكال المنقوشة على الصخر لشهداء العصور الوسطى، أو في صور المجاهدين الصليبيين.

استقبلنا عبد الله القاسم شيخ القرية ، والذي اليه حملنا رسالة من حسين ، بأدب عظيم ، ونظفت غرفة في بيته من أجل استعمالنا . وككل الغرف الأخرى ، فتح بابها على الفناء ، الذي في وسطه ربط فلوٌّ عمره سنتان ، وكانت غرفتنا مخزناً للوقود ، كما كانت بدون أثاث من أي نوع ، ولكننا اغتبطنا أن نجدها بدون سكان أيضاً ، والهندسة المعمارية هنا بسيطة جداً ، مجرد جدران من الطين بلا شبابيك أو فتحات من أي نوع باستثناء ثقوب مربعة قليلة قريبة من السقف . وكان السقف من عمدان من الإثل بقواطع من النخل تملأ ما بينها فروع من النخل . وتسمى الغرفة الرئيسة « القهوة » أو غرفة القهوة، وفيها يوجد موقد مربع في الجانب أو من الوسط لصنع القهوة. ولا توجد مدخنة، ويخرج الدخان كما يستطيع، ولكن هذا ليس غير مريح كما قد يتبادر إلى الذهن ، لأن احتراق الحطب هنا له لهب لامع جميل ، ويعطي أقصى حرارة بأدنى قدر من الدخان . انه (الروثة) [1] أو (الغضا) (نوع من الاثل) ويجلس الناس حول الموقد ، بينما يجري صنع القهوة ، اجراءاً صامتاً يستغرق نصف ساعة تقريباً .

وبمجرد وصولنا ، أحضرت قصعة من التمر من محصول العام الماضي ، وهو لزج ومهروس ، ولكنه طيب ، وفي المساء تناولنا عشاءاً معتاداً مكوناً من البرغل ولحم الدجاج المسلوق . اننا مندهشون جداً من الأدب الذي عليه كل فرد . فعبد الله ، مضيفنا ، سألنا على الأقل عشرين مرة عن صحتنا قبل

---

(١) الروثة : من مراعي الابل المفضلة . ومما يتندر به على قبيلة الرولة ما ينسب إلى أحدهم ، أنه عندما سمع واعظاً يعظ ، ويصف الجنة التي أعدها الله للمتقين يوم القيامة ، وانها حوت ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، سأل الرويلي الواعظ قائلا : وهل فيها روثة ؟ !

أن ننتقل من شيء إلى آخر ، ولم يكن من السهل أن نجد ثناء مناسباً للرد .
وكل شيء بالطبع بائس وبسيط ، ولكن المرء لا يملك إلا أن يحس أنه بين
قوم متحضرين . وقد اكثروا من اللجب مع محمد الذي يعاملونه كشيخ .

و (تدمر) معروفة الاسم جيداً وتعتبر على هذه المسافة مدينة هامة .
ووجود انسان في مركزه يقوم بعمل شبه حقير كالذي يقوم به محمد معنا ،
يعتبر مفاجأة كبيرة ، ولهذا وضع موضع استجواب مهذب في المساء في ما
يتصل بالباعث وراء رحلته .

لم يشاهد (الفرنج) — قط في (كاف) من قبل ، هكذا يقول الناس ،
وهم لا يفهمون — الاحترام الذي يقابل به الأوربيون في أماكن أخرى . وعلى
أية حال ، فقد شرح لهم محمد « أخوّته مع البيك » ، واحتج أن رحلته هي
رحلة شرفية ، لا رحلة من أجل الربح ، حتى نعامل بنفس القدر من البشاشة
كما لو كنا عربا بالولادة . وكان عواد الشمري ذا فائدة عظيمة لنا ، من حيث
أنه معروف جيداً هنا ، فيقوم بدور التقديم .

و (كاف) مستقلة تمامـــاً عن السلطان ، ولو أن العساكر الترك نهبوها
مرتين ، مرة بقيادة ابراهيم باشا ، ومرة ثانية منذ بضع سنين فقط ، عندما
أرسلت حكومة دمشق حملة عسكرية إلى وادي السرحان . وشاهدنا خرائب
قلعة قصر الصعيدي ، على تل فوق البلدة ، هدمها السابقون (جنود ابراهيم
باشا) ، وسمعنا كثيراً من النواح حول أعمال الآخرين .

وسكان (كاف) يعترفون بأنفسهم رعايا لابن رشيد ، رئيس جبل شمر ،
وكان بعض قومه هنا منذ أيام قليلة فقط ، يأخذون الاتاوة ، وهي مبلغ
صغير جـــداً ، عشرون مجيدياً (٤ جنيهات استرلينية) ، وهم يدفعونها
بابتهاج مقابل حمايته لهم . وهم متحمسون جداً (للأمير) ، كما يسمونه ،
وحقاً ليس هناك من سبب حتى يرغبون في الانضمام إلى سورية .

إن مدينة (كاف) الصغيرة وجارتها (اثرة) حيث نحن الآن ، تجارياً ،

لهما من الاتصال بالشمال أكثر من الجنوب ، لأن ثروتها الأساسية — كما هي الحال — تنبع من تجارة الملح مع (بصرى) . ويبدو أن عبدالله القاسم ميسور الحال ، لأنه يملك عدة عبيد ، ولديه أكثر من زوجة واحدة . إلا أن الفلو الذي أشرت إليه هو كل ما يملك من ذوات الأربع ، كان سيأتي معنا — كما قال — لو كان له ذلول . ولاحظت بضع جمال وحمير وماعز حول القرية .

وكان مقبول الكريشة ، قد عاد ، ونحن نريد الآن أن نجد شرارياً ليأخذنا إلى الجوف . انتهى .

* الكِبْسُ : بكسر اوله ، واسكان ثانيه ، بعده سين مهملة ؛ موضع بتيماء ، قال أبو الذيّال اليهودي يبكي يهود تيماء :

لم تر عيني مِثلَ يوم رأيته ... بِرَعبَل ما أخضر الأراك وأثمرا
وأيامنا بالكبس قد كان طولها ... قصيراً وأيام بِرَعبل أقصرا [1]

* الكُتَيبُ : ماء يقع شرق تيماء بما يقارب الـ ٣٥ كيلا من مناهل البادية ، وفيه مركز [2] تابع لامارة تيما .

* كَرَانِيف : وادٍ يقع شرق وادي أبا الصُّبَّان ، يفيض في الحُليفة . شرق حرة خيبر .

* كُويكب : بين العُلا وتبوك ، في طريق القوافل .

النعف قرية في طريق الحِجْر بين العُلا وتبوك ، وبها مسجد أثريٌّ قديم ، يسمى مسجد كويكب ، وهو من المساجد الأثرية القديمة التي أُسست في عهد الرسول ﷺ وبهذا الموضع واد فسيح مررت به في رحلتي عام ١٣٦٠ — يدعى وادي كُويكب ، وهذا النعف يدعى نعف كويكب [3] .

---

(١) « معجم ما استعجم » .
(٢) يقصد بالمركز المكان فيه عدد من الجند (مخفر) يشرفون على الأمن .
(٣) « مدائن صالح » : ص ٢٩ - ٩١ .

(ل)

* اللُّجونُ : موضع في طريق مكة من الشام ، قرب تيماء ، وسماه الراعي لجَّان ، في قوله :

فقلت - والحرة الرجلاء دونهم - وبطن لجَّان ، لما اعتادني ذكري :
صلَّى على عزَّة الرحمن وابنتِها ليلى ، وصلى على جاراتها الأخَرِ

* اللِّحاوِية - بكسر اللام وفتح الحاء مخففة - : من قرى وادي السرحان ، في طبرجل ، بين العيساوية والنباج ، منسوبة إلى اللحاوي من شيوخ قبيلة الشرارات (انظر طبرجل) .

وهذه طرفة يحسن إيرادها على ذكر اللحاوي شيخ الشرارات : كان سالم العازمي في خيمة عودة أبي تايه شيخ التياها من الحويطات ، فهجم حامد الشراري على العازمي ، وأطلق عليه رصاصة ، ولكنها لم تصبه بأذى ، فسار أبو تايه إلى كاسب اللحاوي شيخ الشرارات ، ولما وصل إلى مكانه واجتمع به قال : بيّض وجهي يا كاسب . قال : خير إن شاء الله ؟! قال : ما في إلا الخير : حامد الشراري هجم على ضيفي سالم العازمي وأطلق عليه الرصاص . قال : أصلح الأمر يا شيخ عودة، خُذْ لك ولضيفك أربعين ناقة ، وفرساً وسيفاً . فانطلق أمير الحويطات مسرورا [1] .

* اللِّحْنُ (بكسر اللام وبالحاء وآخره نون) : واد يمتد بامتداد طريق خيبر ، من المدينة ، ويبعد عن المدينة مسافة تقرب من ٥٣ كيلاً [الكيل الـ ٦٢ من المدينة] ثم يمتد بما يقارب الـ٣٠ كيلاً جهة خيبر ، وذلك أعلى الوادي أما أسفله ، فيتجه مغرباً حتى يجتمع مع وادي الحمض ، الوادي العظيم الذي تجتمع فيه أودية المدينة ، وما بقربها . وأعلى وادي اللحن الشُّفَيّةُ ، بقرب الصلصلة ، وسكانه العراعرة من هُتيم . وفي وادي اللحن قرية بهذا الاسم سكانها يزيدون على ١٠٠ نسمة من هتيم .

---

(١) « صور من البطولة » تأليف سليمان موسى ، ص ٣٩ .

* لَظَى : منزل من بلاد جهينة ، في جهة خيبر [١] .
وروى مالك أن عمر بن الخطاب قال لرجل : ما اسمك ؟ قال : جمرة .
قال : ابنُ مَنْ ؟ قال : ابن شهاب . قال : ممن ؟ قال : من الحُرَقة .
قال : أين مسكنك ؟ قال : بحرّة النار . قال : بأيّها ؟ . قال :
بذات لَظى . فقال له عمر : أَدرك أهلك فقد احترقوا [٢] .

* لَفْلَفُ : جبل بين تيماءَ وجبل طيّءٍ ، وهو في شعر الهذلي ، قال:

وأعليت من طور الحجاز نجودَهُ إلى الغور، ما اجتاز الفقير ولفلف[٣]

* اللّقايط : قرية تقع شرق مدينة سكاكة بميل نحو الشمال، والمسافة بينهما
لا تزيد على الكيلين (٢ كيلومتر) تمتد مستطيلة من الغرب إلى الشرق ،
بامتداد حدائق نخيلها . وتقع بقرب الدرجة ١٥َ / ٤٠ْ طولاً شرقياً
و ٠٠َ / ٣٠ْ عرضاً شمالياً .

(م)

* المابية : (بكسر الباء وفتح الياء مخففة) من مناهل البادية في بطن
الوادي (وادي السرحان) في مفيض واد يعرف بالاسم أيضاً، ينحدر من حَرّة
وآكام وحزون تدعى المِسْمَى – بكسر الميم واسكان السين – وتقع المابية
في شرق الأمغر – بقربه – وفي الشمال الغربي من نقرة حَضَوْضَى .

* مارد : المعروف أن حصن مارد في دومة الجندل ، ولكن ابن حبيب
في كتاب « المنمق في أخبار قريش » [٤] – وهو يتحدث عن قتل سِنِمَّار
يقول : ويقال : بل هو بنى شنيف ومارد بتيماء ، فقتله عاديا اليهودي حين
فرغ منه . فإذا صح قول ابن حبيب هذا فقد يكون اسم مارد أُطلق على
حصنين أحدهما بدومة الجندل ، والثاني في تيماء ، ومن المعروف لُغَوِيّاً أن

---

(١) « معجم البلدان » .
(٢) « معجم ما استعجم » .
(٣) « معجم البلدان » .
(٤) ص : ٣٣٩ .

المارد هو المرتفع من الأبنية القوي ، وإذن فلا غرابة في أن يطلق الاسم على الموضعين وعلى غيرهما مما يتصف بصفة الارتفاع والعلو وقد تقدم وصف هذا الحصن (ص٣٩١).

* المِجَصَّةُ : يقارب عـــدد سكان هذه القرية ٢٠٠ نسمة من قبيلة هتيم تقع بقرب الحائط (شرق حرة خيبر) .

* المجَمْعة : من قرى خيبر ، عندها تجتمع مياه الوديان عند التقائهـــا بحدائق النخيل الكثيرة .

* المخاضة : تفضي إلى مسجد النبي ﷺ الأعظم – في خيبر – الذي صلى فيه أربعين يوماً أخبرني الحسني أن عيسى بن موسى بناه ، وأنفق عليه مالاً جليلا، يسمى المسجد المنزلة ، وله رحاب واسعة ، وهو على طاقات معقودة، وفيه تصلى الأعيــاد اليوم ، وفيه الصخرة صلى إليها النبي ﷺ ، وهو أول نطاة [1] .

* مِخْيَطُ : (وَادي مخيط) .

* مدَران : موضع في طريق تبوك من المدينة فيه مسجد للنبي ﷺ ، ويقال له ثنية مدران [2] .

وأقول : يوجـــد غربي تبوك – وادٍ يدعى المدرا ، ينحدر من الحرة مشرقاً حتى يجتمع بوادي الأثيلي ، الذي يبعد عن تبوك ١٥ كيلا تقريباً .

ويقول موزل : مسجد ثنية مدران هو جامع المدرا الحديثة الواقعة قريباً من قصير التمرة على نحو ٢٠ كيلا من تبوك [3].

* المذبح : اسم يطلق على جبـــل بقرب وادي (حُفيرة الأيدا) في الجنوب الشرقي منها بما يقارب ١٠ أكيال بقرب الطريق بين خيبر وتيماء ، شرق الطريق وقد وجـــد فلبي في تلك الصخور كتابات ثمودية ، قال بأن

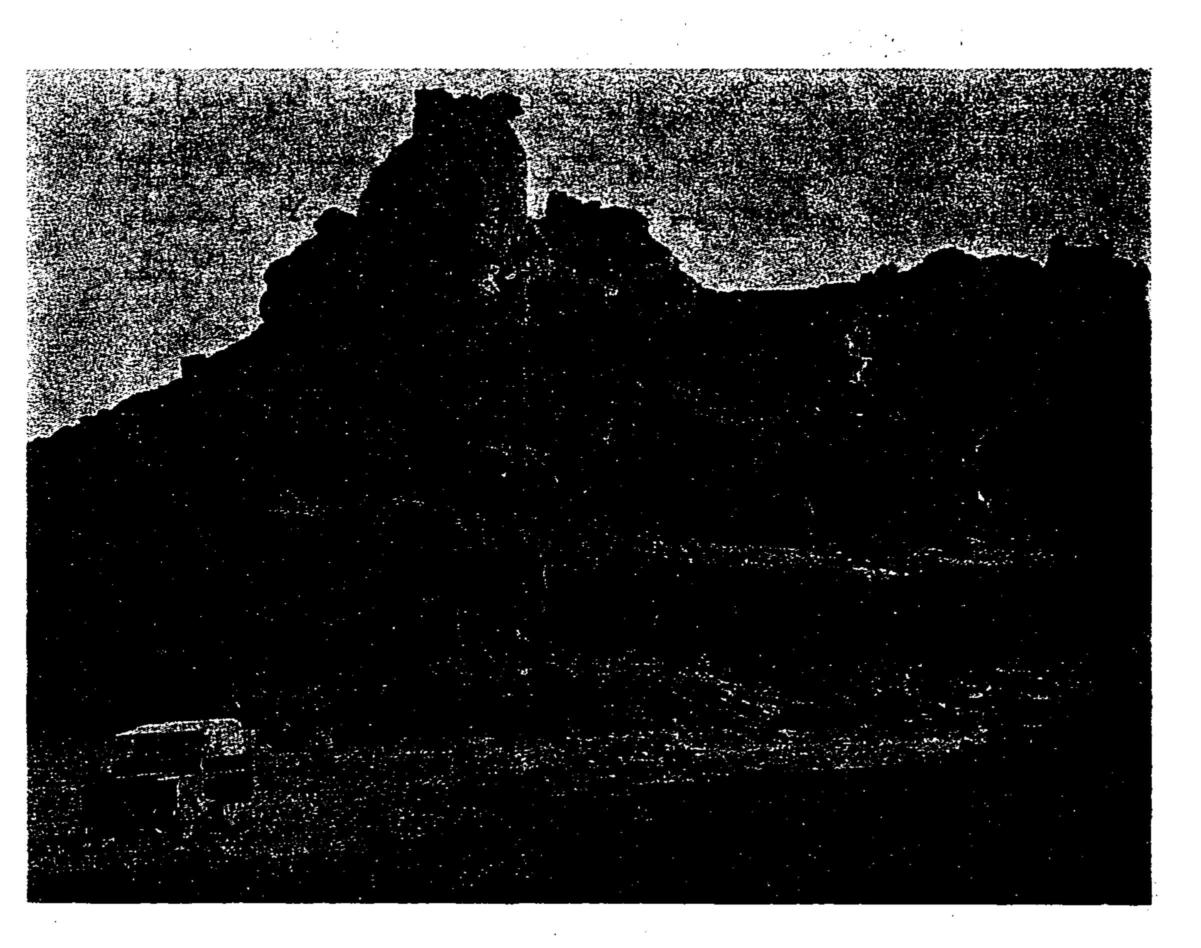
---

(١) « المناسك » – ٥٤٠ – (٢) « معجم البلدان » .
(٣) « شمال الحجاز » ١٤٥ .

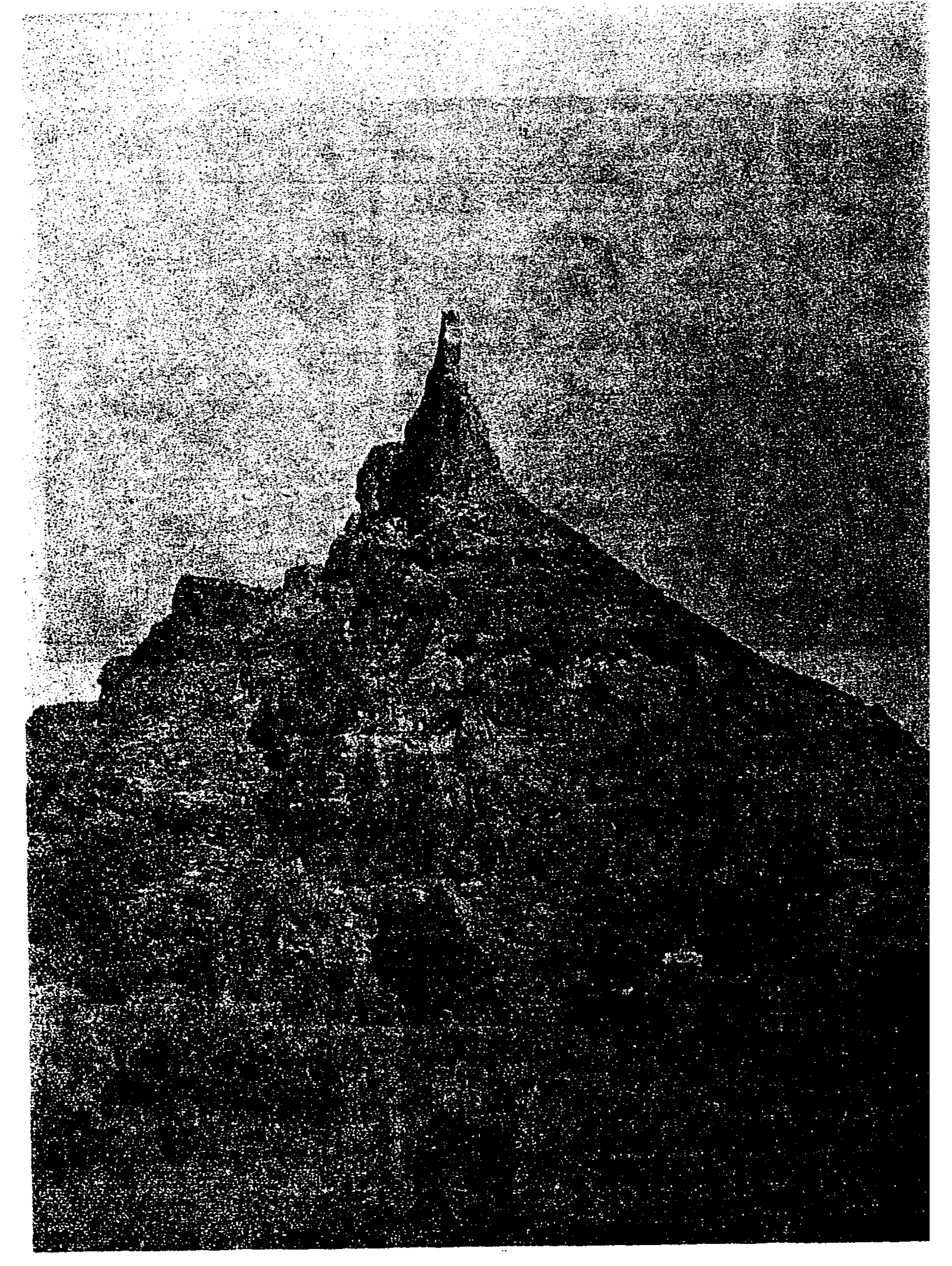
الدكتور فان دن براندن Van Den Branden الموجود في خريصا في لبنان درسها دراسة مستفيضة وطبع دراسته في كتاب سنة ١٩٥٦ م — ويعتقد فلبي أن تلك الصخور كانت في القديم محلاً لذبح القرابين للآلهة .

وذكر فلبي أن أحمد فخري (الذي توفي سنة ١٩٥٤) زار المذبح مع بعثة أمريكية فنقل نقوش المذبح .

(ويقع المذبح بقرب الدرجة ١٠َ / ٢٨ْ طولاً و ٢٥َ / ٢٦ْ عرضاً) .



معبد المذبح



جبل المــــذبح



بقرب معبـــد المذبح

* مراغان : بلدة يبلغ عدد سكانها ٥٠٠ نسمة .

وتقع في وادي الرمة شرقي الحليفة وسكانها من هتيم .

* مَرْحَب: طريق بين المدينة وخيبر، ذكر في المغازي ، قال الراوي: إن الدليل انتهى برسول الله ﷺ الى موضع له طريق إلى خيبر ، فقال : يا رسول الله إن لها طرقاً تؤتى منها كلها فقال ﷺ : سَمها لي . وكان يحب الفأل والاسم الحسن، ويكره الطّيرة والاسم القبيح. فقال الدليل: لها طريق يقال لها حَزْن . قال : لا نسلكها . قال : لهـــا طريق يقال له شاس قال لا نسلكها . قال : فلها طريق يقال له حاطب . قال لا نسلكها . قال بعض رفقائهم : ما رأيت كالليلة اسماً أقبح من أسماء سميت لرسول الله ﷺ قال : لها طريق واحدة ولم يبق غيرها يقال لها مرحب قال ﷺ : « نعم أسلكها » . فقال عمر (ض) : ألا سميت هذه الطريق أول مرة ؟ .

* مرَخ : ذو مرخ هو واد بين الوابشية[1] وفدك ، خضرٌ نضرٌ ، كثير الشجر ، قال فيه الحطيئة – رواية بعضهم – :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ ... زُغب الحواصل لا ماء ولا شجر

وأظن الوادي قرب فدك هو ذو مرخ بسكون الراء .

* مَردان (أورد ياقوت ما ذكر في مدران) .

* المرْطة : سوق خيبر اليوم المرطة ، وكان عثمان مَصرها . كذا جاء في كتاب « المناسك[2] » المؤلف في القرن الثالث الهجري .

المُرُوت (جمع مرت بضم الميم والراء المخففة بعدها واو فتاء) : جو فيه منهل يقع غرب الشّقيق (منهل في النفود) ويبعد عنه بما يقارب ١٠ أكيال ، ويقع شرق آكام مرتفعة منها برقاء داغش ، والبوليات ، وراف . (الدرجة ٥٨/٣٩° طولاً شرقيا و ٢٠/٢٩° عرضا شماليا)

* المُرَيرُ : يطلق على ماء لبني سلَيْم في عالية نجد ، وماء لقُشَيْر في وسط نجد ، وهذان بعيدان عن هذا الموضع ، وذكر الهجري موضعا آخر فقد قال في شرح بيت لابن الدهيّ :

فإنّ عَسَى أن تَسْلَمَا وتَغَنَّما ... إذا قيل تَرْعَى بالمُرَيْر الأباعِرُ

المُرير : ما بين تَيْما وما بين حَدَد وهو جبل تَيْما .

ولكن هـــذا يقع شرقي جبل حَدَد (المعروف الآن باسم غُنَيم) بميل نحو الشمال ، شرق ما يعرف باسم منطر عطيّة . الواقع شرق تيماء ، بقربها ويعرف باسم (المريراء) [3] .

* المُرَير : (منهل للبادية من الرولة) فيه مركز حكومي يقع على بعد

---

(١) لم يذكرها في موضعها .

(٢) : « المناسك » – ٥٣٩ – و « معجم ما استعجم » .

(٣) « ابو علي الهجري » – ٣٦٨ –

٣٥ كيلا شمال غرب سكاكة ويقـــع في الطرف الغربي من جبال قيالات ، (الدرجة ٥٨َ / ٣٩ْ طولاً شرقياً و ٢َ / ٣٠ْ عرضاً شمالياً) .

* المُرَير : واد يقـــع قبلي الحُـوَيِّط ، في الجنوب الغربي من الحليفة ، وهو في طرف حرَّة خيبر ، وسكانه المُهَيْمزات (المهامزة) من هُتَيم وكان هجرة وقدر الريحاني عدد سكانه قبل خمسين سنة بـ ٤٠٠ نسمة [١] ، غير أن أكثر سكان الهجر هَجَروها .

* المِسْمَى : سلسلة من الجبـال تقع شرقي المابية ، بميل نحو الشمال ، في شمال وادي السرحان ، تمتـــد من الشرقي إلى الغرب ، وتصب سيولها في حضوضى – شمال المعاصر –

وهناك جبال في غربي متالع – الواقع غربي أجأ في بلاد الجبلين جنوب النفود الكبير (رمل عالج ، ورمل بحتر قديماً) غير هذه .

* المستناخ : في « طبقات ابن سعد »[٢] في خبر إغارة عيينة بن حصن الفزاري على لقاح الرسول ﷺ وكانت بالغابة ، وأن سلمة بن الأكوع أدرك القوم على رجليه – قال :(حتى انتهى بهم إلى ذي قَرَد ، وهي ناحية خيبر مما يلي المستناخ) – كذا جاء في الطبقات – ولم أر من حدَّد هذا الموضع ، أما ذو قرد فقالوا بأنه على ليلتين من المدينة بينها وبين خيبر [٣] . وليس من المعقول أن سلمة بن الأكوع – وهو يسير على رجليه – يستطيع أن يقطع مسافة أكـثر من هـذا .

* مسجد الرسول ﷺ في خيبر : أُريت في خيبر مسجداً قالوا إنـه هو المسجد النبوي ، غير أنني لاحظت بعده عن الموقع الذي يغلب على الظن أن الرسول ﷺ نزل فيه ، ذلك أنه عليه الصلاة والسلام أتى إلى خيبر من الناحية الشرقية الشمالية ، لكي يقطع إمـدادات قبيلة غطفان من مساعدة

---

(١) « تاريخ نجد » . (٢) ج ٢ / ٨١ .
(٣) « معجم البلدان » .

حلفائهم من اليهود ، والقبور التي قيل لنا إنها قبور الشهداء بعيدة عن المسجد الذي زرناه .

إن هذا المسجد يقع في سفح الحصن المدعو الآن بحصن مَرْحَب مقر الامارة إلى عهد قريب ، وهو يبعد عن المكان الذي أرى أنه الموضع الذي نزل فيه الرسول ﷺ بما يقارب ثلاثة أكيال .

ويظهر أن هناك مساجد صلى فيها الرسول ﷺ بخيبر ، كما يظهر من كلام المتقدمين (وانظر لذلك : سمـــران - الصهباء - قرقرة - القموص - المخاضة - المنزلة) .

* مُشاش العَوْد : بقرب العَسَّافية وهو مشاش هاضل ومشاش القراوعة تسمى الأمِشَّة متجاورة . والمشاش هو البئر القليلة الماء .

* مُشاش القَراوعة : منهل منسوب إلى فخذ من الشرارات بهذا الاسم بقرب العسافية .

* مشاش هاضل : هو مشاش منسوب إلى أول من حفر بئره من قبيلة الشرارات من الفليحان شيخهم اللحاوي ، يقع بقرب العسافية .

* المُشْرِقَةُ : من قرى خيبر .

* المشقَّقُ : قال ابن اسحاق - في غزوة تبوك - وكان في الطريق ماء يخرج من وشل،ما يروي الراكب والراكبين والثلاثة،بواد يقال له المشقق فقال رسول الله ﷺ : « من سبقنا إلى هذا الماء فلا يستقين منه شيئاً حتى نأتيه». فسبقه إليه نفر من المنافقين فاستقوا ما فيه ، فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه فلم يرَ فيه شيئاً . فقال : « من سبقنا إلى هذا الماء ؟ » فقيل له : يا رسول الله فلان وفلان فقال :«أو لم أنههم أن يستقوا منه شيئاً حتى آتيهم؟». ثم لعنهم رسول الله ﷺ ودعا عليهم . ثم نزل فوضع يده تحت الوشل،فجعل يصبُّ في يده ما شاء الله أن يصبّ ، ثم نضحه به ، ومسحه بيده ، ودعا رسول الله بما شاء أن يدعو به،فانخرق من الماء - كما يقول من سمعه - ما إن له

حسّاً كخسّ الصواعق ، فشرب الناس ، واستقوا حاجتهم . فقال رسول الله ﷺ : لئن بقيتم ، أو من بقي منكم – لتسمعنّ بهذا الوادي وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه [1] ».

وسماه الواقدي : وادي الناقة – فيما نقل السمهودي قائلاً: وأقبل رسول الله ﷺ قافلا حتى إذا كان بين تبوك وواد يقال له وادي الناقة ، وكان به وشـــل [2] .

* – المُصع – بضم الميم وفتح الصاد – قرية تقع شرقي حرة ضرغد ، وسكانها من قبيلة عنزة ، يقاربون ٦٠٠ نسمة .

مُطرِق – بضم الميم وسكون الطاء وكسر الراء بعدها قاف – واد فيه ماء يبقى مدة طويلة (غدير) ويقع غرب الشّملي في وسط حرة خيبر .

وتقدم قول ياقوت: أُدماء:موضعبين خيبر وديار طيء وثَم غدير مطرق.

* المعاصر : قرية تقع في الطرف الشرقي الجنوبي من نقرة حضوضى ، في جوف وادي السرحان وتقع بقرب الدرجة ٢٠/٣٨° طولاً شرقياً و ٤٥/٣٠° عرضاً شمالياً .

* مُغيراء (بضم المـــيم) تصغير مغراء : منهل يقع شرقي سكاكة ، وهو غير مغيراء الهُوج هذا في الطرف الجنوبي من جبال الجوبة الشرقي . بشمال خوعاء بقربها (الدرجة ٢٩َ / ٤٠° طولاً و ٥٥َ / ٢٩° عرضاً) .

* مُغيراء : قرية تقع جنوب العيساوية ، بمسافة تقرب من عشرة أكيال ، على ضفة وادي السرحان الغربية ، بقرب الدرجة ٥َ / ٣٨° طولاً شرقياً ٤٠َ/٣٠° عرض شمالي وهذه غير مغيراء الهوج .

* مُغيراء: منهل يقع في الجنوب الشرقي من الطُّبيق. ويعرف باسم مغيراء

---

(١) « معجم البلدان » و « البداية والنهاية » ج ٥ / ١٨ .
(٢) « وفاء الوفاء » – ص ١٣٠٨ – .

الهوج ، ويمر به الطريق المتجه من ثجر إلى الشمال (بقرب الدرجة ١٧َ/٢٩ْ طولاً و٣٨َ/٣٧ْ عرضاً شمالياً .

* المَقْرُوبا : روضة بجرة النار ، بين يَدِيع وخيبر [١] . وأقول : يَدِيع هو ما يعرف الآن باسم الحويّط وسيأتي ذكره في موضعه .

* مَكْوة (وتسمى طيّبة اسم) بئر ضيقه جداً في حافة حضوضى من الجنوب الشرقي ، شرق العيساوية ، وهناك طريق يخترق الطرف الجنوبي من حَضَوْضى ، يتصل بها ، وهي خارج حَضَوْضى ، جنوب المعاصر بما يقرب من سبعة أكيال .

وكثيراً ما يحاول العرب تغيير اسماء مناهلهم ومواضعهم إذا كانت قبيحة. فبقعاء – قرية بقرب حايل – تدعى طيبة اسم ، وِسلْح المنهل الواقع غرب الدهناء ، في جهة الرياض يدعى طيب اسم ، وفي بلاد شهران قرية تدعى (كسيسان) يسمونها طيب اسم،وفي بلاد رنية وغيرها أسماء كثيرة مستهجنة يطلق عليها : طيب اسم أو طيبة اسم .

* مُلَيْح : منهل في الهُوج ، يقع بين آكام تدعى قُور مُلَيْح ، في الجنوب الشرقي من منهل ثجر (بئر فجر) الدرجة ٢٧َ / ٣٨ْ طولاً و ٣َ / ٢٩ْ عرضاً) .

* مَكِيدة : بفتح الميم وكسر الكاف بعدها يا مثناة تحتية فدال فهاء : هي البلدة الثانية في خيبر من حيث الكبر وموقعها جميل مطل على الوادي ، ويقارب عدد سكانها ٦٠٠ نسمة ، فيها مدرسة ابتدائية يبلغ طلابها ١٢٩ فيها ستة فصول (أُضيف اليها ما حولها من القرى) ، وكثير من نخيل هذه القرية لولْد علي من عنزة .

* المنزلة:من محلات خيبر،وسيأتي ذكرها في (نطاة) قال السمهودي ـ في بيان مساجد رسول الله ﷺ في خيبر ـ قال الآقشهري:ومن خطه نقلت : وبنى له

---

(١) « ابو علي الهجري » - ٣٦٩ -

ﷺ ، مسجد بالحجارة حين انتهى إلى موضع بقرب خيبر يقال له المَنْزلة ، عرس (بها) ساعة من الليل فصلى فيها نافلة ، فعادت راحلته تجر زمامها ، فأدْرِكت لِتُرَدّ فقال : « دعوها فإنها مأمورة » . فلما انتهت إلى موضع الصخرة بركت عندها ، فتحول رسول الله (ص) إلى الصخرة ، وتحول الناس اليها ، وابتنى هنالك مسجداً فهو مسجدهم اليوم [1] .

* مِنْوَة : قرية من قرى وادي السرحان تقع شرق بلدة النبك القاعدة بميل نحو الجنوب ، والمسافة بينهما ٣٠ كيلاً بقرب الدرجة ٢٧َ / ٣١ْ عرضاً شمالياً و ٢َ /٣٧ْ طولاً شرقياً (وتقدم الكلام عليها).

ولم أر فيما لدي من الكتب ذكراً لهذه القرية ، وأهلها ينطقونها بكسر الميم ، ويقول شاعرهم – على ما أفادني عبدالله الطويري – :

لا واهِني منْ وَرَدْ مِنوَهْ منْ ماهَا يَاخِذْ قرَاطيعِ
يا شَوقْ ، وِان زلّتَ الِحرْوَهْ هذي حَلاةَ المنافِيعِ

وهناك قمة شامخة من قمم جبال حِسْمَى يشاهدها المسافر إلى حقل من تبوك وهو في وادي أُريط ، تسمى مَنوة .

* المُولَة : – بالضم ثم السكون واللام – اسم عين تبوك ، عن أبي سعد ، وأنشد :

مَلْءٌ من الماءِ ، كعين المُوله [2]

* مُوَيْسن : بين الجوف وسكاكة على غير الطريق المعبد ، شماله ، فيه قصر ، ومنهل للبادية – (كتب في الخارطة مويسم : خطأ) ويقع بقرب الدرجة ٠٠َ / ٤٠ْ طولاً و ٥٥َ / ٢٩ْ عرضاً .

* المَيْسِرِي : منهل يقع جنوب طَبَرْجل بقربها، يدعه طريق الجوف من القريّات يساره على مقربة منه . وهذا يقرن بالنّباج .

---

(١) « وفاء الوفاء » ص ١٠٢٨ .
(٢) « معجم البلدان » .

* ميثب : عده البكري من خيبر كما تقدم في الشظاة ، وأوضحنا هناك أن ميثب تصحيف تيأب .

* مَيْقُوع : يقع شمال دومة الجندل بـ ٧٥ كيلاً في طرف وادي السرحان، منهل للبادية ، وفيه مركز تابع لامارة الجوف .

وعلى ميقوع وقعت وقعة بين بني صخر بقيادة الشيخ طراد بن زبن وبين خلف الأذن من آل شعلان من الروله ، فكانت الهزيمة على بني صخر ، فقال خلف وهو شاعر قصيدة فيها وصف تلك المعركة أولها [١] :

الله يا كونٍ جرى عند ميقوع كون ينشر به غيارات واقماش

(ن)

* الناصفة : قرية تقع جوار العُظيمات جنوبها بميل نحو الغرب ، وسكانها يقاربون ٣٠٠ نسمة: وفيها مدرسة يجتمع فيها أطفالها وأطفال القرى المجاورة العظيمات وجماجم والبدع . وعندما مررت بها رأيت فيها من التلاميذ ما يقرب من ٣٠ تلميذاً إلا أن مديرها قال : إنهم يبلغون ٦٠ تلميذاً .

* النِبَاج (بكسر النون بعدها باء مفتوحة فألف فجيمٌ) : يطلق هذا الاسم على ثلاثة مناهل في الجزيرة ، كلها معروفة بكثرة الماء ، ومن هنا يصح القول بأن أقرب معنى للنباج يتبادر إلى الذهن هو الاشتقاق من كلمة نبَج – بمعنى نبع ونبغ – ولا يزال العامة يستعملون كلمة : ينبّج الماء أي يسيل من عدة منابع ضيقة . أما تعليل الأصمعي بأن النباج سميت لكثرة أهلها وكثرة الأصوات ، يقال : رجل نبَّاج إذا كان كثير الكلام ، فهو تعليل غريب .

---

(١) «أبطال من الصحراء» ص ٢٥٨ .

والمناهل التي تدعى بهذا الاسم هي :

١ – نِباج ابن عـــامر[١] ، وهو عبد الله بن عامر بن كُرَيز الصحابي القرشي الجليل ، نسب إليه لأنه شقق فيه عيوناً ، وغرس نخلاً ، وفيه يقول أحد الأعراب :

ألا حبَّذا ريح الألاءِ إذا سرتْ به بعد تَهْتانٍ ريــاحٌ جنائبُ
أهم ببغض الرمـــل ثَـمَّةَ إنـّني إلى الله من أن أبغض الرمل تائبُ
وإني لمقدور لي الشوق كلـــما بدا لي من نخل النباج العصائبُ[٢]

وهذا النباج يقع في غرب رمال الدهناء ، متصل بها ، وهو قاع تجتمع فيه سيول أودية كثيرة ، فيحجزها الرمل ، وهناك قرى مياهها عيون أشهرها عين ابن فهيد نسبة لساكنها الآن، والتنومة والجعلة والبرود وحنيظل وأبا الدود ، وعين الطرفية ، وغيرها . وهذا النباج هو أشهر النباجات المعروفة وأكثرها ذكراً في كتب المتقدمين ، لوقوعه في طريق الحـج من البصرة ، وما مرَّ بها ، إلى مكة ، وقد حدد المسافات بينه وبين ما بقربه من المناهل صاحب كتاب « المناسك » . وعَدَّد ما فيه من القرى صاحب كتاب « بلاد العرب » .

ويعرف النباج هذا الآن باسم الأسياح – جمع سَيْح – ويمتد في ضفاف نفود الدهناء من الغرب ، شرق القصيم ، من الجنوب إلى الشمال (أي من الدرجـــة ٠٠ / ٤٤° إلى ١٥َ / ٤٤° الدرجة الطولية ومن ٣٠َ / ٢٦° إلى ٢٠َ / ٢٧° الدرجة العرضية تقريباً) .

٢ – ولبني مالك (بن سعد بن زيد مناة بن تميم) من ناحية طويلـــع قريتان يقال لهما النباج وثيتل[٣] واللهابة قريبة من طويلع .

---

(١) انظر « بلاد العرب » و « المناسك وأماكن طرق الحج »
(٢) « معجم البلدان » .
(٣) : « بلاد العرب » ص ٢٤٨ / ٢٥٢ / ٢٩٧ / ٣١٥ / ٣١٧ / ٣٥٥ .

فإذا جزت طويلعاً وأنت تريد البصرة، وقعت في بلد يسمى الشيِّطَين ، وبها كانت وقعة الشيطين لبني بكر بن وائل على تميم ، وهو مرعى لأهل طويلع ، ثم تأتي الوريعة ، وبين الوريعة وطويلع ليلة والقرعاء واللهابة ولصاف وطويلع وما حولهن يسَمِّين الشاجنة، وهي دون الصمان في اسافله[1] .

وهذا النباح يعرف بنباج بني سعد ، بالقريتين وقد درس اسم طويلع واسم النباج الذي بقربه وتكاد تنطبق كل الأوصاف المتقدمة على أنه كان بقرب القريتين قرية العليا وقرية السفلى ، الواقعتين في الجنوب الشرقي من الوريعة التي لا تزال معروفة ، كما أن الشيِّطين لا يزالان معروفين ، ويدعيان الشَّيط العطشان ، وهو الشمالي ، والشيط الريان وهو الغربي ، ويمتدان غرباً إلى اللصافة (لصاف قديماً) والقرعاء واللهابة ، منهلان يقعان جنوب اللصافة بقربها .

إن موقع النباج نباج بني سعد — حسبما يفهم من كلام المتقدمين يقع بقرب القريتين (أي بقرب الدرجة الطولية ٤٥َ / ٤٧ْ والدرجة العرضية ٣٠َ/٢٧ْ)

٣ — النّباج : قرية تقع جنوب الميسري ، في طرف وادي السرحان الجنوبي الغربي عن الطريق ، تفيض فيها الشعاب التي تنحدر من البسيطة[2] (كتبت في الخريطة البسيطاء خطأ) والنباج مشهور بكثرة مائه هو والميسري وهي معروفة بكثرة الماء . قال ناصر الكليبة الشراري :

يا عين ماكنك على شط زافور   دمعك غريف الميسري والنباج

ويقع النباج هذا بقرب الدرجة ٢٨َ / ٣٨ْ طولا ، و ٢٩َ / ٣٠ْ عرضاً) غرب منهل شيبة (كتبت في الخريطة شائبة خطأ) وفي الجنوب الشرقي من منهل الميسري وهو قريب من المنهلين .

---

(١) « بلاد العرب » .

(٢) البسيطة وردت في شعر المتنبي وغيره من المتقدمين . وهي أرض واسعة تقع غرب وادي السرحان ، يفصل بينها وبينه القصائم ، (الدرجة : ٠٠/ ٣٨ إلى ٣٠ / ٣٨ طولا ومن ٤٠ / ٢٩ الى ١٥ / ٣٠ عرضاً تقريباً) وتقدم وصفها .

* النَّبكُ : يطلق هذا الاسم على مواضع في الجزيرة وغيرها ، — وهو بفتح النون واسكان الباء بعدها كاف ، ويظهر أنه من الأسماء القديمة التي جهل أصلها وإن كانت اللغة تعني بكلمة النبكة – بفتحات ثلاث – روابي الرمال في الجرعاء اللينة ، أو ما ارتفع من وجه الأرض ، جمعها نباك .

ومن أشهر المواضع التي تسمى النبك .

١ – قال الهمداني : حَدُّ دار جذام بالنبك على شاطىء البحر ثم عينونا من خلفها [١] . وقال ياقوت :

١ – بحر القلزُم : الشرقي منه أرض الحوراء ، وطنه (؟) فالنبك وأرض مدين ، وأرض أيلة [٢].

٢ – النبك : قرية مليحة بذات الذخاير بين حمص ودمشق ، فيها عين عجيبة ، باردة في الصيف ، صافية طيبة عذبة ، يقولون مخرجها من يبرود . وقال الراجز :

أنى بك اليوم ، وأني منك ركباً أناخوا موهناً بالنَّبك

ولا أدري أراد هذا الموضع أم غيره [٣] .

فأما النَّبكُ التي بساحل البحر فيظهر أنها بين ضباً (ضبة) والمُويلح ، فالمتقدمون عندما يذكرون الطريق من العقبة (أيلة) يقولون : من أيلة إلى شرف البعل (النمل) مرحلة ثم إلى الصّلا ، ثم إلى النبك ، ثم إلى ضبة [٤].

أما صاحب كتاب « المناسك [٥] » فيقول : طريق الساحل : من أيلة إلى عينونا ، ومن عينونا إلى المُصَلَّى ، ومن المصلى إلى النبك ، ومن النبك إلى ضبة . ا هـ .

---

(١) « صفة جزيرة العرب » ١٣٠ –
(٢) « معجم البلدان » – ج ٤ / ٥٤٨ . (٣) ص ٧٣٩ .
(٤) « أحسن التقاسيم » – ١١٠ – (٥) ص – ٦٥١ –

وعينونا لا تزال معروفة بالقرب من مغاير شعيب (بقرب الدرجة ٥َ / ٢٨ْ طولاً و ١٠َ / ٣٥ْ عرضاً تقريباً) وهي عين ضعيفة فيها نخل .

والمُصَلَّى يرى موزل أنه المويلح ، ولكن صاحب « درر الفرائد » يقول : المويلح يسمى عند أهل الدرك النبك . ويقول موزل : النبك يجب ان يكون موضعها قريباً من شعيب الشعف[1]. ويفهم من كلام صاحب الدرر أن المصلى يعرف بالشويكة آخر الشرمة . ومما تقدم من كلام صاحب « درر الفرائد » يتضح أن النبك هو المويلح الآن .

وفي طرفي وادي السرحان ، أعلاه وأسفله قريتان بهذا الاسم . ويقولون في تحديد هذا الوادي (انظر وادي السرحان) أوله النبك ، وآخره النبك ، فالأولى هي قاعدة المنطقة الآن ، أول من جعلها قاعدة الأمير عبد العزيز السديري – رحمه الله – وكانت القاعدة في اول إمارته (كاف) إلا أنه رأى عدم قابليتها للتطور لوقوعها بين مرتفع صخري (تلّ) وبين منخفض تكثر فيه المستنقعات ، فنقل القاعدة إلى النبك ، وكانت صغيرة تحوي مباني من الطين قليلة ، يسكنها أناس من الدروز ، وبقرب تلك المباني بئر عذبة الماء تدعى الجوخة ، كثيراً ما تردها البادية من بني صخر والحويطات وغيرهم. فأنشأ الأمير عبد العزيز السديري بها قصراً جعله مقرّاً للامارة وللمالية ، وللاسلكي ، بني بالطين ، على طراز القصور المعروفة قديماً في مدينة الرياض، وبني بقربه المسجد الذي هو الآن جامع البلدة ، بني بالحجر والاسمنت ، وبقربه مدرسة حسنة البناء . أما القصر فقد تهدم الآن .

وتبعد النبك عن قرية الحَدِيثة الواقعة بقرب الحدود الأردنية بـ٢٤ كيلا.

ويتفرع من النبك طرق للسيارات ولكنها غير معبدة من أهمها :

١ – طريق يتجه جنوباً إلى الجوف والمسافة تقارب الـ ٣٦٠ كيلاً .

---

(١) « شمال الحجاز » - ٢٨ -

٢ – طريق يتجه نحو الشمال الشرقي إلى طريف (خط الأنابيب) وطوله ١٦٥ كيلاً تقريباً .

٣– طريق يتجه إلى تبوك، ويسير محاذياً لخط الحدود بين المملكة والأردن ويقارب الـ ٤٥٠ كيلاً أما إلى الأردن عن طريق العيساوية فيبلغ ٦١٦ كيلا (٤٠٠ إلى الاسفلت ثم منه إلى تبوك ١١٦ مفرق تبوك) .

وتعرف النبك قديماً باسم (النبك أبو نخلة) للتفريق بينها وبين (النبك أبو قصر) وتقع بلدة بقرب الدرجة ٢٠َ /٣٧ْ طولاً و ٢٠َ/٣١ْ عرضاً .

* النَّبكُ أبو قَصْر : يسمى بهذا للتفريق بينه وبين النبك أبو نخلة قاعدة المنطقة الآن . ويقع أسفل وادي السرحان ، ويبعد عن سكاكة ١٧٠ كيلاً (بقرب الدرجة ١٨َ / ٣٠ْ عرضاً و ٤٠َ / ٣٨ْ طولاً) .

* النَّبَوَان : وينطق (نـبْوان) قرية تقع في سفح الحرة (حرةضرغد) الجنوبي الشرقي ، وعدّها الريحاني من هُجَر هُتيم وقدر عدد سكانها بـ ١٥٠٠ إلا أن سكان الهجر قلُّوا ، ولهذا يقارب عدد سكان هذه القرية ٨٠٠ وفيها مدرسة طلابها ٢٥ .

* نَحَا : بفتح النون والحاء المهملة ، وتدعى قُرَّية نَحَا أيضاً قرية صغيرة من قرى خيبر ، في أسفل وادي الشِّق .

* نَطَاةُ : علم مرتجل فيما أحسب – قيل هو اسم لأرض خيبر ، وقال الزمخشري : نطاة حصن بخيبر ، وقيل عَيْنٌ بها ، تسقي بعض نخيل قراها وهي وبيئة . وقال أبو منصور : قال الليث : النطاة حُمَّى تأخذ أهل خيبر، قال : غلط الليث في تفسير النطاة . ونطاة عين ماء بقرية من قرى خيبر ، تسقى نخيلها وهي – فيما زعموا – وبيئة ، وقد ذكرها الشاعر يصف محموماً فقال :

كأنَّ نطاة خَيْبَرَ دَوَّأتهُ بَكُورَ الوِرْدِ ، رَيِّثَةَ القلوع

فظن الليث انها اسم للحمَّى ، وهي عين بها .

وقال كثيّر : – يصف ظعُناً –

رُفِعَتْ لي بِحَزم فَيْدَةَ تُحْدى كاليهوديّ من نطاة الرّقال [1]

وقال البكري نَطَاةُ : وادٍ بخيبر . قال الشماخ :

ألا تلك ابنة البكريّ قالت : اراك اليوم جِسْمُكَ كالوَجيع

كأن نطـــاةَ خيْبَر زوّدَتْهُ بَكُورَ الورد ، رَيِّثَةَ القُلوع

قال أبو عبيد : لما أفاء الله خيبر ، قسمها رسول الله ﷺ على ستة وثلاثين سهماً ، عزل نِصْفها لِنَوائِبهِ ، وما ينزل به ، وقسم النصف الباقي بين المسلمين ، وسهم النبي ﷺ فيها : قِسْمُ النّطاة والشّق وما حِيزَ معها ، وكان فيما وقف : الكتيبة والوَطيحُ ، وسُلالِمُ [2] .

وفي « المناسك » : نطاة واد وفي نطاة حصن مرحب وقصره . وقع في سهم الزبير بن العوّام ، والعين العظمى بالنطاة تسمى اللحيحة [3] .

وأول دار فتحت بخيبر دار بني قمة بنطاة ، وهي منزل الياسر أخي مرحب ، وهي التي قالت فيها عائشة : ما شبع رسول الله ﷺ من خبز الشعير والتمر ، حتى فُتِحتْ دارُ بني قمّة [4] .

وأقول: النطاة – لا تزال معروفة – قرية صغيرة فيها نخيل في المنخفض من الوادي ، تقع في الشمال الشرقي من قرية بِشْر (الشُرَيف) بقرب (أبو وشيع) ويقارب عدد سكانها ١٥٠ نسمة (وتقدم ذكر النطاة في حصون خيبر) .

* نُمَار : تخرج من المدينة على الغابة العليا ، ثم الغابة السفلى ، ثم تسلك وادياً يقال له رحْب ، ثم ترقى في نقب يردوح وفيه مسجد لرسول الله ﷺ

---

(١) « معجم البلدان » .
(٢) « معجم ما استعجم » .
(٣) « المناسك » : ٥٤٠ / ٥٤١ .
(٤) « معجم ما استعجم » .

ثم تسلك وادياً يقال له الدومة ، وبه آبار ، ثم أشمذ – جبل – ثم الشقة – وهي حرّة ، ثم نمار ، وهي من خيبر على ستة أميال ، وأول حدّ خيبر الدومة [1] .

* النُّوَيْطَةُ : بئر فوقها نخل ، تقع في الشمال الشرقي من بيضاء نثيل بقربها .

* نيَّان : موضع في بادية الشام في قول الكميت :

من وحش نيّان أومن وحش ذي بقر أفنى حلائله الإشلاءُ والطّرد

وقال ابن ميادة :

وبالغمر قد جازت وجاز حمولها فسقى الغوادي بطن نيان والغمرا

وهذه مواضع قرب تيماء بالشام .

وقال البكري[2] : نيان بلد كثير الوحش ، قال الكميت :

وأدْن إلى ريان هوجا كأنها بجوصل ، أو من وحش نيان رَبرب

وقال النابغة :

حتي غدا مثل نصل السيف منتصلتا يعلو الأماعز من نيان والأكما

وقال عطاف بن شعفرة الكلبي :

فما ذرّ قرن الشمس حتى كأنهم بذي النعف من نيا ، نعام نوافر

قال كراع : أراد نيان فحذف .

وأقول : نيان : بفتح النون وتشديد الياء المفتوحة الممدودة بعدها نون : يعرف الآن نيال – بنون وياء مشدوة مفتوحة ممدودة – بعدها لام – أي

---

(١) « المناسك » ص ٥٣٩ و « معجم ما استعجم » .
(٢) : « معجم ما استعجم » .

إن النون أبدلت لاما، وهو واد ينحدر من الجبال الواقعة في منتصف الطريق بين تيماء وتبوك جنوب القليبة الدرجة ٢٠َ/٣٧ْ طولاً ويتجه مشرقاً ثم يعرج نحو الشمال الشرقي حيث تقع فيه بئر العسافية «عند الدرجة ٠٠َ/٢٩ْ طولاً تقريباً و ١٥َ/٢٨ عرضاً شمالياً » ثم على مسافة قريبة منها يفيض في الطرف الغربي من رمال النفود الكبير الفاصل بين حايل والجوف ووادي نيان ووادي فجر الواقع شمال نيان أشهر الأودية الواقعة في تلك الجهة ، وفروع الواديين متقاربة ، ما وقع عن القليبة شرقاً وشمالاً يصب في ثجر، ومنها وادي القليبة وما وقع عنها في الجنوب الشرقي من فروع نيان .

* الوادي : يطلق على قرية في واد من أودية خيبر جنوب مكيدة .

* وادي الجلاس : من أودية خيبر ، مضاف إلى الجلاس قبيلة من عنزة ، أعلاه الجلحاء ، وأسفله الشق ، وفيه من القرى : النطاة وأبو وشيع ، وقرية نحا « بالنون بعدها حاء مهملة » .

* وادي الَجوْل : هو أعلى واد الدِّيسة ، ينحدر من الرأس الأبيض حتى يصب في السُّرَير .

* وادي الَخرَزة : من أودية خيبر ، يفيض من وادي الحصيد ، ويصب في خيبر .

١ — * وادي الدَّوْم : واد معترض من شمالي خيبر إلى قبليّها ، أوله من الشمال : غمرة ، ومن القبلة : القصيبة ، وهذا الوادي يفصل بين خيبر والعوارض[1] (؟) .

وأقول : — ١ — أرى أن كلمة العوارض تحريف كلمة (عويرض) ويقصد بها حرَّة تقع شمال خيبر، يفصل بينها وبين حرة خيبر أودية عظيمة ، من أعظمها وادي العُلا ، ووادي الجزل [2] .

---

(١) « معجم البلدان »
(٢) لزيادة الايضاح انظر مجلة « العرب » السنة الرابعة ص ٢٥٦ / ٢٥٧ .

٢ – وادي الدَّوْم : واد عظيم يكثر فيه شجر الدَّوْم ، ويدعى وادي الغرَس ، ووادي الثمد ، والثمد قرية حديثة فيه . ويقع بين المدينة وخيبر ، ويبعد عن خيبر بـ ٢٠ كيلاً (عشرون) وهناك وادٍ آخر يدعى واديالدوم ، ولكنه أصغر منه ويقع في الطريق أيضاً ، وهو أقرب إلى خيبر .

* وادي الزايدية : من أودية خيبر ، ومن قراه : الشُّرَيف والحصون . ووقع في كتاب « جزيرة العرب » لحافظ وهبة [١] : (زَيدية) خطأ ، ووصفه بأنه أكبر أودية خيبر ، وتقع البلدة الرئيسية فيه . وهذا صحيح .

* وادي السِّرحان : جوف منخفض من الأرض ، تجتمع فيه سيول أودية كثيرة تنحدر إليه من الغرب ومن الشرق، فتكون أراضي تكثر فيها الاملاح (سبخات) وخاصة في طرفه الشمالي حيث القُريَّات وما حولها من السبخات التي يستخرج منها الملح . وفي وسطه توجد سبخة (حضوضى) الواقعة بقرب قرية العيساوية .

واسم وادي السرحان يطلق على الأرض الممتدة بين النبك أبو قصر أو النبك الأسفل الواقع في الطرف الجنوبي للوادي ، والنبك الأعلى ويسمى النبك أبو نخلة ، ويتجه الوادي نحو الشمال حتى يبتلع سيوله سهل الرشراشية في شرق قرية الحدِيثة .

وتحدث عدد من السائحين الغربيين عن وادي السرحان منهم جورج أغسطس والان الذي زار شمـــال نجد سنة ١٨٤٥ [٢] ومرَّ بالوادي برفقة ثلاثة من بدو الشرارات .

ويسيل وادي السرحان من حوران صوب الجنوب والشرق حتى ينتهي إلى الجوف ، ويبلغ طوله ٢٠٠ ميل وعرضه يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ ميلاً ، وينخفض في بعض أطرافه بنحو ألف قدم عن الأراضي المجاورة له ، وفي

---

(١) ص ٢١ الطبعة الرابعة .

(٢) « اكتشاف جزيرة العرب » ٢٨١ .

جانبيه واحات خصبة . ويبعد عن الرياض بنحو ١٤٥٥ كم . وكان يدعى وادي الأزرق ، ولما نزله عرب السراحين منذ أكثر من ٢٠٠ سنة أصبح يُعرف باسمهم ، والسرحان الذين نسب إليهم هذا الوادي قبيلة عريقة في القدم ، بطن من الاسبع من كلب بن وبرة من قضاعة ، من القحطانية ، وتنسب إليهم عشيرة السراحين في قضاء بئر السبع الفلسطيني والهديبات في جبل الخليل [١] .

وتصف آن بلانت وادي السرحان بأنه منخفض فوضوي غريب ، من المحتمل أنه قاع لبحر قديم ،مثل البحر الميت ،وهو هنا ــ عند بلدة كاف ــ ذو اثني عشر ميلاً عرضاً ، إذا كان لنا أن نحكم بالتلال التي نراها خلفه ، والتي هي بدون شك المرتفعات المقابلة للحوض . وتوجد آبار عديدة ، عريضة وضحلة لأن الماء على عمق ثمانية أقدام فقط من سطح الأرض ، والماء صالح للشرب ، وغير ممتاز ، وعبرنا بحيرة مالحة واسعة ، وهي الآن جافة ، ومنها يجمع الملح للقوافل .

وقالت : إن طريقنا يمتد على طول حافة الوادي ، نعبر أحياناً رؤوساً صخرية من السهل الأعلى ، وأحياناً أخواراً من الوادي ، وكان ارتفاعها دائماً نوعاً ما واحداً (٢٢٥٠) قدماً ، و (١٨٥٠) انخفاضاً ـ وهكذا يمكن أن تؤخذ هذه على أنها الارتفاعات المقابلة لـ (الحمّاد) ووادي السرحان . وبالاضافة إلى ذلك ، يوجد هنا وهناك تلال منعزلة ، بارتفاع يزيد بما يتراوح بين ثلثمائة وأربعمائة قدم عن أي منها ، أرض صخرية صعبة متكسرة طول اليوم ، مكونة بصفة أساسية من رمال مع حصى ملحية منثورة عليها ، والنبات شحيح على الأرض المرتفعة ، ولكنه أوفر في التجويفات. وفي وهدة متعرجة تقود إلى الوادي ، وجدنا شجرات (الغضا) ، وغير ذلك لا شيء أكثر من أعشاب .

---

(١) « الجزيرة العربية » تأليف مصطفى مراد الدباغ ـ ١ / ١٧٤ .

وقالت : وفي وسط الوادي سهل مستوي من الرمل والحصا مع رواب من الرمل الأبيض النقي ، هنا وهناك مغطاة بالغضا . انتهى .

وتنحدر في وادي السرحان أودية كثيرة من الغرب ومن الشرق ، ومن الشمال ، فيبتلع سيولها ولا تخرج منه ، ولا تجتمع في مكان واحد منه ، بل منها ما يكون في شماله حيث تفيض بالرشراشية ، ومنها ما يكون بوسطه حيث تختفي بسبخة حضوضى ، وما حولها ، ويقع الوادي بين الدرجة ٢٨َ / ٣٧ْ و ٠٠َ / ٣٩ْ طولاً شرقياً و ٥٠َ / ٢٩ْ و ٣٠َ / ٣١ْ عرضاً شمالياً ، تقريباً .

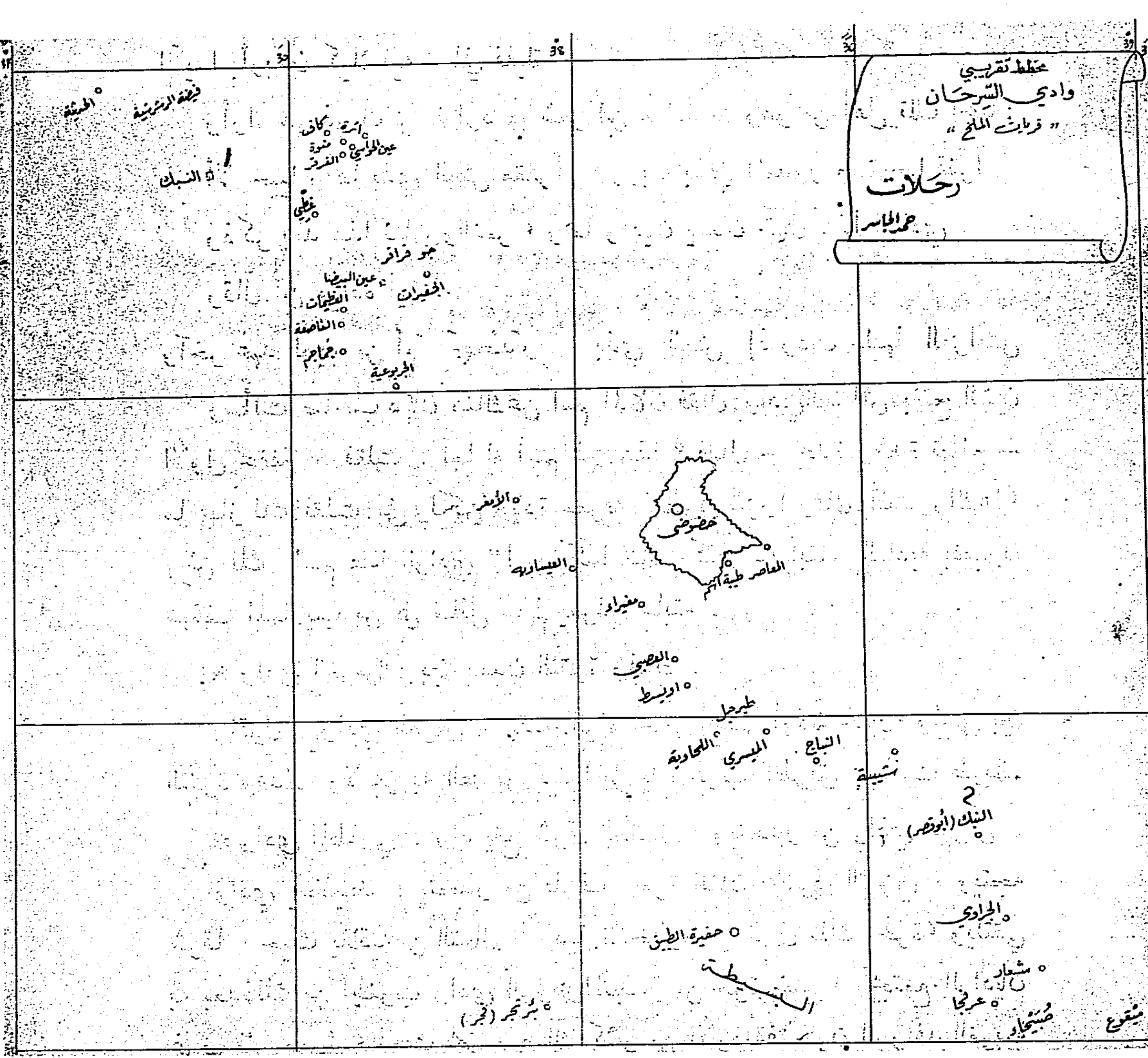
وأهم الأودية التي تفيض فيه من الغرب (ابتداء من الشمال) :
١ - شعيب المخروق ٢ - حصيدة الشمالية ٣ - حصيدة الجنوبية الشرقية ٤ - باير ٥ - الناصفة ٦ - جماجم ٧ - سمرْمِدة ٨ - الغرّاء ٩ - الحصاة ١٠ - شعبان الفكوك ١١ - مُغيراء ١٢ - حِدْرج ١٣ - الغَيْنة ١٤ - النباج ١٥ - الجراوي

- ثم من الشرق (من الجنوب) ١ - شعيب المفرجية ٢ - وادي القطب ٣ - معارك ٤ - النبك أبو قصر ٥ - الخشّابي ٦ - شعبان الغرايس ٧ - السّندلة ٨ - الأُعيلي فشيبة ٩ - سليليك فالمعاصر ١٠ - شعبان المِسْمى ١١ - المابية ١٢ - أبو طرفاء ١٣ - كِتَب الشامة ١٤ - الضاحكية ١٥ - شعيب المخروق (والأخيران من الشمال حيث يفيضان في الرشراشية) ويفصل بينه وبين منخفض الجوف رمال تدعى عُريق الدّسْم ، والظاهر أنها تراكمت في مكان منخفض يصل الوادي بالجوف ، فيكونان منخفضاً واحداً كما يفصل بينهما آكام جريئز والقصّاص وما يتصل بها .

وذكر الأستاذ الدكتور كاسكل[١] (W. CASKEL) في كتاب خاص

(١) توفي في هذا العام .

بعث به إليّ بتاريخ ٨ / ١١ / ١٩٦٨ ما نصه : (بنو القين رحلوا من الحرّة الرجلاء، وهي في جنوب جبل حوران ، ومن رأس السرّ ، وهو يسمى الآن وادي السرحان إلى وادي ثجر ، وقد مرّوا بأبير ، وثجر تقريباً ١٥٠ كم في شمال تيماء) .



(خريطة وادي السرحـــان)

* وادي السلاليم : من أودية خيبر ، ومن قراه السلاليم .

* وادي السلمة : من أودية خيبر في سفح جبل عطوة ، ومن قراه : الفِقْرَة والمشرقة ومكيدة .

* وادي العشاش: واد يبعد عن خيبر ٤٩ كيلا بينه وبين تيماء قبل حفيرة الأيدا بأربعين كيلا فيه مباني قليلة .

وأراه هو ذو العش الوارد في شعر ابن ميادة — وهو من أهل تلك الجهة:

ألا حييا رسماً بذي العش مقفراً وربعاً بذي المدور مستعجما قفرا

وذكر بعد هذا نيان والغمر ، وهما واديان يقعان شمال هذا الوادي .

وقال ابن ميادة أيضاً :

وآخر عهد العين من أمّ جَحْدَرٍ بذي العش إذ ردت عليها العرامس

وسألت صاحب دكان هناك عن اسم المكان فقال: وادي العشاش «بفتح الشين الأولى مخففة » فقلت : أما له اسم غير هذا ؟ فقال — بحدة وشدة تطلع — ما جاز لك؟ فقلت: بلى ولكن زيادة معرفة. فنظرني شزراً وقال: أنت وراك علم، وِش لك باسم هذا الوادي ؟! وهكذا حالة كثير من أبناء البادية يقصون موقف المستريب من كل سائل ما لم يعرفوا غايته .

* وادي الغرس : بين معدن النقرة وفدك .

وأقول : وادي الغرس — بفتح الراء — من أعظم أودية خيبر، وليس بين النقرة وفدك، ولا يمر به الطريق بينهما بل يقع غرب الطريق بمسافات طويلة.

* وادي المطاوي : واد يقع شرق العُقَيلة ، وينحدر من وادي الغرس .

وادي مِخْيَط : ينحدر من طرف حرة اتنان الجنوبي الشرقي ، ويتجه شرقاً ، حيث يلاقيه من الشمال الأودية المنحدرة من شرق تلك الحرة، ويلتقي به بعد ذلك من الجنوب وادي الروض المنحدر من حرة خيبر، ويجتمع الواديان غرب بئر معرش، حيث يجتمع هناك كثير من الأودية فتكون الروافد الغربية لوادي الرمة .

ويقع أعلى وادي مخيط بقرب الدرجة ٢٧َ/٤٠ْ طولاً و ٢٨َ/٢٦ْ عرضاً ولم أر من ذكر هذا الوادي سوى الهجري الذي عدّه فاصلاً بين حرة النار وحرة ليلى [١] .

* وادي الناقة : (انظر المشقق) .

* وادي وَجْدة : من أودية خيبر ، ومن قراه : وَجْدَةُ ، وَعيْبةُ ، وعُيَيبة .

* وَجْدَةُ : حصن من حصون خيبر تقدم ذكره . به نخلٌ وأشجار ، وهو لرسول الله ﷺ [٢] . وأقول : وَجْدَةُ : بفتح الواو بعدها جيم ساكنة ، فدال مهملة مفتوحة ، فهاء : قرية تقع غرب الشُّرَيف، وغرب مكيدة أيضاً في سفح جبل عَطوَة (عَطْوَى) وهي من أشهر قرى خيبر ويبلغ عدد سكانها ألف نسمة تقريباً .

* وَخْدَة : – بالفتح ثم السكون ودال مهملة وهاء، والوخد سعة الخطو في المشي – قَرْية من قرى خيبر الحصينة . كذا قال ياقوت وأرى الاسم تصحيف وجدة – بالجيم – ولا تزال القرية معروفة بالجيم .

* الورايق : أنشد الهجري – من أبيات – :

تَرَى أدَبِيّاً – يا لك الخير – حائِلاً ورُكن قَنَا من دون هَضْبِ الورائق

أدَبِي : وزن عَدَنِيّ – بجرّ الباء وفتح العين ، وتنسب إليه أدبي – وهضب الورايق بين فدك وبين قنا ، عن فدك بميلين [٣] .

وأقول : ينبغي ادراك الفرق بين هضب الورائق هذه القريبة من فدك وبين هضب الوراق الواقعة غرب فيد بقربه . هضب الوراق تلي أذنة واذنة جبل بينه وبين فيد ١٢ ميلاً، ويدع المصعد هضب الوراق على يساره ، وهي بطرف جبل القنان الواقع بجوار جبل حبشي ويوجد في الشمال الشرقي من فدك

---

(١) أبو علي الهجري : ٢٣١ . (٢) « المناسك » - ٥٣٩ و « معجم ما استعجم » .
(٣) « ابو علي الهجري » : ١٨٢ .

(الحائط) جبل يدعى الهضب يجاور جبل يثقب قد يكون هو هضب الورائق ولكن المسافة بينه وبين فدك اكثر من خمسة أميال ، أما أدبيٌ فلا يزال معروفاً ، يقع شرق الهضب ويثقب ، وبينه وبينها جبل الرخة (أدبي يقع على الخط ١٠َ / ٤١ْ طولاً و ٨َ / ٢٦ْ عرضاً تقريباً ، وكتب في الخريطة ضبي خطأ Dibiy [١] .

* وَسْعَةُ الروض : – الوَسْعَةُ المكان المتسع – ويطلق هذا الاسم على قرية تقع في الشمال الغربي من الحائط (فدك) وغرب الروض ، ويقدر عدد سكانها بـ ٣٠٠ نسمة وهم من الرشايدة (هُتَيْم) .

* الوشواش:قرية صغيرة ذات نخل في وادي السرحان، تقع جنوب قارة رضوى ، يفصل بينهما برقاء تدعى برقاء الوشواش .

* الوطيح : مزارع وأموال في خيبر في أصل جبل الأهيل ، والوطيح متصل بالوادي [٢] وقال الهمداني: سمي بالوطيح ابن مازن، رجل من ثمود[٣]

وأقول : يقع الوطيح – ويطلق الآن على نخيل – بقرب أم كدا . فيما بينها وبين الشريف . (وانظر حصن الوطيح في حصون خيبر) .

(هـ)

* هُديب: منهل لبادية الرولة يقع شرق سكاكة، وجنوب صوير بين جبال الجوبة الشرقية ، ونفيد سكاكة يقع بقرب الدرجة ١َ/٣٠ْ طولاً و ٢٨َ / ٤٠ْ عرضاً .

* هِدنة : واد يقع بطريق المدينة إلى خيبر ويبعد عن خيبر ١٤ كيلا « أربعة عشر » وسيله يفضي إلى وادي خيبر .

ويسمى وادي هدنة وادي الدوم أيضاً، ووادي الصلصلة يفيض فيأسفله.

* الهمج : ماء بين خيبر وفدك ، وبين فدك والمدينة ست ليال[٤] .

---

(١) : « المناسك » ٥٤٠ .

(٢) : « معجم ما استعجم » .

(٣) : « طبقات ابن سعد » ٢/٩٠ .

* الهوج (بضم الهاء كأنه جمـــع هوجاء) : أرض واسعة ذات رمال وآكام ، وأودية تقع على بعد ١٤٠ كيلاً شمال تـيماء ، وتقع شرق تبوك ، وسيول وادي ثجر ووادي نيان تتجه لهذه الأرض وتفيض في جوانبها ، وفي الهوج موارد قليلة الماء منها : هوجـــاء ومشاش مضيان ومليح ، وأقرب المناهل منها بئر ثجر ، ولم أر لإسم الهوج ذكراً فيما بين يدي من الكتب، وأقرب وصف لها هو دجوج على ما بين الاسمين من اختلاف كبير .

* هوجاء: قرية صغيرة تقع غرب طريق القريات– تيماء (بقرب الدرجة ٢َ / ٣٨ْ طولاً و ٥٩َ / ٢٨ْ عرضاً .

* يثقب : قال النابغة :

أرسماً جديداً من سعـــاد تجنَّب   عفت روضة الأجداد منه فيثقب[1]

قال الهمداني : وبيثقب روضة الأجداد التي ذكرها النابغة [2] .

وأقول : يثقب هذا جبل يقع جنوب الروضة (روضة الأجداد قديماً) يرى منها رأي العين – وهو يقع في ضغن الحرة ، أي ما أسهل منها، وسيل جبل يثقب ينحدر شرقاً إلى وادي الحليفة أحد الروافد القوية لوادي الرمة، ويقع يثقب في الشمال الشرقي من قرية الحائط (فدك قديماً) على مسافة تقارب ٢٠ كيلاً (بقرب الدرجة ٣٠َ/٤٠ْ طولاً و ٣َ/٢٦ْ عرضاً) .

(ي)

* يديع – بياءين بينهما دال مكسورة مهملة وعين – ناحية بين فدك وخيبر ، بها مياه وعيون لبني فزارة وبني مرة ، بعد وادي اختال . وقيل ماء همج . وقيل بالباء وهو تصحيف [3] .

يديـع : قريـة لولد الرضا ، بها أخلاط من الناس ، وهي كثيرة الرمان

(١) : « ديوان النابغة : تحقيق الدكتور شكري فيصل : ٧٣ - .
(٢) : « صفة جزيرة العرب » - ١٢٩ - .   (٣) كتاب نصر .

والنخل وبها عيون كثيرة ، ثم تركب الحرة عشرة أميال ثم تهبط إلى فدك[1].

وفي « صفة جزيرة العرب[2] » للهمداني :

روّيتْ خَنْبَرٌ لها فيدنْعٌ ديمة كان نوءها الجوزاء

وقال البكري البديع أرض من فدك ، وهي مال المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي ، وكان المغيرة هذا أجود أهل زمانه ، وكان ابن هشام بن عبد الملك بن مروان ، يسومه ماله ببديع هذا ، لغبطته به ، فلا يبيعه إياه ، إلى أن غزا معه أرض الروم ، وأصاب الناس مجاعة في غزاتهم ، فجاء المغيرة إلى ابن هشام ، وقال له : قد كنت تسومني مالي ببديع ، فأبى أن ابيعكه ، فاشتر مني نصفه ، فاشترى منه نصفه بعشرين الف دينار ، واطعم بها المغيرة الناس ، فلما رجع ابن هشام من غزاته قال له أبوه : قبح الله رأيك ، أنت ابن امير المؤمنين ، وأمير الجيش ، تصيب الناس معك مجاعة فلا تطعمهم ، ويبيعك رجل سوقةٌ مالَه ويطعمهم ، أخشيت أن تفتقر أن أطعمت الناس[3] .

وأقول : تصحف على البكري يديع – بالياء المثناة آخر الحروف ، فظنه بالباء – وكتبه في الكلام على فدك يربغ – فصحفه تصحيفاً ثانياً ، وفي كثير من الكتب صحف هذا الاسم ، ويديع يعرف الآن باسم الحُوَيّط . ويَقع في حرَّة خيبر في شرقها ، ويبعد عن خيبر – نفسها – بما يقارب ١٠٠ كيل ولكن الطريق غير معبد ، ولا تسير فيه السيارات (الدرجة ٢٧َ / ٤٠ْ طولاً شرقياً و ٣٢َ / ٢٥ْ عرضاً شمالياً تقريباً) .

* يردوح : – أو يردوج – ورد هذا الاسم في وصف الطريق بين المدينة وخيبر ، في « المناسك » و « معجم ما استعجم » ، ورد الاسم غير مضبوط (يردوح) ومثل هذه الصورة تقرأ على وجوه كثيرة ، ومع أنها ذكر أن فيه مسجداً لرسول الله ﷺ ومع عنايـــة المتقدمين لتحديد الآثار النبوية ،

(١) « المناسك » : ٥٤٢ . (٢) ص : ٢١٩ .

(٣) « معجم ما استعجم » ص ٢٣٢ ج ١ .

وخاصة المساجد فإنني لم أر لهذا الموقع تحديداً .

* يُمَنْ : بالفتح – ويروى بالضم – ثم السكون ونون مـــاء لغطفان بين َقوٍّ ورؤاف على الطريق بين تيماء و َفيْد ، وقيل هو ماء لبني صرمة بن مرة وسماه بعضهم أمن ، وينشد قول زهير :

عفا من آل فاطمـــة الجواء فيُمْنٌ فالقوادم ، فالحساء

وقال : [عامر بن الطفيل]

الا من مبلـــغ أسماء عنّي ولو حلَّتْ ِبيُمْنٍ أو ُجبَار [1]

وقد أرسل الرسول ﷺ في سنة سبع من الهجرة سرية إلى جبار ويُمْن. في شوال حين بلغه أن غطفان جمع رئيسها عيينة بن حصن جمعاً لغزو الرسول ﷺ فأرسل ﷺ بشير بن سعد ومعـــه الدليل حسيل بن نويرة الأشجعي دليل الرسول ﷺ إلى خيبر ، فانهزم جمع عيينة و ُقتل َعبْدٌ له ، وأصابت السرية إبلاً وغنماً ، وانهزم عيينة ، ولقيه الحارث بن عوف منهزماً فقال : قد آن لك يا عيينة أن تقصر عما ترى [2] .

ويمن هذا لا يزال معروفاً باسم (بئـْر يمْن) باسكان الميم أما الياء فبين الحركات الثلاث كعادة نطق العامة ، وفوق البئر قصيرات قليلة فيها سكان قليلون ، وتقع بئر يمن هذه شرق الطريق من خيبر إلى تيماء قبل الوصول إلى حفيرة الأيداء ، وبئر يمن يقــع في الجنوب الشرقي من حفيرة الأيداء ، وقبل الوصول إلى وادي َقوٍّ ، الواقع شمال ُيمْنٍ ، وبعض فروعه قريبة من يمن ، أما رؤاف فهو جبل لا يزال معروفاً ، يقع شمال يمن في الجهراء وهي مايعرف قديماً باسم الجناب ، ويدع وادي َقوٍّ جبل رؤاف شرقه .

(يمن بقرب الدرجة ١٦َ / ٣٩ْ طولاً و ٢٦َ / ٢٦ْ عرضاً) .

(ورؤاف بقرب الدرجة ٠٠َ / ٣٩ْ طولاً و ٥٨َ / ٢٦ْ عرضاً) .

---

(١) « معجم البلدان » .

(٢) « طبقات ابن سعد » ٢/١٢٠ و ٣/٥٣٢ « تاريخ ابن جرير » ١/١٥٩٣ .

الفهـــــارس

٤ ـ فهرس المواضع

(لم نذكر أسماء المدن والمواضع الشهيرة مثل : مكة والمدينة ، وحايل ، والبحرين ، واليمن ، ولا المواضع الخارجة عن جزيرة العرب أيا كانت) .

(ت)

(ث)

(ح)

ـ خ ـ

ـ د ـ

ـ ذ ـ

ـ ز ـ

ـ س ـ

(ص)

(١) لم تذكر اسماء المواضيع فيه في الفهرس
(٢) لم تذكر اسماء المواضع فيه في هذا الفهرس
(٣) لم تذكر اسماء مواضعه في هـذا الفهرس
(٤) لم تذكر اسماء مواضعـــه في الفهرس

(غ)

(ف)

(ق)

(ن)

(و)

(هـ)

(ي)

٥ ـ القبائل والعشائر والأفخاذ :

١ - لم نذكر سوى من له صلة بموضوع الكتاب .

٢ - جرد الاسم من (آل ـ ال ـ أبناء ـ أولاد الخ)

٦ ـ الاعلام (الرجال والنساء)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ن)

٧ ـ الكتب

(لم نذكر سوى الكتب التي رجعنا اليها عند تأليف هذا الكتاب ، وقد بلغت اكثر من ١٢٠ كتابا وقد نكتفي بذكر اسم المؤلف) ٠

